أنا مدينة العلم وعلي بابها

في ظلال
نهج البلاغة

محاولة لفهم جديد

شرح

العلامة الشيخ محمد جواد مغنية

الجزء الثاني

وثق أصوله وحققه وعلق عليه
سامي الغريري

مؤسسة
دار الكتاب الإسلامي

www.haydarya.com

في ظلال نهج البلاغة

بحث

محاولة لفهم جديد

شرح

العلامة الشيخ محمد جواد مغنية

الجزء الثاني

وثق أصوله وحققه وعلق عليه

سامي الغريري

مؤسسة

دار الكتاب الإسلامي

مكتبة الروضة الحيدرية
الرقم: ٢٧٦٥٨
التاريخ: ٥/١٠/١٦

BP
٣٨/٠٢
/م٦
ف٩٠٣
.ق١٤٢٥
ج.٢

مكتبة الروضة الحيدرية
النجف الأشرف

بسم الله الرحمن الرحيم

جميع حقوق الطبع مسجله و محفوظه للناشر

الكتاب .... فى ظلال نهج البلاغة (ج ٢)

المؤلف .... العلامه محمدجواد مغنية رحمه الله

الناشر........................... دارالكتاب الاسلامي

الطبعه .... الاولى ١٤٢٥هـ. ق / ٢٠٠٥م

المطبعه.. مطبعة ستار

عدد النسخ .... (٢٠٠٠) نسخه

الترقيم الدولي للمجموعة: ٦ – ١٠٠ – ٤٦٥ – ٩٦٤

ISBN: 964 - 465 - 100 - 6

الترقيم الدولي (ج ٢): ٢ – ١٠٢ – ٤٦٥ – ٩٦٤

ISBN: 964 - 465 - 102 - 2

فهرس الموضوعات

اَلْخُطْبَةُ ـ ٥٦ ـ ١٥

كُنَّا مَعَ رَسُولِ اللهِ.. فِقْرَة ١ ـ ٢: ١٥

اَلْخُطْبَةُ ـ ٥٧ ـ ٢١

سُبُّوا وَلاَ تَتَبَرَّءُوا: ٢١

اَلْخُطْبَةُ ـ ٥٨ ـ ٢٧

أَ بَعْدَ الإِيمَان، وَالجِهَاد مَعَ رَسُولِ اللهِ؟ ٢٧

اَلْخُطْبَةُ ـ ٥٩ ـ ٣٧

حَوْلَ الْخَوَارِج: ٣٧

اَلْخُطْبَةُ ـ ٦٠ و ٦١ ـ ٣٩

طَلَبَ الْبَاطِلَ فَأَدْرَكَهُ: ٣٩

اَلْخُطْبَةُ ـ ٦٢ ـ ٤٥

الأَجَلُ حَارِسٌ: ٤٥

اَلْخُطْبَةُ ـ ٦٣ ـ ٤٩

اَلدُّنْيَا فِتْنَةٌ: ٤٩

اَلْخُطْبَةُ ـ ٦٤ ـ ٥٣

آلآجَال، وٱلأَعْمَال... فِقْرَة ١ ـ ٢: ٥٣
عُمر ٱلإِنْسَان حُجَّة عَلَيْهِ..فِقْرَة ٣ ـ ٤: ٥٦
ٱلْخُطْبَةُ ـ ٦٥ ـ ٥٩
الكَمَال المُطلق...فِقْرَة ١ ـ ٢: ٥٩
ٱلْخُطْبَةُ ـ ٦٦ ـ ٦٧
عَضُّوا عَلَىٰ النَّوَاجِذِ: ٦٧
ٱلْخُطْبَةُ ـ ٦٧ ـ ٧١
بَيْنَ الْمُهَاجِرِين، والأَنْصَار: ٧١
ٱلْخُطْبَةُ ـ ٦٨ ـ ٧٥
مِصْر ومُحَمَّد بْنِ أَبِي بَكْرٍ: ٧٥
ٱلْخُطْبَةُ ـ ٦٩ ـ ٧٩
أَفْسِد نَفْسِي بِصَلاحِكُمْ: ٧٩
ٱلْخُطْبَةُ ـ ٧٠ ـ ٨٥
شَكْوَىٰ الإِمَام لِلنَّبِيّ: ٨٥
ٱلْخُطْبَةُ ـ ٧١ ـ ٨٧
ٱلْخُطْبَةُ ـ ٧٢ ـ ٩١
أَللَّهُمَّ صَلِّ عَلَىٰ مُحَمَّد وَآله..فِقْرَة ١ ـ ٢: ٩١
ٱلْخُطْبَةُ ـ ٧٣ ـ ١٠١
مَرْوَان بن الحَكَم: ١٠١
ٱلْخُطْبَةُ ـ ٧٤ ـ ١٠٧

أُسَالِمِ مَا سَلِمَتْ أُمُورُ ٱلْمُسْلِمِينَ: ١٠٧
لِلمِنْبَرِ ـ عَلِيّ وَأَعْضَاء ٱلشُّورَىٰ: ١٠٨
ٱلْخُطْبَةُ ـ ٧٥ ـ ١١١
أَنَا حَجِيجُ الْمَارِقِينَ: ١١١
ٱلْخُطْبَةُ ـ ٧٦ ـ ١١٥
كَابَرَ هَوَاهُ، وَ كَذَّبَ مُنَاهُ: ١١٥
ٱلْخُطْبَةُ ـ ٧٧ و ٧٨ ـ ١١٧
أَللَّهُمَّ ٱغْفِرْ: ١١٧
ٱلْخُطْبَةُ ـ ٧٩ ـ ١٢١
ٱلْمُنَجِّمُ كَاذِبٌ: ١٢١
ٱلْخُطْبَةُ ـ ٨٠ ـ ١٢٧
نَوَاقِصُ ٱلْعُقُول: ١٢٧
لِلمِنْبَرِ ـ عَلِيٌّ وَٱلْمَرْأَة: ١٢٧
ٱلْخُطْبَةُ ـ ٨١ ـ ١٣١
ٱلتَّوَرُّعُ عِنْدَ الْمَحَارِمِ: ١٣١
ٱلْخُطْبَةُ ـ ٨٢ ـ ١٣٣
ٱلدُّنْيا: ١٣٣
ٱلْخُطْبَةُ ـ ٨٣ ـ ١٣٧
أَنْتُمْ مُخْتَبَرُونَ، وَمُحَاسَبُونَ... فِقْرَة ١ ـ ٢: ١٣٧
ضَنْكِ الْمَضْجَعِ، وَوَحْشَةِ الْمَرْجِعِ..فِقْرَة ٣ ـ ٥: ١٤٢

وَجِلَ فَعَمِلَ...فِقْرَة ٦ ـ ٨: ١٤٧
ٱلْقُلُوبُ قَاسِيَةٌ لاهِيَةٌ...فِقْرَة ٩ ـ ١٣: ١٥٣
هَل أَعْضَاء ٱلإِنْسَان تَعْقِلُ؟ ١٥٧
ٱلْمجَاز عَلَىٰ ٱلصِّرَاطِ... فِقْرَة ١٤ ـ ١٦: ١٦٢
لِلمِنْبَرِ ـ حَوْلَ ٱلسِّرَاط: ١٦٤
حَوْلَ ألإِنْسَان...فِقْرَة ١٧ ـ ١٩: ١٦٨
لِلمِنْبَرِ ـ حَوْلَ ٱلذَّاكرةُ، والنُّطْقُ، وٱلبَصَرُ: ١٧١
هَلْ مِنْ مَنَاصٍ؟ فِقْرَة ٢٠ ـ ٢١: ١٧٦
ٱلْخُطْبَةُ ـ ٨٤ ـ ١٨١
وَ شَرُّ الْقَوْلِ ٱلْكَذِبُ: ١٨١
ٱلْخُطْبَةُ ـ ٨٥ ـ ١٨٩
دَرَجَاتٌ مُتفَاضِلاَتٌ: ١٨٩
ٱلْخُطْبَةُ ـ ٨٦ ـ ١٩٥
لَمْ يَخْلُقْكُمْ عَبَثاً...فِقْرَة ١ ـ ٢: ١٩٥
ٱلْحَسَدَ يَأْكُلُ الإِيمَانَ...فِقْرَة ٣ ـ ٤: ٢٠٢
ٱلْخُطْبَةُ ـ ٨٧ ـ ٢٠٩
نَظَرَ فَأَبْصَرَ...فِقْرَة ١ ـ ٢: ٢٠٩
يَصِفُ الْحَقَّ، وَيَعْمَلُ بِهِ...فِقْرَة ٣ ـ ٦: ٢١٢
كُلّ مُجْتَهِد مُصِيب: ٢١٤
لاَ تَسْتَعْمِلُوا الرَّأْيَ...فِقْرَة ٧ ـ ٩: ٢٢١

القِيَاس: ٢٢٥
اَلْخُطْبَةُ ـ ٨٨ ـ ٢٢٩
وَ مَا كُلُّ ذِي قَلْبٍ بِلَبِيبٍ: ٢٢٩
اَلْخُطْبَةُ ـ ٨٩ ـ ٢٣٥
الرَّسُول الْأَعْظَم...فِقْرَة ١: ٢٣٥
أَنَا مُسْمِعُكُمْ...فِقْرَة ٢: ٢٣٧
اَلْخُطْبَةُ ـ ٩٠ ـ ٢٤١
إِلَهُ الْخَلْقِ، وَرَازِقُهُ...فِقْرَة ١: ٢٤١
مَنْ تَوَكَّلَ عَلَيْهِ كَفَاهُ...فِقْرَة ٢: ٢٤٥
اَلْخُطْبَةُ ـ ٩١ ـ ٢٤٩
حَوْلَ صِفَاتِه تَعَالَىٰ...فِقْرَة ١ ـ ٤: ٢٤٩
مَنْ هُمْ الرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ؟ ٢٥٤
هُوَ الْقَادِرُ...فِقْرَة ٥ ـ ٨: ٢٥٥
قَدَّرَ مَا خَلَقَ...فِقْرَة ٩ ـ ١٢: ٢٦٠
خَلاَئِق مَعْصُومُون...فِقْرَة ١٣ ـ ١٦: ٢٦٩
حَلاَوَة اَلْمَعْرِفَة... فِقْرَة ١٧ ـ ٢٠: ٢٧٦
الْأَرْض...فِقْرَة ٢١ ـ ٢٣: ٢٨٢
عِلْم الطَّبِيعَة كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِى شَأْنٍ: ٢٨٦
السَّحَابُ تُحْيِي الْمَوَات...فِقْرَة ٢٤ ـ ٢٥: ٢٨٩
حَوْلَ آدَمَ...فِقْرَة ٢٦ ـ ٢٨: ٢٩٣

لِلمِنْبَرِ ـ حَوْلَ ٱلإِسْلاَم، وٱلْعَمَل: ٢٩٥
الأرْض، وٱلإِنْسَان: ٢٩٧
حَوْلَ عِلمَه تَعَالَىٰ...فِقْرَة ٢٩ ـ ٣١: ٣٠٠
لاَ كُلْفَةٌ، ولاَ مَلاَلَةٌ... فِقْرَة ٣٢ ـ ٣٣: ٣٠٣
ٱلْخُطْبَةُ ـ ٩٢ ـ ٣٠٧
ٱلْتمِسُوا غَيْرِي: ٣٠٧
ٱلْخُطْبَةُ ـ ٩٣ ـ ٣١٥
اَسْأَلُونِي... فِقْرَة ١ ـ ٢: ٣١٥
فِتْنَةُ بَنِي أُمَيَّةَ...فِقْرَة ٣ ـ ٤: ٣٢٩
ٱلْخُطْبَةُ ـ ٩٤ ـ ٣٣٥
قَامُوا بِدِينِ اللهِ...فِقْرَة ١ ـ ٢: ٣٣٥
ٱلْخُطْبَةُ ـ ٩٥ ـ ٣٤٥
حَوْلَ بِعْثَةُ النَّبِيِّ٩: ٣٤٥
ٱلْخُطْبَةُ ـ ٩٦ ـ ٣٤٧
أَلَّفَ بِهِ إِخْوَاناً: ٣٤٧
ٱلْخُطْبَةُ ـ ٩٧ ـ ٣٥٥
الْتَّخَاذِل عَنْ الْحَقِّ، وَالإِسْرَاعِ إِلَىٰ الْبَاطِلِ.. فِقْرَة ١ ـ ٣: ٣٥٥
يَا أَشْبَاهَ الإِبِلِ...فِقْرَة ٤ ـ ٦: ٣٦٣
ٱلْخُطْبَةُ ـ ٩٨ ـ ٣٦٩
بَنُو أُمَيَّةَ: ٣٦٩

آلْخُطْبَةُ ـ ٩٩ ـ ٣٧٣
كُلُّ مُدَّةٍ فِيهَا إِلَىٰ آنْتِهَاءٍ..فِقْرَة ١ ـ ٣: ٣٧٣
آلْخُطْبَةُ ـ ١٠٠ ـ ٣٧٩
رَايَةُ الْحَقِّ..فِقْرَة ١ ـ ٢: ٣٧٩
آلْخُطْبَةُ ـ ١٠١ ـ ٣٨٧
كُلُّهُ عَنِ النَّبِيِّ٩..فِقْرَة ١ ـ ٢: ٣٨٧
آلْخُطْبَةُ ـ١٠٢ ـ ٣٩٣
نِقَاشِ الْحِسَابِ، وَ جَزَاءِ الأَعْمَالِ: ٣٩٣
لِلمِنْبَرِ ـ حَوْلَ رَايَة الْبَغْي: ٣٩٦
آلْخُطْبَةُ ـ ١٠٣ ـ ٣٩٩
كُلُّ مُتَوَقَّعٍ آتٍ..فِقْرَة ١ ـ ٣: ٣٩٩
قِيمَةُ آلْعِلْم: ٤٠٢
آلْخُطْبَةُ ـ ١٠٤ ـ ٤٠٧
لَأَبْقُرَنَّ الْبَاطِلَ: ٤٠٧
آلْخُطْبَةُ ـ ١٠٥ ـ ٤١١
لاَ يُعْجِزُهُ مَنْ طَلَبَ..فِقْرَة ١ ـ ٢: ٤١١
وَظِيفَةُ الإِمَام.. فِقْرَة ٣ ـ ٤: ٤١٦
آلْخُطْبَةُ ـ ١٠٦ ـ ٤٢١
آلإِسْلاَم .. فِقْرَة ١ ـ ٢: ٤٢١
شَرِيعَة آلإِسْلاَم: ٤٢٢

وَٱحْشُرْنَا فِي زُمْرَتِهِ..فِقْرَة ٣: ٤٢٦
مُحَمَّدٌ، وعَلِيٌّ: ٤٢٧
لاَ يَغْضَبُونَ لله..فِقْرَة ٤ ـ ٥: ٤٢٩
ٱلْخُطْبَةُ ـ ١٠٧ ـ ٤٣٣
يَوْمٌ مِن أَيَّامِ صِفِّين: ٤٣٣
ٱلْخُطْبَةُ ـ ١٠٨ ـ ٤٣٧
أَشْبَاحٌ بِلاَ أَرْوَاح..فِقْرَة ١ ـ ٣: ٤٣٧
لِلمِنْبَرِ ـ أَينَ مَنْ يَخْلق مِنْ لاَ شَيء؟ ٤٣٩
وَغَارَ الصِّدْقُ، وَفَاضَ الْكَذِبُ... فِقْرَة ٤ ـ ٦: ٤٤٤
ٱلْخُطْبَةُ ـ ١٠٩ ـ ٤٥١
عَظَمَة الله تَعَالَىٰ..فِقْرَة ١ ـ ٢: ٤٥١
سُبْحَانَكَ خَالِقاً، وَ مَعْبُوداً!.. فِقْرَة ٣ ـ ٥: ٤٥٥
لاَ إِقَالَةَ، وَ لاَ رَجْعَةَ..فِقْرَة ٦ ـ ٨: ٤٦٠
مِن أَوْصَاف ٱلْقِيَامَة... فِقْرَة ٩ ـ ١١: ٤٦٣
لِلمِنْبَرِ ـ حَوْلَ ٱلْقِيَامَة: ٤٦٥
لِلمِنْبَرِ ـ حَوْلَ أَهْل المَعْصِيَة: ٤٦٨
اللهُ الْمُؤلِّف، وعَلِيٌّ الُمخْرِجْ: ٤٧٣
ٱلْخُطْبَةُ ـ ١١٠ ـ ٤٧٥
فَرَائِضُ ٱلْإِسْلاَم..فِقْرَة ١: ٤٧٥
ذِكْرُ الله، وٱلْقُرْآن..فِقْرَة ٢: ٤٨١

ٱلْخُطْبَةُ ـ ١١١ ـ ٤٨٥
غَرَّارَةٌ ضَرَّارَةٌ..فِقْرَة ١ ـ ٣: ٤٨٥
بِئْسَتِ الدَّارُ لِمَنْ لَمْ يَتَّهِمْهَا.. فِقْرَة ٤ ـ ٦: ٤٩١
ٱلْخُطْبَةُ ـ ١١٢ ـ ٤٩٧
حَقِيقَة ٱلْمَوْت: ٤٩٧
ٱلْخُطْبَةُ ـ ١١٣ ـ ٥٠١
العُمُرُ يَفْنَىٰ فِيهَا فَنَاءَ الزَّادِ..فِقْرَة ١: ٥٠١
أَسْمِعُوا دَعْوَةَ الْمَوْتِ..فِقْرَة ٢ ـ ٣: ٥٠٣
ٱلْمَذَاهِبُ ٱلأَرْبَعَة: ٥٠٥
ٱلْخُطْبَةُ ـ ١١٤ ـ ٥١١
إِيمَانَ مَنْ عَايَنَ الْغَيْب..فِقْرَة ١ ـ ٣: ٥١١
كَمْ مِنْ مَزِيدٍ خَاسِرٍ..فِقْرَة ٤ ـ ٥: ٥١٨
لِلمِنْبَرِ ـ حَوْلَ الدِّين، وٱلْحَيَاة: ٥٢١
ٱلْخُطْبَةُ ـ ١١٥ ـ ٥٢٧
أَللَّهُمَّ سُقْيَا مِنْكَ..فِقْرَة ١ ـ ٢: ٥٢٧
إِلَىٰ اللهِ المَفْزَع: ٥٢٨
أَنْتَ ٱلْوَلِيُّ ٱلْحَمِيدُ..فِقْرَة ٣: ٥٣٠
صَلاَة الإِسْتِسْقَاء: ٥٣٢
صَلاَة الأَعْرَابِي: ٥٣٤
ٱلْخُطْبَةُ ـ ١١٦ ـ ٥٣٥

نَسِيتُمْ مَا ذُكِّرْتُمْ: ٥٣٥
ٱلْخُطْبَةُ ـ ١١٧ ـ ٥٤١
أبذلوا مَالَ الله عَلَىٰ عِبَادِهِ: ٥٤١
مُعْظَم الزُّعْمَاء وَبَعْض الْعُلَمَاء: ٥٤١
ٱلْخُطْبَةُ ـ ١١٨ ـ ٥٤٣
أَنْتُمْ الأَنْصَار: ٥٤٣
ٱلْخُطْبَةُ ـ ١١٩ ـ ٥٤٥
أ مُخْرَسُونَ أَنْتُمْ؟.. فِقْرَة ١ ـ ٢: ٥٤٥
ٱلْخُطْبَةُ ـ ١٢٠ ـ ٥٥٣
شَرَائِعَ الدِّينِ وَاحِدَةٌ: ٥٥٣
ٱلْخُطْبَةُ ـ ١٢١ ـ ٥٥٧
هَذَا جَزَاءُ مَنْ تَرَكَ الْعُقْدَةَ..فِقْرَة ١: ٥٥٧
أَقْبَلُوا النَّصِيحَةَ.. فِقْرَة ٢ ـ ٣: ٥٦٠
فَهْرَس الْمُوضُوعَات ٥

الخطبة

-٥٦-

كُنَّا مَعَ رَسُولِ اللهِ.. فِقْرَة ١ ـ ٢:

وَ لَقَدْ كُنَّا مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ ، نَقْتُلُ آبَاءَنَا ، وَ أَبْنَاءَنَا ، وَ إِخْوَانَنَا ، وَ أَعْمَامَنَا : مَايَزِيدُنَا ذَلِكَ اِلاَّ إِيمَاناً ، وَ تَسْلِيماً ، وَ مُضِيّاً عَلَىٰ اللَّقَمِ ، وَ صَبْراً عَلَىٰ مَضَضِ الْأَلَمِ ، وَ جِدّاً فِي جِهَادِ الْعَدُوِّ ، وَ لَقَدْ كَانَ الرَّجُلُ مِنَّا ، وَ الْآخَرُ مِنْ عَدُوِّنَا يَتَصَاوَلاَنِ تَصَاوُلَ الْفَحْلَيْنِ ، يَتَخَالَسَانِ أَنْفُسَهُمَا : أَيُّهُمَا يَسْقِي صَاحِبَهُ كَأْسَ الْمَنُونِ ، فَمَرَّةً لَنَا مِنْ عَدُوِّنَا ، وَ مَرَّةً لِعَدُوِّنَا مِنَّا ، فَلَمَّا رَأَىٰ اللهُ صِدْقَنَا أَنْزَلَ بِعَدُوِّنَا الْكَبْتَ ، وَأَنْزَلَ عَلَيْنَا النَّصْرَ ، حَتَّىٰ اَسْتَقَرَّ الْإِسْلاَمُ مُلْقِياً جِرَانَهُ ، وَ مُتَبَوِّئاً أَوْطَانَهُ . وَلَعَمْرِي لَوْ كُنَّا نَأْتِي مَا أَتَيْتُمْ ، مَا قَامَ لِلدِّينِ عَمُودٌ ، وَ لاَ اَخْضَرَّ لِلْإِيمَانِ عُودٌ . وَاَيْمُ اللهِ لَتَحْتَلِبُنَّهَا دَماً ، وَ لَتُتْبِعَنَّهَا نَدَماً !

اللُّغَة:

اللَّقَم ـ بِتَشدِيد اللاَّم ، وَفَتح القَاف ـ الطَّرِيق الْوَاضِح . ومَضَضِ الْأَلَم : حرقته ، يَتَصَاوَلاَنِ : يَحمل كلّ عَلىٰ صَاحبه . ويَتَخَالَسَانِ : يَنتهبَان أي كلّ مِنْهُمَا يُريد أنْ

يَنْتَهِب نَفس الآخر. والْكَبْتَ: الإِذلاَل. وجِرَانَ البَعِير: مَنحرَه، أو مُـقَدَّم عُـنقه. وَتَبَوّأ الأَوْطَانَ: سَكَنَها.

الْإِعْرَاب:

إِيمَاناً تَمْيِيز، ومِنَّا مُتَعَلِّق بِمَحْذُوف حَالاً مِن الرَّجُل، ومِنْ عَدُوِّنَا حَال مِن ٱلآخَر، وجُمْلَة يَتَصَاوَلاَن خَبَر كَانَ، وأَيُّهُمَا يَسْقِي مُبْتَدأ، وخَبَر، ومُلْقِياً حَـال، وجِـرَانَـهُ مَفْعُول لـ«مُلْقِياً» وجُمْلَة نَأْتِي خَبَر كُنَّا، ومَا قَامَ جواب لَوْ، وَٱيْمُ اللهِ مُبْتَدَأ. والْخَـبَر مَحْذُوف وجُوبَاً أي قَسمي، وَدَمَاً تَمْيِيز، ومِثْله نَدَماً.

الْمَعْنىٰ:

(وَ لَقَدْ كُنَّا مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ، نَقْتُلُ آبَاءَنَا، وَ أَبْنَاءَنَا، وَ إِخْوَانَنَا، وَ أَعْمَامَنَا). إنّ فِي ٱلإِنْسَان العَدِيد من الْقِوَىٰ، والْغَرَائِز، ومِن أهمهَا غَرِيزَة الْغَضب، والثَّـورَة... وتوجد فِي الْصَّغِير، والْكَبِير، وفِي العَالِم، والْجَاهِل، بل وفِي ٱلْحَيَوَان. وتَخْتَلِف ثَورَة ٱلإِنْسَان بِحَسب دَوَافعها، وأهدَافها، فَقَد يَكُون قَوِيَاً، أو ضَعِيفَاً، وَقَد لا يَـظهر لهُ أي أَثر خَوْفاً مِن مَحذُور أَشَد، وأَخطَر... وأيضاً قَد يَكُون الدَّافِـع خَـاصاً كـمَن يَثور، وَيَغضَب لرَغِيفه، أو عِرضه، وقَد يَكُون عَامَاً كالثَّورَة ضِدّ سُلطة مُستَبِدة، أو نظَام جَائِر، أو دين، أو مَبدأ بَاطِل، وَقد دَلت التَّجَارِب أنّ الثَّـورة مـن أَجـل الصّالح العام يَسْتَحِيل أنْ تَأْتي بخير إِذَاكَانَتْ مُشتتة، مُفتنة، أوكَانَ قَائدها جَاهلاً، أمّا إِذَاكَانَ خَائناً؛ فَإِنَّهَا تَأْتي بعَكس الهَدَف.

وقد ٱستطَاع رَسُول الله أنْ يَتجه برُوح الثَّورَة فِي كلّ فَرد من أَصْحَابِه، وأتبَاعه

نحو هَدَف وَاحد، وهو تَغيير المُجتَمع من جذُوره، وأسَاسه فِي عَقِيدَته، وَعَادَاتـه، ٱستطاع هَذَا بعد أنْ أقنع أَصْحَابه بالحُجّة الظَّاهِرة، والدَّلِيل القَـاطع أنّـه يـتَكَلَّم بلِسَان الله لا بلِسَانه، وَبِـوَحي مـن السَّماَء لا مـن ٱلأَرْض، ﴿وَمَـن يُشَاقِقِ ٱللَّـهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ ٱللَّـهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾(١)... وَلاَ عُـذر له بحَـال عـند الله، وَلاَ عِـند ٱلْمُسْلِمِين، إذ لا إجتهَاد فِي مَورد النّص، وَلاَ فِي تَفْسِيره مَـا دَام المُـفسر الأصـيل مَوجُوداً.

وَهَذَا هو الفَرق بَيْنَ الرَّسُول، والإمَام عِند مَن لا يُؤْمِن بِعصمَته... وبِهَذَا نَجـد التَّفْسِير الصّحِيح للفَرق بَيْنَ مَن قَاتل مَع الرَّسُول، ومن قَاتل مَع الإمَام... فـلقد كَانَ أمر الرَّسُول بِقَتل ٱلآبَاء، وَالأَبْنَاء، وَالإخْوة، وَالأَعْمَام علىٰ الشّرك أمراً مـن الله، ومَن خَالفه فَقد مَرق من الدّين فِي عَقِيدَة ٱلْمُسْلِمِين، ولَـيْسَ الأَمْـر كَـذَلِكَ بالنِّسْبَة إِلىٰ الإمَام عند كَثيرِين، بل ثَار عَلَيْهِ، وحَاربه النَّاكِـثُون، والْـقَاسِطُون، والْمَارِقُون مُتذرعِين بٱلإسْلاَم وٱسم ٱلإسْلاَم.

(مَايَزِيدُنَا ذَلِكَ إلاّ إيمَاناً، وَتَسْلِيماً). ذَلِكَ إشَارَة إِلىٰ قَتل ٱلآبَاء، وَالأَبْنَاء، بأمر الرَّسُول الأَعْظَم ﷺ، والمَعْنَىٰ أنّهم كَانُوا يُباشرون هَذَا الْقَتْل، وهم علىٰ يَقِين مـن دِينهم، ورَاحة من ضَمِيرهم (وَمُضِيّاً عَلَىٰ اللَّقَمِ). أي علىٰ طَرِيق ٱلْحَقّ الْوَاضِـح دُونَ أنْ تَعترضهم أية شُبْهَة (وَصَبْراً عَلَىٰ مَضَضِ الأَلَمِ). ومِثْله قَوْل النَّبِيّ ﷺ حِينَ مَات وَلده إبْرَاهِيم: «تَدمعُ الْعَيْن، وَيَحزنُ ٱلْقَلْب فَلا نَقول ما يُسخِط الرَّب؛ ولَوْلاَ أنّهُ قولٌ صَادق، ووعدٌ جَامع، وسَبِيل نَأتيه، وأنّ آخرنا سـيُتبعُ أوّلنـا؛ لوجـدْنا

---

(١) ٱلأنفَال: ١٣.

عَلَيْكَ أشدّ من وجدّنا بِك، وإنّا عَلَيْكَ يا إِبْرَاهِيم لمحزُونُون»[١]. (وَ جِدّاً فِي جِهَادِ الْعَدُوِّ). أي عَدُوّ الله، وٱلحَقّ دُونَ وهنٍ، وتعليلٍ، وبعَدم الصّبر علىٰ قَتل الْآبَاء، وَالْأَبْنَاء.

(وَ لَقَدْ كَانَ الرَّجُلُ مِنَّا، وَ الآخَرُ مِنْ عَدُوِّنَا يَتَصَاوَلاَنِ تَصَاوُلَ الْفَحْلَيْنِ، يَتَخَالَسَانِ أَنْفُسَهُمَا: أَيُّهُمَا يَسْقِي صَاحِبَهُ كَأْسَ الْمَنُونِ، فَمَرَّةً لَنَا مِنْ عَدُوِّنَا، وَ مَرَّةً لِعَدُوِّنَا مِنَّا). هَذَا تَصوِير لطَبِيعَة الحَرْب، وإِنّهَا تَنتهب رُوح أحد المُتقاتلَين، أو روحِيهِما معاً، وإنّ الْغَلَبَة لم تَكن للمُسلم أَبَداً، ودَائماً، بل قَد، وَقَد (فَلَمَّا رَأَىٰ اللهُ صِدْقَنَا أَنْزَلَ بِعَدُوِّنَا الْكَبْتَ، وَأَنْزَلَ عَلَيْنَا النَّصْرَ). إنّ الله سُبْحَانَهُ يَجري المُسببات علىٰ أسبَابها، ويَربط النّتائج بمقدمَاتها، فَمَن صَدق مِنْهُ العَزم، وعمل جَاهداً مُخلصاً فِي عِمله بَلغ الْغَايَة بتوفِيق الله، وعنَايته: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْاْ زَادَهُمْ هُدًى وَءَاتَىٰهُمْ تَقْوَىٰهُمْ﴾[٢]. وَمَن رَاءىٰ، وتَكاسل فمآله الخُسران، والخُذلان: ﴿فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمُۢ بِمَا كَانُواْ يَكْذِبُونَ﴾[٣].

(حَتَّىٰ اسْتَقَرَّ الْإِسْلاَمُ مُلْقِياً جِرَانَهُ، وَ مُتَبَوِّئاً أَوْطَانَهُ). بالصِّدْق، والْإِخْلاَص، وبالتَّضحِية، والفِداء توطدت أركَانَ ٱلْإِسْلاَم، وٱنتشر فِي شَرق ٱلأَرْض،

---

(١) أُنظر، صَحِيح البُخَاريّ: ٢/ ٨٤ و ٨٥، كنز الْعُمَّال: ح ٤٠٤٧٩، السّنن الْكُبْرَىٰ للبيهقي: ٤/ ٦٩، الذّكرىٰ: ٧٠، دَعَائِم ٱلْإِسْلَام: ١/ ٢٢٤، بدائع الصّنائع: ١/ ٣١٠، الْمُغْنِي: ٢/ ٤١١، المحلىٰ: ٥/ ١٤٦، مُسْنَد أحمد: ٣/ ١٩٤، صَحِيح مُسْلِم: ٧/ ٧٦، سُنَن ٱبْن ماجه: ١/ ٥٠٧، سُنَن أبي داود: ٢/ ٦٤، مُسْنَد أبي يعلىٰ: ٦/ ٤٣، الْمُصَنَّف: ٣/ ٢٦٧، الاحكام لإمام يحيىٰ الهادي: ١٥٠، الكافِي: ٣/ ٢٦٢، ذَخَائِر الْعُقْبَىٰ: ١/ ٢٢٤.

(٢) مُحَمَّد: ١٧.

(٣) ٱلْبَقَرَة: ١٠.

وغَرْبِهَا، وأظهره الله علىٰ الدِّين كلّه، لا بالكلاَم، والمُزايدات، والتَّظاهر بالشعَائر، والعبَادات (وَلَعَمْرِي لَوْ كُنَّا نَأْتِي مَا أَتَيْتُمْ) من التَّكاسل، والتَّخاذل. (مَا قَامَ لِلدِّينِ عَمُودٌ، وَلاَ اخْضَرَّ لِـلْإِيمَانِ عُودٌ). أَبَداً... لَنْ تَقوم للدِين قَائمة، وَلاَ للْحَقِّ والْعَدْل إلّا بجهاد اَلْبَاطِل، والضّلال، وتقوِيض أركَانه من الأَسَاس، وَلاَ يَكُـون هَـذَا إلّا بآجتماع الكَلِمَة، ولَنْ تَجْتَمِع الكَلِمَة إلّا بوحدة الْقِيَادَة، وصَلاحها... سُئل الْإِمَـام الصّادق عليه السلام: «تَكُون اَلأَرْض لَيْسَ فيها إِمَام؟ قَالَ: لا، قُلت: يَكُون إمَامان؟ ـ أي فِي وقتٍ وَاحد ـ قَالَ: لا، إلّا وأحدَهُما صَامت»[1]. وَقَالَ عَارف كبِير مُعلقاً علىٰ هَذَا الجوَاب: لو تَعددت الرّؤساء لأدىٰ ذلِكَ إِلَىٰ مُخاصمات يَختل مَعَهَا النّظام: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَـٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾[2] (وَآيْمُ اللهِ لَتَحْتَلِبُنَّهَا دَماً، وَ لَتُتْبِعَنْهَا نَدَماً!). إنّ هَذَا التَّفْرِيط، والتَّقْصِير سوف يَنتهي بكم إِلَىٰ الأسـف، والنّـدم حَيْث تُـنتهك مِـنْكُم الحُـرمات، وتُستباح مِـنْكُم الدِّمَـاء والأَعرَاض... وقد حَدث كلّ ما أُخبر بِهِ الْإِمَام عليه السلام.

---

(١) أنظر، الكافيّ ١: ١٨٧، بَاب اَلأرض لا تخلو من حجّة، إخـتيار مَـعْرِفَة اَلرِّجَـال: ٢٥٣، ط مـشهد، الإِرْشَاد للشيخ المفيد: ٣١٨، ط ٣ الأعلمي ـ بيروت ـ الأُصُول من الكافيّ ١: ٣٢٠.

(٢) اَلأَنْبِيَاء: ٢٢.

الخطبة

-٥٧-

سُبُّوا وَلاَ تَتَبَرَّءُوا:

أَمَّا إِنَّهُ سَيَظْهَرُ عَلَيْكُمْ بَعْدِي رَجُلٌ رَحْبُ الْبُلْعُومِ، مُنْدَحِقُ الْبَطْنِ، يَأْكُلُ مَا يَجِدُ، وَيَطْلُبُ مَا لاَ يَجِدُ، فَاقْتُلُوهُ، وَلَنْ تَقْتُلُوهُ! أَلاَ وَإِنَّهُ سَيَأْمُرُكُمْ بِسَبِّي، وَالْبَرَاءَةِ مِنِّي، فَأَمَّا السَّبُّ فَسُبُّونِي، فَإِنَّهُ لِي زَكَاةٌ، وَلَكُمْ نَجَاةٌ، وَأَمَّا الْبَرَاءَةُ فَلاَ تَتَبَرَّءُوا مِنِّي، فَإِنِّي وُلِدْتُ عَلَى الْفِطْرَةِ، وَسَبَقْتُ إِلَى الإِيمَانِ، وَالْهِجْرَةِ.

اللُّغَة:

ظَهَرَ لهُ: تَبَيَّنَ لهُ، وَظَهَرَ عَلَيْهِ: غَلبَهُ، وَتفوقَ عَلَيْهِ، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿فَأَيَّدْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُواْ ظَـٰهِرِينَ﴾[1]. والرَّحْبُ: ٱلْوَاسِع. وٱلْـبُلْعُوم: مجرى الطّعام فِي الحَلق. والْبَطْن مُذكر، وبَطْنٌ مُنْدَحِق: نَاتِيء، وبَارز مِثْل مُنْدَلِق.

---

(١) الصف: ١٤.

الْمَعْنَىٰ:

(أَمَّا إِنَّهُ سَيَظْهَرُ عَلَيْكُمْ بَعْدِي رَجُلٌ رَحْبُ الْبُلْعُومِ، مُنْدَحِقُ الْبَطْنِ، يَأْكُلُ مَا يَجِدُ، وَ يَطْلُبُ مَا لاَ يَجِدُ). قَالَ بَعْض الشَّارِحِين: اَختَلفوا فِي الَّذي عنَاه الإِمَامِ عليه السلام بِهَذَا الْوَصْف: مَن هُو؟ فَمِن قَائِل: هو مُعَاوِيَة. وَقَالَ آخر: هُو زِيَاد اَبن أَبِيه. وَقَالَ ثَالِث: هو الْمُغِيرَةَ بْنَ شُعْبَةَ. ورَابع: أَنّه الحَجَّاج. والظَّاهِر أَنّه مُعَاوِيَة بدَلِيل قَول الإِمَام: «سَيَأْمُرُكُمْ بِسَبِّي، وَالْبَرَاءَةِ مِنِّي». ولَيْسَ من شَك أَنّ مُعَاوِيَة هو الَّذي سَنَّ هَذِه السُّنَّة السَّيِّئَة... هَذَا، إِلىٰ أَنّ الرّواة قَالُوا: كَانَ بَطْن مُعَاوِيَة كَبِيراً، وأَنّه كَانَ يَأْكُل كَثِيراً، وَإِذَا قَعد وضَع بَطْنَه عَلىٰ فَخذه، وفِي شَرح اَبن أَبِي اَلْحَدِيد: «تَظاهَرت الأَخْبَار أَنّ رَسُول الله صلى الله عليه وآله دَعا عَلىٰ مُعَاوِيَة، وَقَالَ: «أَللَّهُمَّ لاَ تشبَع بَطْنَه»»[1].

(فَاقْتُلُوهُ). قَالَ الذّهبي ـ وهُو مِن أَهْل السُّنَّة، والمُتَعَصِّبِين ـ: «قَالَ رَسُول الله صلى الله عليه وآله: «إِذَا رَأَيتُم مُعَاوِيَة عَلىٰ مِنبَري فاَقتُلوه»»[2]. والْمُرَاد بِمِنبَره صلى الله عليه وآله هُنا اَلخِلاَفَة. وَقَالَ الْحَاكِم: إِنّ رَسُول الله صلى الله عليه وآله قَالَ: «مَن سبّ عَلِيّاً فقد سَبّني، ومَن

---

(١) أَنظر، شرح نَهج البَلاَغَة: ٥٥/٤ و: ٣٥٥/١ طَبْعَة مِصْر، العبر: ٢٨/٣، البداية والنِّهايَة: ٣١٧/١١، تَذكِرة الحفاظ: ٦٩٩/٢، سير أعلام النبلاء: ١٢٩/١٤، تَهْذِيب الكَمَال: ٣٣٨/١، تَهْذِيب التَّهذِيب: ٣٢/١، شرح مئة كَلِمَة للبحراني: ٢٣٨، مُسْنَد الطَّيَالِسِي: ٢٤٠/١ ح ٢٧٤٦ و ٢٦٨٨، صَحِيح مُسْلِم: ح ٢٦٠٤.

(٢) أَنظر، مِيزَان الاِعْتِدَال: ٧/٢ و: ١٢٩، طَبعة مِصْر سَنَة ١٣٢٥ هـ، وَاَبن حَجر فِي تَهْذِيب التَّهذِيب: ١١٠/٥، و: ٣٢٤/٧، و: ٧٤/٨، طَبْعَة حيدر آباد سَنَة ١٣٢٥ هـ. وفِي لفظ اَبن عُيينَة «فارجمُوه»، وكنوز الْحَقَائِق: ٩، طَبْعَة استانبول سَنَة ١٢٨٥ هـ، واَبن سعد فِي الطَّبَقَات: ١٣٦/٤ ق ١. (مِنْهُ رحمه الله).

سَبّني فقَد سَبّ الله، ومَن سَبّ الله أكبّهُ الله عَلىٰ وجههِ فِي ٱلنَّار»[١]، ولَيْسَ من شَكٍّ أنّ مَن سَبّ رَسُول الله ﷺ يجب قَتله، وأنّ مُعَاوِيَة قَد سبّ عَلِيّاً، وجَعل سَبّه سُنة يشِيب عَلَيْهَا الْصَّغِير، ويَهرَم الْكَبِير علىٰ حَدّ تَعبِير مُعَاوِيَة نَفْسه، ومَعْنَىٰ هَـذَا أنّ مُعَاوِيَة سنَّ سبَّ الرَّسُول بالذَّات.

(فَاقْتُلُوهُ، وَ لَنْ تَقْتُلُوهُ). لأنّه قَد ٱشتَرىٰ دِينكُم بأَمْوَالِهِ. قَالَ طَه حُسين: «أنّ أشرف أَهْل الْعِرَاق كَانُوا يَتصلُون بمُعَاوِيَة فِي أَيَّام عَلِيّ، يَـتَلقون مَـاله، وَيُمهدون لهُ أمْرَه»[٢].

(أَلاَ وَ إِنَّهُ سَيَأْمُرُكُمْ بِسَبِّي، وَ الْبَرَاءَةِ مِنِّي). الظَّاهِر من هَذَا الكَلاَم أنّ التَّقية تَجوز فِي السَّب، وَلاَ تَجوز فِي الْبَرَاءَة من الإِمَام لأنّه وِلد علىٰ الْفِطْرَة أي علىٰ دِين الله الَّذي أنزَله علىٰ رَسُول الله ﷺ، والْبَرَاءَة مِنْهُ تَسْتَدعِي الْبَرَاءَة من هَذَا الدِّين الْقَوِيم. وَقَد بَالغ الرَّسُول وأَهْل بَيْتِه عليهم السلام فِي النّهي عن الْبَرَاءَة من ٱلإِسْلاَم، وأنّ مَن تَـبرأ مِـنْهُ

(١) أنظر، مُسْتَدرَك الصَّحِيحِين: ١٢١/١، طَبْعَة حيدر آباد سَنَة ١٣٢٤هـ. (مِنْهُ ﷺ). كفاية الطَّالب: ٨٢ و ٨٣، كشف اليَقِين: ٢٣٢، فرائد السّمطين: ١ / ٣٠٢ و ٣٠٣ ح ٢٤١ لكن فِيه مروج الذّهب: ٢ / ٤٣٥، بحار الأنوار: ٣٩ / ٣١١، الغَدِير للأميني: ٢ / ٢١٩، الصَّوَاعِق المُحْرِقَة: ٧٤ طَبْعَة الميمنية و: ١٢١ المُحَمَّدية بتفاوت، ذَخَائِر العُقْبَىٰ: ٦٦، المَنَاقِب للخوارزمي: ١٣٧ ح ١٥٤.

الحَاكِم فِي المُسْتَدرَك: ١٢١/١، مُسْنَد أحمدبن حنبل: ٦ / ٣٢٣، خَصَائِص النَّسائي: ٢٤، كنز العُمَّال: ٦ / ٤٠١، ومشكاة المَصَابِيح: ٥٦٥ و ١٧٢٢/٣ ح ٦٠٩٢ طَبْعَة أخرىٰ، وتَأرِيخ الخُلَفَاء: ٦٧، والرّياض النّضرة: ١٦٦/٢ بألفاظ متقاربة، نور الأبصَار: ٩٩ فَضَائِل الخَمْسَة من الصّحاح السّتة: ٢٢٣/٢، أمالي الشّيخ الصّدوق: ٦٠ و ٥٢ و ٥٣ المجلس الحادي عشر ح ٢، الفَضَائِل لأَحْمَد: ٥٩٤/٢ ح ١٠١١، جمع الزّوائد: ٩ / ١٣٠، مُنْتَخَب كنز العُمَّال بهامش مُسْنَد أحمد: ٣٠/٥، يَنَابِيع المَوَدَّة: ١ / ١٥٢، و: ٢ / ١٠٢ و ٢٧٤ و ٢٧٧ طَبْعَة أسوة، الجَامِع الصَّغِير: ٦٠٨/٢ ح ٨٧٣٦، مَوَدَّة القربىٰ: ١٥.

(٢) أنظر، الْفِتْنَة الْكُبْرَىٰ ـ ٢ ـ عليّ وبَنُوه للدكتور، طَه حُسين: ١٨١. طَبْعَة سَنَة ١٩٦٤م.

بأية صورَة لَم يَعد إِلَيْهِ بحَال... هَذَا فِي الْبَرَاءَة من ٱلإِسْلاَم.

أمّا الْبَرَاءَة من الإِمَام أَمِيرِ ٱلْمُؤْمِنِين عليه السلام فإنّ فيها روَايات مُتعارضة: بَعْضهَا فِي الجوَاز، وبَعْضهَا الآخر فِي المَنع، وَإِذَا عَرضنَاها علىٰ كتَاب الله، وَرَجحنا المُوافق مِنْهَا دُونَ المُخالف ـكما فِي كثِير من الأَخْبَار ـتَعين تَرجيح الرِّوَايَات الآذنة، وطَرح الرِّوَايَات المَانعة لقَوْله تَعَالَىٰ: ﴿مَن كَفَرَ بِاللَّهِ مِنۢ بَعْدِ إِيمَـٰنِهِۦٓ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِٱلْإِيمَـٰنِ وَلَـٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾(١). وهَذِه الآيَة ظَاهرة فِي أنّ مَن كَفر بلِسَانه مُكرهاً دُونَ قَلْبه فَهُوَ مَعذُور... وَقَالَ الشّيخ الأَنْصَاري: «أنّ بَعْض الأَخْبَار فيها دَلاَلَة علىٰ تَرجِيح أخبَار الْبَرَاءَة. ثُم قَالَ: ويُمكن أنْ يَكُون الْمُرَاد من الأَخْبَار فيها دَلاَلَة علىٰ تَرجِيح أخبَار الْبَرَاءَة. ثُم قَالَ: ويُمكن أنْ يَكُون الْمُرَاد من الأَخْبَار النّاهِية ـالْبَرَاءَة حَقِيقَة أي قَلباً، وَلِسَاناً ظَاهراً وبَاطناً بِحَيث يَرتد المُبتديء عَن التَّشيع، والْولاَيَة إِلَىٰ الْكُفْر، والنّصب»(٢).

ونَحْنُ مَع القَائِلِين بجواز النُّطق بالْبَرَاءَة، والتَّظاهر بها علىٰ شرِيطَة ٱلْخَوْف علىٰ النّفس، وٱطمئنان ٱلْقَلْب بالإِيمَان، ودليلنا أَوّلاً: عموم أدِلّة نفي الضّرر. ثَانِياً: قَوْله تَعَالَىٰ: ﴿إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِٱلْإِيمَـٰنِ﴾(٣). ثَالِثاً: أنّ هَلاك المُوالي المُخلص وٱنقطاعه عَن مُناصرة الوِلاَيَة، والمُوالِين فِيهِ ضَرر كبِير، وأَكْثَر بكثِير من كَلِمَة لا تَضر، ولاَ تمس عَظمة الإِمَام عليه السلام مِن قَرِيب، أو بَعِيد.

(١) ٱلنّحْل: ١٠٦.
(٢) أنظر، رِسَالَة التّقية للشيخ الأَنْصَاري المطبوعة فِي آخر كتاب «المكاسب»: ٣٢٠. (مِنْهُ رحمه الله).
(٣) ٱلنّحْل: ١٠٦.

وَتسْأَل: لو أَصر المُوالي علىٰ عَدم الْبَرَاءَة، وقُتل، فهل يَكُون آثماً؟.

الجوَاب:

كلاَّ، فقَد أَصر حِجر بن عَدِيّ، ومِيثَم التّمار، وآسْتُشهِدَا، وهُما مِن صَفوة الصَّفوة، وعَلَيْهِ يَكُون المُوالي مَعذوراً فِي الحَالين، ولاَ يَلزم بأَحدَهُما. وقد سُئل الْإِمَام البَاقِرعليه السلام عَن رَجُلين من الْكُوفَة أُخذا، وأُمرا بالْبَرَاءَة من أَمِير الْمُؤْمِنِينعليه السلام وإلّا قُتلا، فَبرأ أَحدَهُما فَسلم. وأَبىٰ الآخر فقُتل؟ فقَالَ الإِمَامعليه السلام: «أَمّا الَّذي بَرأ فَرَجل فَقِيه فِي دِينه أي أَخذ بقَوْله تَعَالَىٰ: ﴿إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ﴾. وأَمّا الَّذي لَم يَبرأ فَقد تَعجل إِلىٰ ٱلْجَنَّة»[1].

أمّا سبق الْإِمَام إِلَىٰ الْهِجْرَة فإنّ النَّبِيّصلى الله عليه وآله هَاجر من مَكَّة مرَاراً يطوف أحياء الْعَرَب دَاعِياً إِلَىٰ الله، وعليٌّ معهُ دُونَ غَيْره فِي هِجرته إِلَىٰ بَني عَامر، وكَانَ مَعه فِي هِجرته إِلَىٰ الطّائف... هَذَا، إِلَىٰ مَبيته فِي الفرَاش فدَاءً للرَّسول، وتَنفِيذه لوَصِيتهصلى الله عليه وآله بتَأدية الأَمَانَات إِلَىٰ أهلها نِيَابة عن النَّبِيّ ـ هِجرة وزِيَادَة، وَمَنقبَة تَفرد بهَا وَحدَه.

(١) أنظر، الكَافِي: ٢/٢٢١ ح ٢١، التَّقية للشّيخ الأَنصَاري: ٣٩، وَسَائِل الشّيعة: ١٦/٢٢٦ ح ٦.

الخطبة
-٥٨-

أَ بَعْدَ الْإِيمَان، وَالجِهَاد مَعَ رَسُولِ اللهِ؟

أَصَابَكُمْ حَاصِبٌ، وَ لاٰ بَقِيَ مِنْكُمْ آثِرٌ. أَ بَعْدَ إِيمَانِي بِاللهِ، وَ جِهَادِي مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ، أَشْهَدُ عَلَىٰ نَفْسِي بِالْكُفْرِ ﴿قَدْ ضَلَلْتُ إِذًا وَمَآ أَنَا مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ﴾[1]! فَأُوبُوا شَرَّ مَآبٍ، وَ ارْجِعُوا عَلَىٰ أَثَرِ الْأَعْقَابِ. أَمَا إِنَّكُمْ سَتَلْقَوْنَ بَعْدِي ذُلاًّ شَامِلاً، وَسَيْفاً قَاطِعاً، وَ أَثَرَةً يَتَّخِذُهَا الظَّالِمُونَ فِيكُمْ سُنَّةً.

اللُّغَة:

الحَاصِبُ: رِيح شَدِيدة تَحمل حَصىٰ صَغِيرة. والآبِر: مَن يُصلح النّخل أُوبُوا: انقلبوا. وَأَثَرَةً ـ بِفَتح الثّاء، والرّاء ـ الْإِسْتِبْدَاد.

الْمَعْنىٰ:

قَالَ الْخَوَارِج لِلْإِمَامِ عليه السلام: إِمّا أَنْ تَشهد علىٰ نَفسِك بالْكُفْر، وتَتُوب، وإمّا

---

(١) الأنعام: ٥٦.

قَاتلنَاك[١]، فَقَالَ: (أَبَعْدَ إِيمَانِي بِاللهِ، وَ جِهَادِي مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ، أَشْهَدُ عَلَىٰ نَفْسِي بِالْكُفْرِ). قَالَ ٱبن جَرِير الطَّبَرِيّ: «كَانَ أَوَّل ذَكَرٍ آمن برَسول الله ﷺ وصلّىٰ مَعه، وَصَدقه بِمَا جَاءه من عند الله عليّ بن أبي طالب، وهُو يَوْمَئِذٍ ٱبن عَشر سنِين، وكَانَ مِمَّا أَنعم الله به عَلىٰ عليّ بن أبي طالب أنّه كَانَ فِي حِجر رَسُول الله قَبل ٱلإِسْلاَم»[٢].

(١) أُنظر، شرح النَّهج للعلّامة الخوئي: ٤/ ١٢٦، تَذكِرة الخواصّ: ٩٥. ولكن ذكر صاحب النَّهج لِابْن أبي ٱلحَدِيد تحقيق مُحَمَّد أبو الفَضْل: ٢/ ٢٣٣ و٢٣٨ و ٢٤٠ أنّ أصل هَذَا الكَلاَم قَالته الحَرُوريّة لِلإِمَامِ عليّ ﷺ وليَسَ لِابْن عبّاس بلفظ: يا عَليّ قَد كنّا زَللنا وأخطأنا حِينَ رَضِينا بالحكَمَيْن، وقد بَان لنا أنّا زَللنا وأخطأنا فرَجعنا إِلىٰ الله تَعَالىٰ وتُبنا، فأرجع أنْتَ يا عليّ كما رَجعنا وتُب إِلىٰ الله كما تُبنا وإلّا برئنا مِنك... (وأُنظر، يَنَابِيع المَوَدَّة: ٢/ ٢٠ ـ ٢١، وَقْعَة صِفِّين: ٥١٧، الإِمَامَة وَالسِّيَاسَة: ١/ ١٦٨، الكَامِل لِابْن الأَثِير: ٢/ ٤٠٤).

(٢) أُنظر، تَأرِيخه: ٢/ ٧٥ طَبْعَة القاهرة سَنَة ١٣٥٧ هـ. (مِنْهُ ﷺ).

أنظر، الكَامِل فِي التَّأريخ لِابْن الأَثِير: ٢/ ٥٨، شرح النَّهج لِابْـن أَبي ٱلحَـدِيد: ١٣/ ١٩٨، يَنَابِيع المَوَدَّة: ٢/ ٣٠٢، كشف الغمّة: ١/ ١٠٤، كنز الفوائد للكراجكي: ٢٥٥، وأنـظر مُسْتَدرَك الصَّحِيحِين: ٣/ ٥٧٦.

قَالَ ٱبْن حَجَر العسقلاني فِي الإِصَابَة: ٢/ ٥٠١: ولد عليّ ﷺ قبل البعثة بعشر سنين، فربِّيَ فِي حِجر النَّبِيّ ﷺ، ولم يفارقه، وشهد معه من المشاهد إلّا غَزْوَة تَبوك. وَقَالَ ٱبن أبي ٱلحَدِيد فِي شرح النَّهج: ١٣/ ١٩٨: والْقَرابَة الْقَرِيبَة بَيْنه، وبَيْنَ رَسُول الله ﷺ دُونَ غَيْره من الأعمام كونه ربّاه فِي حِجرِه، ثمّ حامىٰ عَنْه، ونصره عند أظهار الدَّعْوَة دُونَ غَيْره من بَنِي هَاشم، ثمّ ما كَانَ بَيْنَهما من المصاهرة الّتي أفضت إِلىٰ النَّسل الأطهر دُونَ غَيْره من الأصهار. وروىٰ الطَّبَرِيّ فِي تَأرِيخه: ٢/ ٥٧: أنّ قُرَيْشاً أصابتهم أزمة شَدِيدَة. وكَانَ أبو طالب ذا عيالٍ كَثِير، فَقَالَ رَسُول الله ﷺ للعبّاس ـ وكَانَ من أيسر بَنِي هَاشم ـ: يا عبّاس: إنّ أخاك أبا طالب كَثِير العيال، وقد ترىٰ ما أَصَابَ النّاس من هَذِه الأزمة...

ونقل العلّامة المجلسي ﷺ ما روي عن أبي رافع من ثلاثة طرق أنّ النَّبِيّ ﷺ حِينَ تزوّج خَدِيجَة قَالَ

⇔

وَقَالَ السّيوطي عند تَفْسِير قَوْله تَعَالَىٰ: ﴿فَابْعَثُواْ حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِۦ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَآ إِن يُرِيدَآ إِصْلَٰحًا يُوَفِّقِ ٱللَّهُ بَيْنَهُمَآ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا خَبِيرًا﴾[1]: أخرج الطّبراني، والحَاكِم، وأبو نَعِيم فِي الحليَة، والبَيْهَقِيّ فِي سُننه: أنّ ٱبن عبّاس قَالَ للخوارج: ماذا تَنقمون مِن عليّ وهو أَوّل مَن آمن برسول الله ﷺ؟ فَرجع مِنْهُم عشرُون ألفاً، وَبَقِي أَرْبَعَة آلاف»[2].

❊ لعمّه أبي طالب: إنّي أُحبّ أنْ تدفع إليّ بَعْض ولدك، يُعينني علىٰ أمري، ويكفيني، وأشكر لك بلاءك عِنْدِي، فَقَالَ أبو طالب: خذ أيّهم شئتَ، فأخذ عليّاً ﷺ، فمن ٱستقىٰ عروقه من منبع النُّبوّة، ورضعت شجرته ثَدْيِ ٱلرِّسالَة، وتهدّلت أغصانه عن نبعة الإمَامَة، ونشأ فِي دار الوحي ورُبّي فِي بَيْت التّنزيل، ولم يفارق النّبيّ ﷺ فِي حَال حياته إلىٰ حَال وفاته لا يقاس بسائر النّاس. (ٱلْبِحَار: ٣٨ / ٢٩٥).

وهو ﷺ القَائِل فِي خُطْبَة القاصعة: (وَ قَدْ عَلِمْتُمْ مَوْضِعِي مِنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ بِالْقَرابَةِ الْقَرِيبَةِ، وَالْمَنْزِلَةِ الْخَصِيصَةِ، وَضَعَنِي فِي حِجْرِهِ، وَأَنَا وَلَدٌ يَضُمُّنِي إِلَىٰ صَدْرِهِ، وَيَكْنُفُنِي فِي فِرَاشِهِ، وَيُمِسُّنِي جَسَدَهُ، وَيُشِمُّنِي عَرْفَهُ، وَكَانَ يَمْضَغُ الشَّيْءَ ثُمَّ يُلْقِمُنِيهِ، وَمَا وَجَدَ لِي كَذْبَةً فِي قَوْلٍ، وَلاَ خَطْلَةً فِي فِعْلٍ، وَلَقَدْ قَرَنَ اللهُ بِهِ ﷺ مِنْ لَدُنْ أَنْ كَانَ فَطِيماً أَعْظَمَ مَلَكٍ مِنْ مَلاَئِكَتِهِ يَسْلُكُ بِهِ طَرِيقَ الْمَكَارِمِ، وَ مَحَاسِنَ أَخْلاَقِ الْعَالَمِ لَيْلَهُ، وَنَهَارَهُ، وَلَقَدْ كُنْتُ أَتَّبِعُهُ اتِّبَاعَ الْفَصِيلِ أَثَرَ أُمِّهِ يَرْفَعُ لِي فِي كُلِّ يَوْمٍ مِنْ أَخْلاَقِهِ عَلَماً، وَ يَأْمُرُنِي بِالاِقْتِدَاءِ بِهِ، وَلَقَدْ كَانَ يُجَاوِرُ فِي كُلِّ سَنَةٍ بِحِرَاءَ فَأَرَاهُ، وَلاَ يَرَاهُ غَيْرِي، وَلَمْ يَجْمَعْ بَيْتٌ وَاحِدٌ يَوْمَئِذٍ. (أنظر ٱلْخُطْبَة رقم ٢٣٤ من شرح النّهج للسيّد عليّ نقي فيض ٱلإِسْلاَم: ٨٠٢، وٱلْخُطْبَة: ١٩٢ من خطب الشّريف الرّضي).

وَقَالَ العلّامة الكراجكي: وكَانَ ﷺ يلي أكْثَر تربيته ﷺ ويراعيه فِي نومه ويقظته، ويحمله علىٰ صدره، وكتفه، ويحبوه بألطافه، وتحفه، ويقُول: هٰذَا أخي، وسيفي، وناصري، ووصيّي. (كنز الفوائد: ١ / ٢٢٥).

(١) ٱلنّساء: ١٣٥.

(٢) أنظر، تَفسِير الدُّر المنثور طَبْعَة مِصْر سَنَة ١٣١٤ هـ (مِنْهُ ﷺ). المُعْجَم الكَبِير: ١٠ / ٢٥٧ ح ١٠٥٩٨، مُسْتَدرَك الحَاكم: ٢ / ١٦٦، حلية الأوْلِياء: ١ / ٣٢٠، سُنن البَيْهَقِيّ الكُبْرَىٰ: ٨ / ١٨٠ تَأريخ الطّبَرِيّ: ٤ / ٥٢ وما بعدها، الكَامِل لِابْن الأثِير: ٣ / ٣٣٤، خَصَائِص أمِير المُؤْمنين للنسائي: ١٥٠ ـ ١٥٢ ح ❊

وقُلنا فِي كتاب «فَلْسَفَة التَّوْحِيد والْوِلاَيَة»: قَالَ مُحَمَّد حُسِين هَـيكل: «دَعـا مُحَمَّد ﷺ ٱبن عمّه عَلِيّاً إِلَىٰ عِبَادَة الله وحده لاَ شرِيك له، وإِلَىٰ دِينه الَّذي بعث بِهِ نَبِيِّه... فٱستمهل عليّ ٱبنَ عمّة مُحَمَّداً حَتَّىٰ يُشاور أباه، ثُمّ قَضىٰ لِيله مُضطرباً حَتَّىٰ إِذَا أَصْبَحَ أعلَن لرسول الله، وخَدِيجَة أنّه يَتبع دِين مُحَمَّد من غَيْرِ حَـاجَة إِلَىٰ رَأي أَبِي طالب، وَقَالَ عَلِيّ: لقَد خَلقني الله من غَيْرِ أنْ يُشاور أبَا طالب، فما حَاجتي أنا إِلَىٰ مُشاورته لأعبد الله؟» وَبعد أنْ نَطق هَيكل بِهَذِهِ الْحَقِيقَة أَخذَه عَرق مِن تَربِيته وَقَالَ: «وكَذَٰلِكَ كَانَ عليّ أَوَّل صَبي أَسلَم»[1].

⟸ ١٨٥، دَلاَئِل النُّبُوَّة: ٤/ ١٤٧، المَنَاقِب للخوارزمِي: ١٩٢ ح ٢٣١، الكَامِل فِي التَّأريخ: ٢/ ٢٠٤، شرح النَّهج لِابْن أَبِي ٱلْحَدِيد: ٢/ ٢٣٢، و: ١٠/ ٢٥٨، تَأرِيخ دِمَشْق: ٤٢/ ٤٦٣، الأَحَادِيث الْمُخْتَارة: ٢/ ٢٢٤ و: ١٠/ ٤١٥، مَجْمَع الزَّوائد: ٦/ ٢٣٦ و ٢٤١، مُسْنَد أحمد: ١/ ٨٦، مُسْنَد أَبِي يـعلىٰ: ١/ ٣٦٩، فـتح البارِي: ١٢/ ٢٩٦، عون المعبود: ١٣/ ٨١، سُبل السَّلاَم: ٣/ ٢٦٠، طَبقَات ٱبن سعد: ٣/ ٣٢.

(١) أُنظر، حَيَاة مُحَمَّد ﷺ لمُحَمَّد حُسِين هيكل: ١٤٠ طَبْعَة سَنَة ١٩٦٥م. (مِنْهُ ﵀).

ولكن لا أدري ماذا يَقُول هيكل لو قرأ هَذِه الكتب، والأَحَادِيث النَّبَوِيَّة الشَّرِيفة الوَارِدة عن كـلا الفريقين تُبين أنّه أوَّل مَن أسلم وآمن برسول الله ﷺ من الذّكور بعد خَدِيجَة؟ فقد روي الحَـدِيث فِي الكَامِل لِابْن عَدِيّ: ٥/ ١١٨٢٩ ط بيروت فِي حَدِيث طويل عن عليّ بن أبي رافع قَالَ: أتيت أبـا ذرّ أُودّعه. فَقَالَ: إنّه ستَكُون فِتنة، وَلاَ أرَاكم إلّا إنّكم ستدركونها، عَلَيْكُمْ بالشيخ عليّ بن أبي طالب ﵇ فإنّي سمعت رَسُول الله ﷺ يقُول: أنْتَ أوَّلُ مَن آمَن بِي... ورواه العلاّمة النّقيب أبـو جَـعْفَر الإِسكَـافِي البغدادي فِي رِسَالَة النّقض علىٰ العُثْمَانِيَة: ٢٩٠ دار الكتب مِصْر. ورواه أيضاً الجويني فِي فَرَائد السِّمطِين: ١/ ٣٩ عن أبي سخيلة قَالَ: قَالَ: رَسُول الله ﷺ عليّ أَوَّل من آمن بي.

ورواه أيضاً الهيتمي فِي مَجْمَع الزّوائد: ٩/ ١٠٥ عن أبي ذرّ وسَلْمَان قالا: أخذ النَّبِيّ ﷺ بيد عـليّ فَقَالَ: إنّ هَذَا أَوّل من آمن بي، وَقَالَ الهيتمي: رواه الطّبراني، والبزار.

ورواه ٱبن أَبِي ٱلْحَدِيد فِي الشّرح: ١٣/ ٢٢٨ وٱبن حَجَر العسقلاني فِي لِسَان الميزَان: ٣/ ٣٨٣ عن عبدالله بن عبّاس. ورواه أيضاً الشّيخ جمال الدين مُحَمّد بن أحمد الحنفي الموصلي الشّهير بحسنويه فِي درّ ⟸

⇐ بحر المناقِب: ٩٩ مخطوط عن أبي ذرّ، وسَلْمان، والمقداد في حَدِيث طويل قَالُوا: إننا سمعنا من رَسُول الله ﷺ يَقُول: إنّ عَلِيّاً مَع الحق والحق معه... فإنّه أَوّل من آمن بِي.

ورواه أيضاً التِّرمِذي، وأبو حَنِيفَة، والحَاكِم فِي المُسْتَدرَك علىٰ الصَّحِيحِين: ٣/١٣٦ والبَيْهَقِيّ، والطَّبَرِيّ فِي تَأرِيخه: ٣/٤٢٠، وٱبْن هشام، وٱبْن الأثِير، وٱبْن كَثِير، وٱبْن عبدالبرّ، وٱبْن حَجَر العسقلاني فِي صواعقه: ٧٢ والخَطِيب، وٱبْن سعد، وأبو نعيم، والزَّمَخْشَري، والسّيوطي، والمناوي عن عدّة كبيرة من الأصحاب. بل قَالَ ٱبْن حَجَر المكي: نقل بَعْضهُم الإجْمَاع عَلَيْهِ. (أنظر الإمَامَة فِي أهم الكتب الكلامية وعَقِيدَة الشّيعة الإمَامِيَّة للسيّد عليّ الحُسَيْني الميلاني: ٢٦٩ منشورات الشَّرِيف الرَّضِي الطّبعة الأُولىٰ قم). ورواه أحمد بن حنبل فِي مُسْنَده: ٣٧٣ ط ٱلْحَجَر، و: ١/٨٤ ط الحلبي.

وفِي كشف اليَقِين فِي فَضَائِل أَمِير ٱلْمُؤْمِنِين ﷺ لِابْن المطهّر الحلّي: ٢٤ تحقيق حُسين الدرگاهي قَالَ ﷺ: إنّ عليّ بن أبي طالب أَوّل النّاس إيمَاناً. ومن كتاب المنَاقِب لأبي المؤيد الخوارزمي: ١٧ عن سَلْمَان قَالَ: سمعت النَّبِيّ ﷺ يَقُول:... أوّلهم إسلاماً [إيمَاناً] وهو عليّ بن أبي طالب. وفِي كتاب مُسْنَد أحمد: ١/٣٣٠ عن عَمْرُو بن ميمون قَالَ: إنّي لجالس إلىٰ ٱبن عبّاس إذ أتاه تسعة رهط ـ إلىٰ أنْ قَالَ ﷺ ـ: وكَانَ أَوّل من أسلم من النّاس بعد خَدِيجَة. وفِي كتاب المنَاقِب لِابْن شهرآشوب: ٢/٤و٩ قَالَ: ٱستفاضت الرّواية أنّ أَوّل من أسلم عليّ ﷺ ثمّ خَدِيجَة. لكن يستفاد من بَعْض الرِّوَايَات أنّ أَوّل من أسلمت هِي خَدِيجَة ثمّ أسلم عليّ ﷺ كما ورد فِي أَنْسَاب الصَّحَابَة عن الطَّبَرِيّ وغَيْره، ويمكن حمل كَلاَم ٱبْن شهرآشوب أنّ أَوّل من أسلم من ٱلرّجَال عليّ ﷺ وأَوّل من أسلم من ٱلنِّسَاء خَدِيجَة رضي الله عَنْهَا.

وروىٰ شهاب الدين ٱبْن حَجَر العسقلاني فِي الإصَابَة بسنده عن ليلىٰ الغفارية قالت: كنت أغزو مَع النَّبِيّ ﷺ فأُداوي الجرحىٰ وأقوم علىٰ المرضىٰ. فَلَمّا خرج عليّ ﷺ إلىٰ ٱلْبَصْرَة خرجت معه. فَلَمّا رَأيْت عَائِشَة أتيتها فقلت لها: هل سمعت من رَسُول الله ﷺ فضيلة فِي عليّ؟ قالت: نعم، دخل عليّ ﷺ علىٰ رَسُول الله ﷺ وهو معي وعَلَيْهِ جرد قطيفة ـ إلىٰ أنْ قَالَ ﷺ: ـ فإنّه أَوّل النّاس إسلاماً. (وأنظر تَأرِيخ الطَّبَرِيّ: ٢/٥٥). وذكر الجويني فِي فرائد السّمطين: ١/١٤٠ ح ١٠٣ عن أبي ذرّ، وسَلْمَان قالا: أخذ النَّبِيّ ﷺ بيد عليّ ﷺ فَقَالَ: إنّ هَذَا أَوّل من آمَن بِي...وفِي تَفْسِير ٱبْن الحجّام لقَوْله تَعَالَىٰ: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَـٰئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم﴾ ٱلنِّسَاء: ٦٩ فِي حَدِيث طويل قَالَ ﷺ: إنّ الله قد أنزل بَيَان ما سألت فجعلك رفيقي، فإنّك أَوّل من أسلم. (أنظر كشف الغمّة: ١/١١٦).

⇔

⇔ وروىٰ أبو زرعة دِمَشْق، وأبو إسْحَاقَ الثّعلبي قالا: قَالَ أبو بَكْر: يا أسفي علىٰ ساعة تقدّمني فيها عليّ بن أبي طالب، فلو سبقته لكان لِي سابقة ٱلإِسْلاَم. وعن عُمَرَ بن الخَطَّاب أيضاً قَالَ: قَالَ رَسُول الله ﷺ: يا عليّ أَنتَ أَوَّل ٱلْمُسْلِمِين إسلاماً، وأَنْتَ أَوَّل ٱلْمُؤْمِنِين إِيمَاناً. وذكر حَدِيث عُمَرَ ٱبْن عساكر فِي تَأرِيخ دِمَشْق ترجمة الإِمَام عليّ عليه السلام: ١/ ٣٣١/ ٤٠١. وفِي اليَنَابِيع للقندوزي: ٦٠ عن ٱبن عبّاس قَالَ: أوّل من أسلم من النّاس بعد خَدِيجَة عليّ بن أبي طالب. وفِي الاِسْتِيعَاب لِابْن عبدالبرّ المالكي بهامش الإِصَابَة: ٣/ ٢٩ عن سَلْمَان قَالَ: أوّلها إسلاماً عليّ بن أبي طالب.

وفِي تَأرِيخ الطَّبَرِيّ: ٢/ ٥٥/ ٥٧ عن ٱبْن إِسْحَاقَ مِثْله، عن زيد بن أرقم قَالَ: أوّل من أسلم مَع رَسُول الله ﷺ عليّ بن أبي طالب عليه السلام. وفِي تَأرِيخ دِمَشْق: ١/ ٣٢/ ٦١ عن عُرْوَة بن الزُّبَيْر مِثْله، و: ١/ ٣٦/ ٦٨ عن قتادة عن الحَسَن البصري وغَيْره مِثْله، و: ١/ ٦٥/ ١٠٤ عن أبي مالك بن الحويرث مِثْله أيضاً، و: ١/ ٨٠/ ١٢٩ عن عَمْرُو بن عبدالله بن يعلى بن مرّة الثَّقَفِيّ مِثْله أيضاً. وفِي الكَامِل لِابْن الأَثِير: ٢/ ٥٨ مِثْله أيضاً.

وأُنظر الكافِي: ٤٥٤/١، وأمالي الشّيخ الصّدوق: مجلس ٣٧/ ٥، وتَذكِرة الخواصّ: ١٠٣، وتَأرِيخ الطَّبَرِيّ: ٢/ ٥٧ و ٥٨، والمَنَاقِب لِابْن شهرآشوب: ٢/ ١١، ورِسَالَة الإِسْكَافِي لِلْحَاكِم النّيسابوري: ٢٢، ومروج الذّهب للمسعودي: ٢/ ٤٣٧، والإِرْشَاد للشيخ المفيد: ٩ ب ١ فصل ١، العقد الفَرِيد للعلّامة الأندلسي المالكي: ٣ فِي قِصّة ٱحتجاج المأمون علىٰ الْفُقَهَاء وَهِي مناظرة، لطيفة فِي فضل عليّ عليه السلام وبأنه أوّل من آمن بالله، وأُنظرها فِي الإحقاق: ٣/ ١٨٤ وما بعدها.

وفِي شرح النَّهج لِابْن أَبِي ٱلْحَدِيد: ٣/ ٢٥٧ قَالَ ﷺ لفاطِمَة عليها السلام: زوّجتك أقدم الأُمّة إسلاماً. وأخرج الخَطِيب فِي المتفق، والسّيوطي فِي جمع الجَوَامِع: ٦/ ٣٩٨ قَالَ ﷺ لفاطِمَة عليها السلام: زوّجتك خير أُمّتي أعلمهم عِلْماً، وأفضلهم حلماً، وأوّلهم سلماً.

وروىٰ الخَطِيب فِي تَأرِيخه: ٤/ ٢٣٣ عن عليّ عليه السلام أنّه قَالَ: أنا أَوّل من أسلم مَع النَّبِيّ ﷺ. وروىٰ ٱبْن مزاحم فِي كتاب صِفِّين: ١٠٠ و ١٣٣ أنّه عليه السلام كتب إِلىٰ مُعَاوِيَة وَقَالَ: كنّا أَهْل ٱلْبَيْت أَوّل من آمن به، وصدّق بِمَا جاء به. وذكر ٱبْن أَبِي ٱلْحَدِيد: ٢/ ١٠١ خُطْبَة الإِمَام الحَسَن عليه السلام فِي مجلس مُعَاوِيَة قَالَ فيها: وأنشدكم الله هل تعلمون أنّه أوّل النّاس إِيمَاناً؟ وأنّك ـ يا مُعَاوِيَة ـ وأباك من المؤلّفة قلوبهم.

وأُنظر رِسَالَة الإِسْكَافِي، والحافظ الكنجي فِي الكفَايَة: ٤٨، الغَدِير: ٢/ ٢٧٦، صَحِيح التِّرمِذي: ⇔

↩ ٢ / ٣٠١، النّسائي فِي خصائصه: ٢، ٱبْن سعد فِي طَبقَاته: ٣ / ١٢ القسم ١، أُسد الغَابَة: ٤ / ١٧، كنز العُمّال: ٦ / ٤٠٠ مُسْنَد أحمد: ٤ / ٣٦٨ و ٣٧١، تَأرِيخ ٱبْن جرير الطَّبَرِيّ: ٢ / ٥٧ عن مُحَمَّد بن المنكدر، ورَبِيعَة بن أبي عبدالرَّحْمَان، وأبي حازم المدني.

وأنظر أيضاً المُسْتَدرَك فِي الصَّحِيحِين: ٣ / ٤٦٥ عن ٱبن عبّاس، و: ٣ / ١٣٦ عن سَلْمَان، والخَطِيب فِي تَأرِيخه: ٢ / ١٨، والإسْتِيعَاب لِابْن عبدالبرّ: ٢ / ٤٥٧ عن عَمْرُو مَوْلَىٰ عفرة، و: ٤٥٦ عن سَلْمَان، وأبي ذرّ، والمقداد، وجابر، وأبي سعيد الخدري، وزيد بن أرقم، وعن أبي رافع: ٤٥٨ عن قتاده عن المسند، وذكره المناوي فِي كنوز الدقائق، مُسْنَد أحمد بن حنبل: ٥ / ٢٦ عن معقل بن يسار.

وراجع كنز العُمّال: ٦ / ١٥٣، و: ٦ / ٣٩٢ و ٣٩٥ عن عُمَرَ، مَجْمَع الزّوائد: ٩ / ١٠١، و: ١٠٢ و ١١٤ و ٢٢٠، عن بريدة وعن مالك بن الحويرث، مُسْنَد الإِمَام أبي حَنِيفَة: ٢٤٧ عن حبّة، والبغدادي فِي تَأرِيخه: ٤ / ٢٣٣، الإِصَابَة: ٤ / ١١٨ القسم ١ عن جابر، ٨ / ١٨٣ القسم ١ عن ليلىٰ الغفارية، أُسد الغَابَة: ٤ / ١٧ عن الحارث، و: ٥ / ٢٥٠، الرِّياض النّضرة: ٢ / ١٨٢ عن أنس، الإسْتِيعَاب: ٢ / ٤٥٨، حلية الأَوْلِيَاء: ٤ / ٢٩٤.

وأنظر كَذَٰلِكَ فِي الدُّر المنثور للسيوطي فِي ذيل تَفْسِير قَوْله تَعَالَىٰ: ﴿وَكُنتُمْ أَزْوَٰجًا ثَلَٰثَةً﴾ ٱلْوَاقِعَة: ٧، فيض القدير: ٤ / ١٣٥، الصَّوَاعِق المُحْرِقَة: ٧٢، ذَخَائِر العُقْبَىٰ: ٥٨، الرِّياض النّضرة: ٢ / ١٥٨، الثّعلبي فِي قصصه: ٢٣٨ و ٢٥٧ و ٢٥٨، السّيوطي فِى الدُّر المنثور فِي ذيل الآية ﴿وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا أَصْحَٰبَ ٱلْقَرْيَةِ﴾ يس: ١٣، تَأرِيخ بغداد: ١٤ / ١٥٥ عن جابر، تَهْذِيب التَّهذيب: ٧ / ٢٣٦، نور الأَبْصَار للشبلنجي: ٦٩.

أمّا حَدِيث «أوّل من آمن بالنّبيّ ﷺ» فانظر تَأرِيخ الطَّبَرِيّ لِابْن جرير: ٢ / ٧٥ عن إِسْحَاق أوّل: ذَكر آمن برسول الله ﷺ وصلّىٰ معه وصدّقه بِمَا جاء من عندالله عليّ بن أبي طالب، السّيوطي فِى الدُّر المنثور فِي ذيل تَفْسِير: ﴿فَٱبْعَثُواْ حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِۦ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَآ﴾ ٱلنِّسَاء: ٣٥. وساق الحَدِيث. الزّوائد: ٦ / ٢٣٩، والسّيوطي أيضاً فِى الدُّر المنثور فِي تَفْسِير سُورَة ٱلتَّوْبَة فِي ذيل ﴿أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ ٱلْحَآجِّ وَعِمَارَةَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ كَمَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ﴾ ٱلتَّوْبَة: ١٩.

وأنظر أيضاً سُنَن البَيْهَقِيّ: ٦ / ٢٠٦ عن الحَسَن وغَيْره، مَجْمَع الزّوائد: ٩ / ١٠٢ نقلاً عن الطَّبراني، خَصَائِص النّسائي: ٣ عن عَمْرُو بن عبّاد بن عبدالله، أُسد الغَابَة: ٤ / ١٩ عن أبي إِسْحَاق، الإسْتِيعَاب: ↩

إنّ عَلِيّاً سبق أبا بَكْر إِلَىٰ ٱلإِسْلاَم بٱتفاق الكلّ، وسبقه أبو بَكْر إِلَىٰ ٱلْخِلاَفَة، فَقَالَ مَن آمن بالله، ورَسُوله: كَيْفَ تَقَدَّم أبو بَكْر علىٰ أَوَّل الْقَوْم إسلاَماً، وأقدَمهم بالله إِيمَاناً، والله يَقُول: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلْمُقَرَّبُونَ﴾[1]. وحَار فِي الجَوَاب مَن تنكر للْحَقّ، وَأهله، وأخِيراً أسعَفته القرِيحة، فَلفَّ، ودَار، وَتَلاَعب بالأَلْفَاظ وَقَالَ: أَوَّل مَن أسلم مِن ٱلنِّسَاء خَدِيجَة، ومِن الصّبيَان عليّ، ومِن ٱلرِّجَال أبو بَكْر.

(فَأُوبُوا شَرَّ مَآبٍ، وَ ٱرْجِعُوا عَلَىٰ أَثَرِ الأَعْقَابِ. أَمَا إِنَّكُمْ سَتَلْقَوْنَ بَعْدِي ذُلاًّ شَامِلاً، وَ سَيْفاً قَاطِعاً، وَ أَثَرَةً يَتَّخِذُهَا الظَّالِمُونَ فِيكُمْ سُنَّةً). قَالَ ٱبن أَبِي ٱلْحَدِيد: وهَذِه ٱلْخُطْبَة هم، ـ للخوَارج ـ، وَهَذَا الدُّعَاء عَلَيْهِمْ، وَهَذَا الإخبَار عن مُسْتَقْبَل

⇐ ٢/ ٧٥٩ فِي ترجمة ليلىٰ الغفارية، الرّياض النّضرة: ٢/ ١٥٧ عن أبي ذرّ، و: ٢/ ١٥٧ عن معاذة العدوية.

كنز الْعُمّال: ٦/ ٤٠٥، ميزان الإعْتِدَال للذهبي: ١/ ٤١٧، الرّياض النّضرة: ٢/ ١٩٨ عن معاذ بن جبل.

وراجع حلية الأَوْلِيَاء لأبي نعيم: ١/ ٦٦، الإِصَابَة: ٧/ ١٦٧ القسم ١ عن أبي ليلىٰ الغفاري، فيض القدير: ٤/ ٣٥٨ عن أبي ذرّ، وسَلْمَان مطوّلاً. كنز الْعُمّال: ٦/ ١٥٦ نقلاً عن الطّبراني، و: ٦/ ٣٩٣ عن المأمون عن الرّشيد عن المَهْدِيّ عن المنصور عن أبيه عن عبدالله بن عبّاس قَالَ: سمعت عُمَرَبن الخَطّاب يَقُول: كفوا عن ذِكر عليّ، ذَخَائِر الْعُقْبَىٰ: ٥٨ و ٨٣ بَاب فَضَائِل عليّ٧، مَوَدَّة القربىٰ: ٢٢، كنز الْعُمّال: ١٦/ ٦/ ٣٢٩٩١.

وكَذَلِكَ أُنظر الفِرْدَوْس للديلمي: ١/ ٤١/ ٩٣، شرح نَهْج البَلاَغَة: ٩/ ١٧٣ و ١٧٤ ٱلْخُطْبَة ١٥٤ و ٣٠٠، المنَاقِب للخوَارزمي: ٥٢/ ١٥ و ٥٧/ ٢٣ و ٥٨/ ٢٧، الفَضَائِل لأَحْمَد: ٢/ ٥٨٩/ ٩٩٧ و ٩٩٨، المُسْتَدرَك: ٣/ ٤٦٥، المنَاقِب لِابْن المغازلي: ١٦/ ٢٢، فرائد السّمطِين: ١/ ١٣٩ ـ ١٤٠/ ١٠٢ و ١٠٣، الإِصَابَة لِابْن حَجَر: ٤/ ١٧١ و ٤٠٢ ترجمة ٩٧٤ و ٩٩٤.

(١) ٱلْوَاقِعَة: ١٠ ـ ١١.

حَالهم، قد وقع ذَلِكَ، فإنّ الله تَعَالَىٰ سَلط علىٰ الْخَوَارِج بَـعد ذَلِكَ الذُّلَّ الشّـامل، والسَّيْف القَاطع، والأثرَة من السُّلْطَان، وما زَالت حَالهم تَضمحل، حَتّىٰ أفنَاهم الله تَعَالَىٰ، وأفنىٰ جمهُورهم، ولقد كَانَ لهم من سَيْف الْمُهَلَّب بن أبي صُفرة، وبَنيه الحَتف القَاضي، والْمَوْت الزّؤام. وتَكَلّمنا عن سيَاسة الإمَامِ عليه السلام مَع الخَوَارِج [1].

(١) أنظر، شرح نَهْج البَلاَغَة لِابْن أَبِي اَلْحَدِيد: ١٣٢/٤، وشرح اَلْخُطْبَة ٤٠ فِقْرَة: «موقف الإمَام من الخَوَارِج». (مِنْهُ رحمه الله).

الخطبة
-٥٩-

حَوْلَ الْخَوَارِج:

مَصَارِعُهُمْ دُونَ النُّطْفَةِ، وَاللهِ لاَ يُفْلِتُ مِنْهُمْ عَشَرَةٌ، وَ لاَ يَهْلِكُ مِنْكُمْ عَشَرَةٌ.

الْمَعْنىٰ:

الضَّمِير فِي مصارعهم يعود إِلىٰ الْخَوَارِج، والْمُرَاد بالنُّطْفَة النّهر. وجاء فِي كتاب «عليّ وبَنُوه» لطَه حُسِين: «ولكن الأَنْبَاء تصل إِلَيْهِ بأنّهم ـ الْخَوَارِج ـ قد نَشروا ٱلْفَسَاد فِي ٱلأَرْض، فَقَتَلُوا عبدالله بن خَبَّاب بن الْأَرَتِّ. وخَبَّاب من خيَار الْصَّحَابَة. وَقَتَلُوا نُسوة كُنَّ مَع عبدالله، وجَعَلُوا يَستعرضُون النّاس، ويُذيعون الذُّعر. فأرسل إِلَيْهِمْ عليّ رجلاً من أَصْحَابِه يسألهم عن هَذَا ٱلْفَسَاد... وَقَتل النّفس الّتي حرّم الله بغَير الحقّ. فلم يَكد الرَّسُول يَدنو مِنْهُم حَتَّىٰ قَتلوه. وجَاء الْخَبَر عَلِيّاً... وسمع لهم عليّ. فسَار بِهِمْ إِلىٰ النَّهْرَوَان. حَتَّىٰ إِذَا صَار بإِزَاء الْخَوَارِج جَعل يطلب قَتَلَة عبدالله بن خَبَّاب، ومن كَانَ معه، وقَتَلَة رَسُوله إِلَيْهِمْ. فَلا يَظفر

مِنْهُم إلا بجوَاب وَاحد هو: «كُلنا هَؤُلآء القَتَلَة»[١].

وجَاء فِي «مروج الذّهب»: «إنّ الإمَامﷺ وَقَف بنَفْسِهِ علىٰ الْخَوَارِج، وَقَالَ لَهُمْ: أرجعوا، وتُوبوا، فأبوا ورَموا أَصْحَابِه. فقِيل له: قد رَمونا، قَالَ: كفوا. فكروا القَوْل عَلَيْهِ ثَلاَثاً، وهو يَأمرهم بالكَف حَتَّىٰ أَتي برجل (من أَصْحَابِه) قَتِيل مُتشحط بدَمه، فقَالَ: الله أكبر، الآن حلَّ قتَالهم، آحملوا علىٰ الْقَوْم»[٢] (وَ اللهِ لاٰ يُفْلِتُ مِنْهُمْ عَشَرَةٌ، وَ لاٰ يَهْلِكُ مِنْكُمْ عَشَرَةٌ). قَالَ الشّيخ مُحَمَّد عَبْدَه: «ما نَجا مِنْهُم ـ الْخَوَارِج ـ إلاّ تِسعة، تَفرقوا فِي البلاَد، وما قُتل من أَصْحَاب أَمِير ٱلْمُؤْمِنِين إلاّ ثَمَانِية»[٣].

وكلّ ما أُخبر به الإِمَامﷺ من الْغَيْب فَهُوَ عن رَسُول اللهﷺ عن جِبْرِيلَ عن الله، وإِلَىٰ هَذَا أشار الإِمَام بقَوْله: «لَيْسَ هُوَ بِعِلْمِ غَيْبٍ، وَإِنَّمَا هُوَ تَعَلُّمٌ مِنْ ذِي عِلْمٍ، عَلَّمَهُ اللهُ نَبِيَّهُﷺ فَعَلَّمَنِيهِ»[٤].

(١) أُنظر، الْفِتْنَة الْكُبْرَىٰ ـ ٢ ـ عليّ وبَنُوه: ١٠٤، طَبْعَة سَنَة ١٩٦٤م.

(٢) أُنظر، مروج الذّهب للمسعودي: ٤٠٥/٢، شرح نَهْج البَلاَغَة لِابْن أَبي ٱلْحَدِيد: ٢٧١/٢.

(٣) أُنظر، شرح نَهْج البَلاَغَة لُمحَمَّد عَبْدَه: ١٠٧/١، وقد تَقَدَّم إستخراج ذَلِكَ مفصلاً.

(٤) أُنظر، نَهْج البَلاَغَة: ٱلْخُطْبَةُ (١٢٨).

الخطبة

-٦٠ و٦١-

طَلَبَ الْبَاطِلَ فَأَدْرَكَهُ:

كَلاَّ وَ اللهِ، إِنَّهُمْ نُطَفٌ فِي أَصْلاَبِ الرِّجَالِ، وَ قَرَارَاتِ النِّسَاءِ، كُلَّمَا نَجَمَ مِنْهُمْ قَرْنٌ قُطِعَ، حَتَّىٰ يَكُونَ آخِرُهُمْ لُصُوصاً سَلاَّبِينَ.

لاَ تُقَاتِلُوا الْخَوَارِجَ بَعْدِي، فَلَيْسَ مَنْ طَلَبَ الْحَقَّ فَأَخْطَأَهُ، كَمَنْ طَلَبَ الْبَاطِلَ فَأَدْرَكَهُ.

اللُّغَة:

الأَصْلاَب: جمع صُلب ـ بضم الصَّاد ـ وهو عَظم فِي الظَّهْر ذو فقَار. والْمُرَاد بقَرَارَاتِ النِّسَاء أَرحامهن. ونَجَمَ: طَلَعَ. والْمُرَاد بالقَرْن هنا الرَّئيس.

الإِعْرَاب:

كَلاَّ حَرف رَدع، وزَجر، وكلّ اسم مَوْضُوع لإستغرَاق ما بَعده، وكَمَنْ طَلَبَ،

الكَاف بِمَعْنَىٰ مِثل خَبَر لَيْس.

الْمَعْنىٰ:

قَالَ قَائِل لِلْإِمَامِ عليه السلام بعد وَقْعَة النَّهْـرَوَان: هَـلَك الْخَـوَارِج بأجمعهم يـا أَمِـير ٱلْمُؤْمِنِين، فَقَالَ له: (كَلاَّ وَ اللهِ، إِنَّهُمْ نُطَفٌ فِي أَصْلاَبِ الرِّجَالِ، وَ قَرَارَاتِ النِّسَاءِ). أي أنّ مَذْهَب الْخَوَارِج سَوف يجد أتباعاً، وأنصاراً، وأنّ ٱلـنِّسَاء سَـوف يَـلدن الكَثِير من أمثَالهم يَمرقون من الدِّين كما يَمرق السَّهم من الرَّمية[1] ـ علىٰ حدّ تعبِير الْحَدِيث الشَّرِيف ـ ومَع هَذَا يصُومون، ويُصلّون، ويَـقرأون ٱلْـقُرْآن، ولكـن لا تَتَجاوز كلمَاته تَرَاقِيهم[2] (كُلَّمَا نَجَمَ مِنْهُمْ قَرْنٌ قُطِعَ). لا يَخرج مِنْهُم ثَائر إلاّ قُتل، أو

(١) أنظر، كنز الْعُمَّال: ١١ / ٢٠٨، وسبق وإنْ أشرنا إلَيْه مفصّلاً.

(٢) أُنظر، صَحِيح البُخَاريّ: بَاب أستتابة المرتدين، وكتاب ٱلْأَنْبِيَاء علامات النُّبُوَّة فِي ٱلْإِسْلاَم ـ وبَاب من رايا بقراءة ٱلْقُرآن، أو تأكل به ـ وبَاب قتال الْخَوَارِج، والمُلحدين بعد إقامة الحجّة عَـلَيْهِمْ. وصَـحِيح مُسْلِم: ١ / ٣٩٣. ٱلْبِحَار كشف الغمّة: ١ / ٢٦٤، وصَحِيح مُسْلِم أيضاً كتاب الزَّكَاة: ٢ / ٧٤١ بَاب ٤٧ وفِيهِ: يقرأون ٱلْقُرآن، لا يتجاوز تراقيهم، يَقتلُون أَهْل ٱلْإِسْلاَم، ويدعون أَهْل الأوثـان، يمـرقون مـن ٱلْإِسْلاَم كما يمرق السّهم من الرّمية، لئن أدركتهم لاقتلنّهم قتل عاد. وفِي: ٣٩٤ و ٣٩٦ من نفس ٱلْمَصْدَر جاء فِيهِ: لئن أدركتهم لاقتلنّهم قتل ثمود: ومِثْله فِي: ٧٤٢، وفِي كنز الْعُمَّال: ١١ / ٣٠٨ مِثْله.

وفِي صَحِيح مُسْلِم: ٢ / ٧٤٦ بَاب ٤٨، وكنز الْعُمَّال: ١١ / ٢٠٤ و ٢٠٦: إنّهم أحداث الأسنان سفهاء الأحلام، يَقُولُون من خير قَوْل البرية، يقرأون ٱلْقُرْآن لا يجاوز حناجرهم، يمرقون من الدين كما يمرق السّهم من الرّمية، فَإِذَا لقيتموهم فَاقتلوهم، فإنّ فِي قتلهم أجراً لمن قتلهم عندالله يَوْم ٱلْقِيَامَة. وجاء فِي صَحِيح مُسْلِم: ١ / ٣٩٨، و: ٢ / ٧٥٠، وكنز الْعُمَّال: ١١ / ٢٠٥ و ٢٠٧: إنّ بـعدي مـن أُمـتي... قـوْم يقرأون ٱلْقُرْآن لا يتجاوز حلاقيمهم يخرجون من الدين كما يخرج السّهم من الرّمية، ثمّ لا يعودُونَ فِيهِ، هم شرّ الخلق، والخليقة. وجاء فِي الكنز أيضاً: ١١ / ٣٠٥ و ٣٠٦، ومُسْنَد أحمد: ٥ / ٤٣٣ مِثْله بإضافة: فَإِذَا لقيتموهم فأقتلوهم ـ كرّرها صلى الله عليه وآله ثلاث مَرّات ـ.

هُزم (حَتَّىٰ يَكُونَ آخِرُهُمْ لُصُوصاً سَلاَّبِينَ). أي يَنتهي الأَمْر بِهِمْ إِلَىٰ اللّـصوصية، وقَطع الطُّرقات.

(لاَ تُقَاتِلُوا الْخَوَارِجَ بَعْدِي، فَلَيْسَ مَنْ طَلَبَ الْحَقَّ فَأَخْطَأَهُ، كَمَنْ طَلَبَ الْـبَاطِلَ فَأَدْرَكَهُ). من اللّذين لا يُفسدون فِي الأَرْض، إلاّ وَجَبَ حُكم الله فِيهِمْ، وهو قَوْله تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّمَا جَزَٰٓؤُاْ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَسْعَوْنَ فِى ٱلْأَرْضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوٓاْ أَوْ يُصَلَّبُوٓاْ أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم مِّنْ خِلَـٰفٍ أَوْ يُنفَوْاْ مِنَ ٱلْأَرْضِ ذَٰلِكَ لَهُمْ خِزْىٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَلَهُمْ فِى ٱلْأَخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾[1].

(فَلَيْسَ مَنْ طَلَبَ ٱلْحَقَّ) لوجه ٱلْحَقّ لا لغَايَة شَخصِية (فَأَخْطَأَهُ) لشُبْهَة عرضَت لهُ، وتَمكنت مِن عَقْله (كَمَنْ طَلَبَ الْبَاطِلَ) وأقدم عَلَيْهِ مَع عِلمه بأنّه بَاطِل، فـإنّ المُشتبه يُدرأ عَنْه الحدّ لقول الرَّسُول الأَعْظَمﷺ: «ٱلْحُدُود تُدرأ بِٱلشُّبُهَات»[2]. أمّا هَذَا الَّذي طلب ٱلْبَاطِل عامداً (فَأَدْرَكَهُ) ودافع عَنْه بالسَّيْف، وجيش الْجُيُوش لمحاربة ٱلْحَقّ، وَأهله، وٱبتدع فِي الدِّين، وَكَذب علىٰ سيّد الْمُرْسَلِين... أمّا هَذَا فلا عُذر له، كما فعل مُعَاوِيَة، أنّه لم يَكتف بإرَاقة الدِّمَاء، ومُحاربة إِمَام ٱلحَقّ، والْعَدْل حَتَّىٰ سَنَّ سَبَّه علىٰ المَنَابر، فقد نَقل ٱبن أبي ٱلْحَدِيد عن الوَاقدي: أنّ مُعَاوِيَة خَطب فِي أَهْل الشّام فَقَالَ: أنّ رَسُول الله قَالَ لِي: إنّك سَتلي ٱلْخِلاَفَة من بَعدي، فٱختر ٱلأَرْض المُقدسة، فإنّ فيها الأبدَال، وقد ٱخترتكم، فالعنوا أبا تُراب.

---

(١) ٱلْمَائِدَة: ٣٣.

(٢) أنظر، المَبْسُوط للسَّرخَسي: ٩٨/٧، الإنْتصَار: ٢٦١، الخِلاَف للطُّوسِي: ١٤٦/٢، من لا يحضره الْفَقيه: ٧٤/٤، سُنن ٱبن ماجه: ٨٥٠/٢، السُّنن الْكُبْرَىٰ: ٣٦٠/٧، كنز الْعُمَّال: ٣٠٥/٥، مَجْمع الزَّوائد: ٢٩٥/١٠، فتح الباري: ٢٦٢/١٢، شرح الزَّرْقَاني: ٢٣٦/٤.

فَلَعنوه[١]... وأيضاً أغرىٰ مُعَاوِيَة سَمُرَة بن جُنْدُب بأربعمئة ألف درهم[٢]، وروىٰ مفترباً أنّ هَذِه الآيَة نزلت فِي عليّ بن أبي طالب: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُۥ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيُشْهِدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا فِى قَلْبِهِۦ وَهُوَ أَلَدُّ ٱلْخِصَامِ وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِى

---

(١) أُنظر، مغازي الواقدي: ٣٦١، شرح نَهْج البَلاَغَة لِابْن أَبِي ٱلْحَدِيد: ٧٢/٤، (مِنْهُ ﷺ).

وأنظر علىٰ سَبِيل المثال بداية تأسيس مُعَاوِيَة لسَبّ الإِمَام ﷺ فِي كَنز العُمَّال: ٥/١٣٩/٤٠٣ و ٤٠٤ و ٤١٠ و ٤١١ و ٤٣٢ و ٤٨٧ الطَّبعة الثَّانِيَة، أَنْسَاب الأَشْرَاف للبلاذري: ٢/١٠٦ ح ٤٣، وص ٩٢ ح ٨ و ١٥ ـ ١٨ ط آخر، خَصَائِص النَّسائي ٤٨ و ٧٦ ـ ٨٥ ط الحيدرية، و١٠٦ ح ٤٥ ـ ٤٨ و ٦١ ط بيروت، وذَخَائِر الْعُقْبَىٰ: ٦٣ و ٦٤ و ٦٩ و ٨٧، مقتل الحُسَيْن للخوَارزْمِي: ٤٨/١ و ١٤٩، الْمُعْجَم الصَّغِير للطبراني: ٢٢/٢ و ٥٤، الإسْتِيعَاب بهامش الإِصَابَة: ٣٤/٣ و ٣٥، مَجْمَع الزّوائد: ١٠٩/٩ ـ ١١١ و ١١٩، إسعاف الرّاغبين بهامش نور الأبْصَار: ١٤٨ و ١٤٩ ط السّعيدية و ١٣٤ و ١٣٦ ط العُثْمَانِيَة، نظم درر السِّمطين: ٩٥ و ١٠٧، صَحِيح التِّرمِذي: ٣٠١/٥ ح ٣٨٠٨ صحّحه وح ٣٨١٣ وصحّحه أيضاً وح ٣٨١٤ حسّنه ط دار الفِكْر، أُسد الغَابَة: ٢٧٢٥/٤، و: ٨/٢ ط آخر، الإِصَابَة لِابْن حَجَر: ٥٠٩/٢ و ٥٠٧، كفاية الطَّالب: ٨٤ ـ ٨٦ ط الحيدرية و ٢٨ و ٧٠ ط الغري و ٢٨١ ـ ٢٨٥ و ٢٨٧ ط الحيدرية، و ١٤٨ ـ ١٥٣ ط الغري، المَنَاقِب للخوَارزْمِي: ١٩ و ٢٤ و ٥٩ و ٦٠ و ٧٤ و ٧٦ و ٨٣ و ٨٤ و ٨٦ و ١٣٠ و ٢١٤، الرِّياض النَّضرة: ٢١٤/٢ ـ ٢١٦ و ٢٤٧ و ٢٤٨ الطَّبعة الثَّانِيَة، جامع الأُصُول لِابْن الأَثِير: ٤٦٨/٩ و ٤٦٩. يَنَابِيع المَوَدَّة: ٣٥ و ٤٤ و ٤٩ و ٥٠ و ٥١ و ٥٥ ـ ٥٧ و ٦٣ و ٨٠ و ٨٦ و ٨٨ و ١١٤ و ١٢٩ و ١٣٠ و ١٧٦ و ١٨٣ و ١٨٥ و ٢٠٤ و ٢٢٠ و ٢٣٤ و ٢٥٤ و ٤٠٨ و ٤٩٦ ط اسلامبول، حلية الأَوْلِيَاء: ١٩٤/٧ ـ ١٩٧، الإسْتِيعَاب بهامش الإِصَابَة: ٣٤/٣ و ٣٥، تَأرِيخ الطَّبَرِيّ: ١٠٤/٣، المَنَاقِب لِابْن المغازلي: ٣٤ ح ٥٢ ط طهران، و٢٧ ح ٤٠ ـ ٣٠٣ الطَّبعة الأُولَىٰ طهران.

(٢) أُنظر، شرح نَهْج البَلاَغَة لِابْن أَبِي ٱلْحَدِيد: ٧٨٩/١ ط الحَدِيثَه ببيروت قَالَ: وقد روي أنّ مُعَاوِيَة بذل لسَمُرَة بن جُنْدُب مئة ألف درهم حَتَّىٰ يروي أنّ هَذِه الآيَة نزلت فِي عليّ بن أبي طالب: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ﴾ وأنّ الآيَة الثَّانِيَة هِي فِي ابن مُلْجَم وَهِي قَوْله تَعَالَىٰ: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْرِى﴾ فلم يقبل، فبذل له مائتي ألف درهم فلم يقبل، فبذل له ثلاث مئة ألف فلم يقبل، فبذل أربعمئة ألف فقبل وروىٰ ذَٰلِكَ. فلاحظ بَعْض مخازي سَمُرَة فِي الشّرح الْمُخْتَار المذكور: ٧٩٢. فَإِذَا كَانَتْ المقارنة من هَذَا البَاب فلا عتب.

ٱلْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ ٱلْحَرْثَ وَٱلنَّسْلَ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْفَسَادَ﴾[١]. وأنّ الآيَة الثَّانِيَة هِي فِي ٱبن مُلْجَم وَهِي قَوْله تَعَالَىٰ: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْرِى نَفْسَهُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ﴾[٢].

قَالَ طَه حُسين: «لو ردت إِلَىٰ ٱلْمُسْلِمِين أُمورهم، وطلب إِلَيْهِمْ أَنْ يَخْتَاروا إِمَاماً لما ٱختاروا مُعَاوِيَة بحَال من الأَحْوَال، لأنّهم بلوا سياسته، وخبروا عُمَّالِه، فرأوا أنّ أُمورهم تَصِير إِلَىٰ شرّ عظيم... فهم يحكمون بٱلْخَوْف لا بالرِّضِىٰ، ويساسون بالرغب، والرّهب، لا بِمَا يَنْبَغِي أَنْ يُساس به ٱلْمُسْلِمُون من كتَاب الله، وسُنّة نَبِيّه، وأَمْوَالهم الْعَامَّة ليست لَهُمْ بل إِلَىٰ ملكهم، وولاتهم يتصرفون فيها ما يشتهون، لا علىٰ ما يقتضيه ٱلْحَقّ، والْعَدْل، وٱلْمَعْرُوف... ودماؤهم ليست حراماً علىٰ ٱلْمُلْكِ وعُمَّالِه، وإنّما يستحل مِنْهَا ٱلْمُلْكِ، والْعُمَّال ما حرم الله... لا إقامة لحدود الدِّين، ولكن تثبيتاً لسلطان ٱلْمُلْكِ»[٣].

---

(١) ٱلْبَقَرَة: ٢٠٤ ـ ٢٠٥.

(٢) ٱلْبَقَرَة: ٢٠٧.

(٣) أنظر، الْفِتْنَة الْكُبْرَىٰ ـ ٢ ـ عليّ وبَنُوه للدّكتور، طَه حُسين: ١٣١ و ١٣٢. (مِنْهُ ﷺ).

الخطبة

-٦٢-

الْأَجَلُ حَارِسٌ:

وَإِنَّ عَلَيَّ مِنَ اللهِ جُنَّةً حَصِينَةً، فَإِذَا جَاءَ يَوْمِي انْفَرَجَتْ عَنِّي، وَأَسْلَمَتْنِي، فَحِينَئِذٍ لاٰ يَطِيشُ السَّهْمُ، وَ لاٰ يَبْرَأُ الْكَلْمُ.

اللُّغَة:

الْجُنَّة ـ بضم الجِيم ـ الوقَاية. ويَطِيشُ السَّهْمُ: يُخطىء هَدفه. والْكَلْمُ ـ بفَتح الكَاف وسكُون اللاَّم ـ الجُرح.

الْإِعْرَاب:

عَلَيَّ مُتَعَلِّق بمَحْذُوف خَبَراً مُقدماً لإنَّ، وَجُنَّةٌ آسمها، ومِنَ اللهِ مُتَعَلِّق بمَحْذُوف حالاً من جُنَّة، وَحِينَئِذٍ مُتَعَلِّق بـ«لاٰ يَطِيشُ».

الْمَعْنىٰ:

قيل لِلْإِمَامِ عليه السلام: نخشىٰ عَلَيْكَ من الإغتيال، فأجاب بِهَذِه الكَلِمَة، ولَيْسَ من

شّك أنّ الكل إِلَىٰ ٱلْمَوْت ، ولكن هَذَا تمتد به ٱلْحَيَاة مئة عام ، أو تَزيد ، وذَاكَ يوماً ، أو بَعْض يَوْم فما هو السّر ؟ هل هو قُوَّة ، أو ضَعْف فِي الجِسم ، أو هو حَظ ، أو قَضَاء وَقَدر ؟. وهناك فَلْسفَات ، أو تَفلْسفَات كَثِيرَة ، ولكن لا تَركن النّفس إِلَيْهَا ، لأنّ ٱلْعَقْل ، وٱلْحِسّ يَشهدان أنّ صَاحب الجِسم السّقيم قد تمتد به ٱلْحَيَاة أَكْثَر من السّليم ، وأنّ إِنْسَاناً قد يَمُوْت بضَربة ، وَلاَ يَمُوْت آخر بعشر أمثَالها . . . ولَيْسَ لنا فِي مثل هَذِه الحَال إلاّ اللّجوء إِلَىٰ خالق ٱلْمَوْت ، وٱلْحَيَاة ، وهو يَقُول جلّ من قَائِل : ﴿فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَايَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَايَسْتَقْدِمُونَ﴾[1] .

وفِي مَعْنَىٰ هَذِه الآيَة قَوْل الإِمَام : (وَ إِنَّ عَلَيَّ مِنَ اللهِ جُنَّةً حَصِينَةً) . وقَوْله : «كَفَىٰ بِالأَجَلِ حَارِساً !»[2] . ولكن الله سُبْحَانَهُ ما بيّن سبب الأَجَل ، والنّاس يسندونه إِلَىٰ ما يرون من قتلٍ ، أو مرضٍ ، أو تردٍّ ، أو غرقٍ ، أو تَقَدَّم فِي السّن ، وَإِذَا لم يروا شَيْئاً قَالُوا من الله مباشرة إنْ كَانُوا مؤمنين ، ولَيْسَ للعلم الْحَدِيث قَوْل قاطع فِي ٱلْمَوْت ، والَّذي لا شّك فِيهِ أنّ تَقَدَّم الطّب قلّل كثيراً من عدد الوفيات ، كما أنّ الْفَقْر ، وسُوء التَّغدية يزيد مِنْهَا ، وأخيراً ٱكتشف الأطباء أنّ تلوث ٱلْهَوَاء من تفجير القنابل الذَّرِّيَّة ، ومن مداخن المصانع ، وما إِلَيْهَا يُسبب للناس ٱلْمَوْت ، والإختناق .

كلّ ذَلِكَ تشمله آية : ﴿فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ﴾ بلا ريب ، ولَكِنَّهُ من صنع ٱلإِنْسَان كما شاهدنا ، فأين الحارس ؟ .

الجَواب:

إنّ وجُود الحَارس يَمنع مِن وجُود السّبب المُوجب للمُوت ، ووَصُوله إِلَىٰ الحَي ،

(١) ٱلأَعْرَاف : ٣٤.

(٢) أنظر ، نَهج البَلاَغَة : ٤/٧٣ ، ٱلْحِكْمَة (٣٠٦).

ولاَ يَمنع مِن تَأثِيره بَعد وُجُودِه، كَيْفَ ووجُود المُسبب حَتم، وَطَبِيعي عِند وجُود سَبَبه التَّام، فَإِذَا تَخلىٰ الحَارس عن الحَي جَاء السّبب، وأثَرَ أثره، ومَن مَات بالْقَتْلِ، أو الجُوع، أو المَرض، أو التَّلوث إنّما مَات بعد أنْ تَركه الحَارس، وَتَخلىٰ عَنْه. وفِي الآيَة: ﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾[1]، للحَارس بأنْ يَذْهَبُ، وَيَنصرف: ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلاً﴾[2].

(١) آلِ عِمْرَانَ: ١٤٥.

(٢) ٱلإِسْرَاء: ٨٥.

الخطبة

-٦٣-

آلدُّنْيَا فِتْنَةٌ:

أَلاٰ إِنَّ الدُّنْيَا دَارٌ لاٰ يُسْلَمُ مِنْهَا إلاّٰ فِيهَا، وَ لاٰ يُنْجَىٰ بِشَيْءٍ كَانَ لَهَا: اُبْتُلِيَ النَّاسُ بِهَا فِتْنَةً. فَمَا أَخَذُوهُ مِنْهَا لَهَا أُخْرِجُوا مِنْهُ، وَ حُوسِبُوا عَلَيْهِ، وَ مَا أَخَذُوهُ مِنْهَا لِغَيْرِهَا قَدِمُوا عَلَيْهِ، وَ أَقَامُوا فِيهِ، فَإِنَّهَا عِنْدَ ذَوِي الْعُقُولِ كَفَيْءِ الظِّلِّ، بَيْنَا تَرَاهُ سَابِغاً حَتَّىٰ قَلَصَ، وَ زَائِداً حَتَّىٰ نَقَصَ.

اللُّغَة:

السَّابغ: المُمتد. وَنِعْمَة سَابِغة أي وَاسِعة، وقَلَصَ الظِّلُّ، أو آلفيء: آنقبض، وقَلَصَ الغَدِير: ذَهب مَاؤه.

الْإِعْرَاب:

فِتْنَة مَفْعُول مُطلق لابْتُلِيَ لِأَنَّهَا بِمَعْنَىٰ الْإِبْتلاَء، أو مَفْعُول لأجْله أي آبْتُلِيَ من أَجل الْإِخْتبَار، وبَيْنَ ظرف بِمَعْنَىٰ وَسَط، فإنْ أَضفتَها إِلَىٰ الزّمان فَهِيَ ظَرف زَمَان

مِثل جَاءنِي بَيْنَ الطُّلوعين، والمَكَان فَهِيَ ظَرف مكَان مِثل جَلست بَيْنَ زَيد، وعَمْرُو، ويجُوز تكرَارها بَيْنَ زَيد، وبَيْنَ عَمْرُو، ويَجب مَع الضَّمِير بَيْنِي، وبَينَكَ، وإنْ قُلت: «بَيْنَ بَيَن» فَهِيَ مُركب مَزجي مَبني الجُزءين علىٰ ٱلْفَتْحِ، وَالأصل بَيْن وبَيْن مِثل خَمسة عَشر أصلها خَمسة وعَشر، ولمّا حُذفت الوَاو جَاء التَّركيب، وقَد تُشبع ٱلْفَتْحة عَلىٰ آخرها فَتَصير ألفاً مِثل بَيْنا أو تُزاد «ما» مِثل بَيْنما، وقِيل: الْأَلْف و «مَا» عُوض عَن مَحْذُوف.

الْمَعْنىٰ:

(أَلاٰ إِنَّ الدُّنْيَا دَارُ لاٰ يُسْلَمُ مِنْهَا إلاَّ فِيهَا). قَدمنا مَرَّات أنّ بَيْنَ الدُّنْيَا، والْآخِرَة ترَابطاً، وتشابكاً، فمَا من نَعيمٍ، أو جَحيم فِي الْآخِرَة إلّا وهو جزَاء علىٰ عَمل من أعمَال الدُّنْيا، أَللَّهُمَّ إلّا إذَا تَاب، وَعَمل صَالِحاً من قِبل أنْ يَأْتِي يَوْم لا تَكلِيف فِيهِ، ولاَ فدَاء، ومَعْنَىٰ هَذَا أنّ أَسْبَاب العذَاب فِي الْآخِرَة، وأَسْبَاب النَّجَاة فِيها كلّها قد تَجمعت فِي الدُّنْيَا، ولاَ شيء مِنْهَا فِي الْآخِرَة علىٰ الْإِطلاَق حَيْث لا تَكلِيف، ولا عَمل، أَبداً لا شيء إلّا ٱلْحِسَاب، وٱلْجَزَاء، وإذَنْ فأنا، وأَنْتَ، وكلّ إِنْسَان لاَ نجَاة له غداً إلّا إذَا ٱبتعد، وَسَلِمَ، وهو فِي هَذِه الدُّنْيَا، من المظَالم، والمآثم.

(وَ لاٰ يُنْجَىٰ بِشَيْءٍ كَانَ لَهَا) وَحْدَها بحَيث لا يَرىٰ ٱلإِنْسَان فِيها إلّا نَفْسه، وأَوْلاَده، وإلّا همُومه، ومشَاكله، وهو بِذَلِكَ فِي شُغلٍ شَاغل عن العَالم كلّه (ٱبْتُلِيَ النَّاسُ بِهَا فِتْنَةً). والْفِتْنَة هِي الْأَمْوَال، والْأَوْلاَد، وٱلجاه، وما إلىٰ ذَاكَ من مَتَاعِ هَذِه ٱلْحَيَاة، وبالْفِتْنَة يَتميز ٱلطَّيّب من الْخَبِيث، وتَظهر الأفعَال الّتي بها يَستحق ٱلإِنْسَان الثَّوَاب، والعقَاب.

(فَمَا أَخَذُوهُ مِنْهَا) . يَنظر فِيهِ: فإنْ كَانَ لسّد ٱلحَاجَة الّتي تَسْتَدعِيها ٱلحَيَاة فَهُوَ لله، ولِلإِنْسَان، ما فِي ذَلِكَ رَيب، وإنْ كَانَ للتضاهر، والتَّباهِي، وللإستعلاء، والطُّغيان (أُخْرِجُوا مِنْهُ) أي مِمَّا جَمعوا، وآدخرُوا حَيْث يَتركونه بٱلْمَوْت الظَّاهِر القَاهر (وَ حُوسِبُوا عَلَيْهِ) . وبعد ٱلحِسَاب حريق، وعذَاب (وَ مَا أَخَذُوهُ مِنْهَا لِغَيْرِهَا) . أي تَزودوا بالصَّالحات من الْعَاجِلَة إِلَىٰ الآجِلَةِ، ومن الفَانية إِلَىٰ الْبَاقِيَة (قَدِمُوا عَلَيْهِ، وَ أَقَامُوا فِيهِ) آنجَازاً لوَعده تَعَالَىٰ، وقَوْله: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّٰتِ عَدْنٍ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾[1].

(فَإِنَّهَا ـ أي الدُّنْيَا ـ عِنْدَ ذَوِي الْعُقُولِ كَفَيْءِ الظِّلِّ) سريعة الزّوال (بَيْنَا تَرَاهُ سَابِغاً) مُمتداً (حَتَّىٰ قَلَصَ) آنقبض (وَ زَائِداً حَتَّىٰ نَقَصَ) عطف تَفْسِير، وبَيَان.

وَالخُلاَصة: أنّ الدُّنْيا فِي نَظر ٱلإِسْلاَم، والإِمَام دَار آبتلاء، وَفِتنة لِأَنَّهَا دَار التَّكليف وٱلْعَمَل، واللّهو، والحيل، وٱلطَّيِّب الْعَاقِل يَتصَرف عن مفَاتنها، ومفَاسدها إِلَىٰ الصّالحات حَيْث تَنْتَهِي به إِلَىٰ النَّعِيمِ الخَالص، والرّاحة المُطلقة: ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾[2]. أَبداً، لا وَسِيلة إِلَىٰ ٱلحَيَاة الطَّيِّبَة للذّكور، والإنَاث إلاّ ٱلْعَمَل الصّالح. ومن البدَاهة أنّ ٱلْعَمَل الصّالح لا يَكُون، ولَنْ يَكُونَ مَع الدّكتاتورية، والضّغط علىٰ ٱلحُرِّيَّة، وَلاَ مَع طُغيان الرّأسمالية، وشُركاتها الإِحْتِكَارية.

---

(١) ٱلتَّوْبَة: ٧٢.

(٢) ٱلنَّحْلِ: ٩٧.

الخطبة

ـ ٦٤ ـ

آلآجَال، وآلأَعْمَال... فِقْرَة ١ ـ ٢:

فَآتَّقُوا اللهَ عِبَادَ اللهِ، وَ بَادِرُوا آجَالَكُمْ بِأَعْمَالِكُمْ، وَ آبْتَاعُوا مَا يَبْقَى لَكُمْ بِمَا يَزُولُ عَنْكُمْ، وَ تَرَحَّلُوا فَقَدْ جُدَّ بِكُمْ، وَ آسْتَعِدُّوا لِلْمَوْتِ فَقَدْ أَظَلَّكُمْ، وَ كُونُوا قَوْماً صِيحَ بِهِمْ فَآنْتَبَهُوا، وَ عَلِمُوا أَنَّ الدُّنْيَا لَيْسَتْ لَهُمْ بِدَارٍ فَآسْتَبْدَلُوا(١).

فَإِنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ لَمْ يَخْلُقْكُمْ عَبَثاً، وَ لَمْ يَتْرُكْكُمْ سُدىً، وَ مَا بَيْنَ أَحَدِكُمْ، وَ بَيْنَ الْجَنَّةِ، أَوِ النَّارِ إِلاَّ الْمَوْتُ أَنْ يَنْزِلَ بِهِ. وَ إِنَّ غَايَةً تَنْقُصُهَا اللَّحْظَةُ، وَ تَهْدِمُهَا السَّاعَةُ، لَجَدِيرَةٌ بِقِصَرِ الْمُدَّةِ. وَ إِنَّ غَائِباً يَحْدُوهُ الْجَدِيدَانِ: اللَّيْلُ، وَ النَّهَارُ، لَحَرِيٌّ بِسُرْعَةِ الْأَوْبَةِ، وَ إِنَّ قَادِماً يَقْدُمُ بِالْفَوْزِ، أَوِ الشِّقْوَةِ لَمُسْتَحِقٌّ لِأَفْضَلِ الْعُدَّةِ(٢).

اللُّغَة:

بَادِرُوا آجَالَكُمْ: آجعلوها تُسرع بالأَعْمَال. وَ آبْتَاعُوا: آشتَرُوا. وجُدَّ بِكُمْ: أُسْرِع بِكُمْ. ويَحْدُوهُ: يَسُوقهُ. وحَرِيٌّ، وَجَدِيرٌ، وَخَلِيقٌ، وَأَوْلَى بمعنىً واحد.

والْعُدَّةِ ـ بكسر الْعَيْن ـ الجَمَاعَة، وبضمِّها الإِستعدَاد.

الإِعْرَاب:

عِبَادَ اللهِ أي ياعِبَادَ اللهِ، والْمَصْدَر من أَنَّ الدُّنْيَا سَاد مَسد مَفْعُولي عَلِمُوا، وعَبَثاً مَصْدَر فِي مَوضع الحَال أي عَابِثاً، ومِثْله سُدىً أي مُهملين، وَبَيْنَ أَحَـدِكُمْ خَـبَر مقدم، والْمَوْتُ مُبْتَدَأ مُؤَخَّر، والْمَصْدَر من أَنْ يَنْزِلَ بِهِ بدل آشتمال من الْمَـوْت لأَنّ الْمَعْنَىٰ نزول الْمَوْت فَيَكُون، مثل: أعَجبني زَيد ثَوبه، والأَصل أَعجبني ثَوب زَيد، واللَّيْلُ، وَالنَّهَارُ بدل مُفصل من مُجمل، والمُبدل مِنْهُ الْجَدِيدَان.

الْمَعْنىٰ:

(وَ بَادِرُوا آجَالَكُمْ بِأَعْمَالِكُمْ). لا تدعوا أَعْـمَارَكُمْ تَـذهب سُـدىً، وفِي غَـيْر الأَعْمَال الصَّالحات (وَ ٱبْتَاعُوا مَا يَبْقَىٰ لَكُمْ بِمَا يَزُولُ عَنْكُمْ) آشتروا النَّـعِيم الدائم باللذيذ الزّائل (وَ تَرَحَّلُوا فَقَدْ جُدَّ بِكُمْ). أَنْتُم تُساقون فِي سفرٍ لا رَجْعَة بَعده، وَلاَ بُدّ للمُسافر من الزّاد (وَ ٱسْتَعِدُّوا لِلْمَوْتِ فَقَدْ أَظَلَّكُمْ). لَيسَ الْمَوْت بعيداً عَنْكُمْ.. إِنّه مُخيم علىٰ رُؤُوسكم يُنذر، ويُحذر، فَلِمَاذَا تَتَشاغلُون عَـنْه، وَلاَ تَـعدون له عُـدته (وَكُونُوا قَوْماً صِيحَ بِهِمْ فَٱنْتَبَهُوا). صاحَ بكم المَـوْت للـرَّجل، فٱسـتيقظوا مـن سُباتكم (وَ عَلِمُوا أَنَّ الدُّنْيَا لَيْسَتْ لَهُمْ بِدَارٍ). أي وكُونوا من الّذين علموا أنّ الدُّنْيَا لَيْسَتْ لَهُمْ بِدَار سَعَادَة، وإِقَامة، بل دَار فنَاء، وبلاء (فَٱسْتَبْدَلُوا). أي كـونوا مـن الّذين ٱسْتَبْدَلُوا الثَّمين بالرّخيص، والبَاقي بالفَاني أي ٱشْتَرَوا ذَاكَ بِهَذَا.

(فَإِنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ لَمْ يَخْلُقْكُمْ عَبَثاً). وفِيهِ إِيماء إِلَىٰ أَنّ الدُّنْيَا لو كَانَتْ هِي الْغَايَة

من خلق ٱلإنْسَان لكَان خَلقه عَبثاً لا مَعْنَىٰ له، لأنّ وُجُودِه أمَداً قَصِيراً فِي هَذا ٱلْحَيَاة لا يَستدعي كلّ ما أودَع الله فِيهِ من أسرَار، وطَاقات، وإذَنْ فلا بُد أنْ يَكُون القصد من خلق ٱلإنْسَان، ووُجُودِه فِي الدُّنْيَا أنْ يُهيىء نَفْسه لحَيَاة أسمىٰ، وأبقىٰ، ومن أَقْوَال الْإِمَامِ ﷺ: «الدُّنْيَا خُلِقَتْ لِغَيْرِهَا، وَلَمْ تُخْلَقْ لِنَفْسِهَا»[1] (وَ لَمْ يَتْرُكْكُمْ سُدىً) بلا تكليف، ونذير، وبشير (وَ مَا بَيْنَ أَحَدِكُمْ، وَ بَيْنَ الْـجَنَّةِ، أَوِ النَّـارِ إِلاَّ الْمَوْتُ أَنْ يَنْزِلَ بِهِ) لا محَالَةَ مَهما طَال عُمره، وبَلغ نَصيبه من الصّحة، والجَاه، والثَّراء، ولَيْسَ بعد ٱلْمَوْت إلّا ٱلْحِسَاب، وٱلْجَزَاء بالنَّعيمِ علىٰ عمل الْخَيْرْ، أو الجحيم علىٰ فعل الشّرّ.

(وَ إِنَّ غَايَةً تَنْقُصُهَا اللَّحْظَةُ، وَ تَهْدِمُهَا السَّاعَةُ، لَجَدِيرَةٌ بِقِصَرِ الْمُدَّةِ). المُرَاد بالْغَايَة هُنا الْعُمُر، وبالسَّاعَةُ ٱلْمَوْت، لأنّ السَّاعَة من أَسْمَاء ٱلْقِيَامَة، ومن مات فقد قَامت قيَامته[2]، والْمَعْنَىٰ أنّ عُمر ٱلإنْسَان أشبه بالْحِلْم، والخيَال ينقص، ويَقصر مَع الثّواني، واللحظَات، وما فَات مِنْهُ لا تُرجى رَجعته، ثُم يَزول بالمرّة، وَيهدم من الأَسَاس بِٱلْمَوْت، وَإِذَا كَانَ الْعُمُر علىٰ هَذِه الحَال فَهُوَ قصِير الأمد مَهما طَال، والْعَاقِل يُبادر الْفُرْصَة قَبل فوَاتها (وَ إِنَّ غَائِباً يَحْدُوهُ الْجَدِيدَانِ: اللَّيْلُ، وَ النَّهَارُ، لَحَرِيٌّ بِسُرْعَةِ الْأَوْبَةِ). الْمُرَاد بالغَائب هُنا ٱلْمَوْت، وبالأَوْبَةِ مُجرد الإِقْدَام الإقبَال، ولَيْسَ الْمُرَاد بها الرُّجُوع الَّذي سَبقه الحضُور، كِي يُقَال: أنّ ٱلْمَوْت لم يَكُنْ حاضِراً مِن قَبل كِي يُؤوب، ويَرجع، ومَهما يَكُنْ فإنّ الْمَعْنَىٰ: أنّ ٱلْمَوْت غائب عن الحـي،

(١) أنظر، نَهج البَلاغَة: ٤/١٠٦، ٱلْحِكْمَة (٤٦٣).

(٢) أنظر، كنز الْعُمَّال: ١٥/٥٤٨ ح ٤٢١٢٣ و٤٢٧٤٨، كشف الخفاء: ١/١٦٦ ح ٥٠٠، بحَار الأَنْوَار: ٥٨/٧، حاشية السّندي علىٰ النّسائي: ٨/٢٢٦.

ولَكِنَّهُ قَادم عَلَيْهِ بسُرْعَة اللَّيْلُ، وَ النَّهَارُ اللّذين لا يقفان لحظَة فما دُونها، ومن أَقْوَال الإمَام: «فَإِنَّ غَداً مِنَ الْيَوْمِ قَرِيبٌ، مَا أَسْرَعَ السَّاعَاتِ فِي الْيَوْمِ، وَأَسْرَعَ الْأَيَّام فِي الشَّهْرِ، وَأَسْرَعَ الشُّهُورَ فِي السَّنَةِ، وَأَسْرَعَ السِّنِينَ فِي الْعُمُرِ»[1].

(وَ إِنَّ قَادِماً يَقْدُمُ بِالْفَوْزِ، أَوِ الشِّقْوَةِ لَمُسْتَحِقٌّ لِأَفْضَلِ الْعُدَّةِ). الْمُرَاد بالقَادم هنا ٱلْمَوْت، وبِالْفَوْزِ النَّعِيم، وبالشِّقْوَةِ الجَحِيم، وبالْعُدَّةِ الإستعداد بِالْخَيْرَات، والأَعْمَال الصَّالحات، والْمَعْنَىٰ أنّ ٱلْمَوْت قَادم لا مَحَالَةَ، وبِسُرْعَة، وَلاَ شيء بعده إلّا الهَنَاء، أو الشّقاء، فأعدُّوا له عُدته مُنذ الآن لا يُمهلكم ـ إِذَا جَاء ـ لحظَة، وَلاَ يَدَعْكُمْ تَنطقُون بِحَرف، أو تَتَنفسُون بِنَفس.

عُمر ٱلإِنْسَان حُجَّة عَلَيْهِ...فِقْرَة ٣ ـ ٤:

فَتَزَوَّدُوا فِي الدُّنْيَا، مِنَ الدُّنْيَا، مَا تَحْرُزُونَ بِهِ أَنْفُسَكُمْ غَداً. فَاتَّقَىٰ عَبْدٌ رَبَّهُ، نَصَحَ نَفْسَهُ، وَ قَدَّمَ تَوْبَتَهُ، وَ غَلَبَ شَهْوَتَهُ، فَإِنَّ أَجَلَهُ مَسْتُورٌ عَنْهُ، وَ أَمَلَهُ خَادِعٌ لَهُ، وَ الشَّيْطَانُ مُوَكَّلٌ بِهِ، يُزَيِّنُ لَهُ الْمَعْصِيَةَ لِيَرْكَبَهَا، وَ يُمَنِّيهِ التَّوْبَةَ لِيُسَوِّفَهَا[3].

إِذَا هَجَمَتْ مَنِيَّتُهُ عَلَيْهِ أَغْفَلَ مَا يَكُونُ عَنْهَا. فَيَا لَهَا حَسْرَةً عَلَىٰ كُلِّ ذِي غَفْلَةٍ أَنْ يَكُونَ عُمُرُهُ عَلَيْهِ حُجَّةً، وَ أَنْ تُؤَدِّيَهُ أَيَّامُهُ إِلَىٰ الشِّقْوَةِ! نَسْأَلُ اللهَ سُبْحَانَهُ أَنْ يَجْعَلَنَا وَ إِيَّاكُمْ مِمَّنْ لاٰ تُبْطِرُهُ نِعْمَةٌ، وَ لاٰ تُقَصِّرُ بِهِ عَنْ طَاعَةِ رَبِّهِ غَايَةٌ، وَ لاٰ تَحُلُّ بِهِ بَعْدَ الْمَوْتِ نَدَامَةٌ، وَ لاٰ كَآبَةٌ[4].

---

(١) أُنظر، نَهج البَلاَغَة: الخُطبَة (١٨٨).

اللُّغَة:

يُمَنِّيه: يَعده وعداً كَاذِباً بتحقق أُمنيته. لِيُسَوِّفَهَا: لِـيُؤخرهَا. وتُـبْطِرُهُ: تُـطغيه فيتجاوز الحدّ.

الإِعْرَاب:

أَغْفَلَ مَا يَكُونُ حَال من الضَّمِير فِي «عَلَيْهِ»، وَفَيَا لَهَا «يَا» حرف نداء، والمُنادىٰ مَحْذُوف، واللاَّم للتعجب، وحَسْرَةً تَمْيِيز، وَهِي بَيَان، وتَفْسِير للهاء فِي «لَهَا» مِثل: يا لَكَ من عالم، فالخطاب هُنا للعَالم، والْمَصْدَر من أَنْ يَكُونَ عُمُرُهُ بدل اشتمال من ذِي غَفْلَةٍ، ويجُوز أنْ يَكُون مَنْصُوباً بنَزع الخَافض، والْمَصْدَر من أَنْ يَجْعَلَنَا مَفْعُول نَسْأَلُ اللهَ، والْغَايَة فَاعِل تُقَصِّرُ.

الْمَعْنىٰ:

(فَتَزَوَّدُوا فِي الدُّنْيَا، مِنَ الدُّنْيَا، مَا تَحْرُزُونَ بِهِ أَنْفُسَكُمْ غداً). صُونوا أَنْفُسكُمْ من عذَاب الْآخِرَة بتقوىٰ الله فِي الدُّنْيَا، وتَقَدَّم بالحَرف مَع الشّرح فِي ٱلْخُطْبَة ٢٩ (فَاتَّقَىٰ عَبْدٌ رَبَّهُ، نَصَحَ نَفْسَهُ، وَ قَدَّمَ تَوْبَتَهُ، وَ غَلَبَ شَهْوَتَهُ). بعد أنْ أمر بالتزود إِلَىٰ الْمَعَاد فسرَّ الزّاد بالتَّقْوىٰ، وفسرَّ التَّقْوىٰ بلَجم النّفس عن ٱلشَّهَوَات، والنّصح لها بالمُحاسبة، والمُراقبة، وٱلتَّوْبَة قبل ٱلْمَوْت (فَإِنَّ أَجَلَهُ مَسْتُورٌ عَنْهُ). ضَمِير أَجلَهُ يَعود إِلَىٰ العَبد، والْمَعْنَىٰ أنّ العَبد إِذَا كَانَ لا يَدري مَتىٰ، وأين يَمُوت فجَدِير بِـهِ أَنْ يَكُون دَائم الإِستعدَاد للمُوت، ومُلاَقَاته (وَ أَمَلَهُ خَادِعٌ لَـهُ). ٱلأَمَـل مَـع الجِـدّ والإِجْتهَاد عَقل، ودِين، ومَع الإِهمَال، والكَسل سَفه، وَتَسوِيف.

(وَ الشَّيْطَانُ مُوَكَّلٌ بِهِ ، يُزَيِّنُ لَهُ الْمَعْصِيَةَ لِيَرْكَبَهَا ، وَ يُمَنِّيهِ التَّوْبَةَ لِيُسَوِّفَهَا) . كلّ شيء يُزين القبح لِلْإِنْسَان ، ويُغريه به فَهُوَ شَيْطَان إِنْسَاناً كَانَ ، أم مالاً ، أم وسوسة (إِذَا هَجَمَتْ مَنِيَّتُهُ عَلَيْهِ أَغْفَلَ مَا يَكُونُ عَنْهَا) . بينا هو يتمادىٰ فِي ٱلْمَعْصِيَة ، والآثام ، ويؤخر ٱلتَّوْبَة آناً فآناً ، وَإِذَا بِٱلْمَنِيَّة تغتاله بَغْتَة ، وتَختطفه من حَيْث لا يَشعر .

(فَيَا لَهَا حَسْرَةً عَلَىٰ كُلِّ ذِي غَفْلَةٍ أَنْ يَكُونَ عُمُرُهُ عَلَيْهِ حُجَّةً ، وَ أَنْ تُؤَدِّيَهُ أَيَّامُهُ إِلَىٰ الشِّقْوَةِ !) . يَتحسر الإِمَام عليه السلام ، ويَأسف لكلّ غَافل ، وذَاهل أنْ يَكُون عُمره الَّذي مَنَّ الله بِهِ عَلَيْهِ ، ليغتنم الْفُرْصَة ، ويستبق الْخَيْرَات ... يَتوجع الإِمَام لِهَذَا الْمِسْكِين : كَيْفَ ضَيع الْفُرْصَة ، وحوّل النِّعْمَة إِلَىٰ نِقمة ، وحُجّة عَلَيْهِ ! ... إنّ حَال هَذَا المُهمل المسوّف تَمَامَاً كحَال من مَلك ثَروة كُبرىٰ فَبددها ، وأتلفها فيما يَضرّه ، وَيذله ، وهَوىٰ فِي النِّهَايَة إِلَىٰ الحَضِيض (نَسْأَلُ اللهَ سُبْحَانَهُ أَنْ يَجْعَلَنَا وَإِيَّاكُمْ مِمَّنْ لاٰ تُبْطِرُهُ نِعْمَةٌ) . فَتَدفع به إِلَىٰ الغُرُور ، وتميل به عن ٱلْحُدُود (وَ لاٰ تُقَصِّرُ بِهِ عَنْ طَاعَةِ رَبِّهِ غَايَةٌ ، وَ لاٰ تَحُلُّ بِهِ بَعْدَ الْمَوْتِ نَدَامَةٌ ، وَ لاٰ كَآبَةٌ) . فإنّ النِّعْمَة تستأدي شكر المُنعم ، وطَاعته ، لا تَجاهله ، ومَعْصِيَته .

الخطبة

-٦٥-

الكَمَال المُطلق...فِقْرَة ١ ـ ٢:

الْحَمْدُ للهِ الَّذِي لَمْ تَسْبِقْ لَهُ حَالٌ حَالاً، فَيَكُونَ أَوَّلاً قَبْلَ أَنْ يَكُونَ آخِراً، وَ يَكُونَ ظَاهِراً قَبْلَ أَنْ يَكُونَ بَاطِناً، كُلُّ مُسَمَّىً بِالْوَحْدَةِ غَيْرَهُ قَلِيلٌ، وَكُلُّ عَزِيزٍ غَيْرَهُ ذَلِيلٌ، وَكُلُّ قَوِيٍّ غَيْرَهُ ضَعِيفٌ، وَكُلُّ مَالِكٍ غَيْرَهُ مَمْلُوكٌ، وَكُلُّ عَالِمٍ غَيْرَهُ مُتَعَلِّمٌ، وَكُلُّ قَادِرٍ غَيْرَهُ يَقْدِرُ وَ يَعْجَزُ، وَكُلُّ سَمِيعٍ غَيْرَهُ يَصَمُّ عَنْ لَطِيفِ الْأَصْوَاتِ، وَيُصِمُّهُ كَبِيرُهَا، وَ يَذْهَبُ عَنْهُ مَا بَعُدَ مِنْهَا، وَكُلُّ بَصِيرٍ غَيْرَهُ يَعْمَىٰ عَنْ خَفِيِّ الْأَلْوَانِ، وَ لَطِيفِ الْأَجْسَامِ، وَكُلُّ ظَاهِرٍ غَيْرَهُ بَاطِنٌ، وَكُلُّ بَاطِنٍ غَيْرَهُ غَيْرُ ظَاهِرٍ[1]. لَمْ يَخْلُقْ مَا خَلَقَهُ لِتَشْدِيدِ سُلْطَانٍ، وَلاٰ تَخَوُّفٍ مِنْ عَوَاقِبِ زَمَانٍ، وَلاٰ ٱسْتِعَانَةٍ عَلَىٰ نِدٍّ مُثَاوِرٍ، وَلاٰ شَرِيكٍ مُكَاثِرٍ، وَلاٰ ضِدٍّ مُنَافِرٍ، وَ لَكِنْ خَلاَئِقُ مَرْبُوبُونَ، وَ عِبَادٌ دَاخِرُونَ، لَمْ يَحْلُلْ فِي الْأَشْيَاءِ فَيُقَالَ: هُوَ كَائِنٌ، وَ لَمْ يَنْأَ عَنْهَا فَيُقَالَ: هُوَ مِنْهَا بَائِنٌ. لَمْ يَؤُدْهُ خَلْقُ مَا ٱبْتَدَأَ، وَلاٰ تَدْبِيرُ مَا ذَرَأَ، وَلاٰ وَقَفَ بِهِ عَجْزٌ عَمَّا خَلَقَ، وَلاٰ وَلَجَتْ عَلَيْهِ شُبْهَةٌ فِيمَا قَضَىٰ وَ قَدَّرَ، بَلْ قَضَاءٌ مُتْقَنٌ، وَ عِلْمٌ مُحْكَمٌ، وَ أَمْرٌ مُبْرَمٌ. الْمَأْمُولُ مَعَ النِّقَمِ، الْمَرْهُوبُ مَعَ النِّعَمِ[2].

اللُّغَة:

الْمُرَاد هُنا بلَطِيفِ الأَصْوَاتِ مَا لا يَسْمَع، وَبلَطِيفِ الأَجْسَامِ ما لا يُرىٰ. والنِدّ: النَّظِير. والمُثَاوِر: المحارب. والمُكَاثِر: من يُفاخر بالكَثْرَة. والمُنَافِر: يُفاخر غَيْره ويقُول: أَنَا أَعَزُّ مِنكَ نَفَرًا. ودَاخِرُونَ: صَاغِرُونَ. قَالَ تَعَالىٰ: ﴿خلَقَ ٱللَّهُ مِن شَيْءٍ يَتَفَيَّؤُاْ ظِلَـٰلُهُۥ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَٱلشَّمَآئِلِ سُجَّدًا لِّلَّهِ وَهُمْ دَٰخِرُونَ﴾[1]. وَلَمْ يَنْأَ: لَمْ يَبعد. ولَمْ يَؤُدْهُ: لَمْ يُثقله، وَيُجهده. وذَرَأَ: خَلق. وَوَلَجَتْ: دَخَلَتْ.

الإِعْرَاب:

وَكُلُّ عَزِيزٍ غَيْرَهُ يَجُوز رَفع «غَيْر» صِفة لكُل، وَيَجُوز جَرّها صِفة لعَزِيز، وَنَصبها علىٰ الإستثنَاء، لِأَنَّهَا فِي مثل هَذِه الحَال تُعرب إعرَاب المُسْتَثنىٰ. وخَلاَئِقُ خَبَر لمُبْتَدأ مَحْذُوف أي هم خَلاَئِقُ، فَيُقَال قُرِىء بالرَّفع علىٰ الأصل فِي الفِعْل المُضارع، وبالنَّصب علىٰ اضمار «أنّ» بعد فَاء السَّببية مَع تَقَدُّم النّفي، وَقَضَاء خَبَر لمُبْتَدأ مَحْذُوف أي ذَلِكَ قَضَاء، والمَأْمُول أي هو المَأْمُولُ، وهو المَرْهُوب.

الْمَعْنىٰ:

(الْحَمْدُ للهِ الَّذِي لَمْ تَسْبِقْ لَهُ حَالٌ حَالاً). تَقَدَّم الكَلاَم عن صِفَاته تَعَالىٰ فِي شرح ٱلخُطْبَة الأُولىٰ، ومن أجل هَذَا نوجز هُنا بقدر الإمكان... إنّ الله سُبْحَانَهُ لَيْسَ من جِنس المَعَانِي ٱلعَقْلية المُجَرَّدة كَالشَّرف، والْكَرَامَة، لأنّ هَذِه لا تستقل بذاتها فِي

---

(١) ٱلنَّحل: ٤٨.

الْوُجُود، وَلاَ هو، تَعَالَىٰ ذِكره، من جِنس المَاديات لِأَنَّهَا تنفعل بالغير، وَتفتقر إِلَىٰ زَمانٍ، ومكَانٍ... إنّه، جلَّ وعزَّ، قُوَّة عَالمة مُريدة، وقَادرة، وضَرووية الْوُجُود ذَاتاً، وأصَالة، ومن أجل هَذَا هِي هِي لا تَبدِيل، وَلاَ تعدِيل.

(لَمْ تَسْبِقْ لَهُ حَالٌ حَالاً). لأنّ السّبق يَستدعي الحدُوث، والله قدِيم ذَاتاً، وصِفَات (فَيَكُونَ أَوَّلاً قَبْلَ أَنْ يَكُونَ آخِراً). الله أَوَّل بِمَعْنَىٰ أنّه كَانَ ولم يَكُنْ معه شيء، وأنّه المبدأ لوجود كلّ شيء، وهو لَيْسَ بأوّل علىٰ مَعْنَىٰ أنّ لوجُوده ابتدَاء، وإلّا يَكُون حَادثاً. والله آخر بِمَعْنَىٰ أنّه يَبْقَىٰ بعد فنَاء كلّ شيء، وإلَيْهِ يَنتهي كلّ شيء، وهو لَيْسَ آخر علىٰ مَعْنَىٰ أنّ لوجوده نهَايَة، كَيْفَ والغرض أنّه ضروري الْوُجُود؟. وإذَنْ يصح لنا أنْ نقول: هو سُبْحَانَهُ الأَوَّل والآخر الآن، ومن قَبل، ومن بَعد.

(وَ يَكُونَ ظَاهِراً قَبْلَ أَنْ يَكُونَ بَاطِناً). بل هو ظَاهر، وبَاطن فِي آنٍ واحد، هو ظَاهر بآياته الدَّالة علىٰ وُجُودِه، وعَظَمَته، وهو بَاطن لأنّ الْعُقُول تَقصر عن إِدْرَاكِ كُنهه، وحَقِيقَته، وأيضاً لأنّه يَعلم ما خفي، وَبَطْن (كُلُّ مُسَمًّىٰ بِالْوَحْدَةِ غَيْرَهُ قَلِيلٌ). لأنّ الْوَحْدَة لغير الله ضَعْف، وَقِلة، أمّا هو سُبْحَانَهُ فقد تَوحد، وتَفرد بالْقُدْرَة، والْعِزَّة، والْبَقَاء (وَكُلُّ عَزِيزٍ غَيْرَهُ ذَلِيلٌ). لأنّ عزته تَعَالَىٰ ذَاتية، والْعِزَّة فِي غيْره مُستمدة مِنْهُ، ويُسلبه إياها متىٰ شَاء، ومن هُنا شَاع، وذَاع: مَن اعتزّ بغير الله ذَلّ[1].

(وَكُلُّ قَوِيٍّ غَيْرَهُ ضَعِيفٌ). لنفس السَّبب السّابق أي أنّ قُوَّته تَعَالَىٰ ذاتية، وقُوَّة

---

(١) أُنظر، شرح نَهج البَلاغَة لِابن أبي الحَدِيد: ١٩٥/٧، غرر الحِكَم: ٨٢١٧، عُيُون الحِكَم والمَواعظ: ٤٤٤، كشف الخَفَاء للعجلُوني: ٢٦٣/٢، فِي بَعْضِهَا: «مَن اعْتَزّ بِغَير عِزّ الله ذَلّ».

غَيْرِه مستمدة مِنْهُ، وأيضاً شاع، وذاع: لَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللهِ العَلي العَظِيم (وَكُلُّ مَالِكٍ غَيْرَهُ مَمْلُوكٌ). لله، هو وحده يُؤْتِي ٱلْمُلْكَ مَن يَشَآءُ، وَيَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ. ومن أَقْوَال الإِمَام: «وَلاَ نَمْلِكُ إلاَّ مَا مَلَّكَنَا»[١] (وَكُلُّ عَالِمٍ غَيْرَهُ مُتَعَلِّمٌ). لأنّ علمه تَعَالَىٰ عين ذاته (وَكُلُّ قَادِرٍ غَيْرَهُ يَقْدِرُ وَ يَعْجَزُ). أمّا هو فلا يعجزه شيء، قاهر غَيْر مقهور (وَكُلُّ سَمِيعٍ غَيْرَهُ يَصَمُّ عَنْ لَطِيفِ الأَصْوَاتِ، وَيُصِمُّهُ كَبِيرُهَا، وَ يَذْهَبُ عَنْهُ مَا بَعُدَ مِنْهَا). الأُذن تضعف عن سمع الهَمَسَات، والوَشوشات، وتُصم من عَالي الأصوات، وَلاَ يصل إِلَيْهَا البعيد عَنْهَا. أمّا هو سُبْحَانَهُ فلا يَسْمَع بجارحة وأداة، بل يعلم كلّ شيء مباشرة، وبلا واسطة حَتَّىٰ وسوسات الصَّدر، وخفقات ٱلْقَلْب.

(وَكُلُّ بَصِيرٍ غَيْرَهُ يَعْمَىٰ عَنْ خَفِيِّ الْأَلْوَانِ، وَلَطِيفِ الْأَجْسَامِ). آستطاع ٱلإِنْسَان أنْ يَختَرع آلة، أسماها المجهر، وقد أتاحت لهُ أنْ يَرىٰ أَجْسَاماً أدق أُلوف الأضعاف مِمَّا تستطيع الْعَيْن المُجَرَدة أنْ تَراه، ومَع ذَلِكَ هُناك أَجْسَام لا تُرىٰ بالمجهَر ـ كما نَظن ـ لأنّ أَصْحَاب المجهَر، قَالُوا: إنّ أصغر كُتلة من المَادَّة الحيّة تَتألف من أُلوف الملايين من الذَّرَّات، ومَعْنَىٰ هَذَا أنّه لو آنفصلت هَذِه الذَّرَّات، وتَفرقت لعَجز المجهَر عن رؤية الذَّرَّة الوَاحِدَة... وعلىٰ أية حَال فإنّ القصد أنْ نعلم بأنّ الله وسع كلّ شيء عِلْماً، أمّا نَحْنُ فما أُوتينا من العِلْم إلّا قليلاً.

(وَكُلُّ ظَاهِرٍ غَيْرَهُ غَيْرَ بَاطِنٌ). هَذِه الجُمْلَة جاءت فِي بَعْض النّسخ بلفظ «غَيْرَ بَاطِنٌ» كما رسمناها هُنا، وفِي بَعْضها بدون كَلِمَة «غَيْرَ» أي هكذا «وَكُلُّ ظَاهِرٍ غَيْرَهُ بَاطِنٌ» والصّحيح الجُمْلَة الأُولَىٰ ـ كما نُرجح ـ والْمَعْنَىٰ أنّ كلّ كائن غَيْره تَعَالَىٰ يُمكن

---

(١) أنظر، نَهْج البَلاَغَة: ٩٥/٤، الحِكْمَة (٤٠٤).

أنْ ندرك ذاته، ونتصورها بوجه من الوجُوه سواء أكَانَ جسماً، كالْحَجْرِ، والشّجر، أم غَيْر جسم كالْعَقْل، والعِلْم، أمّا الجسم فنتصور ذَاته، أو جهة مِنْهَا ـ بالْحِسّ، والعيان، وغَيْرُ الجسم نتصور ذاته، أو جهة مِنْهَا ـ بآثاره، وأعماله، لِأَنَّهَا انعكاس عن ذَاته، تحكيها، وتعبر عَنْهَا، أو عن نوعها بنحو من الأنحَاء، فالْكِتَاب ـ مثلاً ـ يحكي عن مبلغ علم المؤلف، ونوعه لأنّ بَيْنَ الْكِتَابة، والكاتب تشابكاً، وترابطاً، بل قيل: أنّ أُسلوب الإِنْسَان هو الإِنْسَان بالذات، وكَذَلِكَ البنَّاء، والباني وأمثاله... وَلاَ يصدق هَذَا بوجه فِي حقّه تَعَالَىٰ، لأنّ خلقه، وآثاره ليست انعكاساً عن ذاته، وَلاَ عن مبلغ علمه، وقدرته بوجه من الوجوه، حَيْث لا شبه هنا بَيْنَ الأثر، والمؤثر مهما عظم الأثر... إنّه فيض، ورشحة محدودة من مُطلق لا حدّ لهُ... وللتقريب لا للتشبيه نشير إِلَىٰ أنّ خلقه تَعَالَىٰ، وآثاره كعرق جسم الإِنْسَان، فكما أنّ الْعَرَق لا يُعبر عن حَقِيقَة الإِنْسَان كَذَلِكَ خلقُ الكَوْن بِمَا فِيهِ بالنِّسْبَة إِلَىٰ خالقه بكَلِمَة «كُنْ»... مَع العِلْم بأنّ آثاره سُبْحَانَهُ تنطق بعلمه، وقدرته، وحِكْمَته، وارادته... وعَلَيْهِ يصح القَوْل: أنّ كلّ ظاهر من الْكَائِنَات فَهُوَ غَيْر باطن ذاتاً، وأصالةً أي الْعَقْل يمكن أنْ يتصور ذاته ولوَ إجمالاً، أمّا تصور ذات الواجب فمستحيل تفصيلاً، وإجمالاً.

(وَكُلُّ بَاطِنٍ غَيْرَهُ غَيْرُ ظَاهِرٍ) فِي وُجُودِه كظهور الله سُبْحَانَهُ، فالْعَقْل ـ مثلاً ـ موجودٌ، وباطنٌ، والله سُبْحَانَهُ موجودٌ، وباطنٌ، والْعَقْل يُعرف بآثاره، والله تَعَالَىٰ ذكره يُعرف بخلقه، وآثاره، ولكن وجود الْعَقْل غَيْر ظاهر، وواضح كظهوره ووضوح وُجُودِه سُبْحَانَهُ، لأنّ آثار الْعَقْل تظهر فِي بَعْض الأَشْيَاء، أمّا العلي

الأعلىٰ ، «فَفِي كلّ شَيء لهُ آية عَلىٰ أنّه وَاحد»[1] . (لَمْ يَـخْلُقْ مَـا خَـلَقَهُ لِـتَشْدِيدِ سُلْطَانٍ) . لأنّ سلطانه تَعَالَىٰ شَدِيد ، وقوي بالذات ، والخلق ، والتّشدِيد أَثَر مـن آثَار السُّلْطَان ، ولَيْسَ السُّلْطَان من آثَار التّشدِيد كما هو الشّأن بالنِّسْبَة إِلَىٰ غَيْره (وَلاَ تَخَوُّفٍ مِنْ عَوَاقِبِ زَمَانٍ) . لأنّ ذات الواجب يَسْـتَحِيل فِي حـقّها التّـغيير ، والتّعديل ، وإذَنْ فمن أي شيء تخَاف ؟ . بل لا أمان لِلْإِنْسَان إلّا مَع ٱلْخَوْف من الله أصل الأَمَان ، والسَّلاَم .

(وَ لاَ ٱسْتِعَانَةٍ عَلَىٰ نِدٍّ مُثَاوِرٍ ، وَ لاَ شَرِيكٍ مُكَاثِرٍ ، وَ لاَ ضِدٍّ مُـنَافِرٍ) . وَلاَ لأيـة مصلحة تعود عَلَيْهِ ، لأنّه تَعَالَىٰ فِي غنىً عن كلّ شيء ، وإِلَيْهِ يَفْتَقِر كلّ شيء . . . إنّ كلّ ما فِي الْوُجُود يسير علىٰ خطة مرسومة ، وإلَىٰ غَايَة مُـعينة ، لأنّ هَـذَا النّـظام المُتناسق ٱلْمُحْكَم ، وهَذِه القَوَانِين الثّابتة الّتي تحكم كلّ شيء مـن أكـبر إلَىٰ أصـغر جزء ، وتربط كلّ المُوجُودَات برَابط دَقِيق ، وَمَتِين ـ هَذِه القَوَانِين ، وَهَـذَا النّـظام يَسْتَحِيل أنْ يحدث من غَيْر قصد ، وَلاَ بُدّ لكلّ قصد أنْ يهدف إِلَىٰ غَايَة تعود إِلَىٰ من يَحْتَاج إِلَيْهَا ، ويَنْتَفع بها ، والله غني عن العالمين .

(وَ لَكِنْ خَلاَئِقُ مَرْبُوبُونَ ، وَ عِبَادٌ دَاخِرُونَ) . العَالم كلّه فِي قَبْضَته تَعَالَىٰ خـاضع لأمره ، ومسبّح بحمده (لَمْ يَحْلُلْ فِي الْأَشْيَاءِ فَيُقَالَ : هُوَ كَائِنٌ) . الحلول وجود شيء

---

(١) هَذَا ٱلْبَيْت من الشّعر تارة يُنسب إلىٰ الإِمَام عليّ عليه السلام ، وتارة إلىٰ معز الدّين ، وتارة ثالة إلىٰ غـيْر همـا . أُنظر ، المجازات النّبويّة : ٢٢١ ، دَلاَئِل الإِمَامَة : ٨ ، شرح مئة كَلِمَة للبحراني : ١٧٣ ، شرح نَهْج البَلاَغَة لِابْن أَبِي ٱلْحَدِيد : ٤١٢/٦ ، تَفسِير القُرطُبي : ٣١٣/٤ ، تَـفْسِير ابـن كَـثِير : ٦٢/١ ، تَأرِيخ دِمَشْق : ٤٥٣/١٣ ، تفْسِير الثعالبي : ١٤٩/٢ ، مفردات غَرِيب ٱلْقُرآن : ٢٦٨ .

وفي كـلّ شَيء لهُ آيـة عَـــلىٰ أنّـــه وَاحـــد

فِي شيء، وَهَذَا مُستحيل فِي حقّه تَعَالَىٰ، لأنّه فوق الزّمان، والمكان، وَقَالَ آبن أبي ٱلْحَدِيد: مُراد الْإِمَام بالحلول أنّه تَعَالَىٰ لم يَنْأَ عن الأَشْيَاء نأيّاً مكانياً[١]... ولَيْسَ هَذَا ببعيد، بل يدل عَلَيْهِ قَوْل الْإِمَام بلا فاصل: (وَ لَمْ يَنْأَ عَنْهَا فَيُقَالَ: هُوَ مِنْهَا بَائِنٌ). وعلىٰ أيّة حَال فإنّ الغرض الأَوّل، والأخير هو أنْ نؤمن، ونوقن بأنّ الله معنا فِي السّر، والعَلاَنِيَة: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾[٢].

(لَمْ يَؤُدْهُ خَلْقُ مَا آبْتَدَأَ، وَ لاٰ تَدْبِيرُ مَا ذَرَأَ، وَ لاٰ وَقَفَ بِهِ عَجْزٌ عَمَّا خَلَقَ). أنشأ وحكم، وقدّر، ودبر، وأمات، وأحيا، لا قسراً، وقهراً، وَلاَ لغَايَة تعود عَلَيْهِ، وبلا تعب، وكلل، لأنّه: ﴿إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾[٣] (وَلاٰ وَلَجَتْ عَلَيْهِ شُبْهَةٌ فِيمَا قَضَىٰ وَ قَدَّرَ) من أين تعرض آلشُّبُهَات لمن هو عالم بالذات؟. أنّ الإلتباس يَأْتِي من الأقيسة، ومُقدماتها، وآلأدِلّة، وكلياتها، وهو سُبْحَانَهُ الْمَصْدَر الْأَوّل لكَ دَلِيل، وحجّة (بَلْ قَضَاءٌ مُتْقَنٌ) لا خلل فِيهِ (وَ عِلْمٌ مُحْكَمٌ) لا شكّ يعتريه (وَ أَمْرٌ مُبْرَمٌ) لا ناقض له (الْـمَأْمُولُ مَعَ النِّقَمِ) لأنّ رَحْمَتِه وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ (الْمَرْهُوبُ مَعَ النِّعَمِ) لأنّ بَأْسَهُ قد يَأْتِي بَغْتَةً، وَبَيَاتاً. قَالَ الْإِمَام: «وَ لاٰ يَشْغَلُهُ غَضَبٌ عَنْ رَحْمَةٍ، وَ لاٰ تُولِهُهُ ـ أي تُذْهِلُهُ ـ رَحْمَةٌ عَنْ عِقَابٍ»[٤]. فما لرَحْمَتة، وَغضَبه، وَلاَ لشيء من صِفَاته حدّ، وَشَرط... وَهَذَا هو شَأن الكَمَال المُطلق.

---

(١) أنظر، شرح نَهج البَلاَغة: ٥/١٦٤.

(٢) ٱلْحَدِيد: ٤.

(٣) آلِ عِمْرَانَ: ٤٧.

(٤) أنظر، نَهج البَلاَغة: ٱلْخُطْبَة (١٩٥).

الخطبة

-٦٦-

عَضُّوا عَلَىٰ النَّوَاجِذِ:

مَعَاشِرَ ٱلْمُسْلِمِين: ٱسْتَشْعِرُوا الْخَشْيَةَ، وَ تَجَلْبَبُوا السَّكِينَةَ، وَ عَضُّوا عَلَىٰ النَّوَاجِذِ، فَإِنَّهُ أَنْبَىٰ لِلسُّيُوفِ عَنِ الْهَامِ. وَ أَكْمِلُوا اللَّأْمَةَ، وَ قَلْقِلُوا السُّيُوفَ فِي أَغْمَادِهَا قَبْلَ سَلِّهَا. وَ ٱلْحَظُوا الْخَزْرَ، وَ ٱطْعُنُوا الشَّزْرَ، وَ نَافِحُوا بِالظُّبَا، وَ صِلُوا السُّيُوفَ بِالْخُطَا، وَ ٱعْلَمُوا أَنَّكُمْ بِعَيْنِ اللهِ، وَ مَعَ ٱبْنِ عَمِّ رَسُولِ اللهِ. فَعَاوِدُوا الْكَرَّ، وَ ٱسْتَحْيُوا مِنَ الْفَرِّ، فَإِنَّهُ عَارٌ فِي الْأَعْقَابِ، وَ نَارٌ يَوْمَ ٱلْحِسَابِ. وَ طِيبُوا عَنْ أَنْفُسِكُمْ نَفْساً، وَ ٱمْشُوا إِلَىٰ الْمَوْتِ مَشْياً سُجُحاً، وَ عَلَيْكُمْ بِهَذَا السَّوَادِ الْأَعْظَمِ، وَالرِّوَاقِ الْمُطَنَّبِ، فَاضْرِبُوا ثَبَجَهُ، فَإِنَّ الشَّيْطَانَ كَامِنٌ فِي كِسْرِهِ، وَ قَدْ قَدَّمَ لِلْوَثْبَةِ يَداً، وَ أَخَّرَ لِلنُّكُوصِ رِجْلاً. فَصَمْداً صَمْداً! حَتَّىٰ يَنْجَلِيَ لَكُمْ عَمُودُ ٱلْحَقِّ: ﴿وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ وَٱللَّهُ مَعَكُمْ وَلَن يَتِرَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ﴾[1].

(١) مُحَمَّد: ٣٥.

اللُّغَة:

ٱسْتَشْعِرُوا: ٱتخذوها شِعاراً بكسر الشِّين، والشِّعار: العلامّة فِي الْحَرْب، واللّباس علىٰ شعر الجَسد بلا فاصل. والْمُرَاد بالْخَشْيَة هُنا ٱلْخَوْف مِنْهُ تَعَالَىٰ. وَتَجَلْبَبُوا: ٱلبسوا الجَلْبَاب، وهو القَمِيص. والسَّكِينَة: الطُّمأنِينَة. والنَّوَاجِذ: أَقصىٰ الأَضْرَاس أي آخرها، وفِي بَعْض القوَامِيس أَنَّهَا أَرْبَعَة، وتَنبت بعد الْحُلْم[1]. والْهَام: جَمع هَامة، وَهِي رَأس كلّ شيء، وتُطلق علىٰ الجُثَّة. واللَّأْمَة: الدّرع، وتُطلق علىٰ آلات الْحَرْب. وَقَلْقِلُوا: حَرّكوا. وَٱلْحَظُوا الْخَزْرَ: أي بغضب. وَٱطْعُنُوا الشَّزْرَ: أي لا فِي مكان واحد، بل هُنا، وهُناك. وَنَافِحُوا: كَافحوا. والظُّبَا: جَمع ظبّة، وَهِي حدّ السَّيْف. وَٱسْتَحْيٰ، أو ٱسْتَحْيَا منهُ: خَجل منهُ. والْفَرّ: الفرّار. وسُجُحاً: سَهلاً. والْمُرَاد بالرِّوَاقِ خيمة مُعَاوِيَة. والْمُطَنَّب: الْمَشدود بالطنَب: وثَبَجَهُ: وَسَطه. والكِسْر: جانب ٱلْبَيْت. والنُّكُوص: الرُّجُوع. وَلَن يَتِرَكُمْ: لَنْ يُنقصكم.

الإِعْرَاب:

مَعَاشِرَ ٱلْمُسْلِمِينَ أي يا مَعَاشِرَ ٱلْمُسْلِمِين، والْخَزْرَ صفة لمَفْعُول مُطلق مَحْذُوف أي ٱللّحَظ الْخَزْرَ، ومِثْله الشَّزْرَ، ونَفْساً تَمْيِيز، وصَمْداً نُصب علىٰ الْمَصْدَرِيَة أي ٱصمدوا صَمْداً، وَأَنتُمُ ٱلأَعْلَوْنَ الواو لِلحَال.

---

(١) أُنظر، لِسَان الْعَرَب: ٣/٥١٣، الفَائِق فِي غَرِيب الحَدِيث: ٣/٣٠٢.

الْمَعْنىٰ:

(ٱسْتَشْعِرُوا الْخَشْيَةَ). ٱجعلوا ٱلْخَوْف من الله شعاراً لَكُمْ، لأنّ هَذَا ٱلْخَوْف أَساس الأتقان، والإِخْلاَص فِي ٱلْعَمَل، والدَّلِيل علىٰ ذَلِكَ أنّك لو أسندت عملاً خاصاً لمن لا يخاف الله، ثُمّ أسندت هَذَا ٱلْعَمَل بالذات لمن يخاف مِنْهُ تَعَالَىٰ لوجدت الفرق بَيْنَهما كبيراً، وبعيداً (وَتَجَلْبَبُوا السَّكِينَةَ) تحلّوا بالوقار، وهدوء الأعصاب، وَلاَ تَهتموا بالقِيل، والقَال، والدّعايات الكَاذِبة (وَ عَضُّوا عَلَىٰ النَّوَاجِذِ، فَإِنَّهُ أَنْبَىٰ لِلسُّيُوفِ عَنِ الْهَامِ). إِذَا عضَّ ٱلإِنْسَان علىٰ أضراسه تصلبت أعصابه، وصارت أشد، وأقوىٰ علىٰ تحمّل الطَّعْن، والضَّرْب (وَ أَكْمِلُوا اللَّأْمَةَ) أي الدّرع، وآلات الْحَرْب (وَ قَلْقِلُوا السُّيُوفَ فِي أَغْمَادِهَا قَبْلَ سَلِّهَا) حركوها (قَبْلَ سَلِّهَا) كيلا تستعصي عن الخروج (وَ ٱلْحَظُوا الْخَزْرَ، وَ ٱطْعُنُوا الشَّزْرَ). أُنظروا عند الْحَرْب بغضب، ونوّعوا الضَّرْبات (وَ نَافِحُوا بِالظُّبَا) ٱضربوا أَعْدَاءكم بالسُّيُوف (وَصِلُوا السُّيُوفَ بِالْخُطَا) إِذَا قَصُرَت السُّيُوف عن الوصُول إِلَىٰ الأعداء فصلوها بخُطاكم أي تَقدموا نَحْوَهم، وَلاَ تهابوهم.

وكَانَتْ هَذِهِ التَّنبيهات ضرورية آنذاك حَيْث كَانَتْ الْحَرْب بالطَّعْنِ، والضَّرْب تَمَاماً كالمُلاكمة، والمُصارعة، أمّا الْيَوْم فٱلْقُوَّة للعلم، وأدواته لا للجسم، وعضلاته.

(وَ ٱعْلَمُوا أَنَّكُمْ بِعَيْنِ اللهِ، وَ مَعَ ٱبْنِ عَمِّ رَسُولِ اللهِ ﷺ). أَنْتُمْ علىٰ حقّ فِي هَذِهِ الْحَرْب تَمَاماً كما لو كُنتم مَع رَسُول الله ﷺ، والله سُبْحَانَهُ يَشملكُم بعَونه، وعنَايته إِذَا أَخلصتم التَّوكل عَلَيْهِ (فَعَاوِدُوا الْكَرَّ). كرروا هَجماتكم علىٰ الْعَدُوّ (وَ ٱسْتَحْيُوا مِنَ الْفَرِّ). لأنّ الشّجاع لا يَنهزم، وَلاَ يستسلم، ويَصبر علىٰ الشَّدَائِد (فَإِنَّهُ عَارٌ فِي

الْأَعْقَابِ) . أي أنّ النّاس يعيِّرون الْأَبْنَاء بفرار ٱلآبَاء (وَ نَارُ يَوْمَ ٱلْحِسَابِ) بالإضافة إِلَىٰ عذاب الحريق بعد ٱلْمَوْت، وقد أجمع الْفُقَهَاء علىٰ أنّ الفرار من الزّحف من أكبر الكبَائِر بخَاصَّة إِذَا كَانَ بأمر ٱلْمَعْصُوم، وقيادته (وَ طِيبُوا عَنْ أَنْفُسِكُمْ نَفْساً) ٱبذلوا أَنْفُسِكُمْ فِي سَبِيل الله عن طيب نفسٍ (وَ ٱمْشُوا إِلَىٰ الْمَوْتِ مَشْياً سُجُحاً) أي سهلاً، والْمَعْنَىٰ أقبلوا علىٰ ٱلْمَوْت رَاغبين لا كَارهين (وَ عَلَيْكُمْ بِهَذَا السَّوَادِ الْأَعْظَمِ) . وهو عسكر مُعَاوِيَة (وَالرِّوَاقِ الْمُطَنَّبِ) أي خيمة مُعَاوِيَة الّتي شُدت بالأطناب (فَاضْرِبُوا ثَبَجَهُ) أي وسطهُ (فَإِنَّ الشَّيْطَانَ) وهو مُعَاوِيَة (كَامِنٌ فِي كِسْرِهِ) أي فِي جَانبه .

(وَ قَدْ قَدَّمَ لِلْوَثْبَةِ يَداً، وَ أَخَّرَ لِلنُّكُوصِ رِجْلاً) . أي أنّ مُعَاوِيَة إِنْ رَأَىٰ فِي جيش الْإِمَام ضعفاً، وجبناً، وَثَب، وَأقدَم، وإِنْ رَأَىٰ فِيهِ شجاعةً، وجَلَداً نَكص، وٱنهزم (فَصَمْداً صَمْداً !) ٱثبتوا، وٱصبروا (حَتَّىٰ يَنْجَلِيَ لَكُمْ عَمُودُ ٱلْحَقِّ) . أي أَنْتُمْ تُحاربون من أجل فكرة تؤمنون بها، وتقدمون التَّضحيات من أجلها، فٱصبروا، وٱستمروا فِي الْجِهَاد حَتَّىٰ تتحقق هَذِهِ الْفِكْرة، وتبرز إِلَىٰ الْوُجُود ﴿وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ وَ ٱللَّهُ مَعَكُمْ ﴾[1] . إِنْ صبرتم فِي الْجِهَاد، ورفضتم الإسْتِسْلاَم، ولم تخدعكم الحيل والأكاذيب ﴿وَ لَن يَتِرَكُمْ أَعْمَـٰلَكُمْ ﴾ . لا ينقصكم الله شَيْئَاً من ٱلْجَزَاء، والثَّوَاب .

(١) سُورَةُ مُحَمَّد: ٣٥.

الخطبة

-٦٧-

بَيْنَ الْمُهَاجِرِين، والأَنْصَار:

فَهَلاَّ ٱحْتَجَجْتُمْ عَلَيْهِمْ بِأَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ، وَصَّىٰ بِأَنْ يُحْسَنَ إِلَىٰ مُحْسِنِهِمْ، وَيُتَجَاوَزَ عَنْ مُسِيئِهِمْ؟

قَالُوا: وَ مَا فِي هَذَا مِنَ الْحُجَّةِ عَلَيْهِمْ.

فَقَالَ عليه السلام:

لَوْ كَانَ الْإِمَامَة فِيهِمْ لَمْ تَكُنِ الْوَصِيَّةُ بِهِمْ.

ثُمَّ قَالَ عليه السلام:

فَمَا ذَا قَالَتْ قُرَيْشٌ؟ قَالُوا: ٱحْتَجَّتْ بِأَنَّهَا شَجَرَةُ الرَّسُولِ ﷺ، فَقَالَ عليه السلام:

ٱحْتَجُّوا بِالشَّجَرَةِ، وَ أَضَاعُوا الثَّمَرَةَ.

قبل أنْ تبرد جُثَّة النَّبِيِّ ﷺ ٱختلف رُؤُوس الْمُهَاجِرِين، والأَنْصَار علىٰ الحُكم، والسُّلْطَان من بعده، ثُمَّ قَالَ الأَنْصَار للمُهاجِرِين: منّا أَمِير، ومِنكُم

أَمِير[1]... وكَانَ الإِمَام أَمِير ٱلْمُؤْمِنِين عليه السلام، وبَعْض أهله، وصحبه إِلَىٰ جوار النَّبيّ صلى الله عليه وآله يبكونه ويعدون العدة لدفنه، وحِينَ أُبلغ الإِمَام بخبر السَّقِيفَة، وبقول الأَنْصَار: منّا أَمِير ومِنْكُم أَمِير، قَالَ عليه السلام: (فَهَلاّ ٱحْتَجَجْتُمْ عَلَيْهِمْ بِأَنَّ رَسُولَ اللهِ صلى الله عليه وآله، وَصَّىٰ بِأَنْ يُحْسَنَ إِلَىٰ مُحْسِنِهِمْ، وَيُتَجَاوَزَ عَنْ مُسِيئِهِمْ؟).

قَالُوا: وَ مَا فِي هَذَا مِنَ الْحُجَّةِ عَلَيْهِمْ؟. قَالَ عليه السلام: (لَوْ كَانَ الإِمَامَةُ فِيهِمْ لَمْ تَكُنِ الْوَصِيَّةُ بِهِمْ) بل إِلَيْهِمْ، لأَنّ الإِمَام يُوصىٰ إِلَيْهِ بالغير، وَلاَ يوصىٰ به إِلَىٰ الغير.

ثم قَالَ الإِمَام عليه السلام: (فَمَا ذَا قَالَتْ قُرَيْشٌ؟ قَالُوا: ٱحْتَجَّتْ بِأَنَّهَا شَجَرَةُ الرَّسُولِ صلى الله عليه وآله).

قَالَ عليه السلام: (ٱحْتَجُّوا بِالشَّجَرَةِ، وَ أَضَاعُوا الثَّمَرَةَ). وَهِي أَهْل ٱلْبَيْت عليهم السلام، وفِي معناه قَوْل الْعَبَّاس لأَبي بَكْر: «أمّا قولك: نَحنُ شَجَرَة رَّسول صلى الله عليه وآله فإنّكم جِيرَانُها، وَنَحنُ أَغْصَانُها»[2].

وتجدر الإِشَارَة إِلَىٰ أنّ مُراد الإِمَام عليه السلام من قَوْله هَذَا مُجرد الرّد علىٰ قُرَيْش، وإيطال قَوْلهم بأنّهم أَوْلَىٰ بالنَّبيّ لقربهم مِنْهُ نسباً، وعشيرةً.. ومن أَقْوَال الإِمَام: «وَاعَجباه! أَتكُون ٱلخِلاَفَة بالصَّحَابَة، والقَرَابَةِ؟[3]... إنّ وَلِيَّ مُحَمَّد صلى الله عليه وآله مَنْ أَطَاعَ

---

(١) أُنظر، صَحِيح البُخَاريّ: ١٢٠/٤، كتاب الحُدُود بَاب رجم الحُبلىٰ من الزّنا، الطَّبَقَات الْكُبْرَىٰ: ٢٦٣/٢، كنز العُمَّال: ٥٦/٤ و ٦٠، العقد الفَرِيد: ٦١/٣، تَأرِيخ الطَّبريّ: ٢٠١/٢ و ٢٥٦ حوادث سَنَة ١١هـ، آبن الأَثِير: ١٢٥/٢، تَأرِيخ الخُلَفَاء لِابْن قُتَيْبَة: ٥/١.

(٢) أُنظر، شرح نَهْج البَلاَغَة لِابْن أبي ٱلحَدِيد: ٥/٦، والموفقيات للزبير بن بكار: ٨/٢.

(٣) أُنظر، نَهْج البَلاَغَة: ٤٣/٤ ٱلحِكْمَة (١٩٠)، وشرح نَهْج البَلاَغَة للمعتزلي: ٤١٦/١٨ رقم (١٨٥)، شرح النَّهْج للبحراني: ٣٤١/٥، شرح النَّهْج للخوئي: ٢٦٢/٢١، شرح النَّهْج للفيض: ١١٦٣ رقم (١٨١)، ↔

اللهَ وَإِنْ بَعُدَتْ لُحْمَتُهُ. وَإِنَّ عَدُوَّ مُحَمَّد مَنْ عَصَىٰ اللهَ وَإِنْ قَرُبَتْ قَرَابَتُهُ»[1].

ومن تَتَبَّع المناقشات الّتي دارت فِي السَّقِيفَة حَوْلَ ٱلخِلاَفَة يرىٰ أنّه لا مَصْدَر للإختلاف بَيْنَ الْمُهَاجِرِين، والأَنْصَار إلّا المَصْلَحَة الشَّخْصِيَة، وإلّا الدُّنْيا وزهرتها فالمُهَاجِر كَانَ يحتج، ويزهو بقرابة النَّبِيّ ﷺ، والأَنْصَاري كَانَ يحتج، ويزهو بأنّه آوىٰ النَّبِيّ ﷺ... أمّا مصلحة ٱلإِسْلاَم، وٱلْمُسْلِمِين فما أشار إِلَيْهَا واحد من الجانبين... ومن أجل هَذَا عارض خلافة الخُلَفَاء الّذين لا يَسْتَطِيعُون العيش بحُرِّيَّة، وكرامة إلّا فِي ظل الْعَدْل، والمُسَاوَاة، وٱلْقُرْآن ٱلْكَرِيم يطلق علىٰ هَؤُلاَء كَلِمَة ٱلْمُسْتَضْعَفِين، وقد أمر بقتال الأَقْوِيَاء الطُّغاة من أجل تحريرهم من الظُّلم، والْبَغْي كما فِي الآيَة: ﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ﴾[2]. وكَانَ هَؤُلاَء ٱلْمُسْتَضْعَفُون من الرّواد الأوائل لِلإِسْلاَم، ومن أقوىٰ، وأصلب جنوده، وتحمّلُوا فِي سَبِيله الكَثِير من العذاب، والتَّنكيل، كعمّار، وسَلْمَان، وأبي ذرّ، وغَيْرهم من العبيد، وٱلْمُسْتَضْعَفِين، وتُطلق الْيَوْم كَلِمَة اليسار علىٰ من يمثل آمالهم، ويطالب بالمُسَاوَاة بَيْنَهُمْ، وبَيْنَ الأَقْوِيَاء.

وَقَالَ الأُستاذ أحمد عبّاس صالح: «إنّ الْيَمين كلّه قد رحبّ بخلافة أبي بَكْر... وترحيب الْيَمين بِهَذِه ٱلخِلاَفَة، والإسراع بتأييدها لَيْسَ له إلّا معنىً واحد، وهو أنّ

⇐ خَصَائِص الأَئِمَّة للشريف الرَّضِي: ١١١. وروي له شعر فِي هَذَا المَعْنَىٰ:

فَإِنْ كُنْتَ بِٱلشُّورَىٰ مَلَكْتَ أُمُورَهُمْ	فَكَيْفَ بِهَذَا وَالْمُشِيرُون غُيَّبُ؟
وَإِنْ كُنْتَ بِالقُرْبَىٰ حَجَجْتَ خَصِيمَهُمْ	فَغَيْرُكَ أَوْلَىٰ بِالنَّبِيِّ وَأَقْرَبُ

(١) أُنظر، نَهْج البَلاَغَة: ٢١/٤ ٱلحِكْمَة (٩٦).

(٢) ٱلنِّسَاء: ٧٥.

غالبية ٱلْمُسْلِمِين كَانُوا مَع الإتجاه اليساري الَّذي يُمثلَه عليّ بن أبي طالب وأَصْحَابِه، أعني أنّ جماهير ٱلْمُسْلِمِين العريضة كَانَتْ مَع هَذَا الإتجاه، لأنّ النَّبِيّ ﷺ نَفْسه كَانَ زعيمه، وواضع مبادئه الأَسَاسّية، وأي ٱتجاه مُضاد كَانَ سيقابل بالْعُنْف، وكَانَ سيقضىٰ عَلَيْهِ فِي المهد، ولذلك جاءت خلافة أبي بَكْر فرصة ليستجمع الْيَمِين فيها قِواه، ويرتب أمْرَه للوثوب علىٰ الحُكم بعد أنْ قضىٰ النَّبِيّ الَّذي لم يجرؤ أحد فِي حياته أنْ ينحرف بالدَّعْوَة إِلىٰ ٱتجاه غَيْر ٱتجاهها. لِهَذَا وَافق الْيَمِين علىٰ ٱلْبَيْعَة لأبي بَكْر، بل رحبّ بها، وعمل علىٰ نجاحها. بينما عارضها اليَسار، وعلىٰ رَأْسِه عليّ بن أبي طالب، معارضة صريحة»[1].

وَقَالَ الأُستاذ أحمد صالح: «إنّ بَعْض ٱلْمُسْلِمِين الكِبار الّذين كَانَتْ أوضاعهم الإجتماعية قبل ٱلإِسْلاَم، وبعده، أوضاعاً ممتازة من حَيْث الثّروة، والمكَانة ـ لم يَسْتَطِيعُوا التَّخلص تَمَامَاً من تأثير أوضاعهم عَلَيْهِمْ... فكان هوَاهم مَع أَحْزَابِ الْيَمِين، وكَانَ الْيَمِين يَستغل شهرتهم أحسن ٱستغلال فِي شدهم إِلَيْهِ، وضمهم إِلىٰ صفوفه»[2].

(١) أنظر، مجلة «الكاتب» المِصْرية عدد كانون الثاني سَنَة ١٩٦٥م. (مِنْهُ ﷺ).

(٢) مجلة «الكاتب» المِصْرية عدد آذار سَنَة ١٩٦٥م. (مِنْهُ ﷺ).

الخطبة

-٦٨-

مِصْر ومُحَمَّد بْنِ أَبِي بَكْرٍ:

وَ قَدْ أَرَدْتُ تَوْلِيَةَ مِصْرَ هَاشِمَ بْنَ عُتْبَةَ، وَ لَوْ وَلَّيْتُهُ إِيَّاهَا لَمَّا خَلَّى لَهُمُ الْعَرْصَةَ، وَ لاَ أَنْهَزَهُمُ الْفُرْصَةَ، بِلاَ ذَمٍّ لِمُحَمَّد بْنِ أَبِي بَكْرٍ، فَلَقَدْ كَانَ إِلَيَّ حَبِيباً، وَ كَانَ لِي رَبِيباً.

اللُّغَة:

الْعَرْصَةَ ـ بفتح الْعَيْن، وسكون الرّاء ـ ساحة الدّار، أو كلّ بقعة لَيْس فيها بناء، والْمُرَاد بها هنا ساحة الْحَرْب. وَلاَ أَنْهَزَهُمْ: وَلاَ أَمْكَنَهُمْ. الرَّبِيب: ابن زَوْجَة الرّجل من غَيْره.

الْإِعْرَاب:

إِيَّاهَا مَفْعُول ثانٍ لوَلَّيْتُهُ، وبِلاَ ذَمٍّ مُتَعَلِّق بمَحْذُوف أي أقول هَذَا بِلاَ ذَمٍّ.

الْمَعْنىٰ:

(وَ قَدْ أَرَدْتُ تَوْلِيَةَ مِصْرَ هَاشِمَ بْنَ عُتْبَةَ) الْمُلقب بالمرقَالَ[١] ، لأنَّه كَانَ يَرقل فِي الْحَرْبِ أي يُسرع فيها ، وكَانَ صاحب راية الإِمَامِ ﷺ فِي صِفِّين ، ومن أفاضل أَصْحَابِه ، واَسْتُشْهِدَ فِي نفس الْيَوْم الَّذي اَسْتُشْهِدَ فِيهِ عَمَّار بن ياسر ، وَقَالَ الإِمَام هَذَا حِينَ بلغه مقتل مُحَمَّد بن أبي بَكْر (وَ لَوْ وَلَّيْتُهُ إِيَّاهَا لَمَّا خَلَّىٰ لَهُمُ الْعَرْصَةَ) وفرَّ كما فرَّ اَبن أَبي بَكْر ، ولِصَبر صبر الأحرار ، وقاتل قِتال الأبطال .

(بِلاَ ذَمٍّ لِمُحَمَّد بْنِ أَبِي بَكْرٍ ، فَلَقَدْ كَانَ إِلَيَّ حَبِيباً ، وَكَانَ لِي رَبِيباً) . أُمّ مُحَمَّد بن أبي بَكْر هِيَ أَسْمَاءَ بنت عُميس ، كَانَتْ تحت جَعْفَر بن أبي طالب أخي الإِمَام ، وهاجرت معه إِلَىٰ الحَبَشة ، وولدت له هناك عبدالله بن جَعْفَر ، ولما قُتل عَنْهَا فِي مؤتة تزوجها أبو بَكْر ، وولدت له مُحَمَّداً[٢] ، ولمَّا مَات عَنْهَا تزوّجها الإِمَام ، فكان

---

(١) وهُو القَائِل ، كمَا جَاء فِي الاِشْتِقَاق : ١٥٣/١ ، الإِصَابَة : ٥٩٣/٣ .

أَعْوَر يَبْغِي أَهْلَه مَحَلاً ... قَد عَالج الْحَيَاة حتَّىٰ مَلا

يُشُلُّهُم بِالسَّمهرِي شَلاًّ ... ولاَ بدَّ أَنْ يَفُلَّ أو يُفَلا

(٢) مُحَمَّد بن أبي بَكْر ، وأُمّه أَسْمَاء بنت عميس الخثعمية تزوجها أبو بَكْر بعد اَستِشْهَاد جَعْفَر بن أبي طالب فولدت له مُحَمَّداً فِي حجّة الوداع بطريق مَكَّة . ثمّ نشأ فِي حَجْر عليٍّ بعد أبيه ، وشهد معه حَرْب الجَمَل ، وكَانَ علىٰ الرّجالة ، وشهد معه صِفِّين ، ثمّ وَلاَّهُ مِصْر فدخلها فِي ١٥ شهر رمضان (٣٧ هـ) . فجهّز مُعَاوِيَة جيشاً بقيادة عَمْرُو بن العَاص لفتح مِصْر فتغلّب عَمْرُو عَلَيْهِ سَنَة (٣٨ هـ) وقتله مُعَاوِيَة بن خُدَيْج صبراً ، ثمّ أدخلوا جسده فِي بَطْن حِمَار ميت ، وأحرقوه ، وعندما بلغ ذَلِكَ عَائِشَةَ بكت بكاءً شَدِيداً .

وَهِي الّتي خاطبت أمّ حبيبة أُخت مُعَاوِيَة بن أَبي سُفْيَانَ عندما عملت الأخيرة شوت كبشاً ، وبعثت به إِلىٰ عَائِشَةَ تشفّياً بقتل مُحَمَّد بطلب دم عُثْمَان ، فقالت عَائِشَةَ : قاتل الله اَبنة العاهرة ، والله لا أكلت شواءً أَبَداً ، ثمّ ضمّت عياله إِلَيْهَا ، ورعت حقّه ، ولم تنسه مدىٰ اَلْحَيَاة ، وهو القَائِل لها بعد أَنْ اَنتهت معركة الْجَمَل ، وأدخل رَأْسه إِلَيْهَا ، قالت : مَن أَنْتَ ويلك ؟ قَالَ : أبغض أهلك إِلَيْك ، قالت : اَبن الخثعمية ؟ قَالَ :

←

ربيبهُ، وخريجه، رضع التّشيّع مُنذ الصّبا، وكَانَ الإمَام يقُول: «مُحَمَّد ٱبني من صُلب أبِي بَكْر»(١).

وَقَالَ المسعودي: «وجه مُعَاوِيَة عَمْرُو بن العَاص فِي أَرْبَعَة آلاف إِلَىٰ مِصْر، وٱقتتل مَع مُحَمَّد بن أبِي بَكْر، وكَانَ عامل عليّ عَلَيْهَا، فٱنهزم مُحَمَّد لإسلام أَصْحَابِه إياه، وتركهم له، وٱختفى فِي دارٍ بِمِصْر، فأحاط ٱبن العَاص، وجَيْشَه بالدَّار، فخرج مُحَمَّد إِلَيْهِمْ، وقاتلهم حَتَّىٰ قُتل، فجعلوه فِي جِلد حِمَار، وأضرموه بِٱلنَّار، وقيل: أنّهم فَعَلوا ذَٰلِكَ وبه شيء من ٱلحَيَاة، وبلغ مُعَاوِيَة قتل مُحَمَّد، فأظهر الفرح، والسُّرُور»(٢)، وَقَالَ الإمَامعليه السلام: «جَزعنَا عَلَيْهِ عَلَىٰ قَدر سرُورهم»(٣).

⇐ نَعم، قالت: الحَمْدُ لله الَّذي عافاك...

أُنظر، تَذكِرة خواصّ الأُمَّة: ١١٤ ط النّجف، التّمهيد والبَيَان: ٢٠٩، الأَغاني: ٢١ / ٩، الإشتقاق: ٣٧١، الطَّبَرِيّ، وٱبن الأَثِير، وٱبن كَثِير فِي ذكر حوادث سَنَة (٣٦ هـ)، الإِصَابَة حرف الميم: ٣ ق ٢ / ٤٥١، الإسْتِيعَاب: ٣ / ٣٢٨، الفُتُوح لِابْن أَعْثَم: ١ / ٤٧٢، الإمَامَة وَالسِّيَاسَة: ١ / ٥٥ وما بعدها، تَهْذِيب الكَمَال: ٢٤ / ٥٤١ رَقم ٥٠٩٧، شرح النَّهج لِابْن أبي ٱلحَدِيد: ٣ / ١٩٠.

(١) أُنظر، شرح نَهْج البَلاغَة لِابْن أبي ٱلحَدِيد: ١/٢٦٤، شرح النَّهج لمُحَمَّد عَبْدَه: ١/١١٧.

(٢) أُنظر، مروج الذّهب حوادث سَنَة ٣٨ هـ. (مِنْهُ رحمه الله).

(٣) أُنظر، مروج الذّهب للمسعودي: ٢/٣٩، تَأرِيخ ٱبن كَثِير: ٧/٣١٤، تَأرِيخ الطَّبَرِيّ: ٦/ ٥٨ ـ ٦١، الكَامِل فِي التَّأرِيخ لِابْن الأَثِير: ٣/١٥٤، النّجوم الزّاهرة: ١/١١٠، تَذكِرة خواصّ الأُمَّة: ١١٤ ط النّجف، التّمهيد والبَيَان: ٢٠٩، الأَغَاني: ٢١ / ٩، الإشتقاق: ٣٧١، الطَّبَرِيّ، وٱبن الأَثِير، وٱبن كَثِير فِي ذكر حوادث سَنَة (٣٦ هـ)، الإِصَابَة حرف الميم: ٣ ق ٢ / ٤٥١، الإسْتِيعَاب: ٣ / ٣٢٨، الفُتُوح لِابْن أَعْثَم: ١ / ٤٧٢، الإمَامَة وَالسِّيَاسَة: ١ / ٥٥ وما بعدها، تَهْذِيب الكَمَال: ٢٤ / ٥٤١ رَقم ٥٠٩٧، شرح النَّهج لِابْن أبي ٱلحَدِيد: ٣ / ١٩٠.

الخطبة

- ٦٩ -

أفسِد نفْسِي بِصلاحكُمْ:

كَمْ أُدَارِيكُمْ كَمَا تُدَارَىٰ الْبِكَارُ الْعَمِدَةُ، وَ الثِّيَابُ الْمُتَدَاعِيَةُ! كُلَّمَا حِيصَتْ مِنْ جَانِبٍ تَهَتَّكَتْ مِنْ آخَرَ، كُلَّمَا أَطَلَّ عَلَيْكُمْ مَنْسِرٌ مِنْ مَنَاسِرِ أَهْلِ الشَّامِ أَغْلَقَ كُلُّ رَجُلٍ مِنْكُمْ بَابَهُ، وَ انْجَحَرَ انْجِحَارَ الضَّبَّةِ فِي جُحْرِهَا، وَ الضَّبُعِ فِي وِجَارِهَا. الذَّلِيلُ وَاللهِ مَنْ نَصَرْتُمُوهُ! وَ مَنْ رُمِيَ بِكُمْ فَقَدْ رُمِيَ بِأَفْوَقَ نَاصِلٍ. إِنَّكُمْ ـ وَ اللهِ ـ لَكَثِيرٌ فِي الْبَاحَاتِ، قَلِيلٌ تَحْتَ الرَّايَاتِ، وَ إِنِّي لَعَالِمٌ بِمَا يُصْلِحُكُمْ، وَ يُقِيمُ أَوَدَكُمْ، وَلَكِنِّي لاَ أَرَىٰ إِصْلاحَكُمْ، بِإِفْسَادِ نَفْسِي. أَضْرَعَ اللهُ خُدُودَكُمْ، وَ أَتْعَسَ جُدُودَكُمْ! لاَ تَعْرِفُونَ الْحَقَّ كَمَعْرِفَتِكُمُ الْبَاطِلَ، وَ لاَ تُبْطِلُونَ الْبَاطِلَ كَإِبْطَالِكُمُ الْحَقَّ!

اللُّغَة:

الْبِكَارُ: جمع بِكر، ضَربٌ من الإِبِل. والْعَمِدَةُ ـ بكسر الميم ـ النّاقة مكسُورَة السّنام، وظاهره سليم. وحِيصَتْ: خِيطَتْ. وتَهَتَّكَتْ: تَخَرَّقَتْ. أَطَلَّ: أشرف. المَنْسِر: القطعة من الجَيْش. وانْجَحَرَ: دَخَلَ الجُحْر، وهو كلّ مكان تحتفره الهوام،

والسّباع لأنفسها. والضَّبَّة: أُنثىٰ الضَّبّ، وذَنَبه كَثير العُقد، وتقول الْعَرب: أَعقُّ من ضَّبٍّ، وأجبن من ضَّبٍّ، وأخدع من ضَّبٍّ. وَالضَّبُع: ضَرب من السّباع معروف. وَالوِجَارِ: الجُحر. والْافْوَقَ من السّهام: ما كُسر فَوقه. والنَّاصِل: العَاري من النَّصل أي حديدة السّهم. وَالبَاحَات: السَّاحَات. وأَوَدكُمْ: أعْوجَاجكُمْ. وأَضْرَعَ خُدُودَكُمْ: أَذَل وجُوهَكُمْ. وَأَتْعَس جُدُودَكُمْ. حَط من حظُوظَكُمْ.

الإِعْرَاب:

قَالَ النُّحاة: تُستعمل «كَمْ» فِي مَعنيين: الأَوَّل فِي كَثِير، وتسمىٰ خَبَرية، الثَانِي فِي أي عدد، وتسمىٰ ٱستفهأُمَيّة، وتَمْيز الأُولَىٰ مَخفوض، وتَمْيز الثَّانِيَة مَنْصُوب. هَذَا ما قاله النُّحاة، والَّذي نفهمه من «كَمْ» فِي قَوْل الإِمَام: «كَمْ أُدَارِيكُمْ» إِلَىٰ متىٰ أُدَارِيكُمْ، وعَلَيْهِ تَكُون مَنْصُوبة بنزع الخافض، وَ«كَمَا» الكاف بِمَعْنَىٰ مثل صفة لمَفْعُول مطلق مَحْذُوف «مَا» مَصْدَرِيَة. وكُلَّمَا حِيصَتْ «كُلَّ» مَنْصُوبة علىٰ الظَّرفِيَة لأَنّ الْمَعْنَىٰ كُلّ وقت حِيصَتْ، أو حِيَاصَة، ونَاصبها تَهتَّكَتْ. قَالَ ٱبن هشام فِي الْمُغْنِي: «قَالُوا: كُلَّمَا مَنْصُوبة علىٰ الظَّرفِيَة بٱتفاق، ونَاصبها الفِعْل الَّذي هو جوَاب فِي الْمَعْنَىٰ»[1].

الْمَعْنىٰ:

تَثَاقل أَصْحَاب الإِمَامِ عليه السلام عن الْقِتَال، وٱنصرفوا عَنْه بعد حَرْب الجَمَل،

---

(١) أُنظر، مُغني اللّبيب: ١/٢٠١، (مِنْهُ ﷺ)، الاتقان فِي علوم ٱلْقُرآن: ٢/٢٦١، البحر المحيط: ١/٩٠.

وصِفِّين، والنَّهْرَوَان، وأَصْبَحُوا لا يُبالون بأوامر الإِمَام، وتَوبِيخه، ومَوَاعظه، ومِنْهَا قَوْله: (كَمْ أُدَارِيكُمْ كَمَا تُدَارَىٰ الْبِكَارُ الْعَمِدَةُ، وَ الثِّيَابُ الْمُتَدَاعِيَةُ! كُلَّمَا حِيصَتْ مِنْ جَانِبٍ تَهَتَّكَتْ مِنْ آخَرَ). أَنْتُمْ فِي حَال شَاذَّة غَيْر طَبِيعية، وقد ٱضطرني شُذوذكم هَذَا أَنْ أَسُوسكم بالرِّفْق، والمُلاينة تَمَاماً كما يُدَارَىٰ البَعِير المَرِيض، والثَّوب البالي إِذَا خِيطَ مِنْهُ جانب ٱنفتق جانب.

(كُلَّمَا أَطَلَّ عَلَيْكُمْ مَنْسِرٌ مِنْ مَنَاسِرِ أَهْلِ الشَّامِ أَغْلَقَ كُلُّ رَجُلٍ مِنْكُمْ بَابَهُ) علىٰ نَفْسِه جُبناً، وخَوراً (وَ ٱنْجَحَرَ) أي تخبأ، وٱختفىٰ (ٱنْجِحَارَ الضَّبَّةِ) وَهِي أُنثىٰ الضَّبّ (فِي جُحْرِهَا) أي حفرتها (وَ الضَّبُعِ فِي وِجَارِهَا) أي بَيْتِها، أو كهفها (الذَّلِيلُ وَاللهِ مَنْ نَصَرْتُمُوهُ!) لأَنّكم لا تُفيدونه بشيء (وَ مَنْ رُمِيَ بِكُمْ فَقَدْ رُمِيَ بِأَفْوَقَ نَاصِلٍ) أي بغير سهم، أو بِسهم مُحطم، وقد تَقَدَّم (إِنَّكُمْ ـ وَاللهِ ـ لَكَثِيرٌ فِي الْبَاحَاتِ)، حَيْث لا حَرْب وَلاَ جِهَاد (قَلِيلٌ تَحْتَ الرَّايَاتِ) حَيْث الحَرْب، والجِهَاد[1].

(وَ إِنِّي لَعَالِمٌ بِمَا يُصْلِحُكُمْ، وَ يُقِيمُ أَوَدَكُمْ، وَلَكِنِّي لاَ أَرَىٰ إِصْلاحَكُمْ، بِإِفْسَادِ نَفْسِي). أَبَداً لا شيء عند عليّ إِلّا الدِّين، فَهُوَ آخرته، ودُنياه، ونَفْسه، وهواه، ومن أجل هَذَا ساس به أَصْحَابه، وما حاول، أو فَكَّر قطّ أَنْ يستميل أحداً بمالٍ، ومنصب، أو بالتضليل، والتَّغرير، والخِدَاع، ومن أجل هَذَا تَفَلَّتَ أَصْحَابه، أو أَكْثَرهم من يده، وهو يعلم علم الْيَقِين أنّه لو ٱستجاب إِلَىٰ أَهْوَائِهم كما يفعل مُعَاوِيَة لكانوا أطوع إِلَيْهِ من بنانه، ولَكِنَّهُ ـ كما قَالَ ـ أَتَأْمُرُونِّي أَنْ أَطْلُبَ النَّصْرَ

(١) ٱنظر، مَع الشّرح ٱلخُطْبَة: (٣٠)، (مِنْهُ ﷺ).

بِالْجَوْرِ ؟[1] ، وَلاَ يصلح دُنياه بإفساد دِينه . قَالَ طَه حُسين : «كَانَ مُعَاوِيَة يشتري ضمائر كَثِير من أَهْل الْبَصْرَة ، والْكُوفَة ليفسدهم علىٰ عليّ ، ثُمّ ظل علىٰ ذَلِكَ بعد أنْ ٱستقام له الأَمْر ، وجعل يتألّف النّاسَ حَوْلَ عرشه بمال ٱلْمُسْلِمِين لا يرىٰ بِذَلِكَ بأساً ، وَلاَ يرىٰ فِيهِ جناحاً ، ومضىٰ الخُلَفَاء من بَنِي أُمَيَّة علىٰ سُنته»[2] .

ثم قَالَ طَه حُسين : «وكَانَ عليّ كَثِيراً ما يَقُول لأَهْل الْكُوفَة : «وَإِنِّي لَعَالِمٌ بِمَا يُصْلِحُكُمْ ، لاَ أُفْسِد نَفْسِي بِصَلاحَكُمْ ، وصدق عُمَرَ بن الخَطَّاب حِينَ قَالَ : لو ولّوها ـ يُريد ٱلخِلاَفَة ـ ٱبن أبي طالب لحملهم علىٰ الجادة ، وقد همّ عليّ أنْ يحمل ٱلْمُسْلِمِين علىٰ الجادة ، ولكن ٱلْمُسْلِمِين أبوا عَلَيْهِ . . . ومن أجل ذَلِكَ قَالَ كَثِير من المتأخرين : «أنّه لم يَكُنْ مُحسناً للسياسة ، وما أشك فِي أنّه كَانَ يُحسن وَالسِّيَّاسَة كلّ الإِحْسَان ، وكَانَ جديراً لو ٱصطنعها أنْ يجمع إِلَيْهِ النّاس ، ولَكِنَّهُ آثر الدين علىٰ الدُّنْيَا . . . وأبىٰ أنْ يصلح النّاس ، ويفسد نَفْسه . . . وفارق الدُّنْيَا راضياً مرضياً لم يحتمل خَطِيئَة ، ولم يقترف إثماً »[3] .

وَقَالَ عبدٱلْكَرِيم الخَطِيب المِصْري : «كَانَ ٱلْمَال فِي يَد عليّ حَرْباً عَلَيْهِ يُكثر من أَعْدَائه ، ويُفسد عَلَيْهِ أَصْحَابه ، وأَنصاره بينما نَجد ٱلْمَال فِي يد مُعَاوِيَة جيشاً عاملاً يبسط له علىٰ النّاس سُلطاناً قائماً علىٰ الرّغبة ، وٱلأَمَل»[4] .

(أَضْرَعَ اللهُ خُدُودَكُمْ) . دُعاء عَلَيْهِمْ بالمَذلَة ، والهوان (وَأَتْعَسَ جُدُودَكُمْ !) . دُعاء

---

(١) أُنظر ، خطب النَّهج : ٦/٢ ، من كَلاَم له رقم (١٢٦) .

(٢) أُنظر ، مرآة ٱلإِسْلاَم للدكتور طَه حُسين : ٢٧٠ . (مِنْهُ ﷺ) .

(٣) أُنظر ، مرآة ٱلإِسْلاَم للدكتور طَه حُسين : ٢٧٤ . (مِنْهُ ﷺ) .

(٤) أُنظر ، في كتاب «عليّ بن أبي طالب بقية النُّبوّة ، وخاتم ٱلخِلاَفَة» : ٤٤٥ .

بالخيبة، وسُوء الحظ (لاَ تَعْرِفُونَ الْحَقَّ كَمَعْرِفَتِكُمُ الْبَاطِلَ). أي يَعْمَلُون بِٱلْـبَاطِل دُونَ ٱلْحَقّ، ومِثْله قَوْلهﷺ: وَلاَ فِي البلاد شيء أنكر من ٱلْمَعْرُوف، وَلاَ أَعرف من الْمُنْكَر (وَ لاَ تُبْطِلُونَ الْبَاطِلَ كَإِبْطَالِكُمُ ٱلْحَقَّ!). ومن أجل هَذَا كَانُوا هدفاً للغُزاة، والطّامِعِين، وعَاشوا أذلاَء خَاشِين.

الخطبة
-٧٠-

شَكْوَىٰ الإِمَام لِلنَّبيّ:

مَلَكَتْنِي عَيْنِي وَ أَنَا جَالِسٌ ، فَسَنَحَ لِي رَسُولُ اللهِ ﷺ ، فَقُلْتُ : يَا رَسُولَ اللهِ ، مَا ذَا لَقِيتُ مِنْ أُمَّتِكَ مِنَ الأَوَدِ ، وَ اللَّدَدِ ؟ فَقَالَ : «ادْعُ عَلَيْهِمْ» فَقُلْتُ : أَبْدَلَنِي اللهُ بِهِمْ خَيْراً مِنْهُمْ ، وَ أَبْدَلَهُمْ بِي شَرّاً لَهُمْ مِنِّي .

اللُّغَة:

مَلَكَتْنِي عَيْنِي : غَلَبَنِي النَّوم . السَّانَح هو الَّذي يَأْتِي من جانب الْيَمِين ، والبَارَح من جانب اليسار ، والنَّاطَح الَّذي يستقبلك ، والقَعيد الَّذي يستدبرك ، والمُـرَاد هـنا بـ (سَنَحَ لِي) أنّه رَأَىٰ فِي المنام رَسُول الله ﷺ . والأَوَدِ: الإعوجاج . اللَّدَدِ : الخِصام .

الإِعْرَاب:

وَ أَنَا جَالِسٌ الواو لِلحَال ، ومَاذَا مُبْتَدَأ ، وخَبَر ، أو كَلِمَة وَاحِدَة مُبْتَدَأ ، وجُمْلَة لَقِيتُ خَبَر .

الْمَعْنىٰ:

يَقُول الْإِمَامﷺ : أَنّه رَأَىٰ رَسُول الله ﷺ فِي مَنامه، فشَكا إِلَيْهِ ما لاَقَاه من أُمّته[١]، وكَانَ ذَلِكَ فِي آخر اللَّيْلَة الّتي قُتل فِي صَبِيحتها، فأمَرَه النَّبِيّ ﷺ أنْ يَدعو عَلَيْهِمْ، فسأل الله سُبْحَانَهُ أنْ يُبدله بالخَبيث طيباً، ويُبدلهم بٱلطَّيِّب خبيثاً، فٱستجاب له سُبْحَانَهُ، ونقله إِلَىٰ جواره، وسلط عَلَيْهِمْ مُعَاوِيَة يَسُومهم خَسفاً، ويَسُوقهم عُنفاً، وَلاَ يُعطِيهم إلاّ السَّيْف، وتَقَدَّم مِثْله[٢].

(١) رُوي ذَلِكَ بطرق عديدة، فمثلاً عن عَمَّار الدُهني عن أبي صالح الحنفي قَالَ: سمعت عَلِيّاًﷺ يَقُول: رَأَيْت النَّبِيّ ﷺ فِي منامي، فَشكَوْتُ إِلَيْهِ ما لقيت من أُمّتِه من الأَوَد، واللَّدَدِ ـ العوج والخُصُومَة الشَديدة ـ وبكيتُ، فَقَالَ: لاتَبكِ يا عليّ والتَفِتْ، فالتفتُّ فَإِذَا رجلان مُصَفَّدان، وَإِذَا جلاميد تُرضَخ بها رُؤُوسهما. أُنظر، النِّهَايَة: ٤ / ٢٤٤، الإِرْشَاد: ١ / ١٥، المَنَاقِب للخَوارزْمِي: ٣٧٨ و٤٠٢، مناقب ٱبن شهر آشوب: ٣ / ٣١١، كشف الغمّة: ١ / ٤٣٣ ط الْحَدِيثَة قَرِيب من هَذَا اللفظ، وتَذكِرة الخواصّ: ١٠٠، إعلام الورىٰ: ١٥٥، بحَار الأَنْوَار: ٤٢ / ٢٢٥، شرح النَّهج لِابْن أبي ٱلْحَدِيد: ١ / ١٢٨، شرح النَّهج للفيض: ١٥٦ خُطْبَة ٩٦، تَأريخ دِمَشْق ترجمة الإِمَام عليّ: ٣ / ٢٩٥، الإِسْتِيعَاب لِابْن عبد البرّ بهامش الإِصَابَة: ٣ / ٦١، فِي شرح النَّهج للفيض: ١٥٦ خُطْبَة ٦٩، وتَأريخ دِمَشْق: ٣ / ٢٩٥ والاِسْتِيعَاب: ٣ / ٦١ ورد بلفظ: «ٱدْعُ عَلَيْهِمْ» فَقُلْتُ: أَبْدَلَنِي الله بِهِمْ خَيْراً مِنْهُمْ، وَ أَبْدَلَهُمْ بِي شَرّاً لَهُمْ مِنِّي.

(٢) أُنظر، ٱلْخُطْبَة: (٢٧). (مِنْهُ ﷺ).

الخطبة

-٧١-

أَمَّا بَعْدُ يَا أَهْلَ الْعِرَاقِ ، فَإِنَّمَا أَنْتُمْ كَالْمَرْأَةِ الْحَامِلِ ، حَمَلَتْ فَلَمَّا أَتَمَّتْ أَمْلَصَتْ ، وَمَاتَ قَيِّمُهَا ، وَ طَالَ تَأَيُّمُهَا ، وَ وَرِثَهَا أَبْعَدُهَا . أَمَا وَ اللهِ مَا أَتَيْتُكُمْ اَخْتِيَاراً ، وَ لَكِنْ جِئْتُ إِلَيْكُمْ سَوْقاً . وَ لَقَدْ بَلَغَنِي أَنَّكُمْ تَقُولُونَ : عَلِيٌّ يَكْذِبُ ، قَاتَلَكُمُ اللهُ تَعَالَى ! فَعَلَى مَنْ أَكْذِبُ ؟ أَعَلَى اللهِ ؟ فَأَنَا أَوَّلُ مَنْ آمَنَ بِهِ ! أَمْ عَلَى نَبِيِّهِ ؟ فَأَنَا أَوَّلُ مَنْ صَدَّقَهُ ! كَلاَّ وَ اللهِ ، لَكِنَّهَا لَهْجَةٌ غِبْتُمْ عَنْهَا ، وَ لَمْ تَكُونُوا مِنْ أَهْلِهَا . وَيْلُ أُمِّهِ كَيْلاً بِغَيْرِ ثَمَنٍ ! لَوْ كَانَ لَهُ وِعَاءٌ . ﴿وَ لَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُو بَعْدَ حِينٍ﴾[1] .

اللُّغَة:

أَمْلَصَتْ الْمَرْأَة : أَلقت حَمْلَهَا مَيْتًا . وَالقَيِّمُ علىٰ الأَمْر : مُتوليه ، وقيِّم الْمَرْأَة زوجها . والأَيِّمُ : غَيْر المتزوج رجلاً كَانَ أم إمْرَأَة بِكراً كَانَتْ أَم ثيباً . والمُرَاد باللهجة هُنا الكَلاَم الَّذي تَضيق عن إِدْرَاكه الْعُقُول الضَّعيفة .

---

(١) سُورَةُ صَ : ٨٨.

الإِعْرَاب:

أَمَّا للتَّفصيل، والتَّوكيد، وبَعْدُ تَأتِي ظَرف زمَان مِثل أَتيت بَعْد الظُّهْر، وظرف مكان مثل أَتيت بيروت بَعْد صيدا، وَإِذَا قطعتْ بَعْدُ عن الإضَافة جَاز نَصبها، وضَمها، وَهِي هُنا مَبنية علىٰ الضَم، والأصل أَمّا بَعْدَ الْحَمْدُ، وٱخْتِيَاراً مَصْدَر فِي مقام الحَال أي ما أتيتكم مُخْتَاراً، ومِثْله سَوْقاً أي مَسوْقاً، وَمُضْطراً، وكَلاَّ حرف ردع، وزجر، والوَيْلُ كَلِمَة دُعاء بالشّر، وتُستعمل للتعجب، وٱستعظام الأَمْر، وَإِذَا أُضيفت إِلىٰ الأُمّ كَانَ الدُّعَاء عَلَيْهَا بأَنْ تُصاب فِي أَوْلاَدها، وَهِي مَع الإفراد يجوز رفعها بِالاِبْتِدَاء، مثل ويلٌ لزيد، ونصبها علىٰ آضمار الفِعْل، ومَع الإضافة يجب نصبها لِأَنَّهَا لو رفعت لم يَكُنْ لها خَبَر، وفِي النّدبة يُقَال: وَيلاه، والهاء للسكت، وكَيْلاً مَنْصُوب علىٰ الْمَصْدَريَة أي أَكِيل لَكُمْ كَيْلاً.

الْمَعْنىٰ:

آشتد الْقِتَال فِي صِفِّين، ولمّا بَدت علامَات النّصر فِي جَبهة الْإِمَام عليه السلام، وظهر الوهن فِي جبهة مُعَاوِيَة رفع هٰذَا ٱلْمَصَاحِف حيلةً، وخدَاعاً، ودبَّ الخِلاَف، والاِضطراب فِي أَصْحَاب الْإِمَام، ولم يَكُنْ من الْمُستطاع جَمعهم علىٰ كَلِمَة سواء، وتَمَّ لِمُعَاوِيَة ما أراد، فآمتلأت نفس الْإِمَام حَسرة، وَقَالَ من جُمْلَة ما قَالَ: (**أَمَّا بَعْدُ يَا أَهْلَ الْعِرَاقِ، فَإِنَّمَا أَنْتُمْ كَالْمَرْأَةِ الْحَامِلِ، حَمَلَتْ فَلَمَّا أَتَمَّتْ أَمْلَصَتْ، وَمَاتَ قَيِّمُهَا، وَطَالَ تَأَيُّمُهَا، وَوَرِثَهَا أَبْعَدُهَا**). يُشبّه الْإِمَام أَصْحَابِه الّذين كفّوا عن قتال مُعَاوِيَة فِي صِفِّين بعد أنْ أمكنهم الله منهُ، يُشبههم بِالْمَرْأَةِ الّتي حَملت جَنينها إِلىٰ الشّهر التَّاسع، ثُمّ أسقطته مَيتّاً بصدمة، ونَحْوَها، ثُمّ فقدت زوجها، فعاشت بلا

زوج يكفلها، وَلاَ ولد يسعدها حَتَّىٰ إِذَا هَلكت لم يرثها ذو نسبٍ، أو سببٍ قَرِيب كالاِبْن، والزّوج، بل اَلْأَرْحَام الأباعد كأبناء العمومة، والخؤولة.

(أَمَا وَ اللهِ مَا أَتَيْتُكُمُ اَخْتِيَاراً، وَ لَكِنْ جِئْتُ إِلَيْكُمْ سَوْقاً). بقي الإِمَـام فِي الْمَـدِينَة أَرْبَعَة أشهر بعد اَلْبَيْعَة له بِالْخِلاَفَةِ، ثُم خرج مِنْهَا لحَرْب أَهْل الْجَمَل، واَضطر إِلَىٰ الْبَقَاءِ فِي الْعِرَاق لمقابلة أَهْل الشّام فِي صِفِّين.. وإِذَنْ لم يَكُنْ الْإِمَام مالكاً إِرَادَة الْبَقَاء فِي الْمَـدِينَة، وَلاَ إِرَادَة الذّهاب إِلَىٰ الْعِرَاق، بل كَانَ يتحرك بدافـع مـن الظّـرُوف، والْقَضَاء علىٰ الْفِتَن، والضّلال.

(وَ لَقَدْ بَلَغَنِي أَنَّكُمْ تَقُولُونَ: عَلِيٌّ يَكْذِبُ، قَاتَلَكُمُ اللهُ تَعَالَىٰ! فَعَلَىٰ مَنْ أَكْذِبُ؟ أَ عَلَىٰ اللهِ؟ فَأَنَا أَوَّلُ مَنْ آمَنَ بِهِ! أَمْ عَلَىٰ نَبِيِّهِ؟ فَأَنَا أَوَّلُ مَنْ صَدَّقَهُ!). قَالَ الشّـيخ مُحَمَّد عَبْدَه: «كَثِيراً ما كَانَ الْإِمَام يُخبر أَصْحَابِه بِمَـا لا يَـعْرِفُون، ويـعلمهم مـا لم يكونوا يَعْلَمُون، فيَقُول اَلْمُنَافِقُون من أَصْحَابِه: إِنّه يكذب! كـما كَـانَ اَلْمُـنَافِقُون يَقُولُون مثل ذَلِكَ للنبي ﷺ ـ يُشير الشّيخ مُحَمَّد عَبْدَه إِلَىٰ قَـوْله تَـعَالَىٰ: ﴿وَقَالَ اَلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا سَٰحِرٌ كَذَّابٌ﴾[1] فرد الْإِمَام عَلَيْهِمْ بقَوْله: أَنّه أَوَّلُ مَنْ آمَنَ بِهِ! وَأَوَّلُ مَنْ صَدَّقَهُ! فكَيْفَ يجتريء علىٰ الْكَذِب علىٰ الله، أو علىٰ رَسُوله مَع قُـوَّة إِيمـانه، وكَمَال يَقِينه»[2].

(لَكِنَّهَا لَهْجَةٌ غِبْتُمْ عَنْهَا، وَ لَمْ تَكُونُوا مِنْ أَهْلِهَا). أَنْتُمْ لا تَـعْقِلُون مـا أقـول، لأنّكم لستم من أَهْل اَلْعُقُول، واَلْقُلُوب الّتي أُضيئت بنور الله (وَيْـلُ أُمِّـهِ) أي أم الّذي قَالَ: عليٌّ يكذب (كَيْلاً بِغَيْرِ ثَمَنٍ! لَوْ كَانَ لَهُ وِعَاءٌ). أنّ الْإِمَام يكيل العِلْم بلا

---

(١) سُورَةُ صٓ: ٤.

(٢) أُنظر، شرح النَّهج: ١١٩/١.

حساب لمن يعقل عَنْه، ويقدره، ولكن أَين هو؟ ومِثْله: «هَا، إنَّ هَا هُنَا لَعِلْمَاً جَمّاً»[1] ﴿وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُۥ بَعْدَ حِينٍۭ﴾[2]. أي سيَعْرِفُون عظمة الإِمَامِ عليه السلام بعد أنْ يبتلوا بغيره.

وَقَالَ عبدٱلْكَرِيم الْخَطِيب: «لم نجد أحداً كَانَ له من طول الصّحبة مَع النَّبِيّ، ومن مخالطته ما كَانَ لعليٍّ، فلقد صحب عليٌّ النَّبِيّ صحبة متصلة أَكْثَر من ثلاثين عَامَاً، وتِلْكَ مُدَّة لم يظفر بها أحد من ٱلْمُسْلِمِين جَمِيعَاً، فَإِذَا ٱجتمع إِلَىٰ طول الصُّحبة قرابة قَرِيبَة، وإلف متصل، ومخالطة فِي حلو ٱلْحَيَاة، ومرها، ثُمّ صادف ذَلِكَ كلّه أُذناً واعية، وقَلباً ذَاكراً، وثقلاً حافظاً كَانَ ما نُسب إِلَىٰ عليٍّ من علمٍ، وحكمةٍ، ونفاذ بصيرة، وشفافية روح ـ قليلاً إِلَىٰ ما يرجىٰ مِنْهُ، ويؤمل فِيهِ»[3].

وَقَالَ الأُستاذ الْخَطِيب: «كَانَ عليّ بطل ٱلإِسْلاَم دُونَ منازع، لا يَعْرِف ٱلْمُسْلِمُون سَيْفاً كسَيْف عليّ فِي إطاحته لرُؤُوس أَئمة الْكُفْر، وطواغيت الضّلال من سادة قُرَيْش، وقادتها، وكَانَ عليّ فقيه ٱلإِسْلاَم، وعالم ٱلإِسْلاَم، وَحَكِيم ٱلإِسْلاَم غَيْر مَدفوع عن هَذَا، أو مُنازع فِيهِ»[4].

---

(١) أُنظر، نهج البَلاَغَة: ٤/٣٦، ٱلْحِكْمَة (١٤٧).

(٢) سُورَةُ ص: ٨٨.

(٣) أُنظر، فِي كتاب «عليّ بن أَبي طالب بقية النُّبوّة، وخاتم ٱلْخِلاَفَة»: ٨٥.

(٤) أُنظر، كتابه «عليّ بن أَبي طالب»: ٨٧.

الخطبة

ـ ٧٢ ـ

أَللَّهُمَّ صَلِّ عَلىٰ مُحَمَّد وَآله...فِقْرَة ١ ـ ٢:

أَللَّهُمَّ دَاحِيَ الْمَدْحُوَّاتِ، وَ دَاعِمَ الْمَسْمُوكَاتِ، وَ جَابِلَ الْقُلُوبِ عَلَىٰ فِطْرَتِهَا: شَقِيِّهَا، وَ سَعِيدِهَا.

اَجْعَلْ شَرَائِفَ صَلَوَاتِكَ، وَ نَوَامِيَ بَرَكَاتِكَ عَلَىٰ مُحَمَّد عَبْدِكَ، وَ رَسُولِكَ الْخَاتِمِ لِمَا سَبَقَ، وَ الْفَاتِحِ لِمَا اَنْغَلَقَ، وَ الْمُعْلِنِ الْحَقَّ بِالْحَقِّ، وَ الدَّافِعِ جَيْشَاتِ الْأَبَاطِيلِ، وَ الدَّامِغِ صَوْلَاتِ الْأَضَالِيلِ، كَمَا حُمِّلَ فَاضْطَلَعَ، قَائِماً بِأَمْرِكَ، مُسْتَوْفِزاً فِي مَرْضَاتِكَ، غَيْرَ نَاكِلٍ عَنْ قُدُمٍ، وَ لاٰ وَاهٍ فِي عَزْمٍ، وَاعِياً لِوَحْيِكَ، حَافِظاً لِعَهْدِكَ، مَاضِياً عَلَىٰ نَفَاذِ أَمْرِكَ[1]، حَتَّىٰ أَوْرَىٰ قَبَسَ الْقَابِسِ، وَ أَضَاءَ الطَّرِيقَ لِلْخَابِطِ، وَهُدِيَتْ بِهِ الْقُلُوبُ بَعْدَ خَوْضَاتِ الْفِتَنِ، وَ الْآثَامِ، وَ أَقَامَ بِمُوضِحَاتِ الْأَعْلَامِ، وَنَيِّرَاتِ الْأَحْكَامِ، فَهُوَ أَمِينُكَ الْمَأْمُونُ، وَ خَازِنُ عِلْمِكَ الْمَخْزُونِ، وَ شَهِيدُكَ يَوْمَ الدِّينِ، وَ بَعِيثُكَ بِالْحَقِّ، وَ رَسُولُكَ إِلَىٰ الْخَلْقِ.

أَللَّهُمَّ اَفْسَحْ لَهُ مَفْسَحاً فِي ظِلِّكَ، وَ اجْزِهِ مُضَاعَفَاتِ الْخَيْرِ مِنْ فَضْلِكَ. أَللَّهُمَّ وَ أَعْلِ عَلَىٰ بِنَاءِ الْبَانِينَ بِنَاءَهُ، وَ أَكْرِمْ لَدَيْكَ مَنْزِلَتَهُ، وَ أَتْمِمْ لَهُ نُورَهُ، وَ اجْزِهِ مِنَ

ٱبْتِعَاثِكَ لَهُ مَقْبُولَ الشَّهَادَةِ، مَرْضِيَّ الْمَقَالَةِ، ذَا مَنْطِقٍ عَدْلٍ، وَ خُطْبَةٍ فَصْلٍ.

أَللَّهُمَّ ٱجْمَعْ بَيْنَنَا وَ بَيْنَهُ فِي بَرْدِ الْعَيْشِ، وَ قَرَارِ النِّعْمَةِ، وَ مُنَىٰ الشَّهَوَاتِ، وَ أَهْوَاءِ اللَّذَّاتِ، وَ رَخَاءِ الدَّعَةِ، وَ مُنْتَهَىٰ الطُّمَأْنِينَةِ، وَ تُحَفِ الْكَرَامَةِ[٢].

اللُّغَة:

دَاحِيَ: بَاسِط. والْمَدْحُوَّاتِ: الْأَرْضُون، وٱلأَرْض كُرة، ولكن فيها قطعاً مبسوطة. والْمَسْمُوكَاتِ: ٱلسَّماوَات. وَجَابِلَ: خَالِقَ. والشَرَائِف: جمع شَرِيفَة. وَنَوَامِيَ البَرَكَات: زيادتها، أو زوائدها. وجَاشَت الْقِدَر: غلت، والبحر: هاج، والْعَيْن: فاضت، والنّفس: ٱضطربت. وجَيْشَاتِ الأَبَاطِيلِ: ٱرتفاعها. وٱضْطَلَعَ بالأَمْرِ: نَهَض به، وقوىٰ عَلَيْهِ. ومُسْتَوْفِزاً: مُسرعاً. ونَكِل: نَكِص، وجبن. وقُدُمٍ ـبضم القاف، والدال ـمن مضىٰ قُدُماً أي سار، ولم يعرج. وأَوْرَىٰ الزَّند: أخرج ناره. والْقَبس: شُعلة من ٱلنَّار. والْقَابِسِ: طالب ٱلنَّار. والْخَابِطِ: السَّائر علىٰ غَيْرِ هدىٰ. وٱفْسَحْ لَهُ: وَسْعَ لهُ. وفِي ظِلِّكَ: فِي بِرّك، وإحسانك. وٱبْتِعَاثِكَ: بعثك له رسولاً إِلَىٰ الخَلق. وبَرْدِ الْعَيْشِ: لا شيء يكدر صفوه. وَمُنَىٰ الشَّهَوَاتِ: ما تتمناه، وتشتهيه.

الإِعْرَاب:

دَاحِيَ أي يا دَاحِيَ، وشَقِيِّهَا، وَ سَعِيدِهَا بدل من الْفِطْرَة، وعَبْدِكَ بدل من مُحَمَّد، والْخَاتِمِ صفة للرَسُولِ، وكَمَا حُمِّلَ الكاف هُنا بِمَعْنَىٰ لاَم التَّعليل، وَمَا

مَصْدَرِيَة، قَالَ ٱبن هشام فِي الْمُغْنِي[1]: أثبت ذَلِكَ قَوْم، وهو ظاهر فِي قَوْله تَعَالَىٰ: ﴿وَٱذْكُرُوهُ كَمَا هَدَىٰكُمْ وَإِن كُنتُم مِّن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلضَّآلِّينَ﴾[2] أي لهدايته إيَّاكُمْ، وجَيْشَاتِ مَفْعُول للدَّافِعِ، وصَوْلاتِ مَفْعُول للدَّامِغِ، وقَائِماً حَال، ومِثْله مُسْتَوْفِزاً، وغَيْرَ نَاكِلٍ، ووَاعِياً، وحَافِظاً، ومَاضِياً، ومَفْسَحاً صفة لموصوف مَحْذُوف أي وسع له مكاناً مُتسعاً، ومُضَاعَفَاتِ مَفْعُول ثانٍ لأجْزِهِ، ومَقْبُولَ الشَّهَادَةِ مَفْعُول ثَانٍ لأجْزِهِ، ومَرْضِيَّ الْمَقَالَةِ عطف علىٰ مَقْبُولَ الشَّهَادَةِ بحذف الواو، وذَا مَنْطِقٍ حَال.

الْمَعْنىٰ:

دعا الإِمَامُ عليه السلام فِي هَذِه ٱلخُطْبَة أنْ يرفع الله سُبْحَانَهُ من شأن مُحَمَّد صلى الله عليه وآله عنده مَع علمه بأنّ لرسول الله عند الله مَا لاٰ يَحْلُم بِهِ مَلَكٌ مُقَرَّبٌ، وَلاَ نَبِيٌّ مُرْسَلٍ، وإذَنْ فلا مَعْنَىٰ لِهَذَا الدُّعَاء إلّا الْعِبَادَة، والتَّقرب إِلَىٰ الله بتعظيم حبيبه، وتقديسه.

(أَللَّهُمَّ دَاحِيَ الْمَدْحُوَّاتِ). باسط الأَرَضِينَ يجَعلهَا للخلق فراشاً، ومعاشاً (وَ دَاعِمَ الْمَسْمُوكَاتِ) أي ٱلسَّماوَات، والْمُرَاد بِدَعْمهَا إمْسَاكها بقانون الجاذبية (وَ جَابِلَ الْقُلُوبِ عَلَىٰ فِطْرَتِهَا: شَقِيِّهَا، وَ سَعِيدِهَا). والْمُرَاد بالفِطْرَة ٱستعداد ٱلإِنْسَان لأنْ يَكُونَ خيّراً، أو شرّيراً، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا﴾[3] أي هداها النّجدين: طريق الْخَيْر، وطريق الشَّرّ، وترك الخيار

---

(١) أنظر، مغني اللّبيب لِابْن هُشام الأَنْصَاري: ١٧٦/١.

(٢) ٱلْبَقَرَة: ١٩٨.

(٣) ٱلشَّمْس: ٧ ـ ٨.

لصاحبها حرصاً علىٰ حريته، وإنسانيته، وَقَالَ سُبْحَانَهُ: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّـٰهَا﴾[1] وهو السّعيد الَّذي آثر الْخَيْرَ علىٰ الشَّرّ، وحلالَ الله علىٰ حرامه: ﴿وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّـٰهَا﴾[2] وهو الشّقي الَّذي آثر الشَّرّ علىٰ الْخَيْر، والْحَرَام علىٰ الحلال.

(اَجْعَلْ شَرَائِفَ صَلَوَاتِكَ، وَ نَوَامِيَ بَرَكَاتِكَ عَلَىٰ مُحَمَّد عَبْدِكَ، وَ رَسُولِكَ).

مُحَمَّد ﷺ عبدالله، ورَسُوله: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَـٰهُكُمْ إِلَـٰهٌ وَٰحِدٌ فَاسْتَقِيمُوٓاْ إِلَيْهِ وَٱسْتَغْفِرُوهُ وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ﴾[3]. أجل، أنّ مُحَمَّداً بشر، ما فِي ذَٰلِكَ ريب، ولَكِنَّهُ مُعْجِزَة السَّماء، والعظيم من اقتدىٰ بسيرته، ومِنْهَا أَنّه كَانَ يَكْرَه الْفَقْر، وَيُحَارِبه، ومَع هَذَا كَانَ يمر الشّهر، والشّهران، وَلاَ يوقد ناراً، ويَعِيش علىٰ الأسودَين: التّمر، والْمَاء[4]، ومات ﷺ ودرعه مرهونة عند يهودي[5]، وطلب من يهودي آخر أنْ يبيعه الطّعام بالدَّين فرفض، وَقَالَ: ما لُمحَمَّد زرع، وَلاَ ضَرع فمن أين يسد ديونه؟[6]، وما ملكَ ثوبَيْنَ معاً، وَلاَ نعلين فِي حياته كلّها، وكَانَ ينام ليلاً علىٰ حصير أثرت فِي جنبه، ويبسطها نهاراً فيجلس عَلَيْهَا[7]، هَذَا وثروة الجزيرة

---

(١) الشّمس: ٩.

(٢) اَلشَّمس: ١٠.

(٣) فُصِّلَتْ: ٦.

(٤) أنظر، مُنْتهىٰ المطلب: ٦٢٤/٢، البداية والنّهاية: ٥٨/٦، تَهْذِيب الأَحْكَام: ١٩٨/٤، كنز الْعُمّال: ٢٦٨/٩، وَسَائِل الشّيعة: ١٠٥/٧، مُسْنَد أحمد: ١٩٩/١، صفوة الصّفوة: ١٩٩/١.

(٥) أنظر، المَبْسُوط للطُّوسِي: ١٩٦/٢، المَبْسُوط للسّرخَسي: ٦٤/٢١، تَذكِرة الْفُقَهاء: ١١/٢، تلخيص الحبير: ٢/١٠، المُهَذّب: ٤٣/٢، السّنن الْكُبْرىٰ: ٣٦/٦، شرح الأَزْهَار: ٣٩٥/٣.

(٦) أنظر، تَأْرِيخ بغداد: ٣٧٤/٣ ح ١٥٠٤، مَجْمَع الزّوائد: ١٦٤/٤، ميزان الإِعْتِدَال: ٢٥٧/١.

(٧) أنظر، مَكَارِم الأَخْلاَق للطبرسي: ٣٨، إحياء علوم الدين للغزالي: ٣٧٦/٢.

العَرَبِيَّة كلّها طوع آرادته، وغرضه من حَيَاة ٱلتقشف هَـذِه أنْ يُـفَهّم الأجـيال أنّ الْحَاكِم لا يجوز له أنْ يجمع بَيْنَ السّلطة، والثّروة، بَيْنَ الحُكم، وٱلتّرف «إِنَّ اللهَ تَعَالىٰ فَرَضَ عَلَىٰ أَئِمَّةِ الْعَدْلِ أَنْ يُقَدِّرُوا أَنْفُسَهُمْ بِضَعَفَةِ النَّاسِ كَيْلاَ يَتَبَيَّغَ بِالْفَقِيرِ فَقْرُهُ»(١). كما قَالَ الْإِمَام عليه السلام أي لا يهيج به أَلَم الْفَقْر فيهلكه.

(الْخَاتِمِ لِمَا سَبَقَ). خَتَم الله النُّبُوَّة بنُبُوَّة مُحَمَّد صلى الله عليه وآله، وبرِسَالَته، وشريعته، رِسَالَة السَّماَء إِلَىٰ أَهْل ٱلأَرْض، والسّر شمول ٱلرِّسَالَة المُحَمَّدية لشَتَّىٰ نواحي ٱلْحَيَاة، فلقد أوضحت بجلاء أُسس الْعَقِيدَة، والْعِبَادَة، وعِلاَقَة ٱلإِنْسَان بِرَبِّه، وبغيرة من النّاس فِي جَمِيع المُعاملات، والصّلات. ومن مظاهر شمولها أَنَّها جعلت ٱلْعَمَل الصّالح فِي الدُّنْيَا وسيلة السَّعَادَة فِي الآخِرَة، وٱعتبرت تِلْكَ مطية لِهَـذِه، بالإضافة إِلَىٰ أنّ رِسَالَة مُحَمَّد صلى الله عليه وآله أوَّل رِسَالَة رُفعت من شأن ٱلإِنْسَان ذكراً، وأُنثىٰ، ووَضعَت الأَسَاس الْحَقِيقِي للمساوات بَيْنَ النّاس، ولم تجعل لأحد فضلاً علىٰ أحدٍ إلاّ بِمَا يقتضيه ٱلْحَقّ، والواجب، فلَيْسَ رعاية الْفُقَرَاء فضلاً من الأَغْنِيَاء عَلَيْهِمْ، بل حقّاً من حُقُوقهم وَاجب الأدَاء، ولَيْسَ إنصاف الضَّعِيف، أو الْمَظْلُوم فضلاً من الأَقْوِيَاء أو أُولِي الأَمْر، بل حقّاً يجب أنْ يؤدىٰ. وتَكَلّمنا مطولاً بعنوان: «لِمَاذَا خُتِمت النُّبُوَّة بِمُحَمَّد صلى الله عليه وآله»(٢).

(وَ الْفَاتِحِ لِمَا ٱنْغَلَقَ). كَانَتْ ٱلْعُقُول قبل مُحَمَّد صلى الله عليه وآله مُغلقة بٱلجَهْل، وٱلقُلُوب بالضّلال. فٱفتتحها مُحَمَّد بنور العِلْم، وٱلهِدَايَة (وَ الْمُعْلِنِ الْحَقَّ بِالْحَقِّ). أظهر الحَقّ

(١) أنظر، نَهج البَلاَغَة: من كَلاَم له عليه السلام بالْبَصْرَةِ، وقد دخل علىٰ الْعَلاَء بن زياد الحارثي، وهو من أصْحَابه يعوده، فَلَمَّا رَأىٰ سعة داره تحت رَقم (٢٠٩).

(٢) أنظر، التّفسير الكاشف: المجلد السّادس عند تفسير الآيَة ٤٠ من سُورَة الأَحْزَاب.

بٱلأدِلّة، والبينات الّتي لا يُنكرها إلّا الطُّغاة المعاندون للْحَقِّ، والصّالح العام، وقد أُبتلي بِهِمْ رَسُول الله ﷺ، ولكن حَرْبهم له كَانَ من أقوىٰ ٱلأدِلّة، وأوضحها علىٰ صدقه، وعَظَمَته (وَ الدَّافِعِ جَيْشَاتِ الْأَبَاطِيلِ، وَ الدَّامِغِ صَوْلاٰتِ الْأَضَالِيلِ). كَانَتْ حَيَاة البشر قبل ٱلإِسْلاَم فِي ضلالٍ، وفساد. فبعث الله مُحَمَّداً ﷺ بٱلْهُدَىٰ، ودين ٱلْحَقّ، ودخل النّاس فِي دين الله أفواجاً بعد أنْ لاقىٰ صاحب الدَّعْوَة فِي سبيلها ما لاقىٰ من العنت، والأَذَىٰ.

(كَمَا حُمِّلَ فَٱضْطَلَعَ). حمل مُحَمَّد ﷺ رِسَالَة الْحَقّ إِلَىٰ ٱلخَلْق، وبلغها علىٰ أكمل وجه بأمانةٍ، وإخلاص (قَائِماً بِأَمْرِكَ) علىٰ ثقلِهِ، وشِدَّتِهِ... وأي تكليف أشد، وأثقل من التَّكليف بإخراج النّاس من الظّلمات إِلَىٰ ٱلنُّورِ، والْقَضَاء علىٰ عقائدهم الفاسدة، وتقاليدهم الموروثة، وحمل البشرية كلّها علىٰ مَكَارِمِ الْأَخْلاَق؟ ومَن الَّذي يَسْتَطِيع أنْ يغير من أخلاق زوجته، وولده؟ لكن مُحَمَّداً ﷺ تغلب علىٰ جَمِيع هَذِه الصّعاب بشخصيته العظيمة، وصبره علىٰ الشَّدَائِد. قَالَ برناردشو: «لو كَانَ مُحَمَّد فِي القرن الْعِشْرِين لقضىٰ علىٰ ما فِيهِ من ضلالٍ، وفساد»[1] (مُسْتَوْفِزاً فِي مَرْضَاتِكَ) أي مُسرعاً فِي طَاعَة الله، ومن أَقْوَاله حِينَ رماه أَهْل الطّائف بالحجارة مخاطباً ربّه «لَكَ العُتبىٰ حَتَّىٰ تَرضىٰ... إنْ لم يَكُنْ بِكَ غَضَبٌ عليَّ فلا أُبالي»[2].

(غَيْرَ نَاكِلٍ عَنْ قُدُمٍ). لا يتأخر، ويجبن عما يُرضي الله، ويحرص كلّ الْحِرْص علىٰ طاعته مهما تكن النّتائج (وَ لاَ وَاهٍ فِي عَزْمٍ). قوي فِي توكله علىٰ الله، وفِي عزمه علىٰ أداء رِسَالَته، وفِي صبره علىٰ الشَّدَائِد فِي سَبِيل ذَلِكَ (وَاعِياً لِوَحْيِكَ، حَافِظاً

(١) أُنظر، جريدة الجمهورية المِصْرية عدد ١٤ مايو «أيار» سَنَة ١٩٧٠م. (مِنْهُ ﷺ).
(٢) أُنظر، تَفْسِير القُرطُبِي: ١٦/٢١١، تَفْسِير آبن كَثِير: ٤/١٧٦، البداية والنِّهَايَة: ٣/١٦٦.

لِعَهْدِكَ ، مَاضِياً عَلَىٰ نَفَاذِ أَمْرِكَ) . ولو لم يَكُنْ وَاعِياً للوحي ، وحَافِظاً للعَهدِ ، ومُنفذاً لِلْأَمْرِ لم يَكُنْ أهلاً للنبُوَّة ، وٱلرِّسَالَة (حَتَّىٰ أَوْرَىٰ قَبَسَ الْقَابِسِ) . أعلن ٱلْحَقّ ، وأوضحه ، ومهّد ٱلسَّبِيل إِلَيْهِ لكلّ طالبٍ ، وراغب ، وماأَتْرُك عُذراً لمُعتذر (وَ أَضَاءَ الطَّرِيقَ لِلْخَابِطِ) . أنار سَبِيل السّلامة لمن ضَلَّ عَنه (وَهُدِيَتْ بِهِ الْقُلُوبُ بَعْدَ خَوْضَاتِ الْفِتَنِ ، وَ ٱلْآثَامِ) . ٱهتدىٰ به من كَانَ يَخْبِط حائراً فِي ظُلمة الْجَهَالَةِ ، والضَّلالة (وَ أَقَامَ بِمُوضِحَاتِ الْأَعْلَامِ) . نَصب العلامات ٱلّتي ترشد التَّائهين إِلَىٰ نَهْج ٱلسَّبِيل (وَنَيِّرَاتِ الْأَحْكَامِ) . وبيّن مصادر الْأَحْكَام الشَّرعِيَّة (فَهُوَ أَمِينُكَ الْمَأْمُونُ) . ائتمنته علىٰ وَحيك ، فأدىٰ الْأَمَانَة إِلَىٰ عبادك مُخلصاً لك ، وهُمْ (وَ خَازِنُ عِلْمِكَ الْمَخْزُونِ) . هناك علم كشفه الله لجَمِيع خلقه ، وعلم ٱختص به وحده ، وعلم ٱختص به صفوة الصّفوة ، وَهَذَا هو الْمُرَاد بالعلم المخزون (وَ شَهِيدُكَ يَوْمَ الدِّينِ) . ٱشارة إِلَىٰ قَوْله تَعَالَىٰ : ﴿وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا﴾[1] . (وَ بَعِيثُكَ بِالْحَقِّ ، وَ رَسُولُكَ إِلَىٰ الْخَلْقِ) . أي مبعوثك بٱلْهُدَىٰ ، ودين الْحَقّ إِلَىٰ خَلقك ، وعبادك .

(أَللَّهُمَّ ٱفْسَحْ لَهُ مَفْسَحاً فِي ظِلِّكَ ، وَ ٱجْزِهِ مُضَاعَفَاتِ الْخَيْرِ مِنْ فَضْلِكَ) . ٱرفعه إِلَىٰ أعلىٰ الدَّرجَات ، وضاعف له من الأجر ما لا يناله أحد سواه (أَللَّهُمَّ وَ أَعْلِ عَلَىٰ بِنَاءِ الْبَانِينَ بِنَاءَهُ) . ما تركت شَرِيعَة مُحَمَّد ﷺ ناحية من نواحي ٱلْحَيَاة إلّا وسُنت لها القواعد الكفيلة ببيان نظامها السّليم ، وحكمها الْقَوِيم ، وفِي ذَلِكَ يَقُول صاحبها : «إنّما مَثلي ومَثل ٱلْأَنْبِيَاء قبلي كمثل رَجل ٱبتنىٰ بنياناً فأحسنه ، وأكمله إلاّ موضع

---

(١) ٱلنِّسَاء : ٤١.

لَبنَة من زاوية من زواياه، فجعل النّاس يطيفون به، ويعجبون مِنْهُ، ويَقُولُون: هلاّ وضعت هَذِه اللُّبنة، فأنا اللَّبنة، وأنا خاتم النَّبِيِّين»[1]. والإِمَامﷺ يسأل الله سُبْحَانَهُ أنْ تسود هَذِه الشَّرِيعَة علىٰ جَمِيع الشّرائع.

(وَ أَكْرِمْ لَدَيْكَ مَنْزِلَتَهُ، وَ أَتْمِمْ لَهُ نُورَهُ). ولَيْسَ من شك أنّ الله أكرم مُحَمَّداًﷺ، وأتم نوره بٱنتشار ٱلإِسْلاَم فِي شرق ٱلأَرْض، وغَرْبِهَا، ولكن الإِمَام يطلب المزيد (وَٱجْزِهِ مِنِ ٱبْتِعَاثِكَ لَهُ مَقْبُولَ الشَّهَادَةِ، مَرْضِيَّ الْمَقَالَةِ). ٱجعل جزاءه علىٰ قيامه مُجاهداً، مُخلصاً بواجب البعثة، وٱلرِّسَالَة ـ الشَّهَادَة المَقْبُولة، والْمَقَالَةِ المَرضيّة عِنْدَكَ، وأيضاً لَيْسَ من شك أنّ النَّبِيّ مَقْبُول الشَّهادَة، ومَرْضِيَّ الْمَقَالَةِ عند الله، ولكن هَذَا من بَاب الذّكر، والتَّسبيح، والتَّحميد: ﴿وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ﴾[2]، وكَذَلِكَ ذكر الرَّسُول الأَعْظَمﷺ (ذَا مَنْطِقٍ عَدْلٍ، وَ خُطْبَةٍ فَصْلٍ). أي أنّ النَّبِيّ مَقْبُول الشَّهادَة، ومَرْضِيَّ الْمَقَالَةِ؛ لأنّ قَوْله الْعَدْل، وحُكمه الفصل.

(أَللَّهُمَّ ٱجْمَعْ بَيْنَنَا وَ بَيْنَهُ) فِي جنّات النَّعِيم، وأشار الإِمَامﷺ إِلَىٰ طرف من نَعيم هَذِه الجنان بقَوْله: (فِي بَرْدِ الْعَيْشِ) الَّذي لا ينغصه شيء (وَ قَرَارِ النِّعْمَةِ) الّتي لا تزول، وَلاَ تحول (وَ مُنَىٰ الشَّهَوَاتِ) ما تشتهي الأنفُس، وتلذ ٱلأَعْيُن (وَ أَهْوَاءِ اللَّذَّاتِ) من الحور، والقصور، والأعناب، والأكواب (وَ رَخَاءِ الدَّعَةِ، وَ مُنْتَهَىٰ الطُّمَأْنِينَةِ، وَ تُحَفِ الْكَرَامَةِ). الرّخَاءِ سِعَة العيش، والدَّعَةِ سكون النّفس،

---

(١) أنظر، صَحِيح البُخَارِيّ: ١٦٣/٤، مُسْنَد أحمد: ٢٥٦/٢ و ٣١٢، صَحِيح مُسْلِم: ٦٤/٧، فتح الباري: ٤٠٧/٦، السّنن الكُبْرَىٰ: ٣٤٦/٦، نظم درر السّمطين: ٥٣، مُسْنَد الشّاميين: ٢٦٦/٤، سُبل الهُدَىٰ والرّشاد: ٣٠٢/١٠، مَع إختلاف يسير فِي مُسْنَد أحمد..

(٢) ٱلعَنكَبُوت: ٤٥.

والتُّحفَة الهَدِية يُكرم بها الإنْسَان. والرَّسُول الأَعْظَم يتمتع بِهَذِه، وبغيرها من النِّعَم الّتي لا يبلغها الإِحْصَاء، والإِمَام يسأل الله أنْ يجعله غداً فِي جوار الرَّسُول ليكون له من هَذِه النِّعَم نصيب، وَهِي خير ما أعده الله للمُطيعين.

الخطبة

-٧٣-

مَرْوَان بِن الحَكَم:

أَ وَ لَمْ يُبَايِعْنِي بَعْدَ قَتْلِ عُثْمَان ؟ لاٰ حَاجَةَ لِي فِي بَيْعَتِهِ ! إِنَّهَا كَفٌّ يَـهُودِيَّةٌ ، لَـوْ بَايَعَنِي بِكَفِّهِ لَغَدَرَ بِسُبَّتِهِ . أَمَا إِنَّ لَهُ إِمْرَةً كَلَعْقَةِ الْكَلْبِ أَنْـفَهُ ، وَ هُـوَ أَبُـو الْأَكْـبُشِ الْأَرْبَعَةِ ، وَ سَتَلْقَىٰ الْأُمَّةُ مِنْهُ وَ مِنْ وَلَدِهِ يَوْماً أَحْمَرَ !

اللُّغَة:

يَهُودِيَّةٌ : غَادِرَة . والسُّبة : الإِسْتَ . بِفَتح السِّين ، واللَّعْقَة : اللَّحْسَة . وكَبْش القوم : رَئيسهم . يَوْماً أَحْمَرَ : شَدِيداً .

الإِعْرَاب:

عُثْمَان ممنوع من الصَّرف للعلمية ، وزِيَادَة الأَلف ، والنّون ، وأَنْفَهُ مَفْعُول لَـعْقَة ، وأَحْمَرَ غَيْر مَصْرُوف للوصف ، ووزن الفِعْل .

الْمَعْنىٰ:

كَانَ الحَكَم بن أبي العَاص يتجسس علىٰ رَسُول الله ﷺ ، ويحكـيه فِي مَشـيه وحركاته ، فلعنه ، ونفاه إِلَىٰ الطَّائف ، ولم يزل بها حَتَّىٰ تَوَلَّىٰ عُثْمَان فردّه إِلَىٰ الْمَدِينَة

لأنّه أخو أبيه[١]، وَقَالَ عبدٱلْكَرِيم: «وأبو مَرْوَان هو الحَكم بن أبي العَاص لعين رَسُول الله، وطريده، وقد أستأثر مَرْوَان عند عُثْمَان بثلاثة: فكان صاحب سره، والمُوجه لسياسته، والمُشير عَلَيْهِ فِي كلِّ أُموره»[٢]. وَقَالَ الْخَطِيب فِي مكان آخر من ٱلْكِتَاب: «وكَانَ النَّبِيّ قد أهدر دَم الحَكم، وَقَالَ لا يُساكنني وولده، فغربهم جَمِيعاً إِلَىٰ الطّائف. ولما توفي النَّبِيّ كلَم عُثْمَان أبا بَكْر فِي عمّه الحَكَم فَقَالَ: ما كنت لآوي طريد رَسُول الله، وكَذَلِكَ كَانَ موقف عُمَرَ، فَلَمَّا ولّي عُثْمَان ٱلْخِلاَفَة أَدْخَلَهم الْمَدِينَة، وأتخذ مَرْوَان كاتباً»[٣].

وَقَالَ الشَّرِيف الرَّضِي فِي النَّهْج: «قَالُوا: أُخذ مَرْوَان بن الحَكَم أسيراً يَوْم الْجَمَل، فاستشفع الْحَسَن، والْحُسَيْن عليهما السلام إِلَىٰ أَمِير ٱلْمُؤْمِنِين عليه السلام فكلماه فِيه، فخلىٰ سبيله[٤]، فقالا له: يُبايعك يا أَمِير ٱلْمُؤْمِنِين. فَقَالَ: (أَوَ لَمْ يُبَايِعْنِي بَعْدَ قَتْلِ عُثْمَان) ونكث بَيعتي، وتَطوع لمحاربتي مَع عَائِشَةَ، والزُّبَيْر، وطَلْحَة (لاَ حَاجَةَ لِي فِي بَيْعَتِهِ! إِنَّهَا كَفٌّ يَهُودِيَّةٌ). لا تترك الْغَدْر بحال، ويومىء هَذَا الْوَصْف إِلَىٰ أنّ اليهود كَانُوا يُعْرفُون بالْغَدْر مُنذ القديم، وأنّهم يمثلون دور الغادر الفاجر فِي كلِّ مسرح، ومطرح (لَوْ بَايَعَنِي بِكَفِّهِ لَغَدَرَ بِسُبَّتِهِ). قَالَ الشّيخ مُحَمَّد عبدة: «السَّبت الإسْتَ، وكنىٰ به عن الْغَدْر الخفي لتحقير الغادر»[٥].

(أَمَا إِنَّ لَهُ إِمْرَةً كَلَعْقَةِ الْكَلْبِ أَنْفَهُ). يُخبر الإِمَام عليه السلام بأنّ مَرْوَان سوف يحكم

---

(١) تَقَدَّم إستخراج ذَلِكَ.

(٢) أنظر، فِي كتاب «عليّ بن أبي طالب بقية النُّبوَّة، وخاتم ٱلْخِلاَفَة»: ١٥٢.

(٣) أنظر، فِي كتاب «عليّ بن أبي طالب بقية النُّبوَّة، وخاتم ٱلْخِلاَفَة»: ٤٢٠.

(٤) تَقَدَّم إستخراج ذَلِكَ.

(٥) أنظر، شرح النَّهج: ١/١٢٤.

النّاس مُدَّة من الزّمن، وعبّر عَنْهَا بِلَحْسَة الْكَلْبِ أَنْفَهُ لقصرها، وكَانَتْ تسعة أشهر، وَقِيل: أَرْبَعَة أشهر وعشراً (وَ هُوَ أَبُو الْأَكْبُشِ الْأَرْبَعَةِ). إِشَارَة إِلَىٰ أحفاد مَرْوَان، وأَوْلاَد عبدالملك الّذين حكموا، وهم عبدالملك، وسُليمان، ويَزِيد، وهُشام[1]، وٱجاز ٱبن أبي ٱلحَدِيد أنْ يَكُون الْمُرَاد بالْأَرْبَعَةِ أَوْلاَد مَرْوَان للصُّلب لا أحفاده أي عبدالملك الّذي تَوَلَّىٰ ٱلخِلاَفَة، وبِشر الّذي تَوَلَّىٰ الْعِرَاق، وعبدالعزيز الّذي تَوَلَّىٰ مِصْر، ومُحَمَّد صَاحب الجَزِيرة[2].

(وَ سَتَلْقَى الْأُمَّةُ مِنْهُ وَ مِنْ وَلَدِهِ يَوْماً أَحْمَرَ!). وَلاَقىٰ ٱلإِسْلاَم، وٱلْمُسْلِمُون من الأموية أَيَّامَاً حَمْرَاء، وسَوْدَاء، وكتب التَّأرِيخ مُتْخَمة بمَثَالب الْأُمَوِيين، وَوَضع فيها كُتب خَاصَّة. ومن أَقْوَال الْإِمَامعليه السلام: «وَلَكِنَّنِي آسَىٰ أَنْ يَلِيَ أَمْرَ هَـٰذِهِ ٱلأُمَّـةِ سُفَهَاؤُهَا، وَفُجَّارُهَا، فَيَتَّخِذُوا مَالَ اللهِ دُوَلاً، وَعِبَادَهُ خَوَلاً، وَالصَّالِحِينَ حَرْباً، وَالْفَاسِقِينَ حِزْباً»[3].

وَيَصدق هَذَا الْوَصْف علىٰ الخُلَفَاء الْأُمَويين إلّا واحداً، قَالَ الْعقَّاد: «لمّا أَصْبَحت الدَّوْلَة ٱلإِسْلاَمية أُموية ما طَمع فِي خيرَاتها، وَلاَ وُلاَتِها إلّا مَن كَانَ من أُمَيَّة وحِزْبها، فمَرْوَان بن الحَكَم وزير عُثْمَان الْأَكْبَر يَغدق الْعَطَاء علىٰ الْأَقْرِبَاء، وَيَحبس الْأَمْوَال عن سَائر النّاس»[4]. وعُثْمَان هو الّذي جعل للثَّائِرين عَلَيْهِ سَبيلاً،

---

(١) أُنظر، ترجمة هَؤُلاَء في طَبقَات ٱبن سعد: ٢٢٣/٥، المحبر: ٣٧٧، المعارف: ٣٥٥، ٱلمَعْرِفَة والتَّأرِيخ: ٥٦٣/١، تَأرِيخ اليعقوبي: ١٤/٣، مروج الذّهب: ٢٩٢/٣، ميزان الإِعْتِدَال: ٦٦٤/٢، البداية والنّهاية: ٢٦٠/٨، سير أعلام النّبلاء: ٢٤٧/٤، تَهْذِيب التَّهذِيب: ٢٥٣/٢.

(٢) أُنظر، شرح نَهج البَلاَغَة: ٥٣/٢ و ٥٥، و: ١٤٨/٦ طَبْعَة أُخرىٰ، شرح النّهج لمُحَمَّد عَبْدَه: ١٢٤/١، طَبقَات ٱبن سعد: ٣٠/٥ طَبْعَة ليدن، تَذكِرة الخواص: ٤٥، أَنْسَاب الأَشْرَاف: ١٢٦/٥، الإِسْتِيعَاب: ١١٨.

(٣) أُنظر، نهج البَلاَغَة: من كتاب لهعليه السلام إِلىٰ أَهْل مِصْر مَع مالك الأَشْتَر لمّا وَلاَّهُ إمارتها رقم «٦٢».

(٤) أُنظر، كتَابه «أبو الشُّهدَاء»: ١٥٤.

ومَزق قَتله وحدَة ٱلْمُسْلِمِين، وفَرق كَلمتهم إِلَىٰ يَوْم الدِّين، أمّا مُعَاوِيَة فكَان يَقُول: «أَلا وإنّ لله جُنُوداً مِن العَسل»(١)، ويَعنِي العَسل الَّذِي كَانَ يدس فِيهِ السّم، وَقَتل بِهِ الإِمَام الْحَسَن ريحَانة رَسُول الله(٢)، والأَشْتَر النَّخَعِيّ(٣)، وعبدالرَّحْمَان بن

(١) أنظر، مروج الذهب: ٢ / ١٣٩ ط بيروت، المغتالين من الأَشْرَاف: ٣٩، وتَأريخ اليعقوبي: ٢ / ١٣٩ ط بيروت، شرح النّهج لِابْن أبِي ٱلْحَدِيد: ٢٩/٢، والطَّبَرِيّ فِي تَأرِيخه: حوادث سَنَة (٣٨ ـ ٣٩ هـ)، تَهْذِيب الكَمَال: ١٢٦/٢٧ رَقم ٥٧٣١، التَّأريخ الْكَبِير للبخاري: ٣١١/٧، وتَأرِيخ الصَّغِير: ٨٧/١، الثقات لِابْن حبّان: ٢ / ٢٩٨، سير أعلام النّبلاء: ٤ / ٣٥، تَأريخ مدينة دِمَشْق: ٣٧٦/٥٦ و٣٩١، الأنساب: ٤٧٦/٥، ٱلْبِحَار: ٥٩١/٣٣ ح ٣٧٤، الإختصاص للشيخ المفيد: ٨١، نظرات فِي الكتب الخالدة لحامد حفني: ١٦١، شيخ المضيرة أبو هريرة لمحمود أبو رية: ١٧٩، ولكن بَعْض المصادر نسبت القَوْل إِلَىٰ عَمْرُو بن العَاص.

(٢) أنظر، المقاتل: ٤٣، وأَنْسَاب الأَشْرَاف: ١ / ٤٠٤، وابن أَبِي ٱلْحَدِيد فِي شرح النّهج: ٤ / ١١ و١٧، ابن كَثِير: ٨ / ٤١، تَأرِيخ الخُلَفَاء: ١٣٨، الإِصَابَة ترجمة الْحَسَن، ٱبْن قُتَيْبَة: ١٥٠، الصَّوَاعِق: ٨١، المسعودي فِي مروج الذّهب بهامش الكَامِل: ٢ / ٣٥٣، ٦ / ٥٥، وتَهْذِيب تَأرِيخ دِمَشْق لِابْن عساكر: ٤ / ٢٢٦، وأَسْمَاء المغتالين من الأَشْرَاف: ٤٤، وتَأرِيخ اليعقوبي: ٢ / ٢٢٥، وٱبْن الأَثِير: ٢ / ١٩٧، وٱبْن شحنة بهامش ٱبْن الأَثِير: ١١ / ١٣٢، تَأرِيخ الدول الإِسْلَامِيّة: ١ / ٥٣، تَذكِرة الخواصّ: ٦٢، تَأرِيخ أَبِي الفداء: ١ / ١٩٤، الاِسْتِيعَاب: ١ / ٣٨٩، تَأرِيخ الخُلَفَاء للسيوطى: ٧٤، مُسْتَدرَك الحَاكِم: ٣ / ١٧٦، الإِرْشَاد للشيخ المفيد: ٣ / ١٥، ٱلْبِحَار: ٤٤ / ١٥٧ و١٤٩ / ٢٦ و١٨، المَنَاقِب لِابْن شهرآشوب: ٣ / ١٩١، كشفه الغمّة: ١ / ٥٨٤، روضة الواعظين: ٢٠٠، الإِحْتِجَاج للطبرسي: ٢ / ١١، الكَافِي: ١ / ٤٦٢ ح ٣.

(٣) الأَشْتَر هو مالك بن الحارث النَّخَعِيّ، أدرك الرَّسُول ﷺ وكَانَ رئيس قَوْمه، شترت عينه فِي اليرموك فلقّب بالأَشْتَر، وله مواقف شهيرة فِي الجَمَل، وصِفِّين مَع عليّ عليه السلام وفِي سَنَة (٣٨ هـ) وَلّاهُ علىٰ مِصْر، فأمر مُعَاوِيَة دهقاناً وكَانَ بالعريش ـ مدينة من أوّل أعمال مِصْر من ناحية الشّام ـ أنْ يدسّ له السّمّ، فَلَمّا نزل الأَشْتَر العريش سمّه الدّهقان فِي عسل، فَقَالَ مُعَاوِيَة: «لله جنود من العسل». أنظر، مروج الذّهب: ٢ / ١٣٩ ط بيروت، المغتالين من الأَشْرَاف: ٣٩، وتَأرِيخ اليعقوبي: ٢ / ١٣٩ ط بيروت ومعجم البلدان: لغة بعلبك، شرح النّهج لِابْن أبِي ٱلْحَدِيد: ٢ / ٢٩، والطَّبَرِيّ فِي تَأرِيخه: حوادث سنة (٣٨ ـ ٣٩ هـ)، تَهْذِيب الكَمَال: ٢٧ / ١٢٦ رَقم ٥٧٣١، معجم رجال الحَدِيث: ١٤ / ١٦١ رَقم ٩٧٩٦.

خَالد(١). وَقتل ولده يزيدُ الإمامَ الحُسَيْنَ(٢)، وضرب ٱلْكَعْبَة بالمَنْجَنِيق(٣)، وأبَاح الْمَدِينَة(٤)، وحَاصر عبدالملك مَكَّة، وهَدم ٱلْكَعْبَة، وأطلق يَد الحَـجَّاج فِي دمَـاء ٱلْمُسْلِمِينَ(٥)، وبعبد الملك ٱقتدىٰ أَوْلاَده، وأحفَاده، وزَادوا عَلَيْهِ أَضْعَافاً مُضاعفة.

---

(١) هو عبدٱلرَّحْمَان بن خالد بن الوليد المَخْـزُومِيّ، وكَـانَ مِمَّـنْ أدرك النَّـبيّ ﷺ وهـو مـن فـرسان قُـرَيْش وشجعانهم وكَانَ له فضل وهدىٰ، وكرم، إلاّ أنّه كَانَ منحرفاً عن عليّ عليه السلام. وذكر أنّ أخاه المُهاجر كَانَ مَع عليّ بصِفّين. وذكر أنّ عبدٱلرَّحْمَان مرض، فأمر مُعَاوِيَة طبيباً عنده يهودياً أنْ يَأْتِه فيسقيه سقية يقتله بها، فأتاه فسقاه فأنخرق بَطْنَه فمات. وأمر مُعَاوِيَة ٱبن آثال النَّصراني أنْ يحتال فِي قتله، ضمن له أنْ يضع عَنْه خراجه ما عاش، وأنْ يولّيه خراج حمص، فوفّىٰ مُعَاوِيَة بِمَا ضمن له.

أمّا المهاجر بن خالد بن الوليد فدخل دِمَشْق مستخفياً هو وغلام له، فرصد ذَلِكَ اليهـودي، فخرج ليلاً من عند مُعَاوِيَة، ومعه قَوْم هربوا عَنْه، فقتله المُهاجر. وكَانَ ٱبن آثـال خـبيراً بـالأدوية المـفردة، والمركبة، وقواها، ومِنْهَا سموم قواتل. وكَانَ مُعَاوِيَة يقرّبه لذلك كَثِيراً. أنظر، الإِسْتِيعَاب: ٢ / ٣٩٦ تحت رَقم ١٦٩٧ أسد الغَابَة: ٣ / ٢٨٩، تَأريخ الطَّـبَرِيّ: ٦ / ١٢٨، وٱبـن الأثِـير: ٣ / ١٩٥، المـغتالين مـن الأَشْرَاف: ٤٧، ٱبن كَثِير فِي البداية والنِّهَايَة: ٨ / ٣١، الأَغَاني: ١٤ / ١٣، مختصر ٱبن شحنة فِي هامش ٱبن الأَثِير: ١١ / ١٣٣، عُيُون الأَنْبَاء فِي طبقَات الأطبَاء: ١٧١ ط بيروت.

(٢) تَقَدَّم إستخراج ذَلِكَ، وقد شرحنا ذَلِكَ مفصلاً فِي تحقيقنا لكتاب الفصول المهمة فِي مَعْرِفَة الأَئِمَّة لإبْـن الصَّباغ المالكي: ٢/١٣١ وما بعدها.

(٣) أُنظر، مروج الذّهب: ٧٩/٣.

(٤) أُنظر، تَأريخ الخُلَفَاء: ٢٠٩.

(٥) أُنظر، الإِمَامَة وَالسِّيَاسَة: ٢/ ٣٢، مروج الذَّهب للمسعودي: ١٧٥/٣، العقد الفَرِيد: ٢١٤/٣. ويَـقُول صاحب مروج الذّهب، وصاحب العقد الفَرِيد فِي أَقْوَال النَّاس فِي الحَجَّاج: (أُحصي مَن قَتلهم الحَـجَّاج صَبراً سواء من قتل فِي حُرُوبه فكانوا (١٢٠) ألفاً، وكَانَ فِي حَبسه (٥٠) ألف رجلاً، و(٣٠) ألف إمْرَأة سِتة عشر منهن عاريات، وكَانَ يُطعم المساجين كما يَقُول ٱبن الجوزي فِي تَأرِيخه، الخُبز ممزوجاً بالرماد). وجاء فِي العقد الفَرِيد أيضاً علىٰ لِسَان عُمَرَ بن العزيز: (لو جاء النَّاس يَوْم ٱلْقِيَامَة بـفساقهم، وجـئنا بالحَجَّاج لزدنا عَلَيْهِمْ).

الخطبة
-٧٤-

أُسَالِمِ مَا سَلِمَتْ أُمُورُ ٱلْمُسْلِمِينَ:

لَقَدْ عَلِمْتُمْ أَنِّي أَحَقُّ النَّاسِ بِهَا مِنْ غَيْرِي، وَ وَ اللهِ لأُسْلِمَنَّ مَا سَلِمَتْ أُمُورُ الْمُسْلِمِينَ، وَ لَمْ يَكُنْ فِيهَا جَوْرٌ إِلاَّ عَلَيَّ خَاصَّةً، اَلْتِمَاساً لِأَجْرِ ذَلِكَ وَ فَضْلِهِ، وَزُهْداً فِيمَا تَنَافَسْتُمُوهُ مِنْ زُخْرُفِهِ، وَ زِبْرِجِهِ.

اللُّغَة:

اَلزُّخْرُفِ ـبضم الزّاء، وَالزِّبْرِج ـبكَسرها، وكَسر الرّاء كَانا فِي الأصل للذّهب، ثُمّ أُطلقا على كلّ كَاذِب مُموّه ظَاهره الرَّحْمَة، وبَاطنه العذَاب، قَالَ تَعَالىَ: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَـٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ يُوحِى بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ﴾[1] أي الأَبَاطيل المُموّهة.

الإِعْرَاب:

مَا سَلِمَتْ «مَا» مَصْدَرِيَة ظَرفِيَة أي مُدَّة سَلاَمَة الأُمُور، وخَاصَّة مَصْدَر فِي

(١) ٱلأَنْعَام: ١١٢.

موضع الحَال أي مُختصاً بِي، وٱلْتِمَاساً مَفْعُول من أجله لأُسْلِمَنَّ.

لِلمِنْبَرِ - عَليّ وَأَعْضَاء ٱلشُّورَىٰ:

قَالَ الشَّرِيف الرَّضِي، وابن أبي ٱلْحَدِيد: لـمّا عَزموا علىٰ بَيْعَة عُـثْمَان قَـالَ لَهُـمْ الإِمَـام عليه السلام: (لَقَدْ عَلِمْتُمْ أَنِّي أَحَقُّ النَّاسِ بِهَا مِنْ غَيْرِي..) وضَـمِير بِهَـا يَـعود إِلَىٰ ٱلبَيْعَة، أو إِلَىٰ ٱلخِلاَفَة بقرينة المقَام، وكَلاَم الإِمَام هُنا وَاضح، وَلاَ شيء فِـيهِ مـن الغمُوض، فٱلخِلاَفَة فِي مَفهُومه أدَاة لتحقِيق الْعَدْل، وتَصحيح الخَطَأ، فَإِذَا تَحققت هَذِه الْغَايَة هان عَلَيْهِ الضّغوط، والأسَاليب المُلتوية الّتي مارسوها لإقـصَائه عـن ٱلخِلاَفَة مَع عِلمه، وَبيَقِينه بأنّه أولىٰ بِها، وأحقّ من غَيْره. وتَقَدَّم قَـوْله: «لَـوْ لاَ حُضُورُ الْحَاضِرِ، وَقِيَامُ الْحُجَّةِ بِوُجُودِ النَّاصِرِ، وَمَا أَخَذَ اللهُ عَلَىٰ الْعُلَمَاءِ أَلاَّ يُقَارُّوا عَلَىٰ كِظَّةِ ظَالِمٍ، وَلاٰ سَغَبِ مَظْلُوم، لأَلْقَيْتُ حَبْلَهَا عَلَىٰ غَارِبِهَا، وَلَسَـقَيْتُ آخِـرَهَا بِكَأْسِ أَوَّلِهَا، وَلأَلْفَيْتُمْ دُنْيَاكُمْ هَذِهِ أَزْهَدَ عِنْدِي مِنْ عَفْطَةِ عَنْزٍ»[1].

وَإِذَا عطفنا قَوْله هَذَا فِي الشِّقشِقِيَّة علىٰ قَوْله هُنا: (لأُسْلِمَنَّ مَـا سَـلِمَتْ أُمُـورُ الْمُسْلِمِينَ). وجمعناهما فِي كلامٍ واحد... إِذَا فعلنا ذَلِكَ يَكُون الْمَعْنَىٰ أنّ الإِمَام عليه السلام إِنّما يَسكت، وَلاَ يُعلن الْحَرْب فِي حَالِين:

الأُولَىٰ: أنْ يَتحقق الْعَدْل بأيّة وَسِيلة من الوَسَائِل.

الثَّانِيَة: أنْ لا يَحصل الجَوْر، ولكن الإِمَام لا يَجد من يُناصره، ويُـؤازره عـلىٰ إقامة ٱلْحَقّ، وإزهاق ٱلْبَاطِل. وعلىٰ هَذَا فإنّ سكوت الإِمَام عمّن سبقه إِلَىٰ الحُكم

(١) أُنظر، خُطْبَة الشِّقشِقِيَّة.

لا يكشف عن إيمانه بأنّ حُكم السّابق لم يَكُنْ جائِراً، بل قد يَكُون السّبب المُباشر للسكوت هو الْعَجْز، وعدم التّكافؤ بَيْنَ قُوَّة الإِمَام، وقُوَّة الحَاكِمِين.

ومن المُفيد أنْ نذكر بِهَذِه المناسبة ما قاله أحمد عبّاس صالح: «عيّن عُمَرَ أعْضَاء مجلس ٱلشُّورَىٰ ليختاروا أحدهم لِلْخِلاَفَة، وهم: عبد ٱلرَّحْمَان بن عوف، وهو من أَغْنَىَ الأَغْنِياء، وعُثْمَان أحد أقطاب بَنِي أُمَيَّة، وسعد بن أبي وَقَّاص من أغْنِيَاءِ قُرَيْش، ثم الزُّبَيْر من أثرىٰ أثرياء قُرَيْش، ثُمّ طَلْحَة من سُراة قُرَيْش، وأخيراً عليّ آبن أبي طالب، وكلّهم ما عدا عَلِيّاً فِي كفّة من حَيْث هواهم السّياسي، وعليّ وحده فِي كفّة... وإنّ وضعهم الطّبقي، ومصالحهم تجعل لَهُمْ مفهوماً خاصاً للعدل الإجتماعي يختلف مَع ما يدعو إِلَيْهِ عليّ»[1] أي أنّهم جَمِيعاً من طبقة الأَغْنِيَاء، وعليّ من الْفُقَرَاء، ومَع الْفُقَرَاء.

ومن أَقْوَاله: «آضْرِبْ بِطَرْفِكَ حَيْثُ شِئْتَ مِنَ النَّاسِ فَهَلْ تُبْصِرُ إلاَّ فَقِيراً يُكَابِدُ فَقْراً، أَوْ غَنِيّاً بَدَّلَ نِعْمَةَ اللهِ كُفْراً، أَوْ بَخِيلاً آتَّخَذَ الْبُخْلَ بِحَقِّ اللهِ وَفْراً، أَوْ مُتَمَرِّداً كَأَنَّ بِأُذُنِهِ عَنْ سَمْعِ الْمَوَاعِظِ وَقْراً»[2] وَقَالَ عليه السلام: «فَمَا جَاعَ فَقِيرٌ إلاّ بِمَا مُتِّعَ بِهِ غَنِي»[3].

ثم قَالَ الأُستاذ أحمد عبّاس صالح: «ولاَ يستبعد أنْ يَكُون تَشكيل مجلس ٱلشُّورَىٰ بصورته هَذِه تَمَّ عن قصدٍ، وتبصرٍ من عُمَرَ كيلا تعلو كَلِمَة اليسار فِي

---

(١) أنظر، مجلة «الكاتب المِصْرية» عدد شباط ١٩٦٥م. (مِنْهُ رحمه الله).

(٢) أنظر، نَهج البَلاَغَة: ٱلخُطْبَة «١٢٩».

(٣) أنظر، نهج البَلاَغَة: ٤/ ٧٨ ٱلحِكْمَة (٣٢٨).

أجهزة الْحُكْم»[١]. يُريد باليسار أَصْحَاب رُؤُوس ٱلْمَال، ثُمّ قَالَ: «من المُتصور أنْ يطمح الزُّبَيْر، أو سعد فِي ٱلخِلاَفَة، ولكن هَذَا الطّموح يَصبح غَرِيباً فِي وجود عليّ الّذي كَانَ حِزْب كبير من ٱلْمُسْلِمِين يَعْتَقِدُون أنّه كَانَ أولىٰ بِالخِلاَفَةِ من أبي بَكْر، ثم أولىٰ بها من عُمَرَ، ولَيْسَ هُناك شكّ فِي أنّ كلاً مِن أَعْضَاء المجلس كَانَ يَعْتَقِد أنّه أقل جَدارة بالمَنصب من عليّ. ولكن منطق ٱلْحَوَادِث، ومركز عليّ فِي ٱلإِسْلاَم، وميل غالبية ٱلْمُسْلِمِين إِلَيْهِ ـ كلّ هَذَا قد يَجعلهم يَترددُونَ كَثِيراً، أو قليلاً فِي التَّفكير فِي مُنافسة عليّ بن أبي طالب فِي قيادة ٱلْمُسْلِمِين... علىٰ أنّ الّذي حدث غَيْر ذَلِكَ، فقد بدا الجَمِيع يُريدون تَرشيح أنفسهم، ومُنافسة عليّ»[٢].

يَستدل شِيعة عليّ بالنّص كِتَاباً، وسُنَّةً علىٰ أنّه أولىٰ بِالخِلاَفَةِ من غَيْره[٣]، أَمّا الْعُلَمَاء فِي هَذَا العصر فإِنَّهُم لا يُؤْمِنُون إلّا بِٱلْمَنْهَج العلمي علىٰ حَد تعبيرهم، وبِه لا بالنّص يُثبتون ما يجب الإِيْمَان بِه علىٰ إِنْسَان، ويريدون بِٱلْمَنْهَج العلمي أنْ ينظر الباحث إِلَىٰ طَبِيعَة الأَشْيَاء الّتي تبدو للعيان، ثُمّ يشرحها، ويُحللها ليكشف ما وَرَاءها من حقَائق، وأسرار، وبعد أنْ درسوا علىٰ هَذَا الأَسَاس طَبِيعَة الصّراع علىٰ خلافة النَّبيّ ﷺ، ٱنتهوا إِلَىٰ أنّ عَلِيّاً أحقّ بها من غَيْره، وأولىٰ.

(١) أنظر. مجلة «الكاتب المِصْرية» عدد شباط ١٩٦٥م. (مِنْهُ ﷺ).

(٢) أُنظر. مجلة «الكاتب المِصْرية» عدد شباط ١٩٦٥م. (مِنْهُ ﷺ).

(٣) أُنظر. كتابنا «ٱلْبَيْعَة، وولاَيَة العهد، والشُّورَىٰ، وآثارها فِي تنصيب ٱلْخَلِيفَة دراسة علمية تحليلية لرد ٱلشُّبُهَات».

الخطبة

-٧٥-

أَنَا حَجِيجُ الْمَارِقِينَ:

أَوَلَمْ يَنْهَ بَنِي أُمَيَّةَ عِلْمُهَا بِي عَنْ قَرْفِي؟ أَوَمَا وَزَعَ الْجُهَّالَ سَابِقَتِي عَنْ تُهَمَتِي! وَلَمَا وَعَظَهُمُ اللهُ بِهِ أَبْلَغُ مِنْ لِسَانِي. أَنَا حَجِيجُ الْمَارِقِينَ، وَ خَصِيمُ النَّاكِثِينَ الْمُرْتَابِينَ، وَ عَلَىٰ كِتَابِ اللهِ تُعْرَضُ الْأَمْثَالُ، وَ بِمَا فِي الصُّدُورِ تُجَازَىٰ الْعِبَادُ!

اللُّغَة:

قَرْفِي: اتِّهَامِي. وَزَعَ: رَدَعَ. وحَجِيجُ الْمَارِقِينَ: خَصِيمهمُ فأَخْصَمهم، وأَفْحَمهم. والْمَارِقِينَ: الخَارجُون من الدِّين. والْمُرْتَابون: المُشَكِّكُون. والمُرَاد بالأَمْثَالُ هُنا مُتَشَابِهَات الأَعْمَال.

الإِعْرَاب:

الهَمزَة فِي «أَ وَ لَمْ» للإِستفهام مَع الإِنْكَار، ومِثْلها فِي «أَوْمَا». واللاَّم فِي «وَلَمَا وَعَظَهُمْ» للتَّوكيد، و «مَا» اسم مَوْصُول مُبْتَدَأ، أَبلغ خَبَر.

الْمَعْنىٰ:

ٱتَّهم بَنُو أُمَيَّةَ الْإِمَامَ؈ بدم عُثْمَان، فرد عَلَيْهِمْ بقَوْله: (أَوَ لَمْ يَنْهَ بَنِي أُمَيَّةَ عِلْمُهَا بِي عَنْ قَرْفِي)؟. من أين جاء ٱتّهامي بدم عُثْمَان؟ وما هو مَصْدَره؟ فهل من شيء فِي سيرتي يوجب الشّك فيَّ، والرّيب؟ وهل تجهل أُمَيَّة سِيرتي، وحقيقتي؟ إنّها تعلم حقّ العِلْم بأنّ الّذين يحملون قميص عُثْمَان، ويُطالبون بدَمه هم الّذين أبَاحوه، وأرَاقوه، وتعلم أُمَيَّة أنّي بريء من تُهمتها، ولكن أرادت أنْ تُعلن ما فِي نفسها من حقدٍ عليّ، وشنآنٍ فلم تجد مُبرراً، فٱبْتَدعت، وٱفْتَرت.

(أَوَ مَا وَزَعَ الْجُهَّالَ سَابِقَتِي عَنْ تُهَمَتِي!). إنّ حَيَاة الإِمَام كلّها فَضَائِل، ومكرمات، وصدق، وأمانة تَمَاماً كحَيَاة الرَّسُول الأَعْظَم؈، ومن قبل ٱتهمت قُرَيْش النَّبِيّ بالسحر، والْكَذِب فأجابهم: ﴿قُل لَّوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا تَلَوْتُهُۥ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَدْرَىٰكُم بِهِۦ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِۦٓ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾، وكَذَلِكَ ٱتهمت أُمَيَّة الإِمَامَ؈ فأجاب: أَوَ مَا وَزَعَ الْجُهَّالَ سَابِقَتِي؟.

(وَلَمَا وَعَظَهُمُ اللهُ بِهِ أَبْلَغُ مِنْ لِسَانِي). نَهىٰ الله سُبْحَانَهُ عن ظّن السّوء، والْغِيْبَة فلم يَنتفعوا ببيَانه، وَيتّعِظُوا بمَوَاعظه، فهل يَقبلون نُصحَتِّي، ويَنتفعون ببيَاني؟ (أَنَا حَجِيجُ الْمَارِقِينَ، وَخَصِيمُ النَّاكِثِينَ الْمُرْتَابِينَ). أُقارع بالحجّة الدّامغة من مَرَقَ من الدين فآخذهُ مَغلوباً، وأُخاصم بالبرهان القاطع من تشكك فِي دين الله فلا أدع له عذراً (وَ عَلَىٰ كِتَابِ اللهِ تُعْرَضُ الْأَمْثَالُ). فَهُوَ وحده الميزَان، والمِقْيَاس، فما ٱعترف به كَانَ حقّاً، وصِدقاً، وما أنكره كَانَ كَذباً، وضلالاً، وعليّ مَع ٱلْقُرْآن قَوْلاً وعملاً، وٱلْقُرْآن مَع عليّ نَصّاً، ورُوحاً.

(وَ بِمَا فِي الصُّدُورِ تُجَازَىٰ الْعِبَادُ!). ومِثْله الْحَدِيث المشهور: «إنّما الأَعْمَال

بالنّيات، وإنّمـا لكلّ ما نوىٰ... من كَانَتْ هجرته إلَىٰ الله ورَسُوله فـهجرته إلَىٰ الله ورَسُوله، ومن كَانَتْ هجرته إلَىٰ دُنيا يُصيبها، أو إمْرَأَة يـنكحها فـهجرته إلَىٰ مـا هاجر إلَيْهِ»[1].

(١) أُنظر، مُسْنَد الحـميدي: ١٦/١ ح ٢٨، مُسْنَد الطَّيَالِسِي: ٩/١ ح ٣٧، المُعْجَم الأوسـط: ١٧/ ح ٤٠، مُسْنَد أبي داود: ٢٦٢/٢ ح ٢٢٠١، سُنَن البَيْهَقِيّ الكُبْرَىٰ: ٤١/١ ح ١٨١، صَحِيح أبن حبّان: ١١٣/٢ ح ٣٨٨، تُحْفَة الطّالب: ٣٧٠/١. وفي بَعْض المصادر بلفظ «يتزوجها».

الخطبة

-٧٦-

كَابَرَ هَوَاهُ، وَ كَذَّبَ مُنَاهُ:

رَحِمَ اللهُ آمْرَأً سَمِعَ حُكْماً فَوَعَىٰ، وَ دُعِيَ إِلَىٰ رَشَادٍ فَدَنَا، وَ أَخَذَ بِحُجْزَةِ هَادٍ فَنَجَا. رَاقَبَ رَبَّهُ، وَ خَافَ ذَنْبَهُ، قَدَّمَ خَالِصاً، وَ عَمِلَ صَالِحاً. آكْتَسَبَ مَذْخُوراً، وَ آجْتَنَبَ مَحْذُوراً، وَ رَمَىٰ غَرَضاً، وَ أَحْرَزَ عِوَضاً. كَابَرَ هَوَاهُ، وَ كَذَّبَ مُنَاهُ. جَعَلَ الصَّبْرَ مَطِيَّةَ نَجَاتِهِ، وَ التَّقْوَىٰ عُدَّةَ وَفَاتِهِ. رَكِبَ الطَّرِيقَةَ الْغَرَّاءَ، وَ لَزِمَ الْمَحَجَّةَ الْبَيْضَاءَ. آغْتَنَمَ الْمَهَلَ، وَ بَادَرَ الْأَجَلَ، وَ تَزَوَّدَ مِنَ الْعَمَلِ.

اللُّغَة:

الحَجْز ـ بفتح الحاء ـ المَنع، والحُجْزَة ـ بضمها ـ معقد الإزار، ومَوضع التُكَّة، والمُرَاد بها هُنا الإعتصَام، قَال: أخذ بحَجْزَته إذا آعتصم به، وآلتجأ إلَيْه. ومَذْخُوراً: من ذَخَرَ الشّيء، وخَبّأهُ لوقت الحَاجَة. ومحْذوراً: مِن الحَذر، والتّحرز. وغَرَضاً: هَدَفاً. وكَابَرَ هَوَاهُ: غَالَبَهُ، وعَانَدهُ. والغَرَّاء: البَيْضَاء. والمَحجّة: الجَادّة، أو مُعظمها. والمَهَل ـ بفتح الميم، والهاء ـ التّؤَدَة، والرّفْق، والمُرَاد به هُنا الفُرْصَة.

الْمَعْنىٰ:

(رَحِمَ اللهُ ٱمْرَاً سَمِعَ حُكْماً فَوَعَىٰ ، وَ دُعِيَ إِلَىٰ رَشَادٍ فَدَنَا). قَالَ عزَّ مَن قَائِل: ﴿ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمْ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَـٰبِ﴾(١). (وَ أَخَذَ بِحُجْزَةِ هَادٍ فَنَجَا). ٱعْتَصَمَ بِمن هَداه إِلَىٰ الْحَقّ، وٱسْتَنْصَحَهُ، وَعَمِلَ بِقَوْلِه (رَاقَبَ رَبَّهُ) بِطَاعَتِه لَهُ (وَ خَافَ ذَنْبَهُ) أي خَافَ مِن الله فما أَذْنَب، وإنْ حدث مِنهُ ما يؤاخذ عَلَيْهِ أَسرع إِلَىٰ ٱلتَّوْبَة (قَدَّمَ) أَمامه، وقَبل وَفاته عملاً (خَالِصاً) لوجه الله (وَ عَمِلَ صَالِحاً) عطف بَيَان، وتَفْسِير (ٱكْتَسَبَ مَذْخُوراً) أي عمل ليوم تذخر له الذَّخَائِر (وَ ٱجْتَنَبَ مَحْذُوراً). ٱبتعد عن المُحَرَّمات (وَ رَمَىٰ غَرَضاً، وَ أَحْرَزَ عِوَضاً). سلك سَبِيل ٱلْهُدَىٰ، وفاز بمرضاة الله، وثوابه (كَابَرَ هَوَاهُ). غَالبهُ، وقَمعهُ من نَفْسِه (وَ كَذَّبَ مُنَاهُ). لا يغتر بالأَمَانِيّ، والأحلام، وَلاَ يركن إِلَىٰ النّفس الأمّارة بالسُّوء.

(جَعَلَ الصَّبْرَ مَطِيَّةَ نَجَاتِهِ). يَصبر علىٰ طَاعَة الله رغبةً فِي النَّجَاة من غضبه، وعذابه (وَ التَّقْوَىٰ عُدَّةَ وَفَاتِهِ). يَتَزود بتقوىٰ الله ليوم الله (رَكِبَ الطَّرِيقَةَ الْغَرَّاءَ، وَ لَزِمَ الْمَحَجَّةَ الْبَيْضَاءَ). سَلَكَ سَبِيل ٱلْهُدَىٰ، وتجَنَّب طريق الرَّدَىٰ (ٱغْتَنَمَ الْمَهَلَ) أي الْفُرْصَة قبل الفوَات (وَ بَادَرَ الأَجَلَ) قبل حضُوره (وَ تَزَوَّدَ مِنَ الْعَمَلِ) الصَّالح ولم يُقصّر.

(١) ٱلزُّمَر: ١٨.

الخطبة

-٧٧ و ٧٨-

أَللَّهُمَّ اغْفِرْ:

إِنَّ بَنِي أُمَيَّةَ لَيُفَوِّقُونَنِي تُرَاثَ مُحَمَّدٍ ﷺ تَفْوِيقاً، وَاللهِ لَئِنْ بَقِيتُ لَهُمْ لأَنْفُضَنَّهُمْ نَفْضَ اللَّحَّامِ الْوِذَامَ التَّرِبَةَ!

أَللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي مَا أَنْتَ أَعْلَمُ بِهِ مِنِّي، فَإِنْ عُدْتُ فَعُدْ عَلَيَّ بِالْمَغْفِرَةِ. أَللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي مَا وَأَيْتُ مِنْ نَفْسِي، وَ لَمْ تَجِدْ لَهُ وَفَاءً عِنْدِي. أَللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي مَا تَقَرَّبْتُ بِهِ إِلَيْكَ بِلِسَانِي، ثُمَّ خَالَفَهُ قَلْبِي. أَللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي رَمَزَاتِ الأَلْحَاظِ، وَ سَقَطَاتِ الأَلْفَاظِ، وَ شَهَوَاتِ الْجَنَانِ، وَ هَفَوَاتِ اللِّسَانِ.

اللُّغَة:

يُفَوِّقُونَنِي: يُعْطُونَنِي القَلِيل، اَلْوِذَامَ: جمع وَذَمَة، وَهِيَ المعى، والكرش. مَا وَأَيْتُ: مَا وَعَدْت. والرَّمَزَاتِ: الإشَارَات. وَسَقَطَاتِ الأَلْفَاظِ: لغوها. والجَنَانِ: اَلْقَلْب. وَهَفَوَاتِ اللِّسَانِ: زَلاَته.

الإِعْرَاب:

ٱلْوِذَامَ مَفْعُول لنَفْضَ، والتَّرِبَةَ بدل ٱشتمال من ٱلْوِذَام، والأصل نَفْضَ التَّرِبَة عن ٱلْوِذَام.

الْمَعْنىٰ:

كَانَ عُثْمَان يَغدق مال الله علىٰ أهله، وحِزْبه بالقناطير المُقنطرة، فيبذّرونه علىٰ القصور، والرّياش، والجَوَارِي، والقِيَان، ويرسل عُثْمَان الوشل من هَذَا ٱلْمَـال إِلَىٰ الإِمَامِ عليه السلام فَقَالَ: (إِنَّ بَنِي أُمَيَّةَ لَيُفَوِّقُونَنِي تُرَاثَ مُحَمَّدٍ صلى الله عليه وآله تَـفْوِيقاً). أي أنّ هَـذِه الأَمْوَال الّتي يَنعم بها بَنُو أُمَيَّة، ويجعلونها دُوَلة بَيْنَهُمْ هِيَ ٱلفِيء الَّذي أَنعم الله بـه علىٰ ٱلْمُسْلِمِين ببركة مُحَمَّد صلى الله عليه وآله، ورِسَالَته، ولِلإِمَامِ مِنْهَا ما لِلْمُسْلِمِين، ولكن عُثْمَان كَانَ يمنعه حقّه إلّا القليل (وَاللهِ لَئِنْ بَقِيتُ لَـهُمْ لأَنْـفُضَنَّهُمْ نَـفْضَ ٱللَّـحَّامِ ٱلْـوِذَامَ التَّرِبَةَ!). يُقسم الإِمَام عليه السلام لَئِنْ تَوَلَّىٰ ٱلخِلاَفَة ليردن الأَمْوَال الّتي ٱغتصبها الأُمَوِيُون إِلَىٰ بَيْت ٱلْمَال، وَلاَ يُبقِي شَيْئاً مِنْهَا تَمَاماً كما ينفض القصاب التُّراب عن الكرش إِذَا أَصَابَه، وَقَالَ الإِمَام بعد أَنْ تَوَلَّىٰ ٱلخِلاَفَة: «وَاللهِ لَوْ وَجَدْتُهُ ـ أي ٱلْمَال ـ قَدْ تُزُوِّجَ بِهِ النِّسَاءُ، وَ مُلِكَ بِهِ الإِمَاءُ، لَرَدَدْتُهُ»[1].

وكأنّ الإِمَام عليه السلام أحس بأنّ فِي كَلاَمه هَذَا شائبة من الغَضَب لنَفْسِه مَع العِلْم بأنّه من أجل الظُّلم، والجَوْر علىٰ الدّين، وحُرماته فَقَالَ: (أَللَّهُمَّ ٱغْفِرْ لِي مَا أَنْتَ أَعْلَمُ بِهِ مِنِّي). يَتهم نَفْسه عملاً بقَوْله تَعَالَىٰ: ﴿فَلَاتُزَكُّوٓاْأَنفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ﴾[2].

---

(١) أُنظر، نهج البلاَغَة: ٱلْخُطْبَة: (١٥). وقد تَقدّم شرحها.

(٢) النّجم: ٣٢.

(أَللَّهُمَّ ٱغْفِرْ لِي مَا وَأَيْتُ مِنْ نَفْسِي ، وَ لَمْ تَجِدْ لَهُ وَفَاءً عِنْدِي) . قـد أعِـد نـفسي وأعاهدها علىٰ القيام بأمر الله ، ثُمّ أُخلف فإنْ حدث شيء من هٰذَا فآمنن أَللَّهُمَّ عليَّ بعفوك ، وصفحك عن هٰذَا الخُلف (أَللَّهُمَّ ٱغْفِرْ لِي مَا تَقَرَّبْتُ بِهِ إِلَيْكَ بِلِسَانِي ، ثُـمَّ خَالَفَهُ قَلْبِي) . كلّ النّاس إلّا من عصم رَبُّكَ يَقُولُون بِأَلْسِنَتِهِمْ ما لَيْسَ فِي قُـلُوبِهِمْ (أَللَّهُمَّ ٱغْفِرْ لِي رَمَزَاتِ الْأَلْحَاظِ) . الإيماء ، والْإِشَارَة إِلَىٰ عيوب النّاس ، ومساوئهم (وَ سَقَطَاتِ الْأَلْفَاظِ) أي ما يَنطق به اللِّسَانِ مِمَّا لا يُـرضي ٱلرَّحْمَـان (وَ شَـهَوَاتِ الْجَنَانِ) أي ما يُميل ٱلْقَلْب إِلَيْهِ من مَتَاعِ ٱلْحَيَاة ، وزِينَتها (وَ هَفَوَاتِ اللِّسَانِ) عطف تَفْسِير علىٰ سَقَطَاتِ الْأَلْفَاظِ .

الخطبة

-٧٩-

اَلْمُنَجِّمُ كَاذِبٌ:

أَ تزْعُمُ أَنَّكَ تَهْدِي إِلَىٰ السَّاعَةِ الَّتِي مَنْ سَارَ فِيهَا صُرِفَ عَنْهُ السُّوءُ ؟ وَ تُخَوِّفُ مِنَ السَّاعَةِ الَّتِي مَنْ سَارَ فِيهَا حَاقَ بِهِ الضُّرُّ ؟ فَمَنْ صَدَّقَكَ بِهٰذَا فَقَدْ كَذَّبَ الْقُرْآنَ، وَ آسْتَغْنَىٰ عَنِ الاِسْتِعَانَةِ بِاللهِ فِي نَيْلِ الْمَحْبُوبِ، وَ دَفْعِ الْمَكْرُوهِ، وَ تَبْتَغِي فِي قَوْلِكَ لِلْعَامِلِ بِأَمْرِكَ أَنْ يُولِيَكَ الْحَمْدَ دُونَ رَبِّهِ، لِأَنَّكَ ـ بِزَعْمِكَ ـ أَنْتَ هَدَيْتَهُ إِلَىٰ السَّاعَةِ الَّتِي نَالَ فِيهَا النَّفْعَ، وَ أَمِنَ الضُّرَّ!

أَيُّهَا النَّاسُ، إِيَّاكُمْ وَ تَعَلُّمَ النُّجُومِ، إِلاَّ مَا يُهْتَدَىٰ بِهِ فِي بَرٍّ، أَوْ بَحْرٍ، فَإِنَّهَا تَدْعُو إِلَىٰ الْكَهَانَةِ، وَ الْمُنَجِّمُ كَالْكَاهِنِ، وَ الْكَاهِنُ كَالسَّاحِرِ، وَ السَّاحِرُ كَالْكَافِرِ، وَ الْكَافِرُ فِي النَّارِ سِيرُوا عَلَىٰ آسْمِ اللهِ.

اللُّغَة:

حَاقَ بِهِ: أَحاط بِهِ. يُولِيَكَ الْحَمْدَ: يمطرك الحَمْدُ، أو يُقلدك الحَمْدُ، أو يجعلك جديراً به، كلّ هٰذه من مَعَانِي الْوِلاَيَة. والْكَهَانَةِ: الحُكم علىٰ الشّيء بالْغَيب.

الإِعْرَاب:

الَّتِي مَنْ سَارَ صفة للسَّاعة، والْمَصْدَر من أَنْ يُولِيَكَ مَفْعُول تَبْتَغِي، ودُونَ مُتَعَلِّق بِمَحْذُوف حالاً من كاف يُولِيَكَ، وإِيَّاكُمْ من بَاب التَّحْذِير، وهو مَفْعُول لفعل مَحْذُوف وجُوباً، لأنّ لفظ «إِيَّاكُمْ» قَائم مقامه، والتَّقدير جنبوا أَنْفُسِكُمْ تعلم النُّجوم.

الْمَعْنَىٰ:

حِينَ عَزم الْإِمَامُ عليه السلام علىٰ السَّير إِلَىٰ تَأدِيب الْخَوَارِج، قَالَ له بَعْض أَصْحَابه[1]: إِنْ سرت فِي هَذَا الوقت خشيت أَنْ لا تظفر بمرادك طريق علم النّجوم، فَقَالَ له الإِمَام: (أَ تَزْعُمُ أَنَّكَ تَهْدِي إِلَىٰ السَّاعَةِ الَّتِي مَنْ سَارَ فِيهَا صُرِفَ عَنْهُ السُّوءُ؟

(١) القَائِل هو مسافر بن عفيف أَزْدِيّ كما ذكره ٱبن الأَثِير فِي الكَامِل: ٣ / ٣٤٣، شرح النّهج لِابْن أبي ٱلْحَدِيد: ٢ / ٢٦٩ تحقيق مُحَمَّد أبو الْفَضْل، ونقل عن ٱبن ديزيل قَالَ: عزم علي عليه السلام علىٰ الخروج من الْكُوفَة إِلىٰ الْحَرُورِيَّة، وكَانَ فِي أَصْحَابه منجّم فَقَالَ له: يا أَمِير ٱلْمُؤْمِنِين، لا تَسِر فِي هَذِه السّاعة، وسِرْ علىٰ ثلاث ساعات مضين من النَّهار، فإنّك إِنْ سرت فِي هَذِه الساعة أصابك وأصحابك أذىً، وضُرٌّ شَدِيد، وإِنْ سرتَ فِي الساعة الّتي أمرتُك بها ظَفِرت، وظهرت، وأصبت ما طلبْتَ. فَقَالَ له علي عليه السلام: أتدري ما فِي بَطْن فَرسي هَذِه، أذكرٌ هو أم أُنثىٰ؟ قَالَ: إِنْ حسَبتُ عَلِمْت. فَقَالَ علي عليه السلام: مَنْ صدّقك بهَذَا فقد كذّب بٱلْقُرْآن، قَالَ تَعَالىٰ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ...﴾ لُقْمَانَ: ٣٤. وأنظر، تأريخ الطَّبَرِيّ: ٤ / ٦١ ولَكِنَّهُ لم يذكر ٱسم المنجّم، وأنظر، مروج الذّهب: ٢ / ٤١٥. فخالفه علي عليه السلام وسار فِي غَيْر السّاعة الّتي أَمَرَه المنجّم بالمسير فيها. أنظر تأريخ الطَّبَرِيّ: ٤ / ٦١ ولَكِنَّهُ أضاف: ثمّ قَالَ: لو سرنا فِي السّاعة الّتي أمرنا بها المنجّم لقال الجهّال الّذين لا يَعْلَمُون: سار فِي السّاعة الّتي أمَرَه بها المنجّم فظفر. وأنظر شرح النّهج لِابْن أبي ٱلْحَدِيد: ٢ / ٢٧٠ تحقيق مُحَمَّد أبو الفَضْل، والكَامِل لِابْن الأَثِير: ٣ / ٣٤١، ومروج الذّهب: ٢ / ٤١٥.

وَتُخَوِّفُ مِنَ السَّاعَةِ الَّتِي مَنْ سَارَ فِيهَا حَاقَ بِهِ الضُّرُّ؟). ٱلإِسْلاَم إِيمَان بالله، وبالعلم، وٱلْعَمَل لحيَاة أفضل، وبالْقِيَم الّتي لا ينكر شَيْئاً مِنْهَا عاقل علىٰ وجه ٱلأَرْض من حَيْث هِي قيم، ومُثل عُليا، ومن البداهة ـ وهَذِه هِي حَقِيقَة ٱلإِسْلاَم ـ أنْ يرفض الكهانة، وَلاَ يقبلها بحال، كَيْفَ وٱلإِسْلاَم يدعو إِلىٰ تحرير ٱلإِنْسَان من ٱلأَغْلاَل، وٱلْعَقْل من ٱلأَوْهَام، ويأمر بٱتباع ٱلْعَقْل، والعِلْم! ولو أقر ٱلإِسْلاَم الكهَانة، والخرَافة لم يَكُنْ له تَأرِيخ، وَلاَ حضَارة، وَلاَ أتبَاع يُعدون بمئات الملاَيين فِي شرق ٱلأَرْض، وغرْبِهَا.

(فَمَنْ صَدَّقَكَ بِهَذَا فَقَدْ كَذَّبَ الْقُرْآنَ). لأنّه يزربط ٱلأَحْدَاث بأسبابها، والنّتائج بمقدماتها طَبِيعية كَانَتْ أَم إجتمَاعية، وقد صَرح ٱلْقُرْآن بِهَذَا فِي العَدِيد من ٱلآيَاتِ، مِنْهَا: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا﴾[1]. ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ﴾[2]. فهذا المبدأ إلهي كوني لا يَقبل التّبديل، والتّعديل: ﴿سُنَّةَ ٱللَّهِ فِى ٱلَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلاً﴾[3]. ومَعْنَىٰ هَذَا أنّ كلّ شيء يَأْتِي وفقاً لقَوانِين مُطردة، ومعناه أيضاً أنّ ٱلْقُرْآن يقر مبدأ التّطور. وَقَالَ ٱلإِمَام الصّادق عليه السلام: «أبىٰ الله إلاّ أنْ يجري ٱلأُمُور علىٰ أسبابها»[4].

وحثَّ ٱلإِسْلاَم علىٰ طلب العِلْم بِهَذِه ٱلأَسْبَاب ولو فِي الصّين[5]، وأمر بالرُّجُوع

(١) ٱلْفُرْقَانِ: ٢.

(٢) ٱلْقَمَر: ٤٩.

(٣) ٱلأَحْزَاب: ٦٢.

(٤) أُنظر، شرح أُصول الكافِي: ٢٠١/٤ ح ٢، مُسْتَدرَك سفينة ٱلْبِحَار: ٤٢٤/٤.

(٥) بناءً علىٰ الْحَدِيث المروي عَنْه صلى الله عليه وآله: «أطلبوا العِلْم ولو بالصين»، كما جاء في كنز الْعُمَّال: ١٣٨/١٠ ح

إِلَىٰ الْعُلَمَاء فيما يعود إِلَىٰ اختصاصهم... ومن جُمْلَة ما قرأت: إنّ سائلاً قَالَ لبعض الشّيوخ: هل فِي ٱلْقُرْآن آية تُشير إِلَىٰ عدد الْأَرْغِفَة الّتِي تخبز من كيس الطّين؟ فَقَالَ له الشّيخ: نَعم. واتصل تلفونياً بمدِير المخَابز، وسَأله عن ذَلِكَ فأَعْطَاه، فقَالَ السّائل: ولكن هَذَا لَيْسَ من ٱلْقُرْآن، ورد الشّيخ: أَلَم تقرأ: ﴿فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾[1]، وقد فعلت.

(وَ ٱسْتَغْنَىٰ عَنِ الاِسْتِعَانَةِ بِاللهِ) الّذي رَبط الْأَحْدَاث بأسبابها الطّبيعية، وجعل من ٱلْعَمَل، والجِهَاد، والعزم، والتّوكل عَلَيْهِ تَعَالَىٰ سبباً ضرورياً (فِي نَيْلِ الْمَحْبُوبِ، وَ دَفْعِ الْمَكْرُوهِ). قَالَ سُبْحَانَهُ: ﴿فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ﴾[2] لا علىٰ أَقْوَال المُنجمين.

(وَ تَبْتَغِي فِي قَوْلِكَ لِلْعَامِلِ بِأَمْرِكَ أَنْ يُولِيَكَ الْحَمْدَ دُونَ رَبِّهِ، لِأَنَّكَ -بِزَعْمِكَ- أَنْتَ هَدَيْتَهُ إِلَىٰ السَّاعَةِ الَّتِي نَالَ فِيهَا النَّفْعَ، وَ أَمِنَ الضُّرَّ!). أي أنّك تُحب أنْ تُحمد من دُونَ الله بمَا لا أثر لكَ فيهِ إلّا الْكَذِب، والرِّيَاء (أَيُّهَا النَّاسُ، إِيَّاكُمْ وَ تَعَلُّمَ النُّجُومِ، إِلَّا مَا يُهْتَدَىٰ بِهِ فِي بَرٍّ، أَوْ بَحْرٍ). كلّ ما ينفع النّاس بجهة من الجهات فَهُوَ علم، وعقل، ودين، وسياسة حقّة سواء أطلقنا عَلَيْهِ كَلِمَة فلك، أَم جَبر، وهَندسة، أم مِيكَانيك، أَم «لونا، وأبوللو» وبعلم الكَوَاكِب تعرف الجهَات، ويَهْتَدِي إِلَىٰ مسالك

⟸ ٢٨٦٩٧، شرح أُصول الكافي: ١٥٧/١، فيض القدير: ١٦٨/١ ح ١١١٠ و ١١١١، وَسَائِل الشّيعة: ٢٧/٢٧، الجَامِع الصَّغِير للسيوطي: ٤٤/١، البحر الرّائق: ٢١/٤.

(١) ٱلنَّحْلِ: ٤٣.

(٢) آلِ عِمْرَان: ١٥٩.

البراري، والْبِحَار، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ﴾[١]. وَقَالَ: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلنُّجُومَ لِتَهْتَدُواْ بِهَا فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْأَيَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾[٢]. وَإِذَا كَانَ الغرض من هَذِه الآيَات بَيان الشّواهد علىٰ الْقُدْرَة الإلهية فَإِنَّهَا تَتَضمن أيضاً الحَث علىٰ طَلَب العِلْم بالنّجوم؛ لأنّ الإنْسَان كلّما ٱزداد عِلْماً بخلق الله ٱزداد إيمَاناً، وتسليماً بِهِ، وبعَظَمَته.

(فَإِنَّهَا تَدْعُو إِلَىٰ الْكَهَانَةِ). الهاء فِي «إِنَّهَا» تعود إِلَىٰ حركات النّجوم، وآثَارها الّتي يخبر بها الْمُنَجِّم رجماً بالْغَيْب، وَهَذَا الرّجم، والزّعم هو الْكَهَانَة بالذّات (وَ الْمُنَجِّمُ كَالْكَاهِنِ) فِي أباطيله، وأكاذيبه لأنّ علم الْغَيْب لله وحده (وَ الْكَاهِنُ كَالسَّاحِرِ) فِي شعوذته، وشيطنته (وَ السَّاحِرُ كَالْكَافِرِ). جاء فِي كتاب الوَسَائِل للحر العاملي إنّ الْإِمَام الصّادقعليه السلام روىٰ عن جَدّهصلى الله عليه وآله: «مَن مَشىٰ إِلَىٰ سَاحرٍ، أو كَاهنٍ، أو كذَاب يُصدّقه فيما يَقُول، فَقَد كَفر بِمَا أَنزَل الله مِن كتَاب»[٣]. وفِي رواية ثَانِيَة: «سَاحر ٱلْمُسْلِمِين يُقتل، وَسَاحر الكُفَّار لاَ يُقتل»[٤] (وَ الْكَافِرُ فِي النَّارِ) سوَاء أَكفر نظرِياً، وَعَملِياً، أَم عَملِياً فَقط. قَالَ الشّيخ مُحَمَّد عَبْدَه: «كَلاَم أَمِير ٱلْمُؤْمِنِين حجّة حاسمة لخيالات المُعتقدين بالرمل، والجفر، والتَّنجيم، وما شَاكَلها، ودَلِيل واضح علىٰ عدم صحتها، ومُنافاتها للأُصول الشَّرعِيَّة، والْعَقْلية»[٥] (سِيرُوا عَلَىٰ ٱسْمِ

(١) ٱلنَّحْلِ: ١٦.
(٢) ٱلأَنْعَام: ٩٧.
(٣) أنظر، وَسَائِل الشّيعة: ١٧/ ١٥٠ ح ٣، مستطرفات السّرائر: ٨٣.
(٤) أنظر، الوَسَائِل: ١٢/ ١٠٦ ح ٢، و: ١٨/ ٥٧٥ ح ١، الكافِي: ٧/ ٢٦٠ ح ١، من لا يحضره الفقيه: ٣/ ٣٧١ ح ١٧٥٢، التّهذيب: ١٠/ ١٤٧ ح ٥٨٣، مسالك الأفهام: ١٤/ ٤٥٤.
(٥) أنظر، شرح النّهج: ١/ ١٢٩.

اللهِ) إِلَىٰ حَرْب الْخَوَارِج ، وَلاَ تعبأوا بِأَقْـوَال المُـنجِمِين . وكَـانَتْ الْـغَلَبَة لِـلْإِمَامِ، وأَصْحَابِه الّذين سَاروا للحَرْب فِي نَفس السّاعة الّتي نَهىٰ عَنْهَا المُنجم .

الخطبة

-٨٠-

نَوَاقِصُ ٱلْعُقُول:

مَعَاشِرَ النَّاسِ، إِنَّ النِّسَاءَ نَوَاقِصُ الْإِيمَانِ، نَوَاقِصُ الْحُظُوظِ، نَوَاقِصُ الْعُقُولِ: فَأَمَّا نُقْصَانُ إِيمَانِهِنَّ فَقُعُودُهُنَّ عَنِ الصَّلاٰةِ، وَ الصِّيَامِ فِي أَيَّامِ حَيْضِهِنَّ، وَ أَمَّا نُقْصَانُ عُقُولِهِنَّ فَشَهَادَةُ ٱمْرَأَتَيْنِ كَشَهَادَةِ الرَّجُلِ الْوَاحِدِ، وَ أَمَّا نُقْصَانُ حُظُوظِهِنَّ فَمَوَارِيثُهُنَّ عَلَىٰ الْأَنْصَافِ مِنْ مَوَارِيثِ الرِّجَالِ. فَٱتَّقُوا شِرَارَ النِّسَاءِ، وَكُونُوا مِنْ خِيَارِهِنَّ عَلَىٰ حَذَرٍ، وَ لاٰ تُطِيعُوهُنَّ فِي الْمَعْرُوفِ حَتَّىٰ لاٰ يَطْمَعْنَ فِي الْمُنْكَرِ.

لِلمِنْبَرِ ـ عَلِيٌّ وَٱلْمَرْأَة:

تَكَلَّم البَاحثون كثيراً عن ٱلْمَرْأَةِ، ومواهبها، وخصائصها، وعن حُقُوقها، وواجباتها، وتَكَلَّموا عن ٱلْمَرْأَةِ فِي ٱلإِسْلاَم، أو فِي ٱلقُرْآن، وعن ٱلْمَرْأَةِ الشّرقية، والغربية، وعن دور ٱلْمَرْأَة، وتأثيرها فِي حَيَاة العباقرة، والمجانين أيضاً... وطال حولها الجدال، والنِّقَاش، وسيَبْقَىٰ قائماً إِلَىٰ آخر يَوْم، وإنْ دَلَّ هٰذَا علىٰ شيء فإنَّه يدلُّ علىٰ أنّ ٱلْمَرْأَة هِي ذَلِكَ ٱلإِنْسَان، أو اللُّغز المجهول.

وأيضاً تَكَلَّموا عن عَليٍّ، وٱلْمَرْأَة، وَقَالَ قَائِل: إنّ الإِمَام نَظر إِلَىٰ ٱلْمَرْأَة من خلال رأيه بعَائِشَةَ صَاحبة الجَمَل، حَيْث عارضت حكمه، وخِلاَفَته، وألبّت عَلَيْهِ الجموع، وجيّشت الجُيُوش، ولَوْلاَ موقفها هَذَا لم ينظر إِلَىٰ ٱلْمَرْأَة هَذِه النّظرة الّتي تحط من شأنها، وقدرها.

وأجبنا عن هَذَا بخمسة أجوبة، وَهِي[1]:

١ ـ أنّ موقف عَائِشَةَ من الإِمَامِ لَيسَ بأعظم من موقف طَلْحَة، والزُّبَيْر اللّذين بايعا ثُم نكثا، وحَرضا عَائِشَةَ علىٰ الخروج، وَلاَ بأعظم من موقف مُعَاوِيَة، وٱبن العَاص، وَلاَ بأعظم من موقف الخَوَارِج... ولو صحّ تَفْسِير رأي الإِمَام فِي ٱلْمَرْأَةِ بِكرَاهِية عَائِشَةَ لوجب أنْ يَكُون رأيه فِي الرّجل تَمَامَاً كرأيه فِي ٱلْمَرْأَةِ، لأنّ طَلْحَة، والزُّبَيْر، ومُعَاوِيَة، وٱبن العَاص، ومن لَفَّ لَفَّهم فَعَلوا ما فعلت عَائِشَةَ، وزِيَادَة.

٢ ـ جرت الْعَادَة أنْ يَكْرَه ٱلإِنْسَان، ويحقد علىٰ الْقَوِيّ دُونَ الضَّعِيف، وعلىٰ الغَالب دُونَ المغلوب، وعَائِشَةَ كَانَتْ أَسيرة بَيْنَ يدي الإِمَام حَتَّىٰ قالت آسفه نادمة: «لَيْتَنِي لَمْ أَكُنْ أُخْلَق»[2].

٣ ـ هل بلغ الذّهول بعليٍّ ـ وهو بَاب مدينة العِلْم[3] ـ أنْ يحكم علىٰ ٱلنِّسَاء، كلّ ٱلنِّسَاء، من خلال إمْرَأَة وَاحِدَة تُلقب بصاحبةِ الجَمَل، ويقيس النَّوْع علىٰ الْفَرْد؟. إنّ هَذَا منطق أَهْل ٱلْجَهْل، والغباء لا منطق ٱلْمَعْصُومين، والْعُلَمَاء.

---

(١) أنظر، كتابه «عليّ والفَلْسَفَة» (مِنْهُ).

(٢) أُنظر، المُصَنَّف لِابن أبي شيبة: ١٩٢/٨ تحت رَقم «٣/٢٦»، الطَّبقَات الْكُبْرَىٰ: ٧٤/٨.

(٣) بناءً علىٰ الحَدِيث المروي عَنْه ﷺ: «أنا مَدينة العِلْم، وعليٌّ بابها»، وقد تَقَدَّم إستخراجه.

٤ ـ متىٰ كَانَ لعليٍّ الَّذي يَدُور ٱلْحَقّ معه كَيْفَما دَار[1] ـ شهوَات، وميُول حَتَّىٰ يَستمد مِنْهَا آراءه، وينطق بوحيها؟. أَحين أكرم عَائِشَةَ، وأَطلقها من الأسر، أو حِينَ تَمكن من رَقَبة ٱبن العَاص، وبُسْر ٱبن أَرْطَاة فعفا عَنْهُما، أو حِينَ سقىٰ الْمَاء لمُعَاوِيَة بعد أنْ منعه مِنْهُ؟.

٥ ـ قَالُوا: أنّ النَّبِيّ ﷺ كَانَ يُحبّ عَائِشَةَ... وعَلَيْهِ يَنْبَغِي أنْ يَكُون رأيه فِي ٱلْمَرْأَةِ حسناً يُخالف رأي الْإِمَامِ عليه السلام مَع أنّ النَّبِيّ ﷺ بالذات وصفها بنفس الْوَصْف الَّذي نعتها به الْإِمَام، بل أنّ الْإِمَام نقله بالحرف الواحد عن النَّبِيّ، مانصّه بالحرف الواحد:

«خَرَجَ رَسُولُ اللهِ فِي أَضْحىً، أو فِطْرٍ إِلَىٰ الْمُصَلّىٰ، فَمَرَّ عَلَىٰ ٱلنِّسَاء، فَقَالَ يَا مَعْشَرَ ٱلنِّسَاء: تَصَدَّقنَ فَإِنِّي أُرِيتُكُنَّ أَكْثَرَ أَهْلِ النَّارِ، فَقُلْنَ وَبِمَ يا رَسُولُ اللهِ؟ فَقَالَ: تُكْثِرْنَ اللَّعْنِ، وَتَكْفُرْنَ العَشِيرَ. مَا رَأيْتُ مِنْ نَاقِصَاتِ عَقْلٍ، وَدِينٍ أَذْهَبَ لِلُبِّ الرَّجُلِ الْحَازِمِ مِنْ إِحْدَاكُنَّ. قُلْنَ لَهُ: وَمَا نُقْصَانُ دِينِنَا، وَعَقْلِنَا يَا رَسُولَ اللهِ؟ قَالَ: أَلَيْسَ شَهَادَةُ ٱلْمَرْأَة مِثْلَ نِصفِ شَهَادَةُ الرَّجُلِ؟ قُلْنَ: بَلَىٰ. قَالَ: فَذَلِكَ مِنْ نُقْصَانِ عَقْلِهَا. أَلَيْسَ إِذَا حَاضَتْ لَمْ تُصَلِّ، وَلَمْ تَصُمْ؟ قُلْنَ: بَلَىٰ. قَالَ: فَذَلِكَ مِنْ نُقْصَانِ دِينِهَا»[2].

(١) بناءً علىٰ الْحَدِيث المروي عَنْه ﷺ: «عليٌّ مَع ٱلحَق، والْحَق مَع عليّ»، وقد تَقَدَّم.

(٢) أنظر، صَحِيح البُخَارِيّ: ١٤٥/١ ح ٢٩٩، بَاب ٦ تَرك الحَائض الصَوم، طَبعة دَار الْفِكْر ـ بيروت ـ بإشرَاف مُحَمَّد بَيبس، (مِنْهُ). و: ١١٦/١ ح ٢٩٨ و: ٥٣١/٢ ح ١٣٩٣ طَبْعَة أُخرىٰ، وفَتح البَاري: ٤٠٦/١، تُحْفَة الطَّالب: ٣٦٠/١، مُسْتَدرَك الوَسَائِل: ٢٥٦/١٤، بحَار الأَنْوار: ٣٠٦/١٠١، إرواء الغَليل لمُحَمَّد نَاصر الألبَاني: ٢٠٤/١، صَحِيح مُسْلِم: ٨٦/١ ح ٧٩، سُبل الْهُدَىٰ والرَّشَاد: ٣٢٠/٨، تَفْسِير

هُنَّ نَاقِصَات عقل، ودين عند النَّبِيّ الَّذي قِيل: أنّه كَانَ يُحبّ عَائِشَةَ، وأخذ عَنْه قَوْله هَذَا بالحرف ربيبه، وتلميذه الَّذي قيل: أنّه كَانَ يبغض عَائِشَةَ، فَإِذَا كَانَ قَوْل النَّبِيّ فِي ٱلْمَرْأَةِ بوحي من الله فيجب أنْ يَكُون قَوْل الإِمَام كَذَلِكَ، وإنْ كَانَ قَوْل الإِمَام بوحي من بغضه لعَائِشَةَ فيجب أنْ يَكُون قَوْل النَّبِيّ كَذَلِكَ... والفرق تناقض ظاهر.

وَقَالَ الشّيخ مُحَمَّد عَبْدَه: «خلق الله ٱلنِّسَاء، وحملهن علىٰ ثقل الولادة، وتربية الأَطْفَال إِلَىٰ سِن مُعينة لا تكاد ينتهي حَتَّىٰ تستعد لحملٍ، وولادة، وهكذا فلا يكدن يفرغن من الولادة، والتّربية... فكأنّهن قد خصصن لتدبير أمر المنزل وملازمته، وهو دائرة محدودة يقوم عليهن فيها أزواجهن، فخلق لَهُنَّ من ٱلْعُقُول بقدر ما يحتجن إِلَيْهِ فِي هَذَا، وجاء الشّرع الشَّريف مُطابقاً للفِطْرَة، فكنَّ فِي أَحْكَامه غَيْر لاحقات للرجال، لا فِي الْعِبَادَةِ، وَلاَ الشّهادة، وَلاَ الميراث»[1].

← القُرطُبي: ٨٣/٣، تَفْسِير أبن كَثِير: ٣٣٦/١، صَحِيح أبن حبّان: ١١٥/٨ ح ٣٣٢٣ و: ٥٤/١٣ ح ٥٧٤٤، صَحِيح أبن خُزَيْمَة: ١٠١/٢ ح ١٠٠٠، المُسْتَدرَك عَلىٰ الصَّحِيحِين: ٦٤٥/٤ ح ٨٧٨٣، المُسند المُستَخرج عَلىٰ صَحِيح الإِمَام مُسْلِم: ١٥٨/١ ح ٢٣٩، مَوارد الظّمآن: ٢٠٩/١ ح ٨١٨ و ١٢٩٤، سُنَن التِّرمِذي: ١٠/٥ ح ٢٦١٣، مَجْمَع الزّوائد: ١١٨/٣، سُنَن البَيْهَقِيّ ٱلْكُبْرَىٰ: ٣٠٨/١ ح ١٣٧٠ و ٧٩٠٠ و ٢٠٣١٦ و ٢٠٣٢٧، سُنَن أبي داود: ٢١٩/٤ ح ٤٦٧٩، سُنَن أبن مَاجه: ١٣٢٦/٢ ح ٤٠٠٣، شَرح مَعَانِي الآثار: ٢٤/٢، مُعتصر المُختصر: ٢١/١، مُسْنَد أحمد: ٦٦/٢ ح ٥٣٤٣، مُسْنَد الحَارث: ٣٩٢/١ ح ٢٩٧، التّخويف من النّار: ١٩٤/١، شُعب الإيمَان: ٦٢/١ و ٥١٦٨، الإيمَان لِابْن مَنده: ٦٧٨/٢ ح ٦٧٠ و ٦٧١ و ٦٧٣ و ٦٧٦ و ٦٧٧، السُّنَّة لِابْن عَاصم: ٤٦٣/٢ ح ٩٥٥ و ٩٥٦، الفِردَوْس بمأثور الخِطّاب: ٩٢/٤ ح ٦٢٨٥ و ٨٢٢٠، التّمهيد لِابْن عبدالبر: ٣٢٥/٣، نَصب الرَّاية: ٨٩/٤، المُحلىٰ لِابْن حَزم: ٣٩/١.

(١) أُنظر، شرح ٱلنّهج: ١٢٩/١.

الخطبة

-٨١-

ٱلتَّوَرُّعُ عِنْدَ الْمَحَارِمِ:

أَيُّهَا النَّاسُ، الزَّهَادَةُ قِصَرُ الْأَمَلِ، وَ الشُّكْرُ عِنْدَ النِّعَمِ، وَ التَّوَرُّعُ عِنْدَ الْمَحَارِمِ، فَإِنْ عَزَبَ ذَلِكَ عَنْكُمْ فَلاَ يَغْلِبِ الْحَرَامُ صَبْرَكُمْ، وَ لاَ تَنْسَوْا عِنْدَ النِّعَمِ شُكْرَكُمْ، فَقَدْ أَعْذَرَ اللهُ إِلَيْكُمْ بِحُجَجٍ مُسْفِرَةٍ ظَاهِرَةٍ، وَكُتُبٍ بَارِزَةِ الْعُذْرِ وَاضِحَةٍ.

اللُّغَة:

تَوَرَّعَ عِنْدَ الْمَحَارِمِ: تَحَرَّجَ مِنْهَا وَٱبْتَعَدَ عَنْهَا. وعَزَبَ: بَعُدَ.

الْمَعْنىٰ:

لا يَكُون الزُّهْد إلاّ فِي المقدور، ولو بالجِد، والطَّلب، أَمَا الزُّهْد فِي غَيْر المقدور فَهُوَ تَمَاماً كَزُهد الثَّعلب فِي العِنَب الَّذي قَصُرَت يَده عنهُ. وقد حَدد الإِمَام الزُّهْد بثلاثة أوصاف:

الأَوَّل: (قِصَرُ الأَمَلِ) وهو أنْ يَحسب ٱلإِنْسَان لنزول ٱلْمَوْت بِهِ فِي أية لحظة تَمَاماً

كالمحتضر، ويستعد له بٱلْعَمَل الصَّالح.

الثَّانِي: (وَ الشُّكْرُ عِنْدَ النِّعَمِ) بالطَّاعَة، وبالفِعْل، لا بالقَوْل، وأوضح مظاهر الجحود، وكفران النِّعَم أنْ يتسعين بها ٱلإِنْسَان علىٰ مَعْصِيَة المنعم.

الثَّالث: (وَ التَّوَرُّعُ عِنْدَ الْمَحَارِمِ). يكف عن الْمُحَرَّمات، ويقف عند ٱلشُّبُهَات. ومن أَقْوَال الإِمَام: «لاَ وَرَعَ كَٱلْوُقُوفِ عِنْدَ ٱلشُّبْهَة، وَلاَ زُهْدَ كَٱلزُّهدِ فِي ٱلْحَرَامِ»[1].

(فَإِنْ عَزَبَ ذَلِكَ عَنْكُمْ فَلاَ يَغْلِبِ الْحَرَامُ صَبْرَكُمْ، وَ لاَ تَنْسَوْا عِنْدَ النِّعَمِ شُكْرَكُمْ). ذَلِكَ ٱشارة إِلَىٰ ٱلْعَمَل بِالأَوصَاف الثّلاثة مجتمعة، والْمَعْنَىٰ إِذَا لم تعملوا بالثلاثة فعَلَيْكُمْ أنْ تعملوا بالوَصْفَيْن الأخيرين، وَلاَ يجوز تركهما بحال، وهما الكفّ عن الْمُحَرَّمات، وشُكر النِّعَم، أمّا طول ٱلأَمَل فَإِذَا لم يؤد إِلَىٰ فعل ٱلْحَرَام فلَيْسَ بحرام لأنّه أشبه بحديث النّفس الَّذي لا مؤاخذة عَلَيْهِ، ومن أجل هَذَا رخص بِهِ الإِمَام.

(فَقَدْ أَعْذَرَ اللهُ إِلَيْكُمْ) أي لَم يَدَعْ لَكُمْ عُذراً تعللون به، ذَلِكَ بأنّه تعاهدكم (بِحُجَجٍ مُسْفِرَةٍ ظَاهِرَةٍ) من منطق ٱلْحِسّ، وٱلْعَقْل (وَكُتُبٍ بَارِزَةِ الْعُذْرِ وَاضِحَةٍ). إنّ ما أنزله سُبْحَانَهُ فِي كتابه من آيات مُحكمات هِي عذر واضح له، جَلَّت حِكْمَته، فيما ينزله بالعَاصي من العقوبات.

والخُلاَصة: أَنّ الله تَعَالَىٰ منح ٱلإِنْسَان ٱلْعَقْل، والْقُدْرَة، والإِرَادَة، وأوضح له نَهْج ٱلسَّبِيل، ولم يَدَعْ لهُ من عُذرٍ إِنْ تَنَكَّبَ عَنْه، وهَذِه بمجموعها حجّة كاملة لله علىٰ من سوّلت لهُ نَفْسه أنْ يتعدىٰ حدوده، وأَحْكَامه.

---

(١) أنظر، نهج البَلاَغَة: ٤/٢٧، ٱلحِكْمَة (١١٣).

الخطبة

-٨٢-

ٱلدُّنْيَا:

مَا أَصِفُ مِنْ دَارٍ أَوَّلُهَا عَنَاءٌ، وَ آخِرُهَا فَنَاءٌ! فِي حَلاَلِهَا حِسَابٌ، وَ فِي حَرَامِهَا عِقَابٌ. مَنِ ٱسْتَغْنَىٰ فِيهَا فُتِنَ، وَ مَنِ ٱفْتَقَرَ فِيهَا حَزِنَ، وَ مَنْ سَاعَاهَا فَاتَتْهُ، وَ مَنْ قَعَدَ عَنْهَا وَاتَتْهُ، وَ مَنْ أَبْصَرَ بِهَا بَصَّرَتْهُ، وَ مَنْ أَبْصَرَ إِلَيْهَا أَعْمَتْهُ.

اللُّغَة:

سَاعَاهَا: غَالبهَا، يُقَال سَاعَاني فُلاَن فسعيته أي غَلَبته فِي المَشي، ومن سَلك شَيْئاً من مَتَاعِ الدُّنْيَا بالجِد يظن أنّه غَلبها، ولَكِنَّهُ هِي الغَالبة علىٰ كلِّ حَال كما يتضح من الشّرح. وَاتَتْهُ: طَاوَعتْهُ، والفرق بَيْنَ أَبْصَرَ بِهَا وأَبْصَرَ إِلَيْهَا كالفرق بَيْنَ مَنْ أَبْصَرَ الأَشْيَاء بسبب ضوء ٱلشَّمْس، وبَيْنَ مَنْ نَظَرَ إِلَىٰ ٱلشَّمْس بالذات فأَعشت بَصَرَه.

الإِعْرَاب:

مَا أَصِفُ «مَا» ٱستفهام مُبْتَدَأ، وجُمْلَة أَصِفُ خَبَر، والباء فِي «بِهَا» للسببية،

وأَبْصَرَ إِلَيْهَا أي نَظَرَ إِلَيْهَا كما يُقَال دَخَلتُ إِلَىٰ ٱلْبَيْت أي وَلَجْتُ إِلَىٰ ٱلْبَيْت علىٰ حَد تمثيل ٱبن أبي ٱلْحَدِيد(١).

الْمَعْنَىٰ:

(مَا أَصِفُ مِنْ دَارٍ أَوَّلُهَا عَنَاءٌ). تَعَبْ، وآلاَم مُنذ اللَّحظة الأُولَىٰ الَّتي يُوْلَد فيها ٱلإِنْسَان حَتَّىٰ النَّفْس الأخير (وَ آخِرُهَا فَنَاءٌ!) مَوْت لا يَرده جَاه، وَلاَ مَال، وَلاَ كُفر، وَلاَ إِيمَان، وَبِهِ تُختم دُنيا الأحياء (وَ فِي حَرَامِهَا عِقَابٌ). يُسأل الْمَرْء غَداً عَن الحَلال، والْحَرَام، أمّا السُّؤال عن ٱلْمَال الحَلال فعلىٰ أي شيء أَنفقه، وأَتلفه، أمّا ٱلْمَال ٱلْحَرَام فيُسأل من أَين؟ وإِلَىٰ أَين؟ وفِي الْحَدِيث: «يُسأل العبد غداً عن عُمرهِ فيما أفناهُ، وعن جسدهِ فيما أبلاهُ، وعن مالهِ مِمَّا ٱكْتَسَبَهُ، وفيما أنفقهُ؟»(٢)، وفِي

(١) أُنظر، شرح نهج البَلاَغَة: ٦/ ٢٤٠.

(٢) أُنظر، المَبْسُوط للسَّرخَسي: ٣٠/ ٢٨٦، حاشية رد المحتار: ١/ ٥١، مَجْمَع الزَّوائد: ٩/ ٣٤٦، و: ١٠/ ٣٤٦ ط القدسي بالقاهرة، بشارة المُصْطَفَىٰ: ٢٥٢، تَفْسِير نور الثَّقَلَيْن: ٤/ ٤٠٢، الخوارزمي فِي المَنَاقِب: ٧٦/ ٥٩ و ٤٥ ط تبريز، وأخرجه التِّرمِذي: ٤/ ٣٦ ح ٢٥٣٢ كتاب صفة ٱلْقِيَامَة عن بريدة الأسلمي، وفِي كنز الْعُمَّال: ٦/ ٢١٨ ح٣٨٩٨٢، و: ٧/ ١٠٣، و: ١٤/ ٣٧٩، المَنَاقِب لِابْن المغازلي: ١١٩ ح ١٥٧، جواهر العقدين: ٢/ ٢٤٦، أنظر التَّعليق فِي العمدة لِابْن البطريق: ٢١٩ و٢٨٣ و٢٨٤ علىٰ هَذَا الْحَدِيث. لأنّ تكملة الْحَدِيث: وعن حبّنا أَهْل ٱلْبَيْت، فَقَالَ له عُمَر بن الخَطَّاب: فما آية حبّكم من بعدكم؟ فوضع يده علىٰ رأس عليّ، وهو جالس جنبه فَقَالَ: آيته حُبّ هَذَا من بعدي. كما جاء فِي مَعَالِم العِتْرَة النَّبويَّة: ٥٣ ورق (م)، وكَذَلِكَ المصادر السّابقة، واللاحقة.

وأُنظر تعليق العلاّمة البياضي فِي ٱلصِّرَاط المستقيم: ٢/ ٥١، ٱلْبِحَار: ٣٩/ ٣١٠، دَلاَئِل الصِّدْق: ٢/ ١٢ و١٣ و١٥٥ و١٥٦، السّيوطي فِي إحياء ٱلْمَيِّت هامش الإِتْحَاف: ١١٥ ط الحلبي، فرائد السِّمطين: ٢/ ٣٠١، مقتل الإِمَام الْحُسَيْن للخوارزمي: ٤٣ ط الغري عن أبي برزة، المَنَاقِب المرتضوية

⇔

ٱلْقُرْآن ٱلْكَرِيم : ﴿ثُمَّ لَتُسْـَٔلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ﴾[١]. وَقَالَ أبو ذَرّ : «إِنّ صاحب الدّرهم يَوْم ٱلْقِيَامَة أَخف حساباً من صاحب الدّرهمين»[٢].

(وَمَنِ ٱسْتَغْنَىٰ فِيهَا فُتِنَ). أي مَن حَاز شَيْئاً من ٱلْمَال ٱغتر بِـهِ وطـغىٰ، قَـالَ تَعَالَىٰ: ﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لَيَطْغَىٰٓ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ﴾[٣]. وَقَالَ الْإِمَام: «إِنِ ٱسْتَغْنَىٰ بَطِرَ، وَفُتِنَ، وإِنِ ٱفْتَقَرَ قَنِطَ، وَوَهَنَ»[٤]، (وَمَنِ ٱفْتَقَرَ فِيهَا حَزِنَ). وإذَنْ فالدُّنْيَا شَرّ عَلىٰ الْفَقِير، والْغَنِيّ إلّا من آمن، وٱتقىٰ، وتزود مِنْهَا لآخرته، وٱتخذها وسيلة إِلَىٰ الظّفر برضوان الله. وخَير الوَسَائِل لِهَذِه الْغَايَة خِدْمَة النّاس، ونصح النّاس. قَالَ بَعْض ٱلْعَارِفِين: لَو قيل لِي: خُذ بيد خير أَهْل الْمَسْجِدِ ـ أي ٱلْمُصَلِّين ٱلْعَابِدِين ـ لقلت: دَلوني علىٰ أَنصحهم لامتهم»[٥].

(وَ مَنْ سَاعَاهَا فَاتَتْهُ). أي من غَالبها قَد يَملك شَيْئاً مِنْهَا، ولكن تفوته أشياء، وأشياء كَثِيرَة. قَالَ الشّيخ مُحَمَّد عبدة مُعلقاً علىٰ هَذِه الجُمْلَة: «كلّما نال ٱلإِنْسَان من الدُّنْيَا شَيْئاً فُتحت له أبواب ٱلأَمَل فيها، فلا يقضي مَطلوباً واحداً حَتَّىٰ يهتف بِهِ

⇐ للكشفي: ٩٩ ط بمبي، أرْجَح المطَالِب: ٥٢٤ ط لاهور، كفاية الطّالب: ١٨٣، الذّهبي في ميزانه: ١ / ٢٠٦ ط القاهرة، لِسَان المِيزَان: ٤ / ١٥٩، رشفة الصّادي لِابْن شهاب الدين: ٤٥، الشّرف المُؤبد: ١٧٨ ط الحلبي وأوْلَاده و: ٧٤ ط مِصْر، الثّعلبي فِي تَفْسِيره: ٢ / ٤ ط الحيدرية.

(١) التّكاثر: ٨.

(٢) أُنظر، تَذكِرة المَوْضُوعَات للفتني: ١٧٨.

(٣) ٱلْعَلَق: ٦ ـ ٧.

(٤) أُنظر، نهج البَلَاغَة: ٤/٣٩، الحِكْمَة (١٥٠).

(٥) القَائِل هو بَكْر بن عبدالله المزني. أُنظر، حلية الأَوْلِيَاء: ٢/٢٢٤، سير أعلام النّبلاء: ٤/٥٣٥.

أَلف مطلوب»[١]. وَهَذَا ما أراده الإِمَام بقَوْله: «مَنْهُومَانِ لاَ يَشْبَعَانِ: طَالِبُ عِلْمٍ، وَطَالِبُ دُنْيَا»[٢]. (وَ مَنْ قَعَدَ عَنْهَا وَاتَتْهُ). أي من لا يجعل الدُّنْيَا كلّ هَمّه، واَهتمامه، ويقنع بسد اَلْحَاجَة ـ فإِنَّه يحصل علىٰ ما يُريد لا مَحَالَةَ، قيل لزاهد: «أَمَا تَخَاف الفَاقة؟ قَالَ: بلىٰ. وَإِذَا أَصَابَتنِي حملت المسحاة، وعملت مَع الفِعْلَة، وعشت كَما يَعِيشُون».

(وَ مَنْ أَبْصَرَ بِهَا بَصَّرَتْهُ). أي من تَدبر الدُّنْيَا فِي ضوء ما فيها من عيوب، ومَسَاوِىءِ تَدبر، واَعتبر، وكَرر الإِمَام هَذَا الْمَعْنَىٰ بأساليب شَتَّىٰ مِنْهَا: «إِنَّ ٱلدُّنْيَا دَارُ صِدْقٍ لِمَنْ صَدَقَهَا، وَدَارُ عَافِيَةٍ لِمَنْ فَهِمَ عَنْهَا.. فَذَمَّهَا رِجَالٌ غَدَاةَ ٱلنَّدَامَةِ: وَحَمِدَهَا آخَرُونَ يَوْمَ ٱلْقِيَامَةِ. ذَكَّرَتْهُمُ ٱلدُّنْيَا فَتَذَكَّرُوا، وَحَدَّثَتْهُمْ فَصَدَّقُوا، وَوَعَظَتْهُمْ فَاتَّعَظُوا»[٣]. وَقَالَ أيضاً: «نَعَتْ هِيَ لَكَ عَنْ نَفْسِهَا، وَتَكَشَّفَتْ لَكَ عَنْ مَسَاوِيهَا؛ فَإِنَّمَا أَهْلُهَا كِلاَبٌ عَاوِيَةٌ، وَ سِبَاعٌ ضَارِيَةٌ، يَهِرُّ بَعْضُهَا عَلَىٰ بَعْضٍ، وَيَأْكُلُ عَزِيزُهَا ذَلِيلَهَا، وَيَقْهَرُ كَبِيرُهَا صَغِيرَهَا»[٤] (وَ مَنْ أَبْصَرَ إِلَيْهَا أَعْمَتْهُ). أي مَن رَكَن إِلَيْهَا، واَنصرف إِلَىٰ ملذاتها صرفته عما فيها من حَسَنَات، واَستباق خيرات.

---

(١) أنظر، شرح نهج البَلاَغَة: ١/١٣١.

(٢) أنظر، نهج البَلاَغَة: ٤/١٠٥، اَلحِكْمَة (٤٥٧).

(٣) أنظر، نهج البَلاَغَة: ٤/٣٢، اَلحِكْمَة (١٣١).

(٤) أنظر، نَهج اَلْبَلاَغَة: مِن وَصِيةٍ له عليه السلام لاِبْنِهِ اَلْحَسَن عليه السلام، كَتَبها إِلَيْهِ بحاضِرِين عِند اَنصرَافه مِن صِفِّين رَقم الكتَاب (٣١).

الخطبة

-٨٣-

أَنْتُمْ مُخْتَبَرُونَ، وَمُحَاسَبُونَ... فِقْرَة ١ ـ ٢:

الْحَمْدُ للهِ الَّذِي عَلاَ بِحَوْلِهِ، وَ دَنَا بِطَوْلِهِ، مَانِحِ كُلِّ غَنِيمَةٍ وَ فَضْلٍ، وَ كَاشِفِ كُلِّ عَظِيمَةٍ وَ أَزْلٍ. أَحْمَدُهُ عَلَىٰ عَوَاطِفِ كَرَمِهِ، وَ سَوَابِغِ نِعَمِهِ، وَ أُومِنُ بِهِ أَوَّلاً بَادِياً، وَ أَسْتَهْدِيهِ قَرِيباً هَادِياً، وَ أَسْتَعِينُهُ قَاهِراً قَادِراً، وَ أَتَوَكَّلُ عَلَيْهِ كَافِياً نَاصِراً، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّداً ـ صلى الله عليه وآله ـ عَبْدُهُ وَ رَسُولُهُ، أَرْسَلَهُ لإِنْفَاذِ أَمْرِهِ، وَ إِنْهَاءِ عُذْرِهِ، وَتَقْدِيمِ نُذُرِهِ[1].

أُوصِيكُمْ عِبَادَ اللهِ بِتَقْوَىٰ اللهِ الَّذِي ضَرَبَ الأَمْثَالَ، وَ وَقَّتَ لَكُمُ الآجَالَ، وَ أَلْبَسَكُمُ الرِّيَاشَ، وَ أَرْفَغَ لَكُمُ الْمَعَاشَ، وَ أَحَاطَ بِكُمُ الإِحْصَاءَ، وَ أَرْصَدَ لَكُمُ الْجَزَاءَ، وَ آثَرَكُمْ بِالنِّعَمِ السَّوَابِغِ، وَ الرِّفَدِ الرَّوَافِغِ، وَ أَنْذَرَكُمْ بِالْحُجَجِ الْبَوَالِغِ، فَأَحْصَاكُمْ عَدَداً، وَ وَظَّفَ لَكُمْ مُدَداً، فِي قَرَارِ خِبْرَةٍ، وَ دَارِ عِبْرَةٍ، أَنْتُمْ مُخْتَبَرُونَ فِيهَا، وَمُحَاسَبُونَ عَلَيْهَا[2].

اللُّغَة:

بِحَوْلِهِ: بِقُدْرَتِهِ علىٰ كلّ شيء، ومَعْنَىٰ لاَ حَوْلَ وَلاَ قُوَّةَ إِلَّا بِاللهِ ـ لا حَرَكَة وَلاَ قُوَّة

إلّا بمشيئة الله. وبِطَوْلِهِ: بِعَطَائِه، والْمُرَاد بالأَزْلِ هُنا الضّيق، والمَشَقَّة. وَسَوَابِغ النِّعْمَة كواملها، ونِعْمَّة سَابِغَة أي تَامة كَاملة. وَالإِنْهَاء: الإِبْلاَغ، تَقول: أَنْهَيت إِلَـيْهِ أي أَبْلغته، ونَهيته أي زَجرته. والرِّيَاش: اللِّباس. وَأَرْفَغ: أَوْسَعَ. وَالرِّفْـدِ. العَـطِيَّة. وَوَظَّفَ: قَدر. وفِي قَرَارِ: فِي دَار. وخِـبْرَةٍ: ٱبـتلاء، وٱخـتبار. وَعِـبْرَةٍ: ٱعـتبار وٱتعاظ.

الإِعْرَاب:

أَوَّلاً حَال، ومِثْله ما بعده مـن المَـنْصُوبات، وٱلآجَـالَ، الرِّيَـاشَ، وَالْمَـعَاشَ مفعولات بِهِ، والْإِحْصَاءَ مَفْعُول مُـطلق، مـثل قـعدتُ جُـلوساً، لأنّ الْإِحَـاطَة تَسْتَدعِي الْإِحْصَاءَ، وعَدَداً مَفْعُول مُطلق لأَحْصَاكم، وقـيل: تَمْـيِيز محـول عـن مَفْعُول، والأَصل أحصىٰ عَدَدَكم، مثل ﴿وَفَـجَّرْنَا ٱلْأَرْضَ عُـيُونًا﴾[1] أي عُـيُون ٱلْأَرْضَ.

الْمَعْنىٰ:

(الْحَمْدُ للهِ الَّذِي عَلاٰ بِحَوْلِهِ). ٱرتفع بقدرته علىٰ كلّ شيء (وَ دَنَا بِطَوْلِهِ). قَرُبَ من خَلقه بعطائه، وإحسانه، وفِي معناه قَوْله ﷺ: «قَرُبَ فَنَأَىٰ، وَ عَلاٰ فَدَنَا، وَ ظَهَرَ فَبَطَنَ»[2]. أي دَنَا من الخلق بعلمه بِهِـمْ، وتـدبيره لَهُـمْ، وَعَـلا عَـنْهُمْ بحَـقِيقَته، وَصِفَاته، وظهر للعقول بآثاره، وَخفِي عَنْهَا بذاته (مَانِحِ كُلِّ غَنِيمَةٍ، وَ فَضْلٍ) يُعطي

(١) ٱلْقَمَر: ١٢.

(٢) أنظر، نَهج البَلاَغَة: ٱلْخُطْبَة (١٩٥).

الْخَيْرَات، ويَكشف الكُربات، قَالَ عزّ من قَائِل: ﴿مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾(١).

(أَحْمَدُهُ عَلَىٰ عَوَاطِفِ كَرَمِهِ، وَ سَوَابِغِ نِعَمِهِ). كنِعْمَة الْوُجُود، والْقُدْرَة، والإدراك، والدِّين، والإيمَان، وقَبُول ٱلتَّوْبَة، والغفران... إلَىٰ ما لا يبلغه الإِحْصَاء، وهناك نعم خفية لا يتنبه إِلَيْهَا إلّا القليل، ومِنْهَا أنّه تَعَالَىٰ جعل نَفْسه كالمفترض من الباذل فِي سبيله، وَهَذَا كالقارض مَع أنّ الكل مِنْهُ، وإِلَيْهِ.

(وَ أُومِنُ بِهِ أَوَّلاً بَادِياً). أَوَّلاً حَال من الضَّمِير فِي «بِهِ» العائد إِلَيْهِ تَعَالَىٰ، والْمَعْنَىٰ أُصدّق بالله الأَوَّل بلا أَوّل كَانَ قبله، والظَّاهِر للناظرين بعجائب خلقه، وتدبيره (وَأَسْتَهْدِيهِ قَرِيباً هَادِياً). أَطلب مِنْهُ تَعَالَىٰ اَلهِدَايَة، وهو الهادي، والمجيب، والرَّحِيم، والقريب (وَ أَسْتَعِينُهُ قَاهِراً قَادِراً). أَسْتعين بالله وحده القاهر فوق عِبَادِهِ علىٰ كلّ ما أَهمني، وبخَاصَّة علىٰ طاعته، ورعاية حُقُوقه (وَ أَتَوَكَّلُ عَلَيْهِ كَافِياً نَاصِراً). أُفوض أَمري إِلَىٰ الله، فَهُوَ يُغنيني عن جَمِيع خَلقه، ويكشف عني شرّ كلّ ذي شرّ.

(وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّداً ـ صلى الله عليه وآله ـ عَبْدُهُ وَ رَسُولُهُ، أَرْسَلَهُ لِإِنْفَاذِ أَمْرِهِ) وهو القيام بواجب ٱلرِّسَالَة (وَ إِنْهَاءِ عُذْرِهِ) بإبلاغ الحجج، والبينات إِلَىٰ عِبَادِهِ (وَ تَقْدِيمِ نُذُرِهِ) بتهديد من عاند بعذاب الحريق.

(أُوصِيكُمْ عِبَادَ اللهِ بِتَقْوَىٰ اللهِ الَّذِي ضَرَبَ الأَمْثَالَ). أي الآيَات الّتي ذكرها فِي كتابه دليلاً علىٰ وجوب الإِيمَان به، وبالْيَوْم الآخر، وبكتبه، ورُسله، وهَذِه الآيَات

---

(١) فاطِر: ٢.

علىٰ أَنْوَاع:

مِنْهَا: ما يصدق عَلَيْهِ ٱلْمَنْهَج الطّبيعي كقَوْله تَعَالَىٰ: ﴿أَوَلَمْ يَنظُرُواْ فِى مَلَكُوتِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ وَأَنْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَدِ ٱقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ فَبِأَيِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَهُۥ يُؤْمِنُونَ﴾(١).

ومِنْهَا: ما يدخل فِي ٱلْمَنْهَج العَقْلِي: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍ أَن تَقُومُواْ لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُواْ مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ﴾(٢).

ومِنْهَا: من بَاب ٱلْمَنْهَج الرّوحي: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾(٣).

(وَ وَقَّتَ) عين (لَكُمُ ٱلآجَالَ). إِشَارَة إِلَىٰ قَوْله تَعَالَىٰ: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾(٤). (وَ أَلْبَسَكُمُ الرِّيَاشَ) اللِّباس (وَ أَرْفَغَ لَكُمُ الْمَعَاشَ) أوسع بَاب ٱلرِّزْق، وسبله، وكلّ سبب من الأَسْبَاب الطّبيعية ينتهي إِلَيْهِ تَعَالَىٰ، لأنّه المبدأ الأَوَّل لكلّ موجود (وَ أَحَاطَ بِكُمُ الإِحْصَاءَ). والإِحَاطَة أَعم من الإِحْصَاء لِأَنَّهَا تشمل الموجود، والمعدوم، وَلاَ يَكُون الإِحْصَاء إلّا فِي الموجود: ﴿لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا وَوَجَدُواْ مَا عَمِلُواْ حَاضِرًا وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾(٥). (وَ أَرْصَدَ لَكُمُ الْجَزَاءَ). إِنْ خيراً فخير، وإِنْ شرّاً فشرّ.

---

(١) ٱلأَعْرَاف: ١٨٥.

(٢) سَبَإٍ: ٤٦.

(٣) آلِ عِمْرَانَ: ١٦٩.

(٤) ٱلأَعْرَاف: ٣٤.

(٥) ٱلكَهْف: ٤٩.

(وَآثَرَكُمْ بِالنِّعَمِ السَّوَابِغِ). والإيثار عطاؤك ما أنْتَ مُحتاج إلَيْهِ، وَهَذَا لا يجوز فِي حقّه تَعَالَىٰ، لأنّه غني عن العالمين، وعَلَيْهِ يَكُون الْمَعْنَىٰ أنّ الله سُبْحَانَهُ خصكم بالنِّعَمِ التَّامة الكَامِلة: ﴿وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةً وَبَاطِنَةً وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَٰبٍ مُّنِيرٍ﴾[1]. والظَّاهِرة تُسدرك بٱلْحِسّ، والْبَاطِنَة بالوحي، وٱلْعَقْل (وَ الرِّفَدِ الرَّوَافِغِ). أي وَخصكم أيضاً بِالعطايَا ٱلْوَاسِعَة: ﴿كُلًّا نُّمِدُّ هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا﴾[2] أي ممنوعاً، وهَؤُلَآء، وهؤُلَآء إشَارَة إلَىٰ أَصْحَاب ٱلْجَنَّة، وأَصْحَاب ٱلنَّار، فعطاؤه يعم الجَمِيع فِي الدُّنْيَا دُونَ ٱستثناء.

(وَ أَنْذَرَكُمْ بِالْحُجَجِ الْبَوَالِغِ). وذكرنا سُبْحَانَهُ مَرَّات، ومَرَّات فِي كتابه، وعلىٰ لِسَان أَنْبِيَائه، ولم يدع عذراً لنا بجهل، أو غفلة (فَأَحْصَاكُمْ عَدَداً) توكيد لقَوْله: «وَأَحَاطَ بِكُمُ الْإِحْصَاءَ» (وَ وَظَّفَ لَكُمْ مُدَداً) توكيد لقَوْله: «وَوَقَّتَ لَكُمُ ٱلآجَالَ»، وٱلْحِكْمَة من هَذَا التَّوكيد، والتَّكرار أنْ يُمهد بِهِ لقَوْله: (فِي قَرَارِ خِبْرَةٍ). أي فِي دَار الدُّنْيَا الّتِي يُبتلىٰ فيها ٱلإِنْسَان، ويُختبر بالنِّعَم، والنِّقم: ﴿وَبَلَوْنَٰهُم بِٱلْحَسَنَٰتِ وَٱلسَّيِّـَٔاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾[3]. ومن البداهة أنّه لَوْلاَ وجود الدَّعْوَة، والتَّكليف لكان الإِخْتبَار، والإِبْتلاَء لغواً، وعبثاً (وَ دَارِ عِبْرَةٍ). أي ٱعتبار بِمَا يحدث فيها من مصائب، ومتاعب، وهَذِهِ الْعِبْرَة، وتِلْكَ الْخِبْرَة ضرب من إقامة الحجّة علىٰ من عاند، وخالف (أَنْتُمْ مُخْتَبَرُونَ فِيهَا) للتَّمييز بَيْنَ المخلص، والخَائن،

---

(١) لُقْمَانَ: ٢٠.

(٢) ٱلإِسْرَاء: ٢٠.

(٣) ٱلْأَعْرَاف: ١٦٨.

والمُتواضع، وٱلمُتَكبِّر (وَمُحَاسَبُونَ عَلَيْهَا) بِمَا مَعَكُمْ من عقلٍ، وقدرة، وإِرَادَة، وبِمَا جاءكم من رسولٍ، وكتاب.

ضَنْكِ الْمَضْجَعِ، وَوَحْشَةِ الْمَرْجِعِ...فِقْرَة ٣ ـ ٥:

فَإِنَّ الدُّنْيَا رَنِقٌ مَشْرَبُهَا، رَدِغٌ مَشْرَعُهَا، يُونِقُ مَنْظَرُهَا، وَ يُوبِقُ مَخْبَرُهَا. غُرُورٌ حَائِلٌ، وَ ضَوْءٌ آفِلٌ، وَ ظِلٌّ زَائِلٌ، وَ سِنَادٌ مَائِلٌ، حَتَّىٰ إِذَا أَنِسَ نَافِرُهَا، وَ ٱطْمَأَنَّ نَاكِرُهَا، قَمَصَتْ بِأَرْجُلِهَا، وَ قَنَصَتْ بِأَحْبُلِهَا، وَ أَقْصَدَتْ بِأَسْهُمِهَا، وَ أَعْلَقَتِ الْمَرْءَ أَوْهَاقَ الْمَنِيَّةِ، قَائِدَةً لَهُ إِلَىٰ ضَنْكِ الْمَضْجَعِ، وَ وَحْشَةِ الْمَرْجِعِ، وَ مُعَايَنَةِ الْمَحَلِّ، وَ ثَوَابِ الْعَمَلِ(٣). وَكَذَٰلِكَ الْخَلَفُ بِعَقْبِ السَّلَفِ، لاَ تُقْلِعُ الْمَنِيَّةُ ٱخْتِرَاماً، وَ لاَ يَرْعَوِي الْبَاقُونَ ٱجْتِرَاماً، يَحْتَذُونَ مِثَالاً، وَ يَمْضُونَ أَرْسَالاً، إِلَىٰ غَايَةِ الاِنْتِهَاءِ، وَ صَيُّورِ الْفَنَاءِ. حَتَّىٰ إِذَا تَصَرَّمَتِ الأُمُورُ، وَ تَقَضَّتِ الدُّهُورُ، وَ أَزِفَ النُّشُورُ، أَخْرَجَهُمْ مِنْ ضَرَائِحِ الْقُبُورِ، وَ أَوْكَارِ الطُّيُورِ، وَ أَوْجِرَةِ السِّبَاعِ، وَ مَطَارِحِ الْمَهَالِكِ، سِرَاعاً إِلَىٰ أَمْرِهِ مُهْطِعِينَ إِلَىٰ مَعَادِهِ، رَعِيلاً صُمُوتاً، قِيَاماً صُفُوفاً(٤)، يَنْفُذُهُمُ الْبَصَرُ، وَيُسْمِعُهُمُ الدَّاعِي، عَلَيْهِمْ لَبُوسُ الاِسْتِكَانَةِ، وَ ضَرَعُ الاِسْتِسْلاَمِ وَ الذِّلَّةِ. قَدْ ضَلَّتِ الْحِيَلُ، وَ ٱنْقَطَعَ الأَمَلُ، وَ هَوَتِ الأَفْئِدَةُ كَاظِمَةً، وَ خَشَعَتِ الأَصْوَاتُ مُهَيْنِمَةً، وَ أَلْجَمَ الْعَرَقُ، وَ عَظُمَ الشَّفَقُ، وَ أُرْعِدَتِ الأَسْمَاعُ لِزَبْرَةِ الدَّاعِي إِلَىٰ فَصْلِ الْخِطَابِ، وَ مُقَايَضَةِ الْجَزَاءِ، وَ نَكَالِ الْعِقَابِ، وَ نَوَالِ الثَّوَابِ(٥).

اللُّغَة:

رَنِقٌ المَاء: كَدُرَ. والمَشْرَبُ: مُورد الشُّرب. ورَدِغٌ مَشْرَعُهَا: كَثِير الطِّين، وَالوَحل. ويُونِقُ: يُعجِبُ. وَيُوبِقُ: يُهلِكُ. وأَفُل ٱلقَمَر: غَاب. وَسِنَادٌ ـ بكسر

السِّين ـ مَا يُسْتَنَد إِلَيْهِ. ونَافِرُهَا: أي مَن كَانَ نَافِراً عَنْهَا. ونَاكِرُهَا: أي مَن كَانَ مُنْكِراً لها. وقَمَصَ ٱلْفَرَس: رَفَع يديه معاً وطرحهما، وعجن برجْلَيه. وَقَنَصَتْ: ٱصطادت. وَأَقْصَدَتْ: أَصَابَتْ ٱلْقَصد. وَأَعْلَقَت: رَبطَتْ. وأَوْهَاقَ: جَمع وَهقَ الحبل. لاَ تُقْلِعُ: لا تُكف. والاخْتِرَام: الاسْتِئصَال، يُقَال: تَخَرمت ٱلْمَنِيَّة الْقَوْم أي ٱسْتأصلتهُم. وٱجْتَرَم. ٱرْتَكَب الجَرَائِم، وٱجْتَرَح: ٱكتسَبَ. ويَحْتَذُونَ: يَقْتَدُون. وَصَيُّورِ: مَصْيِر. وتَصَرَّمَتِ: ٱنْقَضت. وَأَزِفَ: قَرُبَ. ومُهْطِعِينَ: مُسْرِعِينَ. والرَّعِيل: ٱلقْطعة المُتقدمة من الخَيْل، أو ٱلرِّجَال، أو الطَّير، أو غَيْرِ ذَلِكَ. وٱللَّبُوسُ: ما يُلبس. والاِسْتِكَانَةِ: الخُضُوع. والكَاظِمَةُ: الكَاتِمَةُ. والهَيْنِمَة: الصَّوْت الخَفْي. وزَبْرَةِ الدَّاعِي: زَجْرَه، وٱنْتهَارَه. وَالمُقَايَضَةِ: المُعَاوَضَة، والمُبَادَلَة.

الإِعْرَاب:

ٱلدُّنْيَا ٱسم إِنَّ، ومَشْرَبُهَا مُبْتَدَأ مُؤَخَّر، ورَنِقٌ خَبَر مُقَدَّم، والجُمْلَة خَبَر إِنَّ، ومَشْرَعُهَا مُبْتَدَأ مُؤَخَّر، ورَدِغٌ خَبَر مُقَدَّم، وغُرُورٌ خَبَر مُبْتَدَأ مَحْذُوف أي هِي غُرُورٌ، وحَائِلٌ صفة غُرُورٌ، وَقَائِدَةً حَال من ٱلْمَنِيَّة، وٱخْتِرَاماً مَنْصُوب بنزع الخافض أي من ٱخْتِرَام، ومِثْله ٱجْتِرَاماً، وَمِثَالاً حَال أي مُشابهين، أو مَفْعُول مُطلق لأنّ الاحْتِذَاء يتضمن مَعْنَىٰ المُماثِلة، والمُشابهة، ومِثْله أَرْسَالاً، وسِرَاعاً مَصْدَر فِي موضع الحَال من مَفْعُول أَخْرَجَهُمْ أي مُسْرِعِينَ، ومِثْله ما بعده من المَنْصُوبات، وعَلَيْهِمْ خَبَر مُقَدَّم للبُوس.

المَعْنى:

(فَإِنَّ الدُّنْيَا رَنِقٌ مَشْرَبُهَا). أي مَشُوب بٱلكَدِرِ، وفِي خُطْبَة ثَانِيَة: «وَيَشْرَبُونَ

الرَّنْقَ »[1] أي اَلْكَدِر (رَدِغٌ مَشْرَعُهَا). الرَّدِغ كَثِير الوحل، والْمُرَاد بِهِ هُنا مصائب الدُّنْيَا، ونكباتها، والمَشْرَع مُورد الشُّرب، والقصد مِنهُ فِي هَذَا المكان المُورد الَّذي يطلب فِيهِ اَلاِنْسَان شَيْئَاً من أشياء الدُّنْيَا، وزِينَتهَا، والْمَعْنَىٰ أنّ الدُّنْيَا حُفت بالمكاره، والمخاوف (يُونِقُ مَنْظَرُهَا، وَ يُوبِقُ مَخْبَرُهَا). ظَاهرها الرَّحْمَة، وبَاطنها العذاب (غُرُورٌ حَائِلٌ) تخدع ضعاف اَلْعُقُول حَتَّىٰ إِذَا رَكنوا إِلَيْهَا تَحولت عَنْهُمْ، وغدرت بِهِمْ (وَ ضَوْءٌ آفِلٌ) كَالبرق مَا إنْ يلمع حَتَّىٰ يختفي (وَ ظِلٌّ زَائِلٌ). كلّ نَعيم فِي الدُّنْيَا إِلَىٰ اَنتهاء، وكلّ حَيّ فيها إِلَىٰ فَناء (وَ سِنَادٌ مَائِلٌ). من اَعتمد عَلَيْهِ سقط، وهوىٰ.

(حَتَّىٰ إِذَا أَنِسَ نَافِرُهَا) أي ركن إِلَيْهَا بعد أنْ نفر مِنْهَا (وَ اَطْمَأَنَّ نَاكِرُهَا). عطف تَفْسِير لأنّ الْمَعْنَىٰ أَنِسَ بها بعد أنْ تَنكر لها (قَمَصَتْ بِأَرْجُلِهَا). جواب إِذا، والْمَعْنَىٰ بعد أنْ اَطْمَأَنَ إِلَىٰ اَلْدُّنْيَا غدرت به تَمَاماً كالذي عَلا ظَهر الدَّابة، ولَكِنَّهُ اَمتنعت عن السَّير، ورفعت يديها فِي اَلْهَوَاء، وطرحتها تفعل ذَلِكَ مَرَّات، وأَطْلَق الإِمَامعليه‌السلام هُنا الأَرْجُل علىٰ الْأَيْدِي تنزيلاً لها بِمَنْزِلَةِ الأَرْجُل لأنّ الدَّابة تمشي علىٰ أربع، فأشبهت الْأَيْدِي الأَرْجُل من هَذِه النّاحية (وَ قَنَصَتْ بِأَحْبُلِهَا). اَصْطَادَت بحبالها (وَأَقْصَدَتْ بِأَسْهُمِهَا). أي أَصَابَت بها المقتل (وَ أَعْلَقَتِ الْمَرْءَ أَوْهَاقَ اَلْمَنِيَّة). رَبطَت بعُنقه حَبل المَشَقّة (قَائِدَةً لَهُ إِلَىٰ ضَنْكِ الْمَضْجَعِ) أي ضِيق اللّحد (وَ وَحْشَةِ الْمَرْجِعِ) وهو الْمَعَاد لِلْحِسَابِ، واَلْجَزَاء (وَ مُعَايَنَةِ الْمَحَلِّ، وَ ثَوَابِ الْعَمَلِ). غَداً يُشاهد اَلاِنْسَان مكانه فِي اَلْجَنَّة، أو اَلنَّار قبل أنْ يدخلها.

(١) أنظر، نهج البَلاَغَة: اَلْخُطْبَةُ (١٨٢).

وَالخُلاَصة : مَا مِن شيء فِي الدُّنْيَا يسرك إلّا وأُلصق به شيء يسؤوك.

(وَ كَذَلِكَ الْخَلَفُ بِعَقْبِ السَّلَفِ). هَذِه هِي الحَال تجري، وتطرد علىٰ الآبـاء، والأَبْنَاء (لاٰ تُقْلِعُ الْمَنِيَّةُ اخْتِرَاماً). لا تُكلف عن إهلاك النّاس، واستئصالهم (وَ لاٰ يَرْعَوِي الْبَاقُونَ اجْتِرَاماً). إنّ الخلف رَأَىٰ، أو سمع ما حلَّ بالسلف، ولَكِنَّهُ لم يتعبر، ويتعظ، بل ارتكب الجرائم تَمَامَاً كما ارتكبوا (يَحْتَذُونَ مِثَالاً). يفعل الأواخر كما يفعل الأوائل (وَ يَمْضُونَ أَرْسَالاً). يسيرون علىٰ رُسلهم فِي طريق السّابقين (إِلَىٰ غَايَةِ الإِنْتِهَاءِ، وَ صَيُّورِ الْفَنَاءِ). أي بَلغوا الْغَايَة من ارتكاب المعاصي، واستمروا عَلَيْهَا حَتَّىٰ هلكوا.

(حَتَّىٰ إِذَا تَصَرَّمَتِ الأُمُورُ) أي انقطعت الأَعْمَال فِي هَذِه الحَيَاة، وانسد بَاب التَّوْبَة حَيْث جاءت السّاعة بعلاماتها، ودلالاتها (وَ تَقَضَّتِ الدُّهُورُ). انتهىٰ عُمر الدُّنْيَا، وجاء أَجلها المقدر عند الله تَعَالَىٰ (وَ أَزِفَ النُّشُورُ). قَرُب البعث، وإعادة الأموات إِلَىٰ الحَيَاة (أَخْرَجَهُمْ ـ الله ـ مِنْ ضَرَائِحِ الْقُبُورِ) وجمع كلّ ذَرَّة من الأجساد البالية، وإِنْ استحالت إِلَىٰ تُراب، أو حيوان، أو نبات (وَ أَوْكَارِ الطُّيُورِ، وَ أَوْجِرَةِ السِّبَاعِ). الأَوْكَار، وَالأَوْجار كناية عن بُطون الطُّيُورِ، والحَيوانَات المُفترسة، والْمَعْنَىٰ أنّ الله سُبْحَانَهُ يُعيد جسم الإِنْسَان إِلَىٰ ما كَانَ حَتَّىٰ ولو كَانَ قد أكلّه الطَّير، أو الحَيَوَان، أمّا شُبْهَة الآكل، والمأكول الّتي أَطَال الكَلاَم حولها أَهْل المعقول ـ فقد أجاب سُبْحَانَهُ عَنْهَا بقَوْله: ﴿وَهُوَ عَلَىٰ جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَآءُ قَدِيرٌ﴾[1].

وتعرضنا لِهَذِه الشُّبْهَة، وملخص هَذِه الشُّبْهَة: «إِذَا أَكل الْكَافِر مؤمناً،

(١) الشُّورَىٰ: ٢٩.

وٱستحال إِلَىٰ لَحْمَه، ودَمه فإِنْ أَدخل الله الْكَافِر ٱلْـنَّار بـالنَّظرِ إِلَىٰ كُـفره تَـعذب ٱلْمُؤْمِن، وإِنْ أَدْخَلَه ٱلْجَنَّة بالنَّظَرِ إِلَىٰ إِيمَان ٱلْمُؤْمِن تَنعم الْكَافِر»[١]. وٱطلعت علىٰ أَجوبة هَذِه ٱلشُّبْهَة فِي كِتاب «الأسفار» للمُلا صدرا، وغَيْره من كُـتب الفَـلْسَفَة، والكَلاَم، وما ٱقتنعت بشيء إِلّا بقُدرة الله علىٰ كلّ شيء. ومن أجوبتهم: إِنّ فِي كلّ إِنْسَان أجزاء أصيلة لا تتغير، وَلاَ تتبدل آكلة كَانَتْ أم مأكولة، وأُخرىٰ دخـيلة تتطور، وتزول، والْمَـعَاد الأجـزاء الأصـيلة لا الدّخـيلة... وَهَـذَا الجَـوَاب، أو التَّفلسف يُعبر عن ذات صاحبه، ولَيْسَ بفَلْسَفَة تعكس الوَاقِع[٢].

(وَ مَطَارِحِ الْمَهَالِكِ) كالغرق فِي ٱلْبِحَار، أو الإحراق بٱلْنَّار، أو الْقَتْل فِي مَيدان الْقِتَال، أو مكان الإغتيال، ونحـو ذَلِكَ (سِرَاعاً إِلَىٰ أَمْرِهِ) يَستـجيبُون لدَّعْـوَة الله (مُهْطِعِينَ) مُسْرِعِين (إِلَىٰ مَعَادِهِ)، وهو الْيَوْم الَّذي أشار إِلَيْهِ سُبْحَانَهُ بقَوْله: ﴿يَوْمَ لاَيَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾[٣]. (رَعِـيلاً صُـمُوتاً) جمـاعات صامتين (قِيَاماً صُفُوفاً) قائمين صَافين (يَنْفُذُهُمُ الْبَصَرُ) أي أنّه تَـعَالَىٰ يحيط بِهِـمْ عِلْماً: ﴿يَوْمَـئِذٍ تُعْرَضُونَ لَاتَخْفَىٰ مِنكُمْ خَافِيَةٌ﴾[٤]. أي يعلم أَعْمَالَهُم، وسرائرهم فِي الدُّنْيَا، ومواقفهم فِي الآخِرَة.

(وَيُسْمِعُهُمُ الدَّاعِي). كلّ واحد يَسْمَع صـيحة البـعث لِـلْحِسَاب، وٱلْجَـزَاء،

---

(١) أُنظر، كتابه «التَّفسِير الكاشف» ما جاء فِي الآيَة (٤) من سُورَة ق، وفِي كتابه «فَلْسَفَة التَّوْحِيد والْوِلاَيَة» (مِنْهُ ﷺ).

(٢) أُنظر، شرح أُصول الكافي: ١١٩/٢ و: ٥٣٨/١٢، بحَار الأَنْوَار: ٩٥/١٠٨، تَفْسِير المِيزَان: ١٨٥/٥.

(٣) ٱلشُّعَرَاء: ٨٨ ـ ٨٩.

(٤) الحاقة: ١٨.

ويُسرع إِلَىٰ الله أَهْل السَّماء، وٱلأَرْض (عَلَيْهِمْ لَبُوسُ الاِسْتِكَانَةِ، وَ ضَرَعُ الاِسْتِسْلاَمِ وَ الذِّلَّةِ). يأتون إِلَىٰ الله أذلاء خاضعين خاشعين لا حَوْلَ لَهُمْ، وَلاَ طول إِلّا الاِسْتِسْلاَمِ لِعزة الواحد القهار (قَدْ ضَلَّتِ الْحِيَلُ، وَ ٱنْقَطَعَ الْأَمَلُ) حَيْث لا عمل آنذاك، وَلاَ خيار، وٱستغفار، وَلاَ صلات، وعلاقات... أَبَداً لا شيء إِلّا السّؤال، والأهوال، والنَّدم علىٰ ما مضىٰ، وفات، وأشقىٰ النَّاس من كَانَ قد قَصّر، وسَوّف.

(وَ هَوَتِ الْأَفْئِدَةُ كَاظِمَةً). أي أنّ ٱلْقُلُوب يَوْم ٱلْقِيَامَة تَكُون هواء، وخواء قد أَذهب الرّعب كلّ ما فيها من شعور، وإِدْرَاك، وأمل، ورجاء بالنَّجَاة، والسَّلامة، ومَع هَذَا لا يَسْتَطِيع ٱلإِنْسَان قَوْلاً، وَلاَ عَملاً إِلّا تجرع الْغَيْظ، وكتمه (وَ خَشَعَتِ الْأَصْوَاتُ مُهَيْنِمَةً) أي سكنت، وذلت متخافتة: ﴿وَخَشَعَتِ ٱلْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَٰنِ فَلَاتَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا﴾[1]. (وَ أَلْجَمَ الْعَرَقُ) لأنّه بلغ الأفواه (وَ عَظُمَ الشَّفَقُ) أي ٱلْخَوْف (وَ أُرْعِدَتِ الْأَسْمَاعُ) أَصَابَتها ٱلرَّعْدة خَوْفاً من الله تَعَالَىٰ، وأيضاً (لِزَبْرَةِ الدَّاعِي) أي صيحته (إِلَىٰ فَصْلِ الْخِطَابِ). ٱلْحِسَاب الكَامِل، والْقَضَاء الْعَادِل (وَمُقَايَضَةِ الْجَزَاءِ) أي المُبادلة بالمثل، إِنْ خيراً فخير، وإِنْ شرّاً فشرّ (وَ نَكَالِ الْعِقَابِ) لمن عصىٰ (وَ نَوَالِ الثَّوَابِ) لمن أَطاع.

وَجِلَ فَعَمِلَ...فِقْرَة ٦ ـ ٨:

عِبَادٌ مَخْلُوقُونَ ٱقْتِدَاراً! وَ مَرْبُوبُونَ ٱقْتِسَاراً، وَ مَقْبُوضُونَ ٱحْتِضَاراً، وَمُضَمَّنُونَ أَجْدَاثاً، وَكَائِنُونَ رُفَاتاً، وَ مَبْعُوثُونَ أَفْرَاداً، وَ مَدِينُونَ جَزَاءً، وَمُمَيَّزُونَ

(١) طه: ١٠٨.

حِسَاباً. قَدْ أُمْهِلُوا فِي طَلَبِ الْمَخْرَجِ، وَ هُدُوا سَبِيلَ الْمَنْهَجِ، وَ عُمِّرُوا مَهَلَ الْمُسْتَعْتِبِ، وَ كُشِفَتْ عَنْهُمْ سُدَفُ الرِّيَبِ، وَ خُلُّوا لِمِضْمَارِ الْجِيَادِ، وَ رَوِيَّةِ الارْتِيَادِ، وَ أَنَاةِ الْمُقْتَبِسِ الْمُرْتَادِ، فِي مُدَّةِ الأَجَلِ، وَ مُضْطَرَبِ الْمَهَلِ(٦).

فَيَا لَهَا أَمْثَالاً صَائِبَةً، وَ مَوَاعِظَ شَافِيَةً، لَوْ صَادَفَتْ قُلُوباً زَاكِيَةً، وَ أَسْمَاعاً وَاعِيَةً، وَ آرَاءً عَازِمَةً، وَ أَلْبَاباً حَازِمَةً! فَاتَّقُوا اللهَ تَقِيَّةَ مَنْ سَمِعَ فَخَشَعَ، وَ اقْتَرَفَ فَاعْتَرَفَ، وَ وَجِلَ فَعَمِلَ، وَ حَاذَرَ فَبَادَرَ، وَ أَيْقَنَ فَأَحْسَنَ، وَ عُبِّرَ فَاعْتَبَرَ، وَ حُذِّرَ فَحَذِرَ، وَ زُجِرَ فَازْدَجَرَ، وَ أَجَابَ فَأَنَابَ، وَ رَاجَعَ فَتَابَ، وَ اقْتَدَى فَاحْتَذَى، وَ أُرِيَ فَرَأَى(٧)، فَأَسْرَعَ طَالِباً، وَ نَجَا هَارِباً، فَأَفَادَ ذَخِيرَةً، وَ أَطَابَ سَرِيرَةً، وَ عَمَّرَ مَعَاداً، وَ اسْتَظْهَرَ زَاداً، لِيَوْمِ رَحِيلِهِ، وَ وَجْهِ سَبِيلِهِ، وَ حَالِ حَاجَتِهِ، وَ مَوْطِنِ فَاقَتِهِ، وَقَدَّمَ أَمَامَهُ لِدَارِ مُقَامِهِ. فَاتَّقُوا اللهَ عِبَادَ اللهِ جِهَةَ مَا خَلَقَكُمْ لَهُ، وَ احْذَرُوا مِنْهُ كُنْهَ مَا حَذَّرَكُمْ مِنْ نَفْسِهِ، وَ اسْتَحِقُّوا مِنْهُ مَا أَعَدَّ لَكُمْ بِالتَّنَجُّزِ لِصِدْقِ مِيعَادِهِ، وَ الْحَذَرِ مِنْ هَوْلِ مَعَادِهِ(٨).

اللُّغَة:

مَرْبُوبُونَ: مَمْلُوكُونَ. اقْتِسَاراً: قَسْراً، وَقَهْراً. والاِحْتِضَار: حضُور الْمَوْت. والأَجْدَاث: القُبُور. والرُّفَات: الحُطَام. والْمَخْرَج: طَريق الخَلاص. والْمَنْهَج: الطَّرِيق الْوَاضِح. والْمَهَل: الإمْهَال. والْمُسْتَعْتِب: طَالب العتبىٰ أي الرِّضا، وعَلَيْهِ فمعنىٰ الْمُسْتَعْتِبِ الْمُسْتَرْضِي. وسُدَفُ ـ بضم السِّين ـ جمع سَدْفَة بفتحها، وَهِي الظُّلمة. والرِّيَب ـ بفتح الياء ـ جَمع رِيبَة أي الشَّك، والتُّهمة. والمِضْمَار: المكان، أو الزَّمان الَّذي تُضَمَّر فِيهِ الخَيْل. وَالرَّوِيَّة: إعْمَال الْفِكْر. والارْتِيَاد: طَلَب ما يُراد. وَالمُضْطَرَب: مكان، أو زمان الحركة، وَاقْتَرَفَ: اكْتَسَبَ. وَعُبِّرَ أي أراه الواعظ،

أو أَسْمَعه العِبر. وَٱسْتَظْهَرَ علىٰ فُلاَن: غَلبَه، وَٱسْتَظْهَرَ ٱلْقُرْآن: حفظه، وَٱسْتَظْهَرَ الزَّاد: أَعده. والْمُرَاد بالكُنْه هُنا الْغَايَة. والْمَعَاد: من الأعَادة، والْمُرَاد بِهِ هُنا الآخِرَة، والمِيعَاد من الْوَعْد.

الإِعْرَاب:

عِبَادٌ أي أَنْتُمْ عِبَادٌ، ومَخْلُوقُونَ صفة، وقيل: ٱقْتِدَاراً! وٱقْتِسَاراً مَنْصُوبان علىٰ التَّمْيِيز، والصّحيح أنّهما: مَفْعُول مُطلق مبينان للنوع، مثل سِرتُ حَسناً، أي أَنْتُمْ مَخْلُوقُونَ بقُدرة الله لا صدفة، وَمَمْلُوكون قسراً لا ٱختياراً، وقيل: إنّ ٱحْتِضَاراً حَال، وَهٰذَا جائز أي مَقْبُوضُونَ مُحْتَضرِين، ويجوز أيضاً أنْ يَكُون مفعولاً مُطلقاً، لأنّ القبض يتضمن مَعْنَىٰ الاِحْتِضَار أي حضُور ٱلْمَوْت، وأَجْدَاثاً مَفْعُول فِيهِ أي فِي الأَجْدَاث، ورُفَاتاً مَنْصُوب بـ«كَائِنُونَ» أي يصيرون رُفَاتاً، وأَفْرَاداً حَال، وجَزَاءً مَفْعُول مُطلق لأنّ «مَدِينُونَ» بِمَعْنَىٰ مُجَازِين، وَقَالَ بَعْض الشَّارِحِين: إنّ حِسَاباً مَفْعُول مُطلق، ورد عَلَيْهِ شارح آخر بِقَوْله: «بل هو مَنْصُوب بنزع الخَافض! والصّحيح أنّه مَفْعُول من أَجله، أي أَنْتُمْ مُمَيَّزُونَ غداً من أَجل ٱلْحِسَاب، وأَصل وَعُمِّرُوا مَهَلَ الْمُسْتَعْتِبِ عُمِّرُوا مُدَّةً مثل مُدَّةِ إمْهَال الْمُسْتَعْتِبِ، ثُمّ حذف المضاف إِلَيْهِ، وأُقيم الْمُضَاف مقامه، وٱنتصب ٱنتصابه، فَيَا لَهَا «يَا» حرف نداء، والمُنَادىٰ مَحْذُوف أي يا قَوْم، واللاَّم فِي «لَهَا» للتعجب، وأَمْثَالاً تَمْيِيز مبين لضمير «لَهَا» وَصَائِبَةً صفة، وطَالِباً حَال، ومِثْله هَارِباً، وجِهَةَ ظرف مُتَعَلِّق بِمَحْذُوف حالاً من (واو) ٱتَّقُوا أي متوجهين إلىٰ الجهة، أو النّاحية الّتي خُلقْتُم لها، وبِالتَّنَجُّزِ مُتَعَلِّق بٱسْتَحِقُّوا.

الْمَعْنىٰ:

(عِبَادٌ مَخْلُوقُونَ ٱقْتِدَاراً! وَ مَرْبُوبُونَ ـ أي مملوكون ـ ٱقْتِسَاراً). الكَوْن بِمَا فِـيهِ فيض من قُدرته تَعَالىٰ، وفِي مِلكه، وسُلطانه قَسْراً، وقَهْراً عن المملوك، لأنّ مـن ملك الإختيار لا يَكُون رِقاً مُستعبداً (وَ مَقْبُوضُونَ ٱحْتِضَاراً) إنّ الله سُبْحَانَهُ يقبض كلّ حَي بحضور ٱلْمَوْت (وَمُضَمَّنُونَ أَجْدَاثاً) ويَا لَهَا من حُفرة موحشة (وَكَائِنُونَ رُفَاتاً) تُراباً، وعظاماً (وَمَبْعُوثُونَ أَفْرَاداً) بلا مـالٍ، وَلاَ نـاصرٍ: ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَٰدَىٰ كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَٰكُمْ وَرَآءَ ظُهُورِكُمْ وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَٰٓؤُاْ لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنكُم مَّا كُنتُمْ تَزْعُمُونَ﴾[1]. (وَ مَدِينُونَ جَزَاءً) حسب ما كنتم تَعملون، وفِي خُطْبَة ثَانِيَة: «وَكَمَا تَدِينُ تُدَانُ، وَكَمَا تَزْرَعُ تَحْصُدُ، وَمَا قَدَّمْتَ ٱلْيَوْمَ تَقْدَمُ عَلَيْهِ غَداً»[2] (وَمُمَيَّزُونَ حِسَاباً) يُميّز الله الْعِبَاد يَوْم ٱلْقِيَامَة بَعْضهُم عن بَعْض من أجل ٱلْحِسَاب كلاً علىٰ حدة، أو أنّ الْخَبِيث يتميز عن ٱلطَّيِّب بعد ٱلْحِسَاب.

(قَدْ أُمْهِلُوا فِي طَلَبِ الْمَخْرَجِ). الله عادل، ورحيم، ومن عدله أنْ لا يُعذب أحداً حَتَّىٰ يُقيم الحجّة عَلَيْهِ بالْبَيَان مِنْهُ تَعَالىٰ، والعصيان من العبد، ومن رحمته، جلت حِكْمَته، أنْ يُمهل العَاصي فِي دار ٱلدُّنْيَا، ويفتح له بَاب ٱلتَّوْبَة من الذّنب، والخلاص من العذاب، فإنْ تاب وأناب غفر له، وإنْ أصر وٱستمر فِي التَّقْصِيرِ، والإهمال ٱستحق العقاب بإرادته، وسُوء ٱختياره (وَ هُدُوا سَبِيلَ الْمَنْهَجِ). أَرشد سُبْحَانَهُ عِبَادِهِ إِلَىٰ الطَّرِيق الْوَاضِح للـخلاص، والنَّجَاة بِمَا منحهم من إِدْرَاكٍ،

(١) ٱلأَنْعَام: ٩٤.
(٢) أُنظر، نَهج البَلاَغَة: ٱلخُطبَة (١٥٣).

وقُدرةٍ، وإرَادَةٍ، وبِمَا أرسلَ من رُسلٍ، وأنزل من كُتبٍ.

(وَ عُمِّرُوا مَهَلَ الْمُسْتَعْتِبِ). بعد أنْ هداهم سُبْحَانَهُ، وأقدرهم أَعْطَاهُم من الْعُمُرِ ما لا عُذر لَهُمْ معه إنْ قصروا، وأهملوا، لقد أَمهلهم أمداً يتسع للتوبة، وطلب الْمَغْفِرَة تَمَامَاً كما يجد أحدهم الوقت الكافِي لطلب الرِّضا مِمَّنْ يبتغي مَرْضَاتِه، والقرب مِنْهُ (وَ كُشِفَتْ عَنْهُمْ سُدَفُ الرِّيَبِ) عطف تَفْسِيرٍ علىٰ قَوْله: (وَهُدُوا سَبِيلَ الْمَنْهَجِ) لأنّ الْهِدَايَة إِلَىٰ الطَّرِيق الْوَاضِح، والكشف عن ظلمة الشّك، والْجَهْل بمعنىً واحد (وَخُلُّوا لِمِضْمَارِ الْجِيَادِ) وَهِي الخَيْل، والْمَعْنَىٰ أنّه تَعَالَىٰ أفسح المجال فِي الدُّنْيَا لعِبَادِه ـ كما يُفسح المِضْمَار للخيل ـ كِي يستبقوا الْخَيْرَات قبل المَمَات (وَ رَوِيَّةِ الارْتِيَادِ). وأيضاً أَفسح لَهُمْ المجال كِي يفكروا، ويَتَدَبَّروا فيما يَنْبَغِي أنْ يطلب، ويُراد، وهو الخلاص من العقاب، والعذاب (وَ أَنَاةِ الْمُقْتَبِسِ الْمُرْتَادِ، فِي مُدَّةِ الْأَجَلِ، وَ مُضْطَرَبِ الْمَهَلِ). قَالَ الشَّيخ مُحَمَّد عَبْدَه: «الْمُقْتَبِسِ الْمُرْتَادِ أي الَّذي أخذه بيده مصباحاً ليرتاد علىٰ ضوئه شَيْئَاً غاب عَنْه، ومثل هَذَا يتأنىٰ فِي حركته خَوْف أنْ يطفأ مصباحه، وخشية أنْ يفوته فِي بَعْض خطواته ما يفتش عَلَيْهِ لو أَسرع، فلذا ضرب المثل بِهِ. والمُضْطَرَب مُدَّة الاِضْطِرَاب أي الحركة فِي الْعَمَل»[1].

(فَيَا لَهَا أَمْثَالاً صَائِبَةً، وَ مَوَاعِظَ شَافِيَةً، لَوْ صَادَفَتْ قُلُوباً زَاكِيَةً، وَ أَسْمَاعاً وَاعِيَةً، وَ آرَاءً عَازِمَةً). يَقُول الْإِمَامُ عليه السلام: بَثَثْتُ لَكُمْ مِنَ الْمَوَاعِظَ ما لَوْ صَادَفَتْ قُلُوباً طَيِّبَةً لآتَتْ أُكُلَهَا الْطَّيِّب فِي كُلّ حِين، ومن البداهة أنّ البذر الصّالح لا يجدي

(١) أنظر، شرح النّهج: ١/١٣٧.

شَيْئاً إِذَا زرع فِي أرض خبيثة: ﴿وَٱلْبَلَدُ ٱلطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُۥ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ وَٱلَّذِى خَبُثَ لَايَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا كَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلْأَيَٰتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ﴾[1]. وَقَالَ الإِمَام فِي خُطْبَةٍ ثَانِيَة: «إِنِّي قَدْ بَثَثْتُ لَكُمُ الْمَوَاعِظَ الَّتِي وَعَظَ الأَنْبِيَاء بِهَا أُمَمَهُمْ، وَأَدَّيْتُ إِلَيْكُمْ مَا أَدَّتِ الأَوْصِيَاءُ إِلَىٰ مَنْ بَعْدَهُمْ، وَأَدَّبْتُكُمْ بِسَوْطِي فَلَمْ تَسْتَقِيمُوا»[2].

(فَٱتَّقُوا اللهَ تَقِيَّةَ مَنْ سَمِعَ ـ ٱلْمَوْعِظَة ـ فَخَشَعَ) لله وحده، أمّا مَن يَخْشَع، ويَخضع لعبدٍ مِثْله فَهُوَ ذَلِيل، وَحَقِير، ومُجرم آثم (وَ ٱقْتَرَفَ فَٱعْتَرَفَ). ٱكتسب إثماً فندم، وتاب (وَ وَجِلَ فَعَمِلَ) لأنّ من خاف من شيء ظهر خَوْفه فِي عمله (وَ حَاذَرَ فَبَادَرَ) عطف تَفْسِير علىٰ وَجِلَ فَعَمِلَ (وَ أَيْقَنَ فَأَحْسَنَ) أي فهم ٱلْحَقّ، والدِّين علىٰ وجهه، وأَحسن فِي ٱلعَمَلِ بِهِ (وَ عُبِّرَ فَٱعْتَبَرَ، وَحُذِّرَ فَحَذِرَ، وَ زُجِرَ فَٱزْدَجَرَ، وَأَجَابَ فَأَنَابَ، وَ رَاجَعَ فَتَابَ، وَ ٱقْتَدَىٰ فَٱحْتَذَىٰ، وَ أُرِيَ فَرَأَىٰ). هَٰذِه الجُمل السَّبع ترجع كلّها إِلَىٰ معنىً واحد، وهو وُعظ فٱتعظ، وكما يَكُون الوعظ بآية، أو رواية، أو حِكمة يَكُون أيضاً بالتَّجارِب، بل هِي أَنفع، وأَبلغ، ومن لا يَنْتَفع بها فَهُوَ مُجرم أَصيل، أو قَاصِر عَليل.

(فَأَسْرَعَ طَالِباً، وَ نَجَا هَارِباً). هَرِبَ من المُحَرَّمات، وسَارع إِلَىٰ الواجبات، فَنَجَا وَسَلِم (فَأَفَادَ ذَخِيرَةً) ليوم تُبلىٰ فِيهِ ٱلسَّرَائِر، وتَذْخَر فِيهِ الذَّخَائِر (وَ أَطَابَ سَرِيرَةً) بُحسن النِّيَّة، وسَلاَمَة القَصْد (وَ عَمَّرَ مَعَاداً، وَٱسْتَظْهَرَ زَاداً، لِيَوْمِ رَحِيلِهِ، وَ وَجْهِ سَبِيلِهِ، وَ حَالِ حَاجَتِهِ، وَ مَوْطِنِ فَاقَتِهِ، وَقَدَّمَ أَمَامَهُ لِدَارِ مُقَامِهِ). أي تزود بٱلْعَمَل الصّالح ليوم الفزع الأَكْبَر، فَهُوَ وَجه ٱلسَّبيل، وإِلَيْهِ الرَّحيل، والإقامة فِيهِ دائمة، ولاَ

(١) ٱلْأَعْرَافِ: ٥٨.
(٢) أُنظر، نَهج البَلاَغَة: ٱلْخُطْبَة (١٨٢).

يسد فاقته إلّا زاد ٱلتَّقْوَىٰ (فَٱتَّقُوا اللهَ عِبَادَ اللهِ جِهَةَ مَا خَلَقَكُمْ لَهُ) . خلق الله الْـعِبَاد لحيَاة أفضل، وَلاَ تَكُون وَلَنْ تَكُون هَذِه ٱلْحيَاة إلّا لِمَن جَاهد، وأَخلص.

(وَ ٱحْذَرُوا مِنْهُ كُنْهَ مَا حَذَّرَكُمْ مِنْ نَفْسِهِ) . ٱحترزوا من مَعْصِيَة الله، وٱبتعدوا عَنْهَا، وأطيعوه فِي أَمْرِه، ونَهيه حَتَّىٰ تبلغوا الْغَايَة من طاعته... وقد حذر سُبْحَانَهُ العُصاة، وهددهم بعذابه حَيْث قَالَ: ﴿وَإِيَّـٰىَ فَٱرْهَبُونِ﴾[1]. وَقَالَ: ﴿وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُۥ يُدْخِلْهُ نَارًا خَـٰلِدًا فِيهَا وَلَهُۥ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾[2]. وتَـقَدَّم مِـثْله[3]. (وَ ٱسْتَحِقُّوا مِنْهُ مَا أَعَدَّ لَكُمْ بِالتَّنَجُّزِ لِصِدْقِ مِيعَادِهِ، وَ ٱلْحَذَرِ مِـنْ هَـوْلِ مَعَادِهِ) . يَسْتحق الْعِبَاد من خالقهم حُسن الثَّوَاب شريطة أنْ يَـصدقوه فِي وعـده فعلاً، وقَوْلاً، وقد أشار إِلَىٰ هَذَا الْوَعْد بـقَوْله: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ﴾[4] أمّا من كذّب، وتَوَلَّىٰ فقد تـوعده بـقَوْله: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَـٰفِقِينَ وَٱلْمُنَـٰفِقَـٰتِ وَٱلْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَـٰلِدِينَ فِيهَا هِىَ حَسْبُهُمْ وَلَعَنَهُمُ ٱللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾[5].

ٱلْقُلُوبُ قَاسِيَةٌ لاهِيَةٌ...فِقْرَة ٩ ـ ١٣:

جَعَلَ لَكُمْ أَسْمَاعاً لِتَعِيَ مَا عَنَاهَا، وَ أَبْصاراً لِتَجْلُوَ عَنْ عَشَاهَا، وَ أَشْلاَءً جَـامِعَةً

(١) ٱلْبَقَرَة: ٤٠.
(٢) ٱلنِّسَاء: ١٤.
(٣) أنظر، ٱلخُطْبَةُ: (٢٣) فِقْرَة (٢). (مِنْهُ ﷺ).
(٤) ٱلْمَائِدَة: ٩.
(٥) ٱلتَّوْبَة: ٦٨.

لِأَعْضَائِهَا، مُلاَئِمَةً لِأَحْنَائِهَا، فِي تَرْكِيبِ صُوَرِهَا، وَ مُدَدِ عُمُرِهَا، بِـأَبْدَانٍ قَـائِمَةٍ بِأَرْفَاقِهَا، وَ قُلُوبٍ رَائِدَةٍ لِأَرْزَاقِهَا، فِي مُجَلِّلاَتِ نِعَمِهِ، وَ مُوجِبَاتِ مِنَنِهِ، وَ حَوَاجِزِ عَافِيَتِهِ(٩). وَ قَدَّرَ لَكُمْ أَعْمَاراً سَتَرَهَا عَنْكُمْ، وَ خَلَّفَ لَكُمْ عِبَراً مِنْ آثَـارِ الْـمَاضِينَ قَبْلَكُمْ، مِنْ مُسْتَمْتَعِ خَلاَقِهِمْ، وَ مُسْتَفْسَحِ خَنَاقِهِمْ. أَرْهَقَتْهُمُ الْمَنَايَا دُونَ الْآمَـالِ، وَشَذَّبَهُمْ عَنْهَا تَخَرُّمُ الْآجَالِ. لَمْ يَمْهَدُوا فِي سَلاَمَةِ الْأَبْدَانِ، وَ لَمْ يَعْتَبِرُوا فِي أُنُفِ الْأَوَانِ(١٠). فَهَلْ يَنْتَظِرُ أَهْلُ بَضَاضَةِ الشَّبَابِ إِلاَّ حَوَانِيَ الْـهَرَمِ؟ وَ أَهْـلُ غَـضَارَةِ الصِّحَّةِ إِلاَّ نَوَازِلَ السَّقَمِ؟ وَ أَهْلُ مُدَّةِ الْبَقَاءِ إِلاَّ آوِنَةَ الْـفَنَاءِ؟ مَـعَ قُـرْبِ الزِّيَـالِ، وَأُزُوفِ الاِنْتِقَالِ، وَ عَلَزِ الْقَلَقِ، وَ أَلَـمِ الْـمَضَضِ، وَ غُـصَصِ الْـجَرَضِ، وَ تَـلَفُّتِ الاِسْتِغَاثَةِ بِنُصْرَةِ الْـحَفَدَةِ، وَ الْأَقْـرِبَاءِ، وَ الْأَعِـزَّةِ، وَ الْـقُرَنَاءِ(١١)! فَـهَلْ دَفَـعَتِ الْأَقَارِبُ، أَوْ نَفَعَتِ النَّوَاحِبُ، وَ قَدْ غُودِرَ فِي مَحَلَّةِ الْأَمْوَاتِ رَهِيناً، وَ فِـي ضِـيقِ الْمَضْجَعِ وَحِيداً، قَدْ هَتَكَتِ الْهَوَامُّ جِـلْدَتَهُ، وَ أَبْـلَتِ النَّـوَاهِكُ جِـدَّتَهُ، وَ عَـفَتِ الْعَوَاصِفُ آثَارَهُ، وَ مَحَا الْحَدَثَانُ مَعَالِمَهُ، وَ صَارَتِ الْأَجْسَادُ شَحِبَةً بَعْدَ بَضَّتِهَا، وَ الْعِظَامُ نَخِرَةً بَعْدَ قُوَّتِهَا، وَ الْأَرْوَاحُ مُرْتَهَنَةً بِثِقَلِ أَعْبَائِهَا، مُوقِنَةً بِغَيْبِ أَنْـبَائِهَا، لاَ تُسْتَزَادُ مِنْ صَالِحِ عَمَلِهَا، وَ لاَ تُسْتَعْتَبُ مِنْ سَيِّئِ زَلَلِهَا(١٢)! أَ وَ لَسْتُمْ أَبْنَاءَ الْقَوْمِ وَ الْآبَاءَ، وَإِخْوَانَهُمْ، وَ الْأَقْرِبَاءَ؟ تَحْتَذُونَ أَمْثِلَتَهُمْ، وَ تَرْكَـبُونَ قِـدَّتَهُمْ، وَتَـطَئُونَ جَادَّتَهُمْ؟! فَالْقُلُوبُ قَاسِيَةٌ عَنْ حَـظِّهَا، لاَهِـيَةٌ عَـنْ رُشْـدِهَا، سَـالِكَةٌ فِـي غَـيْرِ مِضْمَارِهَا! كَأَنَّ الْمَعْنَى سِوَاهَا، وَكَأَنَّ الرُّشْدَ فِي إِحْرَازِ دُنْيَاهَا(١٣).

اللُّغَة:

جَلاَ ٱلمرآة صَقلها، وَجَلا عن الْأَمْر أوضحه، وأزال عَنْه الشّك، والرّيب، وعن

الْبَلَدِ فارقه، وَهَذَا الْمَعْنَىٰ هو الْمُرَاد من قَوْله: لِتَجْلُوَ عَنْ عَشَاهَا أي عَن عَمَاهَا. والأَشْلاَء: جَمع الشّلو ـ بكسر الشّين ـ وهو العُضْو، والْمُرَاد بِهِ هُنا الجَسد. والأَحْنَاءِ: جمع حِنْو ـ بكسر الحاء ـ وهو كلّ ما آعوجّ من البَدن، وقيل: يجوز فتح الحاء. والأَرْفَاقِ: جَمع الرِّفْق أي اللّطف اللّين، ولكن الْمُرَاد بها هُنا الأعضاء الّتي يستعان بها علىٰ قضاء ٱلْحَاجَة. والرَّائِدَة: الهَادية، لأنّ الرَّائد يهدي أَهله إِلىٰ طَريق السَّلامة. ومُجَلِّلاَتِ: من جَلّلَ الشّيء أي عَمّ، ويُقَال: جَلّلَ الْمَطَر ٱلأَرْض إِذَا عَمّها وطبقها. والخَلاَقِ: النَّصيب، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَلَقَدْ عَلِمُواْ لَمَنِ ٱشْتَرَىٰهُ مَا لَهُۥ فِى ٱلْأَخِرَةِ مِنْ خَلَٰقٍ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْاْ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ﴾[1]. وٱلْخَنَاقِ: ما يَخنق بِهِ من حبله، ونَحْوَه. وأَرْهَقَتْهُمْ: أَعْجَلَتْهُمْ. وَشَذَّبَهُمْ: فَرَّقهُمْ. وأُنُفِ ـ بضم الأَلف والنّون ـ أُوّل، والبَضَاضَةِ: الرِّقة، والنّعُومَة، والْمُرَاد بِهَا هُنا ٱلْقُوَّة، والنَّشاط. والحَوَانِيَ: جَمع الحَنْو ـ بفتح الحاء وسكون النّون ـ ضد الإِسْتِقَامَة. والغَضَارَةِ: طيب العيش، وسعته. آونَةَ: أَزمنة، والمفرد أَوان مثل أَزمنة، وزمان. والزّيَالِ: الفراق. وَالأُزُوفِ: القُرب. وَعَلِزَ: آضطرب، أو هلع، أو آرتعد. وجَرَض بَريقه: آبتلعه علىٰ هَمٍّ. وهَتَكَتِ: قَطَعَت. وٱلْهَوَامُّ: كلّ ذي سَم قاتل كالحيات، وما إِلَيْهَا. وَٱلْحَدَثَانُ: ٱلنَّوائب. وٱلمَعَالِمِ: الآثَار الّتي يُستدل بها. وشَجِبَةً: هَازلة هالِكَة. ونَخِرَةً بَالية. والأَعْبَاءِ: الأثْقَال. القِدَّة ـ بِتَشدِيد الدَّال ـ الطَّريقة.

الإِعْرَاب:

وَأَشْلاَءً عطف علىٰ «أَسْمَاعاً» وجَامِعَةً صفة لها، ومُلاَئِمَةً حَال من الأَعْضَاءِ، وفِي

---

(١) ٱلْبَقَرَة: ١٠٢.

مُجَلِّلاَتِ مُتَعَلِّق بمَحْذُوف حالاً من الخِطَاب فِي «لَكُمْ» أي كَائنِين فِي مُجَلِّلاَتِ نِعَمِهِ، ورَهِيناً حَال من ضَمِير غُودِرَ، ومِثْله وَجِيداً، فَالْقُلُوبُ مُبْتَدأ، وقَاسِيَةٌ ولاَهِيَةٌ وسَالِكَةٌ أَخْبَار لَهُ.

الْمَعْنَىٰ:

أَشار الْإِمَامُ ﷺ هُنا إِلَىٰ طَرَف من نِعَم الله علىٰ عِبَادِهِ الّتي لا يبلغها الْإِحْصَاء، ومِنْهَا (جَعَلَ لَكُمْ أَسْمَاعاً لِتَعِيَ مَا عَنَاهَا، وَ أَبْصَاراً لِتَجْلُوَ عَنْ عَشَاهَا). أي مِمَّا عَمي عنهُ غَيْرُ أُولي الْأَبْصَار... ومن البداهة أنّ ٱلسَّمْعَ، والْبَصَر طريقان للعِلم، وٱلفَهم، وقد عبّر بهما سُبْحَانَهُ عن علمه حَيْثُ قَالَ: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَيْءٌ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾[1] أي العَالم بكلِّ شيء، كما وصف عظمت كلمته، ٱلجَاهليين، وٱلْمُعَانِدِين بِٱلصُّمِّ، ٱلْبُكْم، ٱلْعُمْىَ. وقدم الْإِمَام ٱلسَّمْع علىٰ الْبَصَر فِي الذِّكر تبعاً لِلْقُرْآن ٱلْكَرِيم حَيْث ذكر ٱلسَّمْع أوّلاً فِي العَدِيد من الْآيَات، مِنْهَا آية ٱلسَّمِيع العَلِيم، ومِنْهَا: ﴿وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَـٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾[2].

وقرأتُ نقلاً عن عُلَمَاء التَّشريح: أنّ جهاز ٱلسَّمْع أرهف، وأدق من جهار الْبَصَر، فَهُوَ يُدرك المجردات كالْمُوسِيقَىٰ، وتداخل النّغمات، وأنّ الولد قد يَتُوهُ عن عين أُمّه فِي الحزام، وَلاَ يَتُوهُ عن سَمعهَا... وكلّنا يعلم أنّ علم التَّشريح لَم يصل عند نزول ٱلْقُرْآن إِلَىٰ ما وَصل إِلَيْهِ الْيَوْم، ومَع ذَلِكَ يذكر ٱلْقُرْآن ٱلسَّمْع مُقدماً علىٰ الْبَصَر فِي أَكْثَر من سبعة عشر موضعاً... فمن أين جاء مُحَمَّدٌ ﷺ بِهَذَا العِلْم إنْ لم

(١) ٱلشُّورَىٰ: ١١.

(٢) ٱلنَّحْلِ: ٧٨.

يَكُنْ من عند الله ؟ وبِهَذِه المناسبة نشير إِلَىٰ أنّ الغالب أنْ يذهب ٱلسَّمْع ويضعف عند الكِبر قبل ذهاب الْبَصَر ، أو ضَعفه .

هَل أَعْضَاء ٱلإِنْسَان تَعْقِلُ؟

(وَ أَشْلاَءً جَامِعَةً لِأَعْضَائِهَا ، مُلاَئِمَةً لِأَحْنَائِهَا ، فِي تَرْكِيبِ صُوَرِهَا ، وَ مُدَدِ عُمُرِهَا ، بِأَبْدَانٍ قَائِمَةٍ بِأَرْفَاقِهَا ، وَ قُلُوبٍ رَائِدَةٍ لِأَرْزَاقِهَا ، فِي مُجَلِّلاَتِ نِعَمِهِ ، وَ مُوجِبَاتِ مِنَنِهِ ، وَ حَوَاجِزِ عَافِيَتِهِ) مُلاَئِمَةً لِأَحْنَائِهَا أي أنّ إِنْحِنَاء كلّ عُضْو يُناسب وظيفته ، وقَائِمَةٍ بِأَرْفَاقِهَا : بِأَعْمَالِهَا ، وَوَظَائِفهَا ، ورَائِدَةٍ لِأَرْزَاقِهَا : تَهدي إِلَىٰ طَرِيق ٱلرِّزْق ، وفِي مُجَلِّلاَتِ نِعَمِهِ : أَنْتُمْ غَارقون فِي نِعَم الله ، وَحَوَاجِزِ عَافِيَتِهِ : مَنحكم الله العَافِيَة الّتي تَحجز ، وتَدفع عَنْكُمْ الكَثِير من المتَاعِب ، والآلاَم ، والْمَعْنَىٰ الجَامِع لذلك كلّه أنّه من عظيم نِعَم الله علىٰ ٱلإِنْسَان ، وعجيب حِكْمَته أنْ يتكون جسمه من أَعْضَاء تقوم بأعمالها ، ووظائفها بيسر ، وسهولة بحيث لو كَانَ العُضْو علىٰ غَيْرِ الكَيْفِيَّة الّتي هو عَلَيْهَا ، أو فِي غَيْرِ المكان الّذي هو فِيهِ ـ لتعذر الانْتفَاع بِهِ علىٰ الوجه المطلوب .

وأغرب ما قرأت فِي هَذَا البَاب أنّ مُتخصصاً بِعلم وظائف الأعْضَاء ، ٱسمه الدّكتور «ٱليكسيس كاربل» ، قَالَ فِي كتابه «ٱلإِنْسَان ذَلِكَ المجهول» : إنّ كلّ عُضْو من جسم ٱلإِنْسَان هو بالذات يعقل ، ويدرك ما يُطلب مِنْهُ فِي الحَاضِر ، والْمُسْتَقْبَل ، ويعمل فِي ضوء مَعْرِفَته هَذِه لصالح الجسم ، ويُدرك الجسم كلّ ما هو قَرِيب ، وبعيد ،

وكلّ ما هو آني، ومقبل فيما يختص بِهِ، ويعود عَلَيْهِ بِالنَّفْع[(١)].

ونَحْنُ لا نشك فِي أنّ الأعْضَاء لا تُدرك شَيْئَاً... ولكن كلّ نظام متناسق، ومستمر لا يُمكن أنْ يحدث إلاّ عن قصد حَكيم، وكلّ قصد لا بد أنْ يهدف إِلَىٰ غَايَة، ويسمىٰ هَذَا عند الفَلاَسفَة «بقانون الغَائِية». ومن البداهة أنّ الأعْضَاء وسيلة لا غَايَة. وإِذَنْ فالعَالم القاصد الحكيم هو الَّذي خلق الأعْضَاء، وسواها، وجَعَلها وَسَائِل إِلَىٰ مصلحة ٱلإِنْسَان، وأغراضه.

(وَ قَدَّرَ لَكُمْ أَعْمَاراً سَتَرَهَا عَنْكُمْ). لحَيَاة ٱلإِنْسَان، أَجل يسدد ٱلْحِسَاب عند حلوله، ولكن متىٰ، وأين يحل، ويجب؟ ذَلِكَ فِي عِلم الله وحده: ﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ كِتَـٰبًا مُّؤَجَّلًا﴾[(٢)]. (وَ خَلَّفَ لَكُمْ عِبَراً مِنْ آثَارِ الْمَاضِينَ قَبْلَكُمْ). جَعَل سُبْحَانَهُ لَكُم مِنْ آثَارِ الأَوَّلِين تَبصرةً، ومُزْدَجراً عن مَعْصِيَته إِنْ كُنتم تَعْقِلُون، ثم أشار الإِمَام إِلَىٰ بَعْض تِلْكَ الآثَار بقَوْله: (مِنْ مُسْتَمْتَعِ خَلاَقِهِمْ، وَمُسْتَفْسَحِ خَنَاقِهِمْ). مُسْتَمْتَع بفتح التَّاء ٱسم مَفْعُول، ومِثْله مُسْتَفْسَح، والْمَعْنَىٰ أَنّ الله قد أفسح للماضين، وأمدّ فِي حياتهم، ولم يأخذ ٱلْمَوْت بِخْنَاقِهِم حَتَّىٰ ٱستوفوا نصيبهم من مُتع ٱلْحَيَاة، وزِينَتها.

(أَرْهَقَتْهُمُ الْمَنَايَا دُونَ الآمَالِ، وَشَذَّبَهُمْ عَنْهَا تَخَرُّمُ الآجَالِ). لم يكتفوا بِمَا قَالُوا من مُتع ٱلْحَيَاة، بل كَانَتْ لَهُمْ آمال طوال عراض، ولكن ٱلْمَوْت بدّد شملهم، وأعجلهم قبل أنْ يبلغوا ماكَانُوا يطمحون إِلَيْهِ، ولم يبقْ مِنْهُم إلاّ الآثار لتَكُون عبرة لمن ٱعتبر (لَمْ يَمْهَدُوا فِي سَلاَمَةِ الأَبْدَانِ). أي لم يستعدوا، ويتزودوا فِي دار ٱلدُّنْيَا

---

(١) أُنظر، كتاب كَيْفَ يحيا ٱلإِنْسَان للفيلسوف الصِّيني «لين يوتانج»: ٦١ طَبْعَة سَنَة ١٩٦٧م.

(٢) آلِ عِمْرَانَ: ١٤٥.

ـ وهم فِي تمام الصّحة، وكمال العافية ـ ليوم الآخِرَة (وَ لَمْ يَعْتَبِرُوا فِي أُنُفِ الْأَوَانِ) فِي أَوَّل زمانهم حَيْث كَانَ فِي مقدورهم أنْ يعملوا لأنفسهم ما يجدونه ذُخراً عند الله.

(فَهَلْ يَنْتَظِرُ أَهْلُ بَضَاضَةِ الشَّبَابِ اِلاَّ حَوَانِيَ ٱلْهَرَمِ ؟). لا شيء بعد الشَّبَاب إلّا المَشِيب، وَلاَ شيء مَع المَشِيب إلّا الهزَال، والأدواء، والآلاَم، والانْحِنَاء (وَ أَهْلُ غَضَارَةِ الصِّحَّةِ اِلاَّ نَوَازِلَ السَّقَمِ ؟). قد يُفاجئك المرض، وأنْتَ آنس ما تَكُون فِي صحتك، ويُداهمك ٱلحُزْن، والفزع، وأنْتَ فِي ساعة الأَمْن، والسُّرُور (وَ أَهْلُ مُدَّةِ الْبَقَاءِ اِلاَّ آوِنَةَ الْفَنَاءِ ؟). كلّ مُدَّة فِي الدُّنْيا إِلَىٰ إنْتِهَاء، وكلّ حَي إِلَىٰ فَناء (مَعَ قُرْبِ الزِّيَالِ) الفراق (وَأُزُوفِ الاِنْتِقَالِ) عطف تَفْسِير عن قُرْبِ الزِّيَالِ (وَ عَلَزِ الْقَلَقِ). أي أنّ الْقَلَقَ يجعله يرتعد، ويضطرب، ويُقَال: بات فُلاَن عَلزاً أي قَلِقاً مُضْطَرِباً.

(وَ أَلَمِ الْمَضَضِ). وهو ما يحسه ٱلإنْسَان من ٱلحُزْن عند المُصيبة (وَ غُصَصِ الْجَرَضِ). يبتلع ريقه علىٰ هَمٍّ، وغَمٍّ (وَ تَلَفُّتِ الاِسْتِغَاثَةِ بِنُصْرَةِ الْحَفَدَةِ، وَالْأَقْرِبَاءِ، وَ الْأَعِزَّةِ، وَ الْقُرَنَاءِ). إذَا جاءت سكرة ٱلمَوْت بِالحَقِّ نظر المحتضر إِلَىٰ الأَهْل، والأصحاب كأنّه يطلب مِنْهُم النَّجدة، ولكن «مُتطلباً فِي المَاء جذْوة نار»[1]. ومن خُطْبَة ثَانِيَة: «فَصَارَ بَيْنَ أَهْلِهِ لاَ يَنْطِقُ بِلِسَانِهِ، وَلاَ يَسْمَعُ بِسَمْعِهِ، يُرَدِّدُ طَرْفَهُ بِالنَّظَرِ فِي وُجُوهِهِمْ، يَرَىٰ حَرَكَاتِ أَلْسِنَتِهِمْ، وَلاَ يَسْمَعُ رَجْعَ كَلاَمِهِمْ»[2] (فَهَلْ

---

(١) أقتباساً من قَوْل الشَّاعر عليّ التُّهامي فِي مرثيةٍ له فِي آبنِه، كما جاء فِي تَأرِيخ دِمَشق: ٢٢٣/٤٣، سير أعلام النّبلاء: ٣٨٢/١٧، وفيات الأَعْيَان: ٣٧٩/٢، البداية والنِّهَايَة: ٢٥/١٢.

طُبعت علىٰ كَدَرٍ وأنْتَ تُريدها ... صَفواً مِنَ الأَقْذَاءِ والأَكْدَارِ
وَمُكَلِف الأَيَّام ضِدّ طِباعها ... مُتطَلب فِي ٱلمَاءِ جَذْوَة نَارِ

(٢) أُنظر، نَهج البَلاَغَة: ٱلخُطْبَة (١٠٩).

دَفَعَتِ الْأَقَارِبُ، أَوْ نَفَعَتِ النَّوَاحِبُ). أي الباكون... كلاَّ، لا يدفع، وَلاَ ينفع إلَّا ٱلْعَمَل الصَّالِح.

(وَ قَدْ غُودِرَ فِي مَحَلَّةِ الْأَمْوَاتِ رَهِيناً، وَ فِي ضِيقِ الْمَضْجَعِ وَحِيداً) حبيساً فِي لحده إِلَىٰ يَوْم يُبعثون (قَدْ هَتَكَتِ ٱلْـهَوَامُّ جِـلْدَتَهُ). أَكَـلَت ٱلاحَـشْرِت لَحْـمه، وٱمتصت دَمه حَتَّىٰ صار عظاماً، وحطاماً (وَ أَبْلَتِ النَّـوَاهِكُ جِـدَّتَهُ). النَّـوَاهِكُ النَّوَائِب، والجِدَّة ضد البلىٰ أي صيرّته النَّوَائِب رَثاً بالياً بعد أنْ كَانَ نامياً قَوِياً (وَ عَفَتِ الْعَوَاصِفُ آثَارَهُ، وَ مَحَا الْـحَدَثَانُ مَـعَالِمَهُ). درست الرِّيـاح، والأمـطار، ومرور الزّمان قبره، ودياره، وٱسمه، وأخباره، ولم يـبق مـن شيء يـدل عَـلَيْهِ، ويومىء إِلَيْهِ من قريبٍ، أو بعيد (وَ صَارَتِ الْأَجْسَادُ شَـحِبَةً بَـعْدَ بَـضَّتِهَا). كَـانَ الجسم مُمتلئاً ناعماً، فأَصْبَحَ هزيلاً واهياً (وَ الْعِظَامُ نَخِرَةً) أي بالية (بَعْدَ قُـوَّتِهَا) أَيَّام حياته وشبابه.

(وَ الْأَرْوَاحُ مُرْتَهَنَةً بِثِقَلِ أَعْبَائِهَا). ٱلاِنْسَان روح، وبدن، والبَدن بَعد ٱلْمَـوْت للعفونات، وٱلحَشْرَات، أمّا الرُّوح فلهول ٱلْحِسَاب عن الْأَعْمَال، وما حملت مـن الأثقال (مُوقِنَةً بِغَيْبِ أَنْبَائِهَا). جمع نَبأ، وهو الْخَبَر، والْمَعْنَىٰ أنّ الله سُبْحَانَهُ يَكشف للروح غداً عن جزاء ما عملت من خيرٍ، أو شرٍ: ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُۥٓ أَمَدًۢا بَعِيدًا﴾[1]. (لاَ تُسْتَزَادُ مِنْ صَالِحِ عَمَلِهَا). أي لا تكلف الْأَرْوَاح فِي الْآخِرَة بأنْ تزيد من صالح الْأَعْـمَال حَيْث لا شيء هناك إلّا ٱلْحِسَاب، وٱلْجَزَاء (وَ لاَ تُسْتَعْتَبُ مِنْ سَيِّئِ زَلَلِهَا). لا تُتاح

(١) آلِ عِمْرَان: ٣٠.

لها الْفُرْصَة لكي تتوب عن سَيِّئَاتِها، وتطلب الإقالة مِنْهَا.

(أَ وَ لَسْتُمْ أَبْنَاءَ الْقَوْمِ وَ الْآبَاءَ، وَإِخْوَانَهُمْ، وَ الْأَقْرِبَاءَ ؟). كلّ إِنْسَان هو آبن، أو آبن وأب، وأخ، وقَرِيب لغيره، وما من أحدٍ إلّا وفقد أباه، أو آبْنِهِ، أو واحداً من أقاربه، وقد رآه فِي سكرات الْمَوْت وهو يجود بنَفْسِهِ، ومحمولاً فِي جنازته، وموسداً فِي لحده، وأيضاً بكاه، وعُزي بِهِ، وإذَنْ كَيْفَ لا يعتبر، ويتعظ بِمَا رَأَىٰ وسمع ؟ (تَحْتَذُونَ أَمْثِلَتَهُمْ، وَ تَرْكَبُونَ قِدَّتَهُمْ، وَتَطَئُونَ جَادَّتَهُمْ ؟ !). آعتبروا، وآتَّعِظُوا بمن كَانَ قَبْلكم، فإنّكم سَالكوْن مسلكهم، ومنتهون إِلَىٰ مصيرهم لا مَحَالَةَ.

(فَالْقُلُوبُ قَاسِيَةٌ عَنْ حَظِّهَا). يُقَال: أَرْض قَاسِيَة أي لا تنبت، وَلاَ تنتج شَيْئَاً، والْمُرَاد هُنا أنّ قلوبهم لا نصيب لها من حُسن الثَّوَاب؛ لِأَنَّهَا ما أنتجت شَيْئَاً يعود عَلَيْهَا، أو علىٰ غَيْرها بالْخَيْر (لاهِيَةٌ عَنْ رُشْدِهَا، سَالِكَةٌ فِي غَيْرِ مِضْمَارِهَا !). أي غافلة ذاهلة عن مصلحتها، وعمّا يُراد بها، وسكلت طريقاً تُؤَدّي بها إِلَىٰ الهاوية (كَأَنَّ الْمَعْنَىٰ سِوَاهَا) من خطاب الْإِرْشَاد، والْهِدَايَة (وَكَأَنَّ الرُّشْدَ فِي إِحْرَازِ دُنْيَاهَا) فقط، أمّا الْآخِرَة فَهِيَ نَسْيًا مَّنسِيًّا. ومن أَقْوَال الْإِمَام عليه السلام: «وَآعْلَمُوا أَنَّ مَا نَقَصَ مِنَ الدُّنْيَا، وَزَادَ فِي الْآخِرَةِ خَيْرٌ مِمَّا نَقَصَ مِنَ الْآخِرَةِ، وَزَادَ فِي الدُّنْيَا فَكَمْ مِنْ مَنْقُوصٍ رَابِحٍ، وَمَزِيدٍ خَاسِرٍ»[1].

وبعد، فإنّ من يمعن النَّظر فِي أَقْوَال الْإِمَام عليه السلام، وهو يَصف آلْإِنْسَان فِي دُنْيَاه، وفِي قبره، ثُمَّ فِي موقفه لِلْحِسَابِ ـ لا بُد أنْ يتساءل: لِمَاذَا كلّ ذَلِكَ ؟ وهل الْمُرَاد

(١) أُنظر، نهج البَلاَغَة: اَلخُطْبَةُ (١١٤).

مُجرد التَّخويف من ٱلْمَعْصِيَة، والتَّرغيب فِي الطَّاعَة؟.

ولَيْسَ من شك أنّ كَلاَم الإِمَام شرح، وتَفْسِير لظاهر ٱلْقُرْآن ٱلْكَرِيم، ومَا زاد عَلَيْهِ شَيْئاً، وٱلْعَمَل بالظَّاهِر هو الأصل، وَلاَ يجوز العدُول عَنْه إلّا بدَلِيل يصرف الكَلاَم عن ظاهره، وَلاَ دَلِيل من النّقل، وَلاَ من ٱلْعَقْل، وعَلَيْهِ فحساب القبر حَقّ.

ٱلْمجَاز عَلَىٰ ٱلصِّرَاطِ... فِقْرَة ١٤ ـ ١٦:

وَ ٱعْلَمُوا أَنَّ مَجَازَكُمْ عَلَىٰ ٱلصِّرَاطِ، وَ مَزَالِقِ دَحْضِهِ، وَ أَهَاوِيلِ زَلَلِهِ، وَ تَارَاتِ أَهْوَالِهِ، فَٱتَّقُوا اللهَ عِبَادَ اللهِ تَقِيَّةَ ذِي لُبٍّ شَغَلَ التَّفَكُّرُ قَلْبَهُ، وَ أَنْصَبَ الْخَوْفُ بَدَنَهُ، وَ أَسْهَرَ التَّهَجُّدُ غِرَارَ نَوْمِهِ، وَ أَظْمَأَ الرَّجَاءُ هَوَاجِرَ يَوْمِهِ، وَ ظَلَفَ الزُّهْدُ شَهَوَاتِهِ، وَ أَوْجَفَ الذِّكْرُ بِلِسَانِهِ، وَ قَدَّمَ الْخَوْفَ لِأَمَانِهِ، وَ تَنَكَّبَ الْمَخَالِجَ عَنْ وَضَحِ السَّبِيلِ، وَ سَلَكَ أَقْصَدَ الْمَسَالِكِ إِلَىٰ النَّهْجِ الْمَطْلُوبِ[١٤]، وَ لَمْ تَفْتِلْهُ فَاتِلاَتُ الْغُرُورِ، وَ لَمْ تَعْمَ عَلَيْهِ مُشْتَبِهَاتُ الْأُمُورِ، ظَافِراً بِفَرْحَةِ الْبُشْرَىٰ، وَ رَاحَةِ النُّعْمَىٰ، فِي أَنْعَمِ نَوْمِهِ، وَ آمَنِ يَوْمِهِ، وَ قَدْ عَبَرَ مَعْبَرَ الْعَاجِلَةِ حَمِيداً، وَ قَدَّمَ زَادَ الْآجِلَةِ سَعِيداً، وَ بَادَرَ مِنْ وَجَلٍ، وَ أَكْمَشَ فِي مَهَلٍ، وَ رَغِبَ فِي طَلَبٍ، وَ ذَهَبَ عَنْ هَرَبٍ، وَرَاقَبَ فِي يَوْمِهِ غَدَهُ، وَ نَظَرَ قُدُماً أَمَامَهُ. فَكَفَىٰ بِالْجَنَّةِ ثَوَاباً، وَ نَوَالاً، وَكَفَىٰ بِالنَّارِ عِقَاباً، وَ وَبَالاً! وَكَفَىٰ بِاللهِ مُنْتَقِماً، وَ نَصِيراً! وَكَفَىٰ بِالْكِتَابِ حَجِيجاً، وَخَصِيماً[١٥]!

أُوصِيكُمْ بِتَقْوَىٰ اللهِ الَّذِي أَعْذَرَ بِمَا أَنْذَرَ، وَ ٱحْتَجَّ بِمَا نَهَجَ، وَ حَذَّرَكُمْ عَدُوّاً نَفَذَ فِي الصُّدُورِ خَفِيّاً، وَ نَفَثَ فِي الْآذَانِ نَجِيّاً، فَأَضَلَّ، وَ أَرْدَىٰ، وَ وَعَدَ فَمَنَّىٰ، وَ زَيَّنَ سَيِّئَاتِ الْجَرَائِمِ، وَ هَوَّنَ مُوبِقَاتِ الْعَظَائِمِ، حَتَّىٰ إِذَا ٱسْتَدْرَجَ قَرِينَتَهُ، وَ ٱسْتَغْلَقَ رَهِينَتَهُ، أَنْكَرَ مَا زَيَّنَ، وَ ٱسْتَعْظَمَ مَا هَوَّنَ، وَ حَذَّرَ مَا أَمَّنَ[١٦].

اللُّغَة:

مَزَالِقِ: جَمع مَزْلق، وهو المكان الَّذي لا يثبت عَلَيْهِ قـدم. والدَّحْـضِ: الزَّلـق والبطلان، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾ (١) أي بَاطلة. وَالتَّارَاتِ: جَمع تَارَة، وَهِـي المَـرّة، والدُّفـعة، والْـفُرْصَة، والحِين، والتَّهَجُّدُ: سَهـر ٱللَّـيْل للْـعِبَادَةِ. والغِـرَارَ: القَـلِيل. وَأَنْـصَبَ: أَتْـعَبَ. وهَوَاجِرَ: جَمع هَاجِرَة، وَهِي نصف النَّهَار فِي القَـيظ. وَظَـلَفَ: كَـفَّ. وَأَوْجَـفَ: أَسْرَع. وتَنَكَّبَ: مَال. والْمَخَالِجَ: الطُّرق المتشعبة المتفرعة عن الطَّـرِيق الأصـيل. وَأَقْصَدَ الْمَسَالِكِ: أَقْوَمها. وَلَمْ تَفْتِلْهُ: لَمْ تَرْده. وٱلنُّعْمَىٰ: سِعَة العَيش. وَالْـعَاجِلَةِ: الدُّنْيَا. والْآجِلَةِ: ٱلآخِرَة. وَأَكْمَشَ: مضىٰ، وأَسرع. فِي مَهَلٍ: فِي مَـهَلة ٱلْحَـيَاة، وَفُرصَتها. وَذَهَبَ عَنْ هَرَبٍ: هَرَب مِمَّا يَجب ٱلهُرُوب مِنهُ. بِمَّا نَهْـج: بِمَّـا وَضَـح، وتَبيَّنَ. وقَرِينَتَهُ: النَّفس التَّـابعة لهُ، قَـالَ تَـعَالَىٰ: ﴿نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ﴾ (٢).

الإِعْرَاب:

خَبَر أَنَّ مَجَازَكُمْ مَحْذُوف، تقديره كَائن لا مَحَـالَةَ. وظَـافِراً حَـال مـن ضَـمِير «عَلَيْهِ»، وبِفَرْحَةِ مُتَعَلِّق بـ«ظَافِراً»، وفِي أَنْعَمِ مُتَعَلِّق برَاحَةِ، وقُدُماً ـ بضم القاف، والدّال ـ قائم مقام الحَال أي مُتقدماً لا يلوي علىٰ شيء، وبِـالْجَنَّةِ البـاء زَائِـدَة، وٱلْجَنَّة فَاعِل كَفَىٰ، وثَوَاباً تَمْيِيز، ومِثْله كَفَىٰ بِالنَّارِ عِـقَاباً، ومُـنْتَقِماً حَـال، ومِـثْله

(١) ٱلشُّورَىٰ: ١٦.

(٢) ٱلزُّخْرُف: ٣٦.

حَجِيجاً، وَخَفِيّاً، وَخَصِيماً، ونَجِيّاً.

لِلمِنْبَرِ - حَوْلَ ٱلسِّرَاط:

(وَ ٱعْلَمُوا أَنَّ مَجَازَكُمْ عَلَىٰ ٱلصِّرَاطِ). قَالَ جَمَاعَة كُثْر: إِنّ ٱلسِّرَاط شيء يُرىٰ، ويُحس، وهو فوق جَهَنَّم، أوّله فِي الموقف، وآخره عند أبواب ٱلجَنَّة، أدق من الشَّعرة، وأَحدّ من السَّيْف، وأشد حَرّاً من نَار جَهَنَّم، والله سُبْحَانَهُ يأمر عِبَادِهِ جَمِيعاً أَنْ يمروا عَلَيْهِ، فمن ساء عمله يهوي فِي ٱلنَّار قبل أنْ يتم الخُطوة الأُولَىٰ، ومن أحسن عملاً، ولم يكتسب إثماً مَرَّ عَلَيْهِ كالبرق الخاطف، وأمّا الّذين ٱعْتَرَفُواْ بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُواْ عَمَلاً صَالِحاً، وَأَخَرَ سَيِّئاً[1] - فيجتازونه علىٰ حسب أَعْمَالِهُم، فَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ بَطْنِهِ، وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ رِجْلَيهِ، وَمِنْهُم كَرَاكب فَرَس[2].

ولَيْسَ فِي كتاب الله أية إِشَارَة إِلَىٰ هَذَا ٱلسِّرَاط الدّقيق الخَطِير، والآيَات الّتي ذكرت كَلِمَة ٱلسِّرَاط تدل بصراحة علىٰ أنّ المُرَاد بٱلسِّرَاط طَرِيق ٱلحَق، وٱلهِدَايَة، ومن أجل هَذَا ٱضطر الشَّيخ الصَّدوق، وغَيْره من القَائِلِين بٱلسِّرَاط الحسّي - أنْ يَستَدلوا بقَوْله تَعَالَىٰ: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا﴾[3]. وَلَم يَتضح لديَّ وَجه الدّلاَلَة فِي هَذِه الآيَة علىٰ ٱلسِّرَاط، وَلاَ العِلاَقَة بينه وبَيْنَ الورود،

---

(١) أقتباساً من الآيَة ٱلكَرِيمَة (١٠٢) من سُورَة ٱلتَّوْبَة: ﴿وَءَاخَرُونَ ٱعْتَرَفُواْ بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُواْ عَمَلاً صَـٰلِحًا وَءَاخَرَ سَيِّئًا عَسَى ٱللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

(٢) أقتباساً من الآيَة الكريمة (٤٥) من سُورَة ٱلنُّورِ: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَآبَّةٍ مِّن مَّآءٍ فَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰ بَطْنِهِۦ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰ رِجْلَيْنِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰٓ أَرْبَعٍ يَخْلُقُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾.

(٣) مَرْيَمَ: ٧١.

والأصل عدم التّأويل، وأَبعد من هَذَا الإستدلال، وأَغرب ٱستدلال ٱبن عربي فِي الفُتُوحَات المكيّة بقَوْله تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ﴾[1].

وغَيْر بعيد أنْ يَكُون الْمُرَاد بِٱلسِّرَاط هُنا فِي قَوْل الْإِمَامِ عليه السلام نقاش ٱلحِسَاب الَّذي يُرهق، ويُهلك ٱلْمُجْرِمين، والمُترفين، ووطأة ٱلْحِسَاب تشبه وطأة الحريق إِلَىٰ حَدٍّ بَعيد.

وَقَالَ زَاهد لصَاحبة: أَتُحب أنّك شجرة، وتنجو من ٱلْحِسَاب؟ قَالَ صَاحبه: لا. قَالَ الزّاهد: أمّا أَنا فأود أنّي شجرة تأكلني الرّاحلة، ثُمّ تقذفني بَعراً، وَلاَ أُكابد ٱلْحِسَاب يَوْم ٱلْقِيَامَة، أنّي أخاف الدَّاهية الْكُبْرَىٰ، وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا وَوَجَدُواْ مَا عَمِلُواْ حَاضِرًا وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾[2]. وعَلَىٰ أية حَال فإنّ عَلَىٰ ٱلْمُؤْمِن أنْ يَعْتَقِد بِٱلْحِسَاب، وٱلْجَزَاء الْعَادِل، أمّا التَّفاصِيل، والكيفيات فغير مَسْئُول عَنْهَا.

(فَاتَّقُوا اللهَ عِبَادَ اللهِ تَقِيَّةَ ذِي لُبٍّ شَغَلَ التَّفَكُّرُ قَلْبَهُ). أعمل فِكره فِي كلّ آيَة، وعِظَة، فَتَدَبَّرها، وٱتعظ بها... فِكر ذو اللُّبّ طَويلاً لكِي يَعلم عَلَىٰ هُدىً، وبَصيرة (وَأَنْصَبَ الْخَوْفُ بَدَنَهُ). خَاف فأطال فِي مُرضاة الله ٱجْتهَاده، وأَتعب نَفْسه، وَبَدَنَه ليَأمن من غَضَبه تَعَالَىٰ، وعَذَابه (وَأَسْهَرَ التَّهَجُّدُ غِرَارَ نَوْمِهِ). سَهر طَويلاً يَتعبد، ويَتضرع، وأفضل أَنْوَاع الْعِبَادَة بلا ٱستثناء ٱلْعَمَل لِمنفعة النَّاس، والصَّالح العَام (وَأَظْمَأَ الرَّجَاءُ هَوَاجِرَ يَوْمِهِ). ٱلْمُؤْمِن الأصِيل يَظْمأ، ويَتشوق إِلَىٰ مَا أَعد الله

---

(١) ٱلفَجْر: ١٤.

(٢) ٱلكَهْف: ٤٩.

لهُ مِن حُسن الثَّوَاب، تَمَاماً كالظَّمْآن فِي شِدَّة الحَرّ يَتشوق إِلَىٰ المَاء، ومَا طَمع ٱلْمُؤْمِن المُخلص بثوابه تَعَالَىٰ، وحُسن جزائه إلّا لثقته بالله، ووعده، وبدافع من هَذِه الثِّقَة أَتعب نَفْسه، وبدنه فِي سَبِيل مَرْضَاتِه تَعَالَىٰ، ولَوْلاَها ما عمل، وَلاَ رجا.

(وَ ظَلَفَ الزُّهْدُ شَهَوَاتِهِ). زهد فِي الدُّنْيَا فَاستهان بِها، وأَلجم نَفْسه عمّا يَغضب خالقه، وقادها إِلَىٰ مَرْضَاتِه (وَ قَدَّمَ الْخَوْفَ لِأَمَانِهِ). عمل فِي دُنياه لآخرته ليكون فِي سلامٍ، وأمان من آلامها، وسهامها (وَ تَنَكَّبَ الْمَخَالِجَ عَنْ وَضَحِ السَّبِيلِ). عدل عمّا يبعده عن ٱلسَّبِيل الْوَاضِح إِلَىٰ الله تَعَالَىٰ (وَ لَمْ تَفْتِلْهُ) أي تَرده، وتَصده (فَاتِلاَتُ الْغُرُورِ). وَهِي الّتي تُغري بالرذيلة، وتَصد عن الفضيلة (وَ لَمْ تَعْمَ عَلَيْهِ مُشْتَبِهَاتُ الْأُمُورِ). لأنّه لا يَقُول، وَلاَ يفعل حَتَّىٰ يَكُون علىٰ بَيِّنَة من ربّه.

(ظَافِراً بِفَرْحَةِ الْبُشْرَىٰ، وَ رَاحَةِ النُّعْمَىٰ). المُراد بالْبُشرَىٰ مَا أشارت إِلَيْهِ الآيَة من سُورَة ٱلْبَقَرَة: «﴿وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾[1]». أمّا الفَرْحَة فعند دخول هَذِه ٱلْجَنَّة (فِي أَنْعَمِ نَوْمِهِ، وَ آمَنِ يَوْمِهِ). كناية عن مُتعة الرُّوح، وَرَاحة البَدن، وبهما غنيً عن ٱلْحَرَام، ولذته (وَ قَدْ عَبَرَ مَعْبَرَ الْعَاجِلَةِ حَمِيداً، وَ قَدَّمَ زَادَ الآجِلَةِ سَعِيداً). خَرج من الدُّنْيَا طَاهراً نَقياً، وورد الْآخِرَة راضياً مرضياً بِمَا قدم لها من صالح الْأَعْمَال، ومحامد الأفعال (وَ بَادَرَ مِنْ وَجَلٍ). أَسرع إِلَىٰ مرضاة الله خَوْفاً من غضبه (وَ أَكْمَشَ فِي مَهَلٍ). ٱنتهز الْفُرْصَة أَيَّام حياته، وعمل للجنة عملها، قَالَ الإِمَام عليه السلام: «فَاعْلَمُوا وَالأَلْسُنُ مُطْلَقَةٌ، وَالأَبْدَانُ صَحِيحَةٌ، وَالأَعْضَاءُ لَدْنَةٌ، وَالْمُنْقَلَبُ فَسِيحٌ، وَالْمَجَالُ عَرِيضٌ قَبْلَ

(١) ٱلبقرة: ٢٥.

إِزْهَاقِ الْفَوْتِ، وَحُلُولِ الْمَوْتِ، فَحَقِّقُوا عَلَيْكُمْ نُزُولَهُ، وَلاَ تَنْتَظِرُوا قُدُومَهُ»[1].

(وَ رَغِبَ فِي طَلَبٍ) الْحَقّ (وَ ذَهَبَ عَنْ هَرَبٍ) أي ابتعد عمّا يجب الابْتِعَاد عَنْه خَوْفاً من الله (وَرَاقَبَ فِي يَوْمِهِ غَدَهُ). عَمل فِي دُنياه لآخرته (وَ نَظَرَ قُدُماً أَمَامَهُ) مضىٰ فِي سَبِيل الخَيْر لا يلوي علىٰ شيء (فَكَفَىٰ بِالْجَنَّةِ ثَوَاباً، وَ نَوَالاً، وَكَفَىٰ بِالنَّارِ عِقَاباً، وَ وَبَالاً!). لأنّ «كُلّ نَعِيمٍ دُونَ الْجَنَّةِ فَهُوَ مَحْقُورٌ، وَكُلُّ بَلاَءٍ دُونَ النَّارِ عَافِيَةٌ»[2]. كمَا قَالَ الإِمَام (وَكَفَىٰ بِاللهِ مُنْتَقِماً) من أَهْل الشَّرّ، والْفَسَاد (وَ نَصِيراً!) لأَهْل الْخَيْر، والصّلاح (وَكَفَىٰ بِالْكِتَابِ حَجِيجاً، وَخَصِيماً). الْقُرْآن برهان قَاطع، وحجّة دامغة لمن حاجّ بِهِ، وخَاصم.

(أُوصِيكُمْ بِتَقْوَىٰ اللهِ الَّذِي أَعْذَرَ بِمَا أَنْذَرَ) فِي كتابه المُنزل، وبلِسَان نَبيّه المُرسل (وَ احْتَجَّ بِمَا نَهَجَ) أي بمَا بيّن، وأوضح من طُرق الْخَيْر، والْهِدَايَة (وَ حَذَّرَكُمْ عَدُوّاً نَفَذَ فِي الصُّدُورِ خَفِيّاً) كالوسوسة، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿الَّذِى يُوَسْوِسُ فِى صُدُورِ النَّاسِ﴾[3]. (وَ نَفَثَ فِي الآذَانِ نَجِيّاً). يُلقي فِي أُذنه بمَا يَريه أنّه خَير له، وصالح، قَالَ عزَّ مَن قَائِل: ﴿يُوحِى بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ﴾[4]. (فَأَضَلَّ) بأباطيله من يستمع إِلَيْهِ، ويثق بِهِ (وَ أَرْدَىٰ) أي أهلكه (وَ وَعَدَ فَمَنَّىٰ). غرَّه بِالأَمَانِيّ الكَاذِبة (وَ زَيَّنَ سَيِّئَاتِ الْجَرَائِمِ) بالتّمويه، التّدليس.

---

(١) أنظر، نهج البلاغة: الخُطْبَة (١٩٦).
(٢) أنظر، نهج البلاغة: الحِكْمَة (٣٨٧).
(٣) النَّاس: ٥.
(٤) الأنعام: ١١٢.

(وَ هَوَّنَ مُوبِقَاتِ الْعَظَائِمِ). أي قرّب البَعيد، وبَعّد القريب، وأغرىٰ بكبائر الذّنوب والاِستخفاف بها (حَتَّىٰ إِذَا ٱسْتَدْرَجَ قَرِينَتَهُ، وَ ٱسْتَغْلَقَ رَهِينَتَهُ). المُرَاد بالقَرينَة والرَّهِينَة هُنا النّفس الّتي أَغراها، وٱصطادها، ويُقَال: ٱستغلق الرّهن إِذَا عَجَزَ الرَّاهن عن فَكّه عند حلول الأَجَل، والمَعْنَىٰ أنّ النّفس بعد إغوائها يصعب تحريرها من الضَّلال، والغواية حَيْث تَصبح رِقاً، وملكاً للغاوي، وتضليله (أَنْكَرَ مَا زَيَّنَ، وَ ٱسْتَعْظَمَ مَا هَوَّنَ، وَ حَذَّرَ مَا أَمَّنَ). أضله عن سَبِيل النَّجَاة، وأغراه بطريق الهَلاك وسلوكه، ولمّا سَلكه، وهَلَك، خَذله، وَعَذله تَمَاماً كالشَّيْطَان: ﴿كَمَثَلِ ٱلشَّيْطَـٰنِ إِذْ قَالَ لِلْإِنسَـٰنِ ٱكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّنكَ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾[1].

حَوْلَ ٱلإِنْسَان...فِقْرَة ١٧ ـ ١٩:

أَمْ هَذَا الَّذِي أَنْشَأَهُ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْحَامِ، وَ شُغُفِ الْأَسْتَارِ، نُطْفَةً دِهَاقاً، وَ عَلَقَةً مِحَاقاً، وَ جَنِيناً، وَ رَاضِعاً، وَ وَلِيداً، وَ يَافِعاً، ثُمَّ مَنَحَهُ قَلْباً حَافِظاً، وَ لِسَاناً لاٰفِظاً، وَ بَصَراً لاٰحِظاً، لِيَفْهَمَ مُعْتَبِراً، وَ يُقَصِّرَ مُزْدَجِراً، حَتَّىٰ إِذَا قَامَ ٱعْتِدَالُهُ، وَ ٱسْتَوَىٰ مِثَالُهُ، نَفَرَ مُسْتَكْبِراً، وَ خَبَطَ سَادِراً، مَاتِحاً فِي غَرْبِ هَوَاهُ، كَادِحاً سَعْياً لِدُنْيَاهُ، فِي لَذَّاتِ طَرَبِهِ، وَ بَدَوَاتِ أَرَبِهِ، ثُمَّ لاٰ يَحْتَسِبُ رَزِيَّةً، وَ لاٰ يَخْشَعُ تَقِيَّةً[17]، فَمَاتَ فِي فِتْنَتِهِ غَرِيراً، وَ عَاشَ فِي هَفْوَتِهِ يَسِيراً، لَمْ يُفِدْ عِوَضاً، وَ لَمْ يَقْضِ مُفْتَرَضاً. دَهِمَتْهُ فَجَعَاتُ الْمَنِيَّةِ فِي غُبَّرِ جِمَاحِهِ، وَ سَنَنِ مِرَاحِهِ، فَظَلَّ سَادِراً، وَ بَاتَ سَاهِراً، فِي غَمَرَاتِ

---

(١) ٱلحَشر: ١٦.

اَلآلاَمِ، وَ طَوَارِقِ الْأَوْجَاعِ، وَ الْأَسْقَامِ، بَيْنَ أَخٍ شَقِيقٍ، وَ وَالِدٍ شَفِيقٍ، وَدَاعِيَةٍ بِالْوَيْلِ جَزَعاً، وَ لاٰدِمَةٍ لِلصَّدْرِ قَلَقاً، وَ الْمَرْءُ فِي سَكْرَةٍ مُلْهِثَةٍ، وَ غَمْرَةٍ كَارِثَةٍ، وَ أَنَّةٍ مُوجِعَةٍ، وَ جَذْبَةٍ مُكْرِبَةٍ، وَ سَوْقَةٍ مُتْعِبَةٍ. ثُمَّ أُدْرِجَ فِي أَكْفَانِهِ مُبْلِساً، وَ جُذِبَ مُنْقَاداً سَلِساً(١٨)، ثُمَّ أُلْقِيَ عَلَىٰ الْأَعْوَادِ رَجِيعَ وَصَبٍ، وَ نِضْوَ سَقَمٍ، تَحْمِلُهُ حَفَدَةُ الْوِلْدَانِ، وَ حَشَدَةُ الْإِخْوَانِ، إِلَىٰ دَارِ غُرْبَتِهِ، وَ مُنْقَطَعِ زَوْرَتِهِ، وَ مُفْرَدِ وَحْشَتِهِ، حَتَّىٰ إِذَا انْصَرَفَ الْمُشَيِّعُ، وَ رَجَعَ الْمُتَفَجِّعُ، أُقْعِدَ فِي حُفْرَتِهِ نَجِيّاً لِبَهْتَةِ السُّؤَالِ، وَ عَثْرَةِ الاِمْتِحَانِ، وَ أَعْظَمُ مَا هُنَالِكَ بَلِيَّةً نُزُولُ الْحَمِيمِ، وَ تَصْلِيَةُ الْجَحِيمِ، وَ فَوْرَاتُ السَّعِيرِ، وَ سَوْرَاتُ الزَّفِيرِ، لاٰ فَتْرَةٌ مُرِيحَةٌ، وَ لاٰ دَعَةٌ مُزِيحَةٌ، وَلاٰ قُوَّةٌ حَاجِزَةٌ، وَ لاٰ مَوْتَةٌ نَاجِزَةٌ، وَ لاٰ سِنَةٌ مُسَلِّيَةٌ، بَيْنَ أَطْوَارِ الْمَوْتَاتِ، وَعَذَابِ السَّاعَاتِ! إِنَّا بِاللّٰهِ عَائِذُونَ(١٩)!

اللُّغَة:

شُعُف: ـ بضم الشّين، والغين ـ جمع شِغاف، وهو غِلاف اَلْقَلْب، وقيل: سويداؤه، ومهما يَكُنْ فإنّ الْمُرَاد بالشُّغاف هُنا المشيمة، ودِهَق الكأس دِهَاقاً: ملأه، أو أفرغه بِشِدَّة: من الأضداد، ونُطْفَةً دِهَاقاً: صَبها بقُوَّة، أو هِي مُمْتلئة من جَراثيم اَلْحَيَاة. وَعَلَقَةً مِحَاقاً: نَاقصة، أو مُحيت عَنْهَا الأشكال، والصُّور. ويَفَع الغُلام فَهُوَ يَافع: نَاهزَ البلوغ، وقيل: رَاهَق الْعِشْرين. والْمُرَاد بمثاله هُنا قَامته، وباَسْتوَائها، وبلوغها الحَد من النّمو. وسَادِراً: مُتحيراً. والمَاتح: نَازع الدّلو من البئر. والغَرْب: الدّلو. وَالبَدَوَات: ما يَبدو للمرء من خواطر. وغُبَّرٍ ـ بضم الغين،

وَتَشدِيد البَاء ـ جَمع غَابر أي باق: ﴿إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَـٰبِرِينَ﴾[1] أي من الباقين. السَّنَنِ ـ بفتح السِّين، والنّون ـ الطّريقة. ومُبلِساً: يَائساً، أو سَاكِناً. وسَلِساً: سَهلاً. والرَّجِيعَ: مَا رَجِعَ بِهِ من سفر إِلَىٰ آخر، والوَصْيب: التَّعَب. والنِّضو ـ بكسر النون ـ المَهزول. وَالسَّوْرَاتُ: جَمع سُورَة، وَهِي الشِّدَّة. والنَّاجِزَة: الحَاضِرَة.

الإِعْرَاب:

أَمْ هُنا للاِسْتفهَام بقصد التَّقريع لِأَنَّهَا تأتي بِمَعْنَىٰ همزة الاِسْتفهَام، وقيل: مُنقطعة بِمَعْنَىٰ بَل، ونُطْفَةً حَال مِن هَاء أَنْشَأَهُ، ومِثْلها ما بعدها، وسَعْياً مَفْعُول مُطلق لـ «كَادِحاً» مثل قمت وقُوفاً، ورَزِيَّةً مَفْعُول بِه: وتَقِيَّةً مَفْعُول مُطلق مبين للنوع أي خشوع ٱلتَّقْوَىٰ، وقيل: مَفْعُول لأجله، ويَسِيراً صفة لِمَحْذُوف أي زَمناً يَسِيراً، وعِوَضاً مَفْعُول بِهِ، ومِثْله مُفْتَرَضاً، وجَزَعاً مَفْعُول لأجله، والعامل فِيهِ دَاعِيَةٍ، ومِثْله قَلِقاً، والعامل لأدِمَةٍ.

الْمَعْنَىٰ:

(أَمْ هَذَا الَّذِي أَنْشَأَهُ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْحَامِ، وَ شُغُفِ الْأَسْتَارِ، نُطْفَةً دِهَاقاً، وَ عَلَقَةً مِحَاقاً، وَ جَنِيناً، وَ رَاضِعاً، وَ وَلِيداً، وَ يَافِعاً). خُلق ٱلإِنْسَان مِن نُطْفَة، ٱلأَرْض أصلها، والأَرْحَام مقرها، قَالَ سُبْحَانَهُ: ﴿يَخْلُقُكُمْ فِى بُطُونِ أُمَّهَـٰتِكُمْ خَلْقًا مِّنۢ بَعْدِ

(١) ٱلأَعْرَاف: ٨٣.

خَلْقٍ فِى ظُلُمَـٰتٍ ثَلَـٰثٍ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ ٱلْمُلْكُ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ﴾[١]. وَهِي ظُلمَة الْبَطْن، والرّحم، والمَشِيمَة، وكلّ وَاحِدَة من هَـٰذِه الثّـلاث فِي داخـل الأُخرىٰ، وٱلنُطْفَة فِي قلبها، ثُمَّ ترتقي النُّطْفَة إِلَىٰ عَلَقَة، ومِنْهَا إِلَىٰ جَنين، فَإِذَا ولِـدَ فَهُوَ وَلِيد، وما دَام يَرضع فَرَضِيع، فَإِذَا فُطِم فَفَطِيم، فَإِذَا مشىٰ فَدَارِج، فَإِذَا سَقطتْ أَسنانه فَمَثْغُور، فَإِذَا نَبتت من جَديد فمُثّغَر، فَإِذَا بَلغ عَشراً فمُتَرَعْرِع، فَإِذَا كَاد يَبلغ الحُلْم فمُرَاهِق، فَإِذَا ٱحتلم فَشاب إِلَىٰ الأَرْبَعِين، فَإِذَا تَجاوزها فكَهْل إِلَىٰ السِّتِّين، وبعدها يَكُون شَيخاً[٢].

لِلمِنْبَرِ ـ حَوْلَ ٱلذَّاكرةُ، والنُّطْقُ، وٱلبَصَرُ:

(ثُمَّ مَنَحَهُ قَلْباً حَافِظاً، وَ لِسَاناً لاٰفِظاً، وَ بَـصَراً لاٰحِـظاً). فِي ٱلإِنْسَـان أَسرار، وروائع، بِهـا تَفوّق علىٰ كَثير من المَخْـلُوقَات، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِىٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَـٰهُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَـٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَـٰتِ وَفَضَّلْنَـٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً﴾[٣]. وقد أَشار الإِمَام‌ﷺ إِلَىٰ ثـلاث مـن صِـفَات ٱلإِنْسَـان: الذّاكـرة، والنُّطْقُ، وٱلبَصَرَ، وفيما يَلِي التَّفصيل:

الـذَّاكِرَة:

لَيْسَ المُهم أنْ نَعرف: هل الذّاكرة مِن صِفَات ٱلْعَقْل، أَو ٱلْقَلْب؟ وإِنّما المُهم أنْ

(١) ٱلزُّمَر: ٦.
(٢) أكتبُ هَذِه الْكَلِمَات، وأنا عَلىٰ عُتْبَة السَّبعين. (مِنْهُ ﷺ).
(٣) ٱلإِسْرَاء: ٧٠.

نُشير إِلَىٰ فوائدها، ومنَافِعهَا، وَهِي إحدىٰ الوَسَائِل الّتي نَهتدي بِها فِي حياتنا الْعَمَلِيَة ـ مثلاً ـ نَحْنُ نُجرب هَذَا الشّيء مَرّة وَاحِدَة فنجده نَافعاً، ونُجرب غَيْره ـ أيضاً مَرّة وَاحِدَة ـ فنجده ضَاراً، ثُمّ تظهر آثَار هَذِه التَّجْرِبَة فِي سلوكنا، ونشاطنا ما دُمنا أحياء دُونَ أنْ نُعيد التَّجْرِبَة ثَانِيَة، والْفَضْل فِي ذَلِكَ للذَّاكرة، وأيضاً نحفظ قواعد العلوم أَيَّام الدّراسة، فنفرع عَنْهَا، ونقيس عَلَيْهَا دُونَ أنْ نعود إِلَىٰ قراءتها مَرّة ثَانِيَة. والْفَضْل للذَّاكرة، وبكَلِمَة لَوْلاَ الذَّاكرة ماكَانَتْ العلوم، والحضارة، وَلاَ ٱستقامت ٱلْحَيَاة.

وَهَذَا أحد الفروق بَيْنَ ٱلإِنْسَان، وٱلْحَيَوَان الَّذي لا يَملك التَّصور لشيء من الماضي، وَلاَ ٱلْمُسْتَقْبَل.

وقَرأت نقلاً عن كتَاب ذكَاء القَردَة لـ«كوهلر»: «إنّ القِرْد إِذَا رَأَىٰ مُوزة مُعلقة، ورَأىٰ عصاً فِي آنٍ وَاحد، فإنَّه لا يَلبث حَتَّىٰ يَسْتَعِين بالعَصا من أجل الوصُول إِلَىٰ المُوزة. أمّا إِذَا رَأَىٰ العصا فقط، ثُمّ رَأَىٰ المُوزة فإنَّه لا يفكر فِي العصا حِينَ يرىٰ المُوزة، لأنّه لا يَملك الذَّاكرة، والتَّأمل، ومن أجل هَذَا لم يَكُنْ لهُ تَأرِيخ، وترَاث مَع أنّه أرْقىٰ أَنْوَاع ٱلْحَيَوَان ذكاءً وٱحتيالاً».

الكَلِمَة:

أمّا النُّطْق، أو الكَلِمَة فَهِيَ من أَعظم ما فِي ٱلإِنْسَان من رَوعةٍ، وإبداعٍ... فبها يُعبر عن الله، وٱلْكَائِنَات، وبِها يبتديء الوحي، والتَّنزيل، وفِيها تنعكس أَفعال ٱلإِنْسَان، ومشاعره، ومقاصده، وعَلَيْهَا ترتكز العلوم، والآداب، والفنون. قَالَ عالم قديم: «كلّ ما يتناوله العِلْم يُعبر عَنْه بالكَلِمَة، وَلاَ شيء إلّا والعِلْم يتناوله».

وتقول النّظرية الحَدِيثَة: «إنّ اللُّغَة ليست لمجرد التَّعبير عن أفكار تكونت، بل هِي جزء لا يتجزأ من عملية التَّفكير، وتكوينه». ونقل الدّكتور زكي نجيب محمود: «إنّ تكوين الأفكار وثيق الصّلة بتكوين الْكَلِمَات»[١]، وإنّ «كونديناك» قَالَ: «إنّ عملية الْفِكْر نفسها مستحيلة بغير اللُّغَة، ورموزها». ومَعْنَىٰ هَذَا إنّ ٱلإِنْسَان هو الكَلِمَة لِأَنَّهَا جزء من تفكيره الَّذي بِهِ قوامه، وكيانه، وَلاَ شيء أدل علىٰ هَذِه الْحَقِيقَة من أنّ كلّ ما فعلته ٱلإِنْسَانية، أو فكرت فِيهِ قد ذهب مَع الأَيَّام إلّا ما حُفر فوق الصّخور، أو سُطر فِي صفحات الكُتب... وكلّ مَيّت إِلَىٰ النّسيان، والإهمال إلّا مَن تَرك كَلِمَة تُنير ٱلْعَقْل، وتحرك الضَّمِير، وتهدي إِلَىٰ حَيَاة أَحسن.

ٱلبَصَرُ:

ونِعْمَة الْبَصَر تَمَاماً كنِعْمَة البَصِيرة، لأنّ ٱلإِنْسَان بعَقْله، وحواسه، ولَوْلاَها لكان أشبه بالجماد لا يُمَيِّز بَيْنَ الظُّلمة، وٱلنُّور... والْحَدِيث عن فائدة الْبَصَر نافلة وفضول تَمَاماً كالْحَدِيث عن فائدة ٱلْمَاء، والضِّيَاء، وأشار الإِمَام إِلَىٰ الْغَايَة من الْبَصَر، والبَصِيرة بقَوْله: (لِيَفْهَمَ مُعْتَبِراً) أي أنّ الله سُبْحَانَهُ منح ٱلإِنْسَان نِعْمَة الْبَصَر، والبَصِيرة ليَنْتَفع بتجاربه الحِسِّيَّة، ويَهْتَدِي بِهَا إِلَىٰ مَعْرِفَة الخَطَأ، والصّواب، والضّار، والنّافع، فيفعل هَذَا، ويبتعد عن ذَاكَ، وَهَذَا البُعد عن الخَطَأ، والضّار هو الْمُرَاد من قَوْله: (وَ يُقَصِّرَ مُزْدَجِراً).

(حَتَّىٰ إِذَا قَامَ ٱعْتِدَالُهُ). أي ٱنتظمت، وتناسبت أعضاؤه، قَالَ سُبْحَانَهُ: ﴿لَقَدْ

---

(١) أُنظر، كتاب تجديد الْفِكْر العَرَبِي لـ «دي تراسي»، (مِنْهُ ﷺ).

خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ فِيٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾(١). (وَ ٱسْتَوَىٰ مِثَالُهُ). بَلغت قامته من النّمو الْغَايَة والنِّهايَة (نَفَرَ مُسْتَكْبِراً) علىٰ آيات الله، وأَحْكَامه، وصدق عَلَيْهِ قَوْله عزَّ من قَائِل: ﴿كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ﴾(٢). (وَ خَبَطَ سَادِراً). كناية عن جهله، وقصور عَقْله، كما وصفه الإِمَام عليه السلام فِي مقام آخر: «خَبَّاطُ جَهَالاَتٍ، عَاشٍ رَكَّابُ عَشَوَاتٍ، لَمْ يَعَضَّ عَلَىٰ الْعِلْمِ بِضِرْسٍ قَاطِعٍ»(٣) (مَاتِحاً فِي غَرْبِ هَوَاهُ). أي مُندفعاً وَرَاء أَهْوَائِه، لا يَردعه عَنْهَا دِين، وَلاَ عقلٍ (كَادِحاً سَعْياً لِدُنْيَاهُ، فِي لَذَّاتِ طَرَبِهِ، وَ بَدَوَاتِ أَرَبِهِ) يَجدّ، ويَكدح فِي ليلهِ، ونهارهِ للحصول علىٰ الأرباح، وتكديس الثّروات، ولو علىٰ حساب الضُّعفاء، والمُعذبَيْنَ.

(ثُمَّ لاَ يَحْتَسِبُ رَزِيَّةً) لا يُفكر فِي المصير، وسُوء الْعَاقِبَة (وَ لاَ يَخْشَعُ تَقِيَّةً) لا يَخْشَع قَلْبه لمَوْعِظَة، وَلاَ يتقي الله فِي شيء (فَمَاتَ فِي فِتْنَتِهِ غَرِيراً، وَ عَاشَ فِي هَفْوَتِهِ يَسِيراً). عاش فِي الدُّنْيا أَيَّاماً قصاراً أمضاها فِي اللّهو، والملذات مُغتراً بِها، مُطمئناً إِلَيْهَا حَتَّىٰ ٱختطفه ٱلْمَوْت، وهو علىٰ أسوأ حَال (دَهِمَتْهُ فَجَعَاتُ الْمَنِيَّةِ فِي غُبَّرِ جِمَاحِهِ، وَ سَنَنِ مِرَاحِهِ). رَأَىٰ دَلاَئِل ٱلْمَوْت بَغْتَة، وهو غارق فِي شَهواته، وأفراحه (فَظَلَّ سَادِراً) أي حَائراً، لا يدري ماذا يصنع؟ وكَيْف يتلافىٰ ما فَرط، وقصر؟.

(وَ بَاتَ سَاهِراً، فِي غَمَرَاتِ ٱلآلاَمِ، وَ طَوَارِقِ الْأَوْجَاعِ، وَ الْأَسْقَامِ، بَيْنَ أَخٍ شَقِيقٍ، وَ وَالِدٍ شَفِيقٍ، وَدَاعِيَةٍ بِالْوَيْلِ جَزَعاً، وَ لاَدِمَةٍ لِلصَّدْرِ قَلَقاً، وَ الْمَرْءُ فِي

---

(١) ٱلتين: ٤.

(٢) غَافِر: ٣٥.

(٣) تَقدّم إستخراجه فِي ٱلْخُطْبَة: (١٧).

سَكْرَةٍ مُلْهِثَةٍ، وَ غَمْرَةٍ كَارِثَةٍ، وَ أَنَّةٍ مُوجِعَةٍ، وَ جَذْبَةٍ مُكْرِبَةٍ، وَ سَوْقَةٍ مُتْعِبَةٍ). يَصف الْإِمَامُ عليه السلام بِهَذِهِ الْكَلِمَاتِ الْمَرْءِ، وهو علىٰ فراش ٱلْمَوْت حَيْث تتراكم عَلَيْهِ الأسقام والأوجاع، وٱلْخَوْف، والأحزان، واللّهثات، والأنّات، والْيَأْس، والمرارة... إِلَىٰ بُكاءٍ، وعويلٍ، وَلَدمٍ، ونَحيبٍ من الْأَهْل، والأصحاب الّذين لا يملكون لهُ نفعاً، وَلاَ ضُراً... والغَرِيب أنّهم يتوجعون لهُ، ويتفجعون، ومَع هَذَا لا يعتبرون، ويتعظون!.

(ثُمَّ أُدْرِجَ فِي أَكْفَانِهِ مُبْلِساً) ساكتاً (وَ جُذِبَ مُنْقَاداً سَلِساً) لا يدافع، وَلاَ يمانع (ثُمَّ أُلْقِيَ عَلَىٰ الْأَعْوَادِ رَجِيعَ وَصَبٍ، وَ نِضْوَ سَقَمٍ) أي وضع فِي النّعش بعد أنْ لاقىٰ الكَثِير الكَثِير من التَّعَب، والمرض (تَحْمِلُهُ حَفَدَةُ الْوِلْدَانِ). والحَفَدَة هُنا جَمع حَافِد، ويُطلق علىٰ الخَادم، والنَّاصر، والتَّابع، والْمَعْنَىٰ أنّ الّذين يحملون الجَنَازَة هم أعوان أَوْلاَد ٱلْمَيّت (وَ حَشَدَةُ الْإِخْوَانِ) الّذين تَجمعوا مِن هُنا وهناك للتَّشيع (إِلَىٰ دَارِ غُرْبَتِهِ، وَ مُنْقَطَعِ زَوْرَتِهِ، وَ مُفْرَدِ وَحْشَتِهِ) أَسلموه إِلَىٰ لِحده وَحِيداً فَرِيداً، وَغَرِيباً تَرِيباً.

(حَتَّىٰ إِذَا ٱنْصَرَفَ الْمُشَيِّعُ، وَ رَجَعَ الْمُتَفَجِّعُ، أُقْعِدَ فِي حُفْرَتِهِ نَجِيّاً لِبَهْتَةِ السُّؤَالِ، وَ عَثْرَةِ الامْتِحَانِ). بعد أنْ يُوضع فِي قَبره، ويُهال عَلَيْهِ التُّراب تَنقطع بَينَه وبَيْنَ أَهْل الدُّنْيا كلّ عِلاَقَة، ويعود من شَيع الجَنَازَة إِلَىٰ شانه، ويهدأ من تفجعٍ، وتوجعٍ، وينسىٰ مَع الْأَيَّام، أمّا حساب ٱلْمَيّت فِي قَبره فقد ثَبت بالنقل المتواتر من طريق الشّيعة، وٱلسُّنَّة، وأنْكَره بَعْض عُلَمَاء الكَلاَم، ومِمَّا أستدل بِهِ المثبتون قَوْله تَعَالَىٰ: ﴿ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓاْ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ

ٱلْعَذَابِ﴾[1]. فالمعطوف عَلَيْهِ العرض علىٰ ٱلنَّار صباحاً، ومساءً، والمعطوف قيام ٱلْقِيَامَة، وأَحدَهُما غيْرُ الآخر، والمفروض أنّه لا عرض فِي ٱلْحَيَاة الدُّنْيَا فتعين أنْ يَكُون فِي ٱلْبَرْزَخ أي بعد ٱلْمَوْت، وقبل البعث[2].

(وَ أَعْظَمُ مَا هُنَالِكَ بَلِيَّةً نُزُولُ الْحَمِيمِ، وَ تَصْلِيَةُ الْجَحِيمِ، وَ فَوْرَاتُ السَّعِيرِ، وَ سَوْرَاتُ الزَّفِيرِ). والسُّورَة الشِّدَّة، والزَّفير صَوْت ٱلنَّار، والْمَعْنَىٰ أنّ ما قَاساه ٱلْمَرء من الدُّنْيَا من النَّكبات، وفِي قَبره من الأهوال ـ لَيْسَ بشيء إذَا قيس بعذاب الحريق يَوْم ٱلْقِيَامَة، الحريق بنارٍ ٱشتدّ لهبها، وهدد، وزمجر (لاَ فَتْرَةٌ مُرِيحَةٌ) بل عذابٌ دائمٌ متواصلٌ (وَ لاَ دَعَةٌ مُزِيحَةٌ)، أي تُنحي العذاب عَنْه، أو تُنحيه عن العذاب (وَلاَ قُوَّةٌ حَاجِزَةٌ) بينَه، وبيْنَ ٱلنَّار، وهَذِه الجُمل الثّلاث بمعنىً واحد، أو متقاربة الْمَعْنَىٰ.

(وَ لاَ مَوْتَةٌ نَاجِزَةٌ) ﴿لاَيُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُواْ وَلاَيُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا﴾[3]. (وَ لاَ سِنَةٌ مُسَلِّيَةٌ). وٱلسِّنَة ـ بكسر السّين ـ أَوّل النَّوْم، أو النُّعاس الَّذي يسبقه، والْمُرَاد بها هنا ٱلْمَوْت (بَيْنَ أَطْوَارِ الْمَوْتَاتِ، وَعَذَابِ السَّاعَاتِ!). كلّ نوبة من نوبات العذاب، ولحظة من لحظاته هِي مَوْت، أو أَشد (إِنَّا بِاللهِ) وبالولاء للنبي، وآله (عَائِذُونَ) من عذاب الجبار، وغضبه.

هَلْ مِنْ مَنَاصٍ؟ فِقْرَة ٢٠ ـ ٢١:

عِبَادَ اللهِ، أَيْنَ الَّذِينَ عُمِّرُوا فَنَعِمُوا، وَ عُلِّمُوا فَفَهِمُوا، وَ أُنْظِرُوا فَلَهَوْا، وَ سُلِّمُوا

(١) غافِر: ٤٦.
(٢) أنظر، شرح التّجريد للعلاّمة الحليّ. (مِنْهُ ﷺ).
(٣) فَاطِر: ٣٦.

فَنَسُوا ! أُمْهِلُوا طَوِيلاً ، وَ مُنِحُوا جَمِيلاً ، وَ حُذِّرُوا أَلِيماً ، وَ وُعِدُوا جَسِيماً ! آحْذَرُوا الذُّنُوبَ الْمُوَرِّطَةَ ، وَ الْعُيُوبَ الْمُسْخِطَةَ .

أُولِي الْأَبْصَارِ ، وَ الْأَسْمَاعِ ، وَ الْعَافِيَةِ ، وَ الْمَتَاعِ ، هَلْ مِنْ مَنَاصٍ ، أَوْ خَلَاصٍ ، أَوْ مَعَاذٍ ، أَوْ مَلاَذٍ ، أَوْ فِرَارٍ ، أَوْ مَحَارٍ ! أَمْ لاَ ؟ ﴿فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ﴾[1] أَمْ أَيْنَ تُصْرَفُونَ ! أَمْ بِمَا ذَا تَغْتَرُّونَ[20] ! وَ إِنَّمَا حَظُّ أَحَدِكُمْ مِنَ الْأَرْضِ ، ذَاتِ الطُّوْلِ ، وَ الْعَرْضِ ، قِيدُ قَدِّهِ ، مُتَعَفِّراً عَلَىٰ خَدِّهِ ! الْآنَ عِبَادَ اللهِ ، وَ آلْـخِنَاقُ مُـهْمَلٌ ، وَ الرُّوحُ مُـرْسَلٌ ، فِـي فَـيْنَةِ الْإِرْشَادِ ، وَ رَاحَةِ الْأَجْسَادِ ، وَ بَاحَةِ الاِحْتِشَادِ ، وَ مَـهَلِ الْـبَقِيَّةِ ، وَ أُنُـفِ الْـمَشِيَّةِ ، وَإِنْظَارِ التَّوْبَةِ ، وَ آنْفِسَاحِ الْحَوْبَةِ ، قَبْلَ الضَّنْكِ ، وَ الْمَضِيقِ ، وَ الرَّوْعِ ، وَ الزُّهُوقِ ، وَ قَبْلَ قُدُومِ الْغَائِبِ الْمُنْتَظَرِ ، وَ إِخْذَةِ الْعَزِيزِ الْمُقْتَدِرِ[21] .

اللُّغَة:

آلْوَرِّطَةَ : التَّهـلكة ، والْمُـوَرِّطَةَ ـ بِـتَشدِيد الرّاء ـ المُـهلكة . والمَحَـار : المَـرْجِع . وتُؤْفَكُونَ : تُصْرَفُونَ ، أو تَنْقلبُون . والقَدُّ : مُقدار القَامة . ومُتَعَفِّراً علىٰ خَدِّهِ : واضعاً خَدَّه علىٰ التُّراب . والفَيْنَة : السَّاعة ، والحِين . والبَاحَةِ : السَّـاحَة . وَأُنُـفِ ـ بـضم الْأَلْف ، والنّـون ـ الْأَوَّل ، أو المُسـتأنف . والضَّـنْكِ : الضِّـيق . وَآلرَّوْع : آلْخَـوْف . والزُّهُوقِ : الاِضْمَحلاَل .

الْإِعْرَاب:

طَوِيلاً صفة لمَحْذُوف أي أَمداً طَوِيلاً ، وجَمِيلاً أي مُنحوا مَنحاً جَمِيلاً ، وجَسِيماً

---

(١) آلأَنعَام: ٩٥.

أي وُعِدُوا وَعداً جَسِيماً. أُولِي الأَبْصَارِ أي يا أُولِي الأَبْصَارِ، ومِنْ مَنَاصٍ «مِنْ» زَائِدَة، ومَنَاصٍ مُبْتَدأ. والخَبَر مَحْذُوف أي هل لَكُم مَنَاص، وأَنّىٰ مَفْعُول مُطلق أيْ أيَّ إفكٍ تُؤْفَكُونَ، وذَاتِ صفة للأَرْضِ، وقِيدُ خَبَر لحَظُّ، ومُتَعَفِّراً حَال من الضَّمِير المجرور بإضافة قَدِّهِ، والآنَ مُتَعَلِّق بمَحْذُوف أي ٱعْـمَلُوا الآنَ، وفِي فَـيْنَةِ مُـتَعَلِّق بمُرْسَل، وقَبْلَ مُتَعَلِّق بٱنْفِسَاحِ.

الْمَعْنىٰ:

(عِبَادَ اللهِ، أَيْنَ الَّذِينَ عُمِّرُوا فَنَعِمُوا؟). هَذَا تَذكِير بحال المَاضِين الّذين عَاشوا طَوْيلاً، وتَقَلبوا فِي الملذات كَثِيراً (وَ عُلِّمُوا فَفَهِمُوا). أُرشدو إِلىٰ الطَّرِيق الْـقَوِيم، فرأوه، وعَرفوه، ولَكِنَّهُمْ (لَهَوْا) عَنْه بالدُّنْيَا، وزِينَتهَا (وَ سُلِّمُوا) أي عاشوا أَمـداً غَيْر قصير فِي سَلاَمَة الأَبْدَان، وٱلأَرْزَاق ولَكِنَّهُمْ (نَسُوا!) الطَّـرِيق الْـقَوِيم الَّـذي كَانُوا قد أرشدوا إِلَيْهِ فعرفوه، وفهموه (وَ أُمْهِلُوا طَوِيلاً) كِـي يَـعملوا (وَ مُـنِحُوا جَمِيلاً) كِي يشكروا (وَ حُذِّرُوا أَلِيماً) أي مِن عذاب أَلِـيمٍ كِـي يَـتقوا (وَ وُعِـدُوا جَسِيماً!) عَلىٰ صالح الأَعْمَال كِي يرغبوا (وَٱحْذَرُوا الذُّنُوبَ الْمُوَرِّطَةَ) أي المُهلكة (وَ الْعُيُوبَ الْمُسْخِطَةَ) أي الّتي تُؤَدِّي بِكم إِلىٰ عذاب الله، وسخطه.

(أُولِي الأَبْصَارِ، وَ الأَسْمَاعِ، وَ الْعَافِيَةِ، وَ الْمَتَاعِ، هَلْ مِنْ مَنَاصٍ، أَوْ خَلاَصٍ، أَوْ مَعَاذٍ، أَوْ مَلاَذٍ، أَوْ فِرَارٍ، أَوْ مَحَارٍ! أَمْ لاَ؟ ﴿فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ﴾[1] أَمْ أَيْنَ تُصْرَفُونَ! أَمْ بِمَا ذَا تَغْتَرُّونَ؟). خَاطب الإِمَام بِهَذَا المُترفين الطُّغاة، وَقَالَ لَهُمْ: إِلَىٰ متىٰ التَّمادي فِي

(١) الأَنْعَام: ٩٥.

الْعُدْوَان، والعصيان ؟ أَمّا لَكُم من الله، أو الضَّمِير رادع، وزاجر ؟ وبأي شيء تَغْتَرُّونَ ؟ وعلىٰ أي شيء تَعْتَمدُّون ؟ أَعلىٰ مال تتركونه للوارث، والْحَوَادِث، أو علىٰ صحةٍ، وجاهٍ إِلَىٰ زوال، أَمْ مَعَكُمْ أَمان من الله، وعذابه، أَمْ تَسْتَطِيعون الفرار مِمَّا خُبِىء لَكُم ؟ لَكُمْ الويل مِمَّا تَفْعَلُون، وتكتسبون.

(وَ إِنَّمَا حَظُّ أَحَدِكُمْ مِنَ الْأَرْضِ، ذَاتِ الطُّوْلِ، وَ الْعَرْضِ، قِيدُ قَدِّهِ، مُتَعَفِّراً عَلَىٰ خَدِّهِ !). كلّ إِنْسَان صَعْلُوكاً كَانَ أَم ملكاً يُسِيطر علىٰ الْأَرْض بطولها، وعرضها ـ لا بُد أَنْ ينتهي إِلَىٰ لِحد، طوله خَمسة أشبار، أو سِتة فِي عرض شبرين ونصف، أو ثلاثة... قدراً بقدر.. مفترشاً التُّراب، وملتحفاً الصّخور، والأحجار... إِذَنْ فَعَلاَم الغُرُور، والْكِبْرِيَاء ما دام هَذَا هو المصير، والْعَاقِبَة ؟. وَقَالَ واعظ لِمن يعظه: «أحمل القبر دوماً معك، وَلاَ أقول: أحمل تُربته، بل أحمل فكرته» ومن حمل فكرة أي شيء ظهر أثرها فِي عَمله.

(الْآنَ عِبَادَ اللهِ، وَ الْخِنَاقُ مُهْمَلٌ) أي مُطلق لَم يشدّ به شيء (وَ الرُّوحُ مُرْسَلٌ، فِي فَيْنَةِ الإِرْشَادِ). الرُّوحُ ما كَانَ بِه الْحَيَاة يذكّر، ويُؤنث، والْمَعْنَىٰ أَنّ أرواحكم متروكة لم تُقبض فِي زمن التَّكليف، والْعَمَل (وَ رَاحَةِ الْأَجْسَادِ) أي وقت قُوَّتِها، وقدرتها علىٰ الْعَمَل (وَ بَاحَةِ الاِحْتِشَادِ) أي تَسْتَطيعون أَنْ تَجْتَمِعُوا، وتعملوا يداً وَاحِدَة علىٰ ما فِيه خير الجَمِيع (وَ مَهَلِ الْبَقِيَّةِ). لقد بقي لَكُم مِن الْعُمُر ما يُمكنكم مَعه أَنْ تتوبوا إِلَىٰ الله عمّا كَانَ، وتتلافوا ما فاتكم من الإهمال، والتَّقْصِير (وَ أُنُفِ الْمَشِيَّةِ). لو كَانَ لَكم عَزم صادق علىٰ الطَّاعَة لابتدأتم من الآن بِمَا افترض الله عَلَيْكُمْ (وَإِنْظَارِ التَّوْبَةِ). فِي الوقت مُتسع لِلتَّوْبَة إِنْ بادرتم الآن (وَ انْفِسَاحِ الْحَوْبَةِ) أي الْحَاجَة، والْمَعْنَىٰ أَنّكم قادرون علىٰ عَمل ما تحتاجُون إِلَيْهِ فِي آخرتكم.

(قَبْلَ الضَّنْكِ، وَ الْمَضِيقِ، وَ الرَّوْعِ، وَ الزُّهُـوقِ). اْغْـتنموا الْـفُرْصَة، فـإنّكم ضيوف مؤقتون فِي هَذِه اَلأَرْض، فَإِذَا جاء وقت الرّحيل، والفَزع، والاِضْمَحلال ضَاق عَلَيْكُمْ المخرج، ولم تملكوا من الأَمْر شَيْئاً (وَ قَبْلَ قُدُومِ الْغَائِبِ الْمُنْتَظِرِ -بِالْفَتْحِ اَسم مَفْعُول -وَ إِخْذَةِ الْعَزِيزِ الْمُقْتَدِرِ) وهو اَلْمَوْت، وإنّما وصـفه الإِمَـام بـالْمُنْتَظَرِ والْعَزِيزِ الْمُقْتَدِرِ لأنّه آتٍ لا مَحَالَةَ، وغَالبٌ قَاهِرٌ فِي شَتَّىٰ الأحـول، وَقَـالَ عَـنْه فِي خُطْبَة ثَانِيَة: «زَائِرٌ غَيْرُ مَحْبُوبٍ، وَقِرْنٌ غَيْرُ مَغْلُوبٍ، وَوَاتِرٌ غَيْرُ مَطْلُوبٍ»[1].

(١) اُنظر، نَهْج اَلبلاغة: اَلخُطْبَةُ (٢٣٠).

الخطبة

-٨٤-

وَ شَرُّ الْقَوْلِ اَلْكَذِبُ:

عَجَباً لِابْنِ النَّابِغَةِ ! يَزْعُمُ لِأَهْلِ الشَّامِ أَنَّ فِيَّ دُعَابَةً ، وَ أَنِّي امْرُؤٌ تِلْعَابَةٌ : أُعَافِسُ ، وَ أُمَارِسُ ! لَقَدْ قَالَ بَاطِلاً ، وَ نَطَقَ آثِماً . أَمَا ـ وَ شَرُّ الْقَوْلِ الْكَذِبُ ـ إِنَّهُ لَيَقُولُ فَيَكْذِبُ ، وَ يَعِدُ فَيُخْلِفُ ، وَ يُسْأَلُ فَيَبْخَلُ ، وَ يَسْأَلُ فَيُلْحِفُ ، وَ يَخُونُ الْعَهْدَ ، وَ يَقْطَعُ الْإِلَّ ، فَإِذَا كَانَ عِنْدَ الْحَرْبِ فَأَيُّ زَاجِرٍ ، وَ آمِرٍ هُوَ ! مَا لَمْ تَأْخُذِ السُّيُوفُ مَآخِذَهَا ، فَإِذَا كَانَ ذَلِكَ كَانَ أَكْبَرُ مَكِيدَتِهِ أَنْ يَمْنَحَ الْقَرْمَ سُبَّتَهُ . أَمَا وَ اللهِ إِنِّي لَيَمْنَعُنِي مِنَ اللَّعِبِ ذِكْرُ الْمَوْتِ ، وَ إِنَّهُ لَيَمْنَعُهُ مِنْ قَوْلِ اَلْحَقِّ نِسْيَانُ الْآخِرَةِ ، إِنَّهُ لَمْ يُبَايِعْ مُعَاوِيَةَ حَتَّىٰ شَرَطَ أَنْ يُؤْتِيَهُ أَتِيَّةً ، وَ يَرْضَخَ لَهُ عَلَىٰ تَرْكِ الدِّينِ رَضِيخَةً .

اللُّغَة:

الدُّعَابَة : المُزَاحُ . والتِّلْعَابَة : مُبالغة فِي اللّعب . والإِلّ : الرَّحِمُ . وأُعَافِسُ : أُلاعب ، يُقَال : عَافسَ أهله أي لاعبها ، وعالجها ، ومِثْله وأُمَارِسُ . وَيُلْحِفُ : يُلحّ ،

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿لَايَسْـَٔلُونَ ٱلنَّاسَ إِلْحَافًا﴾[١]. السُّبَّتَة ـ بضم السّين، وَتَشدِيد البَـاء ـ السَّوءة. وأَتِيَّةً ـ بِتَشدِيد اليَاء ـ العَطِيَّة. ومِثْلها الرَّضِيخَة مَع كون الْعَطَاء قَليلاً.

الْإِعْرَاب:

عَجَباً نصب علىٰ الْمَصْدَرِيَة أي أَتعجب، والْمَصْدَر من أَنَّ وما بعدها سَاد مَسد مَفْعُولي «يَزْعُمُ» وبَاطِلاً صفة لمَفْعُول مُطلق مَحْذُوف أي قَالَ قَـوْلاً بَـاطِلاً، وآثِمـاً حَال، وأَيُّ خَبَر مُقَدَّم، و «هُوَ» مُبْتَدَأ مُؤَخَّر أي فَهُوَ أي زَاجِرٍ، وقيل أنّ «أَيُّ» هُنا حَال، وَلَمْ يَتضح لديّ وَجهُ الحَالِيَّة.

الْمَعْنَىٰ:

(عَجَباً لِابْنِ النَّابِغَةِ!). وَهِي أُمّ عَمْرُو بن العَاص، قَالَ مِيْثَم البحراني: «سُمِّيَت أُم عَمْرُو ٱلنَّابِغَة لشهرتها بِالْفُجُورِ، وتظاهرها بِهِ»[٢]، وجَاء فِي شرح ٱبن ٱلْحَـدِيد: «أنّ ٱلنَّابِغَة أُمّ عَمْرُو بن العَاص وقع عَلَيْهَا أبو لهب، وأُمَيَّة بن خلف، وهُشام بن الْمغِيرَة، وأبو سُفْيَانَ بن حَرْب، والعَاص، وقـعوا عَـلَيْهَا جَمِـيعَاً فِي طُـهر واحـد، فولدت عَمراً، فٱدعاه كُلّهم، ولكن أُمّه ٱختارت العَاص لأنّه كَـانَ يُـنفق عَـلَيْهَا كَثِيراً، وكَانَ عَمْرُو أشبه بأَبِي سُفْيَانَ، وفِي ذَلِكَ، يَقُول أبو سُفْيَانَ بن الحرث بـن عبدالمطلب فِي عَمْرُو بن العَاص[٣]:

(١) ٱلْبَقَرَة: ٢٧٣.

(٢) أُنظر، شرح مئة كَلِمَة: ١٦٢، وشرح النَّهج لشارح الْكَلِمَات: ٢٠٩.

(٣) أُنظر، شرح النَّهج: ٢٨٣/٦، الإسْتِيعَاب: ٤٣٤، الغارات: ٥١٤/٢، ربيع الأبرار للزمخشري: ٥٤٨/٣.

أَبوكَ أَبو سُفْيَانَ لا شَكّ قَدْ بَدَتْ   لَـنَا فِـيكَ مِـنهُ بـيّنَات الشَّمائـل

(يَزْعُمُ لِأَهْلِ الشَّامِ أَنَّ فِيَّ دُعَابَةً، وَ أَنِّي ٱمْرُؤٌ تِلْعَابَةٌ: أُعَافِسُ، وَ أُمَارِسُ!). أي أُلاعب، وأُداعب... فكر ٱبن العَاص طَويلاً ليجد مأخذاً واحداً علىٰ الإِمَـامعليه السلام تُصدقه النّاس فِيهِ، ولمّا عَجِز ويَئس ٱفترىٰ، وَقَالَ: إنّ عَلِيّاً لا يصلح لِـلْخِلاَفَة، لأنّه مزّاح، هزّال... والله يعلم، والصَّالِحُون مِن عِبَادِه أنّه (لَقَدْ قَالَ بَاطِلاً، وَ نَطَقَ آثِماً. أَمَا ـ وَ شَرُّ الْقَوْلِ الْكَذِبُ ـ) فِي الجِد والهزَل بٱتفاق أَهْل ٱلأَرْض منذ وجدوا علىٰ ظهرها، ولكن ٱبن ٱلنَّابِغَة يتخطىٰ الْقِيَّم (إِنَّهُ لَيَقُولُ فَيَكْذِبُ) بلا خَـجل مـن النّاس، وَوَجل من الله (وَ يَعِدُ فَيُخْلِفُ) كما هو دأب الكذُّوب، والمُنَافِق (وَ يُسْأَلُ) بالبناء للمجهول (فَيَبْخَلُ). «ٱلْبُخْلُ جَامِعٌ لِمَسَاوِئِ الْعُيُوبِ، وَ هُوَ زِمَامٌ يُقَادُ بِهِ إِلَىٰ كُلِّ سُوءٍ»[1] قَالَ الْإِمَامعليه السلام.

(وَ يَسْأَلُ) بالبناء للمعلوم (فَيُلْحِفُ) أي يَلحّ فِي السّؤال، ويـطلب مـن غَـيْره بالحـاح ما ضنت بِه نَفْسه.. وهُنا مكان الغرابة (وَ يَخُونُ الْـعَهْدَ). والخـيانة مـن علامات الْغَدْر، والنِّفَاق (وَ يَقْطَعُ الْإِلَّ). ولَيْسَ قطع الرَّحِمُ بغرِيب علىٰ من يغدر، ويفجر (فَإِذَاكَانَ عِنْدَ الْحَرْبِ فَأَيُّ زَاجِرٍ، وَ آمِرٍ هُوَ! مَا لَمْ تَأْخُذِ السُّيُوفُ مَآخِذَهَا). أي إنّه يُحَارِب... ولكن بالكلام، وفِي مَوْطِن الْأَمْن، والْأَمَان (فَـإِذَا كَـانَ ذَلِكَ). أي ٱستعرت نار الْحَرْب، وٱشتبكت السُّيُوف، والأسنة (كَانَ أَكْبَرُ مَكِيدَتِهِ أَنْ يَـمْنَحَ الْقَرْمَ سُبَّتَهُ). يُشير الإِمَام بِهَذَا إِلَىٰ ما حدث لهُ مَع عَمْرُو بن العَاص لمّا حملَ عَليهِ فِي

⇐ ونسب صاحب النَّهج الأبيات الشّعرية إلىٰ حَسّان بن ثابت حَيْث عَيَّرَ عَمْرُو بن العَاص، مُكافئاً لهُ عن هجاء رَسُول اللهصلى الله عليه وآله.

(١) أنظر، نَهج البَلاَغَة: ٱلحِكْمَة (٣٧٨).

صِفِّين، وكشف عَمْرُو عن سوءته لينجو بحشاشته، فأَعْطَاه الإِمَامُ ظهره، وصار عَمْرُو مثلاً لمن يدفع ٱلْمَكْرُوه عن نَفْسِه بالذُّلِّ، وٱلْعَار، وفِي ذَلِكَ يَقُول الشّاعر[1]:

(١) ووردت هَذِه القِصّة بألفاظ مُختلفة، وفِي مصَادر تَأرِيخِيه مُتعدّدة ولكن كلّها تُؤَدِّي نفس الْمَعْنَىٰ، فَقد ذكرها ٱبن مزاحم فِي وَقْعَة صِفِّين: ٤٠٦ و ٤٠٨ و ٤٢٣ و ٤٢٤ و ٤٣٢، والإِمَامَة وَالسِّيَاسَة لِابْن قُتَيْبَة: ١/ ١٢٧، كشف اليَقِين: ١٥٧ ـ ١٥٨، طَبقَات ٱبن سعد: ٧/ ١٨٨، أُسد الغَابَة: ٤/ ٤٢٠، الكَامِل فِي التَّأرِيخ: ٢/ ٢٣٢، شَرح النّهج لِابْن أَبِي ٱلْحَدِيد: ١/ ٢٠، و: ٨/ ٥٣. ونقل لنا نصر بن مزاحم فِي وَقْعَة صِفِّين المُحاورة، والأشعَار، والفرَار، وكَشف العورة من قِبل عَمْرُو بن العَاص، قَالَ: وحمل أَهْل الْعِرَاق وتلقّاهم أَهْل الشّام فٱجتلَدوا، وحمل عَمْرُو بن العَاص مَعلِماً وهو يَقُول:

شدّوا عليّ شكتي لا تنكشف — بَعد طليح، والزُّبَيْر فأتلِفْ
يَومُ لهَمْدَان وَيومٌ للصّدِف — وفِي تَمِيمٍ نخوةٌ لا تنحرفْ
أضربُها بالسَّيف حَتَّىٰ تنصرِفْ — إِذَا مشيتُ مِشْيَةَ العَوْدِ الصَّلِفْ
وَمِثلها لحِمير أو تنحرف — والرَّبَعيُّون لهم يَوْم عَصِفْ

فَاعترضه عليٌّ يَقُول:

قَد عَلمت ذَات القُرون الميل — والخصْرِ والأنامِلِ الطّفولِ
إنّي بنَصل السّيْف خنشَليلُ — أحمِىٰ وأرمِىٰ أَوّل الرّعِيلِ

ثمّ طَعنه فصَرعه وٱتّقاهُ عَمْرُو بِرجْلِهِ، فَبدت عَورتهُ، فصَرف عليٌّ وَجهه عَنْه، وارتُثّ. فَقَالَ الْقَوْم: أفلتَ الرّجلُ يا أَمِير ٱلْمُؤْمِنِين قَالَ: وهل تَدرون مَن هو؟ قَالُوا: لا. قَالَ: فإِنّه عَمْرُو بن العَاص تَلَقّاني بعَورته فَصرفْتُ وَجهي عَنْه.

ورَجع عَمْرُو إِلىٰ مُعَاوِيَة فَقَالَ له: ما صَنعتَ يا عَمْرُو؟ قَالَ: لقيني عليٌّ فَصَرعني. قَالَ: أحمد الله، وعَورَتك، أمَا والله أنْ لو عرفتَه ما أقحمتَ عَلَيْه، وَقَالَ مُعَاوِيَة فِي ذَلِكَ شعراً:

ألا لله مِن هَفوات عَمْرُو — يُعاتبُني عَلىٰ تَركي بِرَازي
فَقَد لاَقىٰ أبا حَسَنٍ عَلِيّاً — فآب الوَائليُّ مآبَ خَازِي
فَلو لم يُبْدِ عورتَه للاَقىٰ — بِهِ لِيثاً يُذلّلُ كلَّ نازِي

فَغضب عَمْرُو، وَقَالَ: ما أشدّ تَنبيطك عَلِيّاً فِي أمري هَذَا؟ هل هو إلّا رجلٌ لقيه ابنُ عمّه فصرعه، أفترَىٰ السّماءَ قَاطرةً لذلك دَماً؟ قَالَ: ولَكِنّهُ معقبة لك خِزْياً.

ثمّ قَالَ فِي: ٤٣٢: إنّ مُعَاوِيَة أظهر لعَمْرُو شماتةً، وجعل يقرّعه، ويوبّخه... وإنّك لجبانٌ فغضب عَمْرُو ثمّ قَالَ: والله لو كَانَ عَلِيّاً ما قحمتُ عَلَيْهِ يا مُعَاوِيَة، فهلّا برزتَ إلَىٰ عليٍّ إذْ دعاك إنْ كُنت شجاعاً كما تزعمُ، وَقَالَ عَمْرُو فِي ذَلِكَ شِعراً:

فَـهل لكَ فِي أبِي حسنٍ عليٍّ لعـلّ الله يُمكِّـنُ مـن قَـفَاكا
دَعـاك إلَىٰ النزال فَـلم تُجِـبْهُ ولَـو نـازلتَهُ تَـرِبَتْ يَـدَاكـا

وأنظر المُحاورة، والشّعر فِي صفحة أُخرىٰ من الكتاب وَهِي: ٤٧٢ ـ ٤٧٣. وَقَالَ جورج جرداق فِي كتابه الإمَام عليّ عليه السلام صَوْت العَدَالة الإنْسَانية: ١ / ٨٢: وقد أصْبَحَ ذو الفقار فوق هَامته، ولو قَضىٰ عليّ عليه السلام علىٰ عَمْرُو آنذاك لكان قَضىٰ على المكر، والدّهاء وجَيش مُعَاوِيَة. وأنظر شَرح النّهج لابْن أبي الحَدِيد: ٣ / ٣٣٠، وكشف اليَقِين لابْن المطهّر الحلّي: ١٥٧ ـ ١٥٨ وابن أعْثَمْ فِي الفُتُوح: ٢ / ٤٤ ومـا بعدها.

فَقَالَ مُعَاوِيَة لعَمْرُو بن العَاص: عزمت عَلَيْكَ إلّا ما خرجت لمبارزة هَذَا الفارس، فخرج إلَيْهِ عَمْرُو وهو لا يَعْرِف أنّه عليّ، فَلَمّا رآه عليّ عَرفه فَاطّرَد بَيْنَ يديه ليبعده عن أصْحَابه، فتبعه عَمْرُو هو يَقُول:

يَا قَادة الكُوفَة يـا أهْـل الـفِتَن أضربكُم وَلاَ أرىٰ أبـا الحَسَـن

فكرّ عَلَيْهِ عليّ عليه السلام وهو يَقُول:

أبو الحُسَيْن فاعـلمنّ والحَسَـن قَد جَاك يقتَاد العـنَان والرّسـن

فعَرفه عَمْرُو فولّىٰ عَنْه ركضاً وهو يَقُول: مكره أخاك لا بطل، فلحقه عليّ عليه السلام فطعنه طعنة جاءت فِي فضول درعه فألقته إلَىٰ الأرْض فظنّ أنّ عَلِيّاً قاتله فرفع رجليه فبدت سوأته، فصرف عليّ عَنْه وجهه راجعاً إلَىٰ عسكره وهو يَقُول: عورة المُؤْمِن حميّ، فقام عَمْرُو فركب فرسه وأقبل علىٰ مُعَاوِيَة فـجعل مُعَاوِيَة يضحك مِنْهُ، فَقَالَ عَمْرُو: ممّ تضحك؟ والله لو تكن أنْتَ وبدا له من صفحتك ما بدا له من صفحتي لصرت كَذَلِكَ وما أقالك، فَقَالَ له مُعَاوِيَة: لو كنت أعلم أنّك ما تحمل مزاحاً ما مازحتك، فَقَالَ عَمْرُو: وما أحملني للمزاح ولكنّي رَأيت أنْ لقي رجل رجلاً قصد أحدهُما علىٰ الآخر انـفطر السّماء دماً، فَـقَالَ مُعَاوِيَة: ولَكِنّهُ سوأة تعقب فضيحة الأبد، أمَا والله لو عرفته ما قدمت عَلَيْهِ. وإلَىٰ ذَلِكَ أشار أبو فراس

وَلاَ خَيرَ فِي دَفعِ الأَذَىٰ بِمَذلَّة ... كَمَا ردَّها يَوماً بِسوأَته عَمْرُو

(أَمَا وَ اللهِ إِنِّي لَيَمْنَعُنِي مِنَ اللَّعِبِ ذِكْرُ الْمَوْتِ). وَلاَ نعرف أحداً علىٰ الإطلاق وصف ٱلمَوْت، وغمراته، وسكراته، وأنزله حقّ منزلته كالإمَامِ ﷺ، والشّاهد هِي أَقْواله فِي النَّهج، وغَيْر النَّهج، وما ٱنتقلتُ من مَوْضُوع إِلَىٰ مَوْضُوع فِي خُطب الإِمَام ﷺ، أيّاً كَانَ نوعه ـ إلّا ورَأيت معه بطريقٍ، أو بآخر التَّحْذير من زِينَة ٱلحَيَاة، وأوزارها، ومَعْصِيَة الله، وآثَارها... ويصح لقَائِل أنْ يَقُول: إنّ هَذَا التَّحْذِير هو القَدَر الجَامع، والقاسم المشترك بَيْنَ خُطبه كلّها، أو جُلّها... لقد نَظر

⇔ بقَوْله:

وَلا خَيرَ فِي دَفعِ الرّدَىٰ بِمذلَّة ... كَما ردّها يَوماً بِسوأَته عَمْرُو

فصَاح رجل من أَهْل الكُوفَة: ويلكم يا أهْل الشّام أمَا تستحون من كشف الإستاه، وأنشد بقَوْله:

أَلا كلّ يَوْمٍ فَارس بَعد فَارس ... له عورة وسط العجَاجة بَادية

يكفّ حَنِيّاً لها عَليّ سِنَانه ... ويَضحك مِنْهَا فِي الخلاء مُعَاوِيَة

بَدت أمس من عَمْرو فقنّع رَأْسه ... وعورة، بُسْرٍ مِثْلها حذو حَاذية

فقولا لعَمْرو وابْن أرْطَاة أبصرا ... سَبيلكما لاَ تَلقَيا اللّيث ثَانِيَة

ولاَ تحمدا إلّا الحيَاء وخَصاكما ... همَا كانَتا والله للنَّفس وَاقِية

فلَوْلاَهما لم تَنجوا من سِنَانه ... وتِلْكَ بِمَا فيها عن العود كافِيه نَاهية

متىٰ تلقيا الخَيْل المشيحة صُبْحَةً ... وفيها عليٌّ فاتركا الخَيْل ناحية

وردت هَذِه الأبيات فِي الاستيعاب: ٦٤ ـ ٦٧ لَكِنَّهُ نسبها إِلَىٰ الحارث بن النَّضر السّهميّ. ووَقْعَة صِفّين: ٤٦٢ ونسبها إِلَىٰ النّضر بن الحارث، وفِيهِ: أفِي كلّ يَوْم فارس تندبونه... وفِي شرح النَّهج لابْن أبي الحَدِيد: ٢/٣٠١، وكَذَلِكَ مناقب الخوارزمي: ٢٤١: قَالَ الأَشْتَر:

أكلَّ يَوْمٍ رَجلٌ شيخ شَاغره ... وعورةٌ وسطَ العَجاجة ظَاهره

تبرزُها طَعنةُ كفٍّ واتره ... عَمْرو وبُسْرٌ مُنِيا بالفاقره

الفُتُوح لابْن أعْثَم: ٢/١٠٤ و ١٠٥، ووَقْعَة صِفِّين: ٤٦٢ وفِيهمَا: رُمِيَا بالفاقرة، وأُنظر القِصّة أيضاً فِي كَشف الغُمّة: ١٥٨ والمصادر السّابقة فِي ترجمة بُسْر بن أرْطَاة.

الْإِمَام إِلَىٰ الدُّنْيَا من خلال ٱلْمَوْت، وبِه قاس بهجتها، وزِينَتهَا، ومن أجل ذَلِكَ خاطبها، بقَوْله: «فَعَيْشُكِ قَصِيرٌ، وَخَطَرُكِ يَسِيرٌ، وَأَمَلُكِ حَقِيرٌ آهِ مِنْ قِلَّةِ الزَّادِ، وَطُولِ الطَّرِيقِ وَبُعْدِ السَّفَرِ، وَ عَظِيمِ الْمَوْرِدِ»[1]. وأيضاً من أجل ذَلِكَ طلقها ثلاثاً لا رَجْعَة فيها[2]، وكلّنا يعلم أنّ أَقْوَال الإِمَام عَين أفكاره، وإنّ أفكاره عَين أفعاله، وإنّ شخصيته وَاحِدَة لا تعدد فيها، وَلاَ ٱنفصام لَهَا.

(وَ إِنَّهُ ـ أي ٱبن العَاص ـ لَيَمْنَعُهُ مِنْ قَوْلِ ٱلْحَقِّ نِسْيَانُ الآخِرَةِ). ومن يبحث عن السّبب المباشر لعداوة من عادىٰ الإِمَام، وحاربه لا يجد إلّا سبباً واحداً، وهو أنّ الْإِمَام لا يعمل، ويَسْتَحِيل عَلَيْهِ أَنْ يعمل إلّا لربّه، وآخرته، وإنّ أَعْدَاءه يَعْمَلُون للدُّنْيَا، وزِينَتهَا كاَبن العَاص الَّذي سيطرت الأَهْوَاء علىٰ دِينه، وعَقْله، وقَلْبه، والدَّلِيل (إِنَّهُ لَمْ يُبَايِعْ مُعَاوِيَة حَتَّىٰ شَرَطَ أَنْ يُؤْتِيَهُ أَتِيَّةً، وَ يَرْضَخَ لَهُ عَلَىٰ تَرْكِ الدِّينِ رَضِيخَةً). والْمُرَاد بالأتِيَّة، والرَّضِيخَة هُنا وِلاَيَة مِصْر، والقِصَّة معروفة، وأشهر من أَنْ تُذكر، ومَع هَذَا أشرنا إِلَيْهَا فيما سبق... ولَيْسَ بغريب أَنْ يسوىٰ ٱلحِسَاب بَيْنَ مُعَاوِيَة، وٱبن العَاص علىٰ حساب ٱلإِسْلاَم، ودماء ٱلْمُسْلِمِين ما دام كلّ مِنْهُمَا يحرص علىٰ دُنياه، وَلاَ يترك مِنْهَا شَيْئاً لآخرته.

---

(١) أُنظر، نَهج البَلاَغَة: ٱلْحِكْمَة (٧٧).

(٢) يقصد قَوْله عليه السلام كما جاء فِي ٱلْحِكْمَة (٧٧)، من نَهج البَلاَغَة. «يَا دُنْيَا! يَا دُنْيَا! إِلَيْكِ عَنِّي أَبِي تَعَرَّضْتِ، أَمْ إِلَيَّ تَشَوَّقْتِ، لاَ حَانَ حِينُكِ، هَيْهَاتَ غُرِّي غَيْرِي لاَ حَاجَةَ لِي فِيكِ قَدْ طَلَّقْتُكِ ثَلاَثاً لاَ رَجْعَةَ فِيهَا».

الخطبة

-٨٥-

دَرَجَاتٌ مُتفَاضِلاَتٌ:

وَ أَشْهَدُ أَنْ لاٰ إِلَهَ إِلاَّ اللهُ وَحْدَهُ لاٰ شَرِيكَ لَهُ : الأَوَّلُ لاٰ شَيْءَ قَبْلَهُ ، وَ الآخِرُ لاٰ غَايَةَ لَهُ ، لاٰ تَقَعُ الأَوْهَامُ لَهُ عَلَىٰ صِفَةٍ ، وَ لاٰ تُعْقَدُ الْقُلُوبُ مِنْهُ عَلَىٰ كَيْفِيَّةٍ ، وَ لاٰ تَنَالُهُ التَّجْزِئَةُ ، وَ التَّبْعِيضُ ، وَ لاٰ تُحِيطُ بِهِ الأَبْصَارُ ، وَ الْقُلُوبُ .

فَاتَّعِظُوا عِبَادَ اللهِ بِالْعِبَرِ النَّوَافِعِ ، وَ اعْتَبِرُوا بِالآيِ السَّوَاطِعِ ، وَ ازْدَجِرُوا بِالنُّذُرِ الْبَوَالِغِ ، وَ انْتَفِعُوا بِالذِّكْرِ ، وَ الْمَوَاعِظِ ، فَكَأَنْ قَدْ عَلِقَتْكُمْ مَخَالِبُ الْمَنِيَّةِ ، وَانْقَطَعَتْ مِنْكُمْ عَلاٰئِقُ الأُمْنِيَّةِ ، وَ دَهِمَتْكُمْ مُفْظِعَاتُ الأُمُورِ ، وَ السِّيَاقَةُ إِلَىٰ الْوِرْدُ الْمَوْرُودُ ، فَ ﴿كُلُّ نَفْسٍ مَعَهَا سَائِقٌ وَ شَهِيدٌ﴾[1] : سَائِقٌ يَسُوقُهَا إِلَىٰ مَحْشَرِهَا ، وَ شَاهِدٌ يَشْهَدُ عَلَيْهَا بِعَمَلِهَا .

دَرَجَاتٌ مُتَفَاضِلاٰتٌ ، وَ مَنَازِلُ مُتَفَاوِتَاتٌ ، لاٰ يَنْقَطِعُ نَعِيمُهَا ، وَ لاٰ يَظْعَنُ مُقِيمُهَا ، وَ لاٰ يَهْرَمُ خَالِدُهَا ، وَ لاٰ يَبْأَسُ سَاكِنُهَا .

---

(١) سُورَةُ ق : ٢١.

اللُّغَة:

الآي: جمع آية. والسَّوَاطِع: جَمع السَّاطِع، وهو الظَّاهِر الْوَاضِح. والْبَوَالِغ: جَمع البَالِغة، ومَعْنَىٰ الحجّة، أو ٱلْمَوْعِظَة البَالِغة أَنَّهَا بَلغت الْغَايَة من الوضُوح، والكَشف عن ٱلْعَوَاقِب، والآثَار. وعَلائِقُ: مِن تَعَلق بِهِ. والمُقْطِعَاتُ: الشَّدَائِد. وَالسِّيَاقَةُ: مِن سَاق يَسوق. لاٰ يَظْعَنُ: لاٰ يَرْحَلُ. لاٰ يَبْأَسُ: لاٰ يَحتَاج.

الإِعْرَاب:

أَشْهَدُ أَنْ لاٰ إِلَهَ إِلاّ اللهُ «أَنْ» مُخففة، وٱسمها ضَمِير الشّأن أي أنّه، وجُمْلَة لا بعدها خَبَر، والأَوَّلُ بدل مِن الله، أو خَبَر لمُبْتَدأ مَحْذُوف أي هو الأَوَّل، وكَأَنْ مُخففة، وٱسمها مَحْذُوف مثل «أَنْ» و«سَائِقٌ» الثَاني بدل مِن «سَآئِقٌ» الأَوَّل، وَشَاهِدٌ بدل من شَهِيدٌ. ودَرَجَاتٌ مُبْتَدَأ، ومُتَفَاضِلاتٌ صِفة، والْخَبَر مَحْذُوف أي لأَهْل ٱلْجَنَّة.

الْمَعْنىٰ:

(وَحْدَهُ لاٰ شَرِيكَ لَهُ) وإلاّ فسدت ٱلأَرْض والسَّمَاء كما قَالَ سُبْحَانَهُ: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَـٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾[1]. وتَقَدَّم الكَلاَم عَن ذَلِكَ. وأيضاً لو كَانَ لربّك شريك لأتتك رُسله كما قَالَ الإِمَام (الأَوَّلُ لاٰ شَيْءَ قَبْلَهُ، وَ الآخِرُ لاٰ غَايَةَ لَهُ). أي هو سُبْحَانَهُ أَوّل بلا ٱبتداء، وآخر بلا ٱنتهاء، أَبدي سرمدي، ولو سبقه العدم، أو ٱنتهىٰ إِلَيْهِ لكان حَادثاً، وَلاَ بُد لوجود

(١) ٱلأنبياء: ٢٢.

الحادث من سبب، فإنْ لَمْ يَكُنْ هَذَا السّبب ذاتياً ـ كما هو الفرض ـ احتاج إلَىٰ غَيْره، وإذَنْ فلا مَفرّ من الانتهاء إلَىٰ سبب الأَسْبَاب، ومِثْله قولك: لا تصح النَّظرية إلّا مَع البُرهان علىٰ صحتها: وَلاَ بُد أنْ يَكُون هَذَا البُرهان صحيحاً بالذات، أو ينتهي إلَىٰ بُرهان كَذَلِكَ، وإلّا غرقنا فِي بحر الْجَهْل، والظُّلمات.

(لاَ تَقَعُ الْأَوْهَامُ لَهُ عَلَىٰ صِفَةٍ). مهما سَمت الْعُقُول فَلا تبلغ كُنْه عَظَمَته تَعَالَىٰ، وإنّما تُدرك مِنْهَا بمقدار ما يَدل عَلَيْهَا خلقه، وآثَارها، وَلَيْسَ من شَكٍ أنّ فِي الفَاعِل، والخَالِق صِفَات لا تَظهر، وَلاَ يُمكن أنْ تظهر فِي الفِعْل، والمَخْلُوق، ومن هُنا قِيل: الْعِلَّة أَكمل من المعلول، وتَقَدَّم الكَلاَم عن ذَلِكَ مِراراً (وَ لاَ تُعْقَدُ الْقُلُوبُ مِنْهُ عَلَىٰ كَيْفِيَّةٍ). لَيْسَ لله سُبْحَانَهُ هيئة، وصورة كِي تَعْتَقد وتَحكم بوجودها الْعُقُول وإلّا كَانَ شبيهاً بخلقه. فتَعَالَىٰ الله الَّذي لَيْسَ كَمِثْله شَيْءٌ. وعن الإِمَام الصّادق عليه السلام: «لا تتكَلَّموا فِي ذات الله... وإيّاكُمْ والتَّفكير فِي ذَلِكَ. ولكن اُنظروا إلَىٰ عظيم خلقه»[1]. (وَ لاَ تَنَالُهُ التَّجْزِئَةُ، وَ التَّبْعِيضُ). لأنّ التَّجزِئَة من خَواص الأَجْسَامِ، والله لَيْسَ بجسم، وإلّا افتقر إلَىٰ مكان... وأيضاً التَّجْزِئَة تَسْتَدعِي التَّركيب، والمُركب يَفْتَقِر إلَىٰ أَجْزَائه... هَذَا، إلَىٰ أنّ التَّجْزِئَة كَثْرَة، والله واحد (وَ لاَ تُحِيطُ بِهِ الْأَبْصَارُ، وَ الْقُلُوبُ). عطف تَفْسِير علىٰ: «لاَ تَقَعُ الْأَوْهَامُ...، وَلاَ تُعْقَدُ الْقُلُوبُ..».

(فَاتَّعِظُوا عِبَادَ اللهِ بِالْعِبَرِ النَّوَافِعِ، وَ اعْتَبِرُوا بِالْآيِ السَّوَاطِعِ، وَ ازْدَجِرُوا بِالنُّذُرِ الْبَوَالِغِ). والْمَوْت أَظهر الآيَات، والعِبَر، والنّذر حَيْث يتساوىٰ فِيهِ المُلُوك،

(١) أنظر، الكافي: ٩٢/١ ح ١، وشرح أصول الكافي: ١٤٧/٣، وسائل الشّيعة: ١٩٦/١٦، صدر الحَدِيث.

والصَّعاليك، ولو تساوىٰ النّاس فِي كلّ شيء كما تساووا فِي ٱلْمَوْت لأحبّ بَعْضهُم بعضاً حَتَّىٰ ولو قَالَ لَهُمْ الوعاظ: تباغضوا، وتحاسدوا، وَلاَ أعرف أحداً ـ إلّا من عَصم ربّك ـ عمل بِهَذِه الْوَصِيَّة: «فَأَحْبِبْ لِغَيْرِكَ مَا تُحِبُّ لِنَفْسِكَ، وَٱكْرَهْ لَهُ مَا تَكْرَهُ لَهَا»[١] وفِي ظني أنّ الْمُرَاد بِهَذِه الْوَصِيَّة الحث، والتّأكيد علىٰ الاغاثة، والعون (وَ ٱنْتَفِعُوا بِالذِّكْرِ، وَ الْمَوَاعِظِ): مثل ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ﴾[٢]... ﴿وَلَاتَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾[٣]... ﴿فَقَـٰتِلُوا ٱلَّتِى تَبْغِى حَتَّىٰ تَفِىٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِ﴾[٤]، ومَا أشبه.

(فَكَأَنْ قَدْ عَلِقَتْكُمْ مَخَالِبُ الْمَنِيَّةِ). أَتاكم ٱلْمَوْت بَغْتَة (وَٱنْقَطَعَتْ مِنْكُمْ عَلاَئِقُ الْأُمْنِيَّةِ). إِذَا جَاء ٱلْمَوْت ذهبت الأُمْنِيَّات، وٱنْقَطَعَتْ العَلاقَات (وَ دَهِمَتْكُمْ مُفْظِعَاتُ الْأُمُورِ) أي شدائدها كَسكرة ٱلْمَوْت، وحَسرة الفوت، وهَذِه أشد عُنفاً، وأَصعب وطأً (وَ السِّيَاقَةُ إِلَىٰ الْوِرْدُ الْمَوْرُودُ) أي دَهِمَتْكُمْ ٱلْمَنِيَّة لتسوقكم إِلَىٰ القبر، ثُمّ إِلَىٰ ٱلْحَشْرِ، والنّشر فـ﴿كُلُّ نَفْسٍ مَّعَهَا سَآئِقٌ وَ شَهِيدٌ﴾[٥] وهو أمر الله (يَسُوقُهَا إِلَىٰ مَحْشَرِهَا) لِلْحِسَابِ، وَالْجَزَاء (وَ شَاهِدٌ) من ٱلْأَنْبِيَاء، أو الْعُلَمَاء، أو من عقل ٱلإِنْسَان، وأعضائه (يَشْهَدُ بِعَمَلِهَا) مِنْ خَيرٍ، أو شَرٍ.

(دَرَجَاتٌ مُتَفَاضِلاَتٌ، وَ مَنَازِلُ مُتَفَاوِتَاتٌ). ٱلإِنْسَان غداً إِلَىٰ نَعيم، أو جَحيم

(١) أُنظر، نَهْج البَلاَغَة: الكتاب رقم (٣١).
(٢) ٱلْمَائِدَةِ: ٢.
(٣) ٱلْقَصص: ٧٧.
(٤) ٱلْحُجُرَاتِ: ٩.
(٥) سُورَةُ قٓ: ٢١.

حَسبما يعمل، ويقدم، وفِي الجَحيم مراتب علىٰ حسب سَيِّئَات ٱلْمُجْرِمِين، وفِي ٱلْجَنَّة أيضاً مراتب علىٰ حَسب حَسَنَات ٱلْمُؤْمِنِين، وكَلاَم الْإِمَام هُنا يُشير إِلَىٰ مَراتب أَهْل ٱلْجَنَّة الّتي (لاَ يَنْقَطِعُ نَعِيمُهَا) كما قَالَ سُبْحَانَهُ: ﴿أُكُلُهَا دَآيِمٌ﴾[1]. (وَ لاَ يَظْعَنُ مُقِيمُهَا، وَ لاَ يَهْرَمُ خَالِدُهَا، وَ لاَ يَبْأَسُ سَاكِنُهَا). لَيْسَ فِي ٱلْجَنَّة هُمُوم، وآلام، وشَيْخُوخَة، وأسْقَام، وَلاَ بُغْض، وَحَسَد، وَلاَ مَوْت، وفِراق....أَبَداً لا شيء إلّا الخُلود، والنَّعِيم.

(١) ٱلرَّعْد: ٣٥.

الخطبة

-٨٦-

لَمْ يَخْلُقْكُمْ عَبَثاً...فِقْرَة ١ ـ ٢:

قَدْ عَلِمَ السَّرَائِرَ، وَ خَبَرَ الضَّمَائِرَ، لَهُ الْإِحَاطَةُ بِكُلِّ شَيْءٍ، وَ الْغَلَبَةُ لِكُلِّ شَيْءٍ، وَالْقُوَّةُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ.

فَلْيَعْمَلِ الْعَامِلُ مِنْكُمْ فِي أَيَّامِ مَهَلِهِ، قَبْلَ إِرْهَاقِ أَجَلِهِ، وَ فِي فَرَاغِهِ قَبْلَ أَوَانِ شُغُلِهِ، وَ فِي مُتَنَفَّسِهِ قَبْلَ أَنْ يُؤْخَذَ بِكَظَمِهِ، وَ لْيُمَهِّدْ لِنَفْسِهِ، وَ قَدَمِهِ، وَ لْيَتَزَوَّدْ مِنْ دَارِ ظَعْنِهِ لِدَارِ إِقَامَتِهِ. فَاللهَ اللهَ أَيُّهَا النَّاسُ، فِيمَا اسْتَحْفَظَكُمْ مِنْ كِتَابِهِ، وَ اسْتَوْدَعَكُمْ مِنْ حُقُوقِهِ[1]، فَإِنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ لَمْ يَخْلُقْكُمْ عَبَثاً، وَ لَمْ يَتْرُكْكُمْ سُدىً، وَ لَمْ يَدَعْكُمْ فِي جَهَالَةٍ، وَ لَا عَمىً، قَدْ سَمَّىٰ آثَارَكُمْ، وَ عَلِمَ أَعْمَالَكُمْ، وَ كَتَبَ آجَالَكُمْ، وَ أَنْزَلَ عَلَيْكُمُ ﴿ٱلْكِتَـٰبَ تِبْيَـٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ﴾[1]، وَ عَمَّرَ فِيكُمْ نَبِيَّهُ أَزْمَاناً، حَتَّىٰ أَكْمَلَ لَهُ وَ لَكُمْ ـ فِيمَا أَنْزَلَ مِنْ كِتَابِهِ ـ دِينَهُ الَّذِي رَضِيَ لِنَفْسِهِ، وَ أَنْهَىٰ إِلَيْكُمْ ـ عَلَىٰ لِسَانِهِ ـ مَحَابَّهُ مِنَ الْأَعْمَالِ، وَ مَكَارِهَهُ، وَ نَوَاهِيَهُ، وَ أَوَامِرَهُ، وَ أَلْقَىٰ إِلَيْكُمُ الْمَعْذِرَةَ، وَاتَّخَذَ

---

(١) ٱلنَّحْلِ: ٨٩.

عَلَيْكُمُ الْحُجَّةَ ، وَ قَدَّمَ إِلَيْكُمْ بِالْوَعِيدِ ، وَ أَنْذَرَكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ(٢) .

اللُّغَة:

ٱلإِرْهَاق : الإِعْجَال ، والكَظَم : ٱلْفَم ، أو مَخْرَج النَّفْس . وسَمَّىٰ : بَيَّن . وَأَنْهَىٰ : أَبْلَغ . ومَحَابُّهُ : مَا يُحِبّ . وَمَكَارِهَهُ : مَا يَكْرَه .

الْإِعْرَاب:

لَهُ خَبَر مُقَدَّم ، والإِحَاطَةُ مُبْتَدَأ مُؤَخَّر ، فَلْيَعْمَلِ اللاَّم لِلْأَمْرِ ، وتَجزم فعلاً واحداً ، ومِثْلها اللاَّم فِي لُيَمَهِّدْ . فَاللهَ اللهَ نصب بفعلٍ مَحْذُوف أي فَاَتَّقُوا اللهَ ، أو ٱحْذَرُوا عَذَاب الله ، وتِبْيَاناً حَال مِن ٱلْكِتَابِ .

الْمَعْنىٰ:

(قَدْ عَلِمَ ـ الله ـ السَّرَائِرَ ، وَ خَبَرَ الضَّمَائِرَ ، لَهُ الْإِحَاطَةُ بِكُلِّ شَيْءٍ) كُلياً كَانَ ، أو جزئياً ، صغيراً ، أو كبيراً ... وعلمه تَعَالَىٰ بالشّيء عند حدوثه هو بالذّات علمه بِهِ قبل حدوثه ... هَذَا ما يجب علينا الإِيمَان بِه ، والدَّلِيل عَلَيْهِ كتاب الله ، أمّا أَقْوَال الفَلاَسفَة ، وأدلتهم فِي مسألة العِلْم بالكُليات دُونَ الجزئيات ، أو العِلْم بِهما معاً فَهُوَ تكثير كَلاَم لا يَهْتَدِي به أحدٌ فِي حياته الْعَمَلِيَة ، وَلاَ يحل مُشْكِلَة من مشكلاته (وَالْغَلَبَةُ لِكُلِّ شَيْءٍ ، وَالْقُوَّةُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ) . والفَرق بَيْنَ ٱلْقُوَّةُ ، والْغَلَبَةُ أنّ ٱلْقُوَّة هِي مَصْدَر الخَلق ، والإيجاد ، أمّا الْغَلَبَة فَهِيَ السَّيطرة علىٰ الشّيء بعد وُجُودِهِ .

(فَلْيَعْمَلِ الْعَامِلُ مِنْكُمْ فِي أَيَّامِ مَهَلِهِ ، قَبْلَ إِرْهَاقِ أَجَلِهِ ، وَ فِي فَرَاغِهِ قَبْلَ أَوَانِ

شُغْلِهِ ، وَ فِي مُتَنَفَّسِهِ قَبْلَ أَنْ يُؤْخَذَ بِكَظَمِهِ ، وَ لْيُمَهِّدْ لِنَفْسِهِ ، وَ قَدَمِهِ ، وَ لْيَتَزَوَّدْ مِنْ دَارِ ظَعْنِهِ لِدَارِ إِقَامَتِهِ) . تَقَدَّم هَذَا الْمَعْنَىٰ[١] . ويتلخص بأنّ العِلْم بِمَا هُو لَيْسَ بشيء ، وإنّ الْإِيمَان وحده غَيْر كافٍ ، والمُهم ٱلْعَمَل عن بصيرة ، وما دام ٱلإِنْسَان علىٰ وجه ٱلأَرْض يمكنه أنْ يعمل ، فَإِذَا مَات ٱنقطع عَمله من الدُّنْيَا ، فالْعَاقِل ـ إِذَنْ ـ من بادر الأَجَل ، وتزود من ٱلْعَمَل (فَاللهَ اللهَ أَيُّهَا النَّاسُ ، فِيمَا ٱسْتَحْفَظَكُمْ مِنْ كِتَابِهِ ، وَ ٱسْتَوْدَعَكُمْ مِنْ حُقُوقِهِ) . الضَّمِير مِنْ حُقُوقِهِ يعود إِلَىٰ ٱلْكِتَاب ، والْمَعْنَىٰ ٱتَّقُوا الله فِي ٱلْقُرْآن ٱلْكَرِيم الَّذي ٱئتمنكم عَلَيْهِ سُبْحَانَهُ ، وٱسْتَوْدَعَكُمْ إياه لتقدروه حقّ قدره عاملين بأَحْكَامه ، وتَعَالَىٰمه ، ومِثْله قَوْله تَعَالَىٰ : ﴿بِمَا ٱسْتُحْفِظُواْ مِن كِتَـٰبِ ٱللَّـهِ وَكَانُواْ عَلَيْهِ شُهَدَآءَ﴾[٢] أي أنّ الّذين يَعْمَلُون بكتاب الله مُخلصين قد شَهدوا بالفِعْل ، لا بالقَوْل فقط أَنّه حَقّ ، وصِدق .

(فَإِنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ لَمْ يَخْلُقْكُمْ عَبَثاً ، وَ لَمْ يَتْرُكْكُمْ سُدىً) . لقد دلنا ٱلْعَقْل الألكتروني ، والهبوط علىٰ ٱلْقَمَر أنّ فِي ٱلإِنْسَان مواهب ، وطاقات لو ٱستغلها جَمِيعَاً إِلَىٰ أقصىٰ حدودها ـ إنْ كَانَ لها حدود ـ لم يبق فوقه شيء إلّا خالق كلّ شيء ... ومن الأَحَادِيث القُدسية : «عَبدي أَطعني تكُنْ مَثْلي ، تَقُولُ للشَّيء كُنْ فَيَكُونُ»[٣] . وأخشىٰ أنْ يَقُول قَائِل : إنّ مَعْنَىٰ هَذَا الحَدِيث يا عبدي ٱعمل فِي ٱستغلال مواهبك ، وما منحتك من طاقات تَكُن مَثْلي تحقق كلّ ما تَبغي ، وتُريد . .

---

(١) أنظر ، ٱلْخُطْبَة : (٧٧ و ٧٨ و ٨٤) . (مِنْهُ ﷺ) .

(٢) ٱلْمَائِدَة : ٤٤ .

(٣) أنظر ، مستند الشّيعة للمحقق النّراقي : ٦/١ ، الفوائد الرّجالية للسّيد بحر العلوم : ٣٩/١ ، أبو طالب حامي الرّسُول لنجم الدين العسكري : ١٨٥ ، الإمَام عليّ لأَحْمَد الرّحماني : ٣٦٢ .

قلت: «إنّ هَذَا الوَصْف يَكُون للمُطيع فِي ٱلجَنَّة الّتي فيها مَا تَشْتَهِي ٱلأَنفُسُ، وَتَلَذُّ ٱلأَعْيُنُ، لا فِي الدُّنْيَا. ومهما يَكُنْ فهل بعد هَذِه المواهب، والطّاقات الّتي أودعها سُبْحَانَهُ فِي ٱلإنْسَان ـ يصح فِيهِ القَوْل: أنّه خُلق، ووجِد سُدىً، وعبثاً؟ كَلا، وألف كَلا»[1].

(وَلَمْ يَدَعْكُمْ فِي جَهَالَةٍ، وَلاَ عَمىً) بل أَرسل إلينا رُسلاً مبشرين، ومُنْذِرين، وأنزل ٱلْكِتَاب تبياناً لكلّ شيء، وفِي أُصول الكافِي قَالَ الإِمَام الصّادق عليه السلام: «ما من شيء إلّا وفِيهِ كتاب، وسُنَّة»[2]، وَقَالَ أبوه عليه السلام: «إِذَا حدثتكم بشيء فآسألُونِي عن كتاب الله، ثُم قَالَ: إنّ رَسُول الله صلى الله عليه وآله نَهىٰ عن القِيل، والقَال، وفساد ٱلمَال، وكَثْرَة السّؤال. فقيل له: أَين هَذَا من كتاب الله؟ قَالَ: إنّ الله عزَّ وجلَّ يَقُول: ﴿لَّا خَيْرَ فِى كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَىٰهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَـٰحٍ بَيْنَ ٱلنَّاسِ﴾[3] ـ هَذَا نَهي عن القِيل، والقَال ـ وَقَالَ سُبْحَانَهُ: ﴿وَلَا تُؤْتُوا۟ ٱلسُّفَهَآءَ أَمْوَٰلَكُمُ ٱلَّتِى جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمْ قِيَـٰمًا وَٱرْزُقُوهُمْ فِيهَا وَٱكْسُوهُمْ وَقُولُوا۟ لَهُمْ قَوْلًا مَّعْرُوفًا﴾[4]، وَهَذَا نَهي عَن فساد ٱلمَال ـ وَقَالَ: ﴿لَا تَسْـَٔلُوا۟ عَنْ أَشْيَآءَ إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ وَإِن تَسْـَٔلُوا۟ عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ ٱلْقُرْءَانُ تُبْدَ لَكُمْ عَفَا ٱللَّهُ عَنْهَا وَٱللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾[5] ـ وَهَذَا نَهي عن كَثْرَة السّؤال[6].

---

(١) أُنظر، كتابه «التّفسِير الكاشف». (مِنْهُ رحمه الله).

(٢) أُنظر، الكافِي: ١/٥٩ ح ٤.

(٣) ٱلنِّسَاء: ١١٤.

(٤) ٱلنِّسَاء: ٥.

(٥) ٱلمَائِدَة: ١٠١.

(٦) أُنظر، الكافِي: ١/٢٦٩ و: ٥/٣٠٠، تَهْذِيب الأَحْكَام: ٧/٢٣١، وَسَائِل الشّيعة: ١٩/٨٣ ح ٢، الإِحْتِجَاج للطبرسي: ٢/٥٥، شرح أُصول الكافِي: ٢/٢٨١.

(وَ عَمَّرَ فِيكُمْ نَبِيَّهُ أَزْمَاناً، حَتَّىٰ أَكْمَلَ لَهُ وَ لَكُمْ ـ فِيمَا أَنْزَلَ مِنْ كِتَابِهِ... إلخ...)

عاش رَسُول الله ﷺ ثلاثاً وستين سَنَة(١)، مَات أَبوه قبل أنْ يُوْلَد(٢)، فكفله جَدّه عبدالمطلب ثماني سِنين(٣). ثُمّ كَفَله عَمّه أبو طالب(٤)، وتَزوج بخَدِيجَة(٥)، وهو آبن

(١) أُنظر، مُسْنَد أحمد: ٣٩٧/١، التّنبيه والأَشْرَاف للمسعودي: ٣٢٣، تأويل مختلف الحَدِيث لِابْن قُـتَيْبَة: ١٦٩، شرح أُصول الكافي: ١٣١/١٢.

(٢) عبدالله بن عبدالمطلب بن هَاشم بن عبد مناف بن قصي بن كلاب بن مُرَّة بن كعب بن لُؤيّ بن غالب بن فِهر بن مالك بن النَّضْر بن كِنَانة بن خُزَيْمَة بن مُدْرِكَة بن إلياس بن مضر آبن نِزَار. البداية والنِّهَايَة لِابْن كَثِير: ٢٥٥/٢، تَأرِيخ الطَّبَريّ: ٢٧٢/٢، الرّوض الأُنف للسهيلي: ٨/١، السِّيرَة لِابْن هشام: ١٥١/١، تَأرِيخ اليعقوبيّ: ٦/٢.

(٣) أُنظر، أعلام الورىٰ للطبرسي. (مِنْهُ ﷺ).

وأُنظر، حاشية البجيرميّ: ٢٤٩/٢، السِّيرَة النَّبَوِيَّة لِابْن هشام: ١٦٩/١، تحقيق: مصطفىٰ السقا، وإبْرَاهِيم الابياري، وعبد الحَفِيظ شلبي، مسالك الحنفا: ٦٣، دَلاَئِل النُّبُوَّة للبيهقي: ١٨٨/١، ونقل فِي بَعْض كتب المسعوديّ أنّ عبد المطلب مات مُسلماً، لما رَأىٰ من الدّلائل علىٰ نُبُوَّة مُحَمَّد ﷺ، وعلم أنّه لا يبعث إلاّ علىٰ التَّوْحِيدِ، ومن أطلع علىٰ كتب السّير، والتَّوارِيخ، لم يبق عنده شكّ فِي إيمانه، وأنّه لما رجعت اليَمن إلىٰ سَيْف آبن ذي يزن، وراح إلىٰ تهنئته مَع كبراء قُرَيْش، فأكرمهم، وأعْطَاهُم الجوائز، وأعطىٰ عبدالمطلب بقدر ما أعطىٰ الجَمِيع، وبشره بالنبي ﷺ، وَقَالَ له: فلْيَكُنْ عِنْدَكَ مصوناً حَتَّىٰ يَأْتِي الله بأمْرِه ويأذن، ياعبد المطلب، إنِّي وجدت فِي الكتاب المكنون، والعِلْم المخزون الَّذي آخترناه لأنفسنا خيراً عظيماً، وخطراً جسيماً، شرف ٱلْحَيَاة فضلة الوفاة للناس عامة ولَكُمْ خَاصَّة، ياعبد المطلب، هَذِه صفة المَوْلُود، وقد ولد آسمه مُحَمَّد، وأحمد مديج السّاقين، أكحل الْعَيْن أبْيَض، كأنّ وجهه فلقة قمر من بَيْن كتفيه شامة، والله باعثه جهاراً، وجاعل له أنصاراً يعزّ بِهِمْ أوْلِيَاءه، ويذل بِهِمْ أعْدَاءه، ويضرب بِهِمْ عن عرض، ويستفتح بِهِمْ كرامة ٱلأَرْض، يعبد ٱلرَّحْمَان، ويدحر الشَّيْطَان، ويخمد النّيران، ويكسر الأصنام يأمر بٱلْمَعْرُوف، ويَفعَله، وينهىٰ عن المُنْكَر، ويبطله، قَوْله فصل، وحكمه عدل.

فخر عبد المطلب ساجداً، فَقَالَ له الملك: ياعبد المطلب ثلج صدرك، وعلىٰ كعبك، وقدرك، هل أحسست من ذَلِكَ؟ قَالَ: نعم، أصلح الله الملك كَانَ لِي آبن آسمه عبد الله، وكنت به معجباً، وعَلَيْهِ رفيقاً

⇐ فزوجته كريمة من كرائم قومي، يُقَال لها آمنة بنت وهب بن عبد مناف، فأصبت به وَهِي مشتملة علىٰ حمل، فولدته غلاماً أسمه مُحَمَّد مديح السّاقين، مات أبوه، وكفلته أنا بَيْنَ كتفيه شامة، وفِيهِ كلُّ ما ذكر الملك من العلامات، فَقَالَ له الملك: وألبَيْت ذي الحجب إنّك ياعبد المطلب جدّه غَيْر كـذب، فأحـتفظ بابنك من اليهود، فإنَّهُم أعداؤه، وإنّ الله لم يجعل لهم عَلَيْهِ سبيلاً، وأطوِ هَذَا الخَبَر عمن معك، فإنِّي لست أثق إنْ أخبَرتهم بأنْ يَكُون لك عَلَيْهِمْ الرّئاسة دونهم، فيتغولون لك الغوائل، وينصبون لك الحبائل، وهم فاعلون، وأبناؤهم ولو أنّ المَوْت مصاحبي قبل مبعثه لسلمت إِلَيْهِ برجلي، وخيلي وتـصير يـثرب دار ملكي بحيث أكون جار؛ لِأَنَّهَا دار، وأكون صاحبه، ووزيره، ونصيره، وظهيره علىٰ من عاداه، فإِنّي أرىٰ فِي الكتاب النّاطق، والعِلْم السّابق، أنّ مدينته يثرب بها أستحكام أمْرِه، وأهلها أَهْل نصرة، ولَوْلاَ أنْ أَحْذَر عَلَيْهِ الآفات، ووافيات العاهات، لأوطأت أعناق الْعَرَب ذكره، وأظهرتُ أمْـرَه، وأعـلنتُ مَـع حداثة سِنه ذكره، أصراف ذَلِكَ إِلَيْك من غَيْر نظير لمن معك، وَإِذَا كَانَ رأس الحول فأتني بخبره، وأعرض مايَكُون من أمْرِه فمات رحمه الله قبل الحول، فكان عبد المطلب يَقُول: لا يغبطني رجل يعطيها الملك، فإِنّ ذَلِكَ إِلىٰ فناء، ولكن ليغبطني فيما يَبْقَىٰ فِي الْعُقْبَىٰ شرفه، وذكره، فيَقُولون وما ذَلِكَ يا شيبة الْحَمْدُ؟ فيَقُول لتعلمن نبأه بعد حين. أنظر، المنحة الشّمسية فِي فَضَائِل خير البرية «مخطوط» ورق ١٧ ب. فمن أطلع علىٰ ذَلِكَ علم عِلْماً يقينياً بأنْ عبد المطلب كَانَ علىٰ الإِيمان بلا شك.

(٤) أنظر، تَفْسِير أبـن كَـثِير: ٥٢٤/٤، صـفوة الصّـفوة: ٦٥/١، إعـلام الورىٰ: ٥٢/١، شرح الأَخْـبَار: ٢٢١/٣، كشف الغمة: ١٩/١، الطَّبَقَات الْكُـبْرَىٰ: ١١٩/١، مروج الذّهب: ١٤/٣، تَأْرِيخ اليـعقوبي: ١٣/٢، دَلاَئِل النُّبُوَّة للإصبهاني: ٣٥٩/١، دَلاَئِل النُّبُوَّة للبيهقي: ١٨٨/١، تُحْفَة الأَحْوَذِي: ٦٦/١٠.

(٥) أوّل أزواجه ﷺ: خَدِيجَة بنت خُوَيْلد بن أسدِ بن عبدالعزّىٰ بن قصيّ، تزوجها ﷺ قبل الوحي وعمره حينئذٍ خمسٍ وعشرون سَنَة، وقيل: إحدىٰ وعشرون سَنَة. وكَانَ عُمرهَا حينئذٍ أَرْبَعِين سَنَة، وأقـامت معه أربعاً وعشرين سَنَة، ولم ينكح عَلَيْهَا إمْرَأَةً حَتَّىٰ ماتت. وأمّها: فَاطِمَة بنت زَائِدَة بن الأصمّ، من بَنِي عامر بن لؤي.

وكَانَتْ خَدِيجَة رضي الله عَنْهَـا أوسـط نِسَآءَ قُـرَيْش نسـباً، وأعـظمهنّ شرفاً، تـوفيت بـعد أبي طالب ﷺ بثلاثة أَيّام، وسمّىٰ رَسُول الله ﷺ ذَلِكَ العام بعام الْحُزْن. (أنظر، جوامـع السّـيرَة: ٣١، أُسـد الغَابَة: ٧٨/٧، المعارف لِابْن قُتَيْبَة: ١٣٢ تحقيق ثروة عكاشة طَبْعَة قُم. السِّيرَة النَّبَوِيَّة لِابْـن هشـام: ١٨٩/١).

خَمس وعشرِين سَنَة[(١)]، وبُعث، ولهُ من الْعُمُر (٤٠) سَنَة[(٢)]، ولما تُوفي أبو طالب كَانَ عُمر النَّبِيّ ﷺ سِتاً وأَرْبَعِين سَنَة وبضعَة أشهر[(٣)]، فكَان زَمن بِعثته (٢٣) سَنَة،

---

(١) أنظر، السِّيرَة النَّبَوِيَّة لِابْن هشام: ١/ ١٨٧.

(٢) أُنظر، مُسْنَد أحمد: ٣/ ٢٤٠ ح ١٣٥٤٣، مُسْنَد أبي يعلىٰ: ٦/ ٣١٩ ح ٣٦٤٣، فتح الباري: ٧/ ١٦٤ ح ٣٦٣٨، تُحْفَة الأَحْوَذي: ١٠/ ٦٧، التَّمهيد لِابْن عبد البر: ٣/ ١٣، شرح النّووي علىٰ صَحِيح مُسْلِم: ١٥/ ٩٩، حلية الأَوْلِيَاء: ٣/ ٢٦٢، صفوة الصَّفوة: ١/ ١٥٢، تَأرِيخ الطَّبَرِيّ: ١/ ٥٢٦، معجم الشّيوخ: ١/ ٨١.

(٣) أُنظر، تَأرِيخ الطّبريّ: ٢/ ٢٢٩، تَأرِيخ اَبْن عساكر: ١/ ٢٨٤، مُسْتَدرَك الحَاكِم: ٢/ ٦٢٢، تَأرِيخ اَبْن كَثِير: ٣/ ١٢٢، الصّفوة لِابْن الجوزيّ: ١/ ٢١، الفائق للزمخشري: ٢/ ٢١٣، تَأرِيخ الخميس: ١/ ٢٥٣، فتح الباري: ٧/ ١٥٣، شرح شواهد المغنيّ: ١٣٦، أسنىٰ المطَالِب: ١١، طلبة الطّالب: ٤/ ٥٤، مَع زِيَادَة قَوْله ﷺ: «ياعمّ! ما أسرع ما وجدت فقدك...!».

وهو القَائِل حينما واجه محنتين بل مصيبتين، الوَاحِدَة تلو الأُخرىٰ وهما مَوْت «خَدِيجَة، وعمّه أبي طالب» فِي سَنَة وَاحِدَة، بل قيل الفاصل الزّمني بَيْنَ مَوْت هَذَا، وهَذِه عدة أَيَّام، وهو العام الَّذي سُمي بعام الحُزْن بعد خروج بَنِي هَاشم، والمطلب من الشّعب بثمانية وعشرين يوماً ولذا قَالَ صاحب الهمزية، كما جاء فِي السِّيرَة الحَلَبِية: ١/ ٣٤٦.

وقضىٰ عمّه أبـو طـالب والدّ ... هـــــرفِيهِ السّرّاء والضّرّاء
ثم مــاتت خَـدِيجَة ذَلِكَ العا ... م ونــالت مــن أحمـد المناء

وقيل: كَانَتْ وفاة خَدِيجَة قبل أبي طالب بخمس وثلاثين لَيْلَة، وقيل: بعده بثلاثة أَيَّام. فقَالَ ﷺ: «أَللّهُمَّ! إِلَيْك أشكو ضَعف قُوتِي، وقِلة حِيلتِي، وهُوانِي عَلىٰ النّاس... أَللّهُمَّ! ياأرحم الرّاحمين! أَنْتَ رب اَلْمُسْتَضْعَفِين، وأَنْتَ ربي! إلىٰ من تكلني...؟ إلىٰ بعيد يتجهمني...؟ أو عَدُوّ ملكته أمري...؟ إنْ لم يكن بك عليّ غضب، فلا أُبالي! ولكن عافيتك هِي أوسع لي... إِنّي أعوذ بنور وجـهك، الّـذي أشرقت بـه الظّلمات، وصلح عَلَيْهِ أمر الدُّنْيا والآخِرَة، من أنْ ينزل بي غضبك، أو يحل عليّ سخطك... لك العتبىٰ حَتَّىٰ ترضىٰ... لا حَوْلَ، وَلاَ قُوَّة، إلا بك...». ولذا قَالَ له جِبْرِيل ﷺ: «أخرج مِنْهَا ـ أي مَكّة ـ فقد مات ناصرك».

نَزل فِيهِ ٱلْقُرْآن ٱلْكَرِيم[١]، وتَمت ٱلسُّنَّة النَّبَوِيَّة، وفِيها أَحْكَام كَثِيرَة لَم يَنص عَلَيْهَا ٱلْقُرْآن صرَاحة، ولَكِنَّهُ جُزء مُتمم له بنصّ الآيَة: ﴿وَمَآ ءَاتَـٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَـٰكُمْ عَنْهُ فَانتَهُواْ وَاتَّقُواْ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾[٢]. وعَلَيْهِ يَكُون كلّ من ٱلْكِتَاب، وٱلسُّنَّة جزءاً مُتمماً للآخر، وحجّة قائمة علىٰ الْعِبَاد، وما لأحد معهما من عذر، وفِي أُصول الكافِي عن الْإِمَام الصّادق عليه السلام، فِي تَفْسِير الآيَة: ﴿فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا﴾[٣] ـ أنّه قَالَ: بيّن لها ما تَأتي، وما تَترك[٤]... وَقَالَ أيضاً: «لا يُعذب الله الْعِبَاد حَتَّىٰ يُعَرّفهُم مَا يَرضِيه، وما يسخطه... إنّ الله آحتج علىٰ الْعِبَاد بِمَا آتاهم، وعرَفَهُمْ»[٥].

ٱلْحَسَدَ يَأْكُلُ الْإِيمَانَ...فِقْرَة ٣ ـ ٤:

فَٱسْتَدْرِكُوا بَقِيَّةَ أَيَّامِكُمْ، وَ ٱصْبِرُوا لَهَا أَنْفُسَكُمْ، فَإِنَّهَا قَلِيلٌ فِي كَثِيرِ الْأَيَّامِ الَّتِي تَكُونُ مِنْكُمْ فِيهَا الْغَفْلَةُ، وَ التَّشَاغُلُ عَنِ الْمَوْعِظَةِ، وَ لاَ تُرَخِّصُوا لِأَنْفُسِكُمْ، فَتَذْهَبَ بِكُمُ الرُّخَصُ مَذَاهِبَ الظَّلَمَةِ، وَ لاَ تُدَاهِنُوا فَيَهْجُمَ بِكُمُ الْإِدْهَانُ عَلَىٰ الْمَعْصِيَةِ. عِبَادَ اللهِ، إِنَّ أَنْصَحَ النَّاسِ لِنَفْسِهِ أَطْوَعُهُمْ لِرَبِّهِ، وَ إِنَّ أَغَشَّهُمْ لِنَفْسِهِ أَعْصَاهُمْ لِرَبِّهِ، وَ

(١) أنظر، أُسد الغَابَة: ٤٢/٢، تَهْذِيب الكَمَال: ١٧٣/٧، مناقب آل أبي طالب: ١٥٢/١، السّنن الْكُبْرَىٰ للنسائي: ٦/٥، تَفْسِير نور الثّقلَيْن: ٦٢٤/٥ ح ٥٢، بالإضافة إلىٰ المصادر السّابقة.

(٢) ٱلحشر: ٧.

(٣) ٱلشّمس: ٨.

(٤) أُنظر، الكافِي: ١٦٣/١ ح ٣، الإعتقادات للشيخ المفيد: ٣٦، المَحَاسِن للبرقي: ٢٧٦/١.

(٥) أنظر، توحيد الشّيخ الصّدوق: ٤١١، الكافِي: ١٦٣ ح ٥، المَحَاسِن للبرقي: ٢٧٧.

الْمَغْبُونُ مَنْ غَبَنَ نَفْسَهُ، وَ الْمَغْبُوطُ مَنْ سَلِمَ لَهُ دِينُهُ، «وَالسَّعِيدُ مَنْ وُعِظَ بِغَيْرِهِ»[١]، وَ الشَّقِيُّ مَنِ آنْخَدَعَ لِهَوَاهُ، وَ غُرُورِهِ[٣]. وَ آعْلَمُوا أَنَّ ﴿يَسِيرَ الرِّيَاءِ شِرْكٌ﴾[٢]، وَ مُجَالَسَةَ أَهْلِ الْهَوَىٰ مَنْسَاةٌ لِلْإِيمَانِ، وَ مَحْضَرَةٌ لِلشَّيْطَانِ. جَانِبُوا الْكَذِبَ فَإِنَّهُ مُجَانِبٌ لِلْإِيمَانِ. الصَّادِقُ عَلَىٰ شَفَا مَنْجَاةٍ، وَكَرَامَةٍ، وَالْكَاذِبُ عَلَىٰ شَرَفِ مَهْوَاةٍ، وَ مَهَانَةٍ. وَ لاٰ تَحَاسَدُوا، فَإِنَّ الْحَسَدَ يَأْكُلُ الإِيمَانَ ﴿كَمَا تَأْكُلُ النَّارُ الْحَطَبَ﴾[٣]. ﴿وَ لاٰ تَبَاغَضُوا فَإِنَّهَا الْحَالِقَةُ﴾[٤]، وَ آعْلَمُوا أَنَّ الْأَمَلَ يُسْهِي الْعَقْلَ، وَ يُنْسِي الذِّكْرَ. فَأَكْذِبُوا الْأَمَلَ فَإِنَّهُ غُرُورٌ، وَ صَاحِبُهُ مَغْرُورٌ[٤].

اللُّغَة:

الْإِدْهَانُ: النِّفَاق بإظهار الطَّاعَة، وإخفاء آلْمَعْصِيَة، والمَنْسَاة: مـا يَـدعو إِلَىٰ

(١) أنظر، أمالي الشّيخ الصّدوق: ٢٩٢، المُصَنَّف للصنعاني: ١١٦/١١، المُعْجَم الأوسط: ٣١/٨، المُعْجَم الكَبِير: ١٧٥/٣، المَبْسُوط للسَّرخَسي: ٢٤٢/١١، تكملة حاشية رد المحتار: ٢٤/١، الكافي: ٧٤/٨، الخِصَال: ٦٢١، شرح مئة كَلِمَة للبحراني: ١٧٢.

(٢) أنظر، نيل الأوطار: ٣٥/٨، عيون الحِكَم والمَوَاعظ: ٥٥٢، تحف العُقُول: ١٥١، سُنَن أبن ماجه: ١٣٢١/٢ ح ٣٩٩١، تُحْفَة الأَحْوَذي: ١١٤/٥، المُعْجَم الصَّغِير: ٤٥/٢، المُعْجَم الأوسط: ١٤٥/٧، كنز العُمَّال: ٤٨٢/٣ ح ٧٤٧٩، تَهْذِيب الكَمَال: ٩٢٩/٢٢، عيون الحِكَم والمَوَاعِظ: ٥٥٢، بحَار الأَنْوَار: ٢٩١/٧٧ ح ٢.

(٣) أنظر، الفِرْدَوْس بمأثور الخِطَاب: ١٥٩/٢ ح ٢٨١٢، مُسْنَد أبي يعلى: ٣٣٠/٦ ح ٣٦٥٦، المُصَنَّف لابن أبي شيبة: ٣٣٠/٥ ح ٢٦٥٩٤، سُنَن أبن ماجه: ١٤٠٨/٢ ح ٤٢١٠، سُنَن أبي داود: ٢٧٦/٤ ح ٤٩٠٣، مصباح الزّجاجة: ٢٣٨/٤، تَفْسِير القُرطُبي: ٢٥١/٥.

(٤) أنظر، سُنَن التِّرمِذي: ٦٦٤/٤ ح ٢٥١٠، مُسْنَد الطَّيَالِسِي: ٢٧/١ ح ١٩٣، الفِرْدَوْس بمأثور الخِطَاب: ٢٢٠/٢ ح ٣٠٧١، مُسْنَد أبي يعلى: ٣٢/٢ ح ٦٦٩، مُسْنَد أحمد: ١٦٤/١، موطأ مالك: ٩٠٤/٢ ح ١٦٠٨، سُنَن البَيْهَقِيّ الكُبْرَىٰ: ٢٣٢/١٠، مَجْمَع الزّوائد: ٣٠/٨.

النّسْيَان . والشَّفَا : طَرف كلّ شيء ، والْمُرَاد بِه هُنا القُرب . والْحَالِقَةُ : المَاحِيَة .

الْإِعْرَاب:

لَهَا يعود الضَّمِير عَلىٰ بَقِيَّةَ الأَيَّامِ ، واللاَّم بِمَعْنَىٰ «فِي» مثل قَوْله تَعَالَىٰ : ﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾[1] أي فِي يَوْم ٱلْقِيَامَة . فـإنّما الْحَـالِقَةُ ، الضَّـمِير فِي «إِنَّهَا» يعود علىٰ البَغْضَاء ، وتَدل عَلَيْهَا كَلِمَة «تَبَاغَضُوا» .

الْمَعْنىٰ:

(فَاسْتَدْرِكُوا بَقِيَّةَ أَيَّامِكُمْ) . تَدَاركوا بِالتَّوْبَة فيما بقي لَكُم من الْعُمُر ـ ما أَسْلفتُم من المعاصي ، والآثام (وَ اصْبِرُوا لَهَا أَنْفُسَكُمْ) علىٰ طَاعَة الله ، وجاهدوها فيما بقي من أَيَّـامِكُمْ (فَإِنَّهَا قَلِيلٌ فِي كَثِيرِ الأَيَّامِ الَّتِي تَكُونُ مِنْكُمْ فِيهَا الْغَفْلَةُ ، وَ التَّشَاغُلُ عَـنِ الْمَوْعِظَةِ) . إنّ أَيَّامِكُمْ الْبَاقِيَة قلَيْلَة بالنِّسْبَة إِلَىٰ الماضية ، وقد قتلتم هَذِه بـاللّهو ، والْغَفْلَةُ عمّا تَنْتَفِعُون عمّا تَنْتَقِصُون بِهِ ، فاجْعَلوا عَملكم فيما بَقِي كَفَّارة عمّا مضىٰ (وَ لاَ تُرَخِّصُوا لِأَنْفُسِكُمْ) أي تُطْلِقُوا لَهَا العنان وَرَاء الشَّهوَات (فَتَذْهَبَ بِكُـمُ الرُّخَـصُ مَذَاهِبَ الظَّلَمَةِ) وتقودكم إِلَىٰ الهلَكة ، وَهِي المصير الحتم لكلِّ من أَهمل ، وتجاهل (وَ لاَ تُدَاهِنُوا فَيَهْجُمَ بِكُمُ الْإِدْهَانُ عَلَى الْمَعْصِيَةِ) . الْمُدَاهَنَة ، والرِّيَاء بِمَعْنَىٰ واحد ، وَهِي مُحرمة بذاتها ، وأيضاً تَقود إِلَىٰ العَدِيد من المعاصي ، فـإنْ أَدت إِلَـيْهَا اشـتد التَّحْرِيم ، وتضاعف .

---

(١) الأنبياء : ٤٧.

(عِبَادَ اللهِ، إِنَّ أَنْصَحَ النَّاسِ لِنَفْسِهِ أَطْوَعُهُمْ لِرَبِّهِ، وَ إِنَّ أَغَشَّهُمْ لِنَفْسِهِ أَعْصَاهُمْ لِرَبِّهِ، وَ الْمَغْبُونُ مَنْ غَبَنَ نَفْسَهُ، وَ الْمَغْبُوطُ مَنْ سَلِمَ لَهُ دِينُهُ، «وَالسَّعِيدُ مَنْ وُعِظَ بِغَيْرِهِ»، وَ الشَّقِيُّ مَنِ ٱنْخَدَعَ لِهَوَاهُ، وَغُرُورِهِ. وَ ٱعْلَمُوا أَنَّ ﴿يَسِيرَ الرِّيَاءِ شِرْكٌ﴾).

لِلْإِنْسَان ميول، ورغبات فردية، كميله إِلَىٰ المأكل، والمشرب، والجِنْس، والرّاحة، والصّحة وما إِلَيْهَا من لذةٍ، ومتعةٍ، وَلاَ شيء من ذَلِكَ مُحرم فِي دين الله، والنَّقيض هو الصّحيح علىٰ شرط الله، ورَسُوله، وفِي حدود ٱلْكِتَاب، وٱلْسُّنَّة، وإِنَّمَا الْمُحَرَّم هو التَّبذير، والإسراف، والتَّضاهِي، والتَّباهِي، وإشباع ٱلشَّهوَات علىٰ حساب الآخرين، قَالَ سُبْحَانَهُ: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ﴾[1]. وإضافة الزِّينَة إِلَيْهِ تَعَالَىٰ تومىء إِلَىٰ شرطه، وحدوده كما أشرنا.

ومَا دام الْأَمْر علىٰ هَذَا فمن ٱقتنع بالحَلال من رزق الله، وزينته فقد أَخلص لربّه، ونصح لنَفْسِه، وأراحها، وٱستراح من غضب الله، وعذابه، وعاش سعيداً كَرِيماً فِي دنياه، وآخرته، ومن ٱندفع وَرَاء شهواته، وتجاوز حدود الله، وشريعته ـ فقد هَلَكَ، وأهلك، وعاش فِي ٱلْجَهْل، والغُرُور فِي دُنياه، والشّقاء، والبلاء فِي آخرته (وَ ٱعْلَمُوا أَنَّ ﴿يَسِيرَ الرِّيَاءِ شِرْكٌ﴾). المُرائي يُضمر شَرّاً، ويُظهر خيراً، والمُرَاد بالشِّرْك هُنا ٱلْعَمَل لغير الله، وَقَالَ الْإِمَام الصّادق عليه السلام: «كلّ رياء شرك... إنّه من عمل للناس كَانَ ثوابه علىٰ النّاس، ومن عمل لله كَانَ ثوابه علىٰ الله»[2]. هَذَا، إِلَىٰ أنّ المُرائي لَن تَطول بِه الحَال حَتَّىٰ يفتضح، ويتكشف علىٰ

---

(١) ٱلْأَعْرَافِ: ٣٢.

(٢) أُنظر، كتاب الزُّهْد لحسين بن سعيد الأهوازي: ١٧٧/٦٥، الكافي: ٢٩٣/٢ ح ٣، بتقديم وتأخير، فقه الرّضا: ٣٨٧، وَسَائِل الشّيعة: ٧٠/١ ح ٤، علل الشّرائع: ٥٦٠ ح ٤، المَحَاسِن: ١٢٢/١.

حَقِيقَته... ومن علاماته ـ كما فِي بَعْض الرِّوَايَات ـ ينشط إِذَا كَانَ النَّاس عنده، ويكسل إِذَا كَانَ وحده، ويُحب أنْ يُحمد فِي جَمِيع أُموره»[١].

(وَ مُجَالَسَةَ أَهْلِ الْهَوَىٰ مَنْسَاةٌ لِلْإِيمَانِ، وَ مَحْضَرَةٌ لِلشَّيْطَانِ). للعَدْوَىٰ قُوَّة، وسيطرة علىٰ ضِعاف النّفوس، وتنفذ إِلَيْهَا من عدة مسالك، مِنْهَا المعشر، والكُتب، الصُّحف، والاِستماع إِلَىٰ الاِذاعات، والجلوس إِلَىٰ التَّلفزيون، وكلّما زادت وَسَائِل النّشر تجاوبت، وتداخلت العزائم، والشّاهد أخبار الجرائد عن الجرائم، والُمجْرِمين، وَقَالَ الرَّسُول الأَعْظَم ﷺ: «الْمَرْءُ عَلَىٰ دِين خَلِيله، فلينظر أَحدكم مَن يخلل»[٢]، وفِي الأَمْثَال: «قُلْ لِي مَن تُعاشر أَقُلْ لكَ مَن أَنْتَ»[٣].

(جَانِبُوا الْكَذِبَ فَإِنَّهُ مُجَانِبٌ لِلْإِيمَانِ). أي لا يَسلم للمرء دِين، وَلاَ إِيمَان إِلاّ إِذَا ٱبتعد عن الْكَذِب، ومن أَقْوَال الإِمَام: «لا يجد عبد طعم الإِيمَان حَتَّىٰ يترك الْكَذِب جدّه، وهزله»[٤]، وقلت: «إِنّ الكَاذِب يعامل فِي الدُّنْيا مُعَامَلَة الْمُسْلِم إِذَا نَطق الشَّهادتين، ويُعامل فِي الآخِرَة مُعَامَلَة الْكَافِر، لقَوْله تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّمَا يَفْتَرِى ٱلْكَذِبَ ٱلَّذِينَ لَايُؤْمِنُونَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ وَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَـٰذِبُونَ﴾[٥]. وقَوْل الرَّسُول

---

(١) أُنظر، الكافِي: ٢/٢٩٥ ح ٨، تحف الْعُقُول: ١٠، مَكَارِم الأَخْلاَق: ٤٣٨، منية المريد: ٣١٩، قُرب الاسناد: ٦٨، وَسَائِل الشّيعة: ١/٥٤ ح ١، السّرائر لاِبْن إدريس: ٦٨، من لا يحضره الْفَقِيه: ٤/٣٦١.

(٢) أُنظر، الْمُسْتَدرَك علىٰ الصّحيحين: ٤/١٨٨ ح ٧٣١٩، سُنَن التِّرمِذي: ٤/٥٨٩ ح ٢٣٧٨، مُسْنَد أحمد: ٢/٣٠٣ ح ٨٠١٥، سُنَن أبي داود: ٤/٢٥٩ ح ٤٨٣٣، مُسْنَد الطَّيَالِسِي: ١/٣٣٥ ح ٢٥٧٣، الفِرْدَوْس بمأثور الخِطَاب: ٤/٢١٨ ح ٦٦٦٠.

(٣) أُنظر، الْمُصَنَّف لاِبْن أَبي شيبة الكوفِي: ٦/١٢١ ح ٣٦.

(٤) أُنظر، الكافِي: ٢/٣٤٠ ح ١١، تحف الْعُقُول: ٢١٦، بِحَار الأَنْوار: ٧٢/٢٤٩ ح ١٤، وَسَائِل الشّيعة: ٨/٥٧٧ ح ٢، مَجْمَع الفائدة: ١٢/٣٦١.

(٥) ٱلنَّحْلِ: ١٠٥، وأُنظر، التَّفْسِير الكاشف: ٤/٥٥٤. (مِنْهُ ﷺ).

الأكرم ﷺ: «ٱلْمُؤْمِن لا يَكذب»[١]، وصرف الكَلاَم عن ظاهرِهِ خلاف الأصل.

(الصَّادِقُ عَلَىٰ شَفَا مَنْجَاةٍ، وَكَرَامَةٍ) أي أنّ الصَّادِق المخلص فِي قصدهِ، وسلوكه قَرِيب من الله، وجنته، ومَرْضَاتِه، وفِي عقيدتي أنّه المثل الأعلىٰ لِلْإِنْسَانية (وَالْكَاذِبُ عَلَىٰ شَرَفِ مَهْوَاةٍ، وَ مَهَانَةٍ). أي مُشرف علىٰ الهلاك، والهوان (وَ لاَ تَحَاسَدُوا، فَإِنَّ الْحَسَدَ يَأْكُلُ الإِيمَانَ ﴿كَمَا تَأْكُلُ النَّارُ الْحَطَبَ﴾) لأنّه يقود إِلَىٰ الاِفتراء، والْبَغْي، والفرق بَيْنَ الحَسُود، والمُعجب بنَفْسِهِ أنّ الحَسُود ساخط علىٰ الله، والنّاس أجميعن، والمُعجب يرىٰ نَفْسه فوق النّاس أَجمعين... وعلىٰ أيّة حَال فمن أُبتلي بٱلْحَسَد فليُمسك لِسَانِه عن ٱلْبَاطِل، فإنّ ٱلْحَسَد مِن حَيْث هو لَيْسَ بمحرم، والْمُحَرَّم مِنْهُ ما كَانَ وسيلة إِلَىٰ ٱلْحَرَام كالْغِيْبَة، والْكَذِب، والنَّميمة، ولذا قَالَ الرَّسُول الأَعْظَم ﷺ: «وَإِذَا حَسَدت فلا تبْغ»[٢]، ولم يقل: لا تحسد، حَتَّىٰ ولو نهىٰ عن ٱلْحَسَد فإنّ مُراده النّهي عن أثرهِ، لأنّ التّكليف بتركه من حَيْث هو تكليف بِمَا لا يُطاق.

(وَ لاَ تَبَاغَضُوا فَإِنَّهَا ـ أي البغضاء ـ الْحَالِقَةُ) للدِّين تَمَاماً كما تُحلق المُوسَىٰ الشَّعر، والْمَعْنَىٰ ٱفشوا السَّلاَم بَيْنَكُمْ، وتَعَاوَنُوا علىٰ ما فِيهِ خَيركم، قَالَ سُبْحَانَهُ: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱدْخُلُوا۟ فِى ٱلسِّلْمِ كَآفَّةً وَلَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَـٰنِ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ

---

(١) أنظر، تكملة حاشية ردّ المحتار لِابْن عابدين (علاء الدّين): ٢/٦٠٧، نور البراهين للسّيد عبدالله الجزائري: ١/٥٤٨.

(٢) أنظر، تفسير القُرطُبي: ١٦/٣٣٢، تأويل مختلف الحَدِيث: ١/١٠٧، فتح الباري: ١٠/٢١٣، التّمهيد لِابْن عبدالبر: ٦/١٢٥، شرح الزّرْقَاني: ٤/٣٢٨، تُحْفَة الأَحْوذي: ٦/٥٥، سُبل السّلاَم لِابْن حَجَر: ٤/١٨٢.

مُـبِينٌ﴾[1] . (وَ ٱعْلَمُوا أَنَّ الأَمَلَ يُسْهِي الْعَقْلَ ، وَ يُنْسِي الذِّكْرَ . فَأَكْذِبُوا الأَمَلَ فَإِنَّهُ غُرُورٌ ، وَ صَاحِبُهُ مَغْرُورٌ) الْأَمَل من حَيْث هو لا يُذم ، وَلاَ يُمـدح ، بـل يُـنظر إِلىٰ نتائجه ، وآثاره ، ويَحكم عَلَيْهِ بحسبها ، فالأَمَل فِي ٱلْحَيَاة ، وطـولها مَـع التَّـقْوَىٰ ، وعمل الْخَيْر مَمدُوح ، وهو مَع الشَّرَه ، والْحِرْص علىٰ الأَمْوَال كغَايَة مَذْمُوم ؛ لأنّـه يُعمي ٱلْعَقْل عن الصّواب ، ويبعث فِي النّفوس الغُرُور ، ويُصرفها عن التّـفكير فِي مصيرها ، قَالَ سُبْحَانَهُ فِي ذَم اليهود : ﴿وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ ٱلنَّاسِ عَلَىٰ حَيَوٰةٍ﴾[2] .

---

(١) ٱلْبَقَرَة : ٢٠٨.

(٢) ٱلْبَقَرَة : ٩٦.

الخطبة

-٨٧-

نَظَرَ فَأَبْصَرَ..فِقْرَة ١ ـ ٢:

عِبَادَ اللهِ ، إِنَّ مِنْ أَحَبِّ عِبَادِ اللهِ إِلَيْهِ عَبْداً أَعَانَهُ اللهُ عَلَىٰ نَفْسِهِ ، فَاسْتَشْعَرَ الْحُزْنَ ، وَ تَجَلْبَبَ الْخَوْفَ ، فَزَهَرَ مِصْبَاحُ الْهُدَىٰ فِي قَلْبِهِ ، وَ أَعَدَّ الْقِرَىٰ لِيَوْمِهِ النَّـازِلِ بِـهِ ، فَقَرَّبَ عَلَىٰ نَفْسِهِ الْبَعِيدَ ، وَ هَوَّنَ الشَّدِيدَ . نَظَرَ فَأَبْصَرَ ، وَ ذَكَرَ فَاسْتَكْثَرَ ، وَ ارْتَوَىٰ مِنْ عَذْبٍ فُرَاتٍ سُهِّلَتْ لَهُ مَوَارِدُهُ ، فَشَرِبَ نَهَلاً ، وَ سَلَكَ سَبِيلاً جَدَداً[1] . قَدْ خَلَعَ سَرَابِيلَ الشَّهَوَاتِ ، وَ تَخَلَّىٰ مِنَ الْهُمُومِ ، إِلاَّ هَمّاً وَاحِداً انْفَرَدَ بِهِ ، فَخَرَجَ مِنْ صِفَةِ الْعَمَىٰ ، وَ مُشَارَكَةِ أَهْلِ الْهَوَىٰ ، وَ صَارَ مِنْ مَفَاتِيحِ أَبْوَابِ الْهُدَىٰ ، وَ مَغَالِيقِ أَبْوَابِ الرَّدَىٰ . قَدْ أَبْصَرَ طَرِيقَهُ ، وَ سَلَكَ سَبِيلَهُ ، وَ عَرَفَ مَنَارَهُ ، وَ قَطَعَ غِمَارَهُ ، وَاسْتَمْسَكَ مِنَ الْعُرَىٰ بِأَوْثَقِهَا ، وَ مِنَ الْحِبَالِ بِأَمْتَنِهَا[2] .

اللُّغَة:

اسْتَشْعَرَ الْحُزْنَ : حَزِنَ . وَتَجَلْبَبَ الْخَوْفَ : خَافَ . وزَهَرَ : صَفَا ، وأَضَاءَ . والقِرَىٰ ـ بكسر القاف ـ ما يُهيأ للأضياف . والنَّهَل : أَوَّل الشُّرب ، والمُراد هُنا أنّه شَرِب مَا

فِيهِ الكفَايَة. والجَدَد ـ بفتح الجيم ـ ٱلأَرْض الصُّلبة المستوية. والغِمَار: جَمع الغَمْر، وهو ٱلْمَاء الكَثير. والْعُرْوَة: مَا يُؤخذ باليد كالحَلَقة.

الإِعْرَاب:

عَبْداً ٱسم إِنَّ مُؤَخَّر، وجُمْلَة أَعَانَهُ صِفة، ومِنْ أَحَبِّ خَبَر مُقَدَّم، ونَهَلاً مَفْعُول مُطلق مبين للنَوْع، ومِنَ الْعُرَىٰ «مِنَ» بيانية، والمجرور مُتَعَلِّق بِأَوْثَقِهَا.

الْمَعْنىٰ:

(إِنَّ مِنْ أَحَبِّ عِبَادِ اللهِ إِلَيْهِ عَبْداً أَعَانَهُ اللهُ عَلَىٰ نَفْسِهِ). الْمُرَاد بالنَّفس هُنا الأَهْوَاء وٱلشَّهَوَات الْمُفْسِدَة الْمُهلكة، والْمَعْنَىٰ أَنّ ٱلإِنْسَان القريب من الله سُبْحَانَهُ هو الَّذي يتغلب علىٰ نَفْسِه الأمارة حِينَ يقع الصِّدام، والصِّراع بَيْنَهَا، وبَيْنَ إِيمَانه، ومعتقده، ولَيسَ هَذَا من الدِّيانة المتزمتة، بل من ٱلعَمَل يوحي الضَّمِير المبدئي الخُلقي (فَٱسْتَشْعَرَ الْحُزْنَ) أي يشعر من نَفْسِه بِالتَّقْصِير فِي جَنب الله، فيحزن، ويتألم (وَتَجَلْبَبَ الْخَوْفَ). تَورع عن مَحارم الله خَوْفاً منهُ، والْمُرَاد هُنا بِٱلْخَوْف ما ثَبت ودام، أمّا الحَال الّتي تأتي، وتزول فما هِي فِي شيء من ٱلْخَوْف الَّذي خالط النَّفْس، ونبع من ٱلقَلْب، ومن دُعاء الإِمَام زين ٱلعَابِدِينَ﴿ع﴾ «أَللَّهُمَّ.. أَسْأَلُكَ خَوْفَ ٱلْعَابِدِينَ لَكَ، وَعِبَادَةَ الْخَاشِعِينَ لَكَ»[1].

(فَزَهَرَ مِصْبَاحُ ٱلْهُدَىٰ فِي قَلْبِهِ). ٱهتدىٰ بنور العِلْم، والإِيمَان إِلَىٰ نَهج ٱلسَّبيل

---

(١) أُنظر، الدُّعاء الرَّابع والخمسون، دُعَاؤُهُ فِي ٱسْتِكْشَافِ ٱلْهُمُومِ: ٦٦١ بتحقيقنا.

(وَأَعَدَّ الْقِرَىٰ لِيَوْمِهِ النَّازِلِ بِهِ) أي أَعَدَّ ٱلْعَمَل الصَّالح للموت، والقبر كَما يُعد الزَّاد للأضياف (فَقَرَّبَ عَلَىٰ نَفْسِهِ الْبَعِيدَ، وَ هَوَّنَ الشَّدِيدَ). المُرَاد بالْبَعِيدَ هُنا ٱلمَوْت، وهو قَرِيب فِي واقعه ولَكِنَّهُ بَعِيد عن عُقول المُستهزئين، وأَفكارهم، وبِهَذَا الإعْتِبَار وصفه الإِمَام بالبَعِد، والمُرَاد بِالشَّدِيد الصَّبر علىٰ ما أَوجبَ الله، وعمّا حَرم (نَظَرَ) إِلَىٰ باطن الأُمُور (فَأَبْصَرَ) الوَاقِع (وَ ذَكَرَ) الله (فَٱسْتَكْثَرَ) من ٱلْعَمَل فِي رِضاه.

(وَ ٱرْتَوَىٰ مِنْ عَذْبٍ فُرَاتٍ) أي من دِين الله، وشريعته (سُهِّلَتْ لَهُ مَوَارِدُهُ، فَشَرِبَ نَهَلاً) هَذَا، بعد أَنْ أَخلص النِّيَّة، وصدق مِنْهُ العَزم، وجَدَ فِي ٱلْعَمَل (وَ سَلَكَ سَبِيلاً جَدَداً) أي طريق العِلْم، وٱلْعَمَل، لا طَريق النِّفَاق، والشِّعارات الزَّائفة (قَدْ خَلَعَ سَرَابِيلَ الشَّهَوَاتِ) الَّتي تقف حاجزاً بينه وبَيْنَ الشُّعُور بالمَسْئُولية عن أعماله وتصرفاته (وَ تَخَلَّىٰ مِنَ الْهُمُومِ) كَحُب الجَاه، وٱلْمَال، والإهتمام بالقيل، والقال (إِلاَّ هَمّاً وَاحِداً ٱنْفَرَدَ بِهِ). وهو أَنْ يَلقىٰ راضياً مَرضياً، أمّا فِي الدُّنْيا فلْيَكُنْ ما كَانَ، تَمَاماً كما قَالَ سيّد الكَوْنين: «إِنْ لم يَكُنْ بك غَضَب عليَّ فلا أُبالي»[1].

(فَخَرَجَ مِنْ صِفَةِ ٱلْعَمَىٰ) عن نَهج ٱلهِدَايَة (وَ مُشَارَكَةِ أَهْلِ ٱلْهَوَىٰ) فِي ٱلْفَسَاد، والضّلال (وَ صَارَ مِنْ مَفَاتِيحِ أَبْوَابِ ٱلْهُدَىٰ) لعلمه بِهَذِه الأبواب، وٱلسَّبِيل إِلَيْهَا (وَمَغَالِيقِ أَبْوَابِ الرَّدَىٰ) حَيْث ٱبتعد عَنْهَا رَحْمَة بنَفْسِهِ (قَدْ أَبْصَرَ طَرِيقَهُ، وَ سَلَكَ سَبِيلَهُ، وَ عَرَفَ مَنَارَهُ، وَ قَطَعَ غِمَارَهُ، وَٱسْتَمْسَكَ مِنَ الْعُرَىٰ بِأَوْثَقِهَا، وَ مِنَ الْحِبَالِ بِأَمْتَنِهَا). هَذِه الجُمل بِكَامِلِهَا معطوفة للبيان، والتَّفْسِير علىٰ قَوْله: «فَخَرَجَ مِنْ صِفَةِ ٱلْعَمَىٰ، وَمُشَارَكَةِ أَهْلِ ٱلْهَوَىٰ» وتتلخص بمجموعها فِي كلمتين، وجُمْلَة

(١) أنظر، تَفْسِير القُرطُبي: ٢١١/١٦، تَفْسِير أبن كَثِير: ١٧٦/٤، البداية والنِّهَايَة: ١٦٦/٣.

وَاحِدَة، وَهِي عِلمٌ، فعملٌ.

يَصِفُ الْحَقَّ، وَيَعْمَلُ بِهِ...فِقْرَة ٣ ـ ٦:

فَهُوَ مِنَ ٱلْيَقِينِ عَلَىٰ مِثْلِ ضَوْءِ الشَّمْسِ، قَدْ نَصَبَ نَفْسَهُ للهِ ـ سُبْحَانَهُ ـ فِي أَرْفَعِ ٱلأُمُورِ، مِنْ إِصْدَارِ كُلِّ وَارِدٍ عَلَيْهِ، وَ تَصْيِيرِ كُلِّ فَرْعٍ إِلَىٰ أَصْلِهِ. مِصْبَاحُ ظُلُمَاتٍ، كَشَّافُ عَشَوَاتٍ، مِفْتَاحُ مُبْهَمَاتٍ، دَفَّاعُ مُعْضِلاَتٍ، دَلِيلُ فَلَوَاتٍ[٣]، يَقُولُ فَيُفْهِمُ، وَيَسْكُتُ فَيَسْلَمُ. قَدْ أَخْلَصَ للهِ فَٱسْتَخْلَصَهُ، فَهُوَ مِنْ مَعَادِنِ دِينِهِ، وَ أَوْتَادِ أَرْضِهِ، قَدْ أَلْزَمَ نَفْسَهُ الْعَدْلَ، فَكَانَ أَوَّلَ عَدْلِهِ نَفْيُ الْهَوَىٰ عَنْ نَفْسِهِ، يَصِفُ الْحَقَّ وَ يَعْمَلُ بِهِ، لاَ يَدَعُ لِلْخَيْرِ غَايَةً إِلاَّ أَمَّهَا، وَ لاَ مَظِنَّةً إِلاَّ قَصَدَهَا، قَدْ أَمْكَنَ الْكِتَابَ مِنْ زِمَامِهِ، فَهُوَ قَائِدُهُ، وَ إِمَامُهُ، يَحُلُّ حَيْثُ حَلَّ ثَقَلُهُ، وَ يَنْزِلُ حَيْثُ كَانَ مَنْزِلُهُ[٤].

وَ آخَرُ قَدْ تَسَمَّىٰ عَالِماً وَ لَيْسَ بِهِ، فَٱقْتَبَسَ جَهَائِلَ مِنْ جُهَّالٍ، وَ أَضَالِيلَ مِنْ ضُلاَّلٍ، وَ نَصَبَ لِلنَّاسِ أَشْرَاكاً مِنْ حَبَائِلِ غُرُورٍ، وَ قَوْلِ زُورٍ، قَدْ حَمَلَ الْكِتَابَ عَلَىٰ آرَائِهِ، وَ عَطَفَ الْحَقَّ عَلَىٰ أَهْوَائِهِ، يُؤْمِنُ النَّاسَ مِنَ الْعَظَائِمِ، وَ يُهَوِّنُ كَبِيرَ الْجَرَائِمِ، يَقُولُ: أَقِفُ عِنْدَ الشُّبُهَاتِ، وَ فِيهَا وَقَعَ، وَ يَقُولُ: أَعْتَزِلُ الْبِدَعَ، وَ بَيْنَهَا ٱضْطَجَعَ، فَالصُّورَةُ صُورَةُ إِنْسَانٍ، وَ الْقَلْبُ قَلْبُ حَيَوَانٍ، لاَ يَعْرِفُ بَابَ الْهُدَىٰ فَيَتَّبِعَهُ، وَ لاَ بَابَ ٱلْعَمَىٰ فَيَصُدَّ عَنْهُ. وَ ذٰلِكَ مَيِّتُ الأَحْيَاءِ[٥]!

﴿فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ﴾[١]؟ ﴿فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ﴾[٢]، وَ الأَعْلاَمُ قَائِمَةٌ، وَ الآيَاتُ وَاضِحَةٌ، وَ الْمَنَارُ مَنْصُوبَةٌ، فَأَيْنَ يُتَاهُ بِكُمْ! وَكَيْفَ تَعْمَهُونَ؟ وَ بَيْنَكُمْ عِتْرَةُ نَبِيِّكُمْ!

---

(١) ٱلتَّكوِير: ٢٦.

(٢) ٱلأَنعَام: ٩٥.

وَ هُمْ أَزِمَّةُ الْحَقِّ، وَ أَعْلاَمُ الدِّينِ، وَ أَلْسِنَةُ الصِّدْقِ، فَأَنْزِلُوهُمْ بِأَحْسَنِ مَنَازِلِ الْقُرْآنِ، وَ رِدُوهُمْ وُرُودَ الْهِيمِ الْعِطَاشِ[٦].

اللُّغَة:

عَشَوَاتٍ: جَمع عشوة ـ بالحركات الثّلاث ـ، وَهِي سُوء الْبَصَر. والْمُعْضِلاَت: جَمع مُعْضِلَة، وَهِي المُشْكِلَة الّتي يصعب حلها. وفَلَوَاتٍ: صَحْرَاوَات يَتِيه فيها من يُريد الخُروج مِنْهَا. وأَمُّهَا: قَصَدَهَا. وَمَظَنَّة الشّيء: مَوْضِعه الَّذي يَظنّ وُجُودِه فِيه. وثَقَلُ الْكِتَاب: أَحْكَامه، وتَعاليمه. وتُؤْفَكُونَ: تُصْرَفُون. وتَعْمَهُونَ: تَجْهَلُون، وقيل: الْعَمَىٰ فِي الْبَصَر، والْعَمَه فِي البَصِيرة. والأَزِمَّةُ: جمع زِمَّام أي مَا يُشد بِهِ. والْهِيمِ ـ بكسر الهاء ـ الإِبِل.

الإِعْرَاب:

مِصْبَاحُ ظُلُمَاتٍ، وما بعدها إخبار عن مُبْتَدَأ مَحْذُوف أي هُو... إلخ، واسم لَيسَ ضَمِير مستتر و«بِهَ»، فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ «أَيْنَ» محلها النّصب بـنزع الخـافض أي إلَىٰ أَيْنَ، وَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ «أَنَّىٰ» بِمَعْنَىٰ أَيْنَ، وَعَلَيْهِ يَكُون إعرابها مثل أَيْنَ تَذْهَبُونَ، وَكَيْفَ تَعْمَهُونَ «كَيْفَ» محلها النّصب علىٰ الحَال أي علىٰ حَال تَعْمَهُونَ، ويجوز أَنْ تَكُون مفعولاً مُطلقاً علىٰ مَعْنَىٰ أي عَمَه تَعْمَهُونَ.

الْمَعْنَىٰ:

(فَهُوَ مِنَ الْيَقِينِ عَلَىٰ مِثْلِ ضَوْءِ الشَّمْسِ). ضَمير «هُوَ» يعود إلَىٰ العبد الَّذي

أَعَانَهُ اللهُ عَلَىٰ نَفْسِهِ، فَٱسْتَشْعَرَ الحُزْنَ... إِلَىٰ آخر الأَوصَاف الّتي نعته بِها الإِمَامُ عليه السلام والْمَعْنَىٰ أَنَّ هَذَا العبد الصّالح هو عَالم بحق، لأَنّه فِي علمه، وعمله علىٰ بَيِّنَة واضحة من ربّه تَمَاماً كوضح النَّهار (قَدْ نَصَبَ نَفْسَهُ للهِ ـ سُبْحَانَهُ ـ فِي أَرْفَعِ ٱلأُمُورِ) أي أَنّه بعد أنْ دَرَس، وسَهَر الليالي فِي طلب العِلْم، وأَتقنه خير أتقان، بعد هَذَا تَعرض لأَرْفَعِ ٱلأُمُورِ، وَهِي الفتوىٰ، والْقَضَاء بَيْنَ النّاس، وما يُرشدهم إِلَىٰ ٱلْحَقّ، وسبيله، وَإِذَا حَرم سُبْحَانَهُ علىٰ الْجَاهِل هَذَا المنصب الخطير فقد أَوْجَبَ علىٰ العَالم أنْ يبث علمه، وَلاَ يمنعه عن النّاس، قَالَ الإِمَام: «مَا أَخَذَ اللهُ عَلَىٰ أَهْلِ الْجَهْلِ أَنْ يَتَعَلَّمُوا حَتَّىٰ أَخَذَ عَلَىٰ أَهْلِ الْعِلْمِ أَنْ يُعَلِّمُوا»[1].

كُلّ مُجْتَهِد مُصِيب:

(مِنْ إِصْدَارِ كُلِّ وَارِدٍ عَلَيْهِ). أي يُجيب بِالْحَقِّ عن كلّ سؤال يسأل عَنْه (وَ تَصْيِيرِ كُلِّ فَرْعٍ إِلَىٰ أَصْلِهِ). هَذَا أوضح، وأوجز تَعريف للمُجْتَهِد، فَهُوَ الَّذي يُحيط بمدارك الشَّرِيعَة، ويتمكن مِنْهَا حَتَّىٰ إِذَا عَرضت له حادثة من ٱلْحَوَادِث ٱستخرج حكمها ـ هو الْمُرَاد بالفرع ـ من مَداركه، وأُصوله، وَهِي أَرْبَعَة:

١ ـ ٱلْعَقْل، وهو المَدرك الأَوّل، والأَسَاس، فبمنطقه، ومنطق ٱلحسّ يثبت وجود الله سُبْحَانَهُ، وبحكمه تؤوّل آيات ٱلْقُرْآن الّتي لا تتفق بظاهرها مَع بديهة ٱلعَقْل، وأيضاً بِٱلْعَقْل، والمُعْجِزَة تثبت نُبُوَّة ٱلأَنْبِيَاء، ولَوْلاَه لانهار الدِّين من أَساسه، وأيضاً بِٱلْعَقْل تثبت الأَحْكَام القائمة علىٰ رعاية مصالح النّاس، والتَّيسير

(١) أنظر، نَهج ٱلبَلاَغَة: ٱلحِكْمَة (٤٧٨).

عَلَيْهِمْ، والْعَدْل بَيْنَهم، لأنّ هَذِه من شُؤوُن ٱلعَقْل، وأَحْكَامه، وقد جَرت عادة الْفُقَهَاء أنْ يقدموا ٱلقُرْآن فِي الذِّكر علىٰ ٱلعَقْل حِينَ يشيرُون إِلَىٰ أدِلَّة الشّرع تعظيماً لكلام الله الَّذي خلق ٱلْعَقْل، والشّرع، وإلاّ فَهُوَ أسبق من ٱلقُرْآن من حَيْث الدَّلاَلَة عَلىٰ صدقِه، وإعْجَازه.

٢ ـ ٱلقُرْآن ٱلْكَرِيم، كَلاَم الله سُبْحَانَهُ بالحَرف بلا زِيَادَة، أو نُقْصَان، وقد ضَم أُصول الدِّين بِكَامِلها حَتَّىٰ وِلاَيَة الرَّسُول، وأَهْل بَيْتِه عليهم السلام كما تَقَدَّم[1]. أمّا الفروع، والآحكام فقد نصّ عَلَيْهَا بالتفصيل، أو الإجمال الإمَام عليّ عليه السلام كما أوضحنا[2].

٣ ـ ما ثبت بالتّواتر، أو بخبر الثّقة من قَوْل النَّبِيّ صلى الله عليه وآله، وَفعَله، وتقريره، وهَذِه الطُّرق الثّلاث تُسمىٰ بالسُّنَّة النَّبَوِيَّة مُنفرده، ومجتمعة، وَهِي بحكم ٱلقُرْآن حجّةً، ودليلاً، لقَوْله: ﴿وَمَآ ءَاتَـٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَـٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُواْ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾[3].

٤ ـ إجماع الْفُقَهَاء، ولنا فِيهِ نظر.... إلاّ إذَا كَانَ المُجْمَع عَلَيْهِ من ضرورة الدِّين، أو المَذْهَب، ومن البداهة أنّ الضّرورة لا تحتاج إِلَىٰ دَلِيل، بل تَكُون هِي دليلاً علىٰ غَيْره.

وٱختلف الْفُقَهَاء: هل ٱلْوَاقِعَة الّتي لم نَعثر علىٰ النّص علىٰ حكمها المُعين، ونطلبه من الأُصُول، والقواعد الْعَامَّة، هل لله سُبْحَانَهُ فِي هَذِه ٱلْوَاقِعَة بالذات حكم معين قد يصيبه ظَن المُجْتَهِد، وقد يخطئه، أو أنّ هَذِه ٱلْوَاقِعَة لا حكم فيها لله من الأَسَاس،

(١) أنظر، الآيَة ٥٥ من ٱلْمَائِدَةِ، والآيَة ٣٣ من ٱلأَحْزَابِ، وتَقَدَّمت إِلَيهما الإِشَارَة. (مِنْهُ رحمه الله).

(٢) أنظر، ٱلخُطْبَة (٨٤) فِقْرَة ١. (مِنْهُ رحمه الله).

(٣) ٱلحَشْر: ٧.

وإنّما حكمه تَعَالَىٰ يتبع ظَن المُجْتَهِد، وعَلَيْهِ يَكُون هَذَا الظّن مُصيباً فِي شَتّىٰ الحالات، إذ المفروض أنّ ٱلْوَاقِعَة صحيفة بَيْضَاء، وحكم الله فيها هو حُكم المُجْتَهِد، وظنه ؟.

ذهب الشّيعة إِلَىٰ الأَوَّل أي أنّ لله حُكماً مُعيناً فِي كلّ واقعة، سواء أثبت النّص، أَم لَم يثبت، وبِهَذَا قَالَ الشّافعي. وذهب مالك، وأبو حَنِيفَة إِلَىٰ الثّانِي، وإنّ كلّ مُجْتَهِد مُصيب فِي الظّنيات[1].

وفِي رأينا أنّ كلّ مُجْتَهِد مُصيب للحكم الإلهي المُعين فِي الوَاقِع، أو للحُكم المُقرر الّذي أوجبه سُبْحَانَهُ فِي حقّ المُجْتَهِد عندما يُخطىء الحُكم المُعين، فالطبيب ـ مثلاً ـ قد يُخطىء فِي تشخيص حالة من الحالات، والمُهندس قد يُخطىء فِي عملية من ٱلْعَمَلِيَات، والكيماوي قد يُخطىء فِي تَجْرِبَة من التّجَارِب، ومَع هَذَا الخَطَأ هُنا وهناك فإنّ كلّ واحد من هَؤُلاَء، وغَيْرهم من ٱلْعُلَمَاء يُلزمه حَتماً ٱلْعَمَل برأية، ويلزمنا نَحْنُ أنْ نأخذ بقَوْله إنْ كَانَ قد ٱجتهد، وٱفرغ الوسع، لأنّ الرّفض، وهَذِه هِي الحَال، معناه رفض العِلْم من الأَسَاس أيّاً كَانَ نَوْعَه.

والخُلاَصة: أنّ المُجْتَهِد فقيهاً كَانَ، أَم طبيباً، أَم مُهندساً، أَم عالماً بالطّبِيعَة ـ لا يقرر أَحْكَامه علىٰ سَبِيل الوَاقِع، بل علىٰ ما أدىٰ إِلَيْهِ بحثه، وٱجتهاده، ومَع هَذَا فإنّ عَلَيْهِ أنْ يترتب آثَار الوَاقِع، وإلّا ٱنسد بَاب العِلْم بشَتّىٰ أَنْوَاعه... وَلاَ تفوتنا الْإِشَارَة ـ بِهَذِه المُناسبة ـ إِلَىٰ أنّ العَالم يتهم فهمه، وأفكاره، وأنّه كلما ٱزداد عِلْماً ٱزداد توقعاً للخطأ، وقبولاً للنقد، وعلىٰ قدر ما يَكُون العِلْم، أو ٱلْجَهْل ـ علىٰ الأصح ـ يَكُون الْإِصْرَار علىٰ الرّأي، والتّهرب من النّقد.

---

(١) أُنظر، كتاب اللُّمع لأبي إِسْحَق الشّيرازي: ٧١ طَبْعَة ١٩٣٩م. (مِنْهُ ﷺ).

(مِصْبَاحُ ظُلُمَاتٍ، كَشَّافُ عَشَوَاتٍ، مِفْتَاحُ مُبْهَمَاتٍ، دَفَّاعُ مُعْضِلاَتٍ، دَلِيلُ فَلَوَاتٍ). أي هو علَم على الْحَقّ، ومنار فِي الشّرع (يَقُولُ فَيُفْهِمُ) أي لا يَقُول بِلِسَانِه مَا لَيْسَ فِي قَلبِه، وَلاَ يَلوك لفظاً غَيْر واضح، ومحدد الْمَعْنَىٰ فِي الأَفْهَام كما يفعل عباقرة الكَلاَم (وَيَسْكُتُ) عمّا يحسن السُّكُوت عَنْه (فَيَسْلَمُ) من الأخطاء، والآثام، وفِي أَقْوَال أَهْل ٱلْبَيْت عليهم السلام «حقّ الله علىٰ الْعِبَاد أنْ يَقُولوا ما يَعْلَمُون، ويقفوا عندما لا يَعْلَمُون»[1]... وَإِذَا سئل العَالم عَن شيء، وهو لا يعلمه، أنْ يَقُول: الله أَعلم، ولَيْسَ لغير العَالم أنْ يَقُول ذَلِكَ، بل يَقُول: لا أدري. وقد يَكُون السّر فِي ذَلِكَ أنّ كَلِمَة لا أعلم تُشعر بأنّ قائلها علىٰ شيء من العِلْم دُونَ كَلِمَة لا أدري. والله العَالم.

(قَدْ أَخْلَصَ للهِ فَٱسْتَخْلَصَهُ) فِي قصده وقَوْله وَفَعَله (فَٱسْتَخْلَصَهُ) أي قَرَبه، وكَرَمه (فَهُوَ مِنْ مَعَادِنِ دِينِهِ، وَأَوْتَادِ أَرْضِهِ) أي من حفظة الدِّين، وخُلَفَاء الله فِي ٱلأَرْض، وخَلِيفَة الله فِي أَرْضِه هو الَّذي يخضع فكراً، وسلوكاً لأحكامه تَعَالَىٰ، وتَعَالَىٰمه الّتي أَمرت بعِمَارَة ٱلأَرْض، وإصلاحها لخير الْعِبَاد، وصلاحهم (قَدْ أَلْزَمَ نَفْسَهُ الْعَدْلَ، فَكَانَ أَوَّلَ عَدْلِهِ نَفْيُ الْهَوَىٰ عَنْ نَفْسِهِ، يَصِفُ الْحَقَّ وَيَعْمَلُ بِهِ، لاَ يَدَعُ لِلْخَيْرِ غَايَةً إِلاَّ أَمَّهَا، وَلاَ مَظِنَّةً إِلاَّ قَصَدَهَا، قَدْ أَمْكَنَ الْكِتَابَ مِنْ زِمَامِهِ، فَهُوَ قَائِدُهُ، وَإِمَامُهُ، يَحُلُّ حَيْثُ حَلَّ ثَقَلُهُ، وَيَنْزِلُ حَيْثُ كَانَ مَنْزِلُهُ). يُريد الإِمَام عليه السلام أَنّ ٱلْمُؤْمِن الصّادق هو الَّذي يَعِيش دِينه، وإِيمَانه، ويُعبر عن عقيدته بٱلعَمَل المجسد المحسوس، وَلاَ ينفصم عن نَفْسِه، وإِيمَانه بحال، وَلاَ يقيس أي عمل من أعماله، أو

(١) أُنظر، الكافي: ٣/٤٢ ح ٧ و١٢، وَسَائِل الشّيعة: ١٨/١٢ ح ١٠، أمالي الصّدوق: ٥٠٦، توحيد الصّدوق: ٤٥٩، مُنية المُريد للشهيد الثاني: ٢١٥.

قَوْل من أَقْوَاله بغير ٱلْقُرْآن، فَهُوَ وحده قَائِدُهُ، والآخذ بزِمَامِهِ.

وبعد أنْ ذكر الْإِمَامﷺ ٱلْمُؤْمِن العَالِم، وحدده بِمَا ذكر من الْأَوصَاف، أشار إِلَىٰ الْجَاهِل الْمُنَافِق بقَوْله: (وَ آخَرُ قَدْ تَسَمَّىٰ عَالِماً وَ لَيْسَ بِهِ، فَٱقْتَبَسَ جَهَائِلَ مِنْ جُهَّالٍ، وَ أَضَالِيلَ مِنْ ضُلَّالٍ، وَ نَصَبَ لِلنَّاسِ أَشْرَاكاً مِنْ حَبَائِلِ غُرُورٍ، وَ قَوْلِ زُورٍ). العَالم العامل قُوَّة، ودعامة للدِّين، وٱلْحَقّ، أمّا الْجَاهِل الْمُنَافِق فَهُوَ حَرْب علىٰ الدِّين، وٱلإِنْسَانية بأكَاذِيبه، وٱحتِيَّاله، وغُرُورِهِ، وضَلاله، وفِي بَعْض الْأَحَادِيث: إنّ من ٱتسم بسمة أَهْل العِلْم، والدِّين، ولَيْسَ مِنْهُم فَهُوَ من قطّاع الطَّرِيق، وأشد علىٰ ٱلإِسْلاَم من جيش يزيد بن مُعَاوِيَة[1] (قَدْ حَمَلَ الْكِتَابَ عَلَىٰ آرَائِهِ) لا علىٰ ما أَراد الله من كَلامه. وَقَالَ السَّيِّد رشيد رضا: «إنّ الكرخي ـ وهو من أئمة الأحناف فِي الفِقْه ـ قَالَ بأنّ الأصل هو قَوْل أَبِي حَنِيفَة، فإنْ وافقته نصوص ٱلْكِتَاب، وٱلسُّنَّة فذاك، وإلّا وَجَبَ تأويل نصوص ٱلْقُرْآن، وٱلسُّنَّة علىٰ قَوْل أبي حَنِيفَة»[2]. ومَعْنَىٰ هَذَا فِي واقعه أنّ الله، والرَّسُول تَبع لأبي حَنِيفَة... وَتَعَالَىٰ الله عَمَّا يَقُولُ ٱلْمُشْرِكُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا.

(وَ عَطَفَ الْحَقَّ عَلَىٰ أَهْوَائِهِ) أي يُقيس ٱلْحَقّ بمنافعه، لا بمقاييسه المقررة (يُؤْمِنُ النَّاسَ مِنَ الْعَظَائِمِ، وَ يُهَوِّنُ كَبِيرَ الْجَرَائِمِ) كأنْ يَقُول لَهُمْ: إِلَىٰ يَوْم الله يُهَوِّنُ الله.. إنّ الله غفور رحيم.. قَالَ الْإِمَامﷺ: «الْفَقِيهُ كُلُّ ٱلْفَقِيهِ مَنْ لَمْ يُقَنِّطِ النَّاسَ مِنْ رَحْمَةِ اللهِ»[3] (يَقُولُ: أَقِفُ عِنْدَ الشُّبُهَاتِ، وَ فِيهَا وَقَعَ). ٱلشُّبُهَات منطقة «حَرَام» بَيْنَ

---

(١) أنظر، الإِحْتِجَاج: ٢/٢٦٤، قَرِيب مِنْهُ، التَفْسِير المنسوب لِلإِمَامِ العسكري: ٣٠١.

(٢) أنظر، تفْسِير المنار: الآيَة ١٦٦ من سُورَة ٱلْبَقَرَة. (مِنْهُ ﷺ).

(٣) أنظر، نَهْج البَلاَغَة: ٤/٢٠ ٱلْحِكْمَة (٩٠)، عيون الحِكَم والمَوَاعِظ: ٥٥، شرح النَّهْج لِابْن أبي ٱلْحَدِيد: ١٨/٢٤٣، سُبل الْهُدَىٰ والرَّشاد: ١١/٢٩٩، يَنَابِيع المَوَدَّة: ٢/٤١٦.

الحَلال ٱلبيّن، وٱلحَرَام ٱلبيّن، وفيها يلتبس الحَلاَل بٱلحَرَام، ومن الورع أنْ يتجنبها المُسْلِم كيلا تَجره إِلَىٰ مواقعة ٱلحَرَام. وفِي الحَـدِيث: «حَـلال بـيّن، وحَـرام بـيّن، وشُبُهَات بَيْنَ ذلكَ، فمن تَرك ٱلشُّبُهَات نَجا من المُحَرَّمات، ومن أَخذ بٱلشُّبُهَات وَقَع فِي المُحَرَّمات، وهَلكَ مِن حَيْث لا يَعلم»(١).

وَيَقُولُ: (أَعْتَزِلُ الْبِدَعَ، وَ بَيْنَهَا اَضْطَجَعَ). البِدْعَة أحداث فِي الدِّين إيجَاباً، أو سلباً، أي نفي الثّابت، أو إثبات المنفي، وَهَذَا الجَاهِل المُنَافِق يَدعي تجـنب البـدع وٱلشُّبُهَات، وهو غَارق فيها إِلَىٰ أُذنيه (فَالصُّورَةُ صُورَةُ إِنْسَـانٍ، وَ الْـقَلْبُ قَـلْبُ حَيَوَانٍ). الطَّبِيعَة البشرية وَاحِدَة فِي كلّ فرد، والتَّفاوت بَيْنَ الأفراد إنّمـا هو نتيجة عوامل خارجة عن طبيعته، وَهِي كَثِيرَة:

مِنْهَا: التُّربية، والوراثة، والجو الَّذي يَعِيش فِيهِ، والغذاء يتغذىٰ بِهِ، واللّباس الَّـذي يَـلبسه، والكَـلاَم الَّـذي يَسْـمَعه، أو يَـقرأه، والشّيء الَّـذي يَـراه، ويُشاهده... إِلَىٰ غَيْر ذَلِكَ. وإذَنْ لِلإِنْسَان طَبِيعَة ذاتية أوّلية يشاركه فـيها جَمِـيع الأفراد، وتقبل كلّ ما يَمر بهـا من الهيئات، والصِّفَات تَمَاماً «كالريح آخذة مِمَّا تَمُرّ بها: نَتناً من ٱلنَّتن، أو طيّباً من الطَّيِّب» ولهُ ـ أي لِلإِنْسَان ـ طَبِيعَة ثَانِيَة مُكتسبة، وبها يُقاس لا بطبيعته الأُولَىٰ... فإنْ نشأ وٱعتاد علىٰ الْكَذِب، والخِدَاع فَهُوَ شَيْطَان فِي صورة إِنْسَان، وإنْ نشأ جاهلاً شَرهاً فَهُوَ فِي واقعه حَيوان، وفِي ظاهره إِنْسَان...

وَقَالَ المُلا صدرا فِي الأسفار: «إِذَا تمكنت الصِّفَات المُخْتَلِفَة منهُ خَرجت النّفوس من ٱلْقُوَّة إِلَىٰ الفِعْل ـ أي من طَبِيعَة اللاخَـير واللاشَر ـ وتـتصور بـصورة مـلك، أو

(١) أنظر، الكافي: ٦٨/١ ح ١٠، صَحِيح مُسْلِم: ٢٦٧/٤، تحرير الأَحْكَام: ١٨١/٢، مُسْنَد أحمد: ٢٦٧/٤، الوَسَائِل: ١١٤/١٨ ح ٩، فتح الباري: ٢٤٩/٤، السُّنَن الكُبْرَىٰ: ٣٣٤/٥.

شَيْطَان، أو بهيمة، أو سبع»[1].

(لاَ يَعْرِفُ بَابَ ٱلْهُدَىٰ فَيَتَّبِعَهُ، وَلاَ بَابَ ٱلْعَمَىٰ فَيَصُدَّ عَنْهُ) لأنّه حيوان (وَذَٰلِكَ مَيِّتُ ٱلْأَحْيَاءِ). هو مَيِّت بطبيعته من حَيْث ٱلإِنْسَانية، وهو حَي بطبيعته من حَيْث البَهيمية ﴿فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ﴾[2]؟ ﴿فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ﴾[3]، وَٱلْأَعْلاَمُ قَائِمَةٌ، وَالآيَاتُ وَاضِحَةٌ، وَٱلْمَنَارُ مَنْصُوبَةٌ، فَأَيْنَ يُتَاهُ بِكُمْ!) أتدبرُون مُنصرفِين عن دَعْوَة ٱلْهُدَىٰ وَٱلْحَقّ تَائِهين فِي ظُلُمات الضَّلال، والهلاك، وطَرِيق النَّجاة بمرأىٰ مِنْكُم واضحاً كَالشَّمْس؟ ثُمّ بيّن هَذَا الطَّرِيق بقَوْله:

(وَكَيْفَ تَعْمَهُونَ؟ وَبَيْنَكُمْ عِتْرَةُ نَبِيِّكُمْ!) وهو عِدل ٱلقُرْآن، والوسيلة إِلَىٰ الجِنان بشهادة جدّهم فِي حَدِيث الثَّقَلَيْن[4] (وَهُمْ أَزِمَّةُ ٱلْحَقِّ). يقُودُونَ إِلَيْهِ من والاهم، وٱسترشد بهديهم (وَأَعْلاَمُ الدِّينِ)، لأنّهم خَزَنة عِلمه، وحَفَظَة عَهْدِه، (وَأَلْسِنَةُ الصِّدْقِ) بشهادة ٱلقُرْآن الَّذِي طهرهم من الرّجس بشَتَّىٰ أَنْوَاعه (فَأَنْزِلُوهُمْ بِأَحْسَنِ مَنَازِلِ الْقُرْآنِ). لتعظيم ٱلقُرْآن، وٱحترامه منازل، ومراتب:

مِنْهَا: أَنْ نحفظ آياته.

ومِنْهَا: أَنْ نُجيد تلاوته، أو نَفهم مُراده، وخير المراتب كلّها أَنْ نَعرف أَحْكَامه، ونعمل بها، وأيضاً لتعظيم أَهْل ٱلبَيْت الَّذين هُم تَرْجُمَان ٱلقُرْآن منازل:

---

(١) أُنظر، ٱلحِكْمَة المتَعَالِيَة (الأسفار) لصدر الدِّين مُحَمَّد بن إبْرَاهِيم الشِّيرازي ٱلمَعْرُوف بـ(مُلا صَدرا)، أو صَدر المُتألهين: ٤/٢٢٣.

(٢) ٱلتّكوير: ٢٦.

(٣) ٱلأَنْعَام: ٩٥.

(٤) تَقَدَّم إستخراجه.

مِنْهَا: أنْ نُصلي عَلَيْهِمْ أينما ذُكروا.

ومِنْهَا: أنْ نزور عتباتهم المُقدسة، وأنْ نَفرح لفرحهم، ونَحزن لحزنهم، وخير المنازل اطلاقاً أنْ نعرف تَعَالِيمهم، ونلتزمها قَوْلاً، وعملاً.

(وَ رِدُوهُمْ وُرُودَ الْهِيمِ الْعِطَاشِ). قَالَ الشَّيخ مُحَمَّد عَبْدَه: «هلموا إِلَىٰ بحار علومهم ـ أَهْل الْبَيْت ـ مُسْرِعين كما تُسرع إِلَيْهِمْ الإِبِل العطاشىٰ إِلَىٰ الْمَاء»[1]. فهم المورد العَذب، والشّاهد حياتهم، وسيرتهم بصرف النَّظر عمّا نزل فِيهِمْ من الآيَات، وجَاء من الرِّوَايَات، فلقد جاهدوا فِي سَبِيل الإِسْلاَم، والْمُسْلِمِين، وَلاَقوا فِي هَذِه السَّبِيل مَا لاقوه من التَّقتيل، والأسر، والسَّبي، والتَّشريد، والتَّنكيل.

لاَ تَسْتَعْمِلُوا الرَّأْيَ...فِقْرَة ٧ ـ ٩:

أَيُّهَا النَّاسُ، خُذُوهَا عَنْ خَاتَمِ النَّبِيِّينَ ﷺ: «إِنَّهُ يَمُوتُ مَنْ مَاتَ مِنَّا وَ لَيْسَ بِمَيِّتٍ، وَ يَبْلَىٰ مَنْ بَلِيَ مِنَّا وَ لَيْسَ بِبَالٍ» فَلاَ تَقُولُوا بِمَا لاَ تَعْرِفُونَ، فَإِنَّ أَكْثَرَ الْحَقِّ فِيمَا تُنْكِرُونَ، وَ اعْذِرُوا مَنْ لاَ حُجَّةَ لَكُمْ عَلَيْهِ ـ وَ هُوَ أَنَا ـ[7]. أَلَمْ أَعْمَلْ فِيكُمْ بِالثَّقَلِ الْأَكْبَرِ! وَ أَتْرُكْ فِيكُمُ الثَّقَلَ الْأَصْغَرَ! قَدْ رَكَزْتُ فِيكُمْ رَايَةَ الْإِيمَانِ، وَ وَقَفْتُكُمْ عَلَىٰ حُدُودِ الْحَلاَلِ، وَ الْحَرَامِ، وَ أَلْبَسْتُكُمُ الْعَافِيَةَ مِنْ عَدْلِي، وَ فَرَشْتُكُمُ الْمَعْرُوفَ مِنْ قَوْلِي، وَ فِعْلِي، وَ أَرَيْتُكُمْ كَرَائِمَ الْأَخْلاَقِ مِنْ نَفْسِي، فَلاَ تَسْتَعْمِلُوا الرَّأْيَ فِيمَا لاَ يُدْرِكُ قَعْرَهُ الْبَصَرُ، وَ لاَ تَتَغَلْغَلُ إِلَيْهِ الْفِكَرُ[8].

حَتَّىٰ يَظُنَّ الظَّانُّ أَنَّ الدُّنْيَا مَعْقُولَةٌ عَلَىٰ بَنِي أُمَيَّةَ، تَمْنَحُهُمْ دَرَّهَا، وَ تُورِدُهُمْ

---

(١) أُنظر، شرح النَّهج: ١/١٥٤.

صَفْوَهَا، وَلاَ يُرْفَعُ عَنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ سَوْطُهَا، وَلاَ سَيْفُهَا، وَكَذَبَ الظَّانُّ لِذَلِكَ. بَلْ هِيَ مَجَّةٌ مِنْ لَذِيذِ الْعَيْشِ يَتَطَعَّمُونَهَا بُرْهَةً، ثُمَّ يَلْفِظُونَهَا جُمْلَةً[٩]!

اللُّغَة:

فَرَشْتُكُمْ: بَسَطت لَكُم. وتَغَلْغَلَ فِي الشّيء: دَخَل فِيهِ، وتَغَلْغَلَ، وغَلْغَلَ: أَسْرَع. ومَعْقُولَةٌ عَلَيْهِمْ: مُسخّرة لَهُمْ، من العِقَال. والمَجَّةُ: القَليل من الشّراب نَذوقه ثُم نَقذفه. البُرْهَة: مُدَّة غَيْر قَصيرة من الزّمن. ويَتَطَعَّمونَهَا: يَتَذَوقُونَهَا.

الْإِعْرَاب:

آلهَاء فِي خُذُوهَا يعود إِلَىٰ الْحَقِيقَة، وَهِي: «إِنَّهُ يَمُوتُ مَنْ مَاتَ مِنَّا وَلَيْسَ بِمَيِّتٍ... إلخ»، ومِنْ لَذِيذِ مُتَعَلّق بِمَجَّة، أو بِمَحْذُوف صِفة لهَا، وجُمْلَةً حَال من هاء يَلْفِظُونَهَا.

الْمَعْنَىٰ:

(خُذُوهَا عَنْ خَاتَمِ النَّبِيِّينَ ﷺ: (إِنَّهُ يَمُوتُ مَنْ مَاتَ مِنَّا وَ لَيْسَ بِمَيِّتٍ). قيل: أشار الْإِمَام ﷺ بِهَذَا إِلَىٰ الآيَة الكريمة: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾[١]. وقيل: الْمُرَاد أنّ أَهْل الْبَيْت أحياء بحَيَاة آثارهم، وتَديُّنُ الملايين بمبادئهم، وتَعَاليمهم، وكلّ من الْقَوْلين صَحِيح فِي نَفْسِه،

(١) آلِ عِمْرَان: ١٦٩.

وغَيْر بعيد عن مدلول الكَلاَم، ولكن الْقَوْل الثَاني أَرجح ـ فيما يُظَنّ ـ بقرينة السّياق.

(وَ يَبْلَىٰ مَنْ بَلِيَ مِنَّا وَ لَيْسَ بِبَالٍ).

قَالَ جَمَاعَة: أنّ أبدان الأَوْلِيَاء لاتبلىٰ أبَداً، بل هِي فِي جُوف ٱلأَرْض غضةً طريةً كما كَانَتْ علىٰ وجهها. وَقَالَ آخرون: تُرفع بأعيانها إِلَىٰ مَلكوت السَّماء. وذهب فريق ثالث: إِلَىٰ أنّ أرواحهم تنتقل إِلَىٰ أَبدَان مثالية. ورابع: إِلَىٰ أَنَّها كأبدان غَيْرهم من غَيْر فرق. ونَحْنُ لا نرىٰ أيّة جدوىٰ وَرَاء هَذَا النّزاع حَيْث لا نهتدي به فِي حياتنا الْعَمَلِيَة إِلَىٰ شيء، ولَسْنَا بمَسْئُولِين عن ذَلِكَ يَوْم ٱلْقِيَامَة، وكلّ ما يجب علينا اعتقاده أنّ أَوْلِيَاء الله: ﴿وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾[1].

(فَلاَ تَقُولُوا بِمَا لاَ تَعْرِفُونَ، فَإِنَّ أَكْثَرَ ٱلْحَقِّ فِيمَا تُنْكِرُونَ). أَجمع القُدامىٰ علىٰ أنّ ٱلْمَاء بَسيط، وأثبت العِلم أنّه مُركب، وأنكروا علىٰ «جاليلو» أنّ ٱلأَرْض تدور حَوْلَ ٱلشَّمْس، ولَيْسَ ٱلشَّمْس هِي الّتي تَدور حَول ٱلأَرْض، ويحلف الألوف فِي عصرنا أنّ ٱلإِنْسَان ما صَعد وَلَنْ يَصعد علىٰ ٱلْقَمَر... إِلَىٰ ما لا يَبلغه الإِحْصَاء من الأمثلة... وَإِذَا كَانَتْ هَذِه هِي الحَال فِي المَحسوسات فكَيْفَ بغيرها من المَعقولات والمُغيبات؟.

(وَ اعْذِرُوا مَنْ لاَ حُجَّةَ لَكُمْ عَلَيْهِ ـ وَ هُوَ أَنَا ـ). يجب عقلاً، وشَرعاً، وعُرفاً علىٰ الجَاهِل أنْ يُقلد العَالم فيما يعود إِلَىٰ اختصاصه، كالأَعْمَىٰ يُقلد البَصِير فِي مَعْرِفَة الطَّريق، والمَريض يُقلد الطبيب فِي تشخيص الدّاء، ومَعْرِفَة الدّواء...

---

(١) ٱلْبَقَرَة: ٦٢.

والإِمَام عليه السلام بَاب مدينة العِلم، والْقُرْآن النَّاطق يَدُور معه كَيْفَما دَار، وأيضاً يجب علىٰ العَالم أنْ يُعلّم الجَاهِل، ويُبشر، وينذر، وقام الإِمَام بِهَذَا الواجب، وأداه بإخلاص، وعلىٰ أكمل وجه. والَّذي وصل إِلَىٰ الأجيال من حكمِهِ، وخُطبِهِ، ورسائله فِي هَذَا البَاب هو أقل بكثير مِمَّا ضَاع، ولم يُحفظ، وإذَنْ فلا عُذر لأصحابه، وَلاَ حُجّة لَهُمْ عَلَيْهِ، وَلاَ علىٰ غَيْره إنْ خالفوا، وأهملوا، بل الحجّة عَلَيْهِمْ لله، ولهُ، ثُمّ أكد الإِمَام هَذِه الحجّة بقَوْله، وخطابه: (أَلَمْ أَعْمَلْ فِيكُمْ بِالثَّقَلِ الْأَكْبَرِ! وَ أَتْرُكْ فِيكُمُ الثَّقَلَ الْأَصْغَرَ!). ويشبه هَذَا الْقَوْل الآيَة: ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ ءَايَـٰتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَـٰذَا﴾[1].

والْمُرَاد بالثَّقَلِ ـ بفتح الثّاء ـ الْأَكْبَرِ ٱلْقُرْآن ٱلْكَرِيم، والْأَصْغَرَ أَهْل ٱلْبَيْت، ويطلق ٱلثَّقَل فِي اللُّغَة علىٰ كلّ نَفيس، وعلّق الشّيخ مُحَمَّد عَبْدَه على قَوْل الْإِمَام عليه السلام بِمَا نصّه: «فِي الحَدِيث عن النَّبِيّ صلى الله عليه وآله أنّه قَالَ: تَرَكْتُ فِيكُمُ ٱلثّقلَين: كتاب الله، وَعِتْرَتِي، وأَمِير ٱلْمُؤْمِنِين قَد عَمِل بِالثَّقَلِ الْأَكْبَرِ، وهو ٱلْقُرْآن، وترْكُ ٱلثَّقَل الْأَصْغَرَ، وهُو وَلَدَاه»[2] أي الْحَسَن، والْحُسَيْن عليهما السلام.

ومن قرأ سِيرَة الْإِمَام يجد أنّه قد حَوّلَ آيات ٱلْقُرْآن من كلمات تُحفظ، أو تُكتب إِلَىٰ واقع يُحس، ويُلمس فِي شخص الإِمَام، وَصِفَاته، وفِي كلّ خُطوة خطاها فِي سلوكه، وحياته، ولو أنّ الله خلق ٱلْقُرْآن علىٰ صورة رجل لكان هَذَا الرّجل عليّ ٱبن أبي طالب، وفيما سبق من شرح الخُطب تكَلَّمنا عن الإِمَام، وحَدِيث ٱلثّقلَين.

(قَدْ رَكَزْتُ فِيكُمْ رَايَةَ الْإِيمَانِ، وَ وَقَفْتُكُمْ عَلَىٰ حُدُودِ الْحَلاَلِ، وَ الْحَرَامِ، وَ

(١) ٱلزُّمَر: ٧١.
(٢) أُنظر، شرح النّهج: ١/١٥٤.

أَلْبَسْتُكُمُ الْعَافِيَةَ مِنْ عَدْلِي ، وَ فَرَشْتُكُمُ الْمَعْرُوفَ مِنْ قَوْلِي ، وَ فِعْلِي) . يُشير بهذا إِلَىٰ أنّه ما ترك شَيْئاً تتم به الحجّة عَلَيْهِمْ من بَيان الأَحْكَام ، ووَسَائِل الإقناع إلّا وذكره بصراحة ، ووضوح فِي أَقْوَاله حَيْث حَذر ، وأنذر ، وفِي أفعاله حَيْث ساوىٰ ، وعدل (وَ أَرَيْتُكُمْ كَرَائِمَ الْأَخْلَاقِ مِنْ نَفْسِي) . وفِي طليعتها الصَّبر عَلَيْهِمْ بلا حِقدٍ ، وضغينة ، وَلاَ خَتلٍ ، ومواربة ، وَلاَ هدفٍ إلّا الله ، والصَّالح العام .

القِياس[1] :

(فَلاَ تَسْتَعْمِلُوا الرَّأْيَ فِيمَا لاَ يُدْرِكُ قَعْرَهُ الْبَصَرُ ، وَ لاَ تَتَغَلْغَلُ إِلَيْهِ الْفِكَرُ) . ما لأحد بالغاً ما بَلغ من العِلْم أَنْ يَنسب شَيْئاً إِلَىٰ دِين الله إلّا بدليلٍ مِنْهُ تَعَالَىٰ ، وفَهمٍ منهُ ، ومن تصور ، وتخيل حُكماً من الأَحْكَام بوحي من ذاته ، ونسبه إِلَىٰ الدِّين فَهُوَ من الّذين اَفتروا علىٰ الله الْكَذِب ، ومِنْهُم أَهْل اَلْعَمَل بالقِياس الّذين يثبتون لما لا نصّ عَلَيْهِ من الشّارع حكم المنصوص عَلَيْهِ توهماً من أَنْفسهم أَنّ الْعِلَّة المُوجِبَة لحُكم المنصوص عَلَيْهِ هِي بالذّات عِلَّة الحُكم المسكوت عَنْه مَع اَعترافهم صراحة بأنّ الشّارع لم يشر إِلَىٰ عِلَّة المنصوص عَلَيْهِ من قريبٍ ، أو بعيدٍ ، ومَعْنَىٰ هَذَا أَنّهم ينسبون إِلَىٰ الشّارع نصّاً لا علم له بِهِ . . . ومن هُنا أَطلقوا علىٰ القِياس كَلِمَة النّص غَيْر المُباشر ، وقَالُوا أيضاً : يَأْتِي القِياس فِي المرتبة الرّابعة بعد اَلْكِتَاب ، واَلسُّنَّة

---

(١) يَجب الإلتفات إِلىٰ أَنّ مصَادر التّشريع عِند الإمَاميّة هِي : (كتَاب الله ، والسُّنَّة النّبويّة الشّريفة بِمَا فِيها قَول الإمَام المَعْصُوم ، وَالإجْمَاع ، والْعَقل) . أُنظر ، الدّراسَات المُتعَلّقه بالقِيَاس كأُصول الفِقْه للشّيخ مُحَمَّد رِضا المُظفر : ١٦٤/٢ ، أُصول الفِقْه المُقَارن للسّيد مُحَمَّد تَقِي الحَكِيم : ٣٠١ المَبْحَث الخَامس ، المحصُول للرّازي : ٢٨....إلخ .

والْإِجْمَاع[١]، أي هو مقدم علىٰ الإستصحاب، والْبَرَاءَة، وغَيْرهما مـن الْأُصـول ٱلعَمَلية تَمَامًا كَٱلقُرْآن، وٱلسُّنَّة[٢]. وَلاَ أدري كَيْفَ أَلحقوا المسكوت عَنْه بالمنطوق بِهِ، والمظنون بالمعلوم، والله سُبْحَانَهُ يَقُول: ﴿وَإِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِى مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا﴾[٣]. وتَكَلَّمنا عن القِياس بنحو من التَّفصيل[٤].

(حَتَّىٰ يَظُنَّ الظَّانُّ أَنَّ الدُّنْيَا مَعْقُولَةٌ عَلَىٰ بَنِي أُمَيَّةَ). قَالَ ٱبن أَبي ٱلْحَدِيد: «هَذِه ٱلْخُطْبَة طويلة، وقد حذف الرَّضِي رحمه الله تَعَالَىٰ مِنْهَا كَثِيراً»[٥]. وبِهَذَا نجد تَفْسِير عدم الرّبط، والمناسبة بَيْنَ الإِشَارَة وإِلَىٰ الْأُمويين، وما تَقَدَّمها من الكَلاَم، والْمَعْنَىٰ أنّ الدُّنْيَا سوف تُقبل علىٰ بَنِي أُمَيَّة بزُخرفها، وبهجتها حَتَّىٰ يُخيل إِلَىٰ كَثِير مـن النّاس أَنَّهَا وقف عَلَيْهِمْ (تَمْنَحُهُمْ دَرَّهَا، وَ تُورِدُهُمْ صَفْوَهَا). أي تـغدق عَـلَيْهِمْ ٱلمَال، والسُّلْطَان، والرّخاء، والأعوان (وَ لاَ يُرْفَعُ عَنْ هَـذِهِ الْأُمَّـةِ سَـوْطُهَا، وَ لاَ

---

(١) إنّ حجية الْإِجْمَاع منحصرة عند الشّيعة الإِمَامِيّة بِمَا إِذَا كَانَ مشتملاً علىٰ قَوْل الْمَعْصُوم، أو رأيه، أو رضاه قطعاً، ويقسم إجماع الْفُقَهَاء إِلَىٰ قسمين: إتفاقهم فِي المسائل التَّفريعية الّتِي يَكُون للنظر، والاجتهاد فيها دخل فِي إثباتها.

وبعبارة أُخرىٰ: مالا يَكُون دليلها منحصراً فِي السّمع، وبمثل هَـذَا الاتـفاق لا يكشف عـن قَـوْل الْإِمَامعليه السلام. وثَانِياً: أنّ طَرِيقهَا منحصراً فِي السّمع كمسألة العول مثلاً بشرط أنْ يتصل إِلَىٰ زمـن الْمَعْصُومعليه السلام.. أُنظر، تقريرات فِي أُصول الفِقْه للسيد البروجردي: ٢٨٥، ٱلْهِدَايَة للشيخ الصّدوق: ٢٢، رسائل المرتضىٰ: ١/١١، غنية النّزوع لِابْن زهرة: ٢٨، وراجع الْأُصُول الْعَامّة للفقه المقارن للسّيد مُحَمَّد تقي الحكيم، المبحث الثّالث: ٢٥٣.

(٢) أُنظر، كتاب الفِقْه ٱلْإِسْلاَمي فِي ثوبه الجديد للشيخ الزّرقا، مَادّة ١٠ و ٥٣١.

(٣) النّجم: ٢٨.

(٤) أُنظر، كتابنا «من هُنا وهُناك»، وعند تَفْسِير الآيَة ٥٩ من سُورَة ٱلنِّسَاء فِي الكاشف (مِنْهُ رحمه الله).

(٥) أُنظر، شرح النَّهج: ٦/٣٨٢.

سَيْفُهَا) . أي وأيضاً سوف يظن الظَّانّ أنّ جَوْر الأُمَويين ، وخوضهم فِي دِماء ٱلْمُسْلِمِين يَدوم إِلَىٰ الْيَوْم الأخير .

(وَكَذَبَ الظَّانُّ لِذَلِكَ) لأنّ العَبّاسِيين ، وجلادهم أبا مُسْلِم يَسلبون ٱلْمُلْكِ مِنْهُم ، ويسومونهم سُوء العذاب (بَلْ هِيَ مَجَّةٌ مِنْ لَذِيذِ الْعَيْشِ) ينعمون بها قليلاً ، ثُمّ تتكشف الأُمُور عن أوخم ٱلْعَوَاقِب ، وأسوئها (يَتَطَعَّمُونَهَا بُرْهَةً) أي يَتَذَوّقُونَها أَمداً قد يطول بَعْض الوقت (ثُمَّ يَلْفِظُونَهَا جُمْلَةً) وَاحِدَة ، ولَنْ تعود إِلَيْهِمْ أَبداً . . . وَهَذَا من الاِخبار بالمُغيبات ، يرويها الإِمَامعليه السلام عن النَّبِيّصلى الله عليه وآله عن جِبْرِيلَ عن الله ، كما قَالَ : «وَإِنَّمَا هُوَ تَعَلُّمٌ مِنْ ذِي عِلْمٍ ، عَلَّمَهُ اللهُ نَبِيَّهُصلى الله عليه وآله فَعَلَّمَنِيهِ»[1] .

---

(١) أنظر ، نَهج البَلاَغَة : ٱلْخُطْبَة (١٢٨).

الخطبة

-٨٨-

وَ مَا كُلُّ ذِي قَلْبٍ بِلَبِيبٍ:

أَمَّا بَعْدُ، فَإِنَّ اللهَ لَمْ يَقْصِمْ جَبَّارِي دَهْرٍ قَطُّ إِلاَّ بَعْدَ تَمْهِيلٍ، وَ رَخَاءٍ، وَ لَمْ يَجْبُرْ عَظْمَ أَحَدٍ مِنَ الْأُمَمِ إِلاَّ بَعْدَ أَزْلٍ، وَ بَلاَءٍ، وَ فِي دُونِ مَا اَسْتَقْبَلْتُمْ مِنْ عَتْبٍ، وَ مَا اَسْتَدْبَرْتُمْ مِنْ خَطْبٍ مُعْتَبَرٌ! وَ مَا كُلُّ ذِي قَلْبٍ بِلَبِيبٍ، وَ لاَ كُلُّ ذِي سَمْعٍ بِسَمِيعٍ، وَ لاَ كُلُّ نَاظِرٍ بِبَصِيرٍ. فَيَا عَجَباً! وَ مَا لِيَ لاَ أَعْجَبُ مِنْ خَطَإِ هٰذِهِ الْفِرَقِ عَلَىٰ اَخْتِلاَفِ حُجَجِهَا فِي دِينِهَا! لاَ يَقْتَصُّونَ أَثَرَ نَبِيٍّ، وَ لاَ يَقْتَدُونَ بِعَمَلِ وَصِيٍّ، وَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِغَيْبٍ، وَ لاَ يَعِفُّونَ عَنْ عَيْبٍ، يَعْمَلُونَ فِي الشُّبُهَاتِ، وَ يَسِيرُونَ فِي الشَّهَوَاتِ. الْمَعْرُوفُ فِيهِمْ مَا عَرَفُوا، وَ الْمُنْكَرُ عِنْدَهُمْ مَا أَنْكَرُوا، مَفْزَعُهُمْ فِي الْمُعْضِلاَتِ إِلَىٰ أَنْفُسِهِمْ، وَ تَعْوِيلُهُمْ فِي الْمُهِمَّاتِ عَلَىٰ آرَائِهِمْ، كَأَنَّ كُلَّ اَمْرِئٍ مِنْهُمْ إِمَامُ نَفْسِهِ، قَدْ أَخَذَ مِنْهَا فِيمَا يَرَىٰ بِعُرىً ثِقَاتٍ، وَ أَسْبَابٍ مُحْكَمَاتٍ.

اللُّغَة:

لَمْ يَقْصِمْ: لَمْ يَهْلِكَ، والقَصِم فِي الأصل الكَسْر. والأَزْل ـ بسكون الزّاء ـ الشِّدَّة.

والعَتَب ـ بفتح التَّاء لا بسكونها ـ الشِّدَّة أيضاً. لاَ يَقْتَصُّونَ: لاَ يَتْبعُون. والمَفْزَعُ: المَلْجَأُ.

الإِعْرَاب:

قَطُّ ـ بِتَشدِيد الطَّاء ـ ظرف زمان لاِستغراق ما مضىٰ، وَيَا عَجَباً! مَنْصُوب علىٰ المَصْدَر، والمُنادىٰ مَحْذُوف أي يا قَوْم، أو يا نفس أَعْجَبُ عَجَباً! ويجوز أنْ يَكُون «عَجَباً» مُنادىٰ، والتَّنوين عوض عن المُضاف أي أحضر يا عجبي، وَ مَا لِيَ مُبْتَدَأ وخَبَر، أي مَا شَأْنِي؟.

المَعْنىٰ:

(فَإِنَّ اللهَ لَمْ يَقْصِمْ جَبَّارِي دَهْرٍ قَطُّ إِلاَّ بَعْدَ تَمْهِيلٍ، وَ رَخَاءٍ). وجَبَّارِو الدَّهْر هُم الّذين يمارسون المعارك ضد ٱلإِنْسَانية، ويدبرون المؤمرات، والاِنقلابات ضد الحُرِّيَّة، وتدفع الشّعوب ما يشتهون حَتَّىٰ النِّهَايَة، ولَكِنَّهُ يُمْهِلهُم إِلَىٰ حِين، ثُمّ يأخذهم من حَيْث لا يشعرون، وقد شاهدنا ما حَلَّ بهتلر الَّذي كَانَ يتحدث عن ٱستعمار الكرة الأَرْضِية، وَلاَ يرضىٰ بديلاً عن شرقها، وغَرْبهَا، وأمثاله كَثِيرُون سابقاً، ولاَحقاً، ولا تقلّ أطماع ورّاثه، وخلفائه عن أهدافه، وأطماعه... والمصير واحد بعون الله وحوله، وبنضال من يخلقون التَّأرِيخ، والحضارات (وَ لَمْ يَجْبُرْ عَظْمَ أَحَدٍ مِنَ الأُمَمِ إِلاَّ بَعْدَ أَزْلٍ، وَ بَلاَءٍ). أي أنّ الأُمم ٱلمُسْتَضْعَفَة لا تتحرر من الجبابرة الطُّغاة، وتحصل علىٰ أهدافها إلّا بعد التَّضحيات، والصّبر علىٰ البَلاء، والشَّدَائِد من أجل ما تُريد... والشّاهد الآن علىٰ ذَلِكَ الشّعب الفييتنامي فِي الهند الصّينية،

والأنعولي فِي آفريقيا.

(وَ فِي دُونِ مَا آسْتَقْبَلْتُمْ مِنْ عَتْبٍ، وَ مَا آسْتَدْبَرْتُمْ مِنْ خَطْبٍ مُعْتَبَرٌ). أَنْتُمْ الآن فِي شِدَّة، وأيضاً قاسيتم الكَثِير من قبل، فَلِمَاذَا لا تعتبرون، وَلاَ تتعظون؟ أليس الجدير بكم أنْ تعتبروا بأقل مِمَّا أدبر عَنْكُمْ، وأقبل عَلَيْكُمْ؟. وكأنّ الإِمَام عليه السلام يعنينا ـ نَحْنُ الْعَرَب، وٱلْمُسْلِمِين ـ بِهَذَا الخِطَاب... قاسينا من تُركيا، وفرنسا، وآنكلترا ـ ما فِيهِ الكفَايَة، ونقاسي الآن من أَمريكا، والصّهيونية ما لا مزيد عَلَيْهِ، وبرَغم التَّجَارِب كلّها، وما فيها من قَسوة نصبر علىٰ الهوان، وَلاَ نُحرك سَاكِناً (وَ مَا كُلُّ ذِي قَلْبٍ بِلَبِيبٍ) لأنّ صاحب ٱلْقَلْب السّليم لا يرضىٰ بالرّاحة مَع الهوان، وَلاَ بالعبودية مَع الأَمَان، ويُضحي بنَفْسِهِ حرصاً علىٰ حقّه، وكرامته (وَ لاَ كُلُّ ذِي سَمْعٍ بِسَمِيعٍ) لما يهديه، ويرشده إِلَىٰ الْخَيْر، والصّلاح (وَ لاَ كُلُّ نَاظِرٍ بِبَصِيرٍ) يَرىٰ ما يَضُرّه، وينفعه، فيفعل هَذَا، ويجتنب عن ذَاكَ.

(فَيَا عَجَباً! وَ مَا لِيَ لاَ أَعْجَبُ مِنْ خَطَإِ هَذِهِ الْفِرَقِ عَلَىٰ آخْتِلاَفِ حُجَجِهَا فِي دِينِهَا! لاَ يَقْتَصُّونَ أَثَرَ نَبِيٍّ، وَ لاَ يَقْتَدُونَ بِعَمَلِ وَصِيٍّ). لِمَاذَا هَذِه الفرق، والتَّفرقة فِي أُمّة وَاحِدَة؟ وما هو السّبب لتناقضها، وتنافرها؟ وهل ما آستندت إِلَيْهِ كلّ فرقة حقّ وصواب؟. كلاَّ فإنّ الْحَقّ لا يتجزأ، وَلاَ ينقسم إِلَىٰ سلب، وآيجاب... وهو يقاس بقول النَّبِيّ، وَفعَله، وتقريره، فَلِمَاذَا لا يأخذ ٱلْمُسْلِمُون جَمِيعاً بِهَذَا القِيَاس كما فعل الأَوْلِيَاء، والأتقياء؟. وتجدر الإِشَارَة إِلَىٰ أنّ الإِمَام أَعرف النّاس بالأَسْبَاب المباشرة لتعدد الفرق، وإِنَّهَا ترجع إِلَىٰ الإخْتِلاَف فِي آثبات النّص عن ٱلْمَعْصُوم، أو إِلَىٰ فهمه، أو إِلَىٰ ٱلْجَهْل، والتَّعَصُّب، أو حُبّ الرّياسة، والشَّهْوَة... إِلَىٰ غَيْر ذَلِكَ، أنّ الإِمَام يَعْرِف هَذَا، وأيضاً يَعْرِف أنّ

ٱلإِنْسَان لا يعجز عن مواجهة هَذِه الْأَسْبَاب لو عزم، وصدقت منهُ النِّيَّة، وعلىٰ هَذَا الأَسَاس قَالَ سُبْحَانَهُ: ﴿وَٱعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَاتَفَرَّقُواْ وَٱذْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا﴾[1]. وَقَالَ: ﴿أَنْ أَقِيمُواْ ٱلدِّينَ وَلَاتَتَفَرَّقُواْ فِيهِ كَبُرَ عَلَى ٱلْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ ٱللَّهُ يَجْتَبِىٓ إِلَيْهِ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ﴾[2].

(وَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِغَيْبٍ) أي بالوحي، وقيل: كلّ ما لا يدرك بالحَوَاس الخمس فَهُوَ من عالم الْغَيْب (وَ لاَ يَعِفُّونَ عَنْ عَيْبٍ) كالبغضاء، وشتات الكَلِمَة، ويَعِفُّونَ بِتَشدِيد الفاء: من العفة، والْعَفَاف (يَعْمَلُونَ فِي الشُّبُهَاتِ) وَهِي «المنطقة ٱلْحَرَام» بَيْنَ ٱلْحَرَام البيّن، والحَلال البيّن، وتكَلَّمنا عن ٱلشُّبْهَة[3]. (وَ يَسِيرُونَ فِي الشَّهَوَاتِ) الّتي تُلقي بِهِمْ فِي التَّهلكة (الْمَعْرُوفُ فِيهِمْ مَا عَرَفُوا، وَ الْمُنْكَرُ عِنْدَهُمْ مَا أَنْكَرُوا). فهم وحدهم علىٰ حقّ، وكلّ من خالف، ويخالف فَهُوَ علىٰ بَاطِل، وضلال.

(مَفْزَعُهُمْ فِي الْمُعْضِلاَتِ إِلَىٰ أَنْفُسِهِمْ، وَ تَعْوِيلُهُمْ فِي الْمُهِمَّاتِ عَلَىٰ آرَائِهِمْ) فَهِيَ عندهم مَصْدَر ٱلْحَقّ، وٱلقيم (كَأَنَّ كُلَّ ٱمْرِئٍ مِنْهُمْ إِمَامُ نَفْسِهِ). يضع عَقْله، ورأيه فوق علم الله، وحِكْمَته، وصدق الله العظيم: ﴿أَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ﴾[4]. (قَدْ أَخَذَ مِنْهَا فِيمَا يَرَىٰ بِعُرىً ثِقَاتٍ، وَ أَسْبَابٍ مُحْكَمَاتٍ). ضَمِير مِنْهَا يَعود إِلَىٰ نَفْسِه، والْمَعْنَىٰ يعتمد علىٰ أَهْوَائِه فِي تشريع الْأَحْكَام، وتقدير مصالحها،

---

(١) آل عمرن: ١٠٣.
(٢) ٱلشُّورَىٰ: ١٣.
(٣) أنظر، ٱلْخُطْبَة: ٨٥.
(٤) ٱلْفُرْقَان: ٤٣.

ومَع ذَلِكَ يرىٰ أنّه قد ٱستمسك بالْعُرْوَة الْوُثْقَىٰ، وأخذ بالنّص الـوَاضِـح القـطعي متناً، وسنداً.

وهَذِه المزايا، والْعُيُوب تنطبق علىٰ الكَثِير من أَهْل العمائم فِي عصرنا... جهل، وغرور... بعضه فوق بَعْض، تستره عِمة بَيْضَاء، أو سَوْدَاء حَـتَّىٰ ٱلتـبس عـلىٰ الْعِمَامَة التَّمْيِيز بَيْنَ الأصيل، والدّخيل... فَإِلىٰ الله المُشتكىٰ.

الخطبة

-٨٩-

الرَّسُول الأَعْظَم...فِقْرَة ١:

أَرْسَلَهُ عَلَىٰ حِينِ فَتْرَةٍ مِنَ الرُّسُلِ، وَ طُولِ هَجْعَةٍ مِنَ الْأُمَمِ، وَ اعْتِزَامٍ مِنَ الْفِتَنِ، وَانْتِشَارٍ مِنَ الْأُمُورِ، وَ تَلَظٍّ مِنَ الْحُرُوبِ، وَ الدُّنْيَا كَاسِفَةُ النُّورِ، ظَاهِرَةُ الْغُرُورِ، عَلَىٰ حِينِ اصْفِرَارٍ مِنْ وَرَقِهَا، وَ إِيَاسٍ مِنْ ثَمَرِهَا، وَ اغْوِرَارٍ مِنْ مَائِهَا، قَدْ دَرَسَتْ مَنَارُ الْهُدَىٰ، وَ ظَهَرَتْ أَعْلَامُ الرَّدَىٰ، فَهِيَ مُتَجَهِّمَةٌ لِأَهْلِهَا، عَابِسَةٌ فِي وَجْهِ طَالِبِهَا. ثَمَرُهَا الْفِتْنَةُ، وَ طَعَامُهَا الْجِيفَةُ، وَ شِعَارُهَا الْخَوْفُ، وَ دِثَارُهَا السَّيْفُ.

فَاعْتَبِرُوا عِبَادَ اللهِ، وَ اذْكُرُوا، تِيكَ الَّتِي آبَاؤُكُمْ، وَ إِخْوَانُكُمْ بِهَا مُرْتَهَنُونَ، وَ عَلَيْهَا مُحَاسَبُونَ[1].

اللُّغَة:

الهَجْعَة: النَّوْمَة الخَفِيفَة لَيلاً. وَاعْتِزَام الْفِتَنِ: غَلبتها، وَتَلَظٍّ: مثل نَار تَلظىٰ: تَلتَهب. وَالأغْوِرَار: الذّهاب. ودَرَسَتْ: انْطمست. والرَّدَىٰ، السّقوط، والهَلاك. والشّعار: الثّوب يُلبس علىٰ البَدن، والدّثَار: فوق الشّعار، والدَّاثر: الهَالك.

الإِعْرَاب:

جُمْلَة قَدْ دَرَسَتْ حَال من الدُّنْيَا، وتِيكَ إِشَارَة للمؤنث بِمَعْنَىٰ تِلْكَ، والّتي عَطف بَيَان، وآبَاؤُكُمْ مُبْتَدَأ، ومُرْتَهَنُونَ خَبَر، والجُمْلَة صِلة المَوْصُول، وهو «ٱلَّتِي».

الْمَعْنىٰ:

(أَرْسَلَهُ). أَرْسَل الله سُبْحَانَهُ مُحَمَّداً ﷺ. (عَلَىٰ حِينِ فَتْرَةٍ مِنَ الرُّسُلِ) بينه، وبَيْنَ من بُعث قبله (وَ طُولِ هَجْعَةٍ مِنَ الْأُمَمِ) أي غَفْلَتهم، وأعراضهم عن الله، وأَحْكَامه (وَٱعْتِزَامٍ مِنَ الْفِتَنِ) بتغلب الْخَيْر علىٰ الشَّرّ، والصّلاح علىٰ ٱلْفَسَاد (وَٱنْتِشَارٍ مِنَ الْأُمُورِ) وشتاتها بسبب الفُوضىٰ، والتّحرر من القيود ٱلإِنْسَانية، والاِجتماعية (وَ تَلَظٍّ مِنَ الْحُرُوبِ) الّتي ٱنهكت الْعِبَاد، ودمرت البلاد (وَ الدُّنْيَا كَاسِفَةُ النُّـورِ). لا عامل فيها بخير، وَلاَ هادي إِلَىٰ رشد (ظَـاهِرَةُ الْـغُرُورِ) بـظهور المُـغترين بهـا، وكثرتهم (عَلَىٰ حِينِ ٱصْفِرَارٍ مِنْ وَرَقِهَا). آذنت الدُّنْيَا، أو المغرور بها ـ بـالرّحيل تَمَاماً كأوراق الشّجر حِينَ تذبل، وتصفر (وَإِيَاسٍ مِنْ ثَمَرِهَا، وَ ٱغْوِرَارٍ مِنْ مَائِهَا). لا أَمل، وخير من شجرة ٱصفر ورقها، وغَار مَاؤهَا.

(قَدْ دَرَسَتْ مَنَارُ الْهُدَىٰ) حَيْث لا مُنقذ من ٱلْجَهْل، والتَّضليل، وَلاَ مُرشد إِلَىٰ نَهْج ٱلسَّبِيل (وَ ظَهَرَتْ أَعْلاَمُ الرَّدَىٰ) بظهور المُفسدين، والمُضللين (فَهِيَ مُتَجَهِّمَةٌ لِأَهْلِهَا، عَابِسَةٌ فِي وَجْهِ طَالِبِهَا) تَستقبلهم بِمَا يكرهون، ويمقتون حَتَّىٰ ولو أَغدقت عَلَيْهِمْ ٱلْمَال، والجاه، إِنَّهَا تُعطي بيد، وتطعن بأُخرىٰ، قَالَ الإِمَـام: «وَإِنْ جَـانِبٌ مِنْهَا ٱعْذَوْذَبَ، وَٱحْلَوْلَىٰ أَمَرَّ مِنْهَا جَانِبٌ فَأَوْبَىٰ»[1].

(١) أنظر، نَهج ٱلبَلاَغَة: ٱلخُطْبَةُ (١١١).

(ثَمَرُهَا الْفِتْنَةُ) ٱلْفَسَاد، والضّلال (وَ طَعَامُهَا الْجِيفَةُ) لأنّه يؤول إِلىٰ الْجِيفَةِ كما يؤول ٱلاِنْسَان إِلىٰ التُّراب (وَ شِعَارُهَا الْخَوْفُ). الْفَقِير يخاف الْأَقْوِيَاء، والْأَغْنِيَاء، والْغَنِيّ يخاف زوال النِّعْمَة، وثورَة الْفُقَرَاء (وَ دِثَارُهَا السَّيْفُ) أي الصّراع، والتّناحر علىٰ السُّلْطَان، والْحُطَام (فَٱعْتَبِرُوا عِبَادَ اللهِ، وَ ٱذْكُرُوا، تِيكَ) إِشَارَة إِلىٰ السَّيِّئَات (الَّتِي آبَاؤُكُمْ، وَ إِخْوَانُكُمْ بِهَا مُرْتَهَنُونَ، وَ عَلَيْهَا مُحَاسَبُونَ) حَتَّىٰ الهَفوة الْصَّغِيرة يُسأل الْمَرْء عَنْهَا، ويُعاقب عَلَيْهَا، وفِي الْآثَار: «إِيَّاكُمْ ومُحقرات الذّنوب، فَإِنَّهَا تَجْتَمِع عَلىٰ العَبد، وهو يَشْتَهِين بِشأنّها حَتَّىٰ تهْلكه»[1].

وقدمنا أَكْثَر من مرّة أنّ الدُّنْيَا المذمومة هِي دُنيا الْبَغْي، والاِستغلال، وٱلْفَسَاد الضّلال، أمّا دُنيا الْخَيْر، والعِلْم النَّافع، وٱلْعَمَل الصَّالح فَهِيَ دُنيا الله، وسَبِيل رِضْوَانه، وجنانه، وَلاَ شيء أَدل علىٰ ذَلِكَ من أنّه سُبْحَانَهُ وتَعَالَىٰ رَبط خير الْآخِرَةِ بخير الدُّنْيَا، وشرّها بشرها، قَالَ عزّ من قَائِل: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ﴾[2]. وَقَالَ: ﴿وَمَن كَانَ فِى هَـٰذِهِۦٓ أَعْمَىٰ فَهُوَ فِى ٱلْأَخِرَةِ أَعْمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلاً﴾[3].

أَنَا مُسْمِعُكُمْ...فِقْرَة ٢:

وَ لَعَمْرِي مَا تَقَادَمَتْ بِكُمْ، وَ لاَ بِهِمُ الْعُهُودُ، وَ لاَ خَلَتْ فِيمَا بَيْنَكُمْ وَ بَيْنَهُمُ

(١) أنظر، مُسْنَد أحمد: ١/٤٠٢ و: ٥/٣٣١، شرح الأَزْهَار: ٣/٥٥١، كتاب الزُّهد لاِبن أبي عاصم: ١/١٥.

(٢) ٱلزَّلْزَلَةِ: ٧ ـ ٨.

(٣) ٱلاِسْرَاء: ٧٢.

الْأَحْقَابُ، وَ الْقُرُونُ، وَ مَا أَنْتُمُ الْيَوْمَ مِنْ يَوْمَ كُنْتُمْ فِي أَصْلاَبِهِمْ بِبَعِيدٍ. وَاللهِ مَا أَسْمَعَكُمُ الرَّسُولُ شَيْئاً إِلاَّ وَ هَا أَنَا ذَا مُسْمِعُكُمُوهُ، وَ مَا أَسْمَاعُكُمُ الْيَوْمَ بِدُونِ أَسْمَاعِكُمْ بِالأَمْسِ، وَ لاَ شُقَّتْ لَهُمُ الْأَبْصَارُ، وَ لاَ جُعِلَتْ لَهُمُ الْأَفْئِدَةُ فِي ذَلِكَ الزَّمَانِ، إِلاَّ وَ قَدْ أُعْطِيتُمْ مِثْلَهَا فِي هَذَا الزَّمَانِ. وَ وَ اللهِ مَا بُصِّرْتُمْ بَعْدَهُمْ شَيْئاً جَهِلُوهُ، وَ لاَ أُصْفِيتُمْ بِهِ، وَ حُرِمُوهُ، وَ لَقَدْ نَزَلَتْ بِكُمُ الْبَلِيَّةُ جَائِلاً خِطَامُهَا، رِخْواً بِطَانُهَا، فَلاَ يَغُرَّنَّكُمْ مَا أَصْبَحَ فِيهِ أَهْلُ الْغُرُورِ، فَإِنَّمَا هُوَ ظِلٌّ مَمْدُودٌ، إِلَىٰ أَجَلٍ مَعْدُودٍ[٢].

اللُّغَة:

الأَحْقَابُ: جمع حِقَبٌ، وهو ثمانون سَنَة، وقيل: أَكْثَر. وَالْقُرُونُ: جمع قَرْن، وهو مئة سَنَة، وقيل: أَقل، والجيل أَهْل الزّمان الواحد، وَلاَ أُصْفِيتُمْ: وَلاَ خُصصتُم. والخِطَامُ: مَا يُجعل فِي أنفُ البَعِير ليُقاد بِهِ. وبِطَانُهَا: حِزَامُها.

الإِعْرَاب:

بِبَعِيدٍ البَاء زَائِدَة، وبَعِيدٍ خَبَر «أَنْتُمْ» أو خَبَر «مَا» عَلَىٰ تَقدير أَنَّهَا عَاملة عَمل لَيْسَ، وكلّ من الْيَوْمَ مِنْ يَوْمَ مُتَعَلِّق بِبَعِيدٍ، هَا أَنَا «هَا» للتّنبيه، وجَائِلاً حَال من الْبَلِيَّةُ، وخِطَامُهَا فَاعِل «جَائِلاً» ومِثْله رِخْواً بِطَانُهَا، وإِلَىٰ أَجَلٍ مُتَعَلِّق بِمَمْدُودٍ.

الْمَعْنَىٰ:

(وَ لَعَمْرِي مَا تَقَادَمَتْ بِكُمْ، وَ لاَ بِهِمُ الْعُهُودُ، وَ لاَ خَلَتْ فِيمَا بَيْنَكُمْ وَ بَيْنَهُمُ الْأَحْقَابُ، وَ الْقُرُونُ، وَ مَا أَنْتُمُ الْيَوْمَ مِنْ يَوْمَ كُنْتُمْ فِي أَصْلاَبِهِمْ بِبَعِيدٍ). يتعجب

الْإِمَامِ‍عليه السلام كَيْفَ أنّ الخلف لم يتعظ بِمَا آلَ إِلَيْهِ السَّلف مَع أنّ العهد بَيْنَهما لَيْسَ بِبَعِيدٍ، بل أنّ الكَثِير مِمَّنْ تأخر قَد شَاهد، ورَأَىٰ مَا حلَّ بمن تَقَدَّم!... ومِثْله: ﴿وَيَـٰقَوْمِ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِىٓ أَن يُصِيبَكُم مِّثْلُ مَآ أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَـٰلِحٍ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِّنكُم بِبَعِيدٍ﴾[1]. (وَاللهِ مَا أَسْمَعَكُمُ الرَّسُولُ شَيْئاً إِلاَّ وَ هَا أَنَا ذَا مُسْمِعُكُمُوهُ). جمع الله سُبْحَانَهُ لِمُحَمَّدٍ‍صلى الله عليه وآله عِلم النَّبِيِّين، وجَمع مُحَمَّد ذَلِكَ كلّه لأمير اَلْمُؤْمِنِين‍عليه السلام فبث علىٰ كلّ ذي سمع ما بلغه الرَّسُول‍صلى الله عليه وآله للنّاس، ولم يكتم الإِمَام مِنْهُ شَيْئاً.

(وَ مَا أَسْمَاعُكُمُ الْيَوْمَ بِدُونِ أَسْمَاعِكُمْ بِالأَمْسِ، وَ لاَ شُقَّتْ لَهُمُ الأَبْصَارُ، وَ لاَ جُعِلَتْ لَهُمُ الأَفْئِدَةُ فِي ذَلِكَ الزَّمَانِ). إنّ الشّيء الَّذي سمعتموه مني هو بالذات ما سَمْعَه الْصَّحَابَة من الرَّسُول، وإنّ اَلْهُدَىٰ الَّذي رَأيتمُوه مني قَوْلاً، وعملاً هو نفس اَلْهُدَىٰ الَّذي رآه الْصَّحَابَة من رَسُول الله، ومداركَكم تَمَاماً كمداركهم، وإِذَنْ فلا عذر لَكُمْ بِجهلٍ، لأَنّي قَدْ بلغت كما بلغ الرَّسُول، وأيضاً لا عُذر لَكُمْ بعجز لأنّكم مثل الْصَّحَابَة عقلاً، وسمعاً، وبصراً (وَ وَ اللهِ مَا بُصِّرْتُمْ بَعْدَهُمْ شَيْئاً جَهِلُوهُ، وَ لاَ أُصْفِيتُمْ بِهِ، وَ حُرِمُوهُ) أي أنّكم لا تختصون بشيء من دونهم، بل أنّ حالَكُمْ كحالهم من حَيْث التَّبليغ، وتيسير اَلسَّبِيل للعلم بدين الله، وأَحْكَامه، كما أنّ حَالي كحَال الرَّسُول الأَعْظَم‍صلى الله عليه وآله في قطع الْمَعْذِرَة، وقيام الحجّة.

(وَ لَقَدْ نَزَلَتْ بِكُمُ الْبَلِيَّةُ جَائِلاً خِطَامُهَا، رِخْواً بِطَانُهَا). هَذَا اَنذار بأنّهم سيُلاقُون من بعد الإِمَام بلاء يكونون معه كراكب البَعِير الَّذي أُفلت من أنفه

(١) هُودٍ: ٨٩.

الخِطَام، وٱسترخىٰ من تحت بَطْنه الحِـزام، وأوشك راكـبه عـلىٰ السّـقوط (فَـلاَ يَغُرَّنَّكُمْ مَا أَصْبَحَ فِيهِ أَهْلُ الْغُرُورِ) كالجَاه، وٱلْمَال (فَإِنَّمَا هُوَ ظِلٌّ مَمْدُودٌ، إِلَىٰ أَجَلٍ مَعْدُودٍ) يذهب، ويَبْقَىٰ وزره، وتبعته. ومن أَقْوَاله: «شَتَّانَ مَا بَيْنَ عَمَلَيْنِ: عَـمَلٍ تَذْهَبُ لَذَّتُهُ، وَتَبْقَىٰ تَبِعَتُهُ، وَعَمَلٍ تَذْهَبُ مَئُونَتُهُ، وَيَبْقَىٰ أَجْرُهُ»[1].

(١) أنظر، نَهْج ٱلْبَلاَغَة: ٱلحِكْمَة (١٢١).

الخطبة
-٩٠-

إِلَهُ الْخَلْقِ، وَرَازِقُهُ...فِقْرَة ١:

الْحَمْدُ للهِ الْمَعْرُوفِ مِنْ غَيْرِ رُؤْيَةٍ، وَ الْخَالِقِ مِنْ غَيْرِ رَوِيَّةٍ، الَّذِي لَمْ يَزَلْ قَائِماً دَائِماً، إِذْ لاَ سَمَاءٌ ذَاتُ أَبْرَاجٍ، وَ لاَ حُجُبٌ ذَاتُ إِرْتَاجٍ، وَ لاَ لَيْلٌ دَاجٍ، وَ لاَ بَحْرٌ سَاجٍ، وَ لاَ جَبَلٌ ذُو فِجَاجٍ، وَ لاَ فَجٌّ ذُو اعْوِجَاجٍ، وَ لاَ أَرْضٌ ذَاتُ مِهَادٍ، وَ لاَ خَلْقٌ ذُو اعْتِمَادٍ: ذَلِكَ مُبْتَدِعُ الْخَلْقِ، وَ وَارِثُهُ، وَ إِلَهُ الْخَلْقِ، وَرَازِقُهُ، وَ الشَّمْسُ، وَ الْقَمَرُ دَائِبَانِ فِي مَرْضَاتِهِ: يُبْلِيَانِ كُلَّ جَدِيدٍ، وَ يُقَرِّبَانِ كُلَّ بَعِيدٍ.

قَسَمَ أَرْزَاقَهُمْ، وَ أَحْصَى آثَارَهُمْ، وَ أَعْمَالَهُمْ، وَ عَدَدَ أَنْفُسِهِمْ، وَ خَائِنَةَ أَعْيُنِهِمْ، وَ مَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ مِنَ الضَّمِيرِ، وَ مُسْتَقَرَّهُمْ، وَ مُسْتَوْدَعَهُمْ مِنَ الْأَرْحَامِ، وَ الظُّهُورِ إِلَى أَنْ تَتَنَاهَى بِهِمُ الْغَايَاتُ[1].

اللُّغَة:

الرَّوِيَّة بالْفِكْر، والرُّؤْيَة بالْبَصَر. ورَتَجَ، وإِرْتَجَ البَاب: أَغلقه، والرِّتَاج: البَاب العظيم. وَدَجَا اللَّيْل: أَظلم، ولَيْلٌ دَاجٍ: مُظلم. وَسَجَا البحر: إِذَا سَكَن، قَالَ

سُبْحَانَهُ: ﴿وَٱلَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ﴾[1]: أي سَكن أهله. وفِجَاج: جمع فَجّ، وهو الطَّرِيق ٱلْوَاسِع بَيْنَ جَبلين. والمِهَاد: الفِراش. ودَائِبَان: جَادان، ومُستمران، وَإِذَا أُطلقت كَلِمَة «الدَّائِبَان» بلا قرينة ٱنصرفت إِلَىٰ ٱللَّيْل، والنَّهَار.

الْإِعْرَاب:

سَمَاءٌ مُبْتَدَأ، أو ٱسم «لاَ» بناءاً علىٰ أَنَّهَا عاملة عمل لَيْسَ، والْخَبَرَ مَحْذُوف أي موجودة، وذات صفة لسَماَء. وجُمْلَة يُبْلِيَانِ حَال من ٱلشَّمْس، وَٱلْقَمَر، الْمَصْدَر من أَنْ تتَنَاهَىٰ مُتَعَلِّق بمُسْتَقَرٍّ، وَمُسْتَوْدَعٍ.

الْمَعْنَىٰ:

(الْحَمْدُ للهِ الْمَعْرُوفِ مِنْ غَيْرِ رُؤْيَةٍ، وَ الْخَالِقِ مِنْ غَيْرِ رَوِيَّةٍ). نَحْنُ نعرف الله سُبْحَانَهُ بالتّفكر، والتَّدبر فِي خَلقه، وآثَاره، لا بالرُّؤيَة، والمُشاهدة، وأيضاً نَحْنُ نعمل، ونُدبر أُمورنا بواسطة الشُّعُور، والتَّعليم، وٱلْجَوَارِح، والآلات، أمّا هو، جَلت كلمته، فإِنَّه يَقُول للشيء: كُن فَيَكُون أي يُريد فيوجد الْمُرَاد، لَيْسَ كَمِثْله شَيْءٌ طَبيعي، أو غَيْر طَبيعي، إِنّه يؤثر، وَلاَ يتأثر (الَّذِي لَمْ يَزَلْ قَائِماً) بذاته غَنياً عن غَيْره، وَلاَ غنىٰ لغيره عنهُ (دَائِماً) بلا ٱبتداء، وَلاَ ٱنتهاء كما هو شأن الواجب أي الموجود بذاته لا بسبب خارج عَنْهَا.

(إِذْ لاَ سَمَاءٌ ذَاتُ أَبْرَاجٍ، وَ لاَ حُجُبٌ ذَاتُ إِرْتَاجٍ، وَ لاَ لَيْلٌ دَاجٍ، وَ لاَ بَحْرٌ سَاجٍ، وَ

(١) الضّحىٰ: ٢.

لاَ جَبَلٌ ذُو فِجَاجٍ، وَ لاَ فَجٌّ ذُو ٱعْوِجَاجٍ، وَ لاَ أَرْضٌ ذَاتُ مِهَادٍ، وَ لاَ خَلْقٌ ذُو ٱعْتِمَادٍ) أي ذُو قُوَّة، ويتلَخص المْعْنىٰ بأنّه تعَالىٰ كَانَ ولم يَكُنْ معه شيء، لأنّه المبدأ الأَوَّل لكلّ شيء، وَلاَ بداية له إلّا كَانَ حادثاً... وتَكلَّم بَعْض الشَّارِحِين، وأطال عن المُرَاد بالحُجُبِ فِي قَوْله: «وَ لاَ حُجُبٌ ذَاتُ إِرْتَاجٍ». وَقَالَ فيما قَالَ: «أنّ لله سَبعين ألف حِجَاب من نورٍ، وظلمة»[1] مستنداً إِلَىٰ رواية نقلها صاحب ٱلْبِحَار عن الدُّر المنثور.. لا تركن النّفس إِلَيْهَا متناً، وَلاَ سَنداً. وَقَالَ آخر: المُرَاد بالحُجُب ظُلمات النَّفس، وشَهَوَاتِهَا... وفِي رأينا أنّ نفي الحُجُب هُنا عَنْه سُبْحَانَهُ من بَاب السّلب بٱنتفاء المَوْضُوع تَمَامَاً كقولنا: لَيْسَ لله ولد، لأنّ مَعْنَىٰ الحِجَاب نسبي يَحْتَاج إِلَىٰ ٱثْنَيْن: مُحتَجِب ـ بكسر الجيم ـ ومُحتَجَب ـ بفتحها ـ فَإِذَا ٱنتفىٰ هَذَا ـ كما هو الفرض ـ ٱنتفىٰ ذَاكَ حتماً، وذاتاً.

(ذَلِكَ مُبْتَدِعُ الْخَلْقِ، وَ وَارِثُهُ). ذَلِكَ إِشَارَة إِلَيْهِ تَعَالَىٰ حَيْث كَانَ، وَلاَ كَائن مَحجُوب وغَيْر مَحجُوب. والبَديع هو الَّذي لا شبيه له، وَلاَ نظير، ومُبتدع الشّيء موجده من لا شيء، وعلىٰ غَيْر مثال سابق... ورُبَّمَا قَالَ قَائِل: كَيْفَ وصف سُبْحَانَهُ نَفْسه بالوارث، وهو ٱلمَالك الأَوّل، والأصيل لكلّ شيء، ومَا من أحدٍ يملك إلّا ما ملّكه، وفِي الآيَة: ﴿إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَٱلْعَـٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾[2]. والجَوَاب واضح، وهو أنّ المُرَاد بالوارث هُنا الحَي البَاقي بلا نهَاية لبقائه.

(١) أُنظر، شرح أُصول الكافي: ٣/٢٠٥، بحَار الأنْوَار: ٥٥/٤٥، المُعجَم الكَبير: ٦/١٤٨، كنز العُمَّال: ١٠/٣٦٩ ح ٢٩٨٤٦، فيض القدير شرح الجَامع الصّغِير: ٤/١٠٤ ح ٤٦١٠.

(٢) ٱلأَعْرَافِ: ١٢٨.

(وَ إِلَهُ الْخَلْقِ، وَرَازِقُهُ) عن طريق الكدح، وٱلْعَمَل: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا فَامْشُواْ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُواْ مِن رِّزْقِهِۦ﴾[1]. وَ (الشَّمْسُ، وَ الْقَمَرُ دَائِبَانِ فِي مَرْضَاتِهِ) أي مُستمران فِي تحقيق الفائدة مِنْهُمَا، وثابتان علىٰ قوانين، وخَصَائِص لا تتغير، ولَوْلاَ هَذَا الاطراد، والاستمرار فِي جَمِيع ٱلْكَائِنَات ما ثبت شيء فِي ميدان العِلْم، وبكَلِمَة أَصح ماكَانَ للعلم عينٌ، وَلاَ أثر... ونسأل: من أين جاءت هَذِه القَوَانِين، والخصائص، من الطَّبِيعَة العَمْيَاء، أو من الصّدفة ؟ وَإِذَا كنّا نَحْنُ لا نُفسر بالصّدفة أفعالنا فكَيْفَ نفسر بها عظمة الكَوْن، ونظامه ؟ وإذَنْ فلا محيص عن الْإِيمَانِ بِٱلْقُوَّة العليمة الحَكيمة.

(يُبْلِيَانِ كُلَّ جَدِيدٍ، وَ يُقَرِّبَانِ كُلَّ بَعِيدٍ) بمرور الْأَيَّام، والسّنين كما قَالَ الْإِمَام فِي وصيته لولده الإِمَام الْحَسَن: «مَنْ كَانَتْ مَطِيَّتُهُ اللَّيْلَ وَ النَّهَارَ؛ فَإِنَّهُ يُسَارُ بِهِ، وَ إِنْ كَانَ وَاقِفاً»[2].

(قَسَمَ أَرْزَاقَهُمْ) علىٰ أساس ما بينه فِي كتابه: ﴿فَامْشُواْ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُواْ مِن رِّزْقِهِۦ وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ﴾[3]... أَبَداً لا صَدَاقَة لله مَع النّاس كِي يُحابي، ويُعطي جُزافاً، وٱعتباطاً، وإنّما يتعامل معهم علىٰ وفق ما حدد، وشرع، وهو لا يُحدد، ويُشرع شَيْئَاً مُنافياً لمقتضىٰ نواميس الطَّبِيعَة، كَيْفَ وواضع الشَّرِيعَة هو خالق الطَّبِيعَة ؟.
ومن أَجل هَذَا ربط سُبْحَانَهُ صلاح النّاس، ونجاحهم بإخضاع سلوكهم، وأَعْمَالهُم

---

(١) ٱلْمُلْك: ١٦.
(٢) أُنظر، خُطب نَهْج البَلاَغَة: ٣/٥٠، جزء من وصية عليه السلام، لِلإِمَامِ الحَسَن، والحُسَيْن عليهما السلام، تحت رَقم (٣١).
(٣) ٱلْمُلْك: ١٦.

لنواميس كونية، وأَسْبَابٍ طبيعية، فمن أهمل، وعطّل هٰذِه الأَسْبَاب، فآثر البَطالة علىٰ ٱلْعَمَل، والخُرافة علىٰ العِلم كَانَ مسؤولاً عن تقصيره، وإهماله أمام الله، والنّاس.

(وَ أَحْصَىٰ آثَارَهُمْ، وَ أَعْمَالَهُمْ، وَ عَدَدَ أَنْفُسِهِمْ، وَ خَائِنَةَ أَعْيُنِهِمْ، وَ مَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ مِنَ الضَّمِيرِ، وَ مُسْتَقَرَّهُمْ، وَ مُسْتَوْدَعَهُمْ مِنَ الْأَرْحَامِ، وَ الظُّهُورِ إِلَىٰ أَنْ تَتَنَاهَىٰ بِهِمُ الْغَايَاتُ). والْمُرَاد بِهٰذِه الغَايَات مصير ٱلإِنْسَان من سَعَادَةٍ، أو شقاء فِي الْيَوْم الآخر، وفِي بَعْض خُطب النَّهْج: «فَالْجَنَّةُ غَايَةُ السَّابِقِينَ، وَالنَّارُ غَايَةُ الْمُفَرِّطِينَ»[1]. ويتلَخَص بأنّ الله علىٰ كلّ شيء شَهِيد، وحَفِيظ، ووكيل، وأنّه أعلم بالشّيء من نَفْسِه، لأنّه خالق كلّ شيء ومالكه.

مَنْ تَوَكَّلَ عَلَيْهِ كَفَاهُ...فِقْرَة ٢:

هُوَ الَّذِي اشْتَدَّتْ نِقْمَتُهُ عَلَىٰ أَعْدَائِهِ فِي سَعَةِ رَحْمَتِهِ، وَ اتَّسَعَتْ رَحْمَتُهُ لِأَوْلِيَائِهِ فِي شِدَّةِ نِقْمَتِهِ، قَاهِرُ مَنْ عَازَّهُ، وَ مُدَمِّرُ مَنْ شَاقَّهُ، وَ مُذِلُّ مَنْ نَاوَاهُ، وَ غَالِبُ مَنْ عَادَاهُ. مَنْ تَوَكَّلَ عَلَيْهِ كَفَاهُ، وَ مَنْ سَأَلَهُ أَعْطَاهُ، وَ مَنْ أَقْرَضَهُ قَضَاهُ، وَ مَنْ شَكَرَهُ جَزَاهُ.

عِبَادَ اللهِ، زِنُوا أَنْفُسَكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ تُوزَنُوا، وَ حَاسِبُوهَا مِنْ قَبْلِ أَنْ تُحَاسَبُوا، وَ تَنَفَّسُوا قَبْلَ ضِيقِ الْخِنَاقِ، وَ انْقَادُوا قَبْلَ عُنْفِ السِّيَاقِ، وَ اعْلَمُوا أَنَّهُ مَنْ لَمْ يُعَنْ عَلَىٰ نَفْسِهِ حَتَّىٰ يَكُونَ لَهُ مِنْهَا وَاعِظٌ، وَ زَاجِرٌ، لَمْ يَكُنْ لَهُ مِنْ غَيْرِهَا لاَ زَاجِرٌ، وَ لاَ

(١) أنظر، نَهج ٱلبَلاَغَة: ٱلخُطْبَة (١٥٧).

وَاعِظٌ[٢].

اللُّغَة:
عَازَّهُ: رَام أنْ يغلبه فِي العزّ. وشَاقَّهُ: خَالفهُ. ونَاوَاهُ: عَادَاه.

الْإِعْرَاب:
قَاهِرُ يجوز أنْ يَكُون خَبَراً ثَابِيَاً لضمير «هُوَ» المنطوق، وخَبَر مُبْتَدَأ مَحْذُوف أي هو قَاهِرُ.

الْمَعْنَىٰ:
(هُوَ الَّذِي اشْتَدَّتْ نِقْمَتُهُ عَلَىٰ أَعْدَائِهِ فِي سَعَةِ رَحْمَتِهِ، وَاتَّسَعَتْ رَحْمَتُهُ لِأَوْلِيَائِهِ فِي شِدَّةِ نِقْمَتِهِ). ونَلتمس تَفْسِير هَذِه الرَّحْمَة، والنِّقْمَة مِنْهُ تَعَالَىٰ، نلتمسه بِهَذَا المثال: من البداهة أنّ الشَّمْس، وَضِيَاءها رَحْمَة من الله سُبْحَانَهُ، وكَذَلِكَ الْهَوَاء، والغيث، والخصب لما فِيهِ من الفوائد، والْمَنَافِع الَّتي تشمل، وتعم البرَّ، والفَاجر، والْمُؤْمِن، والْكَافِر، ومَعْنَىٰ هَذَا أن الله، جلت حِكْمَته، يرحم فِي الدُّنْيَا أَعْدَاءه، وهو كاره لَهُمْ، وناقم عَلَيْهِمْ، وأيضاً يرسل سُبْحَانَهُ الطُّوفان، والعواصف، والزَّلاَزِل، وَهِي غضب مِنْهُ، ونقمة لما فيها من شرور، ومضار تَعم كلّ من يصادفها صَالِحَاً كَانَ أَم طَالِحَاً، وتجتاح كلّ ما يعترض طَرِيقهَا، سواء أكَانَ قصراً لجبارٍ، أم كوخاً لأيتام، ومَعْنَىٰ هَذَا أنّ نِقمَته فِي الدُّنْيَا قَد تَنزل بالْأَوْلِيَاء، والأتقياء، وهو مُحبّ لَهُمْ وَرَاض عَنْهُمْ... وإِلَىٰ هَذَا تُومىء الآيَة: ﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَّاتُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنكُمْ

خَاصَّةً وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾[١].

ومن طريف ما قرأت فِي هَذَا البَاب قَوْل لفَيلسوف مُعاصر: أنّ ٱلْمُؤْمِن يَشكر الله علىٰ نِعْمَة أنعمها عَلَيْهِ مَع أنّ هَذَا الشُّكْر وقَاحة، وأنَانِية، إذ يَعني بِهَذَا الشُّكْر أنّ الله لا يحُبّ المَحرُومِين من هَذِه النِّعْمَة!. ونَحْنُ مَع هَذَا الفَيْلَفُوس إنْ كَانَ الدَّافع لِلْمُؤْمِن هو ٱختصَاصه بالنِّعْمَة، وحرمَان الآخرِين مِنْهَا... وسمِع رَسُول الله ﷺ رَجُلاً يَقُول: «أَللَّهُمَّ ٱرْحَمْني وٱرْحَم مُحَمَّداً، ولاَ تَرحم مَعنَا أحداً. فَقَالَ رَسُول الله ﷺ: لقَد حَجَرت وَاسعاً»[٢].

(قَاهِرُ مَنْ عَازَّهُ). لله ٱلْعِزَّة وحدَه، وَلاَ شيء مِنْهَا لمخلُوق إلّا بدِين الله، وطَاعته، ومن ٱنتَحلها فَهُوَ من الأخسرِين تمَامًا كما خَسر فِرْعَوْن من قَبل، وهِتلر من بَعد (وَمُدَمِّرُ مَنْ شَاقَّهُ) خَالفه (وَ مُذِلُّ مَنْ نَاوَاهُ) عاداه (وَ غَالِبُ مَنْ عَادَاهُ) عَطف تَفْسِير (مَنْ تَوَكَّلَ عَلَيْهِ كفَاهُ، وَ مَنْ سَأَلَهُ أَعْطَاهُ). والتَّوكل أنْ تَعمل مُعتقداً أنّ وَرَاءك قُوّة خَفية تَراك، وتَسمع نجوَاك، وتُقدر، وتُدبر كلّ ما يَقع فِي الكَوْنِ من دَقِيق ٱلْحَوَادِث، وجَليلها، أمّا سؤاله سُبْحَانَهُ فمِفْتَاحه ٱلْعَمَل وإلّا ذَهب السّؤال، والدُّعَاء مَع الرّيح، فبٱلْعَمَل يُقاس النَّوال، وإجَابة السّؤال مِنْهُ، عَظمت كَلمته، لا بالدّعوات، والشّعارات... والشّاهد المَحسوس تَأخر الشّرقِيين مَع حِرصهم علىٰ الشّعارات دُونَ ٱلْعَمَل، وتَقَدَّم الغربِيين بِسَبب مصَانعهم، وحسَاباتهم، ومعَادلاتهم

---

(١) ٱلأَنفَال: ٢٥.

(٢) أُنظر، صَحِيح ٱبن حبّان: ٣/٢٦٧، حاشية ردّ المحتار: ١/٥٥٣، المنهل العذب: ٣/٢٥٥، مُسْنَد أحمد: ٢/٢٣٩ و ٣/٥٠٣، سُنَن أبي داود: ١/١٠٣ ح ٣٨٠، سُنَن التِّرمِذي: ١/٢٥٧ ح ١٤٧ و ١٤٨، سُنَن ٱبن ماجه: ١/١٧٦ ح ٥٢٩ و ٥٣٠، الخِلاف للشيخ الطّوسي: ١/٤٩٤.

العِلمية الدّقيقة.

(وَ مَنْ أَقْرَضَهُ قَضَاهُ). يُشير بِهٰذَا إِلَىٰ قَوْله تَعَالَىٰ: ﴿إِن تُقْرِضُوا ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَٰعِفْهُ لَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَٱللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ﴾[1]. وخير تَفْسير لِهٰذه الآيَة قَوْل الإِمَام: «ٱسْتَقْرَضَكُمْ، وَ لَهُ خَزَائِنُ ٱلسَّمَاوَاتِ، وَ الأَرْضِ، وَهُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ، وَإِنَّمَا أَرَادَ أَنْ يَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً»[2] (وَ مَنْ شَكَرَهُ جَزَاهُ). لَيْسَ الْمُرَاد بالشُّكْر ترداد الْكَلِمَات، بل الطَّاعَة، والْعَمَل النّافع وفَاء لفَضله تَعَالَىٰ: (زِنُوا أَنْفُسَكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ تُوزَنُوا، وَ حَاسِبُوهَا مِنْ قَبْلِ أَنْ تُحَاسَبُوا، وَ تَنَفَّسُوا قَبْلَ ضِيقِ ٱلْخِنَاقِ، وَ ٱنْقَادُوا قَبْلَ عُنْفِ السِّيَاقِ) الجُمل عَطف علىٰ «زِنُوا» وَهِي للبيَان، والتَّفسير، والمَعْنَىٰ أُنظروا إِلَىٰ أَنْفُسِكُمْ: هل أَدت الوَاجبَات، وتَركت المُحَرَّمات، أو أُهملت وقَصَّرْت، فإِنْ تَكُن الأُولَىٰ فَهِيَ المَطلوب، وإِنْ تَكُنْ الثَّانِيَة فٱستدركوا بٱلتَّوْبَة، وَطَلب المَغْفِرَة قَبل ٱلحِسَاب، وٱلجَزَاء.

(وَ ٱعْلَمُوا أَنَّهُ مَنْ لَمْ يُعَنْ عَلَىٰ نَفْسِهِ حَتَّىٰ يَكُونَ لَهُ مِنْهَا وَاعِظٌ، وَ زَاجِرٌ، لَمْ يَكُنْ لَهُ مِنْ غَيْرِهَا لاَ زَاجِرٌ، وَ لاَ وَاعِظٌ) المُرَاد بالنّفس هُنا الأمّارة، وبالإِعانة عَلَيْهَا أَنْ يَغلبها هو علىٰ الْحَقّ، وَلاَ تَغلبه هِي علىٰ ٱلْبَاطِل، وأَنْ لا يُعطيها فَضَائِل لَيست فِيها، أمّا الوَاعِظ الزَّاجِر من دَاخل النّفس فالمُرَاد به ٱلعَقْل السّليم، أو الضَّمير الحَي، أو الوجدَان ٱليَقظ... مَهما شِئت فعبّر، وٱلْعَقْل السّليم هو الَّذي يُدرك النَّتائج، وٱلْعَوَاقِب علىٰ حَقِيقَتها، ويَعْرف ٱلْحَوَادِث قبل وُقُعِها مُستنداً فِي ذَلِكَ إِلَىٰ ما شَاهد، ورَأَىٰ.

---

(١) ٱلتَّغَابُن: ١٧.

(٢) أُنظر، نَهج البَلاَغَة: الْخُطْبَة (١٨٣).

الخطبة

-٩١-

حَوْلَ صِفَاتِه تَعَالَىٰ...فِقْرَة ١ ـ ٤:

الْحَمْدُ للهِ الَّذِي لاَ يَفِرُهُ الْمَنْعُ، وَ الْجُمُودُ، وَ لاَ يُكْدِيهِ الإِعْطَاءُ، وَ الْجُودُ. إِذْ كُلُّ مُعْطٍ مُنْتَقِصٌ سِوَاهُ، وَكُلُّ مَانِعٍ مَذْمُومٌ مَا خَلاَهُ. وَ هُوَ الْمَنَّانُ بِفَوَائِدِ النِّعَمِ، وَ عَوَائِدِ الْمَزِيدِ، وَ الْقِسَمِ. عِيَالُهُ الْخَلاَئِقُ. ضَمِنَ أَرْزَاقَهُمْ، وَ قَدَّرَ أَقْوَاتَهُمْ. وَ نَهَجَ سَبِيلَ الرَّاغِبِينَ إِلَيْهِ، وَ الطَّالِبِينَ مَا لَدَيْهِ، وَ لَيْسَ بِمَا سُئِلَ بِأَجْوَدَ مِنْهُ بِمَا لَمْ يُسْأَلْ. الأَوَّلُ الَّذِي لَمْ يَكُنْ لَهُ قَبْلٌ فَيَكُونَ شَيْءٌ قَبْلَهُ، وَ الآخِرُ الَّذِي لَيْسَ لهُ بَعْدٌ فَيَكُونَ شَيْءٌ بَعْدَهُ. وَ الرَّادِعُ أَنَاسِيَّ الأَبْصَارِ عَنْ أَنْ تَنَالَهُ، أَوْ تُدْرِكَهُ. مَا اخْتَلَفَ عَلَيْهِ دَهْرٌ فَيَخْتَلِفَ مِنْهُ الْحَالُ، وَ لاَكَانَ فِي مَكَانٍ فَيَجُوزَ عَلَيْهِ الاِنْتِقَالُ، وَ لَوْ وَهَبَ مَا تَنَفَّسَتْ عَنْهُ مَعَادِنُ الْجِبَالِ، وَضَحِكَتْ عَنْهُ أَصْدَافُ الْبِحَارِ مِنْ فِلِزِّ اللُّجَيْنِ، وَ الْعِقْيَانِ، وَ نُثَارَةِ الدُّرِّ، وَ حَصِيدِ الْمَرْجَانِ، مَا أَثَّرَ ذَلِكَ فِي جُودِهِ، وَ لاَ أَنْفَدَ سَعَةَ مَا عِنْدَهُ، وَ لَكَانَ عِنْدَهُ مِنْ ذَخَائِرِ الأَنْعَامِ مَا لاَ تُنْفِدُهُ مَطَالِبُ الأَنَامِ لأَنَّهُ الْجَوَادُ الَّذِي لاَ يَغِيضُهُ سُؤَالُ السَّائِلِينَ، وَ لاَ يُبْخِلُهُ إِلْحَاحُ الْمُلِحِّينَ(٢).

فَانْظُرْ أَيُّهَا السَّائِلُ فَمَا دَلَّكَ الْقُرْآنُ عَلَيْهِ مِنْ صِفَتِهِ فَائْتَمَّ بِهِ، وَ اسْتَضِئْ بِنُورِ

هِدَايَتِهِ، وَ مَا كَلَّفَكَ الشَّيْطَانُ عِلْمَهُ مِمَّا لَيْسَ فِي الْكِتَابِ عَلَيْكَ فَرْضُهُ، وَ لاَ فِي سُنَّةِ النَّبِيِّ ﷺ، وَ أَئِمَّةِ ٱلْهُدَىٰ أَثَرُهُ فَكِلْ عِلْمَهُ إِلَىٰ اللهِ سُبْحَانَهُ، فَإِنَّ ذَلِكَ مُنْتَهَىٰ حَقِّ اللهِ عَلَيْكَ(٣). وَ ٱعْلَمْ أَنَّ الرَّاسِخِينَ فِي الْعِلْمِ هُمُ الَّذِينَ أَغْنَاهُمْ عَنِ ٱقْتِحَامِ السُّدَدِ الْمَضْرُوبَةِ دُونَ الْغُيُوبِ الإِقْرَارُ بِجُمْلَةِ مَا جَهِلُوا تَفْسِيرَهُ مِنَ الْغَيْبِ الْمَحْجُوبِ، فَمَدَحَ اللهُ تَعَالَىٰ ٱعْتِرَافَهُمْ بِالْعَجْزِ عَنْ تَنَاوُلِ مَا لَمْ يُحِيطُوا بِهِ عِلْماً. وَ سَمَّىٰ تَرْكَهُمُ التَّعَمُّقَ فِيمَا لَمْ يُكَلِّفْهُمُ الْبَحْثَ عَنْ كُنْهِهِ رُسُوخاً. فَٱقْتَصِرْ عَلَىٰ ذَلِكَ، وَ لاَ تُقَدِّرْ عَظَمَةَ اللهِ سُبْحَانَهُ عَلَىٰ قَدْرِ عَقْلِكَ فَتَكُونَ مِنَ الْهَالِكِينَ(٤).

اللُّغَة:

لاَ يَفِرُهُ: لاَ يُزِيده. والْمُرَادُ بِٱلْجُمُودُ هُنَا شِدّة البُخْلُ. وَلاَ يُكْدِيهِ: لا يُنقصهُ بدَلِيل قَوْله بلا فاصل: «إِذْ كُلُّ مُعْطٍ مُنْتَقِصٌ سِوَاهُ». وأَنَاسِيَّ الأَبْصَارِ: جمع إِنْسَان الْبَصَر، وهو في وسط حَدَقَةُ الْعَيْن. والفِلِزّ: الجَوهر النَّفِيس: اللُّجَيْنِ: الفِضَّة الخَالِصة. والْعِقْيَانِ: الذَّهب الخَالِص.

الإِعْرَاب:

مَا خَلاَ «مَا» هُنا زَائِدَة لأَنّ مَعْنَىٰ «مَا خَلاَهُ» غَيْرِه. أي كُلُّ مَانِعٍ مَذْمُومٌ غَيْر الله، وقيل: هِي مَصْدَرِيَة، ٱسم لَيْسَ ضَمِير مستتر، والباء في بِأَجْوَدَ زَائِدَة، وَأَجْوَد خَبَر لَيْسَ، والمجرورات كلّها مُتَعَلِّقه بِأَجْوَدَ، والتَّقدير هو أَجْوَدَ مِنهُ إلخ. والأَوّلُ خَبَر لمُبْتَدأ مَحْذُوف أي هو الأَوّلُ، وأَنَاسِيَّ مَفْعُول الرَّادِعُ، والْمَصْدَر من أَنْ تَنَالَهُ مُتَعَلِّق بالرَّادِع ومَا أَثَّرَ ذَلِكَ جواب «لَوْ» وَمَا كَلَّفَ «مَا» ٱسم مَوْصُول مُبْتَدَأ،

وجُمْلَة فَكِلْ عِلْمَهُ خَبَر، والإِقْرَارُ فَاعِل أَغْنَاهُمْ، وعِلْماً تَمْيِيز محوّل عن فاعِل، والأصل لم يحط بِه علمهم، ورُسُوخاً مَفْعُول ثانٍ لسَمَّىٰ.

الْمَعْنىٰ:

روي أنّ سائلاً سأل الإِمَام أنْ يصف له الله كأنّه يراه، فصعد المنبر، وألقىٰ هَذِه ٱلخُطْبَةُ الّتي تسمىٰ بخُطْبَة الأشباح أي الأشخاص، لأنّ فيها ذِكر الأشخاص وٱلْمَلاَئِكَة، وقد ٱفتتحها بقَوْله: (الْحَمْدُ للهِ الَّذِي لاَ يَفِرُهُ الْمَنْعُ، وَ الْجُمُودُ، وَ لاَ يُكْدِيهِ الإِعْطَاءُ، وَ الْجُودُ). وفي بَعْض حِكمه: «وَالْمَالُ تَنْقُصُهُ النَّفَقَةُ، وَالْعِلْمُ يَزْكُوا عَلَىٰ الإِنْفَاقِ»[1]. ويصدق هَذَا في حقّ من يعجز عن شيء، ويقدر علىٰ شيء بأسبابه، ومقدماته، أمّا مُوجود الأَشْيَاء من لا شيء فَهُوَ هو، أمسك، أو أَنفق (إِذْ كُلُّ مُعْطٍ مُنْتَقِصٌ سِوَاهُ) لأنّ سواه يُنفق مِمَّا هو موجود بالفِعْل، والَّذي جمعه شَيْئاً فشَيْئاً، أمّا الواحد الأحد فإِنَّه يَقُولُ للشَّيء كُن فَيَكُونُ (وَ كُلُّ مَانِعٍ مَذْمُومٌ مَا خَلاَهُ) لأنّ الله سُبْحَانَهُ لا يَمنع خَوْفاً من الْفَقْر، وَلاَ يَدخر لوقت ٱلْحَاجَة كما هو الشّأن في غَيْره.

(وَ هُوَ الْمَنَّانُ بِفَوَائِدِ النِّعَمِ). كَثِير ٱلْأَنْعَام، والإفضال علىٰ من سأله، ومن لَم يسأله (وَ عَوَائِدِ الْمَزِيدِ، وَ الْقِسَمِ). والعَوَائِد هُنا من العود، قَالَ الإِمَام مخاطباً ربّه: فإِنْ عدتُ فعد عليّ بالْمَغْفِرَة، وَالْقِسَمِ من قِسم الأَرْزَاق، وٱلْمَعْنىٰ أنّه تَعَالَىٰ يُعطي، ويُعيد الْعَطَاء، ويُقدر الأَرْزَاق، ويقسمها بَيْنَ الْعِبَاد (عِيَالُهُ الْخَلاَئِقُ. ضَمِنَ

---

(١) أنظر، نَهج ٱلبَلاَغَة: ٱلْحِكْمَة (١٤٧).

أَرْزَاقَهُمْ، وَ قَدَّرَ أَقْوَاتَهُمْ. وَ نَهَجَ سَبِيلَ الرَّاغِبِينَ إِلَيْهِ، وَ الطَّالِبِينَ مَا لَدَيْهِ، وَ لَيْسَ بِمَا سُئِلَ بِأَجْوَدَ مِنْهُ بِمَا لَمْ يُسْأَلْ). النّاس عِيَال الله لأنّه هو الَّذي أوجدهم، وأبو العِيَال يُطعم، ويَكسو.. إلخ... ولَكِنَّهُ يوجه كلّ واحد من أفراد العائلة إِلىٰ وظيفته، وعمله، ومن أهمل، وتكاسل كَانَ مسؤولاً عن نَفْسِه، والله سُبْحَانَهُ أمر بِٱلْعَمَل، وبيّن الطَّرِيق الْوَاضِح إِلَيْهِ في العَدِيد من آيات كتابه، وعلىٰ لِسَان رَسُله، ومن ذَلِكَ قَوْله: ﴿فَانتَشِرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَٱبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ﴾[1]... وعن الْإِمَام الصَّادق عليه السلام: أرَأَيْت لَو أنّ رجلاً دخل بَيْتِه، وأَغلق عَلَيْهِ بابه أَكَانَ يسقط عَلَيْهِ شيء من ٱلْسَّمَاءِ؟

(الْأَوَّلُ الَّذِي لَمْ يَكُنْ لَهُ قَبْلٌ فَيَكُونَ شَيْءٌ قَبْلَهُ، وَ الآخِرُ الَّذِي لَيْسَ لهُ بَعْدٌ فَيَكُونَ شَيْءٌ بَعْدَهُ). أي هو أَوَّلَ بلا ٱبتداء، وآخر بلا ٱنتهاء، وإِلَيْهِ تَنْتَهِي جَمِيع الْأَسْبَاب الْمُمكنة، وٱلْغَايَاتُ الجُزئية، وإلاّ يبقى كلّ شيء في طَي العَدم (وَ الرَّادِعُ أَنَاسِيَّ الْأَبْصَارِ عَنْ أَنْ تَنَالَهُ، أَوْ تُدْرِكَهُ). وَالرَّادِعُ هُنا كناية عن الذّات القُدسية لا تُدرَك بحال. وأنّ ٱلعُقُول تعلم بوجوده عن طريق ٱلْخَلْق، والآثار (مَا ٱخْتَلَفَ عَلَيْهِ دَهْرٌ فَيَخْتَلِفَ مِنْهُ الْحَالُ). حَيْث لا قبلَ لهُ، وَلاَ بعد، ويؤثر، وَلاَ يتأثر، فمن أَين يَأْتِه الْأَوْضَاع، والْأَحْوَال.

(وَ لاَكَانَ فِي مَكَانٍ فَيَجُوزَ عَلَيْهِ الانْتِقَالُ) حَيْث كَانَ قبل الزَّمان، والمكان، وتستوي لديه جَمِيع الأَمكنة، فكَيْفَ يوصف بالانتقال من مَكَانٍ إِلىٰ مَكَان (وَ لَوْ وَهَبَ مَا تَنَفَّسَتْ عَنْهُ مَعَادِنُ الْجِبَالِ، وَضَحِكَتْ عَنْهُ أَصْدَافُ الْبِحَارِ مِنْ فِلِزِّ اللُّجَيْنِ،

(١) الْجُمُعَة: ١٠.

وَ الْعِقْيَانِ، وَ نُثَارَةِ الدُّرِّ، وَ حَصِيدِ الْمَرْجَانِ، مَا أَثَّرَ ذَلِكَ فِي جُودِهِ، وَ لاَ أَنْفَدَ سَعَةَ مَا عِنْدَهُ، وَ لَكَانَ عِنْدَهُ مِنْ ذَخَائِرِ الْأَنْعَامِ مَا لاَ تُنْفِدُهُ مَطَالِبُ الْأَنَامِ). المَعَادِنُ في الجِبَال، وبَطْن الْأَرْضِ، وعلىٰ سطحها، وفي ٱلْبِحَار وأعماقها، وٱلْمَعْنىٰ أنّه تعالىٰ لو وَهَبَ كلّ غالٍ، وثمين كَانَ، ويكُون في البرّ، والبحر لبقيت خزائنه علىٰ ما هِي لا ينقصها شيء: ﴿مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٍ وَلَنَجْزِيَنَّ ٱلَّذِينَ صَبَرُوٓاْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾[1]. (لِأَنَّهُ الْجَوَادُ الَّذِي لاَ يَغِيضُهُ سُؤَالُ السَّائِلِينَ، وَ لاَ يُبْخِلُهُ إِلْحَاحُ الْمُلِحِّينَ). نَحْنُ نغضب، ونضجر عند السُّؤال، والطَّلب، وَإِذَا أَلحّ السَّائِل خَرجنا عن الحَدّ، لأنّ لنا مَعِدَة، ونعمل لنستجيب إلىٰ مطالبها، لا لنُطعم الآخرين، أمّا هو سُبْحَانَهُ فإنَّه الواجد الْغَنِيّ عن كلّ ما سواه، والرّازق كلّ ما عداه.

(فَانْظُرْ أَيُّهَا السَّائِلُ فَمَا دَلَّكَ الْقُرْآنُ عَلَيْهِ مِنْ صِفَتِهِ فَائْتَمَّ بِهِ، وَ اسْتَضِئْ بِنُورِ هِدَايَتِهِ). وَلاَ فرق بَيْنَ أَسمائه تَعَالَىٰ، وَصِفَاته لِأَنَّها عين ذاته، وبخَاصَّة أنّ الإسم مأخوذ من السِّمة، وَهِي العَلامَة. وظاهر كَلاَم الْإِمَام أنّ أَسْماء الله، وَصِفَاته وقفٌ علىٰ ما جاء في ٱلْقُرْآن ٱلْكَرِيمِ. وفي رأينا أنّ كلّ كَلِمَة تُليق بجلاله تَعَالَىٰ، وعَظَمَته يصح إطلاقها عَلَيْهِ، وإنْ لَم يَرد النَّص عَلَيْهَا. ومُراد الإِمَام من قَوْله: «فَمَا دَلَّكَ الْقُرْآنُ عَلَيْهِ» هو النَّهي عن وصفه، جَلَّت عظَمَته، بِمَا لا يُليق بِتَنزِيهه، ومكَانته.

(وَ مَا كَلَّفَكَ الشَّيْطَانُ عِلْمَهُ مِمَّا لَيْسَ فِي الْكِتَابِ عَلَيْكَ فَرْضُهُ، وَ لاَ فِي سُنَّةِ النَّبِيِّ عَلَيْهِ ‌السَّلَامُ، وَ أَئِمَّةِ ٱلْهُدَىٰ أَثَرُهُ فَكِلْ عِلْمَهُ إِلَىٰ اللهِ سُبْحَانَهُ، فَإِنَّ ذَلِكَ مُنْتَهَىٰ حَقِّ اللهِ عَلَيْكَ). الْمُرَاد بالشَّيْطَان كلّ مُظل كَائِناً مَن كَان، ومَاكَان، وٱلْمَعْنىٰ: علىٰ الْمُؤْمِن أَنْ

(١) ٱلنَّحْلِ: ٩٦.

يعتقد أنّ الله سُبْحَانَهُ يتصف بكلّ ما جاء في كتاب الله ، وسُنّة نَبِيِّه ، ومَا عَدا ذَلِكَ فمن الشَّيْطَان ، أو لا يُكلف بِه ٱلإِنْسَان ، وَلاَ يُسأل عَنْه ، ومن ٱشتبه عَلَيْهِ شيء من أَمر الصِّفَات القُدسية فعليه أنْ يَسكُت عمّا سَكَت الله عَنْه ، ورَسُوله ، ويدع ذَلِكَ إِلىٰ الله ، كما قَالَ الرَّسُول الأَعْظَم : «دَع مَا يُرِيبكَ إِلىٰ مَا لا يُرِيبك»[1] ، والَّذي لا رَيب فِيهِ هو الوقوف علىٰ النَّص ، والَّذي فِيهِ الرَّيب التَّجاوزُ عَنْه إِلىٰ قَوْل الفَلاَسفَة ، والمُتفَلسفَة بلا مَصْدَر من آيةٍ مُنَزْلَة ، أو رواية متواترة .

مَنْ هُمْ الرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ؟

(وَ ٱعْلَمْ أَنَّ الرَّاسِخِينَ فِي الْعِلْمِ) . كَثُر الكَلاَم حَوْلَ المُرَاد من الرَّاسِخِينَ فِي الْعِلْمِ ، فَقَالَ قَوْم : هُم الأَئِمَّة المَعْصُومُون . وَقَالَ الصُّوفية : هُم الذين أَحاطوا عِلْماً بتفْسِير الرّموز ، والإشارات ! . وكَلاَم الإِمَامِ عليه السلام هُنا يدل بصراحة علىٰ أَنَّ الرَّاسِخِينَ فِي الْعِلْمِ هُم الّذين يَعْرفُون ، ويُمَيِّزُون بَيْنَ ما يُمكن من ٱلْعِلْم بِه ، وبَيْنَ ما لا يُمكن ، ويقفون عند هَذَا ٱلْغَيْبِ المَحْجُوبِ ، ويَعْتَرِفُون بجهلهم بِه ، وَلاَ يتكلفون مَعْرِفَتِه ، ويتعسفون ، وفِي الوقت نَفْسه يحاولون جهدهم أنْ يعرفوا ما أَنزل الله علىٰ نَبِيِّه . ومن أَقْوَال الإِمَام عليه السلام : «وَسَكَتَ لَكُمْ عَنْ أَشْيَاءَ ، وَلَمْ يَدَعْهَا نِسْيَاناً فَلاَ تَتَكَلَّفُوهَا» . ولَيْسَ من شَكٍّ أنّه لو كَانَ فِي عِلم المَحْجُوب أدنىٰ منفعة للناس ما حَجبه الله عَنْهُمْ ، ومن تَكلف ، وتعسف لإِدراك هَذَا المَحْجُوب ـ تذهب محاولته لغواً ، وعبثاً .

---

(١) أنظر ، صَحِيح البُخَارِيّ: ٧٢٤/٢ ح ١٩٤٦ ، صَحِيح ٱبن حبّان: ٤٩٨/٣ ح ٧٢٢ ، صَحِيح ٱبن خُزَيْمَة: ٥٩/٤ ح ٢٣٤٨ ، مورد الظّمآن: ١٣٧/١ ح ٥١٢ ، المُسْتَدرَك علىٰ الصَّحِيحِين: ١١٦/١ ح ١٦٦ ، سُنن التِّرمِذي: ٦٦٨/٤ ح ٢٥١٨ ، سُنن الدّارمي: ٣١٩/٢ ح ٢٥٣١ .

هُوَ الْقَادِرُ...فِقْرَة ٥ ـ ٨:

هُوَ الْقَادِرُ الَّذِي إِذَا ٱرْتَمَتِ الْأَوْهَامُ لِتُدْرِكَ مُنْقَطَعَ قُدْرَتِهِ، وَ حَاوَلَ الْفِكْرُ الْمُبَرَّأُ مِنْ خَطَرَاتِ الْوَسَاوِسِ أَنْ يَقَعَ عَلَيْهِ فِي عَمِيقَاتِ غُيُوبِ مَلَكُوتِهِ، وَ تَوَلَّهَتِ الْقُلُوبُ إِلَيْهِ، لِتَجْرِيَ فِي كَيْفِيَّةِ صِفَاتِهِ، وَ غَمَضَتْ مَدَاخِلُ الْعُقُولِ فِي حَيْثُ لاَ تَبْلُغُهُ الصِّفَاتُ لِتَنَاوُلِ عِلْمِ ذَاتِهِ، رَدَعَهَا وَ هِيَ تَجُوبُ مَهَاوِيَ سُدَفِ الْغُيُوبِ، مُتَخَلِّصَةً إِلَيْهِ ـ سُبْحَانَهُ ـ فَرَجَعَتْ إِذْ جُبِهَتْ مُعْتَرِفَةً بِأَنَّهُ لاَ يُنَالُ بِجَوْرِ الاِعْتِسَافِ كُنْهُ مَعْرِفَتِهِ، وَ لاَ تَخْطُرُ بِبَالِ أُولِي الرَّوِيَّاتِ خَاطِرَةٌ مِنْ تَقْدِيرِ جَلاَلِ عِزَّتِهِ. الَّذِي ٱبْتَدَعَ الْخَلْقَ عَلَىٰ غَيْرِ مِثَالٍ ٱمْتَثَلَهُ، وَ لاَ مِقْدَارٍ ٱحْتَذَىٰ عَلَيْهِ مِنْ خَالِقٍ مَعْبُودٍ كَانَ قَبْلَهُ، وَ أَرَانَا مِنْ مَلَكُوتِ قُدْرَتِهِ، وَ عَجَائِبِ مَا نَطَقَتْ بِهِ آثَارُ حِكْمَتِهِ، وَ ٱعْتِرَافِ الْحَاجَةِ مِنَ الْخَلْقِ إِلَىٰ أَنْ يُقِيمَهَا بِمِسَاكِ قُوَّتِهِ، مَا دَلَّنَا بِٱضْطِرَارِ قِيَامِ الْحُجَّةِ لَهُ عَلَىٰ مَعْرِفَتِهِ، فَظَهَرَتِ الْبَدَائِعُ الَّتِي أَحْدَثَتْهَا آثَارُ صَنْعَتِهِ، وَ أَعْلاَمُ حِكْمَتِهِ، فَصَارَ كُلُّ مَا خَلَقَ حُجَّةً لَهُ، وَ دَلِيلاً عَلَيْهِ، وَ إِنْ كَانَ خَلْقاً صَامِتاً، فَحُجَّتُهُ بِالتَّدْبِيرِ نَاطِقَةٌ، وَ دَلاَلَتُهُ عَلَىٰ الْمُبْدِعِ قَائِمَةٌ[٦]. فَأَشْهَدُ أَنَّ مَنْ شَبَّهَكَ بِتَبَايُنِ أَعْضَاءِ خَلْقِكَ، وَ تَلاَحُمِ حِقَاقِ مَفَاصِلِهِمُ الْمُحْتَجِبَةِ لِتَدْبِيرِ حِكْمَتِكَ، لَمْ يَعْقِدْ غَيْبَ ضَمِيرِهِ عَلَىٰ مَعْرِفَتِكَ، وَ لَمْ يُبَاشِرْ قَلْبَهُ الْيَقِينُ بِأَنَّهُ لاَ نِدَّ لَكَ، وَكَأَنَّهُ لَمْ يَسْمَعْ تَبَرُّؤَ التَّابِعِينَ مِنَ الْمَتْبُوعِينَ إِذْ يَقُولُونَ: ﴿تَٱللَّهِ إِن كُنَّا لَفِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾[١] كَذَبَ الْعَادِلُونَ بِكَ إِذْ شَبَّهُوكَ بِأَصْنَامِهِمْ، وَ نَحَلُوكَ حِلْيَةَ الْمَخْلُوقِينَ بِأَوْهَامِهِمْ، وَ جَزَّءُوكَ تَجْزِئَةَ الْمُجَسَّمَاتِ بِخَوَاطِرِهِمْ، وَ قَدَّرُوكَ عَلَىٰ الْخِلْقَةِ الْمُخْتَلِفَةِ الْقُوَىٰ، بِقَرَائِحِ عُقُولِهِمْ[٧].

(١) ٱلشُّعَرَاء: ٩٧ ـ ٩٨.

وَ أَشْهَدُ أَنَّ مَنْ سَاوَاكَ بِشَيْءٍ مِنْ خَلْقِكَ فَقَدْ عَدَلَ بِكَ، وَ الْعَادِلُ بِكَ كَافِرٌ بِمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ مُحْكَمَاتُ آيَاتِكَ، وَ نَطَقَتْ عَنْهُ شَوَاهِدُ حُجَجِ بَيِّنَاتِكَ، وَ إِنَّكَ أَنْتَ اللهُ الَّذِي لَمْ تَتَنَاهَ فِي الْعُقُولِ، فَتَكُونَ فِي مَهَبِّ فِكْرِهَا مُكَيَّفاً، وَ لاَ فِي رَوِيَّاتِ خَوَاطِرِهَا فَتَكُونَ مَحْدُوداً مُصَرَّفاً(٨).

اللُّغَة:

ٱرْتَمَىٰ: مُطاوع رَمَىٰ، يُقَال: رَماه فَٱرْتَمَىٰ، والْمُرَاد بِٱرْتَمَت هُنا أَسْرَعت. ومُنْقَطَعَ الشّيء مُنْتَهَاه. والْفِكْرُ الْمُبَرَّأُ: الخَالِص من الشَّوائب. ومَلَكُوت الله: سُلطته وسُلطانه. وَالوَلَه: الجَزع، وذِهاب ٱلْعَقْل من الوَجد. وَغَمَضَتْ: خَفيَت، والمَدَاخِلُ: جَمع مَدخَل: وهو طَرِيق الدّخُول. وتَجُوبُ: تَقْطَعُ. والمَهَاوِيَ: المَهَالِك. وسُدَفِ ـ بضم السّين، وفتح الدّال ـ جَمع سُدْفَة، وَهِي الظُّلمة. ومُتَخَلِّصَةً: أي هَذبها التَّمحيص، والتَّخليص. وجُبِهَتْ: خُيبَتْ. والاعْتِسَافِ: الانْحِرَاف. والرَّوِيَّاتِ: جمع الرَّوِيَّة، وَهِي التَّأني، وإعمال الْفِكْر. وٱحْتَذَىٰ عَلَيْهِ: سَار عَلىٰ طَرِيقه. والمِسَاكِ: ما يُمسك الشّيء. والحِقَاقِ ـ بكسر الحاء ـ جَمع حُقّ ـ بضم الحاء أي رأس العظم عند المفصل. والْمُرَاد بغَيْب الضَّمِير الْعِلْم، والْيَقِين. ونَحَلُوكَ: أَعطوك. والْمُرَاد بالحِلْيَة هُنا الصِّفَة. وكلّ مَحْدُود يُسمّىٰ مُصَرَّفاً حَيْث تَتَصَرَّف بِهِ ٱلْعُقُول حسبما ترىٰ.

الإِعْرَاب:

الْمَصْدَر مِنْ أَنْ يَقَعَ مَفْعُول حَاوَلَ، ورَدَعَهَا جواب إِذَا ٱرْتَمَتِ، وَ هِيَ تَجُوبُ الواو

لِلحَال، ومُتَخَلِّصَةً حَال ثَانِيَة مِن ٱلْعُقُول، ومُعْتَرِفَةً حَال من الضَّمِير المستتر في جُبِهَتْ، والَّذِي ٱبْتَدَعَ صفةٌ لِجَلاَلِ عِزَّته، لأنّ الْمُرَاد بالجَلاَلِ هُنا الْخَالِق عَزّ وَجَلّ، ويجوز أنْ يَكُون الَّذي خَبَراً لمُبْتَدَأ مَحْذُوف، أي هو الَّذِي ٱبْتَدَعَ، وفي أَرَانَا فَاعِل مستتر يعود إِلَيْهِ تَعَالَىٰ، وَ«نَا» مَفْعُول أَوَّل، ومَا دَلَّنَا معفول ثانٍ، والْمَصْدَر مِن أَنْ يُقِيمَهَا مُتَعَلِّق بالْحَاجَةِ، ولَمْ يَعْقِدْ خَبَر أَنَّ مَنْ شَبَّهَكَ.

الْمَعْنَىٰ:

ذكر الإِمَام أَربع جُمَل لفعل الشّرط مُترادفة ٱلْمَعْنَىٰ، ومختلفة المبنىٰ، وَهِيَ:

١ ـ (هُوَ الْقَادِرُ الَّذِي إِذَا ٱرْتَمَتِ الْأَوْهَامُ لِتُدْرِكَ مُنْقَطَعَ قُدْرَتِهِ) أي أسرعت لِتُدْرِكَ إِلىٰ أي مدىً تبلغ قُدْرَة الله سُبْحَانَهُ.

٢ ـ (وَ حَاوَلَ الْفِكْرُ الْمُبَرَّأُ مِنْ خَطَرَاتِ الْوَسَاوِسِ أَنْ يَقَعَ عَلَيْهِ فِي عَمِيقَاتِ غُيُوبِ مَلَكُوتِهِ). تَطَلَع أسمىٰ ٱلْعُقُول، وأَبعدها عن الشّوائب لتعرف ٱلْغَيْب الْعَمِيق من سُلطان الله، وسُلطته.

٣ ـ (وَ تَوَلَّهَتِ الْقُلُوبُ إِلَيْهِ، لِتَجْرِيَ فِي كَيْفِيَّةِ صِفَاتِهِ) أي أنّ ٱلْقُلُوب الْمُؤْمِنَة إِذَا تحرقت شَوْقاً لمعرفة صِفَاته الّتي هِي عَيْنُ ذَاته.

٤ ـ (وَ غَمَضَتْ مَدَاخِلُ الْعُقُولِ فِي حَيْثُ لاَ تَبْلُغُهُ الصِّفَاتُ لِتَنَاوُلِ عِلْمِ ذَاتِهِ). خَفِي علىٰ ٱلْعُقُول كلّ طريق يؤدي إِلىٰ ٱلْعِلْم بذاته تَعَالَىٰ.

(رَدَعَهَا وَ هِيَ تَجُوبُ مَهَاوِيَ سُدَفِ الْغُيُوبِ، مُتَخَلِّصَةً إِلَيْهِ ـ سُبْحَانَهُ ـ) رَدَعَهَا جواب إِذَا وما بعدها من الجُمل الأربع الّتي جاءت أفعالاً للشّرط، وٱلْمَعْنىٰ أنّ ذَاته تَعَالَىٰ يَسْتَحِيل رؤيتها بالْعَيْن، لأنّ كلاً من ٱلْعَقْل، وٱلْحِسّ يُدرك الْمُتناهِي

والمَحدود، والله مُتعال عن الحصر، والحدّ (فَرَجَعَتْ) ٱلْعُقُول بَعد المُحاولة (إِذْ جُبِهَتْ) خُيِبَتْ (مُعْتَرِفَةً بِأَنَّهُ لاَ يُنَالُ بِجَوْرِ الاِعْتِسَافِ كُنْهُ مَعْرِفَتِهِ). المُرَاد بِالجَوْرِ هُنا العدُول عن الطَّرِيق السَّلِيم وبِالاِعْتِسَافِ سلوك الطَّرِيق الشَّائِكَة الّتي لا تُؤَدِّي إِلىٰ خيرٍ، وٱلْمَعْنىٰ أنّ ٱلْعُقُول بعد أنْ حَاولت مَعْرِفَة الذَّات القُدسية، وعَجَزْت عن ذَلِكَ أعْتَرفت مُذعِنة بأَنَّهَا كَانَتْ تُحاول المُحال، وتَسْلك طَرِيقاً لا تَنْتَهِي بِهَا إِلىٰ شيء (وَلاَ تَخْطُرُ بِبَالِ أُولِي الرَّوِيَّاتِ خَاطِرَةٌ مِنْ تَقْدِيرِ جَلاَلِ عِزَّتِه). كلّ مَا تَتَصوره ٱلْعُقُول من مَعَانِي الجَلاَل، والعَظمة فَهُوَ دُونَ عِزَّة الله، ومكانته.

(الَّذِي ٱبْتَدَعَ الْخَلْقَ عَلَىٰ غَيْرِ مِثَالٍ ٱمْتَثَلَهُ). أَوجد سُبْحَانَهُ الخَلاَئِق علىٰ غَيْرِ مِثَالٍ سَابق، ومن لا شيء، وبلا هندسة، وتصميم، بل بكَلِمَة «كُن» وكفىٰ.

(وَ لاَ مِقْدَارٍ ٱحْتَذَىٰ عَلَيْهِ مِنْ خَالِقٍ مَعْبُودٍ كَانَ قَبْلَهُ). مَا كَانَ الله مُقلداً لأحدٍ فِي شَيء مِن خَلقه، كَيْفَ وَلاَ خَالق إلّا هو؟ (وَ أَرَانَا مِنْ مَلَكُوتِ قُدْرَتِهِ، وَ عَجَائِبِ مَا نَطَقَتْ بِهِ آثَارُ حِكْمَتِهِ، وَ ٱعْتِرَافِ الْحَاجَةِ مِنَ الْخَلْقِ إِلَىٰ أَنْ يُقِيمَهَا بِمِسَاكِ قُوَّتِهِ، مَا دَلَّنَا بِٱضْطِرَارِ قِيَامِ الْحُجَّةِ لَهُ عَلَىٰ مَعْرِفَتِهِ). المُرَاد بِمَلَكُوتِ القُدْرَة مَا أوجده سُبْحَانَهُ بِقُدْرَتِهِ، وبِآثَارِ الصَّنْعَة، والحِكْمَة الكَوْن ومَا فِيهِ من بَدِيع الصِّنع، ودقته، وضَمِير يُقِيمَهَا يعود إلىٰ ٱلخَلْق لأنّه بِمَعْنَىٰ المَخْلُوقات، وٱلْمَعْنىٰ إنّ هَـذِه ٱلكَـائِنَات بنظامها، وسيرها إِلىٰ غَايَة مَقْصُودة هِي حجّة واضحة لله علىٰ مَن أَنكر، وعَاند.

(فَظَهَرَتِ الْبَدَائِعُ الَّتِي أَحْدَثَتْهَا آثَارُ صَنْعَتِهِ، وَ أَعْلاَمُ حِكْمَتِهِ، فَصَارَ كُلُّ مَا خَلَقَ حُجَّةً لَهُ، وَ دَلِيلاً عَلَيْهِ، وَ إِنْ كَانَ خَلْقاً صَامِتاً، فَحُجَّتُهُ بِالتَّدْبِيرِ نَاطِقَةٌ، وَ دَلاَلَتُهُ عَلَىٰ الْمُبْدِعِ قَائِمَةٌ). كلّ نظام مُتناسق، ومُستمر لا يُمكن أنْ يحدث من غَيْر قَصد، وَإِذَا ٱستحال القَصد علىٰ الأَسْبَاب الطبيعية الْقَرِيبَة لِهَذَا النّظام فإِنَّه لا بُدّ لتَفْسِيره من

إثبات قَاصد في عالم ٱلْغَيْب، يَحمل في ذَاته سبب وُجُودِه، وبَـقائه، ويَكُـون هـو السّبب الْأَوّل لسلسلة الْأَسْبَاب، وَإِذَا لم يُعلن النّظام، وأسبابه عن وجود الْقَاصِد المُدبر ـ بلِسَان المَقال، فقد أَعلن ذَلِكَ بلِسَان الحَال، وإِلىٰ هَذَا أشار الإمَام بقَوْله: «وَإِنْ كَانَ خَلْقاً صَامِتاً». (فَأَشْهَدُ أَنَّ مَنْ شَبَّهَكَ بِتَبَايُنِ أَعْضَاءِ خَـلْقِكَ، وَ تَـلَاحُمِ حِقَاقِ مَفَاصِلِهِمُ الْمُحْتَجِبَةِ لِتَدْبِيرِ حِكْمَتِكَ، لَمْ يَعْقِدْ غَيْبَ ضَمِيرِهِ عَلَىٰ مَعْرِفَتِكَ، وَلَمْ يُبَاشِرْ قَلْبَهُ الْيَقِينُ بِأَنَّهُ لاَ نِدَّ لَكَ). الْمُرَاد بِتَبَايُنِ الأعْضَاءِ، وَتَلَاحُمِ رُؤُوس المفاصل ـ أَعْضَاء ٱلإنْسَان، وٱلْحَيَوَان المتباينة، والمتلاحمة، وقد سترها سُبْحَانَهُ بـاللحم، وأحيَاها بالدّم، وربطها بالعروق لكي تُؤَدّي وظَائفها بيسرٍ، وسهوله، ويحـفظها من الْفَسَاد، والجَفاف، وٱلْمَعْنىٰ أنّ مَن شَبّه الله بشيء من خَلقه فَهُوَ جَاهل، لأنّـه تَعَالىٰ لَيْسَ كَمِثْله شَيْءٌ، وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ.

(وَ كَأَنَّهُ ـ أي الّذي شبّه الله ـ لَمْ يَسْمَعْ تَبَرُّؤَ التَّابِعِينَ مِنَ الْمَتْبُوعِينَ إِذْ يَقُولُونَ: ﴿تَاللهِ إِن كُنَّا لَفِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلْعَـٰـلَمِينَ﴾). الْمُـرَاد بـالتَّابِعِينَ المشركون، وبالْمَتْبُوعِينَ الأصنام... وفي يَوْم الْحِسَاب، والْجَزَاء يتبرأ أُولَئِكَ مـن هَؤُلَاء، ويَقُولُونَ كُنا في بَحرٍ من الجهالة، والضّلالة إذ عبدنا الأصنام لِيُقَرِّبُونَا من ٱللهِ زُلْفَىٰ (كَذَبَ الْعَادِلُونَ بِكَ) إِلىٰ غَيْرك (إِذْ شَبَّهُوكَ بِأَصْنَامِهِمْ) الّتي لا تضر، وَلاَ تَنْفَع (وَ نَحَلُوكَ حِلْيَةَ الْمَخْلُوقِينَ بِأَوْهَامِهِمْ). شَبَّهُوا الله سُبْحَانَهُ بخلقه، وما عَـناه مـن شُبْهة، وَلاَ قـصده مـن أَشـار إِلَـيْهِ، وتـوهمه (وَ جَـزَّءُوكَ تَـجْزِئَةَ الْـمُجَسَّمَاتِ بِخَوَاطِرِهِمْ، وَ قَدَّرُوكَ عَلَىٰ الْخِلْقَةِ الْمُخْتَلِفَةِ الْقُوَىٰ، بِقَرَائِـحِ عُـقُولِهِمْ). لـلـجسم أَعْضَاء، وأَجْزَاء، وفِيهِ عناصر مُتعددة، ومُتناهية، والله سُبْحَانَهُ مُنَزَّه عن ذَلِكَ.

(وَ أَشْهَدُ أَنَّ مَنْ سَاوَاكَ بِشَيْءٍ مِنْ خَلْقِكَ فَقَدْ عَدَلَ بِكَ، وَ الْعَادِلُ بِكَ كَـافِرٌ بِـمَا

تَنَزَّلَتْ بِهِ مُحْكَمَاتُ آيَاتِكَ ، وَ نَطَقَتْ عَنْهُ شَوَاهِدُ حُجَجِ بَيِّنَاتِكَ) . مَن نَسَبَ إِلىٰ الله شَيْئَاً من صِفات المَخْلُوق ، أو نَسَبَ إلىٰ المَخْلُوق شَيْئَاً من صِفَات الخَالِق فَهُوَ كَافر إجماعاً ، وكِتَاباً ، وسُنّة : ﴿إِذْ تَأْمُرُونَنَآ أَن نَّكْفُرَ بِاللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُۥٓ أَندَادًا﴾[1] . (وَ إِنَّكَ أَنْتَ اللهُ الَّذِي لَمْ تَتَنَاهَ فِي الْعُقُولِ ، فَتَكُونَ فِي مَهَبِّ فِكْرِهَا مُكَيَّفاً ، وَ لاَ فِي رَوِيَّاتِ خَوَاطِرِهَا فَتَكُونَ مَحْدُوداً مُصَرَّفاً) . . . مُكَيَّفاً أي علىٰ وضع خاص ، ومُصَرَّفاً أي تتصوره ٱلْعُقُول حَسبما ترىٰ ، والْمَعْنىٰ يَسْتَحِيل علىٰ ٱلْعُقُول معرفة ذَات الله وَكُنْهِهِ حَيْث لا أَوضاع له ، وأحوال ، وَلاَ بداية ، ونهَايَة ، وَلاَ زَمَان ، ومكان ، وإذَنْ بأي شيء تَحده ؟ ومن أيّة جهة تتصوره ؟ . . . أَبَداً لا سَبيل إلّا ٱلْخَلْق ، والآثار النّاطقة بمجرد وجود القَادر العَليم الحَكيم .

قَدَّرَ مَا خَلَقَ...فِقْرَة ٩ ـ ١٢:

قَدَّرَ مَا خَلَقَ فَأَحْكَمَ تَقْدِيرَهُ ، وَ دَبَّرَهُ فَأَلْطَفَ تَدْبِيرَهُ ، وَ وَجَّهَهُ لِوِجْهَتِهِ فَلَمْ يَتَعَدَّ حُدُودَ مَنْزِلَتِهِ ، وَ لَمْ يَقْصُرْ دُونَ الاِنْتِهَاءِ إِلَىٰ غَايَتِهِ ، وَ لَمْ يَسْتَصْعِبْ إِذْ أُمِرَ بِالْمُضِيِّ عَلَىٰ إِرَادَتِهِ ، فَكَيْفَ وَ إِنَّمَا صَدَرَتِ الْأُمُورُ عَنْ مَشِيئَتِهِ[9] ؟ الْمُنْشِئُ أَصْنَافَ الْأَشْيَاءِ بِلاَ رَوِيَّةِ فِكْرٍ آلَ إِلَيْهَا ، وَ لاَ قَرِيحَةِ غَرِيزَةٍ أَضْمَرَ عَلَيْهَا ، وَ لاَ تَجْرِبَةٍ أَفَادَهَا مِنْ حَوَادِثِ الدُّهُورِ ، وَ لاَ شَرِيكٍ أَعَانَهُ عَلَىٰ ٱبْتِدَاعِ عَجَائِبِ الْأُمُورِ ، فَتَمَّ خَلْقُهُ بِأَمْرِهِ ، وَ أَذْعَنَ لِطَاعَتِهِ ، وَ أَجَابَ إِلَىٰ دَعْوَتِهِ ، لَمْ يَعْتَرِضْ دُونَهُ رَيْثُ الْمُبْطِئِ ، وَ لاَ أَنَاةُ الْمُتَلَكِّئِ ، فَأَقَامَ مِنَ الْأَشْيَاءِ أَوَدَهَا ، وَ نَهَجَ حُدُودَهَا ، وَ لاَءَمَ بِقُدْرَتِهِ بَيْنَ مُتَضَادِّهَا ، وَ

(١) سُورَةُ سبإ: ٣٣.

وَصَلَ أَسْبَابَ قَرَائِنِهَا ، وَ فَرَّقَهَا أَجْنَاساً مُخْتَلِفَاتٍ فِي الْحُدُودِ ، وَ الْأَقْدَارِ ، وَ الْغَرَائِزِ ، وَ الْهَيْئَاتِ ، بَدَايَا خَلاَئِقَ أَحْكَمَ صُنْعَهَا ، وَ فَطَرَهَا عَلَىٰ مَا أَرَادَ ، وَ ٱبْتَدَعَهَا(١٠)!

وَ نَظَمَ بِلاَ تَعْلِيقٍ رَهَوَاتِ فُرَجِهَا ، وَ لاَحَمَ صُدُوعَ ٱنْفِرَاجِهَا ، وَ وَشَّجَ بَيْنَهَا وَ بَيْنَ أَزْوَاجِهَا ، وَ ذَلَّلَ لِلْهَابِطِينَ بِأَمْرِهِ ، وَ الصَّاعِدِينَ بِأَعْمَالِ خَلْقِهِ ، حُزُونَةَ مِعْرَاجِهَا ، وَ نَادَاهَا بَعْدَ إِذْ هِيَ دُخَانٌ ، فَٱلْتَحَمَتْ عُرَىٰ أَشْرَاجِهَا ، وَ فَتَقَ بَعْدَ الاِرْتِتَاقِ صَوَامِتَ أَبْوَابِهَا ، وَ أَقَامَ رَصَداً مِنَ الشُّهُبِ الثَّوَاقِبِ عَلَىٰ نِقَابِهَا ، وَ أَمْسَكَهَا مِنْ أَنْ تُمُورَ فِي خَرْقِ الْهَوَاءِ بِأَيْدِهِ(١١) . وَ أَمَرَهَا أَنْ تَقِفَ مُسْتَسْلِمَةً لِأَمْرِهِ ، وَ جَعَلَ شَمْسَهَا آيَةً مُبْصِرَةً لِنَهَارِهَا ، وَ قَمَرَهَا آيَةً مَمْحُوَّةً مِنْ لَيْلِهَا ، وَ أَجْرَاهُمَا فِي مَنَاقِلِ مَجْرَاهُمَا ، وَ قَدَّرَ سَيْرَهُمَا فِي مَدَارِجِ دَرَجِهِمَا ، لِيُمَيِّزَ بَيْنَ اللَّيْلِ وَ النَّهَارِ بِهِمَا ، وَ لِيُعْلَمَ عَدَدُ السِّنِينَ وَ الْحِسَابُ بِمَقَادِيرِهِمَا ، ثُمَّ عَلَّقَ فِي جَوِّهَا فَلَكَهَا ، وَ نَاطَ بِهَا زِينَتَهَا ، مِنْ خَفِيَّاتِ دَرَارِيِّهَا ، وَ مَصَابِيحِ كَوَاكِبِهَا ، وَرَمَىٰ مُسْتَرِقِي السَّمْعِ بِثَوَاقِبِ شُهُبِهَا ، وَ أَجْرَاهَا عَلَىٰ أَذْلاَلِ تَسْخِيرِهَا مِنْ ثَبَاتِ ثَابِتِهَا ، وَ مَسِيرِ سَائِرِهَا ، وَ هُبُوطِهَا ، وَ صُعُودِهَا ، وَ نُحُوسِهَا ، وَ سُعُودِهَا(١٢) .

اللُّغَة:

لِوِجْهَتِهِ ـ بكسر الواو ـ لِجِهَتِهِ ، وغَايَتِهِ . وَلَمْ يَسْتَصْعِبْ : إنْقَادَ بِسُهُولَة . والغَرِيزَة : الطَّبِيعَة ، وقَرِيحَتها قُدْرَتها علىٰ ٱلفهم . والرَّيْثُ : المُهل . والأَنَاةُ : التُّؤدة مع الرَّوِيَّة . والتَّباطؤ : التَّأخير . والأَوَدَ : الاِعْوِجَاج . ونَهَجَ : عيَّنَ ، ورَسَم . وبَدَايَا : جَمع بديء أي مَصْنُوع ، أو جَمع بَدِيئَة أي النَّشأة وأَوَّل الحَال . وَفَطَرَهَا : خَلَقَهَا . ورَهَوَاتِ : جَمع رَهْوَة للمَكان المُرْتَفع وللمُنْخَفض أيضاً ، من الأضداد . والفُرَجِ ـ

بضم الفاء وفتح الرّاء ـ جَمع فُرْجَة، وَهِي المَكان الخَالي. وَوَشَّجَ ـ بِتَشدِيد الشّين ـ شَبك. والْأَزْوَاج: الْأَمْثَال. والحُزُونَة: الصُّعُوبَة. والْأَشْرَاج: جَمع الشَّرَج، وهو المَقْبَض والعُرْوَة. والارْتِتَاقِ: الالْتِصَاقِ. قَالَ سُبْحَانَهُ: ﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَٰهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ﴾[1]. وصَوَامِتَ: مُغْلَقَة. والرَّصَد والرَّاصد: المُرَاقِب. والثَّاقِب: المُضيء. والنِّقَاب: جَمع نَقَبْ، وهو الطَّرِيق فِي الجبل. وتَمُور: تَضْطَرب. وبِأَيْدِهِ ـ بسكون الياء ـ بِقُدْرَتِه. والجَوّ: الهَوَاءِ. والفَضَاء: بَيْنَ الأَرْضِ، والسَّماء. والفَلَك: مَدار الكَوْكَب.

الإِعْرَاب:

فَاعِل يَسْتَصْعِبْ ضَمِير مُستتر يعود إِلىٰ مَا خَلَقَ، فَكَيْفَ محلها النَّصب علىٰ الحَال، والعَامل بها مَحْذُوف، وهو من بَاب حَذف الثَانِي لِدَلاَلَة الْأَوَّل عَلَيْهِ أي علىٰ أيّة حالٍ يَسْتَصْعِبْ، والمُنْشِئُ خَبَر المبدأ مَحْذُوف أي هو المُنْشِئ، وأَجْنَاساً نُصب بِنَزع الخَافض، وقيل: حَال، وبَدَايَا صفة لأَجْنَاس، أو خَبَر لمُبْتَدَأ مَحْذُوف أي هِي بَدَايَا، وحُزُونَةَ مَفْعُول ذَلَّلَ، ومحل إِذْ الجر بإِضافة بَعْدَ، وآيَةً مَفْعُول ثانٍ، ومَمْحُوَّةً صفة لآيَةً.

المَعْنىٰ:

(قَدَّرَ مَا خَلَقَ فَأَحْكَمَ تَقْدِيرَهُ). أَرَادَ سُبْحَانَهُ أَنْ يُوجد الخَلاَئِق علىٰ وَضْعٍ مُعيّن،

---

(١) الأنبياء: ٣٠.

فوُجدت كما أَراد، وعلىٰ أَحسن وَجه، وأَكْمَله: ﴿فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾[١]. وفِي روايةٍ: «إنّ سائلاً قَالَ لِلإِمَامِ الرضاﷺ: ما مَعْنَىٰ قَدَرَ؟ قَالَ: تَقْدِير الشّيء من طوله، وعرضه. قَالَ السَّائل: ما مَعْنَىٰ قضىٰ؟ قَالَ الإمَام: إِذَا قضىٰ أَمضاه، فذلك الَّذي لا مَرد لهُ»[٢].

(وَ دَبَّرَهُ فَأَلْطَفَ تَدْبِيرَهُ). التَّدْبِير حُسن التَّصرف، وَلُطْفه أعلىٰ مَراتب الْحسَن، والْمَعْنىٰ ما من شيء فِي الكَوْن من صغيرٍ، أو كبيرٍ إلّا وتشمله عِناية الله. وَلُطْفه فِي التَّدْبِير، والسَّير علىٰ قانون ثابت، وحَكيم إلىٰ غَايَة مُعينة، ومَعْنَىٰ هَذَا أنّ كلّ كائن جُزئياً كَانَ أم كُلّياً فَهُوَ مُفتقر إِلَيْهِ سُبْحَانَهُ تَمَاماً كَما هو مُفتقر إِلَيْهِ فِي أَصل وُجُودِه.

(وَ وَجَّهَهُ لِوِجْهَتِهِ فَلَمْ يَتَعَدَّ حُدُودَ مَنْزِلَتِهِ، وَ لَمْ يَقْصُرْ دُونَ الاِنْتِهَاءِ إِلَىٰ غَايَتِهِ، وَ لَمْ يَسْتَصْعِبْ إِذْ أُمِرَ بِالْمُضِيِّ عَلَىٰ إِرَادَتِهِ، فَكَيْفَ وَ إِنَّمَا صَدَرَتِ الأُمُورُ عَنْ مَشِيئَتِهِ). كلّ شيء خَاضع لمَشِيئَة الله، وإرَادَتِهِ، وَهِي تَسير بِه عَلىٰ نِظام، وإلىٰ غَايَة، ويَتَجلّىٰ بنظام الكَوَاكِب في بُعد بَعْضهَا عن بَعْض بِنسب مُعَيَنة، وفي مقادِير ضوئها، وحرارتها، وضغطها.. والْكَائِنَات الْحَية تنتقل من طور إلىٰ طور حَسب خطة مرسومة، وأخيراً إِلىٰ الْمَوْتِ... أمَّا الْغَايَة من ذَلِكَ فَهِيَ فِي الفَلْسَفَة الهندية إبراز عَظمة الله في قالب حَيّ من صور الخَلِيقَة، وَقَالَ جَماعَة من عُلَمَاء الكَلاَم: «إنّ الْمَصْلَحَة تَعود إلىٰ الْمَخْلُوقَات بالذات»[٣].

---

(١) الْمُؤمِنُون: ١٤.

(٢) أُنظر، الكَافِي: ١/١٥٠ ح ١، شرح أُصول الكَافِي: ٤/٢٦٤ ح ١، تَفْسِير نور الثّقلين: ٤/٣ ح ٩، بحَار الأَنْوار: ٥/١٢٢ ح ٦٨.

(٣) أُنظر، دائرة معارف القرن الْعِشرين: ٢/ ١٦١، موسوعة الأَدْيَان في العَالم، الدّيانات القديمة: ٩٢ نشر دار كريبس أنترناشيونال، ترجمة، وأشراف الدّكتور جمال بن مذكور.

(الْمُنْشِئُ أَصْنَافَ الْأَشْيَاءِ بِلاَ رَوِيَّةِ فِكْرٍ آلَ إِلَيْهَا، وَ لاَ قَرِيحَةِ غَرِيزَةٍ أَضْمَرَ عَلَيْهَا، وَ لاَ تَجْرِبَةٍ أَفَادَهَا مِنْ حَوَادِثِ الدُّهُورِ، وَ لاَ شَرِيكٍ أَعَانَهُ عَلَى ٱبْتِدَاعِ عَجَائِبِ الْأُمُورِ، فَتَمَّ خَلْقُهُ بِأَمْرِهِ، وَ أَذْعَنَ لِطَاعَتِهِ، وَ أَجَابَ إِلَىٰ دَعْوَتِهِ، لَمْ يَعْتَرِضْ دُونَهُ رَيْثُ الْمُبْطِئِ، وَ لاَ أَنَاةُ الْمُتَلَكِّئِ). كما أنّ ذَاته تَعَالَىٰ - بِمَا هِي - سبب كافٍ لوجودها فَهِيَ أيضاً سبب تام للفيض، والإيجاد، يُريد سُبْحَانَهُ فيوجد المُرَاد بلا توسط شيء علىٰ الإطلاَق، سواء أكَانَ الشّيء من نَوْع الْفِكْر، والقَرِيحَة أَم من نَوْع التَّجْرِبَة، والصّنع، أَم غَيْر ذَلِكَ... كَيْفَ؟ وهل يَسْتَعِين بشيء مَن يَخلق الْأَشْيَاء من لا شيء؟. (فَأَقَامَ مِنَ الْأَشْيَاءِ أَوَدَهَا، وَ نَهَجَ حُدُودَهَا). أَنشأ سُبْحَانَهُ المُوجُودَات كَاملة، وعلىٰ مقتضىٰ ٱلْحِكْمَة من جلب الْمَنَافع للخَلق، ودَفع المفاسد عَنْهُمْ.

(وَ لاَءَمَ بِقُدْرَتِهِ بَيْنَ مُتَضَادِّهَا) كالتّلاؤم بَيْنَ النّفس، والبَدن، وتأثير كلّ مِنْهُمَا في الآخر علىٰ ما بَيْنَهما من التّباعد، والتّفاوت طَبيعةً، وآثَاراً، بل لاءَمَ سُبْحَانَهُ بَيْنَ الحُبّ، والبُغض، والرَّأفة، والقَسوة، والحُزْن، والفَرح بالنّظر إلىٰ أَنَّهَا صِفَات لموصوف واحد (وَ وَصَلَ أَسْبَابَ قَرَائِنِهَا). القَرَائِن جَمع قَرين، ويُطلق علىٰ النّفس، والعَشِير، والمُقارن، وَقَالَ الشّيخ مُحَمّد عَبْدَه، وغَيْره: «إنّ المُرَاد بالقَرَائِن هُنا النّفوس، وَهِي من عالم ٱلنُّور، وقد وصل سُبْحَانَهُ بَيْنَهَا وبَيْنَ الأَبْدَان الّتي هِي من عَالم الظُّلمة»[1]... والَّذي نَراه أنّ المُرَاد بها الأشباه، والنَّظائر، وٱلْمَعْنىٰ أنّه، جَلَّت قُدْرَتِهِ، هو الَّذي أَوجد المُقارنة، والمُشابهة بَيْنَ الأَشْيَاء، كما أَوجد المُلاءَمَة بَيْنَ الأضداد في جِهةٍ من الجِهات.

---

(١) أُنظر، شرح نَهْج ٱلْبَلاَغَة: ١٦٦/١.

(وَ فَرَّقَهَا أَجْنَاساً مُخْتَلِفَاتٍ فِي الْحُدُودِ، وَ الْأَقْدَارِ، وَ الْغَرَائِزِ، وَ الْهَيْئَاتِ). لاَ عَد، وَلاَ حَصر للكَائِنَات مَا ٱنقرض مِنْهَا، وما بقي، وَهِي علىٰ أَجناسٍ، وأَنْوَاع، وكلّ جنس يختلف عن غَيْره شكلاً، وَطَبِيعةً، وعُمراً، وحَيَاةً، وحركةً، وسكوناً، ونوراً، وظلاماً (بَدَايَا خَلاَئِقَ أَحْكَمَ صُنْعَهَا). أنّه تَعَالَىٰ يخلق النَّواة، وٱلْبَيْضَة، والنُّطفة، ومن النُّطفة يوجد ٱلْحَيَوَان، ومن ٱلْبَيْضَة يوجد الطير، ومن النَّواة يوجد الشَّجَرَة، توجد هَذِه، وغَيْرها علىٰ أَكمل وَجه، وأَبدع ما يَنْبَغِي أنْ تَكُون، ثُم يمدها سُبْحَانَهُ بِعَونه حَتَّىٰ تُؤَدِّي الْغَايَة المَطلوبة (وَ فَطَرَهَا عَلَىٰ مَا أَرَادَ، وَ ٱبْتَدَعَهَا). أَراد وجودها فوجدت كَمَا قَدر، وأَراد، وعلىٰ غَيْرِ مِثَالٍ سَابق.

وبعد أنْ ذَكر الإِمَامُ عليه السلام خَلق ٱلْكَائِنَات علىٰ سَبيل العُموم، والإِجمال أَشار إِلىٰ خَلق ٱلسَّمَاوَات بقَوْله: (وَ نَظَمَ بِلاَ تَعْلِيقٍ رَهَوَاتِ فُرَجِهَا). الكَوَاكِب قَائِمَة فِي الجَوّ بلا دَعَائِم، وتَعليق، وَهِي مُنظمة تَنظيماً مُحكماً، وكلّ واحد مِنْهَا عبد لوظيفته، ومُسخر لمهمة خَاصَّة، وما من شك أنّ السّبب المُباشر لِذَلِك هو قَوَانِين الطَّبِيعَة، ولكن مَن أَوجد هَذِه القَوَانِين، وأَناط بها سَيْر الكَوَاكِب، وٱستمرارها فِي تَأْدية الوظيفة؟ وَلاَ مَناص أَبَداً من الْقَوْل: إنّ سلسلة الْأَسْبَاب مَهما تَعددت حَلقاتها، فإِنَّهَا تَنْتَهِي لا مَحَالَةَ إِلىٰ المبدأ الْأَوَّل الَّذي لا سبب له وإلّا بقي كلّ شيء فِي طَي العَدم. (وَ لاَحَمَ صُدُوعَ ٱنْفِرَاجِهَا) أي أَلصق أَجزاء الجُرم الواحد بَعْضهَا بِبَعْض.

(وَ وَشَّجَ بَيْنَهَا وَ بَيْنَ أَزْوَاجِهَا). أي جَعل بَيْنَ الكَوَاكِب المُتشابه تجاذباً، وتَماسكاً علىٰ بَيْنهَا من البُعد (وَ ذَلَّلَ لِلْهَابِطِينَ بِأَمْرِهِ، وَ الصَّاعِدِينَ بِأَعْمَالِ خَلْقِهِ، حُزُونَةَ مِعْرَاجِهَا). قَالَ الشَّيخ مُحمّد عَبْدَه: «المُرَاد بالهَابِطِينَ والصَّاعِدِينَ لأَرْوَاح

العلوية، والسُّفلية»[١]، وَقَالَ غَيْره: «المُرَاد بِهِمْ ٱلْمَلاَئِكَة»[٢]. ومهما يَكُن فإنّ الرِّوَايَات عن أَهْلَ ٱلْبَيْتِ عليهم السلام تقول: «إنّ الكَوَاكِب السّماوية مأهولة بالسُّكان حتّى الشّمس، وسنشير إلىٰ بَعْضهَا، وَإِذَا تَعذر علينا نَحْنُ الآدميين أنْ نحيا هناك فلَيْسَ مَعْنَىٰ هَذَا أنّ ٱلْحيَاة ـ بشَتّىٰ أَنْوَاعها ـ مُستحيلة علىٰ الكَوَاكِب، فإنّ الأجسام، والأَرْوَاح تَتَكَيَف بحسب الظّرُوف، والبيئات، كالسّمك يحيا في ٱلْمَاء، والبَطّ فِيهِ وفي البَرّ، وبَعْض ٱلْكَائِنَات ٱلْحَية في الْفَضَاء، وأُخرىٰ في آبار النِّفْط، ومن ٱلْحيَوَانات، وٱلحشَرَات، والطُّيُور ما يَعِيش في منطقة من الأَرْضِ دُونَ أُخرىٰ»[٣]. (نَادَاهَا بَعْدَ إِذْ هِيَ دُخَانٌ، فَٱلْتَحَمَتْ عُرَىٰ أَشْرَاجِهَا). ويشير بِهَذَا إِلىٰ مَادّة الكَوَاكِب، وأَنّهَا كَانَتْ في البدء أَشبه بالدُّخان، أو البُخار، وفي الآية: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ﴾[٤]. ويقرب من هَذَا قَوْل بَعْض عُلَمَاء الطَّبِيعَة: إنّ أَصل الكَوْن مَادّة لطيفة كَانَتْ في الْفَضَاء، وأَسموها بالأَثِير تَارة، وبالسَّديم أُخرىٰ أي الضّباب الرّقيق[٥]. وسبق الكَلاَم عن ذَلِكَ في شرح ٱلخُطْبَة الأُولىٰ. وقَوْله: «فَٱلْتحَمَتْ عُرَىٰ أَشْرَاجِهَا»، مَعناه أنّ أَجزاء الكَوكِب ٱلتّصق بَعْضهَا بِبَعْض، وتَماسك تَمَاماً كَمَا تُمسك عُرْوَة الإبريق بيدك.

(١) أُنظر، شرح نَهْج البَلاَغَة: ١/١٦٦.
(٢) أُنظر، شَرح النّهج لابن أبي الحَدِيد: ٦/٤٢٠.
(٣) أُنظر، تفسير الميزان: ١٠/٣٤٩، بحَار الأَنْوَار: ٥٨/١١٧.
(٤) فُصّلَتْ: ١١.
(٥) أُنظر، القُرآن وإعْجَازه العلمي لمُحَمّد إسْمَاعِيل إبْرَاهِيم: ٥٩ ـ ٦١.

(وَ فَتَقَ بَعْدَ الارْتِتَاقِ صَـوَامِتَ أَبْـوَابِـهَا). يُشـير إِلىٰ الآيَـة: ﴿أَنَّ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَـٰهُمَا﴾[١]. فَتَقَ سُبْحَانَهُ ٱلسَّماَء بالْمَطَرِ، والأَرْضِ بالنَّبَات، ويَنَابِيع ٱلْمَاء والنِّفْط (وَ أَقَامَ رَصَداً مِنَ الشُّهُبِ الثَّوَاقِبِ عَلَىٰ نِقَابِهَا). قَالَ الشَّيخ مُحَمَّد عَبْدَه: «كون الرَّصَد من الشُّهُبِ فِي أَصل تكوين الخَلقة كمَا قَالَ الإِمَام ـ دَلِيل علىٰ ما أَثبته ٱلْعِلْم من أنّ الشُّهُب مُغذيات لبعض أَجرام الكَوَاكِب بِمَا نَظمه لها من التَّفَاتق، فما نَقَبَ، وخَرَق من جُرم عوض بالشِّهاب، وذَلِكَ أمر آخر غَيْر ما جاء فِي ٱلْكِتَاب العزيز»[٢].

(وَ أَمْسَكَهَا مِنْ أَنْ تُمُورَ فِي خَرْقِ الْهَوَاءِ بِأَيْدِهِ) أي بقُدْرَتِهِ سُبْحَانَهُ أَنّه خَلَقَ فِي الكَوَاكِب خَصَائِص ثابتة، وبواسطتها يَدُور الكَوكَب فِي فَلكه، وَلاَ يتجاوز الحَدّ المُقرر له، ولَوْلاَ ذَلِكَ لاِضْطَرَب، وٱنْهَارَ. وفِي الآيَة أَطلق سُبْحَانَهُ كَلِمَة أَيْدِينَا علىٰ الْأَسْبَاب الكَوْنية: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَآ أَنْعَـٰمًا فَهُمْ لَهَا مَـٰلِكُونَ﴾[٣]. (وَ أَمَرَهَا أَنْ تَقِفَ مُسْتَسْلِمَةً لأَمْرِهِ). كناية عن كَمال قُدْرَتِهِ، ووقُوع مُراده (وَ جَعَلَ شَمْسَهَا آيَةً مُبْصِرَةً لِنَهَارِهَا). إِشَارَة إِلىٰ قَوْله تَعَالىٰ: ﴿وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ءَايَتَيْنِ فَمَحَوْنَآ ءَايَةَ ٱلَّيْلِ وَجَعَلْنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبْصِرَةً لِّتَبْتَغُوا فَضْلاً مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ وَكُلَّ شَيْءٍ فَصَّلْنَـٰهُ تَفْصِيلاً﴾[٤] أي نَيِّرة تَكشـف كلّ شيء للأبصار (وَ قَمَرَهَا آيَةً مَمْحُوَّةً مِنْ لَيْلِهَا) يُمحىٰ ضَوء ٱلْـقَمَر فِي الطـرف

(١) ٱلْأَنْبِيَاء: ٣٠.
(٢) أنظر، شرح نَهج ٱلْبَلاَغَة: ١٦٧/١.
(٣) سُورَةُ يس: ٧١.
(٤) ٱلإِسْرَاء: ١٢.

الأَوَّل والأخير من ليالي الشَّهر.

(وَ أَجْرَاهُمَا فِي مَنَاقِلِ مَجْرَاهُمَا، وَ قَدَّرَ سَيْرَهُمَا فِي مَدَارِجِ دَرَجِهِمَا). ضَمير التَّثنية يعود إِلىٰ الشّمس، وٱلقَمَرِ، وهو أَقْرَب الأَجْرَام السّماوية إِلىٰ الأَرْضِ، وتَقطع الشّمس فلكَها أي مَدارها في سَنَة، وٱلْقَمَر في شهر كانا كَذٰلِكَ منذُ مَلايين السّنين، ويَبقيان عَلَيْهِ إِلىٰ مَا شَاء الله، وإِنْ دَل هَذَا الضّبط علىٰ شيء فإِنّما يَدل علىٰ القَصد والتَّصميم (لِيُمَيِّزَ بَيْنَ اللَّيْلِ وَ النَّهَارِ بِهِمَا، وَ لِيُعْلَمَ عَدَدُ السِّنِينَ وَ الْحِسَابُ بِمَقَادِيرِهِمَا). الشّمس تعرّفنا بالْيَوْم، وٱلْقَمَر بالشّهر، ومتىٰ عرفنا السَّنة، وتَكَلَّمنا عن ذٰلِكَ بنحو من التَّفصيل [1].

(ثُمَّ عَلَّقَ فِي جَوِّهَا فَلَكَهَا). الْمُرَاد بالتَّعليق هُنا جَذب الكَوَاكِب بَعْضها البَعض، وبالجَوّ الْهَوَاء، والْفَضَاء ما بَيْنَ الأَرْضِ، وٱلسَّمَاء، وبالفَلك المَدار، وٱلْمَعْنىٰ أَنّ الله سُبْحَانَهُ وضع كلّ كوكب في مَكانه اللائق بِه، وبحركاته ليؤدي الغرض المُسخر له (وَ نَاطَ بِهَا زِينَتَهَا، مِنْ خَفِيَّاتِ دَرَارِيِّهَا، وَ مَصَابِيحِ كَوَاكِبِهَا). الْمُرَاد بخَفِيَّاتِ الدَّرَارِي ٱلنُّجُومُ الصّغار، وبالكَوَاكِب الْكَبِيرة الْمُضيئة. ومن هَذِه، وتِلْكَ يَكون ٱلنُّور، والجَمال (وَرَمَىٰ مُسْتَرِقِي السَّمْعِ بِثَوَاقِبِ شُهُبِهَا). لعلّه كِناية أَنّ سكان الأَرْضِ لا يَعْرفُون شَيْئاً عن سُكان الكَوَاكِب الأُخرىٰ، كما أَنّ هَؤُلاَء لا يَعْرفُون شَيْئاً عن سكان الأَرْضِ، فقد نقل عن الإِمَام الصادق عليه السلام أَنّه قَالَ: «مِن وَرَاءِ شَمسكم هَذِه أَرْبَعُون شمساً، ما بَيْنَ شمس إِلىٰ شمس أَرْبَعُون عَامَاً فيها خلق كَثِير، ومن وَرَاءِ قمركم هَذَا أَرْبَعُون قمراً ما بَيْنَ ٱلْقَمَر إِلىٰ ٱلْقَمَر أَرْبَعُون عَامَاً فيها خلق

(١) أُنظر، «التَّفسِير الكاشف»: ٤/ ٣٩ عند تَفْسِير الآيَة «٣٦» من سُورَة ٱلتَّوْبَة.

كَثِير لا يدرون أنّ الله خَلق آدَمَ أَم لم يَخلقه»[1]، بل في ٱلْقُرْآن ما يُومىء إِلىٰ ذَلِكَ، قَالَ سُبْحَانَهُ: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِن دَآبَّةٍ وَهُوَ عَلَىٰ جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَآءُ قَدِيرٌ﴾[2] أي في ٱلسَّمَاوَات، والأَرْضِ.

(وَ أَجْرَاهَا عَلَىٰ أَذْلَالِ تَسْخِيرِهَا مِنْ ثَبَاتِ ثَابِتِهَا، وَ مَسِيرِ سَائِرِهَا). المُرَاد بالإذْلاَلِ الطَّرِيق، وبالسَائِرِ مَا يَدُور حَول كَوكَب آخر. والْمَعْنىٰ أنّ الكَوَاكِب ـ بِشَتَّىٰ أَنْوَاعها ـ تَسير علىٰ هدىً من الله حَيْث رَبطها سُبْحَانَهُ برابط وثيق من سُنن الكَوْن، ونظامه (وَ هُبُوطِهَا، وَ صُعُودِهَا) في رؤية الْعَيْن لا في الوَاقِع كَقولنا: أَشرقت الشَّمس، وَنَزلتْ في البَحر (وَ نُحُوسِهَا) حَيْث يَسقط مِنْهَا بَعْض النَّيازك أحيَاناً علىٰ الأَرْضِ، وَتَحدث بَعْض الأضرَار (وَ سُعُودِهَا) بِمَا لهَا من الفوَائد كالضّوء، ونَحْوَه، وقد تَقَدَّم «أنّ الإِمَام عليه السلام نَهىٰ عن التَّنبؤ بالنّحوس، والسّعود عن طرِيق ٱلنُّجُومُ»[3].

خَلاَئِق مَعْصُومُون...فِقْرَة ١٣ ـ ١٦:

ثُمَّ خَلَقَ سُبْحَانَهُ لإِسْكَانِ سَمَاوَاتِهِ، وَ عِمَارَةِ الصَّفِيحِ الأَعْلَىٰ مِنْ مَلَكُوتِهِ، خَلْقاً بَدِيعاً مِنْ مَلاَئِكَتِهِ، وَ مَلأَ بِهِمْ فُرُوجَ فِجَاجِهَا، وَ حَشَا بِهِمْ فُتُوقَ أَجْوَائِهَا، وَ بَيْنَ فَجَوَاتِ تِلْكَ الْفُرُوجِ زَجَلُ الْمُسَبِّحِينَ مِنْهُمْ فِي حَظَائِرِ الْقُدُسِ، وَ سُتُرَاتِ الْحُجُبِ،

---

(١) أُنظر، بصائر الدّرجَات: ٥١٣ ح ٩، مختصر بصائر الدّرجَات: ١٢، بحَار الأَنْوَار: ٤٥/٢٧ ح ٦، مُسْتَدرَك سفينة ٱلْبِحَار: ٤٩/٦، تَفْسِير البرهان: ٢٢١/٢.

(٢) ٱلشُّورَىٰ: ٢٩.

(٣) أُنظر، شرح ٱلخُطْبَةُ (٧٩).

وَ سُرَادِقَاتِ الْمَجْدِ، وَ وَرَاءَ ذَلِكَ الرَّجِيجِ الَّذِي تَسْتَكُّ مِنْهُ الْأَسْمَاعُ سُبُحَاتُ نُورٍ تَرْدَعُ الْأَبْصَارَ عَنْ بُلُوغِهَا، فَتَقِفُ خَاسِئَةً عَلَىٰ حُدُودِهَا(١٣). وَ أَنْشَأَهُمْ عَلَىٰ صُوَرٍ مُخْتَلِفَاتٍ، وَ أَقْدَارٍ مُتَفَاوِتَاتٍ، ﴿أُولِي أَجْنِحَةٍ﴾[1] تُسَبِّحُ جَلاَلَ عِزَّتِهِ، لاَ يَنْتَحِلُونَ مَا ظَهَرَ فِي الْخَلْقِ مِنْ صُنْعِهِ، وَ لاَ يَدَّعُونَ أَنَّهُمْ يَخْلُقُونَ شَيْئاً مَعَهُ مِمَّا ٱنْفَرَدَ بِهِ، ﴿بَلْ عِبَادٌ مُكْرَمُونَ لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَ هُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ﴾[2] جَعَلَهُمُ اللهُ فِيمَا هُنَالِكَ أَهْلَ الْأَمَانَةِ عَلَىٰ وَحْيِهِ، وَ حَمَّلَهُمْ إِلَىٰ الْمُرْسَلِينَ وَدَائِعَ أَمْرِهِ، وَ نَهْيِهِ، وَعَصَمَهُمْ مِنْ رَيْبِ الشُّبُهَاتِ، فَمَا مِنْهُمْ زَائِغٌ عَنْ سَبِيلِ مَرْضَاتِهِ. وَ أَمَدَّهُمْ بِفَوَائِدِ الْمَعُونَةِ، وَ أَشْعَرَ قُلُوبَهُمْ تَوَاضُعَ إِخْبَاتِ السَّكِينَةِ، وَ فَتَحَ لَهُمْ أَبْوَاباً ذُلُلاً إِلَىٰ تَمَاجِيدِهِ، وَ نَصَبَ لَهُمْ مَنَاراً وَاضِحَةً عَلَىٰ أَعْلاَمِ تَوْحِيدِهِ(١٤). لَمْ تُثْقِلْهُمْ مُؤْصِرَاتُ الآثَامِ، وَ لَمْ تَرْتَحِلْهُمْ عُقَبُ اللَّيَالِي، وَ الْأَيَّامِ، وَ لَمْ تَرْمِ الشُّكُوكُ بِنَوَازِعِهَا عَزِيمَةَ إِيمَانِهِمْ، وَ لَمْ تَعْتَرِكِ الظُّنُونُ عَلَىٰ مَعَاقِدِ يَقِينِهِمْ، وَ لاَ قَدَحَتْ قَادِحَةُ الْإِحَنِ فِيمَا بَيْنَهُمْ، وَ لاَ سَلَبَتْهُمُ الْحَيْرَةُ مَا لاَقَ مِنْ مَعْرِفَتِهِ بِضَمَائِرِهِمْ، وَ مَا سَكَنَ مِنْ عَظَمَتِهِ، وَ هَيْبَةِ جَلاَلَتِهِ فِي أَثْنَاءِ صُدُورِهِمْ، وَ لَمْ تَطْمَعْ فِيهِمُ الْوَسَاوِسُ فَتَقْتَرِعَ بِرَيْنِهَا عَلَىٰ فِكْرِهِمْ(١٥). وَ مِنْهُمْ مَنْ هُوَ فِي خَلْقِ الْغَمَامِ الدُّلَّحِ، وَ فِي عِظَمِ الْجِبَالِ الشُّمَّخِ، وَ فِي قَتْرَةِ الظَّلاَمِ الْأَيْهَمِ، وَ مِنْهُمْ مَنْ قَدْ خَرَقَتْ أَقْدَامُهُمْ تُخُومَ الْأَرْضِ السُّفْلَىٰ، فَهِيَ كَرَايَاتٍ بِيضٍ قَدْ نَفَذَتْ فِي مَخَارِقِ الْهَوَاءِ، وَتَحْتَهَا رِيحٌ هَفَّافَةٌ تَحْبِسُهَا عَلَىٰ حَيْثُ ٱنْتَهَتْ مِنَ الْحُدُودِ الْمُتَنَاهِيَةِ، قَدِ ٱسْتَفْرَغَتْهُمْ أَشْغَالُ عِبَادَتِهِ، وَ وَصَلَتْ حَقَائِقُ الْإِيمَانِ بَيْنَهُمْ، وَ بَيْنَ مَعْرِفَتِهِ، وَقَطَعَهُمُ الْإِيقَانُ بِهِ إِلَىٰ الْوَلَهِ إِلَيْهِ(١٦).

---

(١) فَاطِر: ١.

(٢) الأَنْبِيَاء: ٢٦ ـ ٢٧.

اللُّغَة:

العِمَارَةِ: الأَهِلة بالسّكان، من عَمرَ المنزل بأهله. والصَّفِيحِ: اَلسَّمَاء. والمَلَكُوتِ: السُّلطان. والْفُرُوجِ: جمع فُرُج، وهو الفُراغ بَيْنَ شيئين. والفِجَاجِ: فَجّ الطَّريق الوَاسع الْوَاضِح بَيْنَ جَبلين. والزَّجَلُ: رَفع الصَّوْت. وحَظَائِرِ الْقُدُسِ: أَمكنة الطُّهر من الرِّجس، وحَظِيرَة الْقُدُسِ اَلجَنّة. وسُتُرَاتِ: مِنْ اَلسِّتر. السُّرادِقَاتِ: جَمع السُّرَادِق، وهو اَلْخَيْمَة تُمد فوق صَحن الدَّار. والرَّجِيجِ: الاِضْطِرَاب. وتَسْتَكُّ: تَصَمُ. والْمُرَاد بسُبُحَاتُ اَلنُّور هُنا طَبقَاته. والإِخْبَاتِ: الْخُشوع، والتَّواضع. والسَّكينة: الوقَار، والطُّمَأْنِينَة. وذُلُلاً: سَهلة هَينة. وتَمَاجِيدِ: جَمع تَمجِيدِ. والمُؤْصِرَاتُ: المُثقلاَت. وَلَمْ تَرْتَحِلْهُمْ: لَمْ يُشد عَلَيْهِمْ الرَّحل للركوب كَمَا يُشد علىٰ البَعِير. وعُقَبُ: من تعاقب اَللَّيْل، والنَّهار. ومَعَاقِدِ اليَقِينِ: إبرامه، وأَحْكَامه ضد الحل. والْإِحَنِ: الضَّغائن، والأحقاد. والْمُرَاد بِمَا مَا لاَقَ ما نَبت. وتَقْتَرِعُ: مِن القُرعة. والرَّيْن: الدَّنس. والدُّلَّحِ: جَمع دَالّح أي الثَّقيل بِاَلْمَاء من اَلسَّحَاب. والشُّمَّخ: جَمع الشَّامِخ. والْمُرَاد بالقَتْرَةِ هُنا الْخَفَاء. والأَيْهَمِ: الأسود، أو الأعجم. وتُخُومَ الْأَرْضِ حدودها. وكَرَايَاتِ: الكَاف للتَّشبيه، ورَايَات جَمع رَايَة. وهَفَّافَةٌ: طَيِّبَة سَاكنة. والْوَلَه: شِدة الْحُزْن، والوَجد.

الإِعْرَاب:

وَ بَيْنَ فَجَوَاتِ خَبرَ مُقَدَّم، وزَجل مُبْتَدأ مُؤَخَّر، وَرَاءَ ذٰلِكَ خَبرَ مُقَدَّم، وسُبُحَاتُ مُبْتَدَأ مُؤَخَّر، وفِي تَقَف ضَمِير يَعود إِلىٰ الأَبْصَارِ، وخَاسِئة حَال مِنْهُ، وأُولِي أَجْنِحَةٍ حَال من مَفْعُول أَنْشَأَهُمْ، و «فِيهَا» خَبرَ مُقَدَّم، وهُنَالِكَ مُبْتَدأ مُؤَخَّر،

وتَوَاضُعَ مَفْعُول ثانٍ لأَشْعَرَ، ومَنَاراً أي عَلامة، أو أدِلَّة، ومن أَجل هَـذا وصْـفُها بواضحة، ومَا لاَقَ «مَا» آسم مَوْصُول مَـفْعُول سَـلَبَتْهُمُ، فَـتَقْتَرِعَ مَـنصوب بأَنْ مُضمرة بَعد الفاء.

اَلْغَيْب:

تَكَلَّم الإِمَامعليه السلام هنا، وفي الْمَقْطَعِ الآتي عن ٱلْمَلاَئِكَة. وَلاَ شك أَنّ الْحَدِيث عَنْهُمْ وعن الْجِنِّ حَدِيث عن ٱلْغَيْب، وأيضاً لا شك أنّ الإِيمَان بِٱلْغَيْب ينبع من الْـقَلْب، وَلاَ يمكن إقامة الدَّلِيل عَلَيْهِ من ٱلْحِسّ سَلباً، وَلاَ إِيجَاباً، أمَا ٱلْـعَقْل فـإِنَّه لا يأبىٰ ٱلْغَيْب ما دام مُمكناً في ذاته، وإنْ آمتنع عرفاً، وعادةً ﴿مَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُۥ وَمَنْ عَمِلَ صَـٰلِحًا فَلِأَنفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ﴾[1] وَلاَ يَضُرّ ٱلْحَق شَيْئاً... ونَحْنُ مَـع كـتاب الله الَّذي آعتبر الإِيمَان بِٱلْغَيْب شَرطاً أَسَاسِياً في الدِّين، وقُوَّة في الْيَقِين، والثِّقَة بـالله تتحكم في عواطف ٱلإِنْسَان، ومشاعره، وفي كَثِير مـن أَقْـوَاله، وأفـعاله. ومـن البديهة أنّ الإِمَام خاطب بكلامه هَذَا الذين يُؤْمِنُون بِٱلْغَيْب، أمّا مَنْ كَفَرَ، وَجَحَد فقد خَاطبه بمنطق ٱلْحِس، وٱلْعَقْل في الكَثِير من خُطَبِهِ، ومواقفه.

الْمَعْنىٰ:

(ثُمَّ خَلَقَ سُبْحَانَهُ لإِسْكَانِ سَمَاوَاتِهِ، وَعِمَارَةِ الصَّفِيحِ الأَعْلَىٰ مِنْ مَلَكُوتِهِ، خَلْقاً بَدِيعاً مِنْ مَلاَئِكَتِهِ). يَدل ظاهر هَذَا الكَلاَم أنّ في ٱلسَّمَاء مَلاَئِكَة تَسكن فِي بَعْض

(١) ٱلرُّوم: ٤٤.

الكَوَاكِب، وَهَذَا هو مَذْهَب أَهْل ٱلْبَيْت عليهم السلام فـقد روىٰ عَـنْهُمْ (الشَّهـ
كتاب (ٱلْهِيئة وٱلإِسْلاَم): «إنّ الله سُبْحَانَهُ خَلق أَلف أَلف عـالم، وأَلف
وإنّ سكان هَذِه الأَرْضِ هو آخر الآدميين»[1]. وفي روايةٍ ثَانِيَة: «إنّ أُ
مَا عَصوا الله طَرفة عَين قطّ، وَلاَ عَرفوا آدَمَ، وولد آدَمَ»[2]. وفي ثالثة
أَكْثَر من عدد الْجِنِّ، والإِنْسِ»[3].

(وَ مَلأَ بِهِمْ فُرُوجَ فِجَاجِهَا، وَ حَشَا بِهِمْ فُتُوقَ أَجْوَائِهَا). هَذَا كناية عر
ٱلْمَلاَئِكَة (وَ بَيْنَ فَجَوَاتِ تِلْكَ الْفُرُوجِ زَجَلُ الْمُسَبِّحِينَ مِنْهُمْ) يَـرفعون
بالتَّسبيح، والتَّحميد (فِي حَظَائِرِ الْقُدُسِ) وَهِي أماكن مَا عصي الله فـ
للجَنَّة: حَظِيرَة الْقُدُسِ (وَ سُتُرَاتِ الْحُجُبِ) بَيْنَ ٱلْمَلاَئِكَة، وغَيْرهم من
سُرَادِقَاتِ الْمَجْدِ) حَيْث لا كُفْر، وَلاَ مَعْصِيَة، وَلاَ ظُلم، وهَوان، وَلاَ فَق
وَلاَ مَرض، وفَساد (وَ وَرَاءَ ذَلِكَ الرَّجِيجِ الَّذِي تَسْتَكُّ مِنْهُ الأَسْمَاعُ سُبُ
تَرْدَعُ الأَبْصَارَ عَنْ بُلُوغِهَا، فَتَقِفُ خَاسِئَةً عَلَىٰ حُدُودِهَا). أي دُونَ ٱلْمَـا
يَخطف الأَبْصَار، وهو كناية أنّ الآدميين لا يَرون ٱلْمَـلاَئِكَة، ومـن أدع
أحدَهم فَهُوَ من الكَاذبَيْنَ إلاّ من آرتضىٰ سُبْحَانَهُ من رَسُول.

(وَ أَنْشَأَهُمْ عَلَىٰ صُوَرٍ مُخْتَلِفَاتٍ) سَواداً، وبَياضاً، ونُسوراً، وآساد

(١) أُنظر، علم الهيئة وٱلإِسْلاَم: ١٥٤ (مِنْهُ ﷺ)، وقَرِيب مِنْهُ في الخِصَال للشـيخ الصـدوق: ٢
الصدوق: ٢٧٧، بحَار الأَنْوَار: ٣٧٥/٨ ح ٣، تَفْسِير البرهان: ٢٨٩/٣.

(٢) أَنظر، المصادر السابقة، والكَـافِي: ٢٣١/٨ ح ٣٠٠، شرح أُصـول الكَـافي: ٣١١/١٢، ٤
٣١٥/٥٤ ح ٢١.

هُو أَعلم (وَ أَقْدَارٍ مُتَفَاوِتَاتٍ) حَجماً، وَوَزناً (أُولِي أَجْنِحَةٍ تُسَبِّحُ جَلاَلَ عِـزَّتِهِ). إِشَارَةً إِلىٰ قَوْله تَعَالىٰ: ﴿جَاعِلِ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ رُسُلاً أُوْلِىٓ أَجْنِحَةٍ مَّثْنَىٰ وَثُلَـٰثَ وَرُبَـٰعَ يَزِيدُ فِى ٱلْخَلْقِ مَا يَشَآءُ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾[1]. ونسبة التَّسبيِّح إِلىٰ الأَجْنِحَة من بَاب: ﴿وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَـٰكِن لَّاتَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾[2]. (لاَ يَنْتَحِلُونَ مَا ظَهَرَ فِي الْخَلْقِ مِنْ صُنْعِهِ، وَ لاَ يَدَّعُونَ أَنَّهُمْ يَـخْلُقُونَ شَيْئاً مَعَهُ مِمَّا ٱنْفَرَدَ بِهِ، ﴿بَلْ عِبَادٌ مُكْرَمُونَ لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ﴾). أبداً لا رِياء، وَلاَ ٱفترَاء الْكَذِب بأَنّهم الْخَالِقُون الرَّازقون كما يُنسب إِلَيْهِمْ الْجَاهِل، والْمُشرك.. أَنّهم خلائق مَربوبون، ولأَمرِ الله مُمتثلون.

(جَعَلَهُمُ اللهُ فِيمَا هُنَالِكَ أَهْلَ الْأَمَانَةِ عَلَىٰ وَحْيِه، وَ حَمَّلَهُمْ إِلَىٰ الْمُرْسَلِينَ وَدَائِعَ أَمْرِهِ، وَ نَهْيِه). ٱختار سُبْحَانَهُ مِنْهُم رُسلاً إِلىٰ أَنْبِيَائه كَمَا قَالَ: ﴿ٱللَّهُ يَصْطَفِى مِنَ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ رُسُلاً وَمِنَ ٱلنَّاسِ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ﴾[3]. (وَعَصَمَهُمْ مِنْ رَيْبِ الشُّبُهَاتِ) لا يشكُون في شيء مِمَّا أَمر الله بِه، ونهىٰ عَنْه (فَمَا مِنْهُمْ زَائِغٌ عَنْ سَبِيلِ مَرْضَاتِهِ) دَائبُون علىٰ طَاعَة الله (وَ أَمَدَّهُمْ بِفَوَائِدِ الْمَعُونَةِ) وَهِي ٱلعِلْم، والْقُدْرَة علىٰ ٱلعَمَل بِمَا يُرضِيه (وَ أَشْعَرَ قُلُوبَهُمْ تَوَاضُعَ إِخْبَاتِ السَّكِينَةِ). مَهد لهم سَبيل الخضُوع له، والثِّقَة بِه (وَ فَتَحَ لَهُمْ أَبْوَاباً ذُلُلاً إِلَىٰ تَمَاجِيدِهِ). أَيضاً فَتح لهم أَبْوَاب تعظيمه، والثَّناء عَلَيْه (وَ نَصَبَ لَهُمْ مَنَاراً وَاضِحَةً عَلَىٰ أَعْلاَمِ تَوْحِيدِهِ). أَقام لهم ٱلأَدِلَّة الْوَاضِحَة علىٰ وحدَانيته، وعَظَمَته.

---

(١) فَاطِر: ١.
(٢) ٱلإِسْرَاء: ٤٤.
(٣) ٱلحَجّ: ٧٥.

(لَمْ تُثْقِلْهُمْ مُوْصِرَاتُ الآثَامِ). لا سَبِيل إِلىٰ الآثَام، والإِجْرَام في عَالم المَلاَئِكَة حَيْث لا مَال، وسُلطان، وَلاَ أهوَاء، وشهوَات... لا شيء إلّا المُناجاة، والصّلوات (وَ لَمْ تَرْتَحِلْهُمْ عُقَبُ اللَّيَالِي، وَ الْأَيَّامِ). لا هَرم، وَلاَ سُقم مهمَا تعَاقبت الدُّهـور، وكَرت العصُور، حَيْث لا طعَام، وَلاَ شرَاب، وَلاَ جِنس، فمن أيـن تَأتي الآلاَم، والأَسْقَام؟ (وَ لَمْ تَرْمِ الشُّكُوكُ بِنَوَازِعِهَا عَزِيمَةَ إِيمَانِهِمْ، وَ لَمْ تَعْتَرِكِ الظُّنُونُ عَلَىٰ مَعَاقِدِ يَقِينِهِمْ). نوازع الشُّكُوكُ دوافعها، وعَزِيمَة الإِيمَان الثَّبات عَلَيْهِ مهما تكن النَّتائج، ومَعَاقِدِ الْيَقِين إبرامه، وإحْكَامه، والمَعْنىٰ أنّ إيمَانِهِمْ بالله قوي، ومتين لا يهزّه ظَنٌّ، وَلاَ رَيبٌ (وَ لاَ قَدَحَتْ قَادِحَةُ الْإِحَنِ فِيمَا بَيْنَهُمْ). لا عداء، وبغضاء، بل إِخْوَان صِدق، ومحَبَّة، وعلىٰ أي شيء يَتباغضُون؟ علىٰ رِبح، أو مِيراث؟.

(وَ لاَ سَلَبَتْهُمُ الْحَيْرَةُ مَا لاَقَ مِنْ مَعْرِفَتِهِ بِضَمَائِرِهِمْ، وَ مَا سَكَنَ مِنْ عَظَمَتِهِ، وَ هَيْبَةِ جَلاَلَتِهِ فِي أَثْنَاءِ صُدُورِهِمْ، وَ لَمْ تَطْمَعْ فِيهِمُ الْوَسَاوِسُ فَتَقْتَرِعَ بِرَيْنِهَا عَلَىٰ فِكْرِهِمْ). هذَا عَطف تَفْسِير علىٰ ما قَبله، لأنّ مَعناه أنّهم لَيْسوا في حَيْرَة من وجود الله، وعَظمَته، ومِن أين تَأتي الحَيْرَة؟ وقُلُوبهُمْ أصفىٰ من الصّفاء، وعُقُولهم نـورٌ، وبهاءٌ (وَ مِنْهُمْ مَنْ هُوَ فِي خَلْقِ الْغَمَامِ الدُّلَّحِ) أي أنّ بعْض المَلاَئِكَة في خـلقته كالسَّحَاب الثّقيل بالمَاء (وَ فِي عِظَمِ الْجِبَالِ الشُّمَّخِ) مثل الجِبَال الشّامخة (وَ فِي قَتْرَةِ الظَّلاَمِ الْأَيْهَمِ) أي كاللَّيْل في سَواده.

(وَ مِنْهُمْ مَنْ قَدْ خَرَقَتْ أَقْدَامُهُمْ تُخُومَ الْأَرْضِ السُّفْلَىٰ، فَهِيَ كَرَايَاتٍ بِيضٍ قَدْ نَفَذَتْ فِي مَخَارِقِ الْهَوَاءِ، وَ تَحْتَهَا رِيحٌ هَفَّافَةٌ تَحْبِسُهَا عَلَىٰ حَيْثُ انْتَهَتْ مِنَ الْحُدُودِ الْمُتَنَاهِيَةِ). أي هُناك صنف من المَلاَئِكَة مفرط في الطُّول، ولهُم أقدام بيض كالأعلاَم يمدونها من العُلو، فَتَهبط لاَ يَصدها شيء حَتّىٰ إذا بَلغت حدُود الأَرْض

الّتي لا أرض تحتها ـ وقفت الأَقْدَام، ومَنعتها من الهبُوط ريح سَاكنة... هَذَا ما دل عَلَيْهِ ظَاهر الكَلاَم، وقيل: المُرَاد بـالأَقْدَام هُـنا عِـلم ٱلمَـلاَئِكَة بأقـطار الأَرْضِ ونهايتها!... وَلاَ داعي لِهَذَا التَّأويل، وغَيْره ما دَام ٱلعَقْل لا يَرفض الظَّاهِر.

(قَدِ ٱسْتَفْرَغَتْهُمْ أَشْغَالُ عِبَادَتِهِ). تَفرغوا للْعِبَادَةِ حَيْث لا زِرَاعة، وَلاَ صِنَاعة، ولاَ تِجَارة... أَبَداً لاَ شيء إلّا الذكر، فَهُوَ وَحده شُغلهم الشّاغل (وَ وَصَلَتْ حَقَائِقُ الْإِيمَانِ بَيْنَهُمْ، وَ بَيْنَ مَعْرِفَتِهِ). وبِهَذِهِ ٱلْمَعْرِفَة بالله، والصّلة بَيْنَهم، وبينه سُبْحَانَهُ ـ سَعَادَتهم، سُرُورُهُمْ، وَ نَعِيمُهُمْ (وَقَطَعَهُمُ الْإِيقَانُ بِهِ إِلَىٰ الْوَلَهِ إِلَيْهِ). أنّ إِيمَانهمْ بالله، وإخلاصهم له صرفهم عن كلّ شيء إلّا عن التَّوجه إلىٰ الله لا إله إلّا هو.

حَلاَوَة ٱلْمَعْرِفَة... فِقْرَة ١٧ ـ ٢٠:

وَ لَمْ تُجَاوِزْ رَغَبَاتُهُمْ مَا عِنْدَهُ إِلَىٰ مَا عِنْدَ غَيْرِهِ. قَدْ ذَاقُوا حَلاَوَةَ مَعْرِفَتِهِ، وَ شَرِبُوا بِالْكَأْسِ الرَّوِيَّةِ مِنْ مَحَبَّتِهِ، وَ تَمَكَّنَتْ مِنْ سُوَيْدَاءِ قُلُوبِهِمْ وَشِيجَةُ خِيفَتِهِ، فَحَنَوْا بِطُولِ الطَّاعَةِ ٱعْتِدَالَ ظُهُورِهِمْ، وَ لَمْ يُنْفِدْ طُولُ الرَّغْبَةِ إِلَيْهِ مَادَّةَ تَضَرُّعِهِمْ، وَ لاَ أَطْلَقَ عَنْهُمْ عَظِيمُ الزُّلْفَةِ رِبَقَ خُشُوعِهِمْ، وَ لَمْ يَتَوَلَّهُمُ الْإِعْجَابُ فَيَسْتَكْثِرُوا مَا سَلَفَ مِنْهُمْ، وَ لاَ تَرَكَتْ لَهُمُ ٱسْتِكَانَةُ الْإِجْلاَلِ نَصِيباً فِي تَعْظِيمِ حَسَنَاتِهِمْ(١٧). وَلَمْ تَجْرِ الْفَتَرَاتُ فِيهِمْ عَلَىٰ طُولِ دُءُوبِهِمْ، وَ لَمْ تَغِضْ رَغَبَاتُهُمْ فَيُخَالِفُوا عَنْ رَجَاءِ رَبِّهِمْ، وَ لَمْ تَجِفَّ لِطُولِ الْمُنَاجَاةِ أَسَلاَتُ أَلْسِنَتِهِمْ، وَ لاَ مَلَكَتْهُمُ الْأَشْغَالُ فَتَنْقَطِعَ بِهَمْسِ الْجُؤَارِ إِلَيْهِ أَصْوَاتُهُمْ، وَ لَمْ تَخْتَلِفْ فِي مَقَاوِمِ الطَّاعَةِ مَنَاكِبُهُمْ، وَ لَمْ يَثْنُوا إِلَىٰ رَاحَةِ التَّقْصِيرِ فِي أَمْرِهِ رِقَابَهُمْ. وَ لاَ تَعْدُو عَلَىٰ عَزِيمَةِ جِدِّهِمْ بَلاَدَةُ الْغَفَلاَتِ، وَ لاَ تَنْتَضِلُ فِي هِمَمِهِمْ خَدَائِعُ الشَّهَوَاتِ(١٨). قَدِ ٱتَّخَذُوا ذَا الْعَرْشِ ذَخِيرَةً لِيَوْمِ

فَاقَتِهِمْ، وَ يَمَّمُوهُ عِنْدَ انْقِطَاعِ الْخَلْقِ إِلَى الْمَخْلُوقِينَ بِرَغْبَتِهِمْ، لاَ يَقْطَعُونَ أَمَدَ غَايَةِ عِبَادَتِهِ، وَ لاَ يَرْجِعُ بِهِمُ الاِسْتِهْتَارُ بِلُزُومِ طَاعَتِهِ، إِلاَّ إِلَى مَوَادَّ مِنْ قُلُوبِهِمْ غَيْرِ مُنْقَطِعَةٍ مِنْ رَجَائِهِ، وَ مَخَافَتِهِ، لَمْ تَنْقَطِعْ أَسْبَابُ الشَّفَقَةِ مِنْهُمْ، فَيَنُوا فِي جِدِّهِمْ، وَ لَمْ تَأْسِرْهُمُ الأَطْمَاعُ فَيُؤْثِرُوا وَشِيكَ السَّعْيِ عَلَى اجْتِهَادِهِمْ. لَمْ يَسْتَعْظِمُوا مَا مَضَى مِنْ أَعْمَالِهِمْ[١٩]. وَ لَوِ اسْتَعْظَمُوا ذَلِكَ لَنَسَخَ الرَّجَاءُ مِنْهُمْ شَفَقَاتِ وَجَلِهِمْ، وَ لَمْ يَخْتَلِفُوا فِي رَبِّهِمْ بِاسْتِحْوَاذِ الشَّيْطَانِ عَلَيْهِمْ. وَ لَمْ يُفَرِّقْهُمْ سُوءُ التَّقَاطُعِ، وَ لاَ تَوَلاَّهُمْ غِلُّ التَّحَاسُدِ، وَ لاَ تَشَعَّبَتْهُمْ مَصَارِفُ الرِّيَبِ، وَ لاَ اقْتَسَمَتْهُمْ أَخْيَافُ الْهِمَمِ، فَهُمْ أُسَرَاءُ إِيمَانٍ لَمْ يَفُكَّهُمْ مِنْ رِبْقَتِهِ زَيْغٌ، وَ لاَ عُدُولٌ، وَ لاَ وَنىً، وَ لاَ فُتُورٌ، وَ لَيْسَ فِي أَطْبَاقِ السَّمَاءِ مَوْضِعُ إِهَابٍ إِلاَّ وَعَلَيْهِ مَلَكٌ سَاجِدٌ، أَوْ سَاعٍ حَافِدٌ، يَزْدَادُونَ عَلَى طُولِ الطَّاعَةِ بِرَبِّهِمْ عِلْماً، وَ تَزْدَادُ عِزَّةُ رَبِّهِمْ فِي قُلُوبِهِمْ عِظَماً[٢٠].

اللُّغَة:

الْكَأْس الرَّوِيَّة: الْمُشْبِعَة. وسُوَيْدَاءِ قُلُوبِهِمْ: حَبَّتُه. والوَشِيجَةُ: عِرق الشَّجَرَة، وَأصلهَا. والزُّلْفَة: الْقُرْبَة، والْمَنْزِلَة. والرِبَق ـ بكَسر الرّاء، وفتح الباء ـ جمع رِبْقَة، وَهِي الحَلقة من الحبل. والاِسْتِكَانَةُ: الخُشُوع. والدُّءُوب: المُدَاوَمة والاِستمرار. والأَسَلاَتُ: الأَطرَاف. والجُؤَار: رَفع الصَّوْت. والمَنَاكِبُ: جمع مَنْكِب، وهو مجتمع رَأس الكَتف، والعَضد. ويَنُوا: فَتَرُوا. وتَشَعَّبَتْهُمْ: فَرَقَتهم. والرِّيَب: الخَوْف والشّك، وقلق النّفس. وأَخْيَافُ: جمع خَيف ـ بفتح الخَاء ـ الهبُوط. والإِهَاب: الجِلد. والحَافِد: السَّريع.

الإِعْرَاب:

ذَخِيرَةً مَفْعُول ثانٍ لاتَّخَذُوا، ولِيَوْمِ مُتَعَلِّق بذَخِيرَة، وبِرَغْبَتِهِمْ مُتَعَلِّق بيَمَّمُوهُ، ويَنُوا منصوب بأَنْ مضمرة بعد الفاء، ومِثْله فَيُؤْثِرُوا، وعِلْماً تَمْيِيز، ومِثْله عِظَماً.

الْمَعْنَىٰ:

(وَ لَمْ تُجَاوِزْ رَغَبَاتُهُمْ مَا عِنْدَهُ إِلَىٰ مَا عِنْدَ غَيْرِهِ). ضَمِير رَغَبَاتُهُمْ يعود إِلَىٰ ٱلْمَلاَئِكَة، لأنّ الْحَدِيث ما زَال عَنْهُمْ، وضَمِير عِنْدَهُ يَعود إِلَىٰ تَعَالَىٰ، وٱلْمَعْنَىٰ أَنَّ رَغْبَة ٱلْمَلاَئِكَة فِي ثَواب الله أَغنتهُم عن الرَّغبَة فِي ثَوَاب سِوَاه (قَدْ ذَاقُوا حَلاَوَةَ مَعْرِفَتِهِ، وَ شَرِبُوا بِالْكَأْسِ الرَّوِيَّةِ مِنْ مَحَبَّتِهِ، وَ تَمَكَّنَتْ مِنْ سُوَيْدَاءِ قُلُوبِهِمْ وَشِيجَةُ خِيفَتِهِ، فَحَنَوْا بِطُولِ الطَّاعَةِ ٱعْتِدَالَ ظُهُورِهِمْ). أَنّ للعلم، أي عَلِم، مَذاقاً فَريداً فِي طعمه، وحلاوته بخَاصَّة ٱلْعِلْم بالله، والفهم عَنْه، وذاق ٱلْمَلاَئِكَة طعم هَذَا ٱلْعِلْم، وَحَلاَوته، وتمكن فِي نفُوسهم حَتَّىٰ أَصْبَحَ جُزءاً من كيَانهم، ولاَ شَك أَنّ ٱلْعِلْم بِهِ تَعَالَىٰ يَبعث علىٰ حُبه، والْخَوْف مِنْهُ فِي آنٍ واحد بالنّظر إِلىٰ جَلاله وٱقتداره، وقد جَسّد ٱلْمَلاَئِكَة الحُبّ لله، والْخَوْف مِنْهُ بالذِّكر، والطَّاعَة.

(وَلَمْ يُنْفِدْ طُولُ الرَّغْبَةِ إِلَيْهِ مَادَّةَ تَضَرُّعِهِمْ). أَحبوا الله، وخافوا مِن أَليم عَذَابه، ورجوا نَعيم ثَوابه، فعبدوه، وتضرعوا له، وطَال أَمد تَضَرُّعِهِمْ، وعِبَادَتهم، ومَع هَذَا ٱستمروا علىٰ هَذَا الحُبّ، والْخَوْف، والرَّجَاء، والتَّضرع بلا كلل، وملل (وَ لاَ أَطْلَقَ عَنْهُمْ عَظِيمُ الزُّلْفَةِ رِبَقَ خُشُوعِهِمْ). ٱلْمَلاَئِكَة أَقْرَب الخَلاَئِق إِلىٰ الله تَعَالَىٰ، وأَشدهم خَوْفاً مِنْهُ، وأَكْثَرهم تَضرُعاً له، مَع أَنّ القُرب يَسْتَدعَي رَفع الْحِجَاب، والتَّكليف.. وَهَذَا قَد يَصح فِي الخَلاَئِق بَعْضهُم مَع بَعْض، أَمَّا القُرب مِنْهُ عزَّ وجلَّ

فيوجب الرَّهْبَة، والتَّحفظ لجـلال هَيبته، وعظيم سَطوته (وَ لَمْ يَتَوَلَّهُمُ الإِعْـجَابُ فَيَسْتَكْثِرُوا مَا سَلَفَ مِنْهُمْ). المُعجب بِعَمله يَستكثره، وَلاَ يَتزَيد مِنْهُ حَيْث يَرىٰ فِيهِ الكفَايَة، وزِيَادَة، وٱلْمَلاَئِكَة مُنَزَّهُون عن هَذَا النَّقص، قَالَ الإِمَامﷺ: «وَأَوْحَشَ الْوَحْشَةِ الْعُجْبُ»[١]... «سَيِّئَةٌ تَسُوءُكَ خَيْرٌ عِنْدَ اللهِ مِنْ حَسَنَةٍ تُعْجِبُكَ»[٢].

(وَ لاَ تَرَكَتْ لَهُمُ ٱسْتِكَانَةُ الإِجْلاَلِ نَصِيباً فِي تَعْظِيمِ حَسَنَاتِهِمْ) أي أنّ خضوعهم وتعظيمهم لله ما ترك سبيلاً لتعظيم سواه، ويَتلَخَص هَذَا ٱلْمَعْنىٰ بقول الإِمَام فِي وصف الْمُتَّقِينَ: «عَظُمَ الْخَالِقِ فِي أَنْفُسِهِمْ فَصَغُرَ مَا دُونَهُ فِي أَعْيُنِهِمْ»[٣] (وَلَـمْ تَـجْرِ الْفَتَرَاتُ فِيهِمْ عَلَىٰ طُولِ دُءُوبِهِمْ). ٱستمروا علىٰ طَاعَة الله وعـبادته، بـلا فُتُور وكَسَل (وَ لَمْ تَغِضْ) أَي تَنقص (رَغَبَاتُهُمْ فَيُخَالِفُوا عَنْ رَجَاءِ رَبِّهِمْ). أي فَـيعدلوا ثوابه إِلىٰ الْيَأْس (وَ لَمْ تَجِفَّ لِطُولِ الْمُنَاجَاةِ أَسَلاَتُ أَلْسِنَتِهِمْ) أي أَطْرَافُهَا، وَهِي لا تَجِفّ من طول الذِّكر، وَلاَ تَكُف عَنْه (وَ لاَ مَلَكَتْهُمُ الأَشْغَالُ فَتَنْقَطِعَ بِهَمْسِ الْجُؤَارِ إِلَيْهِ أَصْوَاتُهُمْ). لا شغل لهم إلّا الْعِبَادَة، ورفع الأصوات بالذِّكر.

(وَ لَمْ تَخْتَلِفْ فِي مَقَاوِمِ الطَّاعَةِ مَنَاكِبُهُمْ). المَقَاوِم الصّفوف، وٱلْمَعْنىٰ أنّهم يَقفون لِلْعِبَادَة وَقْفَة رجل واحد، وَيصطَفون بمَهارة فَائِقة لاَ يَعلو، أَو يَنحرف مَنْكَبٍ عن مَنْكِبٍ (وَ لَمْ يَثْنُوا إِلَىٰ رَاحَةِ التَّقْصِيرِ فِي أَمْرِهِ رِقَابَهُمْ). ٱمتدت أَعْنَاقُهُمْ في طَاعَة الله، وٱمتثال أوامره، وما أمالوها تقصيراً، أو طلباً للرّاحة (وَ لاَ تَعْدُو عَلَىٰ عَزِيمَةِ جِدِّهِمْ بَلاَدَةُ الْغَفَلاَتِ). لا سُلطان للنّسيان، والذّهـول عـلىٰ جِـدِّهِمْ في الطّـاعة

(١) أُنظر، نَهج ٱلبَلاَغَة: ٱلحِكْمَة (٣٨).
(٢) أُنظر، نَهج البَلاَغَة: ٱلحِكْمَة (٤٦).
(٣) أُنظر، نَهج ٱلبَلاَغَة: ٱلخُطبَة (١٩٣).

وعِبَادَتهم، وَلاَ يشكون في عدد الرّكعات، وَلاَ يسهون عن قـولٍ، أو فـعلٍ (وَ لاَ تَنْتَضِلُ) أي لا ترمي (فِي هِمَمِهِمْ خَدَائِعُ الشَّهَوَاتِ). لا أَثر للأهواء، والشَّهوات في نشاطهم، وعلو هِمَمِهِمْ.

(قَدِ ٱتَّخَذُوا ذَا الْعَرْشِ ذَخِيرَةً لِيَوْمِ فَاقَتِهِمْ). أدخروا لنَّجاتهم يَوْم الْمَعَاد الْإِخْلاَص لله، وٱلْعَمَل بمَرْضَاتِه (وَ يَمَّمُوهُ) أي قصدوه (عِنْدَ ٱنْقِطَاعِ الْخَلْقِ إِلَى الْمَخْلُوقِينَ بِرَغْبَتِهِمْ). تَوكلوا علىٰ الله سُبْحَانَهُ في رَغْبَاتِهِم، أمّا غَيْرهم من الْمَخْلُوقِينَ فيتوكل بَعْضهُم علىٰ بَعْض (لاَ يَقْطَعُونَ أَمَدَ غَايَةِ عِبَادَتِهِ). الْمُرَاد بالْغَايَة هُنا النِّهَايَة، وٱلْمَعْنىٰ أنّ ٱلْمَلاَئِكَة قطعوا شوطاً طويلاً في عِبَادَة الله، ومَع هَذَا ما بَلغوا الْغَايَة من الْعِبَادَةِ، لأنّ التَّعبد لهُ بِمَا هو أَهله لَيْسَ له من حدود تَمَاماً كذاته، وعَظَمته.

(وَ لاَ يَرْجِعُ بِهِمُ الاِسْتِهْتَارُ بِلُزُومِ طَاعَتِهِ، إِلاَّ إِلَى مَوَادَّ مِنْ قُلُوبِهِمْ غَيْرِ مُنْقَطِعَةٍ مِنْ رَجَائِهِ، وَ مَخَافَتِهِ). تُطلق كَلِمَة الاِسْتِهْتَارُ علىٰ اتباع الْهَوَىٰ، وعدم الْمُبالاة، وعلىٰ الوَلع بالشّيء، وَهَذَا ٱلْمَعْنىٰ هو الْمُرَاد هُنا، أي أنّ الْخَوْف، والرَّجَاء النَّابعين من الْقَلْب هما السّبب الْمُباشر لْعِبَادَة ٱلْمَلاَئِكَة، وٱستمرارهم في طَاعَة الله (لَمْ تَنْقَطِعْ أَسْبَابُ الشَّفَقَةِ مِنْهُمْ، فَيَنُوا فِي جِدِّهِمْ). الْمُرَاد بالشَّفَقَةِ هُنا الْخَوْف، ويَنُوا يفتروا، ويكسلوا، وٱلْمَعْنىٰ أنّ جِدِّهِمْ في طلب مَرْضَاتِه تابع لخوفهم مِنْهُ تَعَالَىٰ، وَهَذَا الْخَوْف دائم لا ينقطع فكَذَلِكَ الجِدّ (وَ لَمْ تَأْسِرْهُمُ الْأَطْمَاعُ فَيُؤْثِرُوا وَشِيكَ السَّعْيِ عَلَىٰ ٱجْتِهَادِهِمْ). ٱجْتِهَادِهِمْ ٱلْعَمَل الهَين، والاِجْتِهَاد ٱلْعَمَل الصَّعب، وٱلْمَعْنىٰ لا طمع للْمَلاَئِكَة إلّا في ثواب الله، ومَرْضَاتِه، ومن أَجل هَذَا آثروا أَصعب الْأَعْمَال

علىٰ هينها، قَالَ الْإِمَام: «أَفْضَلُ الأَعْمَالِ مَا أَكْرَهْتَ نَفْسَكَ عَلَيْهِ»(١). أي أَشقها، وأَحمزها.

(لَمْ يَسْتَعْظِمُوا مَا مَضَىٰ مِنْ أَعْمَالِهِمْ). بل رأوها لا شيء في حقّ الله (وَ لَوِ ٱسْتَعْظَمُوا ذَلِكَ لَنَسَخَ الرَّجَاءُ مِنْهُمْ شَفَقَاتِ وَجَلِهِمْ). يجب أنْ يَكُون الْخَوْف مساوياً للرّجاء، والتَّفاؤل للتَّشاؤم كِي يستمر المُكلف في ٱلْعَمَل، فإنْ تَغلب أَحدَهُما علىٰ الآخر كَانَتْ النّتيجة الأهمال، والكَسل، وٱستكثار الأَعْمَال نَتيجة طبيعية لتغلب الرَّجَاء علىٰ الْخَوْف، ومن أَجل هَذَا تجنبه ٱلْمَلاَئِكَة (وَ لَمْ يَخْتَلِفُوا فِي رَبِّهِمْ بِٱسْتِحْوَاذِ الشَّيْطَانِ عَلَيْهِمْ). كما ٱختلف أَهْلَ الأَرْضِ في الله، ووحدانيته، وَصِفَاته (وَ لَمْ يُفَرِّقْهُمْ سُوءُ التَّقَاطُعِ). قلبهم واحد، وغَايَتهم وَاحِدَة (وَ لاَ تَوَلاَّهُمْ غِلُّ التَّحَاسُدِ). وعلىٰ أي شيء يتحَاسدُون؟. وَلاَ مَعِدَة لهم، وَلاَ غَرائز جنسية، وَلاَ عَمارات، وسَيارات، وبنوك، وعَقارات، وخَدم، وحَشم.

(وَ لاَ تَشَعَّبَتْهُمْ مَصَارِفُ الرِّيَبِ). ما فرّقتهم الشّكوك، وسُوء الظَّن بِبَعْضهم البعض (وَ لاَ ٱقْتَسَمَتْهُمْ أَخْيَافُ الْهِمَمِ). إنّ هِمَهم وٱهْتِمامهم واحد، وهو الجِدّ في طَاعَة الله، وقد بلغوا مِنْهَا أسمىٰ المَراتب (فَهُمْ أُسَرَاءُ إِيمَانٍ لَمْ يَفُكَّهُمْ مِنْ رِبْقَتِهِ زَيْغٌ، وَ لاَ عُدُولٌ، وَ لاَ وَنىً، وَ لاَ فُتُورٌ). أنّهم علىٰ سَبِيل الله الْوَاضِح لا ينحرفون عَنْه بحال (وَ لَيْسَ فِي أَطْبَاقِ السَّمَاءِ مَوْضِعُ إِهَابٍ إِلاَّ وَعَلَيْهِ مَلَكٌ سَاجِدٌ، أَوْ سَاعٍ حَافِدٌ). هَذَا كناية عن كَثْرَة عَدَدهم (يَزْدَادُونَ عَلَىٰ طُولِ الطَّاعَةِ بِرَبِّهِمْ عِلْماً). كُلما ٱزدادوا طَاعَةً لله، ٱزدَادوا عِلْماً بعظَمَتِهِ... أَشبه بمن يُمارس مهنة خَاصَّة، يَزْدَاد بها خبرة

(١) أنظر، نَهج ٱلبَلاَغَة: ٱلحِكْمَة (٢٤٩).

علىٰ طول الزَّمن (وَ تَزْدَادُ عِزَّةُ رَبِّهِمْ فِي قُلُوبِهِمْ عِظَماً). من آزداد عِـلْماً بـالله زاد تعظيماً له، ما في ذَلِكَ ريب، لأنّ التَّعظيم يَأْتِي علىٰ مـقدار آلْـعِلْم، وقَـدِيماً قـيل: «النَّاسُ أَعْدَاءُ مَا جَهِلُوا»[١].

الأَرْض...فِقْرَة ٢١ ـ ٢٣:

كَبَسَ الْأَرْضَ عَلَىٰ مَوْرِ أَمْوَاجٍ مُسْتَفْحِلَةٍ، وَ لُجَجِ بِحَارٍ زَاخِرَةٍ، تَـلْتَطِمُ أَوَاذِيُّ أَمْوَاجِهَا، وَ تَصْطَفِقُ مُتَقَاذِفَاتُ أَثْبَاجِهَا، وَ تَرْغُو زَبَداًكَالْفُحُولِ عِنْدَ هِيَاجِهَا، فَخَضَعَ جِمَاحُ ٱلْمَاءِ الْمُتَلاَطِمِ لِثِقَلِ حَمْلِهَا، وَسَكَنَ هَيْجُ آرْتِمَائِهِ إِذْ وَطِئَتْهُ بِكَـلْكَلِهَا، وَ ذَلَّ مُسْتَخْذِياً، إِذْ تَمَعَّكَتْ عَلَيْهِ بِكَوَاهِلِهَا، فَأَصْبَحَ بَعْدَ آصْـطِخَابِ أَمْـوَاجِـهِ، سَـاجِياً مَقْهُوراً، وَ فِي حَكَمَةِ الذُّلِّ مُنْقَاداً أَسِيراً[٢١]. وَ سَكَنَتِ الْأَرْضُ مَـدْحُوَّةً فِـي لُـجَّةِ تَيَّارِهِ، وَ رَدَّتْ مِنْ نَخْوَةِ بَأْوِهِ، وَ آعْتِلاَئِهِ، وَ شُمُوخِ أَنْفِهِ، وَ سُمُوِّ غُلَوَائِهِ، وَكَعَمَتْهُ عَلَىٰ كِظَّةِ جَرْيَتِهِ، فَهَمَدَ بَعْدَ نَزَقَاتِهِ، وَ لَبَدَ بَعْدَ زَيَفَانِ، وَثَبَاتِهِ. فَلَمَّا سَكَنَ هَيْجُ ٱلْمَاءِ مِنْ تَحْتِ أَكْنَافِهَا، وَ حَمْلِ شَوَاهِقِ الْجِبَالِ الشُّمَّخِ الْبُذَّخِ عَلَىٰ أَكْتَافِهَا، فَجَّرَ يَنَابِيعَ الْعُيُونِ مِنْ عَرَانِينِ أُنُوفِهَا، وَ فَرَّقَهَا فِي سُهُوبِ بِـيدِهَا، وَ أَخَـادِيدِهَا[٢٢]. وَ عَـدَّلَ حَرَكَاتِهَا بِالرَّاسِيَاتِ مِنْ جَلاَمِيدِهَا، وَ ذَوَاتِ الشَّنَاخِيبِ الشُّـمِّ مِـنْ صَـيَاخِيدِهَا، فَسَكَنَتْ مِنَ الْمَيَدَانِ لِرُسُوبِ الْجِبَالِ فِي قِطَعِ أَدِيمِهَا، وَ تَغَلْغُلِهَا مُتَسَرِّبَةً فِي جَوْبَاتِ خَيَاشِيمِهَا، وَ رُكُوبِهَا أَعْنَاقَ سُهُولِ الْأَرَضِينَ، وَ جَرَاثِيمِهَا، وَ فَسَحَ بَيْنَ الْـجَوِّ، وَ بَيْنَهَا، وَ أَعَدَّ الْهَوَاءَ مُتَنَسَّماً لِسَاكِنِهَا، وَ أَخْرَجَ إِلَيْهَا أَهْلَهَا عَلَىٰ تَمَامِ مَرَافِقِهَا[٢٣].

---

(١) هٰذِهِ ٱلحِكْمَة لِلإِمَامِ عليّ ﷺ، كما جاء في نَهْج ٱلبَلاَغَة: ٱلحِكْمَة (١٧٢).

اللُّغَة:

المُرَاد بكَبَسَ الأَرْضَ هُنا غَمْسَها بِٱلْمَاء بدَلِيل السِّياق. والمَوْر: الاِضطراب. ومُسْتَفْحِلَةٍ: هَائِجة. وَاللُّجَج: جَمع اللُّج ـ بضم اللام ـ معظم ٱلْمَاء. وزَاخِرَةٍ: مُمتَلِئة. وأَوَاذِيُّ: جَمع آذيّ، وهو أعلىٰ المُوج، أو المُوج العَالي. وَتَصْطَفِقُ: تَهْتَز. والأَثْبَاج: جَمع ثَبَجٌ، والمُرَاد بِه هُنا مُلاقاة الأَرْضِ للمَاء. ومُسْتَخْذِياً: مُنْقَاداً. وَمَعَكَ الشّيء: دَلَكهُ، وتَمَعَّكَتْ الدّابة تَمَرَّغت في التُّراب. والكَاهِل: أعلىٰ الظَّهْر. والصَّخَب: ٱرتفاع الصَّوْت. وَسَاجِياً: سَاكِناً. وٱلْحِكْمَة ـ بفتح الحاء، والكاف، والميم ـ ما أَحاط بحنكي الفَرس من اللّجام. والدَّحُو: كاَلْبَيْضَة. والتَّيَّار: المُوج الهَائج. والنَّخْوَة: الحَمَاسة، والمُروءة، والفَخر. والبَأْو: الزّهو، والفَخر. والشُّمُوخ: العُلو. والغُلَوَاءِ ـ بضم الغين ـ الغُلو، وتَجاوز الحَدّ[1]. وَكَعَمَتْهُ: مَنَعَتْه. والكِظَّة: الاِمْتلاء

(١) الغلوّ هو: مُجاوزة الحدّ، كما في مُختار الصّحاح للرازيّ «مَادَّة غلوّ» الجَوهري، الفَيومي الرّاغب.. قَالَ في اللِّسَان: «وفي التَّهذيب: قَالَ بَعْضهُم: غلوت في الأَمْر غلواً، وغلانيةً إِذَا جاوزت فِيهِ الحدّ، وأفرطت فِيهِ»، ثمّ قَالَ أبن منظور: «وغلا في الدّين، والأَمْر يغلو غُلوّاً: جاوز حدّه». أُنظر، لِسَان الْعَرَب: ٣٢٩٠، مَادَّة «غلا».

وجاء في التَّنزيل في موضعين: ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا تَغْلُواْ فِى دِينِكُمْ﴾. ٱلنِّسَاء: ١٧١، ٱلْمَائِدَة: ٧٧. فالآيَة تنهىٰ عن تجاوز الحدّ في ٱلْمَسِيح، وتحذّر من الخروج عن القصد في القَوْل، وجعلت ما أدعته النّصارىٰ فِيهِ غلواً لتعدية الحدّ. أُنظر، تَفْسِير الكشاف للزّمخشَري: ٥٨٤/١، مطبعة مصطفىٰ البابي الحلبي بمصر (١٩٧٢م).

وَقَالَ تَعَالىٰ: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا تَغْلُواْ فِى دِينِكُمْ غَيْرَ ٱلْحَقِّ﴾. ٱلْمَائِدَة: ٧٧.

وَقَالَ الحرث بن خالد المَخْزُومِيّ:

خمصانة قلق موشحها ... رود الشّباب غلا بها عظم

وفي التَّهذيب: قَالَ بَعْضهُم: غلوت في الأَمْر غلواً، وغلانيةً، وغلانيا إِذَا جاوزت فِيهِ الحدّ، وأفرطت

↔ فِيهِ، قَالَ الأَعْشَىٰ: أنشده أبن بريّ:

أو زد عَلَيْهِ الغلانيا

وفي التَّهذيب أيضاً: زادوا فِيهِ النون، وَقَالَ ذو الرّمة:

وذُوالشّنء فَاشنأه،وذُوالودفَاجزه | عَلىٰ وِده، وأزدد عَـلَيْهِ الغـلاَنيا

وفي الْحَدِيث: «إيّاكُمْ والغلوّ في الدّين». أنظر، سُنَن النّسـائيّ ـ المناسك: ٢١٧، المجموع في شرح المُهَذّب للنوويّ: ١٧١/٨، مُنْتَهىٰ المطلب للعلاّمة الحليّ: ٧٢٩/٢.

قَالَ أبن منظور: «أيّ: التّشدّد فِيهِ، ومُجاوزة الحدّ كالْحَدِيث الآخر: إنّ هَذَا الدّين متين، فأوغل فِيهِ برفق». أنظر، المُعْجَم المفهرس لألفاظ الْحَدِيث: ٤/ ٥٥٨، لِسَان الْعَرَب مَادَّة غلوّ. ومُسْنَد أحمد: ١/ ٢١٥، النّسائيّ في السّنَن: ٢٤ كتاب ٱلْحَجّ: ٢١٨، بَاب ألتقراط الحَصىٰ، صَحِيح مُسْلِم: ٤٧، كتَاب العِلْم ح ٧، «هَلَك المُتَنطعُون قَالها ثَلاَثاً».

وقيل: معناه: الْبَحْث عن بوَاطن الأشيَاء، والكَشف عن عِللها، وغوَامض متعبّداتها قَالَ: ومِنْهُ الْحَدِيث: «وحَامل الْقُرْآن غَيْر الغَالي فِيهِ، ولاَ الجَافي عَنْه» إنّما قَالَ ذَلِكَ؛ لأنّ من آدَابه، وأخلاَقه الّتي أمر بهَا: القَصد في الأُمُور، وخَير الأُمُور أوسَاطها. وَقَالَ الشّاعر:

وَأوف ولاَ تَسـتوف حـقّك كـلّهُ | وصَـافح فَـلم يَسـتوف قـطُّ كـريمُ
ولاَ تَغلُ في شَيء من الأُمُور وَٱقتَصد | كِـلا طَـرفي قَـصد الأُمُـور ذَمِـيمُ

وَقَالَ آخر:

لكَ بأوسَـاط الأُمُـور فـإنّها | نَجاةٌ ولاَتَركب ذلولاً ولاَ صَعبا

فالغلوّ: هو الارتفاع، والتّجاوز للحدّ، وهو في كلّ شيء بحسبه، إنْ آستعمل في الأثمان، والأسعار كَانَ بمَعْنَىٰ زِيَادَة عن حدّها المتعارف، قَالَ الشّاعر:

نغالي اللّحم للأضياف نيئاً | ونُـرخِصُهُ إذَا نـضج القـديرُ

ويُقَال غاليت صداق المْرَأَة أيّ، أغليته. أُنظر، المُغْني: ٣٩١/٧، سُنَن الدّارميّ: ١٤١/٢، سُنَن آبن ماجه: ٦٠٧/١، سُنَن أبي داود: ٤٦٧/١. وفي رواية صَدُقاتهن أيّ، لا تبالغوا في كَثْرَة الصّداق ،سُنَن آبن ماجه: ٢/بَاب ٦٣ ح ٣٠٢٩، حاشية السّندي علىٰ النّسائيّ: ح ٣٣٤٠.

↔

والتُّخْمَة. والنَّزَق :الطَّيش. وَلَبَدَ بالمكان: أَقام فِيهِ. والزَّيَفَانِ: التَّبَخْتر. والأَكْنَافِ: النَّواحي، والأجْنَّاب. والعَرَانِينِ: أَعلىٰ الأَنْف عند مُلتقىٰ الحَاجبين. والسُّهُـوب: الفَـلوات الوَاسـعة. والبِـيدِ: أيـضاً الفَـلوات. والأخُـدُود: الشّـق فِي الأَرْضِ. والجَـلاَمِيدِ: الصُّـخُور. والشَّـنَاخِيبِ: رُؤُوس الجِـبَالِ. والصَّـيَاخِيدِ: الصُّخُور الصُّلبَة. وأَدِيمِهَا: سَطْحَها. والخَيَاشِيم: منَافِذ الأُنُوف إِلىٰ الرَّأس. وجَرَاثِيمِهَا: مَا أجتمع مِنْهَا. والمَرَافِق: جَمع مَرفق ـ بفتح الميم ـ وهو ما يَنْتَفع بِه، ومِـنْهُ مَـرافـق الدَّار.

الإِعْرَاب:

زَبَداً مَفْعُول مُطلق لتَرْغُو مِثل قمتُ وقُوفاً، لأنّ المُرَاد بالزَّبَد هُنا ما يَعلو المَاء من

⟵ وَأَصل الغَلاء الارتفَاع، ومُجَاوزة القَدر في كلّ شيء. رَاجع التُحفَة السّنية للفيض الكاشانيّ: ٣، بُلغة الفَقِيه للسّيد مُحَمّد آل بحر العلوم: ٢٠٨/٤.

فإنْ أستعمل في المَاء يَكُون مَعْنَىٰ الغلوّ تجاوزه عن حدّه قبل الغليان حَتَّىٰ أرتفع، وطمىٰ. وفِيه وجه آخر: الغلوّ هو الشّيء الممتنع عادةً، وعقلاً، كما قَالَ الشّاعر:

وأخفتَ أَهْلَ الشّركِ حَتَّىٰ أَنَّهَـا ... لتـخافكَ النّـطفُ الّـتي لم تخـلق

فهذا القَوْل من الشّاعر مبالغة وغلوّ؛ لأنّه جعل النّطف الّـتي تـتكون مِـنْهَا الأجـنّة في الأصـلاب، والأَرحَام تخَاف سطوة الممدوح. ومِثْله قَوْل القَائِل: زيد من النّاس يطير في الجو، ويعود إلىٰ الأَرْضِ بدون واسطة ترفعه، أو تضعه وهو صَحِيح الجسم.

والغلوّ ممقوت لا محَالَةَ أينما كَانَ، وحيثما كَانَ، في أيّ أمرٍ كَانَ، وَلاَ سيما في الدّين، والإفراط، والتّفْريط كلّه سَيِّئة. والحَسَنَة بَيْنَ السّيئتين ـ كما قَالَ مطرف أبن عبد الله ـ سَيِّئة.

وكما قَالَ الرّسُول ﷺ: «لاتغالوا في النّساء فإنّما هنّ سـقيا الله». أنـظر، البَيَان والتّـبيين: ٢١/٢، الاعتقادات: ٩٧، بحَار الأَنْوَار: ٣٤٤/٢٥.

الرَّغوة، والخَبَث، بدَلِيل قَوْله بلا فَاصل: «كَالْفُحُولِ عِنْدَ هِـيَاجِهَا» ومُسْتَخْذِياً حَال من الضَّمِير المُستتر في ذُلٍّ، وسَاجِياً خَبَرَ أَصْبَحَ لِأَنَّهَا من أَخوات كَان، وَفِي حَكَمَةِ الذُّلِّ مُنْقَاداً، أي وأَصْبَحَ مُنْقَاداً فِي حَكَمَةِ الذُّلِّ، ومَدْحُوَّةً حَال من الْأَرْضِ، وفَجَّرَ جَواب «لمَّا»، ومُتَسَرِّبَةً حَال من ضَمِير تَغَلْغُلِهَا، ومُتَنَسَّماً حَال من الْهَوَاءِ.

عِلْم الطَّبِيعَة كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ:

قَالَ عُلَمَاء الطَّبِيعَة: ٱنفصلت الْأَرْض عن الشَّمس، ثُم ٱنفصل ٱلْقَمَر عَن الْأَرْضِ، وبعد أَنْ صَعَدَ ٱلإِنْسَان إِلىٰ ٱلْقَمَرِ، ودَرس ٱلعُلَمَاء تُربته، وما تَحتوي عَلَيْهِ من العَناصر قَالُوا: «إِنّ الدّراسة الدَّقيقة تَرفض كلّ النَّظريات الشَّائعة عن ٱلْقَمَرِ، ومِنْهَا ٱنفصاله عن الْأَرْضِ، وَلاَ تَقبل إلّا تَفْسِيراً واحداً، وهو أَنّ ٱلْقَمَرَ كَائن مُستقل، ومصنوع صنعاً دقيقاً ومحكماً، وإِنّ الَّذي صنعه قُوَّة خَارقة الْعَادَة، ومُذهلة تَملك من الطَّاقات ما لا يملكه أي كائن من ٱلْكَائِنَات»[1]. وأيضاً يصدق هَذَا علىٰ الْأَرْضِ وإِنَّهَا كائن مُستقل لم ينفصل عن الشَّمس... وعلىٰ أيّة حَال فإِنّ عُلَمَاء الطَّبِيعَة لم يتفقوا علىٰ نظرية وَاحِدَة في أَصل الكَوْن، وَلاَ فِي نشوء الشَّمس، وٱلْقَمَر، والْأَرْضِ، ومن هُنا قَالَ آينشتاين: «إِنّ العَالم الخَارجي لا يُمكن مَعْرِفَتِه بطرق مُباشرة، وَلاَ بُدّ من توسط شيء آخر».

وبالتالي فقد ٱتفق الجَمِيع علىٰ أنّ نتائج البحوث كلّها نسبية، ويمكن أَنْ تَتغير مَع الزّمن، والتّقدم، لأنّ منهجها يقوم علىٰ مُشاهدة الحَوَاس الّتي لا يعنيها إلّا

(١) أنظر، التَّفسِير الكاشف: ٦/ تَفْسِير الآيَة (٢٧) من سُورَة فُصِّلَتْ. (مِنْهُ ﷺ).

الظواهر، وَهِي وَحْدَها مَوْضُوع العلوم الطبيعية، وٱعتماداً عَلَيْهَا يُقرر الْعُلَمَاء النّتائج الّتي تَبدو لَهم، وبمتابعة الدّراسة، وتطور أَجهزتها تَظهر لهم نَتائج أُخرىٰ لِي النّقيض من الأُولَىٰ، ومَعْنَىٰ هَذَا أَنّ ما يقوله عُلَمَاء الطّبيعَة الآن، ويسمونه عِلْماً ـ قد يَصبح جَهلاً، وخَرافة بعد أَمد قَصير، أو طَويل.

ومَهما يَكن فإنّ الْإِمَام لم يَتعرض في هَذِه ٱلْخُطْبَةُ لأصل الْأَرْضِ، وَتكوينها، وإنّما أَشار إِلىٰ بَعْض حَالاتها بعد خَلقها، ووجُودها، وفِيما يَلي الْبَيَان:

الْمَعْنَىٰ:

(كَبَسَ الْأَرْضَ عَلَىٰ مَوْرِ أَمْوَاجٍ مُسْتَفْحِلَةٍ، وَ لُجَجِ بِحَارٍ زَاخِرَةٍ). إنّ الله سُبْحَانَهُ بعد أَنْ خَلق الْأَرْضِ غَمسها في بِحار هَائجة مَائجة، وَقَالَ بَعْض الشَّارحِين: الْمُرَاد بكَبَسَ الْأَرْضِ خَلقها، وتكوينها[1]، وَهَذَا التَّفْسِير خِلاف الظَّاهِر، قَالَ الشّيخ مُحَمّد عَبْدَه: «كَانَ حَقّ التَّعبير كَبَسَ بها المُوج، ولكن الْإِمَام أَقام الآلة مَقام المَفْعُول»[2]. ومُراده بالآلة الْأَرْضِ، وبالمَفْعُول المُوج أي أَنّ الْأَرْض كَانَتْ موجودة قبل الكَبس (تَلْتَطِمُ أَوَاذِيُّ أَمْوَاجِهَا، وَ تَصْطَفِقُ مُتَقَاذِفَاتُ أَثْبَاجِهَا، وَ تَرْغُو زَبَداً كَالْفُحُولِ عِنْدَ هِيَاجِهَا)... تَقدّم في فِقْرَة (اللُّغَة) مَعْنَىٰ الأَوَاذِيِّ، والأَثْبَاجِ، وَلاَ شَيء وَرَاءَ معناهما اللُّغوي يَحْتَاج إِلىٰ شَرح، وتَفْسِير.

(فَخَضَعَ جِمَاحُ ٱلْمَاءِ الْمُتَلاَطِمِ لِثِقَلِ حَمْلِهَا، وَسَكَنَ هَيْجُ ٱرْتِمَائِهِ إِذْ وَطِئَتْهُ بِكَلْكَلِهَا، وَ ذَلَّ مُسْتَخْذِياً، إِذْ تَمَعَّكَتْ عَلَيْهِ بِكَوَاهِلِهَا، فَأَصْبَحَ بَعْدَ ٱصْطِخَابِ

(١) أنظر، شرح نَهج ٱلبَلاَغَة لِابن أَبي ٱلحَدِيد: ٦/٤٣٨.
(٢) أنظر، شرح نَهج ٱلبَلاَغَة: ١/١٧٣.

أَمْوَاجِهِ، سَاجِياً مَقْهُوراً، وَفِي حَكَمَةِ الذُّلِّ مُنْقَاداً أَسِيراً).. أي إنّ غمس الأَرْضِ في ٱلْبِحَار تَمَّ بيسُرٍ، وسهولة، وأنّ ثورَة ٱلْبِحَار هدأت، وهَمدت بعد هَذَا الغَمس. وعبّر الإِمَام عن سكون ٱلْبِحَار، وهدوئها بالذُّلِّ، والخُضوع، والأَسر، والانْقيَاد لأمره تَعَالَىٰ: (وَ سَكَنَتِ الأَرْضُ مَدْحُوَّةً) كاَلْبَيْضَة. وفي كُتب اللُّغَة: «مَدْحَىٰ النَّعام: موضع بيضها»[1]. ويقُول أحدث الآرَاء: «إنّ الأَرْضَ لَيْست كرة تَمَاماً، بل هِي بيضوية الشّكل»[2]. ومُراد الإِمَام أنّ الأَرْضَ سَكَنَتْ فِي لُجَّةِ ٱلْبِحَار مؤقتاً لا دَائماً بدَليل قَوْله في خُطبة ثَانِيَة من خُطب النَّهج: «وَأَنْشَأَ الأَرْضَ فَأَمْسَكَهَا مِنْ غَيْرِ ٱشْتِغَالٍ، وَأَرْسَاهَا عَلَىٰ غَيْرِ قَرَارٍ، وَأَقَامَهَا بِغَيْرِ قَوَائِمَ، وَرَفَعَهَا بِغَيْرِ دَعَائِمَ»[3]. ومن خُطْبَةٍ رواها الشّيخ هَادي كَاشف الغِطاء في (المُسْتَدرَك): «ورَفَعَ ٱلسَّمَاءَ بِغَيْرِ عَمَدٍ، ويَسَطَ الأَرْض علىٰ الْهَوَاء بِغَيْرِ أَرْكَان»[4].

(وَرَدَّتْ مِنْ نَخْوَةِ بَأْوِهِ، وَٱعْتِلاَئِهِ، وَشُمُوخِ أَنْفِهِ، وَسُمُوِّ غُلَوَائِهِ، وَكَعَمَتْهُ عَلَىٰ كِظَّةِ جَرْيَتِهِ، فَهَمَدَ بَعْدَ نَزَقَاتِهِ، وَلَبَدَ بَعْدَ زَيَفَانِ، وَثَبَاتِهِ. فَلَمَّا سَكَنَ هَيْجُ ٱلْمَاءِ مِنْ تَحْتِ أَكْنَافِهَا، وَحَمْلِ شَوَاهِقِ الْجِبَالِ الشُّمَّخِ الْبُذَّخِ عَلَىٰ أَكْتَافِهَا) عَاد الإِمَام إِلىٰ حَدِيث البَحر، وإنّ ثورته هدأت، وأستقرت بعملية الكَبْس (فَجَّرَ يَنَابِيعَ الْعُيُونِ مِنْ عَرَانِينِ أُنُوفِهَا). أي أخرج سُبْحَانَهُ ٱلْمَاء يَنَابِيع مِن أَعالي الْجِبَالِ (وَفَرَّقَهَا فِي سُهُوبِ بِيدِهَا، وَأَخَادِيدِهَا). بعد أنْ تَفَجرت اليَنَابِيع ٱتخذ ٱلْمَاء سَبيله في السّهول،

(١) أنظر، لِسان الْعَرب: ١٤/٢٥١، مختار الصحاح: ١/٨٤.
(٢) أنظر، التّبيان للشيخ الطوسي: ١٠/١٠٢، قَريب من هَذَا.
(٣) أنظر، نَهج ٱلبَلاَغَة: ٱلخُطبَة (١٨٦).
(٤) أنظر، الدروع الواقية للسيد ٱبن طاووس: ٩٢ و١٨٣، بحَار الأَنْوَار: ٩٧/١٩٢، المُستَدرَك: ١/١١٠.

والسّواقي، والأودية (وَ عَدَّلَ حَرَكَاتِهَا بِالرَّاسِيَاتِ مِنْ جَلاَمِيدِهَا، وَ ذَوَاتِ الشَّنَاخِيبِ الشُّمِّ مِنْ صَيَاخِيدِهَا، فَسَكَنَتْ مِنَ الْمَيَدَانِ لِرُسُوبِ الْجِبَالِ فِي قِطَعِ أَدِيمِهَا، وَ تَغَلْغُلِهَا مُتَسَرِّبَةً فِي جَوْبَاتِ خَيَاشِيمِهَا، وَ رُكُوبِهَا أَعْنَاقَ سُهُولِ الأَرَضِينَ، وَ جَرَاثِيمِهَا). تدور الأَرْض بِسُرْعَة مُحددة، وفي اتجاه مُعين، وعلىٰ نِظام ثابت من يَوْم تكونت إلىٰ ما شَاء الله، وللجِبال الرَّاسيات أَثرها في هَذَا النُّظام، ولَوْلاَها لَمَادت الأَرْض بأَهلِها كما قَالَ سُبْحَانَهُ: ﴿وَأَلْقَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَٰرًا وَسُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾[1].

(وَ فَسَحَ بَيْنَ الْجَوِّ، وَ بَيْنَهَا). يطلق الجَوّ علىٰ ما بَيْنَ ٱلسَّماء، والأَرْض، وعلىٰ مَا ٱتسع بَيْنَ ٱثْنَيْن، وَهَذَا هو المُرَاد هُنا، والمَعْنىٰ أنّ الله سُبْحَانَهُ جعل الطَّريق بَيْنَ الجِبَالِ فسيحاً واسعاً. ويدل ظاهر الكَلاَم علىٰ أنّ السَّعة بَيْنَ الجَوّ، والجِبَالِ، وَلاَ يصح هَذَا إلاّ علىٰ سَبِيل المجاز (وَ أَعَدَّ الْهَوَاءَ مُتَنَسَّماً لِسَاكِنِهَا). والتَّنَسّم التَّنفس. ومن البداهة أنّه لَوْلاَ الْهَوَاء مَا كَانَ علىٰ ظهرها حَي من الأحياء، إِنْسَاناً كَانَ أم نَباتاً، أَم حَيواناً (وَ أَخْرَجَ إِلَيْهَا أَهْلَهَا عَلَىٰ تَمَامِ مَرَافِقِهَا). أي أنّه سُبْحَانَهُ أَوجد في الأَرْض كلّ مَا يَحتاج إِلَيْهِ أَهلها علىٰ كَثرتهم، وتَنوعهم، ولكن مَع العرَق، وبَذل المَجهود.

السَّحَابُ تُحْيِي الْمَوَات...فِقْرَة ٢٤ ـ ٢٥:

ثُمَّ لَمْ يَدَعْ جُرُزَ الأَرْضِ الَّتِي تَقْصُرُ مِيَاهُ الْعُيُونِ عَنْ رَوَابِيهَا، وَ لاَ تَجِدُ جَدَاوِلُ

---

(١) ٱلنَّحل: ١٥.

الْأَنْهَارِ ذَرِيعَةً إِلَىٰ بُلُوغِهَا، حَتَّىٰ أَنْشَأَ لَهَا نَاشِئَةَ سَحَابٍ تُحْيِي مَوَاتَهَا، وَتَسْتَخْرِجُ نَبَاتَهَا. أَلَّفَ غَمَامَهَا بَعْدَ افْتِرَاقِ لُمَعِهِ، وَ تَبَايُنِ قَزَعِهِ، حَتَّىٰ إِذَا تَمَخَّضَتْ لُجَّةُ الْمُزْنِ فِيهِ، وَ الْتَمَعَ بَرْقُهُ فِي كُفَفِهِ، وَ لَمْ يَنَمْ وَمِيضُهُ فِي كَنَهْوَرِ رَبَابِهِ، وَ مُتَرَاكِمِ سَحَابِهِ، أَرْسَلَهُ سَحّاً مُتَدَارِكاً، قَدْ أَسَفَّ هَيْدَبُهُ، تَمْرِيهِ الْجَنُوبُ دِرَرَ أَهَاضِيبِهِ، وَ دُفَعَ شَآبِيبِهِ[٢٤]. فَلَمَّا أَلْقَتِ السَّحَابُ بَرْكَ بِوَانَيْهَا، وَ بَعَاعَ مَا اسْتَقَلَّتْ بِهِ مِنَ الْعِبْءِ الْمَحْمُولِ عَلَيْهَا، أَخْرَجَ بِهِ مِنْ هَوَامِدِ الْأَرْضِ النَّبَاتَ، وَ مِنْ زُعْرِ الْجِبَالِ الْأَعْشَابَ، فَهِيَ تَبْهَجُ بِزِينَةِ رِيَاضِهَا، وَ تَزْدَهِي بِمَا أُلْبِسَتْهُ مِنْ رَيْطِ أَزَاهِيرِهَا، وَ حِلْيَةِ مَا سُمِطَتْ بِهِ مِنْ نَاضِرِ أَنْوَارِهَا، وَ جَعَلَ ذَلِكَ بَلاَغاً لِلأَنَامِ، وَ رِزْقاً لِلأَنْعَامِ، وَ خَرَقَ الْفِجَاجَ فِي آفَاقِهَا، وَ أَقَامَ الْمَنَارَ لِلسَّالِكِينَ عَلَىٰ جَوَادِّ طُرُقِهَا[٢٥].

اللُّغَة:

أَرْض جُرُزَ: لا تنبت لعدم ٱلْمَاء. والرَّابِية: مَا ٱرْتَفع من الأَرْضِ. ولُمَع ـ بضم اللام وفتح الميم ـ جمع لُمْعِه ـ بسكون الميم ـ القطعة من النَّبَات مالت لليُبس. والقَزَع: قطع من صغار ٱلسَّحَاب. وتَمَخَّضَتْ: تحركت، وتهيأت. والُجَّةُ: مُعظم ٱلْمَاء. والمُزْنِ: ٱلسَّحَاب. والكُفَفِ ـ بضم الكاف ـ طَرف الشّيء، وَجَانبه. والوَمِيضُ: اللّمْعَان. وكَنَهْوَرِ ـ علىٰ وزن سَفَرْجَل ـ العَظِيم من ٱلسَّحَاب. والرَّبَابِ: ٱلسَّحَاب الأبيض. وسَحّاً: صبّا. ومُتَدَارِكاً: مُتلاحِقاً. وأَسَفَّ ٱلسَّحَاب، أو الطَّائر: دَنَا من الأَرْضِ. والهَيْدَبُ من الرّجال: ٱلْعَيُّ، أوكَثِير الشَّعر. ومن ٱلسَّحَاب: المُتدلي. والجَنُوبُ ـ بفتح الجيم ـ الرّيح الّتي تهب من الجهة المُقابلة للشّمال. وتَمْرِيهِ: من أمرت النّاقة إذَا دَرَّ لَبَنُها. ودِرَرَ ـ بكسر الدَّال ـ من دَرَّ اللَّبن.

والأَهَاضِيبِ: ما ٱرتَفَع من الأَرْض. والشَّآبِيبِ: ما نَزل من المَطَرِ بشدة. والبَرْكَ - بفتح الباء، وسكون الرّاء - الصَّدر. والبِوَانَي: مَا يَلي الصَّدر من الأَضْلاَع. وبَعَاعَ - بفتح الباء - ثقل ٱلسَّحَاب بِٱلْمَاء. والأَرْض الهَامِدَة: لا نَبات فِيها. وزُعْرٍ - بضم الزّاي - جَمع أَزْعَرُ. وَهو مِن الأَرْض مَا لا ينبت، أو قليل النَّبات. ورَيْطٍ: جَمع رِيْطَة، وَهِي المَلاءَة، أو الثَّوب. وسُمِطَتْ: من السّمط - بكسر السّين - الخَيط ما دَام الخَرز منتظماً فِيهِ، والأَنْوَار: جَمع نَور - بفتح النّون - الزّهر. والفِجَاجَ: جَمع فَجّ الطَّرِيق الوَاسع الوَاضِح بَيْنَ جَبَلِين. والجَوَادّ: جَمع جَادّة.

الإِعْرَاب:

الَّتِي تَقْصُرُ صِفَة للأَرْضِ، وأَرْسَلَهُ جَواب إِذَا تَمَخَّضَتْ، وسَحّاً مَفْعُول مُطلق مُبين للنَّوْع أي أرْسَالاً سَحّاً، وَدَرَّ مَفْعُول تَمْرِيهِ، وأَخْرَجَ بِهِ جواب فَلَمَّا ألقت.

ٱلْمَاء:

ٱلْحَيَاة باقية ما بقي ٱلْمَاء، وتَذهب بذهابه، ما فِي ذَلِكَ رَيْب، بل هو مَصْدَر الكَوْن وعنصره الوحيد علىٰ قَوْل، أو من عناصره، ومقوماته علىٰ قَوْل آخر.. ويغطي ٱلْمَاء أَكْثَر من ثلاثة أرباع سطح الأَرْضِ، ويوجد أيضاً في جوفها، وفي الجوّ علىٰ هيئة سحاب، وضباب، وعلىٰ رُؤُوس الجِبَالِ طوال أَيَّام السَّنَة ثلجاً، وجليداً، وأيضاً يتبخر ٱلْمَاء من النَّبات، والأشجار. ومن هنا تكثر الأمطار في الأَرْضِ ذات الغابات الكثيفة، والأشجار الضَّخمة.

المَعْنىٰ:

وأشار الإِمَام بقَوْله: (ثُمَّ لَمْ يَدَعْ جُرُزَ الأَرْضِ الَّتِي تَقْصُرُ مِيَاهُ العُيُونِ عَنْ

رَوَابِيهَا ، وَ لاَ تَجِدُ جَدَاوِلُ الْأَنْهَارِ ذَرِيعَةً إِلَىٰ بُلُوغِهَا ، حَتَّىٰ أَنْشَأَ لَهَا نَاشِئَةَ سَحَابٍ تُحْيِي مَوَاتَهَا ، وَتَسْتَخْرِجُ نَبَاتَهَا) . أَشار إِلىٰ أَنّ مِياه الْعُيُونِ ، وٱلأَنْهار لا تصل إِلىٰ الْأَرْضِ المُرتفعة إلّا بالمضخات ، ونَحْوَها ، ويتعذر ذَلِكَ علىٰ أَكْثَر الناس ، وبخَاصَّة في العصور الأُولىٰ ، فأنزل سُبْحَانَهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ، وأخرجت النَّبَات ، وٱلثَّمَرات (أَلَّفَ غَمَامَهَا بَعْدَ ٱفْتِرَاقِ لُمَعِهِ ، وَ تَبَايُنِ قَزَعِهِ) . جَمع الغَمَام المُرتفع فوق الْأَرْضِ بعد أنْ كَانَتْ أجزاؤه شَتَّىٰ هُنا وهناك ، ولَوْلاَ هَذَا الجمع ، والتَّأْلِيف ما تمخض الغَمَام عن قطرة مَاء .

(حَتَّىٰ إِذَا تَمَخَّضَتْ لُجَّةُ الْمُزْنِ فِيهِ ، وَ ٱلْتَمَعَ بَرْقُهُ فِي كُفَفِهِ) حَتَّىٰ تَحرك ٱلْمَاء فِي الغَمَام ، وٱحتك بعضه ببَعْض ، وأَضاء البرق في جوانبه (وَ لَمْ يَنَمْ وَمِيضُهُ) أي لَم ينقطع لمعان البرق (فِي كَنَهْوَرِ رَبَابِهِ) في قطع ٱلسَّحَاب البِيض المتراكمة (أَرْسَلَهُ سَحّاً مُتَدَارِكاً) جواب إِذَا أي بعد أنْ تراكمت قطع ٱلسَّحَاب ، ولَمَع البَرْق نَزَل الْمَطَر علىٰ الْأَرْضِ (قَدْ أَسَفَّ هَيْدَبُهُ) قرب الغَمَام من الأَرْضِ (تَمْرِيهِ الْجَنُوبُ دِرَرَ أَهَاضِيبِهِ) . تُنزل ريح الجَنوب المَطَر من الغَمَام الَّذي ٱرتفع فوق الْأَرْض كالأهاضيب أي كالتلال ، والجِبَالِ ، ويُقَال : هَضبت ٱلسَّمَاء أي مَطرت .

(وَ دُفَعَ شَآبِيبِهِ) . دُفع بضم الدّال جمع دُفْعَة أي دُفْقَة من المَطَرِ ، والشُّؤْبُوبُ ما ينزل من الْمَطَرِ بشدة ، وٱلْمَعْنىٰ أنّ ريح الجَنوب تُنزل ٱلْمَاء دُفْعَات بِدُفْق ، وقُوَّة (فَلَمَّا أَلْقَتِ السَّحَابُ بَرْكَ بِوَانَيْهَا) أي لمّا رَمت قطع ٱلسَّحَاب بصدرها علىٰ الْأَرْض ، وبَرْكَت كالنّاقة (وَ بَعَاعَ مَا ٱسْتَقَلَّتْ بِهِ مِنَ الْعِبْءِ الْمَحْمُولِ عَلَيْهَا) . وأَلقت قطع ٱلسَّحَاب كلّ ما فيها من ٱلْمَاء الَّذي كَانَتْ تنوء بثقله ، وحَمله (أَخْرَجَ بِهِ مِنْ هَوَامِدِ الْأَرْضِ النَّبَاتَ ، وَ مِنْ زُعْرِ الْجِبَالِ الْأَعْشَابَ) . لمّا نَزَل المَطَر أَخرجت الْأَرْض

النَّبَات، وكَانَتْ من قبل جَامِدَةً، هَامِدَةً، وكَذَلِكَ الأَعْشَاب نَبتت في الجِبَالِ ولم تَكُن من قبل تُنبت إلّا القَليل.

(فَهِيَ تَبْهَجُ بِزِينَةِ رِيَاضِهَا، وَ تَزْدَهِي بِمَا أُلْبِسَتْهُ مِنْ رَيْطِ أَزَاهِيرِهَا، وَ حِلْيَةِ مَا سُمِطَتْ بِهِ مِنْ نَاضِرِ أَنْوَارِهَا). تنشأ الأَرْض، وتَحيا بالمَطَرِ من جديد، فتتنفس بِالرَّبيع، وتَبتَسم بالورود، تَصفق بالأوراق، والأغصان، وتَتَزين بالأَلْوَانِ والأزاهير، وَلاَ شيء يعكس هَذَا ٱلْمَعْنىٰ كهذه الصورة ٱلْقُرْآنية: ﴿وَتَرَى ٱلْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنۢبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ﴾[1]. (وَجَعَلَ ذَلِكَ بَلاَغاً لِلأَنَامِ) أي ما يبلغون به حَاجاتهم، ويشبعون رَغَبَاتِهم. (وَ رِزْقاً لِلأَنْعَامِ) الّتي هِي رزق لِلأَنَام: ﴿وَذَلَّلْنَـٰهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ﴾[2]. (وَخَرَقَ الْفِجَاجَ فِي آفَاقِهَا). أي أوجد سُبْحَانَهُ الطُّرق الواسعة الْوَاضِحَة بَيْنَ الْجِبَالِ (وَ أَقَامَ الْمَنَارَ لِلسَّالِكِينَ عَلَىٰ جَوَادِّ طُرُقِهَا). الْمُرَاد بالْمَنَار هُنا العَلاَمَاتُ كالجِبَالِ، وٱلْنُّجُوم، ونَحْوَها مِمَّا يُهْتَدىٰ به إِلىٰ ٱلسَّبِيل، وٱلْمَعْنىٰ أَنّه تَعَالَىٰ مَهد السُّبُل للسير، وأَقام العَلاَمَاتُ الْوَاضِحَة علىٰ هَذِه السُّبُل.

حَوْلَ آدمَ...فِقْرَة ٢٦ ـ ٢٨:

فَلَمَّا مَهَدَ أَرْضَهُ وَ أَنْفَذَ أَمْرَهُ ٱخْتَارَ آدَمَ، ﷺ، خِيرَةً مِنْ خَلْقِهِ، وَ جَعَلَهُ أَوَّلَ جِبِلَّتِهِ، وَأَسْكَنَهُ جَنَّتَهُ، وَأَرْغَدَ فِيهَا أُكُلَهُ، وَ أَوْعَزَ إِلَيْهِ فِيمَا نَهَاهُ عَنْهُ، وَ أَعْلَمَهُ أَنَّ فِي الْإِقْدَامِ عَلَيْهِ التَّعَرُّضَ لِمَعْصِيَتِهِ، وَالْمُخَاطَرَةَ بِمَنْزِلَتِهِ، فَأَقْدَمَ عَلَىٰ مَا نَهَاهُ عَنْهُ ـ مُوَافَاةً

(١) ٱلْحَجّ: ٥.

(٢) سُورَةُ يٰس: ٧٢.

لِسَابِقِ عِلْمِهِ ـ[٢٦] فَأَهْبَطَهُ بَعْدَ التَّوْبَةِ لِيَعْمُرَ أَرْضَهُ بِنَسْلِهِ، وَ لِيُقِيمَ الْحُجَّةَ بِهِ عَلَىٰ عِبَادِهِ، وَ لَمْ يُخْلِهِمْ بَعْدَ أَنْ قَبَضَهُ، مِمَّا يُؤَكِّدُ عَلَيْهِمْ حُجَّةَ رُبُوبِيَّتِهِ، وَ يَصِلُ بَيْنَهُمْ وَ بَيْنَ مَعْرِفَتِهِ، بَلْ تَعَاهَدَهُمْ بِالْحُجَجِ عَلَىٰ أَلْسُنِ الْخِيَرَةِ مِنْ أَنْبِيَائِهِ، وَمُتَحَمِّلِي وَدَائِعِ رِسَالاَتِهِ، قَرْناً فَقَرْناً، حَتَّىٰ تَمَّتْ بِنَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ ﷺ ـ حُجَّتُهُ، وَ بَلَغَ الْمَقْطَعَ عُذْرُهُ، وَ نُذُرُهُ[٢٧]. وَقَدَّرَ الأَرْزَاقَ فَكَثَّرَهَا، وَ قَلَّلَهَا، وَ قَسَّمَهَا عَلَىٰ الضِّيقِ، وَ السَّعَةِ فَعَدَلَ فِيهَا لِيَبْتَلِيَ مَنْ أَرَادَ بِمَيْسُورِهَا، وَ مَعْسُورِهَا، وَ لِيَخْتَبِرَ بِذَلِكَ الشُّكْرَ، وَ الصَّبْرَ مِنْ غَنِيِّهَا، وَ فَقِيرِهَا. ثُمَّ قَرَنَ بِسَعَتِهَا عَقَابِيلَ فَاقَتِهَا، وَ بِسَلاَمَتِهَا طَوَارِقَ آفَاتِهَا، وَ بِفُرَجِ أَفْرَاحِهَا غُصَصَ أَتْرَاحِهَا، وَ خَلَقَ الآجَالَ فَأَطَالَهَا، وَ قَصَّرَهَا، وَ قَدَّمَهَا، وَ أَخَّرَهَا، وَ وَصَلَ بِالْمَوْتِ أَسْبَابَهَا، وَ جَعَلَهُ خَالِجاً لأَشْطَانِهَا، وَ قَاطِعاً لِمَرَائِرِ أَقْرَانِهَا[٢٨].

اللُّغَة:

جِبِلَّتِهِ: خِلْقَتِهِ. وَرَغَدَ العَيْش: طَابَ وٱتسع. وٱلْقَرْنُ: مئة سَنَة، وزمن أُمّة وَاحِدَة، وأمدٌ من الزَّمن. والْمَقْطَعَ: الخَاتِمَة، ومَقْطَعَ الكَلاَم مَوضع الوقوف، ومَقْطَعَ الْحَقّ، ما يَقطع بِهِ الْبَاطِل. والعَقَابِيلَ: الشَّدَائِد. والفَاقَة: الْفَقْر. والفُرَج: الخَلاص من الشِّدَّة. والأَشْطَانِ: الحِبَال. والمَرَائِر: الحِبَال الطَّوِيلة المَفْتُولة.

الإِعْرَاب:

خِيَرَةً حَال مِن آدَمَ أي خَيراً، أو خيّراً وطَيّباً، ومُوَافَاةً صِفة لمَفْعُول مُطلق مَحْذُوف أي أَقْدَم علىٰ المَعْصِيَة إقْدَاماً مُطابقاً لسَابق عِلم الله بأنّ هَذَا الإِقْدَام سَيكون من آدَمَ، وقيل: مُوَافَاةً نُصب علىٰ المَصْدَرِيَة، وقَرْناً نُصب علىٰ الظَّرفِيَة.

والْمَقْطَعَ مَفْعُول بَلَغَ أي بَلَغَ العُذر الْمَقْطَع أي النِّهَايَة.

لِلمِنْبَرِ ـ حَوْلَ ٱلإِسْلَامِ، وٱلْعَمَل:

(فَلَمَّا مَهَدَ أَرْضَهُ وَأَنْفَذَ أَمْرَهُ ٱخْتَارَ آدَمَ ،ﷺ ،خِيرَةً مِنْ خَلْقِهِ ،وَجَعَلَهُ أَوَّلَ جِبِلَّتِهِ ، وَأَسْكَنَهُ جَنَّتَهُ ، وَأَرْغَدَ فِيهَا أُكُلَهُ ، وَأَوْعَزَ إِلَيْهِ فِيمَا نَهَاهُ عَنْهُ ، وَأَعْلَمَهُ أَنَّ فِي الإِقْدَامِ عَلَيْهِ التَّعَرُّضَ لِمَعْصِيَتِهِ ، وَالْمُخَاطَرَةَ بِمَنْزِلَتِهِ). بعد أنْ أشار الإمَامﷺ إلىٰ صِفة ٱلْمَلَائِكَة ، والأَرْض أَشار إِلىٰ قِصَّة آدَمَ أبي البَشر . وإنّه ٱلإنْسَان الأَوَّل من نَوْعه ، وفي حَقِيقَته ، أو في عَهْدِه . وزَمَانه كما يُومىء قَول الإمَام: «وَجَعَلَهُ أَوَّلَ جِبِلَّتِهِ». والله سُبْحَانَهُ خَلق آدَمَ من تُراب هَذِه الأرْض أُمّ الدّواهِي ، والْمَصَائِب ، وٱلْمَوْت ، والفناء.. ومَع هَذَا أَسكنه في جنّة لا ينقطع نَعِيمُهَا ، وَلاَ يَظعن مُقيمها.. وتشعر الآيَة: ﴿وَقَالَ ـ أي الشَّيْطَان لآدَم وحواء ـ مَا نَهَـٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَـٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ ٱلْخَـٰلِدِينَ﴾[1]. تُشعر هَذِه الآيَة أنّ آدَم وحواء قد طاب لهما المقام في جنّة الخُلد ، والنَّعِيم ، وأنّهما خافا بوسوسة الشَّيْطَان أنْ لا يطول مقامها في ٱلْجَنَّة ، وأنْ يُطردا ، وأنّه لا وسيلة للخُلود ، والبقاء إلّا أنْ يأكلا من الشَّجَرَة الُمحرمة... مَع أنّ النّقيض هو الصحيح ، وأنّ الأكل مِنْهَا هو سبب الطَّرد ، والنَّفي ، ولَكِنَّهُما ٱستجابا لِلشَّيْطَانِ ، وكَانَ مِنْهُمَا ما كَانَ.

وَقَالَ ماجن ، أو حكيم : أنّ آدَمَ كَانَ يَعلم حقّ ٱلْعِلْم بأنّه لا يُطرد من ٱلْجَنَّة إِلىٰ الأَرْض إلّا إِذَا أَكل من الشَّجَرَة ، ومَع هَذَا أَقدم ، وأكل عن عمدٍ ، ويقصد أنْ يُطرد ،

---

(١) ٱلأَعْرَافِ: ٢٠.

ويُنفىٰ إلىٰ الْأرْض، لأنّه ملَّ حَيَاة الكسل، والبطالة مَع النَّعِيم، والخُلود، وآثر عَلَيْهَا حَيَاة الجدِّ، وٱلْعَمَل مَع الآلاَم، والمتَاعِب، لأنّ مُتعة ٱلْعَمَل، والإنتاج تفوق كلّ مُتعة حَتَّىٰ مُتعة الخلود في النَّعِيمِ، وكفىٰ بٱلْعَمَل مُتعة، وعظمة إنّ ٱلإِنْسَان لا يصل إلىٰ الكَمَال، ويَسْتَحِيل أنْ يصل إِلَيْهِ إلاّ بٱلْعَمَل، وَإِذَا أَردنا أنْ نُحدد الْإِسْلاَم بكَلِمَة وَاحِدَة فلا نجد كَلِمَة أجمع، وأمنع من كَلِمَة «ٱلْعَمَل الصَّالِح» ومن أجل هَٰذَا كررها سُبْحَانَهُ في كتابه العزيز عشرات المَرَّات، وأَناط بِهَٰذَا ٱلْعَمَل سَعَادَة الدُّنْيَا، والْآخِرَةِ[1]، وبكَلِمَة ثَانِيَة أنّ لِلْإِسْلاَم مخطط للعمل الَّذي خلق ٱلإِنْسَان من أجله، وَلاَ شك في أنّ ٱلإِنْسَان خُلق للخير، لا للشر، وللصلاح لا للفساد.

(فَأَقْدَمَ عَلَىٰ مَا نَهَاهُ عَنْهُ ـ مُوَافَاةً لِسَابِقِ عِلْمِهِ ـ) تَعَالَىٰ بأنّ آدَمَ سيَأْكُل من الشَّجَرَة برغم النَّهي، والتَّحْذِير.

وتَسْأَل: إنّ علمه تَعَالَىٰ لا يَتخلف عن المعلوم تَمَاماً كإرادته الّتي لا تتخلف عن الْمُرَاد، وَإِذَا كَانَ سُبْحَانَهُ يَعلم مُقدماً بأنّ ٱلإِنْسَان سيعصي، ويخالف الْأَمْر، والنَّهي فمعنىٰ هَٰذَا أنّ إِرَادَة ٱلإِنْسَان مغلوبة لعلم الله، وبالتالي يَكُون ٱلإِنْسَان مُسيّراً لا مخيّراً، وإذَنْ لِمَاذَا الحِسَاب، والعقاب؟.

---

(١) أنظر، علىٰ سَبِيل المثال الآيَة الكريمة: ﴿وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ كُلَّمَا رُزِقُواْ مِنْهَا مِن ثَمَرَةٍ رِّزْقًا قَالُواْ هَـٰذَا ٱلَّذِى رُزِقْنَا مِن قَبْلُ وَأُتُواْ بِهِۦ مُتَشَـٰبِهًا وَلَهُمْ فِيهَآ أَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَهُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ﴾ (ٱلْبَقَرَة: ٢٥). والآيَة: ﴿وَعَمِلَ صَـٰلِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ ٱلْبَقَرَة: ٦٢ و ٨٣ و ٢٧٧، وآلِ عِمْرَانَ: ٥٧، وٱلنِّسَاء: ٥٧ و ١٢٢ و ١٧٣، وٱلْمَائِدَة: ٩، و ٦٩ و ٩٣، ٱلْأَعْرَاف: ٤٢ و ٤ و ٩، هُودٍ: ١١ و ٢٢، ٱلرَّعْد: ٢٩، إبْرَاهِيم: ٢٣، ٱلإِسْرَاء: ٩، ٱلْكَهْف: ٢ و ٣٠.

الجَوَاب:

فرق كبير بَيْنَ سابق علمه تَعَالَىٰ بسُوء اختيار العبد لفعل الشَّرّ، وبَيْنَ سابق عِلمه سُبْحَانَهُ بفعل الشَّرّ من حَيْث هو، وبصرف النّظر عن إرَادَةٍ فاعلة، واختياره له، فإن الْعِلْم الأَوَّل مُجرد كشف عن وجود المعلوم في الحَال، أو الإستقبال تَمَاماً كعِلم الأُستاذ بأنّ هٰذَا التِّلميذ النّجيب النّشيط مستقبلاً زاهراً، وكعِلمك بأنّ فلاناً الَّذي تعرفه جيداً سيرفض لا مَحَالَةَ لوناً مُعيناً من الطّعام متىٰ قُدم له. وأمّا الْعِلْم الثَانِي فلَيْسَ كشفاً عن وجود الفِعْل، بل عِلّة لوجوده... وبكلام آخر: فرقٌ بَيْنَ قولك: علمت بأنّ زيداً سيسافر غداً، وبَيْنَ قولك: لمّا عِلمت بأنّه يُسافر سافر... وعِلمه تَعَالَىٰ بصدور الفِعْل من العبد هو من النّوْع الأَوَّل.

الأَرْض، والإِنْسَان:

(فَأَهْبَطَهُ بَعْدَ التَّوْبَةِ لِيَعْمُرَ أَرْضَهُ بِنَسْلِهِ). الأَرْض ذَرة صَغيرة، أُلقي بِها في خِضم الكَوْن، أمّا نسبة الإِنْسَان إلىٰ الأَرْض فَهِيَ تَمَاماً كنسبتها إلىٰ الكَوْن العجيب، ومَع هٰذَا فإنّ الإِنْسَان عند نَفْسِه هو النِّهَايَة، والْغَايَة الّتي وجِد الكَوْن من أجلها... وبعد أنْ تقدم الإِنْسَان بعَقْله، وعلمه شَعر بضآلته، بل شعر بأنّه أَكْثَر وحشية من الوحوش الكاسرة... وعلىٰ أيّة حَال فنحن من الأَرْض ولدنا، وإِلَيْهَا نعود، ومِنْهَا أقواتنا، وحياتنا، وفيها علومنا، وحضارتنا... ويحتم هٰذَا أنْ نتعاون جَمِيعَاً علىٰ عمارتها، وإحيائها، ونتقاسم خيراتها بالْعَدْل علىٰ أنْ يسدد كلّ واحد حسابه بِمَا يبذله من جهدٍ، وعمل في هٰذَا السَّبِيل.

(وَ لِيُقِيمَ الْحُجَّةَ بِهِ عَلَىٰ عِبَادِهِ، وَ لَمْ يُخْلِهِمْ بَعْدَ أَنْ قَبَضَهُ). ضَمير بِه يَعود إلىٰ

آدَمَ، وقَوْله حجّة قَاطِعَة علىٰ مَـن سَمْـعَه مُـبَاشرة كأَوْلاَده الأقـربَيْنَ، أو روايـةً كالأَوْلاَد الأبعدين تَمَاماً كغيره من ٱلأَنْبِيَاء (وَ لَمْ يُخْلِهِمْ بَعْدَ أَنْ قَبَضَهُ، مِمَّا يُؤَكِّـدُ عَلَيْهِمْ حُجَّةَ رُبُوبِيَّتِهِ، وَ يَصِلُ بَيْنَهُمْ وَ بَيْنَ مَعْرِفَتِهِ، بَلْ تَعَاهَدَهُمْ بِالْحُجَجِ عَلَىٰ أَلْسُنِ الْخِيَرَةِ مِنْ أَنْبِيَائِهِ، وَمُتَحَمِّلِي وَدَائِعِ رِسَالاَتِهِ، قَـرْناً فَـقَرْناً، حَـتَّىٰ تَـمَّتْ بِـنَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ ﷺ ـ حُجَّتُهُ، وَ بَلَغَ الْمَقْطَعَ عُذْرُهُ، وَ نُذُرُهُ). أرسل سُبْحَانَهُ بعد آدَمَ كَـثِيراً من ٱلأَنْبِيَاء مُبشرين الخَلاَئِق، ومُنْذِرين ليكونوا علىٰ صِلة دائمَة بالله، وشريعته، وَلاَ فرق بَيْنَ مُتقدم، ومتأخر من حَيْثُ الدَّعْوَة إِلىٰ الله سُبْحَانَهُ، بل لا فـرق بَـيْنَ ٱلعُلَمَاء الأتقياء، وبَيْنَ الأَوْلِيَاء من هَذِه الجهة، وإِنَّمَا الفرق بَيْنَ أُولي العزم وغَيْرهم من ٱلأَنْبِيَاء.

وجاء فِي كَثِير من التَّفاسير أنّ أُولي العزم خَمسة: نُوح، وإِبْرَاهِـيم، ومُـوسَىٰ، وعِيسَىٰ، ومُحَمّد ﷺ[1]، وقدكَانَ لكلّ واحد مِنْهُم شَرِيعَة خَاصَّة أوجب الله ٱلْعَمَل بها علىٰ جَمِيع خلقه إِلىٰ عهد الَّذي يَليه من الخَمْسَة، فـتنسخ اللاحـقةُ الشَّرِيـعَةَ السّابقة... إِلىٰ شَرِيعَة مُحَمّد ﷺ سيّد المُرْسَلِين، وخاتم النَّبِيِّين، فإِنَّهَا ناسخة غَيْر منسوخة إِلىٰ يَوْم ٱلقِيَامَة، أمّا ٱلأَنْبِيَاء الآخرون ـ غَيْر أُولي العزم ـ فقد كَانَ كـلّ واحد مِنْهُم يعمل بشَرِيعَة من سَبقه من أُولي العزم. وذكرنا السّبب المُوجب لختم النُّبُوَّة بمُحَمّد ﷺ، والشّرائع بشريعته[2].

(وَقَدَّرَ الْأَرْزَاقَ فَكَثَّرَهَا، وَ قَلَّلَهَا، وَ قَسَّمَهَا عَلَىٰ الضِّيقِ، وَ السَّعَةِ). هَـذَا مَـع أَمْرِه بٱلْعَمَل وبذل المجهود: ﴿فَانتَشِرُوا فِى ٱلْأَرْضِ وَٱبْتَغُوا مِن فَضْلِ ٱللَّهِ وَٱذْكُرُوا

(١) أنظر، شرح أصول الكَافِي: ٣٧٥/٧، مناقب آل أبي طالب: ٢٦٠/١، تفسير المِيزَان: ٢٢١/١٨.
(٢) أنظر، الخُطْبَة: ٧٢.

ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾[1] وَلاَ بُدّ للأَرْضِ من العرق، والحرث، أمّا تقديره تَعَالىٰ فمبني علىٰ ٱلْمَصْلَحَة، وٱلْحِكْمَة، وأَشار الإِمَام إِلىٰ هَذِه ٱلْحِكْمَة بقَوْله: (فَعَدَلَ فِيهَا لِيَبْتَلِيَ مَنْ أَرَادَ بِمَيْسُورِهَا، وَ مَعْسُورِهَا، وَ لِيَخْتَبِرَ بِذَلِكَ الشُّكْرَ، وَ الصَّبْرَ مِنْ غَنِيِّهَا، وَ فَقِيرِهَا. ثُمَّ قَرَنَ بِسَعَتِهَا عَقَابِيلَ فَاقَتِهَا، وَ بِسَلاَمَتِهَا طَوَارِقَ آفَاتِهَا، وَ بِفُرَجِ أَفْرَاحِهَا غُصَصَ أَتْرَاحِهَا). وَسع سُبْحَانَهُ في ٱلرِّزْق علىٰ هَذَا، وضَيّق علىٰ ذَلِكَ، وهو في قِسمته هَذِه عادل، وحكيم، ووجهُ الْعَدْل أنّه تَعَالىٰ قَرن بالْغَنِيّ، والسّعة الكَثِير من الشَّدَائِد كالأَسْقَام، والمَتَاعِب، فقد تَمُرّ بالْغَنِيّ لحظات يَكُون فيها مُستعداً لكي ينفق جَمِيع ما يملك للخلاص مِمَّا هو فِيهِ... هَذَا، إِلىٰ نقاش الحِسَاب علىٰ ما جَمع، وأَنفق، «إِنّ صَاحب الدّرهم يَوم ٱلْقِيَامَة أَخف حِساباً من صَاحب الدّرهمين»[2]. كما قَالَ (أبو ذَرّ)، ومن لا يَملك شَيْئاً أَخف مِمَّنْ يَملك، وَقَالَ سُبْحَانَهُ: ﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لَيَطْغَىٰٓ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ﴾[3] أَمَا وَجهُ ٱلْحِكْمَة فإِنَّه، جَلَّت كلمته، «يَخْتَبِرُهُمْ ـ الْعِبَاد ـ بِالأَمْوَالِ، وَالأَوْلاَدِ، لِيَتَبَيَّنَ السَّاخِطَ لِرِزْقِهِ، وَالرَّاضِيَ بِقِسْمِهِ، وَ إِنْ كَانَ ـ سُبْحَانَهُ ـ أَعْلَمَ بِهِمْ مِنْ أَنْفُسِهِمْ، وَلَكِنْ لِتَظْهَرَ الأَفْعَالُ الَّتِي بِهَا يُسْتَحَقُّ الثَّوَابُ، وَالْعِقَابُ لاِنَّ بَعْضَهُمْ يُحِبُّ الذُّكُورَ، وَيَكْرَهُ الإِنَاثَ، وَبَعْضَهُمْ يُحِبُّ تَثْمِيرَ الْمَالِ، وَيَكْرَهُ ٱنْثِلاَمَ الْحَالِ»[4] علىٰ حَدّ ما قَالَ الإِمَام عليه السلام.

(وَ خَلَقَ ٱلآجَالَ فَأَطَالَهَا، وَ قَصَّرَهَا، وَ قَدَّمَهَا، وَ أَخَّرَهَا). أي قَدَّم حَيَاة بعضٍ،

---

(١) ٱلجُمُعَة: ١٠.

(٢) أُنظر، تَذكِرة المَوْضُوعَات للفتني: ١٧٨.

(٣) ٱلعَلَق: ٦ ـ ٧.

(٤) أُنظر، نَهج البَلاَغَة: ٱلحِكْمَة (٩٣).

وأَخَّرَ حَيَاة آخر، كما قَدَّمَ حَيَاة مُوسَىٰ، وعِيسَىٰ علىٰ حَيَاة مُحَـمَّد ﷺ. (وَ وَصَـلَ بِالْمَوْتِ أَسْبَابَهَا) أي أَسْبَاب قصر ٱلآجَال، ونهايتها، كالمرض، والْقَتْل ونَحْوَهما (وَ جَعَلَهُ خَالِجاً لأَشْطَانِهَا). الهَاء فِي جَعَلَهُ للمَوْت، وفِي الإشْطَان للآجَال، ومَعْنَىٰ الأَشْطَانِ الحِبَال، والخَالِجَ الجَاذب، وٱلْمَعْنَىٰ أنّ ٱلْمَوْت يَجذب ٱلآجَال إِلَيْهِ، ويقربها مِنْهُ (وَقَاطِعاً لِمَرَائِرِ أَقْرَانِهَا) أي كما أنّ ٱلْمَوْت يجذب إِلَيْهِ حِبَال ٱلآجَال فَهُوَ أَيضاً يَقطع هَذِه الحِبال الّتي كَانَ يظنُّ أَنَّهَا قَوية مَتينة كما يحدث لبعض الشّباب المعافىٰ.

حَوْلَ عِلمه تَعَالَىٰ...فِقْرَة ٢٩ ـ ٣١:

عَالِمُ السِّرِّ مِنْ ضَمَائِرِ الْمُضْمِرِينَ، وَ نَجْوَىٰ الْمُتَخَافِتِينَ، وَ خَوَاطِرِ رَجْمِ الظُّنُونِ، وَ عُقَدِ عَزِيمَاتِ الْيَقِينِ، وَ مَسَارِقِ إِيمَاضِ الْجُفُونِ، وَ مَا ضَمِنَتْهُ أَكْنَانُ الْـقُلُوبِ، وَغَيَابَاتُ الْغُيُوبِ، وَ مَا أَصْغَتْ لِاسْتِرَاقِـهِ مَـصَائِخُ الْأَسْـمَاعِ، وَ مَـصَايِفُ الذَّرِّ، وَمَشَاتِي ٱلْهَوَامِّ، وَ رَجْعِ ٱلْحَنِينِ مِنَ الْمُولَهَاتِ، وَهَمْسِ الْأَقْدَامِ، وَ مُنْفَسَحِ الثَّمَرَةِ مِنْ وَلاَئِجِ غُلُفِ الْأَكْمَامِ، وَ مُنْقَمَعِ الْوُحُوشِ مِنْ غِيرَانِ الْجِبَالِ، وَأَوْدِيَتِهَا، وَ مُخْتَبَإِ الْبَعُوضِ بَيْنَ سُوقِ الْأَشْجَارِ، وَ أَلْحِيَتِهَا [٢٩]. وَ مَغْرِزِ الْأَوْرَاقِ مِنَ الْأَفْنَانِ، وَمَـحَطِّ الْأَمْشَاجِ مِنْ مَسَارِبِ الْأَصْلاَبِ، وَ نَـاشِئَةِ الْـغُيُومِ، وَ مُـتَلاَحِمِهَا، وَ دُرُورِ قَـطْرِ السَّحَابِ فِي مُتَرَاكِمِهَا، وَ مَا تَسْفِي الْأَعَاصِيرُ بِذُيُولِهَا، وَ تَعْفُو الْأَمْطَارُ بِسُيُولِهَا.

وَ عَوْمِ بَنَاتِ الْأَرْضِ فِي كُثْبَانِ الرِّمَالِ، وَ مُسْتَقَرِّ ذَوَاتِ الْأَجْنِحَةِ بِذُرَا شَنَاخِيبِ الْجِبَالِ، وَ تَغْرِيدِ ذَوَاتِ الْمَنْطِقِ فِي دَيَاجِيرِ الْأَوْكَـارِ، وَ مَـا أَوْعَـبَتْهُ الْأَصْـدَافُ، وَحَضَنَتْ عَلَيْهِ أَمْوَاجُ الْبِحَارِ، وَ مَا غَشِيَتْهُ سُدْفَةُ لَيْلٍ أَوْ ذَرَّ عَلَيْهِ شَارِقُ نَهَارٍ [٣٠]، وَ مَا ٱعْتَقَبَتْ عَلَيْهِ أَطْبَاقُ الدَّيَاجِيرِ، وَ سُبُحَاتُ النُّورِ، وَ أَثَرِ كُلِّ خَطْوَةٍ، وَ حِسِّ كُـلِّ

حَرَكَةٍ ، وَ رَجْعِ كُلِّ كَلِمَةٍ ، وَ تَحْرِيكِ كُلِّ شَفَةٍ ، وَ مُسْتَقَرِّ كُلِّ نَسَمَةٍ ، وَ مِثْقَالِ كُلِّ ذَرَّةٍ ، وَ هَمَاهِمِ كُلِّ نَفْسٍ هَامَّةٍ ، وَ مَا عَلَيْهَا مِنْ ثَمَرِ شَجَرَةٍ ، أَوْ سَاقِطِ وَرَقَةٍ ، أَوْ قَرَارَةِ نُطْفَةٍ ، أَوْ نُقَاعَةِ دَمٍ ، وَ مُضْغَةٍ ، أَوْ نَاشِئَةِ خَلْقٍ ، وَ سُلاَلَةٍ(٣١).

الإعْرَاب:

عَالِمُ السِّرِّ خَبَرٌ لِمُبْتَدَأ مَحْذُوف ، أي هو عَالِمُ السِّرِّ ، ومَا بَعْدَهُ إِلىٰ آخر المَقطع عَطف عَلَيْهِ.

الْمَعْنىٰ:

هَذَا القسم ، أو المَقطع بكامله يَتلَخَص في أنّ الله سُبْحَانَهُ بكلّ شيء عَلِيم سواء أَكَانَ جزئياً ، أم كُلياً ، مَحسوساً أَم غَيْرَ مَحسوس ، وما ذكره من الضّمائر ، والخواطر ، والذّر ، والبعوض ... إلىٰ نقَاعة الدّم ، وناشئة اَلْخَلْق ـ كلّ ذَلِكَ مُجرد أَمثلة ، وَلاَ شيء وَرَاءَها إلّا الْبَيَان ، والإيضَاح أنّ الله يَعلم ما في اَلْسَّماوَات والأَرْض ، ومن أجل هَذَا نقتصر علىٰ تَفْسِير المفردات المُشْكِلَة كعادتنا في فِقْرَة (اللُّغَة).

(عَالِمُ السِّرِّ مِنْ ضَمَائِرِ الْمُضْمِرِينَ). كلّ سرّ عنده تَعَالىٰ عَلاَنِيَة (وَ نَجْوَىٰ الْمُتَخَافِتِينَ) تَخَافتَ بكلاَمه خَفضه ، وأَخفَاه (وَ خَوَاطِرِ رَجْمِ الظُّنُونِ) أي مَا لا واقع له مِنْهَا ، وَلاَ دَلِيل (وَ عُقَدِ عَزِيمَاتِ الْيَقِينِ) ما عَقَدتَ عَلَيْهِ ضَمِيرك من غَيْر تردد (وَ مَسَارِقِ إِيمَاضِ الْجُفُونِ) نظرات تسترقها الْعُيُون في السِّرّ ، والْخَفَاء ، قَالَ سُبْحَانَهُ: ﴿يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِى ٱلصُّدُورُ﴾(١). (وَ مَا ضَمِنَتْهُ أَكْنَانُ

---

(١) غَافِر: ١٩.

الْقُلُوبِ) ما سترته، وأخفته (وَ غَيَابَاتُ الْغُيُوبِ) أي أعماقها، وجذورها.

(وَ مَا أَصْغَتْ لِاسْتِرَاقِهِ مَصَائِخُ الْأَسْمَاعِ) أي مخارق الأسماع، وهي الآذان (وَ مَصَايِفُ الذَّرِّ) محل اصطياف صغار النمل (وَمَشَاتِي الْهَوَامِّ) أي الحشرات، ومشاتيها محلها في الشتاء (وَ رَجْعِ الْحَنِينِ مِنَ الْمُولَهَاتِ). ويعلم سُبْحَانَهُ مَا تَرَدَّده كلّ حَزينة من قولٍ، وحسرةٍ، وأنين (وَ هَمْسِ الْأَقْدَامِ) ما خفي من صَوْتها حين تمشي على الأرض (وَ مُنْفَسَحِ الثَّمَرَةِ مِنْ وَلاَئِجِ غُلُفِ الْأَكْمَامِ) يَعلم بالثَّمَرة وَهِي في غلافها، وقبل أنْ تظهر للعيان (وَ مُنْقَمَعِ الْوُحُوشِ مِنْ غِيرَانِ الْجِبَالِ، وَأَوْدِيَتِهَا). وَالمُنْقَمَع: موضع الاختفاء، والغِيرَان: جَمع غَار، وهو الكَهْف.

(وَ مُخْتَبَإِ الْبَعُوضِ بَيْنَ سُوقِ الْأَشْجَارِ، وَ أَلْحِيَتِهَا). وسُوق: جَمع سَاق، وألحِيَة: جَمع لِحَاء أي القِشْرُ (وَ مَغْرِزِ الْأَوْرَاقِ مِنَ الْأَفْنَانِ) أي الأغصان، وَمَغْرِز الأوْرَاق محلها الّذي نبتت، وبقيت فِيهِ إلىٰ حِين سقوطها (وَمَحَطِّ الْأَمْشَاجِ) النُّطْف (مِنْ مَسَارِبِ الْأَصْلاَبِ) وَهِي ما يَتسرب المَني فيها عِند نزوله (وَ نَاشِئَةِ الْغُيُومِ، وَمُتَلاَحِمِهَا) ويعلم من أين تنشأ الغيوم؟ وكَيْفَ تَجْتَمِع، وتلتئم؟ (وَ دُرُورِ قَطْرِ السَّحَابِ فِي مُتَرَاكِمِهَا) حَتّىٰ قطرات المَطَر يعلمها علىٰ كثرها، وسرعتها، وتراكمها.

(وَ مَا تَسْفِي الْأَعَاصِيرُ بِذُيُولِهَا) وهو يَعلم كلّ ما تذروه الرّياح (وَ تَعْفُو الْأَمْطَارُ بِسُيُولِهَا) تَأتِي عَلَيْهِ، وتمحوه (وَ عَوْمِ بَنَاتِ الْأَرْضِ) أي حركة الحشرات (فِي كُثْبَانِ الرِّمَالِ) تَلاها (وَ مُسْتَقَرِّ ذَوَاتِ الْأَجْنِحَةِ) والطُّيُور (بِذُرَا شَنَاخِيبِ الْجِبَالِ) أَعالي رُؤُوسها (وَ تَغْرِيدِ ذَوَاتِ الْمَنْطِقِ فِي دَيَاجِيرِ الْأَوْكَارِ) أي ظُلماتها، وَغَرَد الطّائر رفع صَوْته بالغناء (وَ مَا أَوْعَبَتْهُ الْأَصْدَافُ) أي جَمعته، والأَصْدَاف: جمع

صَدَف ـ بفتح الصّاد والدّال ـ وَهِي غلاف اللُّؤلؤ، ونَحْوَه (وَ حَضَنَتْ عَلَيْهِ أَمْـوَاجُ الْبِحَارِ) كالعنبر، ونَحْوَه مِمَّا يتولد في اَلْبِحَار.

(وَ مَا غَشِيَتْهُ سُدْفَةُ لَيْلٍ) أي غَطته ظُلمة اَللَّيْل (أَوْ ذَرَّ عَلَيْهِ شَارِقُ نَـهَارٍ) أي طَلع عَلَيْهِ النَّهار (وَ مَا اَعْـتَقَبَتْ عَـلَيْهِ أَطْـبَاقُ الدَّيَـاجِيرِ). اَعْـتَقَبَتْ: تَـعَاقَبَتْ، والأَطْبَاقُ: الأغْطِيَة، الدَّيَاجِير: الظُّلمات (وَ سُبُحَاتُ النُّورِ) موجات الضّوء (وَ أَثَرِ كُلِّ خَطْوَةٍ) ما رَسَم من المَشي علىٰ الأَرْض (وَ حِسِّ كُلِّ حَرَكَةٍ) صَوْتها (وَ رَجْعِ كُلِّ كَلِمَةٍ) الرَّجيع من الكَلاَم المردود إِلىٰ صاحبه (وَ مِثْقَالِ كُلِّ ذَرَّةٍ) وزنها (وَ هَمَاهِمِ كُلِّ نَفْسٍ هَامَّةٍ) تَرديد الصَّوْت في الْمَصْدَر من اَلْهَمّ.

(وَ مَا عَلَيْهَا ـ أي عَلَىٰ الأَرْضِ ـ مِنْ ثَمَرِ شَـجَرَةٍ، أَوْ سَـاقِطِ وَرَقَـةٍ) كَـما قَـالَ سُبْحَانَهُ: ﴿وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُـلُمَـٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَايَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَـٰبٍ مُّبِينٍ﴾[1]. (أَوْ قَرَارَةِ نُطْفَةٍ) في اَلْأَرْحَامِ (أَوْ نُـقَاعَةِ دَمٍ) مـا تَستقر بِه قَطرات الدّم (وَ مُضْغَةٍ) الشّيء الشّيء يُمضغ، أو ما يَشبهه (أَوْ نَاشِئَةِ خَلْقٍ، وَ سُلاَلَةٍ) ناشئة اَلْخَلْق اَبتداؤه، أو صُورته، والسّلالة النَّسل، أو الأَصل.

لاَ كُلْفَةٌ، ولاَ مَلاَلَةٌ... فِقْرَة ٣٢ ـ ٣٣:

لَمْ يَلْحَقْهُ فِي ذَلِكَ كُلْفَةٌ، وَ لاَ اَعْتَرَضَتْهُ فِي حِفْظِ مَا اَبْتَدَعَ مِنْ خَلْقِهِ عَارِضَةٌ، وَ لاَ اَعْتَوَرَتْهُ فِي تَنْفِيذِ الْأُمُورِ، وَ تَدَابِيرِ الْمَخْلُوقِينَ مَلاَلَةٌ، وَ لاَ فَتْرَةٌ، بَلْ نَفَذَهُمْ عِلْمُهُ، وَ أَحْصَاهُمْ عَدَدُهُ، وَ وَسِعَهُمْ عَدْلُهُ، وَ غَمَرَهُمْ فَضْلُهُ، مَعَ تَقْصِيرِهِمْ عَنْ كُنْهِ مَا هُـوَ

(١) اَلأَنْعام: ٥٩.

أَهْلُهُ(٣٢).

أَللَّهُمَّ أَنْتَ أَهْلُ الْوَصْفِ الْجَمِيلِ، وَ التَّعْدَادِ الْكَثِيرِ، إِنْ تُؤَمَّلْ فَخَيْرُ مَأْمُولٍ، وَ إِنْ تُرْجَ فَخَيْرُ مَرْجُوٍّ. أَللَّهُمَّ وَ قَدْ بَسَطْتَ لِي فِيمَا لاَ أَمْدَحُ بِهِ غَيْرَكَ، وَ لاَ أُثْنِي بِهِ عَلَىٰ أَحَدٍ سِوَاكَ، وَ لاَ أُوَجِّهُهُ إِلَىٰ مَعَادِنِ الْخَيْبَةِ، وَ مَوَاضِعِ الرِّيبَةِ، وَ عَدَلْتَ بِلِسَانِي عَنْ مَدَائِحِ الآدَمِيِّينَ، وَ الثَّنَاءِ عَلَىٰ الْمَرْبُوبِينَ الْمَخْلُوقِينَ. أَللَّهُمَّ وَ لِكُلِّ مُثْنٍ عَلَىٰ مَنْ أَثْنَىٰ عَلَيْهِ مَثُوبَةٌ مِنْ جَزَاءٍ، أَوْ عَارِفَةٌ مِنْ عَطَاءٍ، وَ قَدْ رَجَوْتُكَ دَلِيلاً عَلَىٰ ذَخَائِرِ الرَّحْمَةِ، وَ كُنُوزِ الْمَغْفِرَةِ. أَللَّهُمَّ وَ هَذَا مَقَامُ مَنْ أَفْرَدَكَ بِالتَّوْحِيدِ الَّذِي هُوَ لَكَ، وَ لَمْ يَرَ مُسْتَحِقّاً لِهَذِهِ الْمَحَامِدِ، وَ الْمَمَادِحِ غَيْرَكَ، وَ بِي فَاقَةٌ إِلَيْكَ لاَ يَجْبُرُ مَسْكَنَتَهَا إِلاَّ فَضْلُكَ، وَ لاَ يَنْعَشُ مِنْ خَلَّتِهَا إِلاَّ مَنُّكَ، وَ جُودُكَ. فَهَبْ لَنَا فِي هَذَا الْمَقَامِ رِضَاكَ، وَ أَغْنِنَا عَنْ مَدِّ الأَيْدِي إِلَىٰ سِوَاكَ ﴿إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾(١)(٣٣)!

اللُّغَة:

الكُلْفَةُ: المَشَقَّةُ. والعَارِضَةُ: ما يَمنعُ عن ٱلْعَمَل. والفَتْرَةُ: الضَّعْفُ. والخَلَّةُ ـ بفتح الخاء وتشديد اللام مَع ٱلْفَتْح ـ الفَقْر. والمَنّ: الإِحْسَان، يُقَال: مَنّ إِلَيْهِ أي أَحسَن.

الإِعْرَاب:

خَيْرُ خَبَر لمُبْتَدأ مَحْذُوف أي فأَنْتَ خَيْرُ مَأْمُولٍ، وخَيْرُ مَرْجُوٍّ، ومَثُوبَةٌ مُبْتَدأ مُؤَخَّر، ولِكُلِّ مُثْنٍ خَبَر مُقَدَّم، ومِنْ جَزَاءٍ مُتَعَلِّق بمَثُوبَة، ودَلِيلاً حَال من كَاف رَجَوْتُكَ.

---

(١) آلِ عِمْرَان: ٢٦.

الْمَعْنَىٰ:

(لَمْ يَلْحَقْهُ فِي ذَلِكَ كُلْفَةٌ، وَ لاَ ٱعْتَرَضَتْهُ فِي حِفْظِ مَا ٱبْتَدَعَ مِنْ خَلْقِهِ عَارِضَةٌ، وَ لاَ ٱعْتَوَرَتْهُ فِي تَنْفِيذِ الأُمُورِ، وَ تَدَابِيرِ الْـمَخْلُوقِينَ مَلاَلَةٌ، وَ لاَ فَتْرَةٌ). إنّ التَّعَبَ والمَشَقَّة، والضَّعْف، والملَل، كلّ ذَلِكَ، وما إِلَيْهِ حَوادث تَعرض للأجْسَام، والله سُبْحَانَهُ لَيْسَ بجِسْم، وَلاَ محلاً للحَوادِث... إنّه يُؤثر، وَلاَ يَتأثر، ويُغير، وَلاَ يَتغَير. أمّا العَارِضَةُ، وَهِي الّتي تمنع من ٱلْعَمَل فمُحال فِي حقّه تَعَالَىٰ، لأنّه علىٰ كلّ شيء قَدير، وكمَاله ذَاتي من كلّ وَجه (بَلْ نَفَذَهُمْ عِلْمُهُ) تَعَالَىٰ أي أَحاط بِهِمْ عِلْماً بلا كُلْفَةٌ، ومَشَقَّةٌ (وَ أَحْصَاهُمْ عَدُّهُ) سُبْحَانَهُ بلا عَارِضَةٌ تَقف في سَبِيل هَذَا الإحْصَاء.

(وَ وَسِعَهُمْ عَدْلُهُ) عزّ وجلّ تَشرِيعاً وتَكوِيناً حَيْث جَعَل كلّ شَيء فِي مَوْضِعه، ورَتّبه في مَرتَبته، ودبَره فأحكم تَدبِيره (وَ غَمَرَهُمْ فَضْلُهُ) فأَفَاض عَلَيْهِمْ الْوُجُود بعد العَدم، وأَمدهم بالرَّحْمَة والعِنَاية (مَعَ تَقْصِيرِهِمْ عَنْ كُنْهِ مَا هُوَ أَهْلُهُ). مَهما ٱجتهد المَخْلُوق في طَاعَة الخَالِق، وبالغَ في شُكره فإنّه لا يؤدي بَعْض ما له من حقّ، وما لخَالقه ورَازقه عَلَيْهِ من فَضل.

(أَللَّهُمَّ أَنْتَ أَهْلُ الْوَصْفِ الْجَمِيلِ) الّذي تَعجز عن إِدْرَاكِهِ عقُول الوَاصِفِين (وَالتَّعْدَادِ الْكَثِيرِ) أي أنّ كمالاَته تَعَالَىٰ، وكلماته لا حَساب لعدَدها، وَلاَ ٱنقطاع لأَمَدها: ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِى ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَـٰمٌ وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَـٰتُ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾[1]. (إِنْ تُؤَمَّلْ فَخَيْرُ مَأْمُولٍ، وَ إِنْ تُرْجَ فَخَيْرُ مَرْجُوٍّ). بل لا أَمل، وَلاَ رَجاء إلّا بالله وحده، فمنهُ يبتديء كلّ شيء، وإِلَيْه ينتهي.

---

(١) لُقْمَانَ: ٢٧.

(أَللَّهُمَّ وَ قَدْ بَسَطْتَ لِي فِيما لاَ أَمْدَحُ بِهِ غَيْرَكَ، وَ لاَ أُثْنِي بِهِ عَلَىٰ أَحَدٍ سِوَاكَ، وَ لاَ أُوَجِّهُهُ إِلَىٰ مَعَادِنِ الْخَيْبَةِ، وَ مَوَاضِعِ الرِّيبَةِ، وَ عَدَلْتَ بِلِسَانِي عَنْ مَدَائِحِ الْآدَمِيِّينَ، وَ الثَّنَاءِ عَلَىٰ الْمَرْبُوبِينَ الْمخْلُوقِينَ). قلتُ فيك أَللّهُمَّ من الثّناء، والمَديح ما لم أَقله في غَيْرك: وتَوجهت بِهِ إِلَيْك وحدَك دُونَ المَخْلُوقِينَ، لأَنّهم يُحرمون، وَيخيبون، وما نَطقت بكَلِمَة خَالِصَة لوجهك إلّا بِفضلك، وهدَايتك (أَللَّهُمَّ وَ لِكُلِّ مُثْنٍ عَلَىٰ مَنْ أَثْنَىٰ عَلَيْهِ مَثُوبَةٌ مِنْ جَزَاءٍ، أَوْ عَارِفَةٌ مِنْ عَطَاءٍ). والفرق بَيْنَ الجَزَاء، والعَارِفَة أَنَّ الجَزَاء ثواب علىٰ عَملٍ، والعَارِفَة مَعروف وإحْسَان (وَ قَدْ رَجَوْتُكَ دَلِيلاً عَلَىٰ ذَخَائِرِ الرَّحْمَةِ، وَكُنُوزِ الْمَغْفِرَةِ). المُرَاد بالدَّلِيل هُنا السَّبب المُوصل إِلىٰ المَطلوب، وٱلمَعْنىٰ أَنّي ٱلتجأت إِلَيْك، وتوكلت عَلَيْكَ ثقَة بكرمك، ورَغبَة في عَفوك، ورحمتك.

(أَللَّهُمَّ وَ هَذَا مَقَامُ مَنْ أَفْرَدَكَ بِالتَّوْحِيدِ الَّذِي هُوَ لَكَ، وَ لَمْ يَرَ مُسْتَحِقّاً لِهَذِهِ الْمحَامِدِ، وَ الْمَمَادِحِ غَيْرَكَ، وَ بِي فَاقَةٌ إِلَيْكَ لاَ يَجْبُرُ مَسْكَنَتَهَا إِلاَّ فَضْلُكَ، وَ لاَ يَنْعَشُ مِنْ خَلَّتِهَا إِلاَّ مَنُّكَ، وَ جُودُكَ، فَهَبْ لَنَا فِي هَذَا الْمَقَامِ رِضَاكَ، وَ أَغْنِنَا عَنْ مَدِّ الْأَيْدِي إِلَىٰ سِوَاكَ ﴿إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ يَقُول الإِمَام لخالقه تَعالَىٰ: قُمْتُ في مَوقفي هَذَا بَيْنَ يدَيْكَ مَقاماً مَحْمُوداً عِنْدَكَ تُحبّه، وتَرضاه، وإِنّك لتعلم حَاجتي إِلىٰ عَطائك، وسَخائك، والسَّخَاء علىٰ قَدر ٱلحَاجَة، فأَمنُن عليَّ بِمَا يَسد فَقري، وفَاقتي، وأَغنني بفضلك عَمّن سِواك. إِنّكَ علىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ.

الخطبة
-٩٢-

اَلْتَمِسُوا غَيْرِي:

دَعُونِي وَ اَلْتَمِسُوا غَيْرِي، فَإِنَّا مُسْتَقْبِلُونَ أَمْراً لَهُ وُجُوهٌ، وَ أَلْوَانٌ، لاَ تَقُومُ لَهُ الْقُلُوبُ، وَ لاَ تَثْبُتُ عَلَيْهِ الْعُقُولُ. وَ إِنَّ الآفَاقَ قَدْ أَغَامَتْ، وَ الْمَحَجَّةَ قَدْ تَنَكَّرَتْ. وَاعْلَمُوا أَنِّي إِنْ أَجَبْتُكُمْ رَكِبْتُ بِكُمْ مَا أَعْلَمُ، وَ لَمْ أُصْغِ إِلَىٰ قَوْلِ الْقَائِلِ، وَ عَتْبِ الْعَاتِبِ، وَ إِنْ تَرَكْتُمُونِي فَأَنَا كَأَحَدِكُمْ، وَ لَعَلِّي أَسْمَعُكُمْ، وَ أَطْوَعُكُمْ لِمَنْ وَلَّيْتُمُوهُ أَمْرَكُمْ، وَ أَنَا لَكُمْ وَزِيراً، خَيْرٌ لَكُمْ مِنِّي أَمِيراً.

اللُّغَة:

الآفَاق: جَمع أُفُق، وهو النَّاحِيَة، والخَطّ: الَّذي ينتهي عنده اِمْتِدَاد الْبَصَر. وأَغَامَتْ: غُطيت بِالغَيْمِ. وَالْمَحَجَّة: الطَّرِيق الْوَاضِح الْمُسْتَقِيم.

الإِعْرَاب:

أَمْراً مَفْعُول، «مُسْتَقْبِلُونَ». وأَنَا مُبْتَدَأ، وخَيْرٌ خَبَر، وَلَكُمْ مُتَعَلِّق بِه، ووَزِيراً

حَال، ومِثْله أَمِيراً.

الْمَعْنىٰ:

(دَعُونِي وَ ٱلْتَمِسُوا غَيْرِي، فَإِنَّا مُسْتَقْبِلُونَ أَمْراً لَهُ وُجُوهٌ، وَ أَلْوَانٌ، لاٰ تَقُومُ لَـهُ الْقُلُوبُ، وَ لاٰ تَثْبُتُ عَلَيْهِ الْعُقُولُ. وَ إِنَّ الآفَاقَ قَدْ أَغَامَتْ، وَ الْمَحَجَّةَ قَدْ تَنَكَّرَتْ).

نَطق الإِمَام عليه السلام بِهَذَا حِينَ أَرَادَهُ النَّاس علىٰ الْبَيْعَة بعد مَقتل عُثْمَانَ، وتَقَدَّم في شرح خُطْبَة الشِّقشِقِيَّة[1] حِكاية هَذِه الْبَيْعَة مُفصلاً، ونعطف عَلَيْهَا ما قاله كاتب مِصْري معروف، وهو الأُستاذ عبدٱلكَريمِ الْخَطِيب، لهُ العَديد من الْمُؤلَّفات الإِسْلاَميّة، وما قاله حَوْلَ بَيْعَة الإِمَام خَير تَفْسِير لِهَذِه ٱلْخُطْبَة، ونقتطف مِنْهُ مايلي:

قَالَ: قَالَ البلاذري: «جاء النّاس كلّهم يَهرعون إلىٰ عَليٍّ، أَصْحَاب النَّبِيّ وغَيْرهم، وهم يقولون: إنّ أَمِير الْمُؤْمِنِينَ عَليّ»[2]... وَقَالَ الطَّبَرِي: «أَتَاه أَصْحَاب رَسُول الله صلى الله عليه وآله وقَالُوا له: قَد قُتل هَذَا الرَّجُل، وَلاَ بُدّ للنَّاسِ من إمَام، وَلاَ نَجدُ الْيَوْم أَحقّ بِهَذَا الأَمْر مِنكَ، وَلاَ أَقدم سَابقة، وَلاَ أَقْرَب مِن رَسُول الله. فَقَالَ لهم: لا تَفْعَلوا، وَ أَنَا لَكُمْ وَزِيراً، خَيْرٌ لَكُمْ مِنِّي أَمِيراً... وفي رواية أُخرىٰ يَقُول الطبري: اجتمع الأَنْصَار والْمُهَاجِرُون، وفِيهِمْ طَلْحَة والزُّبَيْر، وقَالُوا: يا أَبا الْحَسَن هلم نُبايعك. فَقَالَ: لاٰ حَاجَةَ لِي فِي إِمْرَتِكُمْ. فقَالُوا: والله ما نَختار غَيْرك...»[3].

(١) أُنظر، فِي ظِلاَلِ نَهْجِ ٱلبَلاَغَة: ١/ ١٣٢، ٱلْخُطْبَةُ (٣).

(٢) أُنظر، أَنسَاب الأَشْرَاف: ٥ /١٨.

(٣) رويت بَيْعَة الإِمَام عليّ عليه السلام بطرق متعدّدة ولكن نختصر المقام علىٰ الطبري، والبلاذري للإختصار ثمّ

وَقَالَ ٱبن قُتَيْبَة: «أَكْثَرَ النّاس علىٰ طَلْحَة، والزُّبَيْر، وٱتهموهما بقتل عُثْمَانَ، وقَالُوا لهُمَا: أيّها الرَّجُلان قد وقعتما في أَمر عُثْمَانَ، فخَليا عن أنْفسكما... فقام الزُّبَيْر، وحمد الله وأثنىٰ عَلَيْهِ، وَقَالَ فيما قَالَ: قد تشاورنا ورضينا عَلِيّاً فبايعوه»(١).

ثم قَالَ الأُستاذ الْخَطِيب: «قد تَردد عَلِيٌّ أوّل الْأَمْر، وحقّ لهُ ذلكَ، فإنّ الْأَمْر خَطِير، والعبء فَادح، وثَقيل... ولكن أمر ٱلْمُسْلِمِين في مَعرض الضَّياع، والتّلف، وإذَنْ فَهِيَ الْمُخاطرة في لِقَاء هَذَا المَوقف، وتحمل تبعَاته... إنَّهَا مَعركة تُقرر

⇐ نشير إلىٰ المصادر الّتي تذكر ٱلْبَيْعَة. قَالَ الطبري: ٥ / ١٥٢ ـ ١٥٣، و: ١ / ٣٠٦٦ ط أوروبا ما نصّه: فأتاه أَصْحَاب رَسُول الله ﷺ فقالُوا: إنّ هَذَا الرَّجُل قد قُتل وَلاَبُدّ للنَّاس من إمام وَلاَ نَجد الْيَوْم أحقّ بِهَذَا الأَمْر منك، لا أقدم سابقة، وَلاَ أقْرب من رَسُول الله ﷺ. فَقَالَ: لا تفْعَلوا فإنّي أكون وزيراً خير من أنْ أكون أمِيراً فقَالُوا: لا والله ما نَحْنُ بفاعلين حَتَّىٰ نُبايعك. قَالَ ففي الْمَسْجِدِ فإنّ بيعتي لا تَكُون خفيّاً وَلاَ تَكُون إلّا عن رضا ٱلْمُسْلِمِينَ...

وروىٰ بسندٍ آخر وَقَالَ: ٱجتمع الْمُهَاجِرُون والأَنْصَار فِيهِمْ طَلْحَة، والزُّبَيْر فأتوا عَلِيّاً فقَالُوا: يا أبا الْحَسَن، هلمّ نبايعك، فَقَالَ: لاحَاجَة لِي في أمركم، أنا مَعَكُمْ فمن ٱخترتم فقد رضيت به، فٱختاروا والله، فقَالُوا: والله ما نختار غَيْرك، قَالَ: فٱختلفوا إلَيْهِ بعد ما قُتل عُثْمَانَ (رض) مراراً ثمّ أتوه في آخر ذَلِكَ، فقَالُوا له: إنّه لا يصلح النَّاس إلّا بإمرة وقد طال الأَمْر، فَقَالَ لهم: إنّكم قد ٱختلفتم إليّ وأتيتم، وإنّي قَائِل لَكُمْ قَوْلاً إنْ قبلتموه قبلت أمركم وإلّا فلا حَاجَة لِي فِيهِ...

وروىٰ البلاذري في أنْسَاب الأَشْرَاف: ٥ / ٧٠: وخرج عليّ فأتى منزله، وجاء النَّاس كلّهم يهرعون إلىٰ عليّ، أصْحَاب النَّبِيّ وغَيْرهم، وهم يقولون: إنّ أمِير الْمُؤْمِنِينَ عليّ. حَتَّىٰ دخلوا داره فقَالُوا له: نبايعك، فمدّ يدك فإنّه لابدّ من أمِير. فَقَالَ عليّ: ليس ذَلِكَ إلَيْكُمْ إنّما ذَلِكَ إلىٰ أهْل بَدْر فمن رضي به أهْل بَدْر فَهُوَ خَلِيفَة، فلم يبق أحد من أهْل بَدْر إلّا أتىٰ عَلِيّاً ﷺ فقالُوا: ما نرىٰ أحداً أحقّ بِهَذَا الأَمْر منك...

ومِثْله جاء في الأَخْبَار الطوال: ١٤٠، والعقد الفَريد: ٢ / ٩٣.

(١) ينسب هَذَا الْقَوْل إلىٰ خُزَيْمَة بن ثابت الأَنْصَاري ـ ذو الشهادتين ـ كما جاء في كتاب المعيار والموازنة لأبي جَعْفَر الإسكَافِي: ٥١. وٱنظر، عَلِيّ بن أبي طالب بقية النُّبُوَّة، وخَاتَم ٱلْخِلاَفَة للأُستاذ عبدالكريم الْخَطِيب: ٢٦٤ وما بعدها طَبْعَة سَنَة ١٩٦٧م.

مصير ٱلإِسْلاَم... وَلاَ يَقوم بِهَذَا الأَمْر إلّا أُولو العَزم... ولم يَكن لعليّ أنْ يتلبث، أو يَحجم عن خَوض المَعْرَكَة غَيْر ناظر إلىٰ ما يُكابده من مِحَن، وما يُصيبه مِن ضُر حَتَّىٰ ولو ذَهب ذَلِكَ بنَفْسِه، وقضىٰ علىٰ حَياته، وما عَمِل الإِمَام حِساباً لوجوده مَع وجود ٱلإِسْلاَم، وَلاَ لحيَاته مَع حَيَاة ٱلإِسْلاَم»(١).

قَبِلَ الإِمَامعليه السلام الْبَيْعَة، وما ٱستقر بعدها لحظَة وَاحِدَة، ثم خُتمت حياته بالشَّهادَة، ولَكِنَّهُ أَنْقَذَ من الإِسْلاَم ما يُمكن إنْقَاذَه... ومَن يَدري: هل يَبْقَىٰ لِلْإِسْلاَم مِن بَاقية لو أَصرّ الإِمَام علىٰ رَفض الْبَيْعَة؟... صَحِيح أنّ الحُرُوب فِي عَهْدِهِ قامت، ولم تَقعد، ولكن كَانَ من نتائجها أنْ عُرف النَّاكِثُون، وتميَّز المَارِقُون عن غَيْرهم، وٱفتضحت الْفِئَةُ الْبَاغِيَةُ بقتل عَمَّار بن ياسر... وصدق الله العظيم: ﴿مَّا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ـ أي الّذين يتظاهرون بالإِيمَان ـ عَلَىٰ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى ٱلْغَيْبِ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَجْتَبِى مِن رُّسُلِهِۦ مَن يَشَآءُ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَإِن تُؤْمِنُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾(٢).

وَقَالَ الشَّيخ مُحَمّد عَبْدَه فِي تَعليقه: «أنّ الأطماع كَانَتْ قد تَنبهت فِي كَثِير من النَّاس علىٰ عهد عُثْمَانَ، بِمَا نَالوا من تَفضِيلهم بالْعَطَاء، فلا يَسهل عَلَيْهِمْ فِيما بَعد أنْ يكونوا فِي مُساواة مَع غَيْرهم، فلو تَناولهم الْعَدْل ٱنفلتوا مِنْهُ، وطلبوا طائشة الْفِتْنَة طمعاً فِي نَيل رَغْبَاتِهِم، وأُولَئِكَ هُم أَغلب الرُّؤساء فِي الْقَوْم، فإنْ أَقرهم الإِمَام علىٰ ما كَانُوا عَلَيْهِ من الإمتياز فقد أتىٰ ظُلماً، وخَالف شَرعاً، والنَّاقون علىٰ عُثْمَانَ

(١) أُنظر، عَليّ بن أبي طالب بقية النُّبوّة، وخاتم الخِلاَفَة للأُستاذ عبدالكريم الخَطِيب: ٢٦٤ وما بعدها طَبْعَة سَنَة ١٩٦٧م.

(٢) آلِ عِمْرَان: ١٧٩.

قَائمون علىٰ المُطالبة بالنّصَفة، إنْ لم يَنالوها تحرشوا لِلْفِتْنَةِ، فأين الْحَجَّة للوصول إلىٰ الْحَقّ علىٰ أمن الْفِتَن؟ وقد كَانَ بعد بيعته ما تفرس فِيهِ قبلها»[1].

(وَٱعْلَمُوا أَنِّي إِنْ أَجَبْتُكُمْ رَكِبْتُ بِكُمْ مَا أَعْلَمُ) من كتاب الله، وسنّة نَبِيّه، وكَانَ الْإِمَام مشهوراً بِهَذِه الْقُوَّة، والصّلابة في حقّ الله، وتواتر عن عُمَرَ أنّه قَالَ يَوْم ٱلشُّورَىٰ: «لو ولّيها عليٌّ لحملكم علىٰ الْجَادَّةِ»[2] (وَ لَمْ أُصْغِ إِلَىٰ قَوْلِ الْقَائِلِ، وَ عَتْبِ الْعَاتِبِ). أَبَداً لا يصغي عليّ إلّا لدينه، وهو غَني بِهِ عمّا سِواه، أمّا دُنياه فَهِيَ آخرته، وَلاَ يرتجي غَيْرها، ولأجلها قبل الْبَيْعَة، كما قَالَ: «لَوْ لاَ حُضُورُ الْحَاضِرِ، وَقِيَامُ الْحُجَّةِ بِوُجُودِ النَّاصِرِ، وَمَا أَخَذَ اللهُ عَلَىٰ الْعُلَمَاءِ أَلاَّ يُقَارُّوا عَلَىٰ كِظَّةِ ظَالِمٍ، وَلاَ سَغَبِ مَظْلُومٍ لَأَلْقَيْتُ حَبْلَهَا عَلَىٰ غَارِبِهَا، وَلَسَقَيْتُ آخِرَهَا بِكَأْسِ أَوَّلِهَا»[3].

(وَ إِنْ تَرَكْتُمُونِي فَأَنَا كَأَحَدِكُمْ). لأنّهم إذا تَركُوه يَكُون بلا ناصر، ومُعين، وعَلَيْهِ يتحتم السُّكُوت (وَ لَعَلِّي أَسْمَعُكُمْ، وَ أَطْوَعُكُمْ لِمَنْ وَلَّيْتُمُوهُ أَمْرَكُمْ). ما شَك الْإِمَام لحظة في أنّ ٱلْخِلاَفَة حقّ لهُ دُونَ غَيْره، ولَكِنَّهُ لا يُحَارِب من أَجلها إلّا إذا ضاعت حُقُوق ٱلْمُسْلِمِين، ووجد النّاصر، والمُعين علىٰ حفظها، وأقامتها[4].

---

(١) أنظر، شَرح نَهج ٱلبَلاَغَة: ١٨٢/١.

(٢) أنظر، أنساب الأشراف: ١٦/٥، الطَّبقات الكُبْرَىٰ: ٣/ق١: ٢٤٧، مُنْتَخَب الكنز: ٤٢٩/٤.

(٣) أنظر، نَهج البَلاَغَة: اَلْخُطْبَةُ (٣).

(٤) لقد كَانَ الْإِمَام عليّ عليه السلام يتصرّف تصرّف الحجّة فَهُوَ الَّذي لم يرفع سَيْفاً بعد وفاة الرّسُول صلى الله عليه وآله على الرّغم من مَعْرِفَته بٱغتصاب حقّه. لكن قتال هَؤُلاَء وعدٌ وعهدٌ عَهْدِه إِلَيْهِ رَسُول الله صلى الله عليه وآله كما قَالَ الخوارزمي في مناقبه: ١٢٥ و ٢٢١: أخبَرني سيّد الحفّاظ أبو منصور شهردار بن شيرويه بن شهردار الديلمي فيما كتب إليّ من هَمَذان، أخبَرني الشّيخ العَالم محيي السُّنّة أبو الْفُتُوح عبدوس بن عبدالله بن عبدوس الهَمَذانيّ

ومن أَقْوَاله: «وَوَاللهِ لأُسْلِمَنَّ مَا سَلِمَتْ أُمُورُ ٱلْمُسْلِمِينَ، وَلَمْ يَكُنْ فِيهَا جَوْرٌ إِلاَّ عَلَيَّ خَاصَّةً، ٱلْتِمَاساً لِأَجْرِ ذَلِكَ وَفَضْلِهِ، وَزُهْداً فِيمَا تَنَافَسْتُمُوهُ مِنْ زُخْرُفِهِ، وَزِبْرِجِهِ»[(١)]. وبِهَذَا نَجد تَفْسِير قَوْله: «وَلَعَلِّي أَسْمَعُكُمْ، وَ أَطْوَعُكُمْ» أي بشرط أنْ تَسلم أمور ٱلْمُسْلِمِين[(٢)]. وَقَالَ ٱبن مِيْثَم البَحراني: «أَشَار الإِمَام بقَوْله: «لَعَلِّي» إِلىٰ

↩ كتابه، أخبَرني أبو الحُسَيْن أحمد بن مُحَمّد بن تميم الحنظلي بقنطرة بردان.... حدّثني جدّي سعد بن عبادة عن عليّ ﷺ قَالَ: أمرت بقتال ثلاثة: النَّاكِثِينَ، والْقَاسِطِينَ، والْمَارِقِينَ، أمّا الْقَاسِطُون فأَهْل الشام، وأمّا النَّاكِثُون فأهْل الجَمَل، وأمّا المَارِقُون فأَهْل النَّهْرَوَان.

وَقَالَ أبن عساكر في: ٢٠٠/٣ ط بيروت من ترجمة الإِمَام عليّ ﷺ مِثْله عن زيد بن عليّ... عن عليّ قَالَ: أمرني رَسُول الله ﷺ بقتال النَّاكِثِينَ، والْمَارِقِينَ، والْقَاسِطِينَ. ومِثْله عن عليّ بن ربيعه قَالَ سمعت عَلِيّاً يَقُول: عهد إليَّ رَسُول الله ﷺ أن أُقاتل النَّاكِثِينَ، والْقَاسِطِينَ، والْمَارِقِينَ. ومِثْله عن أنس بن عَمْرُو... عن عليّ قَالَ: أُمرت بقتال ثلاثة: الْمَارِقِينَ، والْقَاسِطِينَ، والنَّاكِثِينَ. ومِثْله عن إِبْرَاهِيم عن علقمة ومِثْله أيضاً عن خليد القصري قَالَ: سمعت أَمِير الْمُؤمِنِينَ عليّ يَقُول يَوْم النَّهْرَوَان: أمرني رَسُول الله ﷺ بقتال النَّاكِثِينَ، والْمَارِقِينَ، والْقَاسِطِينَ.

وأُنظر مُسْتَدرَك الصَّحِيحِين: ١٣٩/٣، تَأريخ بغداد: ٣٤٠/٨، و: ١٨٦/١٣، كنز الْعُمّال: ٧٢/٦ و٨٢ و٨٨ و١٥٥ و٣١٩ و٣٩٢، و: ٢١٥/٨، أُسد الغَابَة: ٣٢/٤ و٣٣، السيوطي في الدُّر المنثور تَفْسِير سُورَة ٱلزُّخْرُفِ آية: ٤١ ﴿فَإِنَّا مِنْهُم مُّنتَقِمُونَ﴾، مَجْمَع الزوائد: ٢٣٨/٧، و: ٢٣٥/٩، فرائد السِّمطِين: ٢٨١/١ و٢٨٣، أَرْجَح المطَالِب: ٦٠٢، الرِّيَاض النَّضِرَة: ٢٤٠/٢.

وأُنظر قَوْله ﷺ لعَمّار: تقتلك الفِئَةُ البَاغِيَةُ في: صَحِيح البُخَارِيّ: ١٢٢/١، صَحِيح مُسْلِم: ٢٢٣٥/٤، صَحِيح التِّرمذي: ٦٦٩/٥، مُسْنَد أحمد: ١٦١/٢ و١٦٤، و: ١٩٧/٤، و: ٢٨٩/٦، مُسْنَد أبي داود الطَّيَالِسي: ٩٠/٣، حلية الأَوْلِيَاء: ١١٢/٤، تَأريخ بغداد: ١٨٦/١٣، و: ٣١٥/٥، و: ٤١٤/٧، طَبقات أبن سعد: ١٧٧/٣، الطرائف لِابْن طاووس: ١٠٣/١.

(١) أُنظر، نَهْج البَلاَغَة: الْخُطْبَةُ (٧٤).

(٢) أُنظر، شرح الْخُطْبَةُ: (٧٣).

أنّهم إذَا ولّوا أحداً يُخالف أمر الله تَعَالىٰ فلا يَكُون الإِمَام أطوعهم بل أعصاهم»[١].

(وَ أَنَا لَكُمْ وَزِيراً، خَيْرٌ لَكُمْ مِنِّي أَمِيراً). وذَلِكَ أنّ الإِمَام يحملهم علىٰ الْحَق وهو صعب مُستصعب، وَقَالَ بعد أنْ ولّي آلْخِلاَفَة: «وَإِنِّي لَعَالِمٌ بِمَا يُصْلِحُكُمْ، وَ يُقِيمُ أَوَدَكُمْ، وَ لَكِنِّي لاٰ أَرَىٰ إِصْلاَحَكُمْ بِإِفْسَادِ نَفْسِي، أَضْرَعَ اللهُ خُدُودَكُمْ، وَأَتْعَسَ جُدُودَكُمْ، لاٰ تَعْرِفُونَ الْحَقَّ كَمَعْرِفَتِكُمُ الْبَاطِلَ، وَ لاٰ تُبْطِلُونَ الْبَاطِلَ كَإِبْطَالِكُمُ الْحَقَّ»[٢]. وَقَالَ مُعَاوِيَة: لَوْلاَ عَلِمَ عَقِيلٌ بأَنّي خير من أَخيه ما تَركه. فَقَالَ عَقِيل: أَخِي خَيرٌ لِي فِي دِينِي، وأَنْظر لنَفْسِه منكَ، وأنْتَ خَيرٌ لِي فِي دُنياي، وأَنظر لِي من نَفْسَكَ، وقد آثرتُ دُنياي، وأسأل الله الْعَفُو»[٣].

(١) أُنظر، شَرح نَهْج آلْبَلاَغَة لاِبْن مِيثَم البَحراني: آلْخُطْبَةُ (٩٢).

(٢) أُنظر، نَهْج البَلاَغَة: آلْخُطْبَةُ (٦٩).

(٣) لم يُحقق في سَند هَذَا الْقَوْل، وإلاّ من خلال التَتَبّع التَأرِيخي، لم نعثر علىٰ نصّ يؤكد ذهاب عَقِيل إِلىٰ مُعَاوِيَة قبل آستِشْهَاد الإِمَام عليّ عليه السلام. أُنظر، سُبل الْهُدَىٰ والرّشاد: ١١/١١٥، الغارات: ١/٥٥٢، جواهر المطاب في مناقب الإِمَام عليّ لِاِبْن دِمَشْق: ٢/٢٢٩، العقد الفَرِيد: ٤/٩٠ طَبْعَة بيروت، و: ١١٤، طَبْعَة أُخرىٰ.

الخطبة

-٩٣-

اسْأَلُونِي... فِقْرَة ١ ـ ٢:

أَمَّا بَعْدَ حَمْدِ اللهِ، وَ الثَّنَاءِ عَلَيْهِ، أَيُّهَا النَّاسُ، فَإِنِّي فَقَأْتُ عَيْنَ الْفِتْنَةِ، وَ لَمْ يَكُنْ لِيَجْتَرِئَ عَلَيْهَا أَحَدٌ غَيْرِي بَعْدَ أَنْ مَاجَ غَيْهَبُهَا، وَ اشْتَدَّ كَلَبُهَا. فَسْأَلُونِي قَبْلَ أَنْ تَفْقِدُونِي، فَوَ الَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لاَ تَسْأَلُونِي عَنْ شَيْءٍ فِيمَا بَيْنَكُمْ وَ بَيْنَ السَّاعَةِ، وَ لاَ عَنْ فِئَةٍ تَهْدِي مِائَةً، وَ تُضِلُّ مِائَةً، إِلاَّ أَنْبَأْتُكُمْ بِنَاعِقِهَا، وَ قَائِدِهَا، وَ سَائِقِهَا، وَمُنَاخِ رِكَابِهَا، وَ مَحَطِّ رِحَالِهَا، وَ مَنْ يُقْتَلُ مِنْ أَهْلِهَا قَتْلاً، وَ مَنْ يَمُوتُ مِنْهُمْ مَوْتاً[1]. وَ لَوْ قَدْ فَقَدْتُمُونِي، وَ نَزَلَتْ بِكُمْ كَرَائِهُ الأُمُورِ، وَ حَوَازِبُ الْخُطُوبِ، لأَطْرَقَ كَثِيرٌ مِنَ السَّائِلِينَ، وَ فَشِلَ كَثِيرٌ مِنَ الْمَسْئُولِينَ، وَ ذَلِكَ إِذَا قَلَّصَتْ حَرْبُكُمْ، وَ شَمَّرَتْ عَنْ سَاقٍ، وَ ضَاقَتِ الدُّنْيَا عَلَيْكُمْ ضِيقاً، تَسْتَطِيلُونَ مَعَهُ أَيَّامَ الْبَلاَءِ عَلَيْكُمْ، حَتَّى يَفْتَحَ اللهُ لِبَقِيَّةِ الأَبْرَارِ مِنْكُمْ.

إِنَّ الْفِتَنَ إِذَا أَقْبَلَتْ شَبَّهَتْ، وَ إِذَا أَدْبَرَتْ نَبَّهَتْ، يُنْكَرْنَ مُقْبِلاَتٍ، وَ يُعْرَفْنَ مُدْبِرَاتٍ، يَحُمْنَ حَوْمَ الرِّيَاحِ، يُصِبْنَ بَلَداً، وَ يُخْطِئْنَ بَلَداً[2].

اللُّغَة:

فَقَأَ الْعَيْنَ: قَلَعها، ومَاجَ: اضْطَرَب، والْمُرَاد بِهِ هُنا عَمَّ، وشَمَل. والغَيْهَبُ: الظَّلام. والكَلَب: دَاء يُصِيب الكِلاَب، ومن عضّه كَلْبٌ مُصاب بِه جُنّ، ومات إلّا مَع الإِسْعَاف، والتَّطبيب، والْمُرَاد بالنَّاعِقِ هُنا الدَّاعِي. وكَرَائِهُ: جَمع كَرِيهَة، وحَوَازِبُ: جَمع حَازِب، وهو الأَمْر الشَّدِيد. وقَلَّصَ ـ بِتَشْدِيد اللام ـ أَسرع واستمر، وبتخفيفها وَثب. وشَبَّهَتْ ـ بِتَشدِيد البـاء ـ أي جَعلت الْفِتْنَة شَبِيهَة بِالْحَقِّ. ونَبَّهَتْ: أي إِلىٰ الْحَقّ.

الْإِعْرَاب:

لِيَجْتَرِئَ منصوب بأنْ مضمرة بعد اللام، والْمَصْدَر المنسبك مجرور باللام، ويَتعلق بمَحْذُوف خَبراً «لتَكُنْ» واحد اسمها، وغَيْرِي صِفة له، وجُمْلَة تَسْتَطِيلُونَ حَال من ضَمِير الخِطَاب في «عَلَيْكُمْ» وضَمِير مَعهُ يعود إِلىٰ الضِّيقِ.

الْمَعْنىٰ:

(فَإِنِّي فَقَأْتُ عَيْنَ الْفِتْنَةِ، وَلَمْ يَكُنْ لِيَجْتَرِئَ عَلَيْهَا أَحَدٌ غَيْرِي بَعْدَ أَنْ مَاجَ غَيْهَبُهَا، وَاشْتَدَّ كَلَبُهَا). استيقظت الفِتَن بَيْنَ الْمُسْلِمِين بعد رَسُول الله ﷺ. وكَانَ لِلْإِمَامِ أَحسن الأثر في إخمادها، أو إخماد أَكْثَرها، من ذَلِكَ:

١ - تَنافس الْمُهَاجِرُون، والْأَنْصَار علىٰ خِلاَفَة النَّبِيّ ﷺ قبل أنْ يُجرد من ثيابه، ويبرد جسده الشَّرِيف، وتَجاهلوا شُؤُون تَجهيز النَّبِيّ ﷺ وإنزاله إِلىٰ قَبره إلّا الإِمَام فقد اختص دونهم بِهٰذِه الفَضيلة، وَقَالَ له عمّه الْعَبَّاس: امدد يدك أُبايعك،

يُقَال: عَمُّ رَسُول الله بَايَعَ ٱبن عمّ رَسُول الله. فأبىٰ. وَقَالَ له أبو سُفْيَانَ: أُبـايعك، وأملأها عَلَيْهِمْ خَيلاً ورِجَلاً، فَٱنْتَهَرَه الإِمَام، وَقَالَ له: ما زلت تُكـيد لِـلْإِسْلاَم، وَأَهْله(١).

ولو قَبل الإِمَام ٱلْبَيْعَة لبَايَعه آل هَاشم، وكَثِير من الْمُهَاجِرِين، والْأَنْصَار، ولَكِنَّهُ آثر مصلحة ٱلْإِسْلاَم، ووحدة ٱلْمُسْلِمِين، وٱكتفىٰ بالْإِحْتِجَاج، والإِنكار علىٰ أَبي بَكْر وَقَالَ له ـ كما جاء في الإِمَامَة وَالسِّيَّاسَة لِابْن قُتَيْبَة ـ: أنا عبدالله وأخو رَسُول الله، وأحقّ بِهَذَا الأَمْر مِنْكُم، وأَنْتُمْ أَوْلَىٰ بِالْبَيْعَةِ لِي .. نَحْنُ أَهْل ٱلْبَيْت أَوْلَىٰ بالنَّبِيّ

(١) أبو سُفْيَانَ هو الْعَدُوّ الْأَوَّل لرسول اللهﷺ، والعَدُوّ اللّدود لعليّ بن أبي طالبعليه السلام ولِـلْإِسْلاَم مـنذ بـدء الدَّعْوَة الإِسْلاَمِيَّة حَتَّىٰ غُلِبَ علىٰ أَمْرِه في فتح مَكَّة، وتوفي في صدر خِلاَفَة عُثْمَانَ، ولم يدخل الإِيمَان في قلبه، وَلاَ في قلب أَوْلاَده، وعندما توفي رَسُول اللهﷺ وكَانَ غائباً عن الْمَدِينَة، رجع فلقي رَجُلاً في بَعْض طَرِيقه مقبلاً من الْمَدِينَة، فَقَالَ له: مات مُحَمّد؟ قَالَ: نعم. قَالَ: فمن قام مقامه؟ قَالَ: أبو بَكْر. قَالَ أبو سُفْيَانَ: فماذا فعل الْمُستضعفان عليّ، والْعَبّاس؟ قَالَ: جَالسين. قَالَ: أمَا والله لئن بقيت لهما لأرفعن من أعقابهما، ثمّ قَالَ: إنّي أرىٰ غُبرة لا يطفيها إلاّ دَم، ثمّ لما وصل الْمَدِينَة جعل يطوف في أزقتها، ويَقُول:

بَنِي هَاشم لاَتطمعُوا النّاس فِيكم ولاَ سِيما تَـيْم بـن مُـرَّة أو عَـدِيّ

فـمـا الأَمْـر إلاّ فِـيكم وإِلَـيْكُمْ ولَـيس لهَـا إلاّ أبـو حَسَـن عـليّ

أنظر، العقد الفَرِيد: ٣/٦٢، السَّقِيفَة برواية شرح النّهج لِابْن أَبي ٱلْحَدِيد: ٣/١٢٠.

وفي رواية: زَاد اليعقوبيّ:

أبا حَسن فأشدد بها كفّ حازم فإنّك بالأَمْر الَّذي يُـرتجىٰ مـلي

أُنظر، تَأْرِيخ اليعقوبيّ: ٢/١٥٠، شرح النّهج: ٦/٧.

وزاد الطّبريّ في تَأْرِيخه: «... أين المستضعفان! أين الأذلان! عليّ، والْعَبّاس؟ وقَـالَ: أبـا حَسـن أبسط يدك حَتَّىٰ أُبايعك فأبىٰ عليّعليه السلام وجعل يتمثل بشعر المتلمس:

إِنَّ الهوَان حِمَار الأَهْـل يَـعْرفه وَالحر يَنْكِره والرّسلة الأَجـد

أُنظر، تَأْرِيخ الطّبريّ: ٣/٤٤٩، والسَّقِيفَة لأبي بَكْر الجوهري.

ما دَام فينا الْفَقِيه في دِين الله، العَالِم بسُنَن رَسُوله، المُضطلع بأمـر الرَّعِـيَّة، الدَّافـع عَنْهَا، القَاسم بَيْنَهمْ بالسَّوية، فَلاَ تَتَّبعوا الْهَوَىٰ فَتَضلوا عن سَبِيل الله[1].

(١) هكذا ورد كَلاَمه عليه السلام في نَهْج ٱلْبَلاَغَة: ٱلْخُطْبَة (٢١٧). أَللَّهُمَّ إِنِّي أَسْتَعْدِيكَ عَلَىٰ قُرَيْشٍ، وَ مَنْ أَعَانَهُمْ، فَإِنَّهُمْ قَدْ قَطَعُوا رَحِمِي، وَأَكْفَئُوا إِنَائِي، وَأَجْمَعُوا عَلَىٰ مُنَازَعَتِي حَقّاً. كُنْتُ أَوْلَىٰ بِهِ مِنْ غَيْرِي. وَقَالُوا: أَلاَ إِنَّ فِي الْحَقِّ أَنْ تَأْخُذَهُ، وَفِي الْحَقِّ أَنْ تُمْنَعَهُ، فَاصْبِرْ مَغْمُوماً، أَوْ مُتْ مُتَأَسِّفاً. فَنَظَرْتُ فَإِذَا لَيْسَ لِي رَافِدٌ، وَ لاَ ذَابٌّ، وَ لاَ مُسَاعِدٌ، إِلاَّ أَهْلَ بَيْتِي، فَضَنَنْتُ بِهِمْ عَنِ الْمَنِيَّة فَأَغْضَيْتُ عَلَىٰ الْقَذَىٰ، وَجَـرِعْتُ رِيـقِي عَـلَىٰ الشَّجَا، وَ صَبَرْتُ مِنْ كَظْمِ الْغَيْظِ عَلَىٰ أَمَرَّ مِنَ ٱلْعَلْقَمِ، وَآلَمَ لِلْقَلْبِ مِنْ وَخْزِ الشِّفَارِ».

وللتَأريخ نذكر قَوْل عُمَرَ لأبي بَكْر: أَلا تَرسل إِلىٰ هَذَا الرَّجُل المُتخلف فيجيء فيبايع؟ قَالَ أبوبَكْر: يا قنفذ! إذهب إِلىٰ عليّ وقل له: يَقُول لكَ خَلِيفَة رَسُول الله صلى الله عليه وآله تَعَال بَايع! فرفع عليّ عليه السلام صَوْته وَقَالَ: سُبحان الله ما أَسرع ماكذبتم علىٰ رَسُول الله صلى الله عليه وآله! قَالَ: فرجع فأَخبَره، ثمّ قَالَ عُمَرَ: أَلا تبعث إِلىٰ هَذَا الرَّجُل...؟ فَقَالَ لقنفذ: إذهب إِلىٰ عليّ فقل له: يَقُول لك أَمِير الْمُؤْمِنِينَ: تعال بَايعَ! فذهب قنفذ، فَقَالَ: ماجاء بك؟ قَالَ: يَقُول لك أَمِير الْمُؤْمِنِينَ: تعال فبايع! فرفع عليّ عليه السلام، صَوْته وَقَالَ: سُبحان الله! لقـد أدعىٰ ما ليس له. فجاء: فأَخبَره، فقام عُمَرَ: فَقَالَ: انطلقوا إِلىٰ هَذَا الرَّجُل حَتَّىٰ نجيء إِلَيْهِ، فمضىٰ إِلَيْهِ جَمَاعَة، فضربوا الباب فَلَمَّا سمع عليّ عليه السلام، أصواتهم لم يتكَلَّم... فقالت فَاطِمَة عليها السلام: «يارَسُول الله ما لقينا من أَبي بَكْر، وعُمَرَ بعدك»؟ فَلَمَّا سمعوا صَوْتهَا، بكىٰ كَثِير مِمَّنْ كَانَ معه، ثمّ انصرفوا، ووثبت عُمَرَ في ناس معه، فأخرجوه وانطلقوا بِهِ إِلىٰ أَبي بَكْر... فَقَالَ أبوبَكْر: بَايع، قَالَ: فإنْ لم أفعل؟ قَالَ: إذَنْ والله الَّذي لا إِله إِلاّ هو تُضرب عنقك! قَالَ عليّ عليه السلام: فأنا عبدالله، وأخو رَسُوله، قَالَ أبوبَكْر: بَايع، قَالَ: فإنْ لم أفعل، قَالَ: إذَنْ والله الَّذي لا إِله إِلاّ هو تُضرب عنقك، فالتفت عليّ إِلىٰ القبر وَقَالَ: ﴿قَالَ ٱبْنَ أُمَّ إِنَّ ٱلْقَوْمَ ٱسْتَضْعَفُونِى وَكَادُواْ يَقْتُلُونَنِى فَلَاتُشْمِتْ بِىَ ٱلْأَعْدَآءَ وَلَاتَجْعَلْنِى مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾.

ٱلْأَعْرَافِ: ١٥٠. الإِمَامَة وَالسِّيَاسَة: ١/ ٣٠ ـ ٣١، منشورات الشَّرِيف الرَّضِي.

فَقَالَ عُمَرَ بن الخَطَّاب: أَمّا عبد الله فنعم، وأمّا أخو رَسُول الله فلا! وأبو بَكْر ساكت، فَقَالَ له عُمَرَ: أَلا تأمر فِيهِ بأمرك؟

أُنظر، شرح النّهج: ٢/ ٥٦ و ٦٠ و٦: ١١، الْفُتُوح لِإبْن أَعْـثَمْ: ١/ ١٣، تَأرِيخ اليـعقوبيّ: ٢/ ١٢٦، أعلام ٱلنِّساء: ٤/ ١١٤، الإِمَامَة وَالسِّيَاسَة: ١/ ٣٠.... فرجع يَوْمَئِذٍ ولم يبايع.

وأُنظر، المغازي للواقديّ: ٣/ ٨٨٠، تَأرِيخ بغداد: ٦/ ٣٨٧، تَأرِيخ أبن عساكر: ١/ ١٣٣، المسترشد

وهَذِه أَوَّل عَيْنَ لِلْفِتْنَةِ فَقَأَها الْإِمَام بعد رَسُول الله ﷺ.

٢ ـ اَغتصبوا فَدَكاً من بضعة رَسُول الله، وحَاولوا أنْ يَحرقوا اَلْبَيْت عَـلَيْهَا، وعلىٰ بعلها، وأَوْلاَدها، فَصَبر الإِمَام حِرصاً علىٰ وحدَة الكَلِمَة[1].

↔ في الإِمَامَة للطبريّ الإمامي: ٣٨٠ تحقيق أحمد المحموديّ.

وعن اَبن عبّاس: إنّ الأَوَّل ـ أبوبَكْر ـ أمر خالد بن الوليد فَقَالَ: إذَا اَنصرفت من صَلاَة اَلْفَجْرِ فأضرب عُنق عليّ، فصلّىٰ، ثمّ ندم، فجلس في صلاته حَتَّىٰ كادت الشّمس أنْ تطلع، ثمّ قَالَ في صلاته: «يا خَالد لا تفعل ما أمرتك به» ثلاثاً. فألتفت عليّ فَإِذَا خَالد مشتمل علىٰ السّيف في جانبه فَقَالَ: يا خالد أكُنت بِه فاعلاً؟ فَقَالَ: أي والله لَوْلاَ اَنّه نهاني! فَقَالَ له عليّ: كذبت لا أُمّ لك، أنْتَ أضيق حلقة أُست من ذَلِكَ. ثمّ قَالَ ﷺ: «فَوَ الَّذِي فَلَقَ الْحَبَّةَ، وَ بَرَأَ النَّسَمَةَ، مَا أَسْلَمُوا، وَ لَكِنِ اَسْتَسْلَمُوا، وَ أَسَرُّوا الْكُفْرَ، فَلَمَّا وَجَدُوا أَعْوَاناً عَلَيْهِ أَظْهَرُوهُ».

أُنظر، نَهْج البَلاَغَة: رِسَالَة رقم (١٦)، والأنساب: ٩٥/٣.

وأُنظر، بحَار الأَنْوَار: ٩٢/٨، المسترشد في إِمَامَة أَمِيرالْمُؤْمِنِينَ: ٤٥٢، تحقيق أحمد المحموديّ، رجال الكشي: ٢/ ٦٩٥، معجم رجال الْحَدِيث للسيد الخوئيّ: ١٥٣/٨، بهجة اَلآمَـال للعلياري: ٣٨٠/٤، تَفْسِير القميّ: ١٥٨/٢، ورد الكَلاَم بِهَذَا اللفظ. «أمَا الَّذِي فَلَقَ الْحَبَّةَ، وَ بَرَأَ النَّسَمَةَ، لَوْلاَ ما سبق به الْقَضَاء لعلمت أي الفريقين شرّ مكاناً وأضعف جنداً».

ومن روائع حكمه هنا كما جاء في اَلْحِكْمَة (١٦٦): «لاَ يُعَابُ الْمَرْءُ بِتَأْخِيرِ حَقِّهِ، إِنَّمَا يُعَابُ مَنْ أَخَذَ مَا لَيْسَ لَهُ». أُنظر، شرح النّهج لِابْن أَبِي اَلْحَدِيد: ٣٢٤/٤ و: ١٨/ ١٦٨.

(١) أُنظر، الحوار الَّذي دار بينهما ﷺ وبَيْنَ اَلْخَلِيفَة الأَوَّل، والَّذي ورد عن عَائِشَة قالت: سمعت أَبِي يَقُول: قَالَ رَسُول الله ﷺ: «إِنّا مَعَاشِر اَلأَنْبِيَاء لا نُورّث، ما تركناه فَهُوَ صدقةٌ»!!

وقد علق الإِمَام يحيىٰ بن الحُسَيْن اَبن القاسم في كتابه تَثْبِيتُ الإِمَامَة مانصّه: «ولو سألنا جَمِيع من نقل من أَصْحَاب مُحَمّد ﷺ: هل روىٰ أحدٌ مِنكُم عن أحدٍ من أَصْحَاب مُحَمّد ﷺ أنّه سمعَ من رَسُول الله ﷺ مثل ما قَالَ أبو بَكْر؟؟

لقَالُوا: اَللّهُمَّ، لا.

ثمّ جاءت ـ من بعد ذَلِكَ ـ أسانيدُ كَثِيرة قد جمعها الجهّال لحبّ التّكثُّر بِمَا لا ينفع: عن عَائِشَة، وعن ↔

↔ أبن عُمَرَ. فنظرنا عند ذَلِكَ إِلىٰ أصل هَذِه الأَحَادِيث الّتي أسندوها إِلىٰ عَائِشَة عن النَّبِيّ ﷺ فَإِذَا عَائِشَة تقول: سمعتُ أبا بَكْر، وأبن عُمَرَ يَقُول: سمعتُ أبا بَكْر يَقُول: سمعت رَسُول الله ﷺ: إِنّا مَعَاشِر ٱلأَنْبِيَاء لا نورّث ما تركناه فَهُوَ صدقة.

وَإِذَا هَذِه الأَسانيد المُخْتَلِفَة ترجع إِلىٰ أصل واحدٍ، ولم يوجد أحدٌ من أَصْحَاب مُحَمّد ﷺ يشهدُ بمثل شهادة أبي بَكْر في الميراث!

فدفع أبو بَكْر، فَاطِمَة عليها السلام عن ميراثها؛ بِهَذَا الخَبَر الَّذي أسندَ إِلىٰ رَسُول الله ﷺ.

وَهَذَا الخَبَر ينقضُ كتاب الله، وحكمه في عِبَادِه!

فويلٌ لمن يُهِمُ أنّ رَسُول الله ﷺ ينقضُ ما جاء به محكماً عن الله عزّ وجلّ.

وقد كَانَ في كَلاَم فَاطِمَة عليها السلام، لأبي بَكْر بيانٌ لمن خاف الله سُبْحَانَهُ وتَعَالىٰ: أفي كتاب الله أنْ ترثَ أباك وَلاَ أرثَ أبي، لقد جئتَ شَيْئاً فريّاً!!؟؟

ثمّ أنصرفت عَنْه.

ومن أعجب العجائب: أنّ جَمِيع هَذِه الأُمَّة أجمعت: أنّ مَن أدّعىٰ لنَفْسِه أو دعوىٰ له فيها حقّ أنّه «خصمٌ» شهادته لا تُقبل حَتَّىٰ يشهد له علىٰ ذَلِكَ شاهدان عدلان لا دعوىٰ لهما في ما شهدا فِيهِ.

وأجمعوا أيضاً: أنّ الإِمَام لا يحكمُ لنفْسِه بحقّه دُونَ أنْ يشهدَ له به غيرُه، ثمّ النّاس علىٰ ذَلِكَ إِلىٰ يومنا هَذَا، لا تُقبل شهادة الرّجل لنَفْسِه وَلاَ يُحكم لأحدٍ علىٰ أحدٍ في دعوىٰ يدّعيها عَلَيْهِ إلّا بشاهدين عدلين؛ غَيْر فَاطِمَة عليها السلام فإِنّه حُكم عَلَيْهَا بخلاف ما حُكم به علىٰ جَمِيع الخلق، وأنتزع من يدها ما كَانَتْ تملكه وتحوزه ـ من ميراث أبيها ﷺ، ومالها من فَدَك المَعْرُوف بها ولها بلا ـ شهود! إلّا بِمَا أدّعىٰ أبو بَكْر لنَفْسِه، ولِلمُسْلِمِين من الصَّدَقَة عَلَيْهِمْ بأَمْوَال رَسُول الله ﷺ.

فكان أبو بَكْر المُدعي لنفْسِه ولأصحابه أَمْوَال رَسُول الله ﷺ.

فيا للعجب من قبضه ما ليس بيده، وَلاَ شهود له، وَلاَ بَيِّنَة!؟

وطلبُه الشّهود، وٱلْبَيِّنَة من فَاطِمَة عليها السلام علىٰ ما هو بيدها ولها!

وقد أجمعت الأُمّة علىٰ أنّ مَنْ كَانَ في يده شيءٌ فَهُوَ أحقّ به حَتَّىٰ يُستحقّ بٱلْبَيِّنَةِ العَادِلَة. فقلبَ أبو بَكْر الحجّة عَلَيْهَا في ما كَانَ في يدها! وإِنّما تجبُ عَلَيْهِ هو وعلىٰ أَصْحَابِه في ما أدّعاه له ولهم.

فحكم علىٰ فَاطِمَة عليها السلام بِمَا لم يُحكمْ به علىٰ أحدٍ من ٱلْمُسْلِمِينَ وطلب مِنْهَا ٱلْبَيِّنَة علىٰ ما في يدها، ↔

⟵ ومُنِعَتْ ميراثَ أبيها.

وشَهِدَ علىٰ رَسُول الله ﷺ أنّه لم يورّثها! والله تَعَالىٰ قد وَرَّثَ الولد من والده؛ نبيّاً كَانَ أو غَيْره.

راجع كتاب تثبيت الإِمَامَة لِلإِمَامِ يحيىٰ أبن الحُسَيْن الهاديّ نشره العلاّمة السَّيِّد مُحَمّد رضا الحُسَيْنِيّ الجَلاليّ: ٢٩، وراجع صَحِيح البُخَاريّ: ٧/١٢، صَحِيح مُسْلِم كتاب الجِهَاد رقم ٥١ و٥٣ و ٥٤ و٥٦.

وأُنظر الحوار الّذي دار بَيْنَهَا عليها السلام، وبَيْنَ أبي بَكْر، وعُمَرَ، حَيْث قالت لهما: «أرَأيتكُما إنْ حدثتكما حَدِيثاً عن رَسُول الله تعرفانه وتفعلان به؟ قالا: نعم، فقالت: نشدتكما الله ألم تسمعا رَسُول الله يَقُول: رضا فَاطِمَة من رضاي وسخط فَاطِمَة من سخطي... فَقَالَ أبوبَكْر: أنا عائذ بالله من سخطه وسخطك يافَاطِمَة، ثمّ أنتحب أبوبَكْر يبكي حَتَّىٰ كادت نَفْسه أن تزهق... وقالت: «ياأبابَكْر، ما أسرعَ ما أغرتم علىٰ أَهْل بَيْت رَسُول الله، والله لا أكلم عُمَرَ حَتَّىٰ ألقىٰ الله».

شرح النّهج: ١/١٣٤ و: ٢/١٣٤.

وَقَالَ اليعقوبيّ. فقالت: «والله لتخرجن أو لأكشفن شعري ولأعجن إلىٰ الله...».

تَأريخ اليعقوبي: ٢/١٢٦.

وروىٰ الطّبريّ: «فهجرته ـ أبابَكْر ـ فَاطِمَة، ولما توفيت دفنها زوجها، ولم يؤذن بها أبا بَكْر وصلّىٰ عَلَيْهَا...».

تَأريخ الطّبريّ: ٢/٤٤٨، البُخَاريّ: ٣/٣٨، صَحِيح مُسْلِم: ١/٧٢ و: ٥/١٥٣، أبن كَثِير: ٥/٢٨٥، أبن عبد ربه: ٣/٦٤، أبن الأَثِير: ٢/١٢٦، كفاية الطّالب: ٢٢٥، المسعوديّ: ٢/٤١٤، التّنبيه والأَشْرَاف: ٢٥٠، الصَّوَاعِق المُحْرِقَة: ١/١٢، الإِمَامَة وَالسِّيَاسَة: ١/١٤، والسّنن الكُبْرَىٰ: ٦/٣٠٠. كلّ هَذِه المصادر تتحدث بأنّه ـ أبوبَكْر ـ، لم يصلِّ عَلَيْهَا، بل دفنت سراً.

وللتأريخ أيضاً قَالَ عُمَرَ بن الخَطَّاب: «..وأنّه كَانَ من خَبَرنا حين توفىٰ الله نَبِيّه أنّ عَلِيّاً، والزُّبَيْر، ومن معهما تخلفوا عنّا في بَيْت فَاطِمَة».

أُنظر، مُسْنَد أحمد: ١/٥٥، الطّبريّ: ٢/٤٤٦، أبن الأَثِير: ٢/١٢٤، أبن كَثِير: ٥/٢٤٦، صفوة الصّفوة: ١/٩٧، شرح النّهج: ١/١٢٣، تَأريخ السّيوطيّ: ٤٥، السِّيرَة لِابْن هشام: ٤/٣٣٨، تيسير الوصُول: ٢/٤١.

وقد تواترت الأَخْبَار بذلك، فقد روىٰ البلاذريّ «بعث أبو بَكْر، عُمَرَ بن الخَطَّاب إلىٰ عليّ بن أبي ⟵

٣ ـ عَهد أبو بَكْر بِالْخِلاَفَةِ من بَعْدَه إلىٰ عُمَرَ، فَسكت الْإِمَام خَوْفاً من إيقاظ الْفِتْنَة.

٤ ـ صَرفها عنهُ عُمَرَ إلىٰ عُثْمَانَ تَحت ستار ٱلشُّورَىٰ، فتحمل للغَايَة نفسها.

٥ ـ نَكث طَلْحَة، والزُّبَيْر، وأَخرجا أُمّ الْمُؤْمِنِينَ من خِدرها، يَغرسُون بذُور الْفِتْنَة، فقضىٰ عَلَيْهَا الإِمَام، وعلىٰ الغَارس، والحَارث.

٦ ـ مَرَقَ الْخَوَارِج من الدِّين، وَقَطعُوا طَرِيق ٱلْمُسْلِمِين، يَقْتلُون، ويُخربُون، ذَبحوا الرِّجَال ومِنْهُم عبدالله بن خَبَّاب[1]، وبَقَروا بَطْن ٱمْرَأَته، وَقَتلُوا ٱلنِّسَاء،

⇐ طالب حين قعد عن بيعته وَقَالَ: ائتني به بأعنف الْعُنف. فَلَمّا أتاه جرىٰ بيْنَهما كَلاَم. فَقَالَ عليّ: «أحلب حلباً لك شطره...»، وفي رواية ٱبن قُتَيْبَة في الإِمَامَة وَالسِّيَاسَة: «إِنّ عُمَرَ بن الخَطَّاب جاء فناداهم وهم في دار عليّ ٱبن أبي طالب. فأبوا أنْ يخرجوا. فدعا بالحطب وَقَالَ: والَّذي نفس عُمَرَ بيده لتخرجُنَّ أو لأحرقنها علىٰ من فيها فقيل له: يا أبا حفص إنّ فيها فَاطِمَة، فَقَالَ: «وإنْ».

أنظر، لإمامة وَالسِّيَاسَة: ١/١٢. أَنْسَاب الأَشْرَاف: ١/٥٨٦. الرِّياض النَّضرة: ١/١٦٧. السَّقِيفَة للجوهري برواية شرح النّهج لإبن أبي الْحَدِيد: ٢/١٣٢. تَاريخ الخميس: ١/١٧٨.

(١) عبدالله بن خَبَّاب: هو الَّذي قتله الْخَوَارِج فسال دَمه، كأنّه شِراك نَعل ما ٱمذ قَرّ ـ أي سال دَمه في النَّهر ولم يتفرّق في الْمَاء وَلاَ ٱختلط ـ.

وذكر الطبري في تَأريخه: ٤/٦٠. أنّ الْخَوَارِج دخلوا قرية فخرج عبدالله بن خَبَّاب صاحب رَسُول الله ﷺ ذَعِراً يجرّ رداءه فقَالُوا: لم ترعَ؟ فَقَالَ: والله لقد ذعرتموني، قَالُوا: أأنْتَ عبدالله بن خَبَّاب صاحب رَسُول الله ﷺ؟ قَالَ: نعم، قَالُوا: فهل سمعت من أبيك حَدِيثاً يحدّث به عن رَسُول الله ﷺ أنه ذكر فتنة القاعد فيها خير من القائم، والقائم فيها خير من الْمَاشي والْمَاشي فيها خير من السَّاعي؟ قَالَ: فإنْ أدركتم ذَلِكَ فكن يا عبدالله الْمَقْتُول... قَالَ فقدّموه علىٰ ضفة النَّهر فضربوا عُنقه فسال دَمه كأنّه شراك نعل وبقروا بَطْن أُمّ ولده عمّا في بَطْنها....

ولكن الطبري في نفس الصَّفحة ينقل عن حميد بن هلال أنّه ـ عبدالله ـ قَالَ: عندما سألوه قَالَ: حدّثني أبي عن رَسُول الله ﷺ أنّ فتنة تَكُون يَمُوت فيها قلب الرَّجُل كما يَمُوت فيها بدنه يمسي فيها مؤمناً، ⇐

ومِنْهُم أُمّ سِنان ، وقد صحبت رَسُول الله ﷺ . فَقَاتَلهُم الإمَام ، وما سلم مِنْهُم إلّا القليل .

إلىٰ غَيْر ذَلِكَ من الْفِتَن الّتي قطع الإمَام عَلَيْهَا الطَّرِيق قبل أنْ تنمو ، وتثمر ، ومِنْهَا الشُّبهات الّتي كَانَتْ تُثار حَوْلَ الإِسْلاَم ، وتكاد تُضلل بَعْض الْعُقُول ، والأفكار .. وَهَذَا وما إِلَيْهِ دعا الإِمَام إِلىٰ أَنْ يَقُول : «اَسْأَلُونِي» . أمّا قَوْله : (وَ لَمْ يَكُنْ لِيَجْتَرِئَ عَلَيْهَا أَحَدٌ غَيْرِي بَعْدَ أَنْ مَاجَ غَيْهَبُهَا ، وَ اَشْتَدَّ كَلَبُهَا) . فمعناه أنّه هو وحده الكفؤ لِلْقَضَاء علىٰ الْفِتَن ودفع الشُّبهات ، ويومىء إِلىٰ ذَلِكَ قَوْله : (وَ فَشِلَ كَثِيرٌ مِنَ الْمَسْئُولِينَ) . وذهب اَبن أَبي اَلْحَدِيد مَذْهَباً آخر في تَفْسِير «لِيَجْتَرِئَ»

⇐ ويصبح كافراً ، ويصبح فيها كافراً ، ويمسي فيها مؤمناً . فقَالُوا : لِهَذَا الْحَدِيث سألناك فما تقول في أبي بَكْر وعُمَرَ ؟ فأثنىٰ عَلَيْهِمَا خيراً ... فأخذوه فكتّفوه ثمّ أقبلوا به وبِاَمْرَأته وَهِي حُبلىٰ متمٌّ حَتَّىٰ نزلوا تحت نخل مواقر فسقطت مِنْهُ رطبة فأخذها أحدهم فقذف بها في فمه فقَالَ أحدهم : بغير حلّها ، وبغير ثمن ، فلفظها وألقاها من فمه ، ثمّ أخذ سَيْفه فأخذ يمينه فمرّ به خِنزِير لأَهْل الذِّمَّة فضربه بِسَيْفه ، فقَالُوا : هَذَا فساد في الأَرْض ، فأتي صاحب اَلْخِنزِير فأرضاه من خِنزِيره ، فَلَمَّا رأىٰ ذَلِكَ مِنْهُم اَبن خَبّاب قَالَ : لئن كنتم صَادِقِينَ فيما أرىٰ فما عليَّ مِنْكُم بأس إنّي لمسلم ما أحدثت في الإِسْلاَم حدثاً ولقد آمنتموني ، قلتم : لا روع عَلَيْكَ فجاؤوا به فأضجعوه فذبحوه وسال دَمه في الْمَاء ....

وأُنظر حَيَاة عبدالله بن خَبّاب في المعارف لِاَبْن قُتَيْبَة : ٣١٧ ، وأُنظر قِصَّة قتله ﷺ في أُسد الغَابَة : ١٥٠/٣ ، والإِصَابَة : ٢ / ٢٩٤ ، وشرح النَّهج لِاَبْن أَبي اَلْحَدِيد : ٢ / ٢٦٩ و ٢٨١ و ٢٨٢ تحقيق مُحَمّد أبو الْفَضْل نقلاً عن اَبن ديزيل (إِبْرَاهِيم بن الحُسَيْن بن عليّ بن مِهْرَان بن ديزيل الكسائي الهَمْدانيّ) أحد كبار الحفّاظ ومتكلّميهم ، ذكره اَبن حَجَر في لِسَان المِيزَان : ١ / ٤٩ وَقَالَ : مات سنة (٢٨١ هـ) ، الكَامِل في التَّأْرِيخ : ٢١٢/٣ ، والفُتُوح لِاَبْن أَعْثَم : ٢ / ١٩٨ و ٢٥٣ و ٢٦٠ ، الطبري : ٦ / ٤٦ ط أُخرىٰ ، الطَّبَقَات الكُبْرَىٰ لِاَبْن سعد : ٥ / ١٨٢ ، شرح النهج لِاَبْن أَبي اَلْحَدِيد : ٢ / ٢٨٢ ، الكَامِل للمبرّد : ٥٦٠ ، الإِمَامَة وَالسِّيَاسَة : ١ / ١٦٧ ، شرح النهج للعلّامة الخوئي : ٤ / ١٢٨ ، الكَامِل لِاَبْن الأَثِير : ٣٤١/٣ .

وَتَبعه من جَاء بَعْدَه من الشَّارِحِين[١]!.. ولعَل تَفْسِيرنا أَقْرَب وأَرْجَح.

(١) أنظر، شرح نَهْج ٱلْبَلاَغَة: ٤٧/٧.

ولنسأل ٱبن أَبي ٱلْحَدِيد هل هَؤُلاَء لا يحل لِلإِمَامِ عليّ عليه السلام قتالهم، وقد نقل ٱبن حَجَر العسقلانيّ عن عليّ بن رَبِيعَة: سمعت عَلِيّاً يقول علىٰ منبركم هَذَا: «عهد إِليَّ النَّبِيّ صلى الله عليه وآله أَنْ أُقاتل النَّاكِثِينَ، والْقَاسِطِينَ، والمَارِقِينَ».

أنظر، المطَالِب العَالِيَة: ٢٩٧/٤ ح ٤٤٦٢.

وَقَالَ أيضاً عن عَمّار ٱبن ياسر: «أُمِرتُ بقتال النَّاكِثِينَ، والْقَاسِطِينَ، والمَارِقِينَ». أنظر، المَصْدَر السّابق: ٢٩٧/٤ ح ٤٤٦٣.

وَقَالَ الخوارزميّ في المَنَاقِب عن أَبي سعيد التّميميّ عن عليّ عليه السلام قَالَ: «عهد إِليَّ رَسُول الله صلى الله عليه وآله أَنْ أُقاتل النَّاكِثِينَ، والْقَاسِطِينَ، والمَارِقِينَ» فقيل له: يا أَمِير المُؤْمِنِينَ مَنْ النَّاكِثُون؟ قَالَ «النَّاكِثُون: أَهْل الجَمَل، المَارِقُون الخَوَارِج، الْقَاسِطُون: أَهْل الشّام».

أُنظر، مناقب الخوارزميّ: ١١٠، ط النّجف الأشرف.

وعن أَبي أيوب الأَنْصَاريّ في خلافة عُمَرَ بن الخَطَّاب قَالَ: «أمر رَسُول الله صلى الله عليه وآله عليّ بن أَبي طالب بقتال النَّاكِثِينَ، والْقَاسِطِينَ، والمَارِقِينَ».

أنظر، الحَاكِم في المُسْتَدرَك: ١٣٩/٣، تَأريخ ٱبن عساكر ترجمة الإِمَام علي: ١٦٨/٣ ح ١٢٠٥، المَنَاقِب للخوَارزِمي: ١٢٥، ميزان الإِعْتِدَال: ١٢٧/١، كنز الْعُمَّال: ٨٢/٦، الرّوض الأزهر: ٣٨٩ ط حيدر آباد، شرح المقاصد: ٢١٧/٢، تَأريخ بغداد: ٣٤٠/٨، أَرْجَح المطَالِب: ٦٠٢، فرائد السّمطِين: ١٥٠/١، كفاية الطّالب: ١٦٩، ويَنَابِيع المَوَدَّة: ١٢٨، شرح النّهج: ٢٤٥/٣، ط مِصْر تحقيق مُحَمّد أبو الْفَضْل.

وغَيْر ذَلِكَ كَثِير من الرّوَايَات الّتي تؤكد أنه عليه السلام يُقَاتل هَؤُلاَء ولذا أَمتنع في بداية الأَمْر من أَنْ يُلبي طلب هَؤُلاَء الّذين أرادوا أَنْ يُبايعوه؛ لأنّه يعلم بأَنّ خِلاَفَته ستمر بأَيَّام صعبة، وفتن مُظلمة، ويعلم أَنّ بَعْضهُم سينقض ٱلْبَيْعَة، ويقاتله حَسداً، وبُغضاً، وكَرْهاً له، كما في نفس السَّيِّدة عَائِشَة وغَيْرها، وبَعْضهُم لايَعْرِف مكانته عليه السلام من رَسُول الله صلى الله عليه وآله، فكَيْفَ يعمل مَع هَؤُلاَء؟ ورغم كلّ ذَلِكَ بيّن لهم الطَّرِيق الشّائك، وأنّه أجابهم لما يريدون هم في ٱلْبَيْعَة لا مَايُرِيدُه هو، وفي هَذَا الحَال من مِثْله لنْ يتراجع عمّا عُهد إِلَيْهِ من النَّبِيّ صلى الله عليه وآله، ولم يَلْتَفِت إِلىٰ قَوْل القَائِل مِنْهُم، ثمّ يخبرهم، إمّا أنْ يقبلوه بِهَذَا الوَاقِع أو أنْ يتركوه ويبحثوا

(فَسْأَلُونِي قَبْلَ أَنْ تَفْقِدُونِي ، فَوَ الَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لاٰ تَسْأَلُونِي عَنْ شَيْءٍ فِيمَا بَيْنَكُمْ وَ بَيْنَ السَّاعَةِ ، وَ لاٰ عَنْ فِئَةٍ تَهْدِي مِائَةً ، وَ تُضِلُّ مِائَةً ، إِلاّٰ أَنْبَأْتُكُمْ بِنَاعِقِهَا ، وَ قَائِدِهَا ، وَ سَائِقِهَا ، وَمُنَاخِ رِكَابِهَا ، وَ مَحَطِّ رِحَالِهَا ، وَ مَنْ يُقْتَلُ مِنْ أَهْلِهَا قَتْلاً ، وَ مَنْ يَمُوتُ مِنْهُمْ مَوْتاً) . قَد توجد قرَائن مَعقولة ، وأَسْبَاب طَبيعية تُشير إِلىٰ حوَادث مُقبلة ، فيصدق التَّنبؤ بها مِمَّنْ اطلع علىٰ تِلْكَ القرائن ، والأَسْبَاب ، كالتَّنبؤ بأحوَال الجوّ ، وَتقلُباته ، وبالخسُوف ، والكسُوف ، والفيضَان ، وبالحَرْب بَيْنَ دَولتِين قَويتِين تتنافسان علىٰ مصادر الثّروة ، وآحتكار الأسواق . . وكلّ تخطيط محكم فإِنَّه يشير إِلىٰ ما يترتب عَلَيْهِ من نتائج عند تنفيذه ، وتطبيقه ، وَإِذَا لم يكن هناك من قرائن ملموسة تشير إِلىٰ المُسْتَقْبَل من قَرِيب ، أو بعيد ـ يكُون التَّنبؤ وهَماً ، وخَيالاً إِلّا إِذا آعتمد علىٰ الوحي من علّام الغيوب .

ونصّ ٱلْقُرْآن ٱلْكَرِيمِ علىٰ أنّ الإيمَان بالوَحي أصل أَصيل للْإيمَان بالله ورَسُوله :

⇐ عن غَيْره ، كما فَعَلوا فِي السّابق ، ولذا قَالَ لهم : «دَعُونِي وَٱلْتَمِسُوا غَيْرِي ، فَإِنَّا مُسْتَقْبِلُونَ أَمْراً لَهُ وُجُوهٌ ، وَأَلْوَانٌ . . وَ أَنَا لَكُمْ وَزِيراً ، خَيْرٌ لَكُمْ مِنِّي أَمِيراً» .

أنظر ، تَأْرِيخ الطّبريّ : ٥/١٥٦ ، شرح النّهج لِابْن أَبِي ٱلحَدِيد : ٢/٥٩٧ .

وقد قَالَ فِيهِ عَلَيْهِ‌السَّلَامُ : «إِنّ الأُمّة ستغدر بك بعدي» .

أنظر ، كنزالعُمّال : ٦/١٥٧ ، الحَاكِم فِي المُسْتَدرَك : ٣/١٤٧ ، أبن حَجَر فِي الأَرْبَعِين حَدِيثاً : ٧٤ ح ٣٠ و ٣١ باب ٩ ، مُنْتَخب الكنز بهامش مُسْنَد أحمد : ٥/٤٣٥ ، فَضَائِل ٱلخَمْسَة : ٣/٥٢ ، ط بيروت ، شرح النّهج : ٦/٥٤ ، ط مِصْر تحقيق مُحَمّد أبو الفَضْل ، تَأْرِيخ بغداد : ١١/٢١٦ ، البداية والنّهاية : ٦/٢١٨ .

وَقَالَ فِيهِ عَلَيْهِ‌السَّلَامُ : «إِنّ فيكم من يُقَاتل علىٰ التّأويل كما قاتلت علىٰ التّنزيل» قَالُوا : يارَسُول الله من هو ؟ قَالَ : « خاصف النّعل . . .» .

أنظر ، المُصَنَّف لِابْن أبي شيبة : ١٢/٦٤ ح ١٢١٣١ ، أسد الغَابَة : ٣/٦٠٢ ح ٦١١١ ، دَلاَئِل النُّبُوَّة للبيهقي : ٦/ ٤٣٥ ، مُسْنَد أحمد : ٣/٨٢ .

﴿ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَـٰهُمْ يُنفِقُونَ وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِٱلْأَخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَأُوْلَـٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾[1]. وأوحىٰ سُبْحَانَهُ إِلَىٰ نَبِيِّه ٱلْكَرِيمِ الكَثِيرِ من أنباء ٱلْغَيْب: ﴿ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَـٰمَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾[2]. ﴿عَـٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُۥ يَسْلُكُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ رَصَدًا﴾[3]. وكذا النَّبِيّ لا يُظهر علىٰ هَذَا ٱلْغَيْب أحداً إلّا من ٱرْتَضَىٰ الله، ورَسُوله من وَلي، وكَانَ رَسُول الله يُظهر عَلِيّاً علىٰ ما أظهره الله عَلَيْهِ من غَيْبٍ.

ومن أقوَال الْإِمَام عليه السلام: «وَقَدْ عَلِمْتُمْ مَوْضِعِي مِنْ رَسُولِ اللهِ صلى الله عليه وآله بِالْقَرَابَةِ الْقَرِيبَةِ، وَالْمَنْزِلَةِ الْخَصِيصَةِ، وَضَعَنِي فِي حِجْرِهِ، وَأَنَا وَلَدٌ يَضُمُّنِي إِلَىٰ صَدْرِهِ، وَيَكْنُفُنِي فِي فِرَاشِهِ، وَيُمِسُّنِي جَسَدَهُ، وَيُشِمُّنِي عَرْفَهُ، وَكَانَ يَمْضَغُ الشَّيْءَ ثُمَّ يُلْقِمُنِيهِ، وَمَا وَجَدَ لِي كَذْبَةً فِي قَوْلٍ، وَلاَ خَطْلَةً فِي فِعْلٍ، وَلَقَدْ قَرَنَ اللهُ بِهِ صلى الله عليه وآله مِنْ لَدُنْ أَنْ كَانَ فَطِيماً أَعْظَمَ مَلَكٍ مِنْ مَلاَئِكَتِهِ يَسْلُكُ بِهِ طَرِيقَ الْمَكَارِمِ، وَمَحَاسِنَ أَخْلاَقِ الْعَالَمِ لَيْلَهُ، وَنَهَارَهُ، وَلَقَدْ كُنْتُ أَتَّبِعُهُ اتِّبَاعَ الْفَصِيلِ أَثَرَ أُمِّهِ، يَرْفَعُ لِي فِي كُلِّ يَوْمٍ مِنْ أَخْلاَقِهِ عِلْماً، وَيَأْمُرُنِي بِالْإِقْتِدَاءِ بِهِ، وَلَقَدْ كَانَ يُجَاوِرُ فِي كُلِّ سَنَةٍ بِحِرَاءَ فَأَرَاهُ، وَلاَ يَرَاهُ غَيْرِي، وَلَمْ يَجْمَعْ بَيْتٌ وَاحِدٌ يَوْمَئِذٍ، فِي الْإِسْلاَمِ غَيْرَ رَسُولِ اللهِ صلى الله عليه وآله، وَ خَدِيجَةَ، وَ أَنَا ثَالِثُهُمَا أَرَىٰ نُورَ الْوَحْيِ، وَالرِّسَالَةِ، وَ أَشُمُّ رِيحَ النُّبُوَّةِ، وَلَقَدْ سَمِعْتُ رَنَّةَ الشَّيْطَانِ حِينَ نَزَلَ

(١) ٱلْبَقَرَة: ٣ ـ ٥.

(٢) آلِ عِمْرَانَ: ٤٤.

(٣) الْجِنّ: ٢٦ ـ ٢٧.

الْوَحْيُ عَلَيْهِ ﷺ ، فَقُلْتُ يَا رَسُولَ اللهِ مَا هَذِهِ الرَّنَّةُ ! فَقَالَ هَذَا الشَّيْطَانُ قَدْ أَيِسَ مِنْ عِبَادَتِهِ إِنَّكَ تَسْمَعُ مَا أَسْمَعُ ، وَتَرَىٰ مَا أَرَىٰ إِلاَّ أَنَّكَ لَسْتَ بِنَبِيٍّ ، وَ لَكِنَّكَ لَوَزِيرٌ »[١] .

وَقَالَ الأُستاذ عبدٱلكَرِيمِ الخَطِيب الأديب المِصْري في كتاب : «إِذَا ذَهبتَ تَسْتَعرض جَمِيع الّذِين كَانُوا في كَنف رَسُول الله من زوّج ، وولد لَم تجد أحداً مِنْهُم قَد كَانَ له من طول الصُّحبة ، والمخَالطة ما كَانَ لِعَليّ ، فلقد صَحِبَ رَسُول الله صُحبَة مُتصِلة أَكْثَر من ثَلاثِين عَامَاً ، وتِلْكَ مُدَّة لَم يَظفر بها أَحد من ٱلْمُسْلِمِين جَمِيعَاً ، فَإِذَا ٱجتمع إِلىٰ طول الصُّحبة الْقَرَابَة الْقَرِيبَة ، والألفة المُتصلة ، والمخَالطة في حلو ٱلْحَيَاة ومرّها مَع أُذنٌ واعية ، وقَلب ذاكرٌ ، وعقل حافظٌ كَانَ كلّ ما نُسب إِلىٰ عليّ من عِلم قليلاً بالنِّسْبَة إِلىٰ ما يُرجىٰ مِنْهُ ، ويؤمل فِيهِ ، وإِنْ ٱستكثره المُستكثِرون ، وشكّ فِيهِ الشَّاكون»[٢] .

فكلّ غَيبٍ أُخبر بِهِ الإِمَام فَهُوَ عن رَسُول الله عن جِبْرِيلَ عن الله ، كما قَالَ : «ذَلِكَ فَعِلْمٌ عَلَّمَهُ اللهُ نَبِيَّهُ ﷺ فَعَلَّمَنِيهِ ، وَ دَعَا لِي بِأَنْ يَعِيَهُ صَدْرِي ، وَتَضْطَمَّ عَلَيْهِ جَوَانِحِي)[٣] .

(وَ لَوْ قَدْ فَقَدْتُمُونِي ، وَ نَزَلَتْ بِكُمْ كَرَائِهُ الْأُمُورِ ، وَ حَوَازِبُ الْخُطُوبِ ، لَأَطْرَقَ كَثِيرٌ مِنَ السَّائِلِينَ ، وَ فَشِلَ كَثِيرٌ مِنَ الْمَسْئُولِينَ) . إِذَا خَلي مَكاني مِن بَينَكُمْ ، ثُم

(١) أُنظر ٱلخُطبَة رقم (٢٣٤) من شرح النّهج للسيّد عليّ نقي فيض ٱلإِسْلاَم: ٨٠٢. وٱلخُطبَة: (١٩٢) من خُطب الشَّريف الرَّضِي.

(٢) أُنظر ، عَليّ بن أبي طالب بقية النُّبوّة ، وخَاتَم ٱلخِلاَفَة للأُستاذ عبدالكريم ٱلخَطِيب: ٢٦٨ وما بعدها طَبْعَة سَنَة ١٩٦٧م.

(٣) أُنظر ، نَهج البَلاَغَة : ٱلخُطبَةُ (١٢٨).

نَزَلَتْ بِكُمْ نَازِلَة، أو حَدثت مُشْكِلَة فلا تَجِدون من يردها، أو يُجيب سائلاً عن حُكمها (وَ ذَلِكَ إِذَا قَلَّصَتْ حَرْبُكُمْ). أي تَمادت الْحَرْب بَيْنَكُمْ، وبَيْنَ أَعدائكم (وَشَمَّرَتْ عَنْ سَاقٍ) كناية عن شِدّة الْحَرْب (وَ ضَاقَتِ الدُّنْيَا عَلَيْكُمْ ضِيقاً، تَسْتَطِيلُونَ مَعَهُ أَيَّامَ الْبَلاءِ عَلَيْكُمْ). سَوف يعضّكم بعدي الْبَلاَء، ويشتّد حَتَّىٰ تروا الْيَوْم الواحد أَبَداً لا نِهَايَة له، وذَلِكَ أَنّ المُعافىٰ يُقيس الزَّمَان بِمَا قَرره عُلَمَاء الفَلك، أَمّا الْمُبْتَلَىٰ فتمد الثَّانِيَة في إحسَاسِيسه، وشعوره أَيَّاماً، كَمَا قَالَ الْمُتَنَبِّي: «ولَيل العَاشقِين طَوِيل»[1].

(حَتَّىٰ يَفْتَحَ اللهُ لِبَقِيَّةِ الأَبْرَارِ مِنْكُمْ). أي أَنّه تَعَالَىٰ لا يَرفع الضِّيق، والشِّدَّة عَنْكُمْ إِلَّا إِذَا وَجد مِنْكُم أَحرار يُجاهدون الْبَغْي وأَهله، ويَصبرون علىٰ الشَّدَائِد في سَبيل الْحَقّ، وَيَسْتَشهِدُون من أجلِ الْحُرِّيَّة، والكَرَامَة: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾[2]. (إِنَّ الْفِتَنَ إِذَا أَقْبَلَتْ شَبَّهَتْ) أي يَلتبس أَمرها علىٰ البسطاء حين تفاجئهم، ويظنونها خَيراً (وَ إِذَا أَدْبَرَتْ نَبَّهَتْ) لا تَنكشف حَالها حَتَّىٰ تخمد، ويظهر ضررها، وخطرها للعيان (يُنْكَرْنَ مُقْبِلاَتٍ، وَ يُعْرَفْنَ مُدْبِرَاتٍ). هَذَا بيانٌ، وتَفْسِير لما قَبله، وقَد مثل له ٱبن أَبي ٱلْحَدِيد بفتنة الْجَمَل، والْخَوَارِج[3]. حَيْث كَانَ كَثِير من النَّاس متوقفين في بداية الأَمْر، ولما وضعت الْحَرْب أوزارها ٱستبان لهم

---

(١) هَذَا عَجز من بَيْت للمُتَنَبِّي في قَصيدته الّتي يَمدح بها سَيْف الدَّوْلَة، والّتي مَطلعها:

لَيالي بَعد الظَّاعنين شكُول   طِوَال، وَلَيلُ العَاشقِين طَويلُ

أنظر، ديوَان المُتَنَبِّي بشرح عبد ٱلرَّحْمَان البَرقُوقي: ٤/١٩٥، مطبعة الاِسْتِقَامَة، مِصْر، ١٣٥٧ هـ، شَرح شَافية ٱبن الحَاجب شَرح رضي الدّين الاستراباذي: ٤/٨٠.

(٢) ٱلرَّعْد: ١١.

(٣) أنظر، شَرح النَّهج: ٧/٥٣.

صاحب الهِدَايَة وصاحب الضَّلالة. (يَحُمْنَ حَوْمَ الرِّيَاحِ، يُصِبْنَ بَلَداً، وَ يُخْطِئْنَ بَلَداً). إنّ الْفِتَن تَمَاماً كالرِّياح تعصف في مكان، وتهدأ في آخر.

فِتْنَةُ بَنِي أُمَيَّةَ...فِقْرَة ٣ ـ ٤:

أَلاَ وَ إِنَّ أَخْوَفَ الْفِتَنِ عِنْدِي عَلَيْكُمْ فِتْنَةُ بَنِي أُمَيَّةَ، فَإِنَّهَا فِتْنَةٌ عَمْيَاءُ مُظْلِمَةٌ: عَمَّتْ خُطَّتُهَا، وَ خَصَّتْ بَلِيَّتُهَا، وَ أَصَابَ الْبَلاَءُ مَنْ أَبْصَرَ فِيهَا، وَ أَخْطَأَ الْبَلاَءُ مَنْ عَمِيَ عَنْهَا، وَ ايْمُ اللهِ لَتَجِدُنَّ بَنِي أُمَيَّةَ لَكُمْ أَرْبَابَ سُوءٍ بَعْدِي، كَالنَّابِ الضَّرُوسِ تَعْذِمُ بِفِيهَا، وَ تَخْبِطُ بِيَدِهَا، وَتَزْبِنُ بِرِجْلِهَا، وَ تَمْنَعُ دَرَّهَا، لاَ يَزَالُونَ بِكُمْ حَتَّى لاَ يَتْرُكُوا مِنْكُمْ اِلاَّ نَافِعاً لَهُمْ، أَوْ غَيْرَ ضَائِرٍ بِهِمْ. وَ لاَ يَزَالُ بَلاَؤُهُمْ عَنْكُمْ حَتَّى لاَ يَكُونَ انْتِصَارُ أَحَدِكُمْ مِنْهُمْ اِلاَّ كَانْتِصَارِ الْعَبْدِ مِنْ رَبِّهِ، وَ الصَّاحِبِ مِنْ مُسْتَصْحِبِهِ، تَرِدُ عَلَيْكُمْ فِتْنَتُهُمْ شَوْهَاءَ مَخْشِيَّةً، وَ قِطَعاً جَاهِلِيَّةً، لَيْسَ فِيهَا مَنَارُ هُدىً، وَ لاَ عَلَمٌ يُرَى[٣].

نَحْنُ أَهْلَ الْبَيْتِ مِنْهَا بِمَنْجَاةٍ، وَ لَسْنَا فِيهَا بِدُعَاةٍ، ثُمَّ يُفَرِّجُهَا اللهُ عَنْكُمْ كَتَفْرِيجِ الْأَدِيمِ: بِمَنْ يَسُومُهُمْ خَسْفاً، وَ يَسُوقُهُمْ عُنْفاً، وَ يَسْقِيهِمْ بِكَأْسٍ مُصَبَّرَةٍ لاَ يُعْطِيهِمْ اِلاَّ السَّيْفَ، وَ لاَ يُحْلِسُهُمْ اِلاَّ الْخَوْفَ، فَعِنْدَ ذَلِكَ تَوَدُّ قُرَيْشٌ ـ بِالدُّنْيَا وَ مَا فِيهَا ـ لَوْ يَرَوْنَنِي مَقَاماً وَاحِداً، وَ لَوْ قَدْرَ جَزْرِ جَزُورٍ، لِأَقْبَلَ مِنْهُمْ مَا أَطْلُبُ الْيَوْمَ بَعْضَهُ فَلاَ يُعْطُونِيهِ[٤]!

اللُّغَة:

الخُطَّة ـ بضم الخاء ـ الأَمْر، يُقَال: تِلْكَ خُطّة لَيْست ببالِي أي ذَاكَ أمر.
والضَّرُوسِ من النُّوق: ما تَعَضّ حَالبها، ويُقَال: ضَرَسَه الدَّهْر أي اشتَد عَلَيْهِ.

وتَعْذِمُ: تَعَضّ. وَتزْبِنُ: تَضْرِبُ. والدرّ: اللّبَن. والشَّوْهَاءَ: الْقَبِيحَة. والمَخْشِيَّة: المخُوفَة. والأَدِيمِ: الجِلد. والخَسْف: الذُّل. وبِكَأْسٍ مُصَبَّرَةٍ: مَمْلُوءَة من مَلأ الكَأس إلىٰ أَصْبَارِها أي إلىٰ رَأْسِها. وجَزْرِ النَّاقَة: نَحْرها، والشَّاة ذَبْحها، والنَّخلة صَرمَها، وكَلِمَة الجَزُور تُطلق علىٰ النَّاقة، والشَّاة.

الإِعْرَاب:

أَلا لافتتاح الكَلَام، وَآيْمُ اللهِ مُبْتَدأ، والخَبَر مَحْذُوف وجُوبَاً أي قَسمي، و «بِكُمْ» مُتَعَلّق بِمَحْذُوف خَبَراً لـ «يَزَالُونَ» أي لا يَزَالُونَ قائمين بِكُمْ، وشَوْهَاءَ حَال من فِتْنَتِهِمْ، ونَحْنُ مُبْتَدأ، وبِمَنْجَاةٍ خَبَر، ومِنْهَا مُتَعَلّق بِه، وأَهْلَ ٱلْبَيْت نُصب علىٰ الاِختصاص أي أَخص أَهْلَ ٱلْبَيْت، وخَسْفاً مَفْعُول مُطلق، ومِثْله عُنْفاً. لَوْ يَرَوْنَنِي «لَوْ» مَصْدَرِيَة بِمَعْنَىٰ «أَنْ» ولكنْ بلا نَصب، وَلَوْ قَدْرَ «لَوْ» هَذِه للتقليل كما قيل، وقَدْرَ نُصب علىٰ الظَّرفِيَة لأنّ معنَاه الوَقت اللاَزم لذَبْحِ جَزُورٍ.

الْمَعْنَىٰ:

بعد أنْ أَشار الإِمَام إلىٰ الْفِتْنَة، وإنّه أَخمدها، وإِنَّهَا تختفي مُقبلة، وتَظهر مُدبرة ـ أَشار إلىٰ الْفِتْنَة الأُمويّة بقَوْله: (أَلاَ وَ إِنَّ أَخْوَفَ الْفِتَنِ عِنْدِي عَلَيْكُمْ فِتْنَةُ بَنِي أُمَيَّةَ، فَإِنَّهَا فِتْنَةٌ عَمْيَاءُ مُظْلِمَةٌ: عَمَّتْ خُطَّتُهَا، وَ خَصَّتْ بَلِيَّتُهَا). الْمُرَاد بعموم خُطَّتُهَا أَنّ رئاسة الأُمويين كَانَتْ، عَامة تشمل الجَمِيع، واَختصّتْ بَلِيّتهَا بِالأَحْرَار والمُسْتَضْعَفِين حَيْث كَانَ الأُمَويُون يَستعبدُون، ويَسْتغلُون هَؤُلاَء، ويُنكلُون بأُولَئِكَ قتلاً، وتشريداً، وأَسراً، وتَصفيداً (وَ أَصَابَ الْبَلاَءُ مَنْ أَبْصَرَ فِيهَا) آشتد

الْبَلاَء في هَذِه الْدَّوْلَة الطَّاغية ـ علىٰ أَهْل ٱلْعِلْم، والإِخْلاَص، يُصيبهم من عُدْوَانها السَّهم الأوفر لصدقهم، ومعارضتهم، ويُشاهدون الْمُنْكَر هُنا وهُناك، وَلاَ يَملكون من أَمْره وأمرهم شَيْئاً.

(وَ أَخْطَأَ الْبَلاَءُ مَنْ عَمِيَ عَنْهَا). أي عن الْفِتَنِ، وٱلْمَعْنىٰ أنّ مَا مِن أَحدٍ يَسلم مِن جَوْر الأُمَويين إلّا مَن يُبارك أَباطيلهم عن جهلٍ، وعَمِىٰ، أو عن قَصدٍ، وطَمع (أَرْبَابَ سُوءٍ بَعْدِي، كَالنَّابِ الضَّرُوسِ) أي النَّاقَة الشَّمُوس (تَعْذِمُ بِفِيهَا) تَعَضّ (وَ تَخْبِطُ بِيَدِهَا) خَبطاً شَديداً (وَتَزْبِنُ بِرِجْلِهَا) تَضْرِب بِها من يَقرب مِنْهَا (وَ تَمْنَعُ دَرَّهَا) خَيرها وَلَبنها (لاَ يَزَالُونَ بِكُمْ) يَهلكُون الحَرث، والنَّسل (لاَ يَتْرُكُوا إِلاَّ نَافِعاً لَهُمْ) لا يَسلم من شَرهم إلّا مَن كَان عَميلاً من عُملائهم (أَوْ غَيْرَ ضَائِرٍ بِهِمْ). يَقف علىٰ الحياد لا يُساوم، وَلاَ يُقاوم.

(حَتَّىٰ لاَ يَكُونَ ٱنْتِصَارُ أَحَدِكُمْ مِنْهُمْ إلاَّ كَٱنْتِصَارِ الْعَبْدِ مِنْ رَبِّه، وَ الصَّاحِبِ مِنْ مُسْتَصْحِبِهِ) مِنْ رَبِّهِ أي من سَيِّده، وَالصَّاحِبِ التَّابع، والمُسْتَصْحِبَ المَتبوع، وٱلْمَعْنىٰ أنّهم ينتلونون مَع الأُمُويين كالخَدم العَبيد، يَطيعون في الظَّاهِر، ويتميزون من الْغَيْظ في الْبَاطِن، وَقَالَ الإِمَام: «وَحَتَّىٰ تَكُونَ نُصْرَةُ أَحَدِكُمْ مِنْ أَحَدِهِمْ كَنُصْرَةِ الْعَبْدِ مِنْ سَيِّدِهِ، إِذَا شَهِدَ أَطَاعَهُ، وَإِذَا غَابَ ٱغْتَابَهُ»[1] (تَرِدُ عَلَيْكُمْ فِتْنَتُهُمْ شَوْهَاءَ مَخْشِيَّةً، وَ قِطَعاً جَاهِلِيَّةً، لَيْسَ فِيهَا مَنَارُ هُدىً، وَ لاَ عَلَمٌ يُرَىٰ) أي أنّ دولة أُمَيَّة شَرٌ كُلّها، عَدلها بَعيد، وجَوْرَها عَتيد.

قَالَ طَه حُسِين: «جَعل مُعَاوِيَة ٱلخِلاَفَة مُلكاً، وأورَثها ٱبْنِه من بَعْدَه، وٱستبَاح

(١) أنظر، نَهج ٱلبَلاَغَة: ٱلخُطْبَة (٩٨).

أشيَاء حَرمها ٱلْقُرْآن... ثُم تتابع الخروج علىٰ ٱلْكِتَاب، والسُّنَّة، لأنّ الإِثْم يَدعو الإِثْم، ولأنّ حُبّ الدُّنْيَا لا يقنع صَاحبه، فالله قد حَرّم مَكَّة في ٱلْقُرْآن، وحَرَم النَّبِيّ ٱلْمَدِينَة، وقد ٱستباح بَنُو أُمَيَّة ٱلْمَدِينَة ومَكَّة جَمِيعاً، بدأ يَزِيد بن مُعَاوِيَة فٱستباح ٱلْمَدِينَة، وأَنهبها ثَلاَثاً، وثنىٰ عبدالملك بن مَرْوَان فأذن للحجّاج في أنْ يستبيح مَكَّة... كلّ ذَلِكَ لتخضع البلاد المُقدسة لبني سُفْيَانَ، ومَرْوَان، وٱستباح ٱبن زياد عن أمر يزيد قتل الحُسَيْن، وأبنائه، وإخوته، وسبي بنات النَّبِيّ... وأَصْبَحَ مال ٱلْمُسْلِمِين ملكاً للخُلَفَاء، يَنفقُونه كما يُحبّون لا كما يُحِبّ الله»[1].

وَقَالَ طَه حُسِين: «ولستُ في حَاجَة إِلىٰ أنْ أذكر زيَاداً، ذَاكَ الَّذي أَعلن في خطبته المشهورة أنّه سيأخذ البريء بالْمُسِيء، والصَّحيح في دِينه بالسَّقيم، وَلاَ أذكر الحَجَّاج الَّذي أَسرف في الْقَتْلِ بغير الْحَقّ، فقد كَانَ زياد، والحَجَّاج طاغيتين

---

(١) أُنظر، مرآة ٱلإِسْلاَم: ٢٦٨ طَبْعَة ١٩٥٩م. (مِنْهُ ﷺ). والإِصَابَة لِابْن حَجَر: ٦٤/١.

فهل تقبل هَذِهِ المَدرسة ـ مَدرسة ٱلْخِلاَفَة ـ أنْ يَكُون خليفتها يزيد بن مُعَاوِيَة الَّذي قتل سبط رَسُول الله ﷺ، وريحانته في كَربلاء، وأبَاح ٱلْمَدِينَة ثلاثة أَيَّام، ورمىٰ الكعبة بالمنجنيق، و... و...؟ وكتب مُعَاوِيَة العهد إِلىٰ ٱبْنِهِ يزيد وجعل له ٱلْخِلاَفَة من بعده وَقَالَ: «... إنّي من أجلك آثرت الدُّنْيَا علىٰ الآخِرَة، ودَفَعْت حقّ عليّ بن أبي طالب، وحملت الوزر علىٰ ظهري، وإنّي لخائف أنْ لا تقبل وصيتي، فتقتل خيار قومك، ثمّ تعدُوَ علىٰ حرمة ربّك فتقتلهم بغير الْحَقّ، ثمّ يَأْتِيك الْيَوْم بَغْتَة، فلا دُنيا تُصيب، وَلاَ آخرة تُحبّ، يأبني إنّي جعلت هَذَا مَطمعاً لكَ، ولولدك من بعدك... وكُن حَازماً صَارماً... فإنّي كفيتك الجدّ، والتَّرحَال... ولقد وطأت لكَ يابني البِلاد، وذللت لكَ رقاب الْعَرَب الصّعاب... ومهدت لكَ الملك من بعدي تمهيداً...».

أُنظر، نصّ الكَلاَم في الْفُتُوح: ٣٥٣/٣ و٣٥٤ و٣٥٥ و٣٥٦ و٣٥٧، تَأرِيخ الطبريّ: ١٧٩/٦ و١٨٠ بإختلاف بسيط، الإِصَابَة: ١٦٩/٤، تَهْذِيب التَّهذيب: ١٧٤/٦، المقتل للخوارزميّ: ١٧/١، الْبَيَان والتَّبيين: ١٠٧/٢، الكَامِل لِابْن الأَثِير: ٤/٤، مَع إختلاف في بَعْض الأَلْفَاظ.

أَطلق خُلَفَاء بَنِي أُمَيَّة أيديهما، وأَيْدِي غَيْرهما من وِلاَة الْعِرَاق في دِمـاء النَّـاس، وأَمْوَاهم فَأفْسَدُوا، وَأَمْعَنُوا في الْفَسَاد»[١].

(نَحْنُ أَهْلَ الْبَيْتِ مِنْهَا بِمَنْجَاةٍ) أي من أَوزار الْدَّوْلَة الأُمـويّة، وآثمها، لا مِـن ظلمها وعُدْوَانها، لأنّ أَهْلَ الْبَيْتِ، وشِيعَتهُم كَانَ لهُم مـن الجَـوْر الأُمـوي الحَـظّ الْأَكْبَر والنَّصيب الأوفر (وَلَسْنَا فِيهَا بِدُعَاةٍ) للأشرار، وأَهْل الْفَسَاد، والضَّلال (ثُمَّ يُفَرِّجُهَا اللهُ عَنْكُمْ كَـتَفْرِيجِ الْأَدِيـمِ). قـيل: إنّ الْإِمَـام أَشـار إِلىٰ آنـقراض دولة الْأُمويين، وقيام دولة العَبّاسِيين، وقِيل: إشَارَة إِلىٰ صَاحب الْأَمْر (يَسُومُهُمْ خَسْفاً، وَ يَسُوقُهُمْ عُنْفاً، وَ يَسْقِيهِمْ بِكَأْسٍ مُصَبَّرَةٍ لاٰ يُعْطِيهِمْ إلاّٰ السَّيْفَ، وَ لاٰ يُحْلِسُهُمْ إلاّٰ الْخَوْفَ). وينطبق هَذَا تَمَامَاً علىٰ ما فَعَله العَبّاسِيُون ببني أُمَيَّة من الْقَتْلِ والتَّشريد، وهو قَرِينة ظَاهرة علىٰ تَرجيح الْقَوْل الأَوَّل.

(فَعِنْدَ ذَلِكَ تَوَدُّ قُرَيْشٌ ـ بِالدُّنْيَا وَ مَا فِيهَا ـ لَوْ يَرَوْنَنِي مَقَاماً وَاحِداً، وَ لَوْ قَـدْرَ جَزْرِ جَزُورٍ) الْمُرَاد بقُرَيْش هنا بَنُو أُمَيَّة، وبـالخصُوص مَـرْوَان بـن مُحَـمّد آخـر ملُوكهم، والْمُرَاد بالمقَام الوَاحد الزَّاب، وهو نَهر بالموصل. ومُلخص هَذِه الحِكَاية الّتي أشَار الْإِمَام إِلَيْهَا قَبل وقُوعها بأَكْثَر من تسعين عَامَاً: «أنّ مَرْوَان بـن مُحَـمّد المذكُور سَار بجيُوشه لمُلاقاة جيُوش العَبّاسِيين حَتَّىٰ نزل علىٰ الزَّاب[٢]، ولمّـا رأىٰ رايَة أَعْدَائه بقيادة عبدالله بن مُحَمّد بن عليّ بن عبدالله بن الْعَبَّاس ـ قَالَ: وددت أنّ

(١) أُنظر، مرآة آلْإِسْلاَم: ٢٩٣ طَبْعَة ١٩٥٩م. (مِنْهُ ﷺ). وشرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد: ٥١٤/١٦، تَارِيخ مدينة دِمَشْق: ١٧٩/١٩، الكَامِل للمبرد: ٢٦٨/١، عيون الْأَخْبَار: ٩/١، الْبَيَان والتَّبيين: ٦٢/٢، العقد الفَرِيد: ٦/٥، آلْأَمَالي للقالي: ١٨٥/٣.

(٢) يُراد بِهِ الزَّاب الأعلىٰ، وهو مابَيْنَ المُوصل وإربل كما جاء في معجم البلدان.

عليّ ٱبن أبي طالب تحت هَذِه الرَّاية بَدلاً من هَذَا الفَتىٰ العَبّاسيّ»[١].

قَالَ ٱبن أبي ٱلحَدِيد في شرح هَذِه ٱلخُطْبَةُ: والقِصَّة مشهورة نقلها أَهْل السير كُلهم ... وَهَذَا الكَلاَم من الإِمَام إخبَار عن ظهُور المسوِّدة ـ أي بَني الْعَبَّاس ـ وٱنقرَاض مُلك بَني أُميَّة، وقد وَقع الأَمْر بمُوجب إخبَاره صلوات الله عَلَيْهِ، وصدق في قَوْله: «تَوَدُّ قُرَيْشٌ ـ بِالدُّنْيَا وَ مَا فِيهَا ـ لَوْ يَرَوْنَنِي.. إلخ» .. وَلاَ تَفْسِير لِهَذَا الصِّدْق إلّا بالوحي من الله ورَسُوله، ومنهُ إلىٰ الإِمَام.

(لِأَقْبَلَ مِنْهُمْ مَا أَطْلُبُ الْيَوْمَ بَعْضَهُ فَلاَ يُعْطُونِيهِ). رضي الإِمَام من الأُمَويين بالسُّكُوت، لا لهُ، وَلاَ عَلَيْهِ، فأبوا، وحاربوه بكلّ سلاح، ولمّا ٱنتقل إلىٰ ربّه ودّوا لو حكمهم دُونَ غَيْره، لأنّه صاحب دِين، لا طَالب دُنيا بٱعتراف الأُمَويين أَنْفسهم.

(١) القِصَّة طويله ومشهورة، أُنظر، الكَامِل لابن الأَثِير: ٤/ ٣٢٧ ـ ٣٣٤، شرح نَهْج ٱلبَلاَغَة لِابن أبي ٱلحَدِيد: ٧/ ٥٧، الغَارات: ١/ ١٢.

الخطبة

ـ ٩٤ ـ

قَامُوا بِدِينِ اللهِ...فِقْرَة ١ ـ ٢:

فَتَبَارَكَ اللهُ الَّذِي لاٰ يَبْلُغُهُ بُعْدُ الْهِمَمِ، وَ لاٰ يَنَالُهُ حَدْسُ الْفِطَنِ، الْأَوَّلُ الَّذِي لاٰ غَايَةَ لَهُ فَيَنْتَهِيَ، وَ لاٰ آخِرَ لَهُ فَيَنْقَضِيَ. فَاسْتَوْدَعَهُمْ فِي أَفْضَلِ مُسْتَوْدَعٍ، وَ أَقَرَّهُمْ فِي خَيْرِ مُسْتَقَرٍّ، تَنَاسَخَتْهُمْ كَرَائِمُ الْأَصْلاَبِ إِلَىٰ مُطَهَّرَاتِ الْأَرْحَامِ، كُلَّمَا مَضَىٰ مِنْهُمْ سَلَفٌ، قَامَ مِنْهُمْ بِدِينِ اللهِ خَلَفٌ. حَتَّىٰ أَفْضَتْ كَرَامَةُ اللهِ سُبْحَانَهُ وَ تَعَالَىٰ إِلَىٰ مُحَمَّدٍ ﷺ، فَأَخْرَجَهُ مِنْ أَفْضَلِ الْمَعَادِنِ مَنْبِتاً، وَ أَعَزِّ الْأَرُومَاتِ مَغْرِساً، مِنَ الشَّجَرَةِ الَّتِي صَدَعَ مِنْهَا أَنْبِيَاءَهُ، وَ انْتَجَبَ مِنْهَا أُمَنَاءَهُ[1]. عِتْرَتُهُ خَيْرُ الْعِتَرِ، وَأُسْرَتُهُ خَيْرُ الْأُسَرِ، وَ شَجَرَتُهُ خَيْرُ الشَّجَرِ، نَبَتَتْ فِي حَرَمٍ، وَ بَسَقَتْ فِي كَرَمٍ، لَهَا فُرُوعٌ طِوَالٌ، وَ ثَمَرٌ لاٰ يُنَالُ، فَهُوَ إِمَامُ مَنِ اتَّقَىٰ، وَ بَصِيرَةُ مَنِ اهْتَدَىٰ، سِرَاجٌ لَمَعَ ضَوْؤُهُ، وَ شِهَابٌ سَطَعَ نُورُهُ، وَ زَنْدٌ بَرَقَ لَمْعُهُ، سِيرَتُهُ الْقَصْدُ، وَ سُنَّتُهُ الرُّشْدُ، وَ كَلاَمُهُ الْفَصْلُ، وَ حُكْمُهُ الْعَدْلُ، أَرْسَلَهُ عَلَىٰ حِينِ فَتْرَةٍ مِنَ الرُّسُلِ، وَهَفْوَةٍ عَنِ الْعَمَلِ، وَ غَبَاوَةٍ مِنَ الْأُمَمِ.

اعْمَلُوا، رَحِمَكُمُ اللهُ، عَلَىٰ أَعْلاَمٍ بَيِّنَةٍ، فَالطَّرِيقُ نَهْجٌ يَدْعُوا إِلَىٰ دَارِ السَّلاَمِ، وَأَنْتُمْ فِي دَارِ مُسْتَعْتَبٍ عَلَىٰ مَهَلٍ، وَ فَرَاغٍ، وَ الصُّحُفُ مَنْشُورَةٌ، وَ الْأَقْلاَمُ جَارِيَةٌ،

وَالْأَبْدَانُ صَحِيحَةٌ، وَ الْأَلْسُنُ مُطْلَقَةٌ، وَ التَّوْبَةُ مَسْمُوعَةٌ، وَ الْأَعْمَالُ مَقْبُولَةٌ(٢).

اللُّغَة:

تَبَارَكَ: تَقَدَسَ، وتَنَاسَخَتْهُمْ: تَنَاقَلَتْهُمْ. وأَفْضَتْ: بَلَغَتْ. والمَنْبَت: مَوضع النَّبَات. والمَغْرَس: مَوضع الغَرْس. والأَرُومَاتِ: الأُصُول. وصَدَعَ بالشَّيء: قَام بِه، ومَضَىٰ فِيهِ، وصَدَعَ إِلَيْهِ: مَال إِلَيْهِ، وعَنْهُ: كَفَّ، ومِنْهُ: شَقّ، وأَخرج. وَانْتَجَبَ: اصْطَفَىٰ واخْتار. وَالزَّنْدُ: يُقتدح بِه النَّار. والْقَصْدُ: الاِسْتِقَامَة. والفَتْرَة: الهُدْنَة. والهَفْوَة: الزَّلَة. واسْتَعْتَب: اسْتَرْضَاه، ومَا بَعد الْمَوْت مُسْتَعْتَب أي اسْتَرضَاء.

الْإِعْرَاب:

الَّذِي لاٰ يَبْلُغُهُ اسم المَوْصُول صِفة لله، أو بَدل، والأَوَّل بَدل، أو خَبَر لمُبْتَدَأ مَحْذُوف أي هو الأَوَّل، وكُلَّمَا «مَا» مَصْدَرِيَة ظَرفِيَة، ونَصبت كلّ لِأَنَّهَا مُضافة إِلىٰ الظَّرف، ومَنْبِتاً تَمْيِيز مَغْرِساً، والّتي صَدَعَ صِفة للشَّجَرَةِ.

الْمَعْنىٰ:

(فَتَبَارَكَ اللهُ الَّذِي لاٰ يَبْلُغُهُ بُعْدُ الْهِمَمِ، وَ لاٰ يَنَالُهُ حَدْسُ الْفِطَنِ، الْأَوَّلُ الَّذِي لاٰ غَايَةَ لَهُ فَيَنْتَهِيَ، وَ لاٰ آخِرَ لَهُ فَيَنْقَضِيَ). تَقَدَّم أَكْثَر من مَرة أنّ الذّات القُدسية أَجلّ من أنْ تُدرك بِالْعُقُول، والأوهام، وكَيْفَ يُحيط المحدود بمن لا بداية له، وَلاَ نَهاية! وهل تَكُون الذَّرَّة الصَّغِيرة وعاء للكون بكواكبه، وعجائبه، وكلّ ما يَسْتَطِيعه

اَلْعَقْل بالنِّسْبَة إِلَيْهِ تَعَالَىٰ هو إِدْرَاك وُجُودِه، وإِنّه لَيْسَ كَمِثْله شَيْءٌ، لأنّه خَالق كلّ شيء، والْخَالِق غَيْرُ الْمَخْلُوق (فَاسْتَوْدَعَهُمْ فِي أَفْضَلِ مُسْتَوْدَعٍ، وَ أَقَرَّهُمْ فِـي خَـيْرِ مُسْتَقَرٍّ، تَنَاسَخَتْهُمْ كَرَائِمُ الْأَصْلاَبِ إِلَىٰ مُطَهَّرَاتِ الْأَرْحَامِ، كُلَّمَا مَضَىٰ مِنْهُمْ سَلَفٌ، قَامَ مِنْهُمْ بِدِينِ اللهِ خَلَفٌ). يُشِير الْإِمَام بِهَذَا إِلَىٰ اَلْأَنْبِيَاء، وإِنّه تَـعَالَىٰ نَـقلهم مِـن الأصلاب الطَّاهرة إِلىٰ اَلْأَرْحَامِ الْمُطهرة عن الزّنا، والفُحش، وَيَرىٰ الْإِمَامِيَّة أنّ كلّ نَبِي يَجب أنْ يكُون مُنزهاً عن دنَاءة الآبَاء، وعِهر الأُمّهات لأنّ ذَلِكَ مُنفّر مـنهُ.. وَهَذَا مجرد اَسْتِحْسَان لا يُلزم به اَلْعَقْل، فإنْ ثَبت النَّقل القَطعي مَتناً، وسَنداً عِند البَاحث وَجَبَ عَلَيْهِ الاِعتقاد بذلك، وإلاّ فلا وجوب وَلاَ اَستحباب أيضاً إنْ صَحّ التَّعبير. وقَوْل الإِمَام: «كُلَّمَا مَضَىٰ مِنْهُمْ سَلَفٌ، قَامَ مِنْهُمْ بِدِينِ اللهِ خَلَفٌ» إِشَارَة إِلىٰ ما جاء في الآيَة: ﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَا كُلَّ مَا جَآءَ أُمَّةً رَّسُولُهَا كَذَّبُوهُ فَأَتْبَعْنَا بَعْضَهُم بَعْضًا وَجَعَلْنَٰهُمْ أَحَادِيثَ فَبُعْدًا لِّقَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ﴾[1]. أي مُـتواتـرين مُتتابعين.

(حَتَّىٰ أَفْضَتْ كَرَامَةُ اللهِ سُبْحَانَهُ وَ تَعَالَىٰ إِلَىٰ مُحَمَّدٍ ﷺ، فَـأَخْرَجَهُ مِـنْ أَفْـضَلِ الْمَعَادِنِ مَنْبِتاً، وَ أَعَزِّ الْأَرُومَاتِ مَغْرِساً، مِنَ الشَّجَرَةِ الَّتِي صَدَعَ مِـنْهَا أَنْـبِيَاءَهُ، وَ انْتَجَبَ مِنْهَا أُمَنَاءَهُ). قَالَ الرَّسول الْأَعْظَم ﷺ: «والله مَا أُحبّ أنْ تَرفَعُوني فَـوق مَنزلتي»[2]. والسَّبب المُوجب لِهَذَا النَّهي أنّه لا شيء فَوق مُحَمّد ﷺ إلاّ الله، ومَنْزلَة

---

(١) الْمُؤْمِنُون: ٤٤.

(٢) أُنظر، تَفْسِير آبن كَثِير: ١/٥٩١، السُّنَن الْكُبْرَىٰ: ٦/٧٠ ح ١٠٠٧٧ و ١٠٠٧٨، مُسْنَد أحمد: ٣/١٥٣ ح ١٢٥٧٣ و ١٣٦٢١، مُسْنَد عبد بن حميد: ١/٣٩٧ ح ١٣٣٧، عمل الْيَوْم وَاللَّيْلَة: ١/٢٤٩ ح ٢٤٨ و ٢٤٩، المدخل إلىٰ السُّنَن: ١/٣٣٢ ح ٥٣٦.

خاتَم النَّبيِّين من النَّسب أنّه يتصل بإِسْمَاعِيلَ ٱبن خليل الله إبْرَاهِيم، وإلىٰ هَذَا أشار الإمَام بقَوْله: «أَفْضَلِ الْمَعَادِنِ مَنْبِتاً، وَ أَعَزِّ الْأَرُومَاتِ مَغْرِساً» ويجوز أنْ يَكُون الْمُرَاد بالمَنْبَت مَكَّة مَحل وَلاَدة النَّبِيّ، وبالمَغْرَسِ جدّه إِسْمَاعِيلَ، ومنزلته من مَكَارِمِ الأَخْلاَق أنّه متمم لها، ومنزلته من النُّبُوَّة أنّه سيّد الْمُرْسَلِين، وخاتَم النَّبِيِّين، ومنزلته من الْجِهَاد أنّه مُنقذ ٱلإنسانيّة علىٰ حَدّ ما وَصَفه برنَاردشو[1].

(عِتْرَتُهُ خَيْرُ الْعِتَرِ، وَأُسْرَتُهُ خَيْرُ الْأُسَرِ، وَ شَجَرَتُهُ خَيْرُ الشَّجَرِ، نَبَتَتْ فِي حَرَمٍ، وَبَسَقَتْ فِي كَرَمٍ، لَهَا فُرُوعٌ طِوَالٌ، وَ ثَمَرٌ لاَ يُنَالُ). سَبقَ الْحَدِيث عن العِتْرَةِ الطَّاهرة، وفضلها[2]، وللتبرك نَذكر ما جَاء في صَحِيح مُسْلِم: «قالت عَائِشَةَ: خرج النَّبِيّ ﷺ وعَلَيْهِ مرط مرحل ـأي بُردٌ عَلَيْهِ تصاوير ـفجاء الْحَسَن بن عليّ فأَدْخَلَه، ثُم جَاء الحُسَيْن فدخل معه، ثُمّ جاءت فَاطِمَة فأَدْخَلَها، ثم جَاء عليّ فأَدْخَلَه، ثُم قَالَ: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾[3].

---

(١) أنظر، شرح ٱلْخُطْبَة رقم (١ و٧٢ و ٨٨). (مِنْهُ ﷺ).

(٢) أنظر، شرح ٱلْخُطْبَة: رقم ٢ و ٨٤ وغَيْرهما. (مِنْهُ ﷺ).

(٣) ٱلْأَحْزَاب: ٣٣.

أنظر، صَحِيح مُسْلِم: ٢/ ق٢ ١١٦ بَاب فَضَائِل أَهْل ٱلْبَيْت طَبْعَة سَنَة ١٣٤٩ هـ. (مِنْهُ ﷺ).

وأُنظر، ٱعتراف أُمّ الْمُؤْمِنِينَ، وأُمّ سلمة زوج النَّبِيّ ﷺ بأَنّ أَهْل ٱلْبَيْت، هُم: عليّ، وفَاطِمَة، والْحَسَن، والحُسَيْن ﷺ، وَهِي خارجة عَنْهُمْ. شواهد التَّنْزِيل للحسكاني الحنفي: ٢/ ٣٩ ح ٦٥٩ و ٧٠٦ و٧٠٧ ـ ٧١٠ و٧١٣ و ٧١٤ و٧١٧ و ٧٢٠ و ٧٢٢ و ٧٢٤ و ٧٢٥ و٧٢٦ و ٧٢٩ و ٧٣١ و ٧٣٧ و٧٣٨ و ٧٤٠ و ٧٤٧ و٧٤٨ و٧٥٢ و ٧٥٥ و٧٥٧ ـ ٧٦١ و ٧٦٤ و ٧٦٥ و ٧٦٨. الرِّيَاض النَّضرَة لمحبّ الدين الطبري الشافعي: ٢/ ٢٤٨ الطبعة الثَّانِيَة، مطالب السؤول لإبْن طَلْحَة الشافعي: ١/ ١٩ ط

⇔

← النجف، سُنَن التِّرمذي: ٥/٣٢٧ ح ٣٢٠٥، صَحِيح التِّرمذي: ٥/٣١ ح ٣٢٥٨ و ٣٢٨ ح ٣٨٧٥ و ٣٦١ ح ٣٩٦٣.

وأُنظر فتح الْبَيَان لصدّيق حسن خان: ٧/٣٦٤، فتح القدير للشوكاني: ٤/٢٧٩، مناقب الإِمَام عليّ بن أبِي طالب لِإبْن المغازلي الشافعي: ٣٠٣ ح ٣٤٧ و ٣٤٩، تَفْسِير أَبْن كَثِير: ٣/٤٨٤، الدُّر المنثور للسيوطي: ٥/١٩٨، نظم درر السِّمطِين للزرندي الحنفي: ٢٣٨، ذَخَائِر الْعُقْبَىٰ للطبري الشافعي: ٢١، كفاية الطالب للحافظ الكنجي الشافعي: ٣٧٢ ط الحيدرية، ويَنَابِيع المَوَدَّة للحافظ القندوزي الحنفي: ١٠٧ و ٢٢٨ و ٢٣٠ و ٢٩٤ ط اسلامبول، أُسد الغَابَة لِإبْن الأَثِير: ٢/١٢، و: ٣/٤١٣، و: ٤/٢٩، السيرة النَّبَوِيَّة بهامش السيرة الْحَلَبِية: ٣/٣٣٠ ط البهية بِمصْر، تَفْسِير الطبري: ٢٢/٧، إسعاف الراغبين بهامش نور الأَبْصَار: ٩٧ ط العُثْمَانِية، بِحَار الأَنْوَار: ٣٥/٢٢٦.

أَسْبَاب النزول للواحدي بسنده عن أحمد: ٢٦٧ الطبعة الأُولَىٰ و ٢٣٩. وأُنظر الجَامِع لأحكام الْقُرْآن للقرطبي: ١٤/١٨٤، الصَّوَاعِق الْمُحْرِقَة لِإبْن حَجَر: ١٤١ و١٤٣، تَفْسِير الْقُرْآن العظيم لِإبْن كَثِير: ٣/٤٨٥ و٤٨٦، النّسائي في الخصائص: ٩، يَنَابِيع المَوَدَّة: ١/٥٤، الكشّاف للزمخشري: ١/١٩٣، مُسْنَد أحمد بن حنبل: ٣/٢٥٩ ط ١٩٨٣، أَنْسَاب الأَشْرَاف للبلاذري: ١٠٤، الاعتقاد مَذْهَب السّلف للبيهقي: ١٨٦، المَنَاقِب لِإبْن المغازلي: ١٨٩، ذَخَائِر الْعُقْبَىٰ للمحب الطبري: ٢١، صَحِيح مُسْلِم: ٧/١٢٠ و ١٢١.

هَذَا الْحَدِيث روي بطرق عديدة في كتب التَّارِيخ، والتَّفْسِير، وأَهْل السير، والْحَدِيث عن أُمّ سلمة، فتارةً يروىٰ بأنّ النَّبِيّ ﷺ أخذ ثوباً فجلّله علىٰ عليّ، وفَاطِمَة، والْحَسَن، والْحُسَيْن وهو معهم، ثمّ قرأ ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ﴾ قالت: فجئت أدخل معهم فَقَالَ ﷺ: قي مكانك إِنّكِ علىٰ خير. (ذَخَائِر الْعُقْبَىٰ: ٢١ فَضَائِل أَهْل الْبَيْت ﷺ).

وتارةً أُخرىٰ يروىٰ عَنْهَا رضي الله عَنْهَا أيضاً قالت: إنّ النَّبِيّ ﷺ قَالَ لفَاطِمَة: ائتيني بزوجك وابنيك، فجاءت بِهِمْ فألقىٰ عَلَيْهِمْ كساءً فَدَكِياً، ثمّ وضع يده عَلَيْهِمْ وَقَالَ: اللَّهُمَّ إنّ هَـٰؤُلَاء آل مُحَمَّد، فاجعل صلواتك وبركاتك علىٰ مُحَمَّد وآل مُحَمَّد إنّك حميدٌ مجيد. قالت أُمّ سلمة: رفعت الْكِسَاء لأدخل معهم فجذبه ﷺ وَقَالَ: قي مكانكِ إنّكِ علىٰ خير. (الْمَصْدَر السَّابق).

وتارةً ثالثة يروىٰ عَنْهَا أيضاً أَنّهَا قالت: بينا النَّبِيّ ﷺ في بيتي يوماً إذ قالت الخادمة: إنّ عَلِيّاً، →

﴿ وفَاطِمَة بالسدّة، قالت: فأخبرت النَّبِيّ ﷺ فَقَالَ لي: قومي فٱفتحي الباب، ففتحته فدخل علِيّ، وفَاطِمَة، ومعهما الْحَسَن والْحُسَيْن وهما صبيّان صغيران، فأخذ الصبيّين فوضعهما في حجره وقبّلهما، وٱعتنق عَلِيّاً بإحدىٰ يديه، وٱعتنق فَاطِمَة باليد الأخرىٰ، وقبّل عَلِيّاً وقبّل فَاطِمَة، وأعدف ـ أغدق ـ عَلَيْهِمْ خميصةً سَوْدَاء، ثمّ قَالَ: أَللَّهُمّ أنا وهَؤُلاَء أَهْل بيتي، إِلَيْك لا إِلىٰ النّار. قالت: قلت: وأنا يا رَسُول الله؟

قَالَ: وأنتِ علىٰ خير. (ذَخَائِر الْعُقْبَىٰ: ٢١ فضل أَهْل ٱلْبَيْت عليهم السلام).

والظَّاهِر أنّ هَذَا الفِعْل تَكَرّر مِنهُ ﷺ كما قلنا آنفاً.

وتارةً رابعة روي عَنْهَا أيضاً أنّها قالت: جاءت فَاطِمَة أباها ﷺ غدية ببرمة، وقد صنعت له فيها عصيدة تحملها في طبق لها وَوَضعتها بَيْنَ يديه ﷺ فَقَالَ لها: أين ٱبن عمّك؟ قالت: هو في ٱلْبَيْت. قَالَ: إذهبي فٱدعيه وائتيني بأبنيك، فجاءت تقود ٱبنيها كلّ واحد مِنْهُمَا بيد وعليّ يَمْشِي في إثرهما حَتَّىٰ دخلوا علىٰ رَسُول الله فأجلسهما في حِجره، وجلس عليّ علىٰ يمينه، وفَاطِمَة علىٰ يساره. قالت أمّ سلمة: وٱجتذب من تحتي كساءً خيبرياً فلفّهم رَسُول الله ﷺ جَمِيعاً، وأخذ بطرفَي الْكِسَاء، وأَوْمَأَ بيده الْيُمنىٰ إلىٰ ربّه وَقَالَ: أَللَّهُمّ هَؤُلاَء أَهْل بيتي أذهب عَنْهُمْ الرجس وطهّرهم تطهيراً ـ قالها ثلاث مَرّات ـ. قلت: يا رَسُول الله ألست مِنْهُم؟ قَالَ لي: أُدخلي في الْكِسَاء، فدخلت في الْكِسَاء بعد ما قضىٰ دعاءه لِٱبْن عمّه وٱبنته وٱبنيه. (الْمَصْدَر السّابق).

وتارةً خامسة عن أُمّ سلمة أيضاً قالت: كَانَ النَّبِيّ ﷺ عِنْدَنَا منكساً رَأْسه فعملت له فَاطِمَة حريرة، فجاءت ومَعَهَا حسن وحُسين، فَقَالَ لها: ائتيني زوجك، إذهبي فٱدعيه، فجاءت به فأكلوها فأخذ ﷺ كساءً فأداره عَلَيْهِمْ وأمسك طرفه بيده اليسرىٰ، ثمّ رفع يده الْيُمنىٰ إلىٰ السَّمَاء وَقَالَ: أَللَّهُمّ هَؤُلاَء أَهْل بيتي وحامتي وخاصّتي أَللَّهُمّ أذهب عَنْهُمْ الرجس وطهّرهم تطهيراً. ثمّ قَالَ: أنا حَرْبٌ لمن حاربهم، وسلمٌ لمن سالمهم، وعَدُوّ لمن عاداهم. (الْمَصْدَر السّابق).

وتارةً سادسة عن أُمّ سلمة قالت: في بيتي نزلت ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ﴾ فأرسل النَّبِيّ ﷺ إلىٰ عليّ وفَاطِمَة والْحَسَن والْحُسَيْن، فجاؤوه، فألقىٰ عَلَيْهِمْ كساءً، فَقَالَ: أَللَّهُمّ هَؤُلاَء أَهْل بيتي، أذهب عَنْهُمْ الرجس وطهّرهم تطهيراً، فقلت: يا رَسُول الله أما أنا من أَهْل ٱلْبَيْت؟ قَالَ: بلىٰ إنْ شاء الله. (أنظر الْمَصْدَر السّابق).

﴾

(فَهُوَ) أي النَّبِيّ ﷺ (إِمَامُ مَنِ اتَّقَىٰ، وَ بَصِيرَةُ مَنِ اهْتَدَىٰ، سِرَاجٌ لَمَعَ ضَوْؤُهُ، وَشِهَابٌ سَطَعَ نُورُهُ، وَ زَنْدٌ بَرَقَ لَمْعُهُ). وَهَذَا ما نَطقت بِهِ الآيَة: ﴿يَٰأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذْنِهِۦ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا﴾[1]. (سِيرَتُهُ الْقَصْدُ، وَ سُنَّتُهُ الرُّشْدُ) الإِعْتِدَال فِي كلّ شيء، والكَمَال البَشري في كلّ وَصف، والإِخْلَاص في الْقَوْل، والْعَمَل (وَ كَلَامُهُ الْفَصْلُ، وَ حُكْمُهُ الْعَدْلُ). لا مُحاباة، وَلاَ شهوات.

وَتَسْأَل: اشتهر عن النَّبِيّ ﷺ أنّه قَالَ: «أنّكم تَخْتَصِمُونَ إليَّ، وإنّما أنا بَشر، ولعَل بَعْضكُمْ أنْ يَكُون أَلحن ـ أي أَبْيَنَ ـ بحُجَّتِه من بَعْض فأحسب أنّه صَادق فأقضي له، فإنّي أَقضي بَيْنَكُمْ علىٰ نحو ما أَسْمَع، فمن قَضَيت لهُ من حقِّ أَخيه شَيْئاً

⇔ وروي الْحَدِيث أيضاً عن ابن عَمْرُو بن شعيب عن أبيه عن جدّه وعن واثلة بن الأسقع أيضاً. وروي الْحَدِيث عن عَائِشَة وعن عُمَرَ بن أبي سلمة ربيب رَسُول الله ﷺ. (أُنظر الْمَصْدَر السّابق، وكَذَٰلِكَ التِّرمذي: ٥/٣٢٨/٣٨٧٥ قد سبق أنْ أشرنا إِلَيْهِ، وكَذَٰلِكَ روىٰ التِّرمذي عن أنس وأبي الحَمْرَاء في نفس الباب. وروى هَذَا الْحَدِيث أيضاً الْحَاكِم الحسكاني في شواهد التّنزيل: ٢/٣٠/٦٤٩ عن الْحَسَن بن عليّ ﷺ، المَنَاقِب لِابْن المغازلي: ٣٠٢/٣٤٦ وح ٤٣٢، تَأرِيخ دِمَشق لِابْن عساكر: ٣٠٤/١.

ورواه أيضاً سعد بن أبي وَقّاص الزهري كما ذكره الْحَاكِم في كتابه معرفه الصَّحَابَة من الْمُسْتَدرَك: ١٤٧/٣، سُنَن البَيْهَقيّ: ٦٣/٧، تَفْسِير الطبري: ٨/٢٢ ح ١٥. ورواه الحافظ الكنجي مُسْنَداً في كفاية الطالب: ١٤٤. ورواه الْحَاكِم وحكم بصحته علىٰ شرط الشيخين وأقرّه الذهبي في الْمُسْتَدرَك: ١٥٩/٣، والْحَدِيث رواه مُحَمّد بن مُحَمّد بن زيد العلوي في المجلس ١٣ من كتاب عيون الأَخْبَار الورق: ٤١، ورواه صاحب مَجْمَع الزوائد: ١٦٩/٩. ورواه الطبراني ح ١٣٤ تحت رَقم ٢٦٦٢ من الْمُعْجَم الْكَبِير: ١/الورق ١٢٥.

(١) الأَحْزَاب: ٤٥ ـ ٤٦.

فلا يأخذه، إنّما اقتطع له قِطْعَة من النَّار يُطوق بها من سَبْع أرَضِينَ»[١]. ومَعْنَىٰ هَذَا أنّه ﷺ قد يقضي بغير الوَاقِع، فكَيْفَ يَكُون حُكمه الْعَدْل؟.

والجَوَاب عَنْ هَـذَا السُّؤال: مَوجود في قَوْل النَّبِيّ ﷺ: وهو: «إنّما أنا بشر... أَقضي علىٰ نحو ما أَسْمَع... فأحسبه صَادِقاً». أي أنّ النَّبِيّ حين يقضي بَيْنَ اثْنَيْن لا ينزل عَلَيْهِ وحي من ٱلسَّماء بأنّ هَذَا هو الْحَقّ، وذَاكَ بَاطِل، وإنّما يعتمد في الْحُكْم، والفصل بَيْنَ النَّاس علىٰ ما قرره سُبْحَانَهُ لكلّ قاضٍ من الأُصُول كالبيّنَات، والأَيمَان، وغَيْرهما ممَّا يُوجب الْعِلْم، والوثُوق، كما قَالَ: «فأَحسبه صَادِقاً». ومَعْنَىٰ هَذَا أنّ الْعَدْل في الْحُكْم يرتبط بالأُصُول المقررة، وأنّ العَالم الْعَادِل من عرفها والتزم بها، وإنّ مَن تَاه عَنْهَا فَهُوَ جَائِر، أو جاهِل.

(أَرْسَلَهُ) الضَّمير لمُحَمّد ﷺ (عَلَىٰ حِينِ فَتْرَةٍ) بينه، وبَيْنَ مَن سَبقه (مِنَ الرُّسُلِ). وتَقَدَّم مِثْله بالنّص الحرفي[٢] (وَهَفْوَةٍ عَنِ الْعَمَلِ) أي إنحراف النَّاس عن دِين الله وشريعته (وَغَبَاوَةٍ مِنَ الأُمَمِ). جهل، وعماء (أَعْمَلُوا، رَحِمَكُمُ اللهُ، عَلَىٰ أَعْلاَمٍ بَيِّنَةٍ). الْمُرَاد بالأعلام ٱلْبَيِّنَة هُنا أَئِمَة الْهُدَىٰ، أو أَحْكَام الله سُبْحَانَهُ الظَّاهِرة فِي كتابه وسُنَّة نَبِيِّه، والْمَعْنَىٰ وَاحد، وهو وجُوب المُبادرة إِلىٰ ٱلْعَمَل بعد أنْ قامت الحُجّة، وانقطعت الْمَعْذِرَة.

(فَالطَّرِيقُ) إِلىٰ مَرْضَاتِه تَعَالَىٰ (نَهْجٌ) وَاضح (يَدْعُوا إِلىٰ دَارِ السَّلاَمِ) والأَمَان من المَخَاوف، والمَهالك، وطُوبىٰ لمن سَلكه، والوَيل لمَن تَاه عنهُ، وَقَالَ بَعْض

---

(١) أنظر، تَفْسِير القُرطُبي: ١٢٠/٤، تَفْسِير ابن كَثِير: ٥٥١/١، صَحِيح مُسْلِم: ١٣٣٧/٣ ح ١٧١٢، صَحِيح البُخَارِيّ: ٨٦٧/٢ ح ٢٣٢٦، صَحِيح ابن حبّان: ٤٦٠/١١ ح ٥٠٧١، المُسْتَدرَك علىٰ الصَّحِيحين: ٤٤٧/٤ ح ٨٢٢٩، موارد الظّمآن: ٢٩٠/١ ح ١١٩٧، سُنَن التّرمذي: ٦٢٤/٣ ح ٣٣٩.

(٢) أنظر، أوّل الخُطْبَة: (٩١).

المُتصَوفة: «الطَّرِيقُ لله، لا إِلَيْهِ»[١]. وَلعَله أرَاد أنّ ٱلْعِلْم بالله يَكُون بالأتصال المُباشر لا بالواسطة، وَهَذَا الأتصال لا يَكُون إلّا لمن فتح الله عَلَيْهِ (وَأَنْتُمْ فِي دَارِ مُسْتَعْتَبٍ عَلَىٰ مَهَلٍ، وَفَرَاغٍ). تَستطيعُون في دُنْيَاكُم هَذِه أنْ تَطلبوا الرِّضا مِنْهُ تَعَالَىٰ بطاعته، وٱلْعَمَل بأَمْرِه، ونَهيه، وهو سُبْحَانَهُ يَستجِيب، ويُثِيب، إنّه رَحِيمٌ كَرِيمٌ ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾[٢].

(وَ الصُّحُفُ مَنْشُورَةٌ) ومُهَيَأة للكتَّابَة، وفيها تُكتب كلّ كبيرة، وصَغيرة (وَ الأَقْلاَمُ جَارِيَةٌ) فِي مَحَاسن أَعمالكُم، ومَسَاوِيهَا: ﴿وَوُضِعَ ٱلْكِتَـٰبُ فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَـٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَـٰذَا ٱلْكِتَـٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا وَوَجَدُواْ مَا عَمِلُواْ حَاضِرًا وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾[٣].

(وَالأَبْدَانُ صَحِيحَةٌ) فَٱستعمَلُوها بالصَّالحات قِبل أنْ تُبلى بالسُّقم، وتُفنىٰ بٱلْمَوْت (وَ الأَلْسُنُ مُطْلَقَةٌ) فلا تُحركوها إلّا بِخَير، وفِي الْحَدِيث: «لاَ يَسْتَقِيمُ إِيمَانُ عَبْدٍ حَتَّىٰ يَسْتَقِيمَ قَلْبُهُ، وَلاَ يَسْتَقِيمُ قَلْبُهُ حَتَّىٰ يَسْتَقِيمَ لِسَانُهُ»[٤].

(وَ التَّوْبَةُ مَسْمُوعَةٌ) لأنّه تَعَالَىٰ قَد أَمر بِها، وفَتح بَابها فكَيْفَ يُغلقه دُونَ التَّائِبين (وَ الأَعْمَالُ مَقْبُولَةٌ) وإنْ قَلّت مَا دَامت خَالِصَة لوجهه ٱلْكَرِيمِ، ومن حِكم الإِمَام: «لاَ يَقِلُّ عَمَلٌ مَعَ التَّقْوَىٰ، وَكَيْفَ يَقِلُّ مَا يُتَقَبَّلُ»[٥]؟

---

(١) أنظر، كراس هَذِهِ هِي الصّوفية: ٧٨.

(٢) ٱلْحَجّ: ٧٨.

(٣) ٱلْكَهفِ: ٤٩.

(٤) أُنظر، نَهج البَلاَغَة: ٱلْخُطْبَة (١٧٦)، كتاب الصَّمت وآداب اللّسَان، لِابْن أَبي الدُّنْيَا: ٤٨، مَجْمَع الزوائد: ٥٣/١، مُسْنَد أَحمد: ١٩٨/٣، التَّرغيب والتَّرهيب: ٥٢٨/٣، كشف الخَفَاء: ٥٠٨/٢ ح ٣١٤٤، شرح سُنن ٱبن ماجه: ٢٨٦/١ ح ٣٩٧٢، شرح النَّهج لمُحَمّد عَبْده: ٩٤/٢.

(٥) أُنظر، نَهج ٱلبَلاَغَة: ٱلْحِكْمَة (٩٥).

الخطبة

-٩٥-

حَوْلَ بِعْثَةُ النَّبِيّ ﷺ:

بَعَثَهُ وَ النَّاسُ ضُلاَّلٌ فِي حَيْرَةٍ، وَ حَاطِبُونَ فِي فِتْنَةٍ، قَدِ اَسْتَهْوَتْهُمُ الْأَهْوَاءُ، وَاَسْتَزَلَّتْهُمُ الْكِبْرِيَاءُ، وَ اَسْتَخَفَّتْهُمُ الْجَاهِلِيَّةُ الْجَهْلاَءُ فِي حَيْرَةٍ، حَيَارَىٰ فِي زَلْزَالٍ مِنَ الْأَمْرِ، وَ بَلاَءٍ مِنَ الْجَهْلِ، فَبَالَغَ ﷺ فِي النَّصِيحَةِ، وَ مَضَىٰ عَلَىٰ الطَّرِيقَةِ، وَ دَعَا إِلَىٰ الْحِكْمَةِ، وَ الْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ.

اللُّغَة:

حَاطِبُونَ: ضَارِبُون: والمُرَاد هُنا البِدْعَة. وآسْتَهْوَتْهُمْ: زَيَّنت لَهُم. وآسْتَزَلَّتْهُمْ: قَادتهم إِلىٰ الزَّلل أي الذُّنوب، والآثام. وآسْتَخَفَّتْهُمْ: أَبْعدتْهُم عن الحَقّ والصَّواب.

الْإِعْرَاب:

فِي حَيْرَةٍ مُتَعَلِّق بضُلاَّل، والجَهْلاَءُ صِفَة مُؤكَدة للجَاهِلِيَّةُ، مثل لَيل أَليل، وحَيَارَىٰ حَال مِن ضَمِير آسْتَخَفَّتْهُمْ، وفِي زَلْزَالٍ مُتَعَلِّق بحَيَارَىٰ.

الْمَعْنىٰ:

تَقَدَّم مثل هَذَا أَكْثَر مِن مَرّة، وخُلاصته أنّ الله أرسل مُحَمّداً ﷺ في زَمانٍ جَحَد الكَثِير من أَهْله بالخَالِق من الأَسَاس، وأَشرك آخرون بعِبَادَة الأصْنَام، أو بِمَا ٱبتدعوا من تَحريف الكُتب السَّماوية، والكلّ جَحَدوا بالْقِيَم، وبالحَلال وٱلْحَرَام فجَاء مُحَمّد ﷺ وهو أُميّ لا يَعْرِف القراءة، والكتابة، وَقَالَ للعالم كلّه آنذاك: أَنْتُمْ علىٰ ضَلالٍ، وفَسَادٍ، ورسَالتي هِي وَحْدَها الْهُدَىٰ، والصَّلاح، ودَلِيلُهَا ٱلْعُقُول السَّليمة، والضَّمائر الحيّة، فٱرجعوا إِلَيْهَا إنْ أَردتم الْخَيْر لأنْفسكم... وبِهَذِه ٱلرِّسَالَة بنىٰ مُحَمّد أُمّةً، وأَسس حضَارات لا حضَارة وَاحِدَة.

وَلاَ زالت رِسَالَته قائمة بعقيدتها، وشريعتها، وستبقىٰ ما بَقِي عَلىٰ ظَهرها ٱبن آدَمَ. لقد ذَهبت مُعجزات ٱلْأَنْبِيَاء بذهَابهم، فأين هِي عَصىٰ مُوسَىٰ، وطبّ عِيسَىٰ، ونَاقة صَالح، وطُوفان نُوح، ونَار إِبْرَاهِيم؟... إِنَّهَا أَضاءت، ثُمّ همدت، وكَذا غَيْرها من المُعْجِزَات، كلّها حوَادث مُؤَقتة، أَمّا مُعْجِزَة مُحَمّد فخَالدة، لأنّ إعْجَازها في رِسَالَته بالذَّات، في عَقِيدتها، وشَرِيعتها، وجَمِيع تَعَاليمها، ومِن أجل هَذَا تَفردت بالدّوام دُونَ سَائر المُعْجِزَات.

الخطبة

-٩٦-

أَلَّفَ بِهِ إِخْوَاناً:

الْحَمْدُ للهِ الْأَوَّلِ فَلاٰ شَيْءَ قَبْلَهُ، وَ الْآخِرِ فَلاٰ شَيْءَ بَعْدَهُ، وَ الظَّاهِرِ فَلاٰ شَيْءَ فَوْقَهُ، وَ الْبَاطِنِ فَلاٰ شَيْءَ دُونَهُ. مُسْتَقَرُّهُ خَيْرُ مُسْتَقَرٍّ، وَ مَنْبِتُهُ أَشْرَفُ مَنْبِتٍ، فِي مَعَادِنِ الْكَرَامَةِ، وَ مَمَاهِدِ السَّلاٰمَةِ، قَدْ صُرِفَتْ نَحْوَهُ أَفْئِدَةُ الْأَبْرَارِ، وَ ثُنِيَتْ إِلَيْهِ أَزِمَّةُ الْأَبْصَارِ، دَفَنَ اللهُ بِهِ الضَّغَائِنَ، وَ أَطْفَأَ بِهِ الثَّوَائِرَ، أَلَّفَ بِهِ إِخْوَاناً، وَ فَرَّقَ بِهِ أَقْرَاناً، أَعَزَّ بِهِ الذِّلَّةَ، وَ أَذَلَّ بِهِ الْعِزَّةَ. كَلاٰمُهُ بَيَانٌ، وَ صَمْتُهُ لِسَانٌ.

اللُّغَة:

قَالَ الشَّيخ مُحَمّد عَبْدَه: مَمَاهِدِ: جَمع مَمْهد ـ بفَتح المِيم الْأُولَىٰ وسكون الثَّانِيَة ـ أي مَا يَبسط فِيهِ للفِراش[1]. وأَزِمَّةُ: جَمع زِمَام أي مَا يُقاد بِهِ. وثُنيت إِلَيْهِ: اتجهت إِلَيْهِ. والضَّغَائِنَ: الأحْقَاد. والثَّوَائِرَ: جَمع ثَائِرَة أي العَدَاوة. والأَقْرَان: مِن قَـرَن الشّيء بالشّيء أي جَمع بَيْنَهما.

---

(١) أنظر، شَرح النَّهج: ١٨٧/١.

الْمَعْنىٰ:

(الْحَمْدُ للهِ الْأَوَّلِ فَلاٰ شَيْءَ قَبْلَهُ) أي لا ٱبتدَاء لهُ (وَ ٱلآخِرِ فَلاٰ شَيْءَ بَعْدَهُ) لا ٱنتهاء لهُ، وتَقَدَّم ذَلِكَ مَرَّات (وَ الظَّاهِرِ فَلاٰ شَيْءَ فَوْقَهُ) الغَالب بقُدرته كلّ شيء، وَلاَ غَالب لهُ (وَ الْبَاطِنِ فَلاٰ شَيْءَ دُونَهُ) العَالم بالضَّمائر، والبَواطن، وَلاَ شيء يَحول دُونَ عِلمه بها، أو الظَّاهِر بآثاره فلا شيء أَظهر من وُجُودِهِ تَعَالَىٰ، الْبَاطِن بحَقِيقَته، وَلاَ شيء أَخفىٰ مِنْهَا.

(مُسْتَقَرُّهُ خَيْرُ مُسْتَقَرٍّ). الضَّمِير يَعود إِلىٰ رَسُول الله ﷺ، والْمُرَاد بمُسْتَقَرّه بَلدهُ مَكَّة الْمُكَرَّمَة (وَ مَنْبِتُهُ أَشْرَفُ مَنْبِتٍ). يَجوز أَنْ يَكون الْمُرَاد بالمَنْبِت هُنا مَكَّة لِأَنَّهَا مَحل وَلاَدته، وَيَجوز أَنْ يَكُون الْمُرَاد نَسبه الشَّرِيف (وَ مَمَاهِدِ السَّلاٰمَةِ) وَهِي الْمَدِينَة الْمُنَوَّرَة حيثُ عَاش فيها بِسْلاَم، وأَمان من أذىٰ ٱلْمُشْرِكِين، وشرّهم، وأقام فيها دولة الْإِسْلاَم، وأَظهره سُبْحَانَهُ علىٰ الدِّين كلّه.

(قَدْ صُرِفَتْ نَحْوَهُ أَفْئِدَةُ الْأَبْرَارِ). عَاش النَّبِيّ ﷺ في مُجتمع تَسوده الفُوضىٰ والْفَسَاد، والضَّلال، والاِنْحلال، ومَع ذَلِكَ كَانَ ـ مُنذ صِباه ـ مَحبوباً بشمائله عند الكلّ، وثقّة عند الجَميع حَتّىٰ أسموه الصَّادق الأَمِين، ولمّا بُعث، وأعلن الْحَرْب علىٰ الشِّرك، والْفَسَاد تَنكر له الطُّغاة الْأَشْرَارِ، وتَألبوا عَلَيْهِ، وٱزدَاد الطَّيِّبُون الأَبرَار لهُ حُبّاً، وإِخلاَصاً من يَومه إِلىٰ يَومنا هَذَا، وإِلىٰ آخر يَوْم، وفِيهِمْ قَادة الْفِكْر في أُوروبا، وأمريكا[1].

(وَ ثُنِيَتْ إِلَيْهِ أَزِمَّةُ الْأَبْصَارِ، دَفَنَ اللهُ بِهِ الضَّغَائِنَ). ٱتجهت الأنظار إِلىٰ سيرته

(١) أُنظر، ما نقلناه عَنْهُمْ في كتابه: فَلْسَفَة التَّوْحِيد والْوِلاَيَة، فصل مُحَمّد وٱلْقُرآن. (مِنْهُ ﷺ).

ورِسَالَته في كلّ عصر ومِصْر، لِأَنَّهَا تشع بالْهُدَىٰ، والنُّور (دَفَنَ اللهُ بِهِ الضَّغَائِنَ، وَأَطْفَأَ بِهِ الثَّوَائِرَ). ما ٱجتمعت للعَرب كَلِمَة في يَوْم من الأَيَّام إلّا علىٰ عهد مُحَمّد ﷺ، وبفَضل الله، وَفَضله، ولمّا هَاجر إلَىٰ الْمَدِينَة كَانَ بَيْنَ قَبيلتيّ الأوس، والخَزرج حَرْب دَامية، ومُتصلة، فألغىٰ النَّبيّ ﷺ ما كَانَ بَيْنَهما من حَرْبٍ وخُصومة، وكفّ أَيْدِي بَعْضهُم عن بَعْض، وإِلَىٰ هَذَا أَشَارت الآيَة: ﴿إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾[1].

(وَ فَرَّقَ بِهِ أَقْرَاناً). فَرّق ٱلْإِسْلاَم بَيْنَ الأَب الْكَافِر الضّال، والِابْن الَّذي أسلم وآمن بمُحَمّد ﷺ... فقد كَانَ عُتْبَة بن رَبِيعَة أَوَّل من بَارز ٱلْمُسْلِمِين، وحَاربهم يَوْم بَدْر[2]. وكَانَ ٱبْنه حُذَيْفَة يُحَارِب مَع رَسُول الله ﷺ[3]، وكَانَ عبدٱلرَّحْمَان ٱبن أبي

(١) آلِ عِمْرَانَ: ١٠٣.

(٢) لمّا أَصْبَحَ النّاس يَوْم بَدْر ٱصطفّت قُرَيْش أمامها عُتْبَة بن رَبِيعَة، وأخاه شيبة، وٱبْنِهِ الوليد، فنادىٰ عُتْبَة رَسُول الله ﷺ، فَقَالَ: يا مُحَمّد، أخرج إلينا أكفاءنا من قُرَيْش، فبَدَر إِلَيْهِ ثلاثة من شبّان الأَنْصَار ـ هم: عوف، ومسعود ٱبنا عفراء، وعبدالله بن رواحة ـ. فَقَالَ هم عُتْبَة: من أَنْتُمْ؟ فٱنتسبوا له، فَقَالَ لهم: لا حَاجَة لنا إِلَىٰ مبارزتكم، إنّما طلبنا بَني عمّنا، فَقَالَ رَسُول الله ﷺ للأنصار: ٱرجعوا إِلَىٰ مواقفكم، ثمّ قَالَ: قُم يا عليّ، قُم يا حَمْزَة، قُم يا عُبَيْدَة، قاتلوا علىٰ حقّكم الَّذي بُعث به نَبِيّكُمْ. إذ جاؤوا بباطلهم ليطفئوا نور الله، فقاموا فصفّوا للقوم في وجوههم وكَانَ علىٰ رُؤُوسهم الْبِيض، فلم يعرفوهم.

أنظر، الأَحْكَام السُّلْطَانِية لأبي يعلىٰ مُحَمّد بن الحُسَيْن الحنبلي الفرّاء: ١ / ٤٢٠، والأَحْكَام السُّلْطَانِية للماوردي: ٢ / ٣٨ تحقيق الدكتور مُحَمّد حامد الطبعة الثَّانِيَة منشورات مكتب الإعلام المركزي /قُم، المغازي للواقدي: ١ / ١٤٨ تحقيق الدّكتور مارسدن جونس /نشر دانش إسلامي.

فَقَالَ لهم عُتْبَة: يا هَؤُلاَء تكلّموا، فإنْ كنتم أكفاءنا قاتلناكم، فَقَالَ حَمْزَة: أنا حَمْزَة بن عبدالمطّلب أسد الله وأسد رَسُوله، فَقَالَ عُتْبَة: كفوٌ كريم. وَقَالَ عليّ: أنا عليّ بن أبي طالب بن عبدالمطّلب وَقَالَ عُبَيْدَة: أنا
↔

↩ عُبَيْدَة بن الحارث بن عبدالمطّلب، فَقَالَ عُتْبَة لِابْنِهِ الوليد: قُم يا وليد، أبرز لعليّ فبرز إِلَيْهِ وكانا إذ ذَاكَ أصغر الجماعة سِناً. فاختلفا بضربتين، أخطأت ضربة الوليد، ووقعت ضربة عليّ علىٰ اليد اليُسرىٰ من الوليد فأبانتها، ثمّ ثنىٰ عَلَيْهِ بأُخرىٰ فجدله صريعاً.

وروي عن عليّ عليه السلام أنّه كَانَ إِذَا ذكر بَدْراً وقتله الوليد قَالَ في حديثه: كأ نّي أنظر إلىٰ وميض خاتمه في شماله، عندما أُبينت يده مِنْهُ، وبها أثر من خَلوق فعلمت أنّه قَريب عهدٍ بعرس.

روىٰ الحَدِيث الشّيخ المفيد في الإِرْشَاد: ٦٦ فصل ٣٠ باب ٢٠ بِهَذَا اللفظ: كأ نّي أنظر إلىٰ وميض خاتمه في شماله، ثمّ ضربته ضربة أُخرىٰ فصرعته وسلبته، فرأيت به ردعاً من خلوق، فعلمت أنّه قَريب عهد بعرس. وروىٰ الحُسَيْن بن حميد قَالَ بإسناده إلىٰ جابر عن أبي جَعْفَر عليه السلام قَالَ: قَالَ أمير المُؤمِنِينَ عليه السلام: لقد تعجّبت يَوْم بَدْر من جراَة القَوْم، وقد قتلت الوليد بن عُتْبَة وقتل حَمْزَة عُتْبَة وشركته في قتل شيبة، إذ أقبل إليّ حَنْظَلَة بن أبي سُفْيَانَ، فَلَمّا دنا منّي ضربته ضربة بالسَّيْف فسالت عيناه فلزم الأرض قتيلاً.

أنظر، صَحِيح مُسْلِم: ٨/ ٢٤٥/ ٣٠٣٣، وأبن ماجه أيضاً في صحيحه في أبواب الجِهَاد، والحَاكِم في المُستَدرَك علىٰ الصَّحِيحِين: ج ٣ في تَفْسِير سُورَة الحَجّ، والبَيْهَقِيّ في سننه: ٣/ ٢٧٦، ونور الأبصار للشبلنجي: ٧٨ في ذكر قِصّة مبارزة عليّ عليه السلام يَوْم بَدْر، والسيوطي في الدُّر المنثور، وحلية الأَوْلِيَاء: ٩/ ١٤٥ روىٰ بسنده عن مُحَمّد بن إدريس الشّافعي قَالَ:

دخل رجل من بَنِي كنانة علىٰ مُعَاوِيَة بن أبي سُفْيَانَ فَقَالَ له: هل شهدت بَدْراً؟ قَالَ: نعم، قَالَ: مثل مَن كنت؟ قَالَ: غلام قدود، مثل عطباء الجلمود، قَالَ: فحدّثني ما رَأَيْت وحضرت، قَالَ: ما كنّا شهوداً إلّا كأغياب، ومارأينا ظفراً كَانَ أوشك مِنْهُ، قَالَ: فصف لِي ما رَأَيْت؟ قَالَ: رَأَيْت في سرعان النّاس عليّ بن أبي طالب غلاماً شاباً ليثاً عبقرياً يفري الفرىٰ لا يلبث له أحد إلّا قتله، وَلاَ يضرب شَيْئاً إلّا هتكه، لم أر من النّاس أحداً قطّ أنفق يحمل حملة، ويَلْتَفِت ٱلتفاتة... وكَانَ له عينان في قفاه، وكَانَ وثوبه وثُوب وَحش... وروىٰ مبارزة عليّ عليه السلام يَوْم بَدْر كلّ من صاحب الرِّيَاض النَّضرَة: ٢/ ٢٢٥، والطبري في تأريخه: ٢/ ١٩٧ و ٢٦٩، وكنز العُمَّال: ٥/ ٢٧٣، شواهد التَّنزِيل: ١/ ٥٠٣ و ٥٣٢ ـ ٥٤٥، الطَّبَقَات الكُبْرَىٰ لِابْن سعد: ٣/ ١٧ ط بيروت، وفي أمالي المحاملي: ٢/ ٢٤، أسْبَاب النزول للواحدي: ٢٣١، المُعْجَم الكَبِير للطبراني: ١/ ١٤٤، المَنَاقِب لِابْن المغازلي: ٢٦٤ ح ٣١١.

(٣) هو والد مُحَمّد بن أبي حُذَيْفَة، ومَوْلَىٰ سالم الّذي يُقَال له مَوْلَىٰ أبي حُذَيْفَة.

بَكْر مَع ٱلْمُشْرِكِين[1]، وأَبوه مَع رَسُول اللهﷺ. وفي ذَلِكَ يَقُول الإِمَامﷺ: «وَ لَقَدْ كُنَّا مَعَ رَسُولِ اللهِﷺ، نَقْتُلُ آبَاءَنَا، وَ أَبْنَاءَنَا، وَ إِخْوَانَنَا، وَ أَعْمَامَنَا: مَايَزِيدُنَا ذَلِكَ إِلاَّ إِيمَاناً، وَ تَسْلِيماً»[2]. (أَعَزَّ بِهِ الذِّلَّةَ) أي أنّ المُسْتَضْعَفِين أَيَّام الشِّرك صَاروا أَقوِيَاء أعزاء بالْإِسْلاَم، كعَمَّار بن ياسر[3]، وسَلْمَان[4]، وبلال[5]، وغَيْرهم كَثِير

⇔ أنظر، كتاب الأُم للشافعي: ٢٩/٥، المجموع: ١٨٦/١٦، موطأ مالك: ٦٠٥/٢، المُغْنِي: ٣٧٢/٧، السُّنَن الْكُبْرَىٰ: ٢٦٣/٦، المُعْجَم الْكَبِير: ٥٨/٧، فتح الباري: ٧٩/٧، نيل الأوطار: ٢٦١/٦.

(١) عبدٱلرَّحْمَان بن أَبِي بَكْر: شَهد يَوْم بَدْر مَع ٱلْمُشْرِكِين، ثُمّ أسلم ومات سَنَة ثلاث وخمسين بجبل بقُرب مَكَّة، فأدخلته عَائِشَة بنت أبي بَكْر الحَرَم ودفنته، وأعتقت عَنه، وكَانَ شَهد الجَمَل مَع عَائِشَة، ويُكنىٰ: أبا عبدالله. وأنظر، المعارف لِإبْن قُتَيْبَة: ١٧٤، الاِسْتِيعَاب: ٢ / ٢٩٣، أُسد الغَابَة: ٣ / ٣٠٦، الإِصَابَة: ٢ / ٤٠٠، شذرات الذّهب حوادث سَنَة ٣٥ هـ، المُسْتَدرَك: ٣ / ٤٧٦ وهو القَائِل لمُعَاوِيَة أهرقلية؟ إِذَا مات كسرىٰ كَانَ كسرىٰ مكانه. هَذَا لمَّا أراد مُعَاوِيَة ٱلْبَيْعَة ليزيد.

(٢) أنظر، نَهْج ٱلْبَلاَغَة: ٱلْخُطْبَة (٥٦).

(٣) هو أبو اليقضان عَمَّار بن ياسر بن مالك بن كنانة بن قَيس بن الحصين وكَانَ هو ووالداه من السَّابقين إِلىٰ الإِسْلاَم، وهو سابع سبعة أجهروا بإسْلاَمهم، وكَانَ مَع عليّﷺ في صِفِّين، أستُشْهِدَ سَنَة (٣٧ هـ) وله من العُمْر ٩٣ سَنَة. راجع مروج الذّهب: ٢ / ٢١ و ٢٢، وتَأرِيخ الطَّبَرِي: حوادث سَنَة (٣٦ هـ). وأَنْسَاب الأَشْرَاف: ٥ / ٤٨.

(٤) أبو عبدالله. إصبهاني أو رامهرمزي، والَّذي كَانَ مُعَمّراً صَحِب بَعْض أوصياء عِيسَىٰ بن مَرْيَمَ وأسترق، وبيع بالْمَدِينَة من إمَرَأة من اليهود فكاتبها، وأعتق نَفْسَه، شهد الخندق ومابعدها وولي المدائن لعُمَرَ ومات في أُخريات خِلاَفَته أو في أوائل خِلافة عُثْمَانَ. أُنظر، الاِسْتِيعَاب: ٢ / ٥٣ ـ ٥٩، الإِصَابَة: ٢ / ٦٠، تَأرِيخ الطبري: ٢ / ٤٤٣، سِيرَة أبن هشام: ٤ / ٣٣٥، مُسْنَد أحمد: ١ / ٥٥، الرِّياض النَّضرة: ١ / ١٦٧، تَأرِيخ الخميس: ١ / ١٨٨، الكَامِل لِإبْن الأَثِير: ٢ / ١٢٦، تَأرِيخ أبن كَثِير: ٥ / ٢٤٥، تَأرِيخ اليعقوبي: ٢ / ١٠٣، أُسد الغَابَة: ٣ / ٢٢٢.

(٥) هو بلال بن رباح، وأُمّه: حمامة. وكَانَ من مولَّدي «مَكَّة» لرجل من بَني جُمح فأشتره «أبو بَكْر» بخمس أواق وأعتقه، وكَانَ يُعذب في الله، وشهد بَدْراً والمشاهد كلّها. وهو أَوَّل من أَذّن لرسول اللهﷺ ـ فا ⇔

(وَأَذَلَّ بِهِ الْعِزَّةَ) من ٱلْمُشْرِكِين الطُّغاة.

السُّكُوت:

(كَلاَمُهُ بَيَانٌ) لِلحَقّ، والْعَدْل: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ﴾[١]. (وَ صَمْتُهُ لِسَانٌ) وبَيَان بأَنّ هَذَا المَقَام يَجب فِيهِ الصَّمْت، لأنّه لا يَتصل بِٱلْحَيَاة من قَرِيبٍ، أو بعيد، وٱلإِنْسَان غَيْر مُكلف بِمَعْرِفَتِه، أو لأنّ الكَلاَم عنه سَابق لأوانه، ومَا إِلىٰ ذَلِكَ من البواعث، والْأَسْبَاب.

ولَيْسَ من شك أَنّ الكَلاَم يُعبر عمّا في الضَّمِير، ولكن السُّكُوت في بَعْض الأحيان يَكُون أَبلغ، وأَبيَن من الكَلاَم، المُهم أَنْ يَعْرِف ٱلإِنْسَان متىٰ يَجبُ الكَلاَم، ومتىٰ يَجبُ السُّكُوت، ومن ميّز بَيْنَ المقامين، وٱلتزم بِمَا يقتضيه كلّ مِنْهُمَا نَجح في دُنياه، وسَلِم في آخرته... ولِلْإِنْسَان حُرِّيَّة التَّعبير عن رأيه، ولكن لَيْسَ له حُرِّيَّة الصَّمْت أَبداً، ودائماً، وفي كلّ مَقام، فعليه أَنْ يرد التَّحية بِمِثْلها، أو بأحسن مِنْهَا[٢]، وأَنْ يقرأ في صَلاته، وعِبادته، ويُنْكِر الْمُنْكَر بيده إنْ ٱستطاع، وإلّا فبِلِسَانِه، وفي الْحَدِيث: «السَّاكت عن الْحَقّ شَيْطَان أخرس»[٣]. «أفضل الْجِهَاد كَلِمَة عدلٍ عند إِمام جَائِر»[٤]. أما قَوْل من قَالَ: إنْ كَانَ الكَلاَم من فِضَّةٍ

⇐ قبض رَسُول الله ﷺ ـ أتىٰ «أبا بَكْر» فٱستأذنه إِلىٰ الشّام، فأذن له، فلم يزل مُقيماً بها، ولم يؤذّن بعد النّبي ﷺ. أُنظر، ترجمته في المعارف لإبْن قُتَيبَة: ١٧٦.

(١) النَّجم: ٣ ـ ٤.

(٢) أقتباساً من الآيَة (٨٦) من سُورَة ٱلنِّسَاء: ﴿وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّواْ بِأَحْسَنَ مِنْهَآ أَوْ رُدُّوهَآ﴾.

(٣) أُنظر، فِقه السُّنَّة للشيخ سيّد سابق: ٦١١.

(٤) أُنظر، سُنَن التِّرمذي: ٣/٣١٨ ح ٢٢٦٥، المُصَنَّف لعبدالرزاق: ١١/٣٤٧ ح ٢٠٧٢٠، الْمُعْجَم الْكَبِير: ١٧/٤٩، كنز الْعُمّال: ٣/٦٤ ح ٥٥١٢، فيض القدير: ٢/٤٠ ح ١٢٤٦.

فالسُّكُوت من ذهب»[١]، أمّا هَذَا الْقَوْل فإنّ الْمُرَاد به السُّكُوت حَيْث لا يجوز الكَلاَم، قَالَ الْإِمَام عليه السلام: «فَرُبَّ كَلِمَةٍ سَلَبَتْ نِعْمَةً»[٢].

وَتَسْأَل: أَلا يتنافىٰ قَوْل الْإِمَام: «وَصَمْتُهُ لِسَانٌ» مَع القَاعدة الْمَعْرُوفَة بَيْنَ الْفُقَهَاء: «لا يُنسب إِلىٰ سَاكت قَوْل»[٣] إلّا مَع القَرينة الدّالة علىٰ الرّضا تقوم مقام اللّفظ ؟.

الجَوَاب:

إنّ كَلاَم الْفُقَهَاء يَختص بالتّعاقد كالزّواج، والبَيع، والشّراء، وإنّ السُّكُوت من حَيْث هو لا يَدل في التّعامل علىٰ الرّضا، ومَع القَرينة الدّالة عَلَيْهِ تكُون هِي العُمدة والدّليل، لا السُّكُوت.. والإِمَام عليه السلام يتكَلّم عن عَظمة النَّبِيّ صلى الله عليه وآله في كَلامهِ، وسُكُوتهِ، فأين هَذَا من ذَاكَ ؟.

---

(١) أُنظر، البداية والنّهاية لِابْن كَثِير: ٢/١٥٢، الكَافِي: ٢/١١٤ ح ٦، كتاب الصمت وآداب اللّسان لِابْن أبي الدُّنْيا: ٦٦، فيض القدير: ٤/٣١٧ ح ٥١٥٨، كشف الخَفَاء: ١/٢٦٠ ح ٨٠٠.

(٢) أُنظر، نَهج البَلاَغَة: الحِكْمَة (٣٨١).

(٣) تنسب هَذِه القاعدة إلىٰ الإِمَام الشّافعي، كما جاء في كتاب الأُم: ١/١٧٨، المحصول للرازي: ٤/١٥٦، المجموع: ١٢/٣٦٥، حاشية ردّ المحتار: ٣/٦٨، بداية المُجْتَهِد ونهاية المقتصد لِابْن رشد: ١/١٦٢، المُستصفىٰ للغزالي: ١٥١.

الخطبة

-٩٧-

الْتَّخَاذِل عَنْ الْحَقِّ، وَالإِسْرَاعِ إِلَىٰ الْبَاطِلِ.. فِقْرَة ١ ـ ٣:

وَ لَئِنْ أَمْهَلَ الظَّالِمَ فَلَنْ يَفُوتَ أَخْذُهُ، وَ هُوَ لَهُ بِالْمِرْصَادِ عَلَىٰ مَجَازِ طَرِيقِهِ، وَبِمَوْضِعِ الشَّجَا مِنْ مَسَاغِ رِيقِهِ. أَمَا وَ الَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَيَظْهَرَنَّ هٰؤُلاَءِ الْقَوْمُ عَلَيْكُمْ، لَيْسَ لِأَنَّهُمْ أَوْلَىٰ بِالْحَقِّ مِنْكُمْ، وَ لَكِنْ لِإِسْرَاعِهِمْ إِلَىٰ بَاطِلِ صَاحِبِهِمْ، وَإِبْطَائِكُمْ عَنْ حَقِّي. وَ لَقَدْ أَصْبَحَتِ الْأُمَمُ تَخَافُ ظُلْمَ رُعَاتِهَا، وَ أَصْبَحْتُ أَخَافُ ظُلْمَ رَعِيَّتِي [1]. اسْتَنْفَرْتُكُمْ لِلْجِهَادِ فَلَمْ تَنْفِرُوا، وَ أَسْمَعْتُكُمْ فَلَمْ تَسْمَعُوا، وَدَعَوْتُكُمْ سِرّاً، وَ جَهْراً فَلَمْ تَسْتَجِيبُوا، وَ نَصَحْتُ لَكُمْ فَلَمْ تَقْبَلُوا، أَ شُهُودٌ كَغُيَّابٍ، وَ عَبِيدٌ كَأَرْبَابٍ! أَتْلُو عَلَيْكُمُ الْحِكَمَ فَتَنْفِرُونَ مِنْهَا، وَ أَعِظُكُمْ بِالْمَوْعِظَةِ الْبَالِغَةِ فَتَتَفَرَّقُونَ عَنْهَا، وَ أَحُثُّكُمْ عَلَىٰ جِهَادِ أَهْلِ الْبَغْيِ فَمَا آتِي عَلَىٰ آخِرِ قَوْلِي حَتَّىٰ أَرَاكُمْ مُتَفَرِّقِينَ أَيَادِيَ سَبَا. تَرْجِعُونَ إِلَىٰ مَجَالِسِكُمْ، وَ تَتَخَادَعُونَ عَنْ مَوَاعِظِكُمْ، أُقَوِّمُكُمْ غُدْوَةً، وَ تَرْجِعُونَ إِلَيَّ عَشِيَّةً كَظَهْرِ الْحَنِيَّةِ، عَجَزَ الْمُقَوِّمُ، وَأَعْضَلَ الْمُقَوَّمُ [2].

أَيُّهَا الْقَوْمُ الشَّاهِدَةُ أَبْدَانُهُمْ، الْغَائِبَةُ عَنْهُمْ عُقُولُهُمْ، الْمُخْتَلِفَةُ أَهْوَاؤُهُمْ، الْمُبْتَلَىٰ بِهِمْ أُمَرَاؤُهُمْ. صَاحِبُكُمْ يُطِيعُ اللهَ، وَ أَنْتُمْ تَعْصُونَهُ، وَ صَاحِبُ أَهْلِ الشَّامِ يَعْصِي اللهَ،

وَ هُمْ يُطِيعُونَهُ. لَوَدِدْتُ وَ اللهِ أَنَّ مُعَاوِيَةَ صَارَفَنِي بِكُمْ صَرْفَ الدِّينَارِ بِالدِّرْهَمِ، فَأَخَذَ مِنِّي عَشَرَةَ مِنْكُمْ، وَ أَعْطَانِي رَجُلاً مِنْهُمْ!

يَا أَهْلَ الْكُوفَةِ، مُنِيتُ مِنْكُمْ بِثَلاَثٍ، وَ اثْنَتَيْنِ: صُمٌّ ذَوُو أَسْمَاعٍ، وَ بُكْمٌ ذَوُو كَلاَمٍ، وَ عُمْيٌ ذَوُو أَبْصَارٍ، لاَ أَحْرَارُ صِدْقٍ عِنْدَ اللِّقَاءِ، وَ لاَ إِخْوَانُ ثِقَةٍ عِنْدَ الْبَلاَءِ! تَرِبَتْ أَيْدِيكُمْ[٣]!

اللُّغَة:

الرَّاصد: الرَّقيب، والمِرْصَاد: الطَّرِيق الَّتي فيها ترقُّبٌ، وترصُّدٌ. والمَجَاز: المَسْلَك. والشَّجَا: ما يعترض في الحَلْق. وسَاغ الطَّعَام، أو الشَّرَاب: سَهَّل مَدخَله في الحَلق، ومَسَاغه ممرّه، ومَكانه. واستَنْفَرْتُكُمْ: طَلَبتُ مِنكُم أنْ تَنفِرُوا لِلْجِهَادِ، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿إِلَّا تَنفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ﴾[١] ومَوْعِظَة بَالِغَة: أي بَلَغتْ النِّهَايَة مِن العِظَة، ويَنبَغي أنْ تُؤثر تأثيراً شَديداً. والمُرَاد بتَتَخَادَعُونَ هُنا تَغِيبُون وَلاَ تَتعِظُون. والحَنِيَّة: القَوْس. وأَعْضَلَ أَشْكَلَ، أو اسْتَصعَب. ومُنِيتُ: ابْتُلِيتُ. وتَرِبَتْ افْتَقَرت.

الإِعْرَاب:

والَّذِي الواو للقَسم، والَّذِي مجرور بِه. لَيَظْهَرَنَّ اللام في جَواب القَسم، وَيَظْهَرَنَّ مُضارع مَبني علىٰ الفَتْح لاِتصَاله بنون التَّوكيد، ومِثْله: ﴿تَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ

(١) التَّوبَة: ٣٩.

أَصْنَـٰمَكُم﴾[1]، وسِرّاً مَفْعُول مُطلق مُبيِّن لِلنَّوْع مثل قَعَدْتُ القُـرْفُصَاء، وَرَجَـعْتُ القَهْقَرَىٰ، ويجوز أَنْ يَكُون مَصْدَراً في مَوضع الحَال أي مُسِرّاً، ومُجَـاهِرّاً، وأَيَادِيَ سَبَا أصله تَفَرَق أَيَادِيَ سَبَأ، ثُم حُذف المُضاف وأُقيم المُضاف إِلَيْهِ مَقامه، وَقَالَ ٱبن أَبِي ٱلْحَدِيد: أَيَادِيَ سَبَأ إسمان جُعلا ٱسماً واحداً مثل مَعْدِي كَرِبُ[2]، وعَشِيَّةً نُصب علىٰ الظَّرفِيَة، والمُقَوِّمُ الأَوَّل ٱسم فَاعِل، والمُقَوَّمُ الثَانِي ٱسم مَـفْعُول، وأَبْـدَانُهُـمْ فَاعِل الشَّاهِدَةُ، وعُقُولُهُمْ فَاعِل الغَائِبة، وصُمٌّ خَبَر لمُبْتَدَأ مَحْذُوف أي أَنْتُم صُمٌّ.

المَعْنىٰ:

(وَ لَئِنْ أَمْهَلَ الظَّالِمَ فَلَنْ يَفُوتَ أَخْذُهُ، وَ هُوَ لَهُ بِالْمِرْصَادِ عَلَىٰ مَـجَازِ طَـرِيقِهِ، وَبِمَوْضِعِ الشَّجَا مِنْ مَسَاغِ رِيقِهِ). إنّ الله سُبْحَانَهُ يَعلم من خَلقه ما يَـفْعَلُون مِـن خيرٍ، أو شرٍ، وما يَسرّون، ويُعلنون، وهو لا مَحَالَةَ يَنتقم مِمَّنْ ظَلم، وأَجرم، وَلاَ يَعجزه شيء في ٱلسَّمَاوَات، والأَرْض (أَمَا وَ الَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَيَظْهَرَنَّ هَؤُلاَءِ الْقَوْمُ عَلَيْكُمْ، لَيْسَ لِأَنَّهُمْ أَوْلَىٰ بِالْحَقِّ مِنْكُمْ، وَ لَكِنْ لِإِسْرَاعِهِمْ إِلَـىٰ بَـاطِلِ صَـاحِبِهِمْ، وَإِبْطَائِكُمْ عَنْ حَقِّي). البَذرَة الصَّالِحَة لا تَصير شَـجرة بـاسقة إلّا إِذَا غُـرست في أَرْضٍ طَيِّبَة، وتَعهدها الغَارس بأَسباب ٱلْحَيَاة والنمو، وكذا الْحَقّ لا يَـدفع ضُرّاً، وَلاَ يَجلبُ نَفعاً، إِنّـه نَـظرية، وكـفىٰ إلّا إِذَا وِجـد أَنْـصَاراً يَسْـتَجيبُون لدعـوته، ويُكَافِحُون من أَجله، والإِمَامﷺ علىٰ حَقّ، ولكن أَصْحَابه يَسْـمَعُون مـنهُ، وَلاَ يُطيعُون، ومُعَاوِيَة علىٰ بَاطِلٍ، ولكن أَصْحَابه يَـدٌ وَاحِـدَة في طَـاعته. وإِذَنْ فـلا

(١) ٱلأنبِيَاء: ٥٧.

(٢) أُنظر، شَرح النَّهج: ٧/٧٥.

عَجَب إِذَا ٱنْتصر هَؤُلاَء بِٱجْتِمَاعِهِمْ عَلَىٰ بَاطِلِهِمْ، وَ تَفَرُّقِكُمْ عَنْ حَقِّكُمْ، وتقدّم مثله[1].

(وَ لَقَدْ أَصْبَحَتِ الْأُمَمُ تَخَافُ ظُلْمَ رُعَاتِهَا، وَ أَصْبَحْتُ أَخَافُ ظُلْمَ رَعِيَّتِي).
كَانَتْ وَالسِّيَّاسَة التَّقليدية للحُكام علىٰ وَجه العمُوم ـ أنْ يَسْتَغِلوا، ويَضْطَهِدوا المحْكُومِين. وَلاَ جَزاء لمن يَرفع صَوْته إلّا السَّيْف، ومن هُنا كَانَتْ الرَّعِيَّة تَعيش في خَوْفٍ دَائم من جوْر الْحَاكِم، والقَائد، ولكن حَال الرَّعِيَّة مَع الإِمَام علىٰ النَّقِيض من ذَٰلِكَ فقد كَانَ هو الخَائِف من تَفَرّقِهم، وتَخَاذُلهم، لا لشّيء إلّا لأنّه يحكم بالْعَدْل، ويَجهد نَفْسَه ليحقّق لهم الْخَيْر، والنَّصر علىٰ أَعدائِهم.

ولمناسبة الْإِشَارَة إِلىٰ خَوْف الرَّعِيَّة من ظُلم الرَّاعِيَ نَذكر هَذِه ٱلْحِكْمَة البَالِغَة، قِيل: إنّ كُونفُوشيُوس مرَّ في مكان قفرٍ، وبعيدٍ، فرأىٰ إمرْأَة تبكي بحرارة إِلىٰ جانب قَبرٍ، ولما سألها قالت: قَتل النّمر والد زَوجي، ثُم قتل زَوجي، ثُم قتل ولدي. فَقَالَ: ولِمَاذَا سَكنتم هُنا؟ فقالت: لأنّه لَيْسَ هُنا حكومة ظَالمة. فالتفت كُونفُوشيُوس إِلىٰ أَصْحَابِه، وَقَالَ: تَذكروا أنّ الْحُكُومَة الظَّالمة أَشد فظاعة من الوَحش المُفترس.

(ٱسْتَنْفَرْتُكُمْ لِلْجِهَادِ فَلَمْ تَنْفِرُوا، وَ أَسْمَعْتُكُمْ فَلَمْ تَسْمَعُوا، وَدَعَوْتُكُمْ سِرّاً، وَ جَهْراً فَلَمْ تَسْتَجِيبُوا، وَ نَصَحْتُ لَكُمْ فَلَمْ تَقْبَلُوا). تَقَدَّم هَذَا التَّوبيخ بأَساليب شَتَّىٰ، وَهَذَا الأُسلوب قَريب الشَّبه بشكوىٰ نُوح إِلىٰ خَالقه حَيْث: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّى دَعَوْتُ قَوْمِى لَيْلاً وَنَهَارًا فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَآءِىَ إِلَّا فِرَارًا وَإِنِّى كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوٓاْ

---

(١) أنظر، ٱلْخُطْبَة: ٢٥.

أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَٱسْتَغْشَوْاْ ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّواْ وَٱسْتَكْبَرُواْ ٱسْتِكْبَارًا ثُمَّ إِنِّى دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا ثُمَّ إِنِّىٓ أَعْلَنتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّٰتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَٰرًا مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا أَلَمْ تَرَوْاْ كَيْفَ خَلَقَ ٱللَّهُ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا وَجَعَلَ ٱلْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ ٱلشَّمْسَ سِرَاجًا وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ نَبَاتًا ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ بِسَاطًا لِّتَسْلُكُواْ مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا قَالَ نُوحٌ رَّبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِى وَٱتَّبَعُواْ مَن لَّمْ يَزِدْهُ مَالُهُۥ وَوَلَدُهُۥٓ إِلَّا خَسَارًا وَمَكَرُواْ مَكْرًا كُبَّارًا﴾[1].

(أَ شُهُودٌ كَغُيَّابٍ، وَ عَبِيدٌ كَأَرْبَابٍ)! أي شُهود بـالأبْدان، وغُـيَّاب بِالْـعُقُول، وَعَبِيدٌ في الخِسَة، والدَّنَاءة، وأَرْبَابٍ في التِّيه، والْكِبْرِيَاء (أَتْـلُو عَـلَيْكُمْ الْـحِكَمَ فَتَنْفِرُونَ مِنْهَا، وَ أَعِظُكُمْ بِالْمَوْعِظَةِ الْبَالِغَةِ فَتَتَفَرَّقُونَ عَنْهَا). نَـفَرّوا، وتَـفرّقوا ولم يَتَّعظُوا، لأَنَّهم صَمموا منذُ البِدايَة أنْ لا يَسْتَمعوا إلّا إِلىٰ أهوائهم، فَـهِيَ وَحْـدَها عِندهم المَنطق والْعَقْل، والدِّين، والضَّمِير، وما عداها جهلٌ، وضَلال.

(وَ أَحُثُّكُمْ عَلَىٰ جِهَادِ أَهْلِ الْبَغْيِ) وهم مُعَاوِيَة ومن حَارب معهُ الَّذين أَسْماهـم النَّبِيّ ﷺ بالْفِئَةُ الْبَاغِيَةُ (فَمَا آتِي عَلَىٰ آخِرِ قَوْلِي حَتَّىٰ أَرَاكُمْ مُتَفَرِّقِينَ أَيَادِيَ سَبَا).
قَالَ الطبري وصاحب مَجْمَع الْبَيَان عند تَفْسِير قَوْله تَعَالَىٰ: ﴿وَمَزَّقْنَٰهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾[2]: إنّ سائلاً سأل رَسُول الله ﷺ عـن سَـبأ؟ فَقَالَ: كَانَ رَجُلاً من الْعَرَب، لهُ عشرة أَوْلَاد: فتيمن مِـنْهُم سِـتَة، وتشـاءم مـن

(١) نُوحٍ: ٥ ـ ٢٢.
(٢) سُورَةُ سَبأ: ١٩.

أَرْبَعَة، فأما الَّذين تيامنوا فكندة، وحمير، والأزد، والأَشْعَرِيُون، ومذحج، وأنمار الّذِين مِنْهُم خَثْعَم، وبُجَيْلَة، وأمّا الَّذِين تشاءموا فعاملة، وجذام، ولخم، وغسان[1].

(تَرْجِعُونَ إِلَىٰ مَجَالِسِكُمْ، وَ تَتَخَادَعُونَ عَنْ مَوَاعِظِكُمْ). كَانُوا يَسْتَمِعُون إِلَىٰ نُصح الإِمَام، ومواعظه، فَإِذَا فَارقوه تجاهلوا كلّ شيء، وعَبّر الإِمَامﷺ عن هَذَا بالتَّخادع، وهو الاِدبار بعد الاِقبال، قَالَ آبن أبي ٱلْحَدِيد: يَقُول الْعَرَب: كَانَ فُلاَن يُعطي ثُم خَدع أي أَمسك، وأَقلع عن الْعَطَاء. وَقَالَ آبن الجَوزي في صَيد الخَاطر: «إنّ ٱلاِنْسَان عِند سَماع المَوْعِظَة يتخلىٰ عن أَسْبَاب الدُّنْيَا، ويَنصت بحضُور قَلبه، فَإِذَا عَاد إِلىٰ شواغل الدُّنْيَا جذبته إِلَيْهَا»[2].

(أُقَوِّمُكُمْ غُدْوَةً) بالوعظ، والإِرْشَاد (وَ تَرْجِعُونَ إِلَيَّ عَشِيَّةً كَظَهْرِ الْحَنِيَّة).

أي مُعْوَجِّيْن كَظهر القَوْس (عَجَزَ الْمُقَوِّمُ) الَّذي يُريد تَقويمكم علىٰ الْحَقّ (وَأَعْضَلَ) آسْتَصعَب (الْمُقَوَّمُ) الَّذي يُراد منهُ القيام علىٰ الْحَقّ، وبكَلِمَة نَفر المَريض مِن الدَّواء، فَعجز مُمرضه.

(الْمُخْتَلِفَةُ أَهْوَاؤُهُمْ). قَالَ الأُستاذ عبدٱلكَرِيمِ الْخَطِيب: «كَانَ جَيش عليّ مَع غَلبته علىٰ جيش مُعَاوِيَة ـ في مَعرض العَواصف العَاتِية من الخِلاَف، والتَّفرقة يَتحركون لأَقل بَادِرة، ويَثورُون لأدنىٰ مُناسبة، كلّ رَأس يُريد أنْ يَعلو علىٰ سَائر الرُّؤوس، وكلّ زَعِيم يَعمل علىٰ أنْ يَكون صَاحب الرّأي، والكَلِمَة، وقد عَرفنا أنّ

(١) أنظر، مَجْمَع الْبَيَان: ٨/٦٠٤ طَبْعَة بيروت، جامع الْبَيَان لِابْن جرير الطبري: ٢٢/٩٤، سُبل الْهُدَىٰ والرشاد: ٩/٣٣٤، السِّيرَة النَّبَوِيَّة لِابْن كَثِير: ١/٩، تَأرِيخ آبن خلدون: ٢/٣٣.

(٢) أنظر، صَيد الخَاطر: ١/١٤٧ و ٢١٦، طَبْعَة دار الْفِكْر دِمَشق.

الَّذين انحازوا إلىٰ الإمَام، وقَاتلوا معه لم يكن يَملكهم إلّا بوازع الدِّين، والضَّمير، ولِهَذَا فهم جَميعاً مُطلقون من يَده لا يَملك من أَمرهم شَيْئاً إذ كَانَ أمرهم إلىٰ أنْفسهم، ومَا يدينون به الله»(١).

(الْمُبْتَلَىٰ بِهِمْ أُمَرَاؤُهُمْ). في شرح ابن أبي الْحَدِيد: «إنّ المُتَكَلِّمِين من الْمُعْتَزِلَة قَالُوا: ما بَلغ أحد من حُسن سياستة، وصحة تدبيره مَبلغ الإِمَام بدَلِيل أنّه قد مُني بِهَذِه الرَّعِيَّة الْمُخْتَلِفَة الأَهْوَاء، هَذَا والجَيْش العَاصي له المتمرد، ومَع ذَلِكَ قَتل النَّاكِثِينَ، والْمَارِقِينَ، وتَغلب علىٰ كَثِير من المَصاعب»(٢) (صَاحِبُكُمْ ـ أي الإِمَام ـ يُطِيعُ اللهَ، وَ أَنْتُمْ تَعْصُونَهُ). لأنّه استغنىٰ بالله عَنْهُمْ، وعن كلّ شيء، ولو أنّه عصىٰ الله استجاب لأهوائهم لما فاته شيء من طاعتهم، بل كَانُوا أَطوع إِلَيْهِ من بَنانه.

(وَ صَاحِبُ أَهْلِ الشَّامِ ـ أي مُعَاوِيَة ـ يَعْصِي اللهَ، وَ هُمْ يُطِيعُونَهُ) لأنّه عصىٰ الله، واستجاب لأهوائهم، ولو عصىٰ أَهْوَاءهم لكانوا معه كأَهْل الْعِرَاق مَع الإِمَام (لَوَدِدْتُ وَ اللهِ أَنَّ مُعَاوِيَةَ صَارَفَنِي بِكُمْ صَرْفَ الدِّينَارِ بِالدِّرْهَمِ). ولو فَعل هَذَا مُعَاوِيَة لكان الْعِرَاقِيُون في الطَّاعَة لهُ تَمَاماً كأَهْل الشّام، أو أَطوع، وكَانَ الشَّاميون مَع الإِمَام كأَهْل الْعِرَاق، أو أَكْثَر تَمرداً، وعِناداً، والسّر أنّ سياسة مُعَاوِيَة كَانَتْ تقوم علىٰ الرِّشوة، وشراء الذِّمم، وسياسة عليّ قامت علىٰ الْحَقّ، والْعَدْل، وَلاَ شكّ أنّ الْمَال مُقلب الْقُلُوب، لا يملك الإنْتِهَازِيُون مَعه إلّا السَّمع، والطَّاعَة لِمن يَغدق عَلَيْهِمْ بغير حِساب، قَالَ الأُستاذ الْخَطِيب: «كَانَ الْمَال في بِدء الدَّعْوَة سبيلاً

---

(١) أنظر، عَليّ بن أَبِي طالب بقية النُّبوّة، وخَاتَم الخِلاَفَة للأُستاذ عبدالكريم الخَطِيب: ٤٨٢، وما بعدها طَبْعَة سَنَة ١٩٦٧م.

(٢) أُنظر، شرح النَّهج: ٧/٧٣.

لتأليف ٱلْقُلُوب الّتي تُزعزع إيمَانها، ثُم ها هوذا قد أَصْبَحَ ٱلْمَال سَبيلاً لانتزاع الإيمَان من ٱلْقُلُوب، فٱلْمَال علىٰ يَد عليّ يُفسد عَلَيْهِ أَصْحَابه، وأنْصَاره، وٱلْمَال علىٰ يَد مُعَاوِيَة يُؤَلِّف له أَعْدَاءه، ويبسط له علىٰ النّاس سُلطاناً قائماً علىٰ االرَّغْبَة والأَمَل»[١].

ونقل الخَطِيب عن الطَّبَرِي: «إنّ الحُتَات بن يَزِيد المُجَاشِعيّ[٢] وفَد علىٰ مُعَاوِيَة في جَمَاعَة من الرّؤساء، فأعطىٰ كل واحد مِنْهُم مئة ألف، وأعطىٰ الحُتَات سَبعين، فَلمَّا رجعوا، وكَانُوا في بَعْض الطَّرِيق أخبَرَ بَعْضهُم بعضاً بالجَائزة، فرجع الحُتَات إلىٰ مُعَاوِيَة يُعاتبه، فَقَالَ له مُعَاوِيَة: ٱشتريت من الْقَوْم دِينهم، فَقَالَ الحُتَات: وأنَا أبيعك دِيني، فأمر لهُ بتَمام جَائزته»[٣].

(يَا أَهْلَ الْكُوفَةِ، مُنِيتُ مِنْكُمْ بِثَلاَثٍ، وَ ٱثْنَتَيْنِ). أمّا الثّلاَث فأُولاَها (صُمٌّ ذَوُو أَسْمَاعٍ). والثَّانِيَة (وَ بُكْمٌ ذَوُو كَلاَمٍ). والثّالثة (وَ عُمْيٌ ذَوُو أَبْصَارٍ). كلّ شيء لا يؤدي إلىٰ الْغَايَة الّتي من أَجلها وجد فَهُوَ كالعَدم من هَذِه الحَيثية، ومن أَهم غَايات اللِّسَان أنْ يَنطق بِالْحَقِّ، والْعَيْن أنْ ترىٰ دلائله، والأُذن أنْ تَسْمعَه، وتَنتفع

(١) أنظر، عَليّ بن أبي طالب بقية النُّبوَّة، وخَاتم ٱلخِلاَفَة للأُستاذ عبدالكريم الخَطِيب: ٤٤٥، وما بعدها طَبْعَة سَنَة ١٩٦٧م.

(٢) هُو لَقب لِبشر ٱبن زِيد بن عَلقَمة بن حوىٰ بن سُفْيَانَ بن مُجَاشِع بن دَارم ٱلتَيمي الدّارمي المُجَاشِعيّ، كمَا جَاء في الأصَابَة: ٣١١/١.

(٣) أنظر، عَليّ بن أبي طالب بقية النُّبوَّة، وخَاتم ٱلخِلاَفَة للأُستاذ عبدالكريم الخَطِيب: ٤٤٤، وما بعدها طَبْعَة سَنَة ١٩٦٧م، وتَأريخ الطبري: ١٣٥/٦، الغَارات: ٣٩٣/٢، الاِسْتِيعَاب: ٣٩٦/١ التَّرجمة (٦٠٧)، أُسد الغَابَة: ٣٧٩/١، جمهرة أَنْسَاب الْعَرَب: ٢١٩، ٱبن الأَثِير: ٢٠١/٣، تَأريخ دِمَشْق: ٢٧١/١٠ و ٢٧٧ و ٢٧٩.

بسْمَاعه، فَإذَا لم تَنتفع الْعَيْن بِمَا رأت، والأُذن بِمَا سمعت كانا كالعَدم، وكذا اللِّسَان إذَا خَرِسَ عن الْحَقّ.

أمّا الإثنان فأُولاهما (لاَ أَحْرَارُ صِدْقٍ عِنْدَ اللِّقَاءِ). والثَّانِيَة (وَ لاَ إِخْوَانُ ثِقَةٍ عِنْدَ الْبَلاَءِ)! لَسْتُم بشيء إذَا جَد الجَد لا في الْحَرْب، وَلاَ في غَيْرها من المُلمات، والوَيل لمن ٱسْتَنجد بِكُم (تَرِبَتْ أَيْدِيكُمْ) أي لا رَأَيْتُمْ خيراً. قَالَ ٱبن أَبِي ٱلْحَدِيد: «إنّما قَالَ بِثَلاَثٍ، وَ ٱثْنَتَيْنِ، ولم يَقل بخَمْس، لأنّ الثّلاَث إيجابية، والاِثْنَتَيْن سَلبية، فأحَبّ أن يفرق بَيْنَ الإثبات، والنّفي»[1].

يَا أَشْبَاهَ الإِبِلِ...فِقْرَة ٤ ـ ٦:

يَا أَشْبَاهَ الإِبِلِ غَابَ عَنْهَا رُعَاتُهَا! كُلَّمَا جُمِعَتْ مِنْ جَانِبٍ تَفَرَّقَتْ مِنْ آخَرَ، وَ اللهِ لَكَأَنِّي بِكُمْ فِيمَا إِخَالُكُمْ: أَنْ لَوْ حَمِسَ الْوَغَىٰ، وَ حَمِيَ الضِّرَابُ، قَدِ ٱنْفَرَجْتُمْ عَنِ ٱبْنِ أَبِي طَالِبٍ ٱنْفِرَاجَ الْمَرْأَةِ عَنْ قُبُلِهَا. وَ إِنِّي لَعَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي، وَ مِنْهَاجٍ مِنْ نَبِيِّي، وَ إِنِّي لَعَلَىٰ الطَّرِيقِ الْوَاضِحِ أَلْقُطُهُ لَقْطاً[4].

أُنْظُرُوا أَهْلَ بَيْتِ نَبِيِّكُمْ فَالْزَمُوا سَمْتَهُمْ، وَ ٱتَّبِعُوا أَثَرَهُمْ، فَلَنْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ هُدىً، وَ لَنْ يُعِيدُوكُمْ فِي رَدىً، فَإِنْ لَبَدُوا فَالْبُدُوا، وَ إِنْ نَهَضُوا فَٱنْهَضُوا. وَ لاَ تَسْبِقُوهُمْ فَتَضِلُّوا، وَ لاَ تَتَأَخَّرُوا عَنْهُمْ فَتَهْلِكُوا[5].

لَقَدْ رَأَيْتُ أَصْحَابَ مُحَمَّدٍ ﷺ، فَمَا أَرَىٰ أَحَداً يُشْبِهُهُمْ مِنْكُمْ! لَقَدْ كَانُوا يُصْبِحُونَ شُعْثاً غُبْراً، وَ قَدْ بَاتُوا سُجَّداً، وَ قِيَاماً، يُرَاوِحُونَ بَيْنَ جِبَاهِهِمْ، وَ خُدُودِهِمْ، وَيَقِفُونَ

(١) أنظر، شَرح النّهج: ٧٦/٧.

عَلَىٰ مِثْلِ الْجَمْرِ مِنْ ذِكْرِ مَعَادِهِمْ! كَأَنَّ بَيْنَ أَعْيُنِهِمْ رُكَبَ الْمِعْزَىٰ مِنْ طُولِ سُجُودِهِمْ! إِذَا ذُكِرَ اللهُ هَمَلَتْ أَعْيُنُهُمْ حَتَّىٰ تَبُلَّ جُيُوبَهُمْ، وَ مَادُوا كَمَا يَمِيدُ الشَّجَرُ يَوْمَ الرِّيحِ الْعَاصِفِ، خَوْفاً مِنَ الْعِقَابِ، وَ رَجَاءً لِلثَّوَابِ(٦)!

اللُّغَة:

إِخَالُ: أَظُنّ. والحَمِسَ: الاشْتِداد. والْوَغَىٰ: الْحَرْب. والقُبُل ـ بضم القَاف ـ ضَد الدُّبر. والمِنْهَاج، والمِنْهَج: الطَّرِيق الْوَاضِح. والسَّمْتَ: الطَّرِيق. وشُعْثاً غُبْراً: مُغْبَرِي الرُّؤُوس، والْمُرَاد مُتقَشِفُون. وَمَادُوا: اَضْطَرَبوا.

الإِعْرَاب:

أَشْبَاهَ الْإِبِلِ مُنادىٰ مُضاف، ولذا وَجَبَ النَّصب، وبِكُمْ خَبَرَ كَأَنِّي، وأَنْ لَوْ «أنْ» مُخففة، وٱسمها مَحْذُوف أي أنّه، والْمَصْدَر المُنسبك مَفْعُول ثانٍ لإِخَالُكُمْ لأَنّ «خَالُ» من أَخوات ظَنَّ، وشُعْثاً غُبْراً خَبَرَ يُصْبِحُونَ لأَنّ «أَصْبَحَ» من أَخوات كَانَ، وسُجَّداً حَال من فَاعِل بَاتُوا، ورُكَبَ الْمِعْزَىٰ ٱسم كَأَنَّ، وبَيْنَ خَبَرها مُقدماً علىٰ الاِسم، وخَوْفاً مَفْعُول من أَجله لمَادُوا.

الْمَعْنىٰ:

(يَا أَشْبَاهَ الْإِبِلِ غَابَ عَنْهَا رُعَاتُهَا! كُلَّمَا جُمِعَتْ مِنْ جَانِبٍ تَفَرَّقَتْ مِنْ آخَرَ) لِلرَّاعي وظيفةٌ، وَهِي أَنْ يَجمع الإِبِلِ، وغَيْرَها من ٱلأَنْعَام في مَرعىٰ واحد بحيث تَكُون بِكَامِلِهَا مِنْهُ بمرأىٰ، فَإِذَا شَتّ واحد مِنْهَا عن القَطيع ٱرجعه إِلَيْهِ... فإِنْ غَاب

الرَّاعِيَ تَفرق القَطيع أَيَادِيَ سَبَأ، وصار نَهباً لكلّ طَامع، وجَائع... وهَذه هِي بالذَّات حَال أصْحَاب الإمَام عليه السلام لأنّ تمردهم علىٰ أَمْره جَعلهم كالإبِل بلا راع، والرَّعِيَّة بلا أَمِير، يَطمع فِيهِمْ القَريب، والبَعيد، والْقَوِيّ، والضَّعِيف، وتَقَدَّم مِثْله[1]. (وَ اللهِ لَكَأَنِّي بِكُمْ فِيمَا إِخَالُكُمْ: أَنْ لَوْ حَمِسَ الْوَغَىٰ، وَ حَمِيَ الضِّرَابُ، قَدِ انْفَرَجْتُمْ عَنِ ابْنِ أَبِي طَالِبٍ انْفِرَاجَ الْمَرْأَةِ عَنْ قُبُلِهَا). لم يَكُن الإمَام واثقاً بالكثير مِن أَصْحَابِه بالنَّظر لسيرتهم معه... حَتَّىٰ كَانَ يظُنّ، أو يَعتقد يتركونه وحِيداً في المَيدان إذَا تَجددت الحَرْب بينه، وبَيْنَ مُعَاوِيَة، أو يُسلمونه إلىٰ عَدُوّه، وتَقَدَّم الكَلاَم عن ذَلِكَ[2]. (وَ إِنِّي لَعَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي، وَ مِنْهَاجٍ مِنْ نَبِيِّي) أعتمدُ علىٰ كتاب الله وسنّة نَبيِّه فيما أَقول، وأَفعل، وتَقَدَّم مَع الشّرح في: «مَا شَكَكْتُ فِي الْحَقِّ مُذْ أُرِيتُهُ»[3]! (وَ إِنِّي لَعَلَىٰ الطَّرِيقِ الْوَاضِحِ أَلْقُطُهُ لَقْطاً). أي أنّ الإمَام يَسْتَخرج الْهُدَىٰ من بَيْنَ الأضاليل، ويُميِّز الحَقّ عن الأباطيل.

(انْظُرُوا أَهْلَ بَيْتِ نَبِيِّكُمْ فَالْزَمُوا سَمْتَهُمْ، وَ اتَّبِعُوا أَثَرَهُمْ). لأنّهم مُطَهَّرُون من الرِّجْس بِنَصّ الآيَة: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾[4]. وهم عِدل القُرآن كما نَطق، وصرح حَدِيث الثَّقلين[5]. (فَلَنْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ هُدىً، وَ لَنْ يُعِيدُوكُمْ فِي رَدىً). كَيْفَ وهم هُداة الخَلْق إلىٰ الحَقّ، وخَزَنَة

---

(١) أنظر، الخُطْبَة: (٣٣).
(٢) أنظر، الخُطْبَة: (٣٣).
(٣) أنظر، الخُطْبَة: (٤).
(٤) الأَحزاب: ٣٣.
(٥) تقدَّم استخراجه.

ٱلْعِلْم، وحَفَظَة الدِّين (فَإِنْ لَبَدُوا فَالْبُدُوا، وَ إِنْ نَهَضُوا فَٱنْهَضُوا) فإِنَّهم أَعلم مِنْكُم بمواقع الصَّبر، والنُّهوض (وَ لاَ تَسْبِقُوهُمْ) إِلىٰ بَيان الْحَقّ، والشَّرِيعَة (فَتَضِلُّوا) علىٰ نَهْج ٱلسَّبِيل (وَ لاَ تَتَأَخَّرُوا عَنْهُمْ) أي عن مُتَابعتهم (فَتَهْلِكُوا) وأَنْتُمْ ظَالمون. وتَقَدَّم الكَلاَم عن ذٰلِكَ مَرَّات[١].

(لَقَدْ رَأَيْتُ أَصْحَابَ مُحَمَّدٍ ﷺ، فَمَا أَرَىٰ أَحَداً يُشْبِهُهُمْ مِنْكُمْ! لَقَدْ كَانُوا يُصْبِحُونَ شُعْثاً غُبْراً، وَ قَدْ بَاتُوا سُجَّداً، وَ قِيَاماً، يُرَاوِحُونَ بَيْنَ جِبَاهِهِمْ، وَ خُدُودِهِمْ، وَيَقِفُونَ عَلَىٰ مِثْلِ الْجَمْرِ مِنْ ذِكْرِ مَعَادِهِمْ! كَأَنَّ بَيْنَ أَعْيُنِهِمْ رُكَبَ الْمِعْزَىٰ مِنْ طُولِ سُجُودِهِمْ! إِذَا ذُكِرَ اللهُ هَمَلَتْ أَعْيُنُهُمْ حَتَّىٰ تَبُلَّ جُيُوبَهُمْ، وَ مَادُوا كَمَا يَمِيدُ الشَّجَرُ يَوْمَ الرِّيحِ الْعَاصِفِ، خَوْفاً مِنَ الْعِقَابِ، وَ رَجَاءً لِلثَّوَابِ) من البداهة أنّ الجيل اللاحق ٱمتداد للجيل السّابق في كَثِير من العَادات، وأَسْبَاب ٱلْحَيَاة ومن هَذِه الأَسْبَاب، والعادات ما يَصلح لزمانٍ دُونَ زَمَان، ومِنْهَا ما يَصلح، وينفع في كلّ زَمَان، ومكان من غَيْر ٱستثناء، وعلىٰ الْعَاقِل أنْ يُمَيِّزَ بَيْنَ هَذِه، وتِلْكَ، ويختار الأصلح، فلا يَلتحم مَع المَاضي بكلّ ما فِيهِ، وَلاَ يَنفصم عَنْه بالمَرّة، ويغلق دونه جَمِيع النّوافذ.

وقد كَانَ لكثير من الْصَّحَابَة فَضَائِل إنسانية مُطلقة كالصِّدْق، والإِخْلاَص، والزُّهْد في ٱلْحَرَام، والتَّعبد لله، والْخَوْف مِنْهُ، والتَّوكل عَلَيْهِ وحده، والثَّبات في الْجِهَاد، والتَّضحية بالنَّفس في مَرضاة الله، ونُصره الحَقّ.. وعلىٰ الخَلف أنْ يتحلىٰ بِهَذِه الخلال الْفُضْلىٰ، فإِنَّهَا المَصْدَر، والأَسَاس الْحُرِّيَّة ٱلإِنْسَان، وكَرامته. ومن

---

(١) أُنظر، آخرها في ٱلْخُطْبَة: (٩٣). (مِنْهُ ﷺ).

أجَل هَذَا حثَّ الإِمَام أَصْحَابِه عَلَيْهَا، ووجههم إِلَيْهَا بِمَا ذكر وعُدِّد للصّحابة من مَناقب، وفي هَذَا ٱلْمَعْنَىٰ أو قَرِيب مِنْهُ قَوْله تَعَالَىٰ: ﴿وَٱلسَّـٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَـٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَـٰنٍ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى تَحْتَهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾[1].

(١) ٱلتَّوْبَة: ١٠٠.

الخطبة

-٩٨-

بَنُو أُمَيَّةَ:

وَ اللهِ لاَ يَزَالُونَ حَتَّىٰ لاَ يَدَعُوا للهِ مُحَرَّماً إِلَّا ٱسْتَحَلُّوهُ، وَ لاَ عَقْداً إِلَّا حَلُّوهُ، وَ حَتَّىٰ لاَ يَبْقَىٰ بَيْتُ مَدَرٍ، وَ لاَ وَبَرٍ إِلَّا دَخَلَهُ ظُلْمُهُمْ، وَ نَبَا بِهِ سُوءُ رَعْيِهِمْ، وَ حَتَّىٰ يَقُومَ الْبَاكِيَانِ يَبْكِيَانِ: بَاكٍ يَبْكِي لِدِينِهِ، وَ بَاكٍ يَبْكِي لِدُنْيَاهُ، وَ حَتَّىٰ تَكُونَ نُصْرَةُ أَحَدِكُمْ مِنْ أَحَدِهِمْ كَنُصْرَةِ الْعَبْدِ مِنْ سَيِّدِهِ، إِذَا شَهِدَ أَطَاعَهُ، وَ إِذَا غَابَ ٱغْتَابَهُ، وَحَتَّىٰ يَكُونَ أَعْظَمَكُمْ فِيهَا عَنَاءً أَحْسَنُكُمْ بِاللهِ ظَنّاً. فَإِنْ أَتَاكُمُ اللهُ بِعَافِيَةٍ فَاقْبَلُوا، وَإِنِ ٱبْتُلِيتُمْ فَٱصْبِرُوا، فَإِنَّ ﴿ٱلْعَـٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾[1].

اللُّغَة:

الْمُرَاد بالعَقْد هُنا المبادىء ٱلإِنْسَانِيّة ٱلّتي تنتظم ٱلْحَيَاة بِهـا، وتَسـتقيم بٱتـفاق

---

(١) ٱلقَصَصِ: ٨٣، وطه: ١٣٢، وٱلأَعْرَاف: ١٢٨.

الجَمِيع. وبُيُوْتُ المَدَر: مَا كَانَ مِنْهَا بالطُّوبُ[١]، أو الحَجَرَ. وبُيُوْتُ الوَبَر: الخِيام. وَنَبَا بِهِ المكَان: لَمْ يَجد فِيهِ قَراراً يوافِقُه. والْمُرَاد برَعْيِهِمْ ـ بسكون الْعَيْن ـ سِيَاستهم. والعَنَاء: التَّعَبُ.

الإِعْرَاب:

لاَ يَزَالُونَ من أَخوات كَان، والواو آسمها، وخَبَرها مَحْذُوف أي ظَالمين، ولاَ يَدْعُوا منصوب بأنْ مضمرة بعد حَتَّىٰ وَنَبَا فعل ماض، وبَاكٍ بدل مفصل من مُجمل، والمُبدل مِنْهُ الْبَاكِيَانِ، والأصل بَاكِي، فَحُذفت الياء للتّخفيف، وأَعْظَمَكُمْ خَبَر مُقَدَّم ليَكُونَ، وأَحْسَنُكُمْ آسمها، وضَمِير فِيهَا يَعود إِلىٰ الْفِتْنَة الأُمويّة المَفهومَة من سياق الكَلاَم، وَعَنَاءً تَمْيِيز، ومِثْله ظَنّاً.

الْمَعْنىٰ:

تَقَدَّم الكَلاَم عن جَوْر الأُمويين مَرّات، وأَعاده الإمَام هُنا بِمَا يَتلَخَص أنّهم يَهلكون ٱلْحَرْثَ، وَٱلنَّسْلَ، ويُحِلُّوا ما حرّم الله، ويُحَرِّمُون ما حَلل، وَلاَ يَحفظون الذِّمم، أو يَعْتَرِفُون بالْقِيَّم، وَلاَ يَسلم من شَرّهم حَضْرِيّ، أو بَدَوِيّ، وفي دولتهم يَرحل من يَرحل عن الأوطَان فِراراً من جَوْرَهم[٢].

ويَبْكِي المُقِيم لِذهَاب دِينِهِ، ودُنْيَاهُ، وأَكْثَر النَّاس تَعباً، وبَلاءً أقواهم إِيمَاناً،

(١) هو الآجُرُّ الّذي يبنىٰ به وهو فارسي مُعرب، وأَصْبَحَ لُغة أَهْل مِصْر، كما جاء في لِسَان العَرَب: ١/٥٦٢، مختار الصّحاح: ١/٣.

(٢) أُنظر، الحِكَاية الّتي نقلناها عن كُونفُوشيُوس في شَرح ٱلْخُطْبَة: ٩٧ (مِنْهُ ﷺ).

ويقيناً بالله كما يَقُول الْحَدِيث: «أَشد النّاس بلاءً ٱلْأَنْبِيَاء، ثُمّ الَّذِين يَلونهم الأمْثَل فالأمْثَل»(١)، أمّا قَوْل الإِمَام: (وَحَتَّىٰ تَكُونَ نُصْرَةُ أَحَدِكُمْ مِنْ أَحَدِهِمْ كَنُصْرَةِ الْعَبْدِ مِنْ سَيِّدِهِ، إِذَا شَهِدَ أَطَاعَهُ، وَإِذَا غَابَ ٱغْتَابَهُ)، فقد تَقَدَّم شَرحها(٢).

(١) أُنظر، فيض القدير: ٣٥٩/٢، فتح البـاري: ١١١/١٠ ح ٥٣٢٣، الْـبَيَان والتَّـعريف: ٩٩/١، الْـمُعْجَم الْكَبِير: ٢٤٤/٢٤ ح ٦٢٦، مُسْنَد أحمد: ٣٦٩/٦ ح ٢٧١٢٤، مُسْنَد البزار: ٣٤٩/٣ ح ١١٥٠، مُسْنَد الشّاشي: ١٣٠/١ ح ٦٧، السُّنن الْكُبْرَىٰ: ٣٥٢/٤ ح ٧٤٨٢، سُنَن الدّارمي: ٤١٢/٢ ح ٢٧٨٣.

(٢) أُنظر، شرح نَهْج اَلْبَلاَغَة: اَلْخُطْبَةُ (٩٣). (مِنْهُ ﷺ).

الخطبة

-٩٩-

كُلُّ مُدَّةٍ فِيهَا إِلَىٰ انْتِهَاءٍ...فِقْرَة ١ ـ ٣:

نَحْمَدُهُ عَلَىٰ مَا كَانَ ، وَ نَسْتَعِينُهُ مِنْ أَمْرِنَا عَلَىٰ مَا يَكُونُ ، وَ نَسْأَلُهُ الْمُعَافَاةَ فِي الْأَدْيَانِ ، كَمَا نَسْأَلُهُ الْمُعَافَاةَ فِي الْأَبْدَانِ .

عِبَادَ اللهِ ، أُوصِيكُمْ بِالرَّفْضِ لِهَذِهِ الدُّنْيَا التَّارِكَةِ لَكُمْ وَ إِنْ لَمْ تُحِبُّوا تَرْكَهَا ، وَالْمُبْلِيَةِ لِأَجْسَامِكُمْ وَ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ تَجْدِيدَهَا ، فَإِنَّمَا مَثَلُكُمْ وَ مَثَلُهَا كَسَفْرٍ سَلَكُوا سَبِيلاً فَكَأَنَّهُمْ قَدْ قَطَعُوهُ ، وَ أَمُّوا عَلَماً فَكَأَنَّهُمْ قَدْ بَلَغُوهُ[1] . وَ كَمْ عَسَىٰ الْمُجْرِي إِلَىٰ الْغَايَةِ أَنْ يَجْرِيَ إِلَيْهَا حَتَّىٰ يَبْلُغَهَا ! وَ مَا عَسَىٰ أَنْ يَكُونَ بَقَاءُ مَنْ لَهُ يَوْمٌ لاَ يَعْدُوهُ ، وَ طَالِبٌ حَثِيثٌ مِنَ الْمَوْتِ يَحْدُوهُ ، وَ مُزْعِجٌ فِي الدُّنْيَا حَتَّىٰ يُفَارِقَهَا رَغْماً ! فَلاَ تَنَافَسُوا فِي عِزِّ الدُّنْيَا ، وَ فَخْرِهَا ، وَ لاَ تَعْجَبُوا بِزِينَتِهَا ، وَ نَعِيمِهَا ، وَلاَ تَجْزَعُوا مِنْ ضَرَّائِهَا ، وَ بُؤْسِهَا ، فَإِنَّ عِزَّهَا ، وَ فَخْرَهَا إِلَىٰ انْقِطَاعٍ ، وَ إِنَّ زِينَتَهَا ، وَ نَعِيمَهَا إِلَىٰ زَوَالٍ ، وَ ضَرَّاءَهَا ، وَ بُؤْسَهَا إِلَىٰ نَفَادٍ ، وَكُلُّ مُدَّةٍ فِيهَا إِلَىٰ انْتِهَاءٍ ، وَكُلُّ حَيٍّ فِيهَا إِلَىٰ فَنَاءٍ[2] . أَوَ لَيْسَ لَكُمْ فِي آثَارِ الْأَوَّلِينَ مُزْدَجَرٌ ، وَ فِي آبَائِكُمُ الْمَاضِينَ تَبْصِرَةٌ ، وَ مُعْتَبَرٌ ، إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ ! أَ وَ لَمْ تَرَوْا إِلَىٰ الْمَاضِينَ مِنْكُمْ لاَ يَرْجِعُونَ ، وَ إِلَىٰ الْخَلَفِ الْبَاقِينَ لاَ يَبْقَوْنَ ! أَ وَ لَسْتُمْ تَرَوْنَ أَهْلَ الدُّنْيَا يُصْبِحُونَ ، وَ يُمْسُونَ عَلَىٰ أَحْوَالٍ شَتَّىٰ :

فَمَيِّتٌ يُبْكَىٰ، وَ آخَرُ يُعَزَّىٰ، وَ صَرِيعٌ مُبْتَلىً، وَ عَائِدٌ يَعُودُ، وَ آخَرُ بِنَفْسِهِ يَجُودُ، وَ طَالِبٌ لِلدُّنْيَا وَ الْمَوْتُ يَطْلُبُهُ، وَغَافِلٌ وَ لَيْسَ بِمَغْفُولٍ عَنْهُ، وَ عَلَىٰ أَثَرِ الْمَاضِي مَا يَمْضِي الْبَاقِي!

أَلاَ فَٱذْكُرُوا هَاذِمَ اللَّذَّاتِ، وَ مُنَغِّصَ الشَّهَوَاتِ، وَ قَاطِعَ الْأُمْنِيَاتِ، عِنْدَ الْمُسَاوَرَةِ لِلْأَعْمَالِ الْقَبِيحَةِ، وَ ٱسْتَعِينُوا اللهَ عَلَىٰ أَدَاءِ وَاجِبِ حَقِّهِ، وَ مَا لاَ يُحْصَىٰ مِنْ أَعْدَادِ نِعَمِهِ، وَ إِحْسَانِهِ[٣].

اللُّغَة:

السَّفْر ـ بفتح السِّين وسكون الفاء ـ جَمع سَافِر أي مُسافر، كصَحْب جَمع صَاحِب. وأَمُّوا: قَصَدُوا. المُجْري: مِن أَجْرىٰ أي جَعله يَجْري. والحَثِيثُ: السَّريع، يُقَال: ولّىٰ حَثِيثاً أي مُسْرِعاً. والصَّرِيع: الطَّرِيح، يُقَال: صَرَعَهُ أي طَرَحَه علىٰ الأَرْض. وهَاذِمَ: قَاطِع. وَمُنَغِّصَ: مُكَدِّر. والمُسَاوَرَةِ: المُوَاثَبَة.

الإِعْرَاب:

كَمَا للإِسْتفهَام مُبْتَدأ، ومَا بعدها خَبَر، وعَسَىٰ من أَفعال المقَارَبَة، والمُجْرِي ٱسمها، والمَصْدَر من أَنْ يَجْرِيَ مجرور بمن حُذفت توسعاً عند سيبويه، والمجرور مُتعَلِّق بمَحْذُوف خَبَراً لِعَسَىٰ أي مُدركاً من الجَريان إِلَيْهَا[١]. ومَا عَسَىٰ «مَا» للإستفهام، ويَكُون تامة، والمَصْدَر المُنسبك مِنْهَا سَاد مَسد الاِسم، والخَبَر لِعَسَىٰ عند ٱبن مَالك، ولهُ خَبَر مُقدَّم، ويَوْم مُبْتَدأ مُؤَخَّر، والجُمْلَة صِلة المَوْصُول، ورَغْماً

(١) أنظر الكَلاَم عن عسىٰ في مغني ٱبن هشام.

قَائم مَقام الحَال أي فَارقها مُرغَماً، ولَكُمْ خَبَر لَيْسَ مُقدَّم، ومُزْدَجَرٌ آسمها مُؤَخَّر، وشَتَّىٰ صِفة لأَحْوَال.

الْمَعْنىٰ:

(نَحْمَدُهُ عَلَىٰ مَا كَانَ) وحدث مَحبوباً أَم مُكروهاً، والْحَمْدُ علىٰ المَكروه معناه الرّضا بالْقَضَاء، والصَّبر، أو التَّصبر علىٰ الْبَلاَء (وَ نَسْتَعِينُهُ مِنْ أَمْرِنَا عَلَىٰ مَا يَكُونُ). أَيضاً مَحبوباً أَم مُكروهاً، والاِستعانة بالله علىٰ المحبوب مَعناها طلب العَون علىٰ الصَّبر.

(وَ نَسْأَلُهُ الْمُعَافَاةَ فِي الْأَدْيَانِ). والْمُرَاد بِهَذِه السَّلامة في الْعَقِيدَة، والصِّدْق فِي الْأَقوَال، وَالْأَفعَال، والإِخْلاَص في المَقَاصد، والْأَهدَاف (كَمَا نَسْأَلُهُ الْمُعَافَاةَ فِي الْأَبْدَانِ) وَهِي نِعْمَة لا تُقدر إلّا عِند فقدها. وتجدر الْإِشَارَة إِلىٰ أنّه لا مَحيص عن البَلوىٰ في دَار الْبَلاَء، والفَناء، ومن جُمْلَة ما وصَفها الْإِمَام: «لَمْ يَكُنِ آمْرُؤٌ مِنْهَا فِي حَبْرَةٍ إِلاَّ أَعْقَبَتْهُ بَعْدَهَا عَبْرَةً، وَلَمْ يَلْقَ فِي سَرَّائِـهَا بَـطْناً إِلاَّ مَـنَحَتْهُ مِـنْ ضَرَّائِـهَا ظَهْراً»[1] ومَعْنَىٰ هَذَا أنّه لا مَنجاة من الآلاَم بحال... أجل، إنّ بَعْض الشّرّ أَهْوَن من بعضٍ. وَهَذَا هو مُراد الْإِمَامعليه السلام من دُعائه.

(عِبَادَ اللهِ، أُوصِيكُمْ بِالرَّفْضِ لِهَذِهِ الدُّنْيَا) أي لحرَامها، وآثامها، قَالَ سُبْحَانَهُ: ﴿وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ﴾[2]. وَقَالَ سُبْحَانَهُ: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ مَاذَآ أُحِلَّ لَهُمْ قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُ﴾[3]. وَقَالَ الْإِمَام لِمن لَبِسَ العَبَاءة وتَخلىٰ عن الدُّنْيَا:

---

(١) أنظر، نَهْج البَلاَغَة: ٱلْخُطْبَة (١١١).

(٢) ٱلْأَعْرَافِ: ١٥٧.

(٣) ٱلْمَائِدَةِ: ٤.

«يَا عُدَيَّ نَفْسِهِ لَقَدِ ٱسْتَهَامَ بِكَ الْخَبِيثُ، أَمَا رَحِمْتَ أَهْلَكَ، وَوَلَدَكَ أَتَرَىٰ اللهَ أَحَلَّ لَكَ الطَّيِّبَاتِ، وَهُوَ يَكْرَهُ أَنْ تَأْخُذَهَا، أَنْتَ أَهْوَنُ عَلَىٰ اللهِ مِنْ ذَلِكَ»[1]. (التَّارِكَةِ لَكُمْ وَ إِنْ لَمْ تُحِبُّوا تَرْكَهَا) وإنْ أوردتكم المَهالك، ومِن حِكَم الإِمَام: «النَّاسُ أَبْنَاءُ الدُّنْيَا، وَ لاَ يُلاَمُ الرَّجُلُ عَلَىٰ حُبِّ أُمِّهِ»[2].

(وَالْمُبْلِيَةِ لِأَجْسَامِكُمْ وَ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ تَجْدِيدَهَا) أي تحبون البَقاء في ٱلْحَيَاة الدُّنْيَا بحيث إِذَا أَبْلَىٰ الله مِنْكُم أَجْسَاماً بَدلَكُمْ أَجْسَاماً غَيْرها... وَهَذَا بَعيد المَنال في هَذِه الدّار، وهو واقع حَتماً في الْيَوْم الآخر، وفي جَهَنَّم بالذّات (فَإِنَّمَا مَثَلُكُمْ وَ مِثْلُهَا كَسَفْرٍ سَلَكُوا سَبِيلاً فَكَأَنَّهُمْ قَدْ قَطَعُوهُ، وَ أَمُّوا عَلَماً فَكَأَنَّهُمْ قَدْ بَلَغُوهُ). كلّ ما يَقع حَتماً في المُسْتَقْبَل القَريب، أو البَعيد فَهُوَ بِمَنْزِلَةِ الوَاقِع، والموجُود بالفِعْل، ونَحْنُ الأحياء لم نَقطع المَسافة إِلىٰ ٱلْمَوْت، ولم نَصل بَعدُ إِلىٰ هَذِه الْغَايَة، ولكنّا بِحُكم من قَطع، وبَلغ، لأنّا إِلىٰ ٱلْمَوْت لا مَحالَةَ، لذا شَبهنا الإِمَامعليه السلام بمن ٱنتهىٰ من سَفره ووصل إِلىٰ غَايته، ونِهايته.

(وَ كَمْ عَسَىٰ الْمُجْرِي إِلَىٰ الْغَايَةِ أَنْ يَجْرِيَ إِلَيْهَا حَتَّىٰ يَبْلُغَهَا). كُلنا يَسير إِلىٰ لِحدَه، أمّا أَمد هَذَا السَّير فَهُوَ الْعُمُر كلّه... وما أَقصر عُمر ٱلإِنْسَان، وإنْ عاش مئة عَام (وَ مَا عَسَىٰ أَنْ يَكُونَ بَقَاءُ مَنْ لَهُ يَوْمٌ لاَ يَعْدُوهُ). أَنْتَ باقٍ، ومُعمّر إِلىٰ أَجلٍ مَعدود، وإِذَنْ فما قِيمة هَذَا الْعُمُر ما دَام إِلىٰ زوالٍ، وفناء؟ أَللَّهُمَّ إلّا إذَا أَخذت فِيهِ من مَمَرّك إِلىٰ مَقَرّك (وَ طَالِبٌ حَثِيثٌ مِنَ الْمَوْتِ يَحْدُوهُ) ويُسرع بِهِ إِلىٰ الْحِسَاب،

---

(١) أُنظر، نَهج ٱلْبَلاَغَة: مِن كَلامٍ له عليه السلام في الْبَصْرَةِ وقد دخل علىٰ الْعَلاَء بن زياد الحارثي وهو من أصحابه، تحت رَقم (٢٠٩).

(٢) أُنظر، نَهج ٱلْبَلاَغَة: ٱلْحِكْمَةُ (٣٠٣).

والجَزَاء (وَ مُزْعِجٌ فِي الدُّنْيَا حَتَّىٰ يُفَارِقَهَا رَغْماً). ٱلحَيَاة الدُّنْيَا أَمدُها قَصير، ومَع ذَلِكَ نتركها علىٰ كُرهٍ، وقبل أنْ نبلغ مِنْهَا ما نَشتهي، ونُريد.

(فَلاَ تَنَافَسُوا فِي عِزِّ الدُّنْيَا، وَ فَخْرِهَا، وَ لاَ تَعْجَبُوا بِزِينَتِهَا، وَ نَعِيمِهَا). لا تتكالبوا، وتتناحروا علىٰ ٱلْمَال، والجَاه، وَلاَ تَبَاهَوْا، وَتَضَاهَوْا في شيء من حُطَام الدُّنْيَا، فالكلّ إِلىٰ زَوال.

(وَلاَ تَجْزَعُوا مِنْ ضَرَّائِهَا، وَ بُؤْسِهَا، فَإِنَّ عِزَّهَا، وَ فَخْرَهَا إِلَىٰ ٱنْقِطَاعٍ، وَ إِنَّ زِينَتَهَا، وَ نَعِيمَهَا إِلَىٰ زَوَالٍ، وَ ضَرَّاءَهَا، وَ بُؤْسَهَا إِلَىٰ نَفَادٍ، وَكُلُّ مُدَّةٍ فِيهَا إِلَىٰ ٱنْتِهَاءٍ، وَكُلُّ حَيٍّ فِيهَا إِلَىٰ فَنَاءٍ). لِمَاذَا يَكْرَه بعضنا بعضاً من أَجل الحُطَام، وتذهب أنْفسنا حَسَرَات إِذَا فاتنا شيء مِنْهُ، وقد أَدركنا، وأيْقنا تَمَاماً إِنّه ظِلٌ، وخَيَالٌ؟.. إنّ من يُؤْمِن بالله حقّاً، ويثقّ بِعْدلِه، وجَزَائَه، لا يَفْرَحُ، أَو يَحْزَن، وَلاَ يُحِبّ، أو يَكْرَه إِلاّ لله، وفي الله... إنّه يَعمل، ويَبذل غَايَة الجُهدكِي يَنجح في مُسْعَاه، ولَكِنَّهُ لا يتعدىٰ حُدُود الله بحال، لا يُنازع النَّاجحين، أو يَشْمَت بالفَاشلين (أَوَ لَيْسَ لَكُمْ فِي آثَارِ الْأَوَّلِينَ مُزْدَجَرٌ، وَ فِي آبَائِكُمُ الْمَاضِينَ تَبْصِرَةٌ، وَ مُعْتَبَرٌ، إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ! أَوَ لَمْ تَرَوْا إِلَىٰ الْمَاضِينَ مِنْكُمْ لاَ يَرْجِعُونَ، وَ إِلَىٰ الْخَلَفِ الْبَاقِينَ لاَ يَبْقَوْنَ). الْعَاقِل يَتّعظُ بغيره، وكلّ الدُّنْيَا بِمَا فيها عِظَات، فالسَّلف جَمع، وكَنز، ثُم ذهب إِلىٰ غَيْر رَجْعَة، والخَلَف يمضي علىٰ أَثره، وإِذَنْ فَعَلاَم الغُرُورُ؟ وبمن نَغتر؟ أبمن صَار تُراباً يُداس بالأَقْدَام، أو بِمن يُدَس غَداً، أو بَعد غَد في التُّراب؟.

(أَوَ لَسْتُمْ تَرَوْنَ أَهْلَ الدُّنْيَا يُصْبِحُونَ، وَ يُمْسُونَ عَلَىٰ أَحْوَالٍ شَتَّىٰ؟). لِلْإِنْسَان ميول كَثِيرة، ومتنوعة، وللحَيَاة الدُّنْيَا جِهات لا يُحصيها العَد، وكلّ واحد يَنظر إِلىٰ الدُّنْيَا من زَوايَتِه، وعَقيدَته، ورأي الإِمَام في الدُّنْيَا إِنَّهَا مَمرٌ لا مَقرٌ، وإِنّ ٱلإِنْسَان

فيها ضَيف إلىٰ أجلٍ، ثُم إلىٰ دار الخُلود، وإذَنْ فلا بِدع إذا قَاسَها الإِمَام بِمَا فيها من الآلاَم، والمتَاعِب، أمّا سُرُورُها، ونَعِيمُهَا فلَيْسَ بِشيء ما دام إلىٰ زَوال، ومعه الكَثِير من النَّكَباتِ، والمُفاجآت.

ومن هُنا يسوغ لقَائِل أنْ يَقُول: إنّ آراء الإِمَام في الدُّنْيَا كلّها ثَورية، ويَعتمد في ذَلِكَ علىٰ أَقْوَاله، ومِنْهَا (فَمَيِّتٌ يُبْكَىٰ) وهو لا يُسعد بَاكياً، وَلاَ يُجيب دَاعياً (وَ آخَرُ يُعَزَّىٰ) يفقد قَرِيب، أو حبيب (وَ صَرِيعٌ مُبْتَلىً) بالأَسْقَام، والآلاَم (وَ عَائِدٌ يَعُودُ) ويرىٰ المَشهد الحَزين الأليم (وَ آخَرُ بِنَفْسِهِ يَجُودُ) وَلاَ شيء أعزّ مِنْهَا عَلَيْهِ، ولو كَانَ له ملء الأَرْض ذهباً لا فتدىٰ به (وَ طَالِبٌ لِلدُّنْيَا وَ الْمَوْتُ يَطْلُبُهُ) وَلاَ مَهرب مِنْهُ (وَغَافِلٌ وَ لَيْسَ بِمَغْفُولٍ عَنْهُ) ونعوذ بالله أنْ يُقضىٰ علينا، ونَحْنُ في غفلة مُعرضون.

(وَ عَلَىٰ أَثَرِ الْمَاضِي مَا يَمْضِي الْبَاقِي). يتصل ما مضىٰ من آلام الدُّنْيَا بحاضره وحاضره بمُسْتَقْبَله، وعلىٰ الآلاَم يَدُور فلك الدُّنْيَا من يَوْمها الأَوَّل إلىٰ يَوْمِها الأخير، وما بَعْدَه أدهي، وأمرّ... أَللَّهُمَّ فَضْلك، وإحْسَانك.

(أَلاَ فَاذْكُرُوا هَاذِمَ اللَّذَّاتِ، وَ مُنَغِّصَ الشَّهَوَاتِ، وَ قَاطِعَ الْأُمْنِيَاتِ، عِنْدَ الْمُسَاوَرَةِ لِلْأَعْمَالِ الْقَبِيحَةِ، وَ اسْتَعِينُوا اللهَ عَلَىٰ أَدَاءِ وَاجِبِ حَقِّهِ، وَ مَا لاَ يُحْصَىٰ مِنْ أَعْدَادِ نِعَمِهِ، وَ إِحْسَانِهِ). أذكروا ٱلمَوْت الَّذي لا يُبقي، وَلاَ يذر، أذكروه حِين تَنزع أَنْفسكم، وتُحاول الوَثبَة إلىٰ الرّذائل، والقبائح، وآستعينوا بالله علىٰ كبحها، وآسألوه الهِدَايَة، وآلزموا طاعته قَوْلاً، وعَملاً، وآشكروه علىٰ نِعَمِهِ الَّتي لا تُحصىٰ، فَهُوَ وحَده الَّذي يَهْدِي، ويُعْطِي، ويُنْجِي.

الخطبة

ـ ١٠٠ ـ

رَايَةُ الْحَقِّ...فِقْرَة ١ ـ ٢:

الْحَمْدُ للهِ النَّاشِرِ فِي الْخَلْقِ فَضْلَهُ، وَ الْبَاسِطِ فِيهِمْ بِالْجُودِ يَدَهُ. نَحْمَدُهُ فِي جَمِيعِ أُمُورِهِ، وَ نَسْتَعِينُهُ عَلَىٰ رِعَايَةِ حُقُوقِهِ، وَ نَشْهَدُ أَنْ لاَ إِلَهَ غَيْرُهُ، وَ أَنَّ مُحَمَّداً عَبْدُهُ وَ رَسُولُهُ، أَرْسَلَهُ بِأَمْرِهِ صَادِعاً، وَبِذِكْرِهِ نَاطِقاً، فَأَدَّىٰ أَمِيناً، وَ مَضَىٰ رَشِيداً، وَ خَلَّفَ فِينَا رَايَةَ الْحَقِّ، مَنْ تَقَدَّمَهَا مَرَقَ، وَ مَنْ تَخَلَّفَ عَنْهَا زَهَقَ، وَ مَنْ لَزِمَهَا لَحِقَ، دَلِيلُهَا مَكِيثُ الْكَلاَمِ، بَطِيءُ الْقِيَامِ، سَرِيعٌ إِذَا قَامَ[1]. فَإِذَا أَنْتُمْ أَلَنْتُمْ لَهُ رِقَابَكُمْ، وَأَشَرْتُمْ إِلَيْهِ بِأَصَابِعِكُمْ، جَاءَهُ الْمَوْتُ فَذَهَبَ بِهِ، فَلَبِثْتُمْ بَعْدَهُ مَا شَاءَ اللهُ حَتَّىٰ يُطْلِعَ اللهُ لَكُمْ مَنْ يَجْمَعُكُمْ، وَ يَضُمُّ نَشْرَكُمْ. فَلاَ تَطْمَعُوا فِي غَيْرِ مُقْبِلٍ، وَ لاَ تَيْأَسُوا مِنْ مُدْبِرٍ، فَإِنَّ الْمُدْبِرَ عَسَىٰ أَنْ تَزِلَّ بِهِ إِحْدَىٰ قَائِمَتَيْهِ، وَ تَثْبُتَ الأُخْرَىٰ، فَتَرْجِعَا حَتَّىٰ تَثْبُتَا جَمِيعاً.

أَلاَ إِنَّ مَثَلَ آلِ مُحَمَّدٍ ﷺ، كَمَثَلِ نُجُومِ السَّمَاءِ: إِذَا خَوَىٰ نَجْمٌ طَلَعَ نَجْمٌ، فَكَأَنَّكُمْ قَدْ تَكَامَلَتْ مِنَ اللهِ فِيكُمُ الصَّنَائِعُ، وَ أَرَاكُمْ مَا كُنْتُمْ تَأْمُلُونَ[2].

اللُّغَة:

صَدَعَ بالأَمْر: مَضَىٰ فِيه، وبِالْحَقِّ: جَهَر بِهِ. ومَرَقَ: خَرَجَ من الدِّين. وزَهَقَ:

هَلَكَ. ومَكِيثُ: بَطِيء. وإِحْدَىٰ قَائِمَتَيْهِ: إِحْدَىٰ رِجْلَيه، وخَوَىٰ: غَابَ، ضد طَلَعَ. والصَّنَائِعُ: النِّعَمْ.

الإِعْرَاب:

فَضْلُهُ مَفْعُول للنَّاشِرِ، ويَدَهُ مَفْعُول للْبَاسِطِ، وأَنْ لاَ إِلَـهَ... إلخ «أَنْ» مُخَففة، وٱسمها ضَمِير الشّأن محْذُوف أي أنّه، والْمَصْدَر المُنسبك مجرور بالباء المَحْذُوفَة، ولاَ نَافية للجِنس، والخَبَر محْذُوف، وغَيْرُهُ صِفة أي لاَ إِلَهَ موجود غَيْرُهُ، وصَادِعاً حَال، ومِثْله نَاطِقاً، أَمِيناً، رَشِيداً. فَتَرْجِعَا منصوب بأَنْ مُضمرة بَعد الفاء.

الْمَعْنىٰ:

(نَحْمَدُهُ فِي جَمِيعِ أُمُورِهِ). نَطِيعَه تَعَالَىٰ شَاكِرِين، ونَنْقَاد إِلَيْهِ فِي كلّ شيء بلا ٱعتراض، لا نَطلب التَّعليلات، والمُبررات لثقتنا، ويقيننا بأنّه حَكيم لا يَعبث، ورَحيم بعِبَادِهِ لا يُريد لَهم إلّا الخَيْر، والصَّلاح (وَ نَسْتَعِينُهُ عَلَىٰ رِعَايَةِ حُقُوقِهِ) أي علىٰ جِهاد النَّفس، ومَرض الْقَلْب الَّذي يَصد عن طَاعَة الله، وٱلْعَمَل بأَمْرِه... إلخ. أَرسل سُبْحَانَهُ مُحَمّداً ﷺ فَبلّغ ٱلرِّسَالَة علىٰ وجهها، وحَرص علىٰ بلوغ الْغَايَة مِنْهَا، وتَحمل الكَثير من أَجْلها (وَ خَلَّفَ فِينَا رَايَةَ الْحَقِّ). وَهِي كتاب الله، وعِتْرَة نَبِيّه، روىٰ مُسْلِم: أنّ رَسُول الله ﷺ قَالَ: «وإِنّي تَارِكٌ فيكم ثَقَلَيْنِ، أَوّلُهما كتابُ الله فِيهِ الْهُدَىٰ، وٱلنُّورُ، فخُذُوا بكتابِ اللهِ، وٱستمسكوا به، فحثّ علىٰ كتاب الله، ورغّب فِيهِ ثمّ قَالَ: وأهلُ بيتي أُذكّركم اللهَ في أهلِ بيتي، أُذكّركم اللهَ في أهلِ بيتي،

أُذكّركم اللهَ في أَهْل بيتي)[١].

(مَنْ تَقَدَّمَهَا) أي رَايَة الحَقّ (مَرَقَ) خَرَجَ من الدِّين (وَ مَنْ تَخَلَّفَ عَنْهَا زَهَقَ) أي هَلَك (وَ مَنْ لَزِمَهَا لَحِقَ) برسول الله، وكَانَ معه في جَنَّة النَّعِيم (دَلِيلُهَا) أي دَلِيل رَايَة الحَقّ، ومُراد الإِمَام بِهِ نَفسه بالذَّات، لأنّ الحَقّ معه يَدُور كَيْفَما دَار بشهادة الرَّسُول الأَعْظَم ﷺ الّتي رواها كَثِيرُون، مِنْهُم التِّرمذي في صحيحه، بَاب فَضَائِل الإِمَام عليّ[٢]، وَقَالَ آبن الجوزي: «لا يَختلف ٱلعُلَماء فِي ذَلِكَ»[٣].

---

(١) أُنظر، صَحِيح مُسْلِم: ٢/ ١٠٩ طَبعَة ١٣٤٨هـ. (مِنْهُ ﷺ). وصَحِيح مُسْلِم: ٤/١٨٧٣ ح ٢٤٠٨، و: ٤/فَضَائِل عليّ ح ٣٦ و ٣٧، سُنَن الدّارمي: ٢/ ٨٩٠ ح ٣١٩٨، فرائد السّمطِين: ٢/ ٢٣٤، الدُّر المنثور: ٧/ ٢٤٩، السُّنَن الكُبْرَىٰ: ١٠/ ١٩٤ ح ٢٠٣٣٥، مُسْنَد أحمد بن حنبل: ١٧/٣ و: ٥/ ١٨١ و ٣٧١ و: ٧/ ٧٥ ح ١٩٢٨٥، تَهذِيب تَأريخ دِمَشْق: ٥/ ٤٣٩، وسُنَن التِّرمذي: ٥/بَاب ٣٢، وخَصَائِص النّسائي: ٥٠، وذَخَائِر العُقْبَىٰ للمحبّ الطَّبَرِيّ: ١٦، وتَذكِرة الخواصّ: الباب ١٢، وأُسد الغَابَة: ٢/ ١٢، وتَأريخ اليعقوبي: ٢/ ١٠٢، والمُسْتَدرَك علىٰ الصَّحِيحِين: ٣/ ١٠٩، الصَّواعِق المُحْرِقَة: ٢٥ المطبعة الميمنية بِمِصْر، وص: ٤١ المطبعة المُحَمَّدية بِمِصْر، ومَجْمَع الزّوائد: ٩/ ١٦٤، وتَأريخ دِمَشْق لِابْن عساكر: ٢/ ٤٥ ح ٥٤٥، وكنز العُمّال: ١/ ١٦٨ ح ٩٥٩ الطّبعة الأُولَىٰ، ويَنَابِيع المَوَدَّة: ٣٧ طبع إسلامبول...إلخ).

(٢) هكذا روي الحَدِيث: «الحَقّ مَع عليّ، وعليٌّ مَع الحَقّ لنْ يفترقا حَتَّىٰ يردا عليَّ الحوض». أُنظر، صَحِيح التِّرمِذي: ٥/٢٩٧ ح ٣٧٩٨ و: ١٢/١٢٦، وجامع التِّرمِذي: ٢/٢١٣، التَّفْسِير الكَبِير للفخر الرّازي: ١/٢٠٥، فيض القدير: ٦/٣٥٦، مَجْمَع الزّوائد: ٧/٢٣٥ و: ٩/١٣٤، تَأريخ بغداد: ١٤/ ٣٢١، الإِمَامَة وَالسِّيَاسَة: ١/ ٧٨، شرح الأَخْبَار للقاضي النُّعمان المغربي: ٢/٦٠، ربيع الأبرار للزّمخشري: ١/٨٢٨، فرائد السّمطِين: ١/ ١٧٧ ح ١٣٨، المناقِب لِابْن المغازلي: ١١٧ و ٢٤٤، والمُسْتَدرَك: ٣/ ١٩ و ١٢٤، العقد الفَرِيد: ٣/ ١٠٨ الطبعة الثّالثة، تَأريخ أبن عساكر ترجمة الإِمَام عليّ: ٣/١١٩ ح ١١٦٢ و: ٤٢/ ٤٤٩، كنز العُمّال: ١١/ ٦٠٣ ح ٣٢٩١٢، أَنْسَاب الأَشْرَاف: ٢/ ٢٨١ الطبعة الأُولَىٰ، فضل آل ٱلبَيْت للمَقْريزي: ٦٠، جواهر المطَالِب في مناقب الإِمَام عليّ لِابْن دِمَشْق: ١/ ٣٤٣، الملل والنّحل: ١/ ١٠٣.

(٣) أُنظر، صَيد الخَاطر: ٣٨٥. (مِنْهُ ﷺ).

(مَكِيثُ الْكَلاَمِ ، بَطِيءُ الْقِيَامِ ، سَرِيعٌ إِذَا قَامَ) . بَعْض النَّاس يُسرع إِلىٰ الكَلاَم لا لشيء إلّا لأنّه يجد فِيهِ لذّة ، وحَلاَوَة ، وإِنْ كَانَ لغواً ، وعبثاً ، وبعضهم يُبادر إِلىٰ الفِعْل بطيشٍ ، وحماقة ، أو بدافع الهَوَىٰ ، والغرض ، أمّا الإِمَام فإِنَّه لا يُفيض بقولٍ ، أو فعلٍ إلّا عن تَدبر ٱلْعَقْل ، ورَويّته ، وعن الدِّين ، وشرِيعَته ، فمتىٰ أَمر الدِّين ، وٱلْعَقْل أَقدم ، وأَسرع وإلّا أحجم ، وٱمتنع ، وَهَذَا هو شأن الأَئِمَّة الهُداة الَّذِين ٱختارهم سُبْحَانَهُ لأمره ، وحُججاً علىٰ عِبَادِه .

(فَإِذَا أَنْتُمْ أَلَنْتُمْ لَهُ رِقَابَكُمْ ، وَأَشَرْتُمْ إِلَيْهِ بِأَصَابِعِكُمْ) . ضَمير لَهُ وإِلَيْهِ يَعود إِلىٰ الإِمَام ، وقد أخبَر في قَوْله هَـذَا أنّ أَصْحَابِه الَّذِين يُخالفون الآن أَمْرَه سوف يَسلسون لهُ القِيَاد ، ويَسْتمعُون إِلَيْهِ ، ويَعْرِفُون مكَانته ، وعَظَمَته ـ طبعاً ما عَدا الأَشْعَث بن قَيْس ـ ولكن متىٰ بَلغوا من الرُّشد هَذَا المَبلغ (جَاءَهُ الْمَوْتُ فَذَهَبَ بِهِ) أي قَبض الله سُبْحَانَهُ الإِمَام إِلَيْهِ ، وتَرك أَصْحَابِه حَيارىٰ لا يَتهدُون إِلىٰ قَصد ، وٱتفق الرّواة علىٰ أنّ الإِمَام كَانَ لَديه قُبيل وفاته جيش من أَرْبَعِين ألفاً[1] يُطالبون

---

(١) كتب الإِمَام عليه السلام إِلىٰ عبدالله بن عباس رضي الله عنه :

أمّا بعد ، فإِنّا قد خرجنا إِلىٰ معسكرنا بِالنُّخيلَة ، وقد ٱجتمعنا علىٰ المسير إِلىٰ عدوّنا من أَهْل المغرب فٱشخص بالنّاس من أَهْل البَصْرَة . فقرأه ٱبن عبّاس علىٰ النّاس ، وندبهم علىٰ المسير مَع الأحنف بن قَيْس فشخصوا إِلىٰ عليّ عليه السلام في ثلاثة آلاف ومئتين .

أنظر ، تأريخ الطبري : ٤ / ٥٨ ، الإِمَامَة وَالسِّيَاسَة : ١ / ١٦٥ ، الأَخْبَار الطوال : ٢٠٨ ، ومروج الذهب : ٢ / ٤٤٩ .

وكتب عليّ عليه السلام إِلىٰ رئيس كلّ قَبِيلة من القبائل يستنفره بِمَا في عشيرته من المقاتلة ، وأبنائهم الّذين أدركوا وعبدانهم ، ومواليهم .

وجاءه سعد بن قَيْس الهَمْدانيّ وَقَالَ : يا أَمِير الْمُؤْمِنِينَ سمعاً وطاعة أنا أَوّل النّاس إجابةً .

↔

أُنظر، تَأْرِيخ الطبري: ٤/ ٥٨ ـ ٥٩ مَع زِيَادَة في الأَلْفَاظ، الإِمَامَة وَالسِّيَاسَة: ١/ ١٦٥.

وجاءه معقل بن قَيْس، وعديّ بن حاتم، وزياد بن خصفة، وحِجر بن عديّ، وأشراف الناس، والقبائل في أَرْبَعِين ألفاً من المقاتلة الرجّالة، وستة عشر أزلفاً من أبناء الموالي والعبيد.

أُنظر، تَأْرِيخ الطبري: ٤/ ٥٩ لكن بإضافة: وسبعة عشر ألفاً من الأَبْنَاء مِمَّنْ أدرك وثمانية آلاف من مواليهم، وعبيدهم... وأُنظر، الإِمَامَة وَالسِّيَاسَة أيضاً: ١/ ١٦٦.

وكتب إِلىٰ سعد بن مسعود الثَّقَفِيّ بالمدائن يأمُرَه بإرسال مَن معه من المقاتلة.

أُنظر، تَأْرِيخ الطبري: ٤/ ٥٩، واءنظر فِرق الشّيعة للنوبختي: ٢٤، والصحيح هو سعيد بن مسعود الثَّقَفِيّ من أصحاب أَمِير المُؤْمِنِينَ عليه السلام.

وبلغ عَلِيّاً عليه السلام أنّ الناس يقولون: لو سار بنا إِلىٰ قتال هَؤُلَاء الحَرُورِيَّة فبدأنا بِهِمْ فَإِذَا فرغنا وجّهنا إِلىٰ قتال المحِلّين.

أُنظر، تَأْرِيخ الطبري: ٤/ ٥٩، الكَامِل لِابْن الأَثِير: ٣/ ٣٤٣. وفي فَقَالَ لهم عليّ عليه السلام: بلغني أنّكم قلتم كيت وكيت وأنّ غَيْر هَؤُلَاء الخارجين أهمّ إلينا فدعوا ذكرهم وسيروا بنا إِلىٰ مُعَاوِيَة، وأَهْل الشّام أنْ لا يكونوا جبّارين في الأَرْضِ، وَلاَ يَتَّخِذُوا عباد الله خولاً. فتنادىٰ النّاس:

يا أَمِير المُؤْمِنِينَ، نَحْنُ حزبك، وأنصارك، وأتباعك نعادي مَن عاداك، ونوالي من والاك، ونتابع من أناب إِلىٰ طاعتك، مَن كَانُوا؟ وأين كَانُوا؟ سر بنا حَيْث شئت.

ذكر الطبري في تَأْرِيخه: ٤/ ٥٩ أنّ القَائِل هو صيفي بن فسيل الشيباني بإضافة: ونشايع من أناب إِلىٰ طاعتك فسر بنا إِلىٰ عَدُوّك من كَانُوا وأينما كَانُوا فإنّك إنْ شاء الله لنْ تؤتي من قلّة عدد، وَلاَ ضعف نية أتباع... ولصيفي هَذَا قِصَّة طريفة ـ تدلّ علىٰ قُوَّة إِيمَانه وحبّه للوِلاَيَة ـ مَع زياد ابن أبيه ذكرها الطبري في تَأْرِيخه: ٦/ ١٤٩، وابن الأَثِير: ٣/ ٢٠٤، والأَغَانِي: ١٦/ ٧، وابن عساكر: ٦/ ٤٥٩ وفيها بتصرّف.

أمر زياد فجيء به ـ يعني صيفي ـ إِلَيْهِ فَقَالَ له: يا عدوّ الله، ما تقول في أبي تُراب؟ قَالَ: ما أعرف أبا تراب، فَقَالَ: ما أعرفك به، قَالَ: ما أعرفه، قَالَ: أمَا تعرف عليّ بن أبي طالب؟ قَالَ: بلىٰ، قَالَ: فذاك. وبعد محاورة بَيْنَهما قَالَ: عليَّ بالعصا، فَقَالَ: ماقولك في عليّ؟ قَالَ: أحسن قَوْل أنا قائله في عبد من عُبَيْدالله أقوله في أَمِير المُؤْمِنِينَ، قَالَ: اضربوا عاتقه بالعصا حَتَّىٰ يلصق بالأَرْض، فضرب حَتَّىٰ ألصق بالأَرْض، ثُمّ قَالَ: اقلعوا عَنْه، فتركوه، فَقَالَ له: إيه! ما قولك في عليّ؟ قَالَ: والله لو شرطتني بالمواسي،

بصِفِّين ثَانِيَة، وإنّه في أُخريات أَيّامه كَانَ يَرتقب ٱلْمَوْت في لهفة، ويَقُول مُـردداً: «أنّ رَسُول الله ﷺ عهد إليَّ أنْ لا أَموْت حَتَّىٰ أُؤمر، وتخضب هَذِه مِـن دَم هَـذَا ـ وأشار إلىٰ لِحيته، ورَأْسه ـ قضاءً مَقضياً، وعَهداً مَعهوداً منهُ إليَّ»[1].

← والمُدي ما قلت إلّا ما سمعت منّي، قَالَ: لتلعننه، أو لأضربنّ عنقك، قَالَ: إذاً والله تضربها قبل ذَلِكَ، فأسعد، وتشقىٰ، قَالَ: أدفعوا في رقبته ثمّ قَالَ: أو قرّوه حديداً، وأطرحوه في السّجن، ثمّ قتل مَع حِجر، رحمهما الله تَعَالىٰ.

وذكر الطبري أيضاً في: ٤ / ٥٩ مايلي: وقام إِلَيْهِ محرز بن شهاب التّميمي من بَني سعد فَقَالَ: يا أَمير ٱلْمُؤمِنِينَ شيعتك كقلب رجل واحد في الإِجْماع علىٰ نصرتك والجدّ في جهاد عَدُوّك فأبشر بالنصر وسر بنا إلىٰ أيّ الفريقين أحببت، فإنّا شيعتك الّذين نرجو في طاعتك وجهاد من خالفك صالح الثّواب، ونخاف في خذلانك، والتّخلّف منك شدة الوبال.

(١) هَذَا الْحَدِيث ورد بأَلفَاظ متعدّدة، وبطرق أيضاً متعدّدة عن أبي فضاله، وغَـيْره كـما جـاء في البـداية والنِّهَايَة: ٦ / ٢١٨، و: ٧ / ٣٥٨، ورواه الطبراني، وَقَالَ الهيثمي: إسناده حَسن كما جاء في مَجْمَع الزّوائد: ٩ / ١٣٧، والْحَـاكِم في الْمُسْتَدرَك وصحيحه: ٣ / ١١٣ و ١٤٣، ورواه ٱلْفَتْح الربّاني: ٢٣ / ١٦٣، وكنز الْعُمّال: ١١ / ٢٩٧، وذَخَائِر الْعُقْبَىٰ: ١١٥، والصَّوَاعِق الْمُحْرِقَة: ١٢١ ب ٩ فصل ٢. وفي المَناقِب لإبْـن شهر آشوب: ٣ / ١١١ الرّواية عن عمّار أيضاً بلفظ: أتعلم من أشقىٰ النّاس ؟ أشقىٰ النّاس اثنان: أُحيمر ثمود الّذي عقر النّاقة، وأشقاها الّذي يخضّب هَذِه وَوَضع يده علىٰ لحيته. والمَناقِب لإبْن المغازلي: ٨ ح ٥، يَنَابِيع المَوَدَّة: ٢ / ٣٩٦ ط أُسوة، تَأرِيخ دِمَشْق: ٣ / ٢٧٨ ح ١٣٦٤ و ١٣٦٥ لتجدن نفس الْحَدِيث مَع اختلاف يسير في اللّفظ، وكَذَلِكَ في فرائد السّمطين: ١ / ٣٩٠ / ٣٢٧، المَناقِب للـخوَارزمـي: ٣٨٠ ح ٤٠٠، مُسْنَد أحمد: ٤ / ٢٦٣، ابن كَثِير في تَأرِيخه: ٣ / ٢٤٧، الطبري في تَأرِيخه: ٢ / ٢٦١، السِّيرَة لإبْن هشام: ٢ / ٢٣٦، عمدة القاري للعيني: ٧ / ٦٣٠، طَبقَات ابن سعد: ٥٠٩، عـيون الأثـر لإبْـن سـيّد النّاس: ١ / ٢٢٦، الإِمْتاع للمَقْريزي: ٥٥، السِّيرَة الحَلبية: ٢ / ١٤٢، تَأرِيخ الخميس: ٢ / ٣٦٤.

وَقَالَ الهيثمي: رواه أحمد، والبزار، ورجاله ثقات أنه ﷺ قَـالَ لعـليّ: ألا أُحـدثك بأشـقىٰ النّـاس رجلين: أُحيمر ثمود الّذي عقر النّاقة، والّذي يضربك يا عليّ علىٰ هَذِه (يعني رَأْسه) حَتَّىٰ تبتلّ منه هَذِه (يعني لحيته) وَقَالَ ﷺ له: إنّ الأُمّة ستغدر بك بعدي... وإنّ هَذِه ستخضّب من هَذَا (يعني لحـيته مـن ←

(فَلَبِثْتُمْ بَعْدَهُ ـ أي بَعْدَ الْإِمَام ـ مَا شَاءَ اللهُ حَتَّىٰ يُطْلِعَ اللهُ لَكُمْ مَنْ يَجْمَعُكُمْ ، وَيَضُمُّ نَشْرَكُمْ). قيل: هَٰذِهِ إِشَارَةٌ إِلَىٰ دولة بَنِي الْعَبَّاس. وقيل: إِلَىٰ الْمَهْدِيِّ الْمُنْتَظَرْ ... ولَيْسَ من الضّرورة أنْ يَكُون الْمُرَاد بجمع الشّمل هُنا الجَمع سِيَاسِياً، أو عسكرياً حَتَّىٰ نضطر إِلَىٰ التَّفْسِير بالمَهْدِيّ المُنْتَظَرْ، أو بدولة العَبّاسِيين... فمن الجائز أنْ يَكُون الْمُرَاد الجَمع علىٰ الْحَقّ، والْوِلاَيَة، وقد حدث ذَٰلِكَ بالفِعْل في عَهد الصَّادِقَين: الْإِمَام مُحَمّد البَاقِر، وولده الْإِمَام جَعْفَر الصّادق عليهما السلام. ويرجع هَٰذَا قَوْلُ الْإِمَام في هَٰذِهِ اَلْخُطْبَةُ: (إِنَّ مَثَلَ آلِ مُحَمَّدٍ صلى الله عليه وآله، كَمَثَلِ نُجُومِ السَّمَاءِ). وقَوْله: (وَ أَرَاكُمْ مَا كُنْتُمْ تَأْمُلُونَ) أي من العَودة إِلَىٰ آلِ بَيْت الْأَطْهَار، والأرتواء من فيضهم، وعلومهم.

(فَلاَ تَطْمَعُوا فِي غَيْرِ مُقْبِلٍ). لا تَطْمَعُوا أنْ يحكمكم بَعدي مَن هو مِثلي، فإنّ هَٰذَا

⇐ رَأسه). وعن أبي سنان أنّه عاد عَلِيّاً في شكوىٰ أشتكاها فَقَالَ لعليّ: لقد تخوّفنا عَلَيْكَ في شَكْوَاك هَٰذِهِ. فَقَالَ: ما تخوّفت علىٰ نفسي، عَهد إِليَّ أنْ لا أموت حَتَّىٰ تخضب هَٰذِهِ من هَٰذِهِ. رواه الطبراني، وَقَالَ الهيتمي: إسناده حسَن: ٩ / ١٣٧، والحَاكِم صحّحه: ٣ / ١١٣، وفرائد السّمطِين: ١ / ٣٨٧ ح ٣٢٠.

وروي أنّ رجلاً من الْخَوَارِج يُقَال له الجعد بن بعجة قَالَ لعليّ: أتق الله يا عليّ فإنّك مَيّت، فَقَالَ: بل مقتول، ضربة علىٰ هَٰذَا تخضّب هَٰذِهِ، عهد معهود، وقضاء مقضي وقد خاب من أفترىٰ.

وعن عليّ عليه السلام مرفوعاً: يا عليّ أتدري من أشقىٰ الْأَوَّلِين؟ قلت: الله ورَسُوله أعلم، قَالَ: عاقر النّاقة، قَالَ: أتدري من أشقىٰ الآخرين؟ قلت: الله ورَسُوله أعلم، قَالَ: الَّذي يضربك علىٰ هَٰذِهِ ـ وأشار إِلَىٰ رَأْسه ـ فتبتلّ مِنْهَا هَٰذِهِ ـ وأخذ بلحيته ـ. أخرجه أحمد في المنَاقِب، وأبن الضّحَّاك كما جاء في ذَخَائِر الْعُقْبَىٰ: ١١٥، ويَنَابِيع المَوَدَّة: ٢ / ١٩٩ ط أسوة.

وجاء في الصَّوَاعِق: قَالَ أبو الأسود: فما رَأَيْت كاليوم قطّ مُحارباً يخبر بذا عن نَفْسِه.

وفي اليَنَابِيع: فما رَأَيْت أحداً قطّ يخبر عن قتل نَفْسه غَيْر عليّ. أنظر، تَأْرِيخ دِمَشْق: ٣ / ٢٧٣ ح ١٣٥٤.

بعيد المَنال (وَ لاَ تَيْأَسُوا مِنْ مُدْبِرٍ) لاَ تَيْأَسُوا من هدايتنا نَحْنُ أَهْل ٱلْبَيْت... فَإِذَا لَم تجدوا بعدي من آل الرَّسُول من يَملك الحُكْم، والأَمْر سِيَاسِياً فإنّكم واجدون مِنْهُم أئمّة يَهدون بِالحَقِّ، وبه يَعدلون، فٱلزموهم، وٱنقادوا لأَمرهم (فَإِنَّ الْمُدْبِرَ عَسَىٰ أَنْ تَزِلَّ بِهِ إِحْدَىٰ قَائِمَتَيْهِ، وَ تَثْبُتَ الأُخْرَىٰ، فَتَرْجِعَا) أَشار بالقَائِمَتَيْن إِلىٰ السُّلطَة الدِّينيّة، والسُّلطة الزَّمنيّة، وإِنّه إِذَا ذَهبت هَذِه بوفَاة الإِمَام عليه السلام، تَبقَىٰ تِلْكَ بِبقَاء أَبنَائه، وعلىٰ طُول الأَمَد تَعود السُّلطة السّياسِية أَيضاً، وتَنضم إِلىٰ السّلطة الدِّينيّة (حَتَّىٰ تَثْبُتَا جَمِيعاً). وقد حثّ الإِمَام علىٰ مُتابعة أَهْل ٱلْبَيْت في هَذِه ٱلخُطْبَة وغَيْرها مِمَّا سَبق، ويَأْتِي.

الخطبة

-١٠١-

كُلّهُ عَنِ النَّبِيّ ﷺ...فِقْرَة ١ ـ ٢:

الْحَمْدُ للهِ الْأَوَّلِ قَبْلَ كُلِّ أَوَّلٍ، وَ الآخِرِ بَعْدَ كُلِّ آخِرٍ، وَ بِأَوَّلِيَّتِهِ وَجَبَ أَنْ لاَ أَوَّلَ لَهُ، وَ بِآخِرِيَّتِهِ وَجَبَ أَنْ لاَ آخِرَ لَهُ، وَ أَشْهَدُ أَنْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللهُ شَهَادَةً يُوَافِقُ فِيهَا السِّرُّ الْإِعْلاَنَ، وَ الْقَلْبُ اللِّسَانَ.

أَيُّهَا النَّاسُ، لاَ يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِي، وَ لاَ يَسْتَهْوِيَنَّكُمْ عِصْيَانِي، وَ لاَ تَتَرَامَوْا بِالْأَبْصَارِ عِنْدَ مَا تَسْمَعُونَهُ مِنِّي. فَوَالَّذِي فَلَقَ الْحَبَّةَ، وَ بَرَأَ النَّسَمَةَ، إِنَّ الَّذِي أُنَبِّئُكُمْ بِهِ عَنِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ ﷺ، مَا كَذَبَ الْمُبَلِّغُ، وَ لاَ جَهِلَ السَّامِعُ(١). لَكَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَى ضِلِّيلٍ قَدْ نَعَقَ بِالشَّامِ، وَ فَحَصَ بِرَايَاتِهِ فِي ضَوَاحِي كُوفَانَ. فَإِذَا فَغَرَتْ فَاغِرَتُهُ، وَ اشْتَدَّتْ شَكِيمَتُهُ، وَ ثَقُلَتْ فِي الْأَرْضِ وَطْأَتُهُ. عَضَّتِ الْفِتْنَةُ أَبْنَاءَهَا بِأَنْيَابِهَا، وَ مَاجَتِ الْحَرْبُ بِأَمْوَاجِهَا، وَ بَدَا مِنَ الْأَيَّامِ كُلُوحُهَا، وَ مِنَ اللَّيَالِي كُدُوحُهَا، فَإِذَا أَيْنَعَ زَرْعُهُ، وَ قَامَ عَلَى يَنْعِهِ، وَ هَدَرَتْ شَقَاشِقُهُ، وَ بَرَقَتْ بَوَارِقُهُ، عُقِدَتْ رَايَاتُ الْفِتَنِ الْمُعْضِلَةِ، وَ أَقْبَلْنَ كَاللَّيْلِ الْمُظْلِمِ، وَالْبَحْرِ الْمُلْتَطِمِ. هَذَا، وَكَمْ يَخْرِقُ الْكُوفَةَ مِنْ قَاصِفٍ، وَ يَمُرُّ عَلَيْهَا مِنْ عَاصِفٍ! وَ عَنْ قَلِيلٍ تَلْتَفُّ الْقُرُونُ بِالْقُرُونِ، وَ يُحْصَدُ الْقَائِمُ، وَ يُحْطَمُ الْمَحْصُودُ(٢)!

اللُّغَة:

لاَ يَجْرِمَنَّكُمْ: لا يَحْمِلَنَّكُمْ أو لا يَبْعَثَنَّكُمْ. وشِقَاقِي: مُخَالفَتِي. وَقَالَ الشَّيخ مُحَمَّد عَبْدَه: أي لا تُشاقُونِي فَيَكْسبكُمْ الشُّقاق خُسراناً[1]، وهو جَيد. لاَ تَتَرَامَوْا بِالْأَبْصَارِ: لا يَنظر بَعْضكُمْ إِلىٰ بعضٍ، وضِلِّيلٍ مُبالغة في الضّلال، والإضّلال. وكُوفَانَ: الْكُوفَة. وفَغَرَ فَاه: فَتحَهُ. والْمُرَاد بفَاغِرَتُهُ فَمَهَ، أو فَتْنَته. والْمُرَاد بالشَكِيمَة هُنا آلبَأس. والكُلُوحُ: العُبُوس. والكُدُوحُ: الخُدُوش. وأَيْنَعَ: نَضَجَ. ويَنْعِهِ: نَضْجِهِ. وشَقْشَق الجَمَل: هَدَرَ، والطَّيْر: صَوَّتَ.

الإِعْرَاب:

الْأَوَّل صِفة الله، وأَنْ لاَ «أَنْ» مُخففة وآسمها مَحْذُوف أي أنّه، وعَنِ النَّبِيِّ مُتَعَلِّق بمَحْذُوف خَبَراً لمُبْتَدَأ مَحْذُوف أي هو نَبأ عَن النَّبِيِّ، وكَمْ خَبَرِية، ومحلّها الرَّفع بالاِبْتِدَاء، وجُمْلَة يَخْرِقُ خَبَر، ومِنْ قَاصِفٍ تَمْيِيز لَكُم أي كَمْ مِنْ قَاصِفٍ يَخْرِقُ.

الْمَعْنىٰ:

(الْحَمْدُ للهِ الْأَوَّلِ قَبْلَ كُلِّ أَوَّلٍ) أي بِلا بِدَاية (وَ الآخِرِ بَعْدَ كُلِّ آخِرٍ) أي بِلا نِهَاية، وتَقَدَّم هَذَا مَرَّات، وهو في خُطب الإِمَام أَشبه بالبَسْمَلة في سور آلْقُرْآن (وَ بِأَوَّلِيَّتِهِ) أي بوجُودِه الذَّاتي يُفيض الكلّ مِنْهُ، وينبع (وَجَبَ) أَنْ يَكُون الْأَوَّل بلا أَوَّلٍ كَانَ قَبله (بِآخِرِيَّتِهِ) أي بدوَامِه، وأبديَته (وَجَبَ) أَنْ يَكُون الآخِرِ بلا آخِرٍ يَكُون بَعْدَه،

(١) أُنظر، شَرح النَّهج: ١٩٤/١.

والكلّ إلَيْهِ يعود... وبكَلِمَة هو القَديم أزلاً، والدَّائم أبَداً. (وَ أَشْهَدُ أَنْ لاَ إِلَهَ) مَوجود بحَقٍ، وفي غنىً عن غَيْره في وُجُودِه، وبقائه (إِلاَّ اللهُ شَهَادَةً يُوَافِقُ فِيهَا السِّرُّ الإِعْلاَنَ، وَ الْقَلْبُ اللِّسَانَ) أي نوحده تَوحيداً خَالِصاً من كلّ شَائبة. وَقَالَ موحد معاصر: «لو أَصْبَحت كَلِمَة التَّوْحِيدِ دُستور الحَيَاة لكَانَتْ كفيلة بتغيير هَذِه الحَيَاة إلىٰ نَهج أَشْرف، وأَجْمل، وأَصدق» أي لو عَمل النَّاس بمقْتَضيَات هَذِه الكَلِمَة وتوجِيهَاتها لسَيطَر بَيْنَهمْ الْعَدْل، وعَاشوا في سَلامٍ، وهَناء. وفي الحَدِيث: «خَير ما جِئتُ بِه أنا، والنَّبِيُّونَ من قَبلي كَلِمَة لا إله إلّا الله»[1].

(أَيُّهَا النَّاسُ، لاٰ يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِي، وَ لاَ يَسْتَهْوِيَنَّكُمْ عِصْيَانِي، وَ لاَ تَتَرَامَوْا بِالْأَبْصَارِ عِنْدَ مَا تَسْمَعُونَهُ مِنِّي). كَانَ في صَحابة النَّبِيّ ﷺ جَمَاعَة مَردوا علىٰ النِّفَاق، وكَانَ علىٰ رأسهم عبدالله بن أُبَيّ، وأيضاً كَانَ في أَصْحَاب الإِمَام عليه السلام مُنافقون، ورأسهم الأَشْعَث بن قَيْس، يُثير الْفِتْنَة كُلّما سَنحَت الفُرْصَة، وَقَالَ أَربَاب السِّير، والتَّأرِيخ: كَانَ الأَشْعَث لِعليّ كما كَانَ ابن أُبي للنَّبِيّ، وكَانَ الإِمَام إذَا أخبَرَ بشيء من المُغيبات تغَامز المُنَافِقُون، وتَبادلوا الهَمْسات، والهَمهمات فَصرخ الإِمَام فِيهِمْ يوبخهم، ويقُول: «لا تحملنَّكُم عَداوَتِي علىٰ التَّكذِيب فيما أُخبر»[2] (فَوَالَّذِي فَلَقَ الْحَبَّةَ، وَ بَرَأَ النَّسَمَةَ، إِنَّ الَّذِي أُنَبِّئُكُمْ بِهِ عَنِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ ﷺ، مَاكَذَبَ

(١) أُنظر، شرح نَهج البَلاغَة للمعتزلي: ١٩٠/٦، البحر الرّائق: ٥٩٢/٢، كتاب الموطأ: ٢١٥/١ ح ٣٢، إعانة الطّالبين: ١٩/١، فتح العزيز لعبدالكَريم الرّافعي: ٣٥٩/٧، المجموع: ٩٤/٨.

(٢) قَالَ ابن أبي الحَديد في شَرح نَهج البَلاغَة: ٩٦/٧ ـ ١٠٠ في الكَلاَم مَحذُوف، وتقديره لا يَجْرمَنَّكُمْ شِقَاقِي علىٰ أنْ تكذبوني، والمَفعُول فضله، وحذفه كَثِير، وَهَذَا مأخوذ من الآيَة الكريمة: ﴿وَيَـٰقَوْمِ لَايَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِىٓ أَن يُصِيبَكُم مِّثْلُ مَآ أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَـٰلِحٍ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِّنكُم بِبَعِيدٍ﴾. هُودٍ: ٩٨. وأُنظر، شرح النهج لمحمد عَبْدَه: ١٩٤/١، وشرح النهج للبحراني: ٩/٣.

الْمُبَلِّغُ، وَ لاَ جَهِلَ السَّامِعُ). إنّ كلّ ما أُخبرت بهِ هو وَحي من الله إلىٰ نَبيّه ٱلْكَرِيمِ، والنَّبِيّ قد خَصني بعلمِه، ولَوْلاَه ما عَلمت مِنهُ شَيْئاً، فهل كذَّب النَّبِيّ علىٰ ربّه، وقد وصفَه بقَوْله: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ﴾[1]، أو أنّي جهلت ما سمعت من النَّبِيّ، وأَخطأت فيما نقلت عَنْه؟ قاتلكم الله أَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ.

(لَكَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَىٰ ضِلِّيلٍ) يَعم، ويشمل هَذَا الْوَصْف كلّ مَن (نَعَقَ بِالشَّامِ، وَ فَحَصَ بِرَايَاتِهِ ـ أي نصبها ـ فِي ضَوَاحِي كُوفَانَ) كَمُعَاوِيَة بن أبِي سُفْيَانَ، وعبدالملك بن مَرْوَان حَيْث سَيطر كلّ مِنْهُمَا علىٰ الْعِرَاق، واستبد بأَهْل الْكُوفَة، وفعل بشيعة الْإِمَام الأفاعيل، وفصلنا ذَلِكَ في كتابنا[2].

(فَإِذَا فَغَرَتْ فَاغِرَتُهُ). فتح فَاه يَبرق، ويرعد، ويُهدد، ويُزمجر (وَ ٱشْتَدَّتْ شَكِيمَتُهُ) قوي علىٰ البَطش، والافتراس (وَ ثَقُلَتْ فِي الْأَرْضِ وَطْأَتُهُ) أي ضَجت من عُنفهِ، وجبروته، إِذَا كَانَ ذَلِكَ (عَضَّتِ الْفِتْنَةُ أَبْنَاءَهَا بِأَنْيَابِهَا) وطحنتهم طَحن الرّحا (وَ مَاجَتِ الْحَرْبُ بِأَمْوَاجِهَا) فأغرقت البلاد بالدِّمَاء لا ترحم كبيراً، أو صغيراً.

(وَ بَدَا مِنَ الْأَيَّامِ كُلُوحُهَا، وَ مِنَ اللَّيَالِي كُدُوحُهَا). كنايَة عمّا يُصيب النّاس من المظالم، والأهوال، وما يَحل بالبلاد من الخَراب، والدّمار (فَإِذَا أَيْنَعَ زَرْعُهُ، وَ قَامَ عَلَىٰ يَنْعِهِ، وَ هَدَرَتْ شَقَاشِقُهُ، وَ بَرَقَتْ بَوَارِقُهُ، عُقِدَتْ رَايَاتُ الْفِتَنِ الْمُعْضِلَةِ، وَ أَقْبَلْنَ كَاللَّيْلِ الْمُظْلِمِ، وَالْبَحْرِ الْمُلْتَطِمِ. هَذَا، وَكَمْ يَخْرِقُ الْكُوفَةَ مِنْ قَاصِفٍ) أي أنّ

---

(١) النّجم: ٣ ـ ٥.

(٢) أنظر، كتابه «الشّيعَة والحَاكِمون». (مِنهُ ﷺ).

الحَاكِم الجَائِر متىٰ آستتب له النفوذ، والسُّلْطَان أَطلق العنان لأهوائه، وتمادىٰ في الْبَغْي، والضّلال، وحوّل جَمِيع طاقاته إلىٰ الفتك، والبطش (وَ عَنْ قَلِيلٍ تَلْتَفُّ الْقُرُونُ بِالْقُرُونِ) ينشب الْقِتَال الرّهيب بَيْنَ الفُرسان بِالْأَيْدِيَ، والسّلاَح الأبيض تَمَاماً كما تتناطح الأكباش بالقُرُون (وَ يُحْصَدُ الْقَائِمُ، وَ يُحْطَمُ الْمَحْصُودُ). تُدمر الْفِتْنَة البناء القائم، وتجعله أَثراً بعد عَين، وتمحو آثَار الْأَوَّلِين من الْوُجُود، وإنْ شئت فعبّر: لا ترحم شَيخاً، وَلاَ شَاباً، وَلاَ تَدع رَطْباً، وَلا يَابِساً.

الْمُبَلِّغُ، وَ لاَ جَهِلَ السَّامِعُ). إنّ كلّ ما أُخبرت بِهِ هو وَحي من الله إِلىٰ نَبِيِّه ٱلْكَرِيمِ، والنَّبِيّ قد خَصني بعلمِه، ولَوْلاَه ما عَلمت مِنْهُ شَيْئاً. فهل كذَّب النَّبِيّ علىٰ ربّه، وقد وصفَه بقَوْله: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ﴾[1]، أو أنّي جهلت ما سمعت من النَّبِيّ، وأَخطأت فيما نقلت عَنْه؟ قاتلكم الله أَنَّىٰ تُؤْفكُونَ.

(لَكَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَىٰ ضِلِّيلٍ) يَعم، ويشمل هَذَا الْوَصْف كلّ مَن (نَعَقَ بِالشَّامِ، وَ فَحَصَ بِرَايَاتِهِ ـ أي نصبها ـ فِي ضَوَاحِي كُوفَانَ) كمُعَاوِيَة بن أبي سُفْيَانَ، وعبدالملك بن مَرْوَانَ حَيْث سَيطر كلّ مِنْهُمَا علىٰ الْعِرَاق، وٱستبد بأَهْل الْكُوفَة، وفعل بشيعة الْإِمَام الأفاعيل، وفصلنا ذَلِكَ في كتابنا[2].

(فَإِذَا فَغَرَتْ فَاغِرَتُهُ). فَتح فَاه يَبرق، ويرعد، ويُهدد، ويُزمجر (وَ ٱشْتَدَّتْ شَكِيمَتُهُ) قوي علىٰ البَطش، والاِفتراس (وَ ثَقُلَتْ فِي الْأَرْضِ وَطْأَتُهُ) أي ضَجت من عُنفِهِ، وجبروته، إِذَا كَانَ ذَلِكَ (عَضَّتِ الْفِتْنَةُ أَبْنَاءَهَا بِأَنْيَابِهَا) وطحنتهم طَحن الرّحا (وَ مَاجَتِ الْحَرْبُ بِأَمْوَاجِهَا) فأغرقت البلاد بالدِّمَاء لا ترحم كبيراً، أو صغيراً.

(وَ بَدَا مِنَ الْأَيَّامِ كُلُوحُهَا، وَ مِنَ اللَّيَالِي كُدُوحُهَا). كناية عمّا يُصيب النّاس من المظالم، والأهوال، وما يَحل بالبلاد من الخَراب، والدّمار (فَإِذَا أَيْنَعَ زَرْعُهُ، وَ قَامَ عَلَىٰ يَنْعِهِ، وَ هَدَرَتْ شَقَاشِقُهُ، وَ بَرَقَتْ بَوَارِقُهُ، عُقِدَتْ رَايَاتُ الْفِتَنِ الْمُعْضِلَةِ، وَ أَقْبَلْنَ كَاللَّيْلِ الْمُظْلِمِ، وَالْبَحْرِ الْمُلْتَطِمِ. هَذَا، وَكَمْ يَخْرِقُ الْكُوفَةَ مِنْ قَاصِفٍ) أي أنّ

(١) النّجم: ٣ ـ ٥.

(٢) أنظر، كتابه «الشّيعة والحاكِمُون». (مِنْهُ ﷺ).

الْحَاكِم الجَائِر متىٰ آستتب له النفوذ، والسُّلْطَان أَطلق العنان لأهوائه، وتمادىٰ في الْبَغْي، والضّلال، وحوّل جَمِيع طاقاته إِلىٰ الفتك، والبطش (وَعَـنْ قَـلِيلٍ تَـلْتَفُّ الْقُرُونُ بِالْقُرُونِ) ينشب الْقِتَال الرّهيب بَيْنَ الفُرسان بِالْأَيْدِيَ، والسّلاَح الأبيض تَمَاماً كما تتنَاطح الأكباش بـالقُرُون (وَ يُحْصَدُ الْقَائِمُ، وَ يُحْطَمُ الْمَحْصُودُ). تُـدمر الْفِتْنَة البناء القائم، وتجعله أَثراً بعد عَين، وتمحو آثَار الْأَوَّلِين مـن الْـوُجُود، وإِنْ شئت فعبّر: لا ترحم شَيخَاً، وَلاَ شَاباً، وَلاَ تَدع رَطْباً، وَلا يَابِساً.

الخطبة

-١٠٢-

نِقَاشِ الْحِسَابِ، وَ جَزَاءِ الأَعْمَالِ:

وَ ذَلِكَ يَوْمٌ يَجْمَعُ اللهُ فِيهِ الأَوَّلِينَ، وَ الآخِرِينَ لِنِقَاشِ الْحِسَابِ، وَ جَزَاءِ الأَعْمَالِ خُضُوعاً، قِيَاماً قَدْ أَلْجَمَهُمُ الْعَرَقُ، وَ رَجَفَتْ بِهِمُ الأَرْضُ، فَأَحْسَنُهُمْ حَالاً مَنْ وَجَدَ لِقَدَمَيْهِ مَوْضِعاً، وَ لِنَفْسِهِ مُتَّسَعاً.

فِتَنٌ كَقِطَعِ اللَّيْلِ الْمُظْلِمِ، لاَ تَقُومُ لَهَا قَائِمَةٌ، وَ لاَ تُرَدُّ لَهَا رَايَةٌ، تَأْتِيكُمْ مَزْمُومَةً مَرْحُولَةً: يَحْفِزُهَا قَائِدُهَا، وَ يَجْهَدُهَا رَاكِبُهَا، أَهْلُهَا قَوْمٌ شَدِيدٌ كَلَبُهُمْ. قَلِيلٌ سَلَبُهُمْ، يُجَاهِدُهُمْ فِي سَبِيلِ اللهِ قَوْمٌ أَذِلَّةٌ عِنْدَ الْمُتَكَبِّرِينَ، فِي الأَرْضِ مَجْهُولُونَ، وَ فِي السَّمَاءِ مَعْرُوفُونَ. فَوَيْلٌ لَكِ يَا بَصْرَةُ عِنْدَ ذَلِكِ، مِنْ جَيْشٍ مِنْ نِقَمِ اللهِ! لاَ رَهَجَ لَهُ، وَ لاَ حَسَّ، وَ سَيُبْتَلَى أَهْلُكِ بِالْمَوْتِ الأَحْمَرِ، وَ الْجُوعِ الأَغْبَرِ!

اللُّغَة:

نَاقَشَه الْحِسَابَ: اسْتَقصىٰ فِي حِسَابه. وقَائِمَةُ السَّيْف: مِقْبَضَه، والدَّابَة: رِجْلهَا، أو يَدِها، والْمُرَاد بها هُنا أنّه لا أَحد يَثبت لِتِلْكَ الْفِتَن. ومَـزْمُومَةٌ: مَـعَهَا زِمَـامُها.

ومَرْحُولَةً: عَلَيْهَا رَحْلهَا، وهو ما يُجعل علىٰ ظَهر البَعِير. ويَحْفِزُهَا: يَحُثُّهَا، وَيَسُوقُهَا. وَيَجْهَدُهَا: يَحمل عَلَيْهَا فَوق ماتُطِيق. والكَلَب: الشَّر.

والسَّلَبُ: ما يأخذ القَاتل من سِلاح المَقْتُول، وثِيَابه. والرَّهَجَ: الغُبَار. وٱلحِسّ ـبكسر الحَاء ـالصَّوْت الخَفي، وبفتحها: الحِيلَة.

الْإِعْرَاب:

ذَلِكَ إِشَارَة إِلىٰ يَوْم ٱلقِيَامَة مُبْتَدَأ، ويَوْمٌ خَبَر، وخُضُوعاً، وقِيَاماً مَصْدَران في موضع الحَال أي خَاضعِين قَائمِين، وحَالاً تَمْيِيز، ومُتَّسَعاً مَفعُول لفعل مَحْذُوف أي ووجد لنَفْسِه مُتَّسَعاً، وفِتَنٌ خَبَر لمُبْتَدَأ مَحْذُوف أي تِلْكَ فِتَنٌ، ومَزْمُومَةٌ مَرْحُولَةٌ حَال من الضَّمِير المُستتر في تَأْتِيكُمْ، وأَهْلُهَا قَوْمٌ مُبْتَدَأ وخَبَر، وشَدِيدٌ صِفة لقَوْم، وكَلَبُهُمْ فَاعِل شَدِيدٌ، ومِثْله قَلِيلٌ سَلَبُهُمْ.

الْمَعْنىٰ:

(وَ ذَلِكَ يَوْمٌ يَجْمَعُ اللهُ فِيهِ الْأَوَّلِينَ، وَ الآخِرِينَ لِنِقَاشِ الْحِسَابِ، وَ جَزَاءِ الْأَعْمَالِ). لكلّ فرد، أو فِئَة فَلْسَفَة خَاصَّة تركن إِلَيْهَا، ويعتمد الجَاحدون بالبَعث علىٰ أنّ ٱلإِنْسَان بعد ٱلمَوْت يصير تُرباً، ويَسْتَحِيل أنْ يَعود هَذَا التُّراب إِلىٰ ما كَانَ: ﴿وَقَالُوٓاْ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا وَرُفَٰتًا أَءِنَّا لَمَبۡعُوثُونَ خَلۡقًا جَدِيدًا﴾[1]، ومن هُنا جَاء الرَّد عَلَيْهِمْ بأنّ جمع الشّيء بعد تَفرق أجزائه أَهْوَن من إيجاده من لا شيء. وقيل: إنّ

(١) ٱلإِسْرَاء: ٤٩.

إعرابياً[1] جَاء إِلىٰ النَّبِيّ ﷺ، ومعه عَظم بالٍ، فركه بَيْنَ يَدي الرَّسول حَتَّىٰ صَار رَميماً، ثُمّ ٱلتفت إِلَيْهِ، وَقَالَ: أَيبعث رَبُّك هَذَا الرَّميم؟ فنزل قَوْله تَعَالَىٰ: ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلاً وَنَسِىَ خَلْقَهُۥ قَالَ مَن يُحْيِ ٱلْعِظَـٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾[2]. وَقَالَ الإِمَام: «عَجِبْتُ لِمَنْ أَنْكَرَ النَّشْأَةَ الأُخْرَىٰ وَهُوَ يَرَىٰ النَّشْأَةَ الأُولَىٰ»[3]. وَقَالَ أَفْلَاطُون: «لو لَمْ تكن لِلإِنْسَان حَيَاة ثَانِيَة لكَان القِرْد أشرف مِنْهُ»[4]. وَقَالَ الفَيْلَسُوف الألماني «كَنت»: «لما كَانَتْ ٱلْحَيَاة الدُّنْيَا لا تُحقّق الجَزَاء فلا بُدّ في طَبِيعَة الحَال من حَيَاة أُخرىٰ»[5].

(خُضُوعاً، قِيَاماً قَدْ أَلْجَمَهُمُ الْعَرَقُ، وَ رَجَفَتْ بِهِمُ الْأَرْضُ، فَأَحْسَنُهُمْ حَالاً مَنْ وَجَدَ لِقَدَمَيْهِ مَوْضِعاً، وَ لِنَفْسِهِ مُتَّسَعاً). يحشر سُبْحَانَهُ الخَلاَئِق يَوْم ٱلْقِيَامَة لِلْحِسَابِ والْجَزَاء، ويُساقون دُفعة وَاحِدَة كالأُسارىٰ حُفاة عُراة خَاضعين خَائِفِين، فَإِذَا بَلغوا الموقف قَاموا علىٰ الأَقْدَام حَيْث لا مَقاعد، وَلاَ وسَائد «قَدْ

(١) أختلف في هَذَا الإعرابي، فقيل: هو أُبي بن خلف، كما عن قتادة، ومجاهد، وهو المروي عن الإمام الصّادق ﷺ، وقيل: هو العَاص بن وائل السَّهمي، كما عن سعيد بن جبير، وقيل: هو أُميّة ٱبن خلف عن الحَسن، وقيل: هو أبو جهل بن هشام، وقيل: هو عبدالله بن سلول. أُنظر، أمالي الشّيخ المفيد: ٢٤٧، أمالي الشّيخ الطّوسي: ١٩، مَجْمَع الْبَيَان: ٢٩١/٨، تفسير الْقُرْآن لعبدالرزاق الصّنعاني: ٢١٤٥/٣، جامع الْبَيَان لابن جرير الطبري: ٣٧/٢٣، مَعَانِي الْقُرْآن للنّحاس: ٢٥١٩/٥، أسباب النزول للواحدي: ٢٤٦، زاد المسير لابن الجوزي: ٢٨٣/٦، تفسير القرطبي: ٦٨/١٠، تأريخ دِمَشْق لابن عساكر: ٣٨١/٤، البداية والنّهاية: ١١٢/٣.

(٢) سُورَةُ يس: ٧٨ـ ٧٩.

(٣) أُنظر، نَهج ٱلبَلاَغَة: ٱلْحِكْمَة (١٢٦).

(٤) أُنظر، البدء والتّأريخ: ٧٦/٢، كتاب الاستقصاء لأخبار دول المغرب الأقصىٰ: ٤٠/٢.

(٥) أُنظر، المُعْجَم القانوني، لحارث سليمان الفاروقي: ٢٠٧/١ و: ٤٤٧/٢.

أَلْجَمَهُمُ الْعَرَقُ» من الْخَوْف، والحرّ، أمّا قَوْل الْإِمَام «فَأَحْسَنُهُمْ حَالاً مَنْ وَجَدَ لِقَدَمَيْهِ مَوْضِعاً» فَهُوَ كناية عن كَثْرَة الخَلاَئِق، وضخامة عَددهم. ومن البداهة أنّ العذاب غَداً بشَتَّىٰ أَنْوَاعه خَاص بمن ظَلم، وأجرَم، فأمّا من أَحسن واَتقىٰ فله جَزاء الحُسنىٰ. قَالَ الرَّسُول الْأَعْظَمﷺ: «إنّ الله يُعاملكم بِمَا عَاملتم بِهِ عِبادِه... إنّ أَهْل الْمَعْرُوف في الدُّنْيَا هم أَهْل الْمَعْرُوف في الْآخِرَة»[1].

(فِتَنٌ كَقِطَعِ اللَّيْلِ الْمُظْلِمِ، لاَ تَقُومُ لَهَا قَائِمَةٌ، وَ لاَ تُرَدُّ لَهَا رَايَةٌ... إلخ) أَشار الْإِمَام إِلىٰ الْفِتَن في ٱلْخُطْبَةُ الّتي قبل هَذِه بلا فَاصل رقم ١٠١. وأيضاً أَشار إِلَيْهَا في كَثِير من الخُطْب، ولذا نقتصر في الشَّرح علىٰ ما لا بُدّ مِنْهُ، وماكرر الْإِمَام، وأكد إلّا للحَث علىٰ جِهاد أَعْدَاء الله، والْإِنْسانية سَداً لباب الضَّلال، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَقَـٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَاتَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِ فَإِنِ ٱنتَهَوْا۟ فَلَا عُدْوَٰنَ إِلَّا عَلَى ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾[2]. وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُن فِتْنَةٌ فِى ٱلْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ﴾[3].

لِلمِنْبَرِ ـ حَوْلَ رَايَة الْبَغْي:

(يُجَاهِدُهُمْ فِي سَبِيلِ اللهِ قَوْمٌ أَذِلَّةٌ عِنْدَ الْمُتَكَبِّرِينَ، فِي الْأَرْضِ مَجْهُولُونَ، وَ فِي السَّمَاءِ مَعْرُوفُونَ). ضَمير يُجَاهِدُهُمْ يَعود إِلىٰ أَهْل الرَّاية الْبَاغِيَة، وهُم، وأمثاهم

(١) أنظر، المُستدرَك علىٰ الصَّحِيحين: ٢١٣/١ ح ٤٢٩، مَجْمَع الزوائد: ١١٥/٣، سُنن البَيْهَقِيّ الكُبْرَىٰ: ١٠٩/١٠، المُصَنَّف لإبن أبي شيبة: ٢٢١/٥ ح ٢٥٤٢٨، المُعْجَم الكَبِير: ٢٦٤/٦ ح ٦١١٢، المُعْجَم الصَّغِير: ١٣٣/١ ح ١٩٩، المُعْجَم الأوسط: ٥٦/١ ح ١٥٦، الأدب المفرد: ٨٦/١ ح ٢٢٠، الفِردَوْس بمأثور الخِطَاب: ٤٠٩/١ ح ١٦٥٣.

(٢) ٱلْبَقَرَة: ١٩٣.

(٣) ٱلْأَنفَال: ٧٣.

من المُتَخمِين مَعْنِيُّون بالمُتَكبِّرين، والإمَام يُشير بقَوْله هَذَا إلىٰ أنّ رَايَة الْبَغي والْفَسَاد لا تَمرّ، وتعيش في هَذِه الأَرْض تُفسد علىٰ البشرية حَياتها، وتَعبث بِكَرامتها، بل يَتصدىٰ لها دِفاعاً عن الحَقّ، والحُرِّيَّة، ويثُور عَلَيْهَا ـ أعزّة شُرفاء عند الله، وأوْلِيَائه، وإنْ ٱزْدَرتهم أعيُن الأَشْرَارِ، وأَهْل الضّلال.

وقد كرر الإِمَام هَذَا ٱلْمَعْنىٰ وأكده في العَديد من أَقْوَالِه، من ذَلِكَ قَوْله: «وَمَنْ سَلَّ سَيْفَ الْبَغْيِ قُتِلَ بِهِ»[(١)]، أي أنّ الظَّالِمِ من حَيْث لا يُريد يَغرس في نَفس الْمَظْلُوم بَذرَة الثَّورة عَلَيْهِ، ويحثه علىٰ الإِستماتة دُونَ حقّه. وقد أَوجب الإِمَام جِهاد الظُّلم، وأَهْله، وحثّ عَلَيْهِ بشَتَّىٰ الأساليب، من ذَلِكَ قَوْله: «فَالْمَوْتُ فِي حَيَاتِكُمْ مَقْهُورِينَ، وَٱلْحَيَاة فِي مَوْتِكُمْ قَاهِرِينَ»[(٢)]. وَقَالَ: «إِنَّ أَكْرَمَ الْمَوْتِ الْقَتْلُ»[(٣)]، أي من أجل الدِّفاع عن الحَقّ. ويجب هَذَا الجِهَاد في الدَّرجة الأُولىٰ علىٰ الْعُلَمَاءِ، لأنّ فَقره وسغبه، كما جَاء في ٱلْخُطْبَة الشِّقشِقِيَّة، وكَيْفَ يقر الدِّين، ويسكت عُلَماء الدِّين حقّاً عن الَّذين يَخْتَلِسُون أقوات الكَادِحِين، ويَحْرِمُونهم من ثَمرات كَدحِهم، وعرقهم؟

وَلاَحظت، وأنا أَتتبَّع أَقْوَال الْعُلَمَاء القُدامىٰ أنّ ما من عَالم كبير، أو صغير أشار إِلىٰ حُقُوق المُسْتَضْعَفِين، ومصالحهم، وَلاَ إلىٰ ظُلم الحَاكِمِين، وجَوْرهم... بل رَأَيْت بَعْض كبّار الْعُلَمَاء يُمجد سُلطان زَمَانه، ويدعو له بالْعُمُر المَديد، وتوطيد الحُكْم والنّفوذ علىٰ الْمَسَاكِين، والمُعَذّبِين، وَإِذَا أَلف كِتَاباً ٱفتتحه بحمد الله الَّذي أنعم

(١) أنظر، نَهج ٱلبَلاَغَة: ٱلحِكْمَة (٣٤٩).

(٢) تَقَدَّم شَرح هَذِه ٱلخُطبَة في الجُزء الأَوّل من هَذَا ٱلْكِتَاب: تحت رَقم (٥١).

(٣) أنظر، نَهج البَلاَغَة: ٱلخُطبَة (١٢٣).

علىٰ عِبَادِهِ بشاهنشاه، وملك ٱلْمُلُوك... هَذَا وهو يُفتي في نَفس ٱلْكِتَاب بقطع يَـد السَّارق، وجِهاد الظَّالِمِ، والخَائن، ويشترَط في الْـوِلاَيَة الإِخْـلاَص، والأَمَـانَة.. وكأنّ اللُّصوصية، والخيانة لا تعني آستغلال المَلايين، وسرقة جُهود الكَـادحين، وإِنَّها تختص بسرقة المحفظة من الجَيب، والمتاع من ٱلْـبَيْت... وإنْ دَلّ هَـذَا عـلىٰ شيء فإِنَّه يَدلُّ علىٰ الإعتقاد بأنّ الْفَقْر، أو الإستغلال هو من ٱلسَّماء لا من الأَرْض، أو علىٰ أنّ هَذَا العَالم، وأمثاله كَانُوا يَعِيشُون في أَبراج مـن العَـاج، وأنّ التُّـخمة، والدَّعة أبتعدت بِهِمْ عن المُشاركة الوجدانية، والإحساس بآلام المحرُومِين.

(فَوَيْلٌ لَكِ يَا بَصْرَةُ عِنْدَ ذَلِكِ، مِنْ جَيْشٍ مِنْ نِقَمِ اللهِ! لاَ رَهَجَ لَـهُ، وَ لاَ حَسَّ، وَ سَيُبْتَلَىٰ أَهْلُكِ بِالْمَوْتِ الأَحْمَرِ، وَ الْجُوعِ الأَغْبَرِ!).. قَالَ آبن أَبي آلحَـدِيد: «كـنَّىٰ الإِمَام بالجَيْش عن جَدبٍ، وطَاعون يُصيب أَهْل الْبَصْرَة حَـتَّىٰ يَـبِيدُهُم، وكـنَّىٰ بِالْمَوْتِ الأَحْمَرِ عن الوبَاء، وَبالجُوعِ الأَغْبَرِ عن الجَدْبِ، والمَحْـلُ، والجَـائع يـرىٰ الآفاق كأنّ عَلَيْهَا غَبْرَة، وظَلاماً»[1].

---

(١) أنظر، شَرح نَهج ٱلبَلاَغة: ٧/١٠٤.

الخطبة
-١٠٣-

كُلُّ مُتَوَقَّعٍ آتٍ...فِقْرَة ١ ـ ٣:

أَيُّهَا النَّاسُ، ٱنْظُرُوا إِلَىٰ الدُّنْيَا نَظَرَ الزَّاهِدِينَ فِيهَا، الصَّادِفِينَ عَنْهَا، فَإِنَّهَا وَ اللهِ عَمَّا قَلِيلٍ تُزِيلُ الثَّاوِيَ السَّاكِنَ، وَ تَفْجَعُ الْمُتْرَفَ الآمِنَ، لاَ يَرْجِعُ مَا تَوَلَّىٰ مِنْهَا فَأَدْبَرَ، وَ لاَ يُدْرَىٰ مَا هُوَ آتٍ مِنْهَا فَيُنْتَظَرَ. سُرُورُهَا مَشُوبٌ بِالْحُزْنِ، وَ جَلَدُ الرِّجَالِ فِيهَا إِلَىٰ الضَّعْفِ، وَ الْوَهْنِ، فَلاَ يَغُرَّنَّكُمْ كَثْرَةُ مَا يُعْجِبُكُمْ فِيهَا لِقِلَّةِ مَا يَصْحَبُكُمْ مِنْهَا.

رَحِمَ اللهُ ٱمْرَأً تَفَكَّرَ فَٱعْتَبَرَ، وَ ٱعْتَبَرَ فَأَبْصَرَ، فَكَأَنَّ مَا هُوَ كَائِنٌ مِنَ الدُّنْيَا عَنْ قَلِيلٍ لَمْ يَكُنْ، وَكَأَنَّ مَا هُوَ كَائِنٌ مِنَ ٱلآخِرَةِ عَمَّا قَلِيلٍ لَمْ يَزَلْ، وَكُلُّ مَعْدُودٍ مُنْقَضٍ، وَكُلُّ مُتَوَقَّعٍ آتٍ، وَكُلُّ آتٍ قَرِيبٌ دَانٍ(١).

ٱلْعَالِمُ مَنْ عَرَفَ قَدْرَهُ، وَكَفَىٰ بِالْمَرْءِ جَهْلاً أَلاَّ يَعْرِفَ قَدْرَهُ، وَ إِنَّ مِنْ أَبْغَضِ الرِّجَالِ إِلَىٰ اللهِ تَعَالَىٰ لَعَبْداً وَكَلَهُ اللهُ إِلَىٰ نَفْسِهِ، جَائِراً عَنْ قَصْدِ السَّبِيلِ، سَائِراً بِغَيْرِ دَلِيلٍ، إِنْ دُعِيَ إِلَىٰ حَرْثِ الدُّنْيَا عَمِلَ، وَ إِنْ دُعِيَ إِلَىٰ حَرْثِ ٱلآخِرَةِ كَسِلَ! كَأَنَّ مَا عَمِلَ لَهُ وَاجِبٌ عَلَيْهِ، وَكَأَنَّ مَا وَنَىٰ فِيهِ سَاقِطٌ عَنْهُ(٢)!

وَ ذٰلِكَ زَمَانٌ لاَ يَنْجُو فِيهِ إِلاَّ كُلُّ مُؤْمِنٍ نُوَمَةٍ ، ﴿ إِنْ شَهِدَ لَمْ يُعْرَفْ ، وَ إِنْ غَابَ لَمْ يُفْتَقَدْ أُولَئِكَ مَصَابِيحُ الْهُدَىٰ ﴾ ، وَ أَعْلاَمُ السُّرَىٰ ، لَيْسُوا بِالْمَسَايِيحِ ، وَ لاَ الْمَذَايِيعِ الْبُذُرِ ، أُولَئِكَ يَفْتَحُ اللهُ لَهُمْ أَبْوَابَ رَحْمَتِهِ ، وَ يَكْشِفُ عَنْهُمْ ضَرَّاءَ نِقْمَتِهِ .

أَيُّهَا النَّاسُ ، سَيَأْتِي عَلَيْكُمْ زَمَانٌ يُكْفَأُ فِيهِ الْإِسْلاَمُ كَمَا يُكْفَأُ الْإِنَاءُ بِمَا فِيهِ .

أَيُّهَا النَّاسُ ، إِنَّ اللهَ قَدْ أَعَاذَكُمْ مِنْ أَنْ يَجُورَ عَلَيْكُمْ ، وَ لَمْ يُعِذْكُمْ مِنْ أَنْ يَبْتَلِيَكُمْ ، وَقَدْ قَالَ جَلَّ مِنْ قَائِلٍ : ﴿ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأَيَـٰتٍ وَ إِن كُنَّا لَمُبْتَلِينَ ﴾[1][2] .

اللُّغَة:

الصَّادِف : المُعْرِض . والثَّاوِيَ : المُقِيم . والْمُتْرَفَ : المُنْعم يَفعل ما يَشتَهي . وَالجَلَدُ : الْقُوَّة . وجَائِراً : مَائِلاً . وَنَىٰ ، فَتَر ، وَضَعَف . ونُوَمَةٍ ـ بضم النُّون ، وفتح الوَاو ـ كَثِير النَّوْم . والسُّرَىٰ : السَّير في ٱللَّيْل . ومَسَايِيحِ : جَمع مَسْيَّاح أي يَمْشِي بَيْنَ النَّاس بِالْفَسَاد . ومَذَايِيع : جَمع مِذْيَاع أي يُذيع الفَاحِشَة . وبُذُر ـ بضم الباء ، والذّال ـ جَمع بُذُور ، وبَذِير ، النَّمام . وكَفْأَ الإِنَاء : قَلَبَه .

الْإِعْرَاب:

بِالْمَرْءِ الباء زَائِدَة ، والْمَرْء فَاعِل كَفَىٰ ، وجَهْلاً تَمْيِيز ، والْمَصْدَر مِن أنْ يَعْرِفَ بَدل ٱشتمال من الْمَرْءِ ، ولَعَبْداً اللام للإبتداء ، وفائدتها التَّوكيد ، وعَـبْداً ٱسم إنّ ، ومِـنْ أَبْغَضِ خَبَرها ، وجَائِراً صِفة لـ «لَعَبْداً» ومِثْله سَائِراً .

---

(١) المُؤمِنُون : ٣٠.

الْمَعْنىٰ:

(ٱنْظُرُوا إِلَىٰ الدُّنْيَا نَظَرَ الزَّاهِدِينَ فِيهَا، الصَّادِفِينَ عَنْهَا). أي الزُّهْد في حَرَامها، والإِعْرَاض عَنْه، قَالَ الإِمَام: «وَلاَ زُهْدَ كَالزُّهْدِ فِي ٱلْحَرَامِ»[1]. وفي الْحَدِيث: «لأَنْ تَدع وَرَثَتك أَغْنِيَاء خَير لكَ من أنْ تَدعْهم عَالة يَتَكَفَّفُون النَّاس»[2]. أي يَمُدُّون أَكُفَّهم إِلىٰ النّاس (فَإِنَّهَا وَ اللهِ عَمَّا قَلِيلٍ تُزِيلُ الثَّاوِيَ السَّاكِنَ). أي الْمُقِيم الْمُطْمَئِن، وتَوسده في قَبره (وَ تَفْجَعُ الْمُتْرَفَ الآمِنَ) حَيْث نَسْلبه ماكَان يَعتزّ بِه، ويَتَبَاهىٰ من جَاهٍ، أو مالٍ، أو صحةٍ، وكَم للدُّنْيَا مِن فَجَائِع، وخَدَائِع (لاَ يَرْجِعُ مَا تَوَلَّىٰ مِنْهَا فَأَدْبَرَ) كالشَّباب، والجَمَال (وَ لاَ يُدْرَىٰ مَا هُوَ آتٍ مِنْهَا) من الآفاتِ، والمُفَاجآت (فَيُنْتَظَرَ) مَع التَّحفظ، والوقَاية منهُ.

(سُرُورُهَا مَشُوبٌ بِالْحُزْنِ). ومن طَلِب العَافية بلا ٱبتلاء فقد طَلِب المُحال، لأَنّ التَّمام في كلّ شي ما كَانَ، ولَن يَكون إلّا لِمن لَيْسَ كَمِثْله شَيْءٌ (وَ جَلَدُ الرِّجَالِ فِيهَا إِلَىٰ الضَّعْفِ، وَ الْوَهْنِ). ما من قَوي علىٰ ظَهرها إلّا ونَقَضت الأَيَّام قِواه، وأَوهت السُّنُون عَزيمته، ونَشَاطه (فَلاَ يَغُرَّنَّكُمْ كَثْرَةُ مَا يُعْجِبُكُمْ فِيهَا) من مصَارِف، ومصَانِع، وزِينَةٍ، وجمَالٍ (لِقِلَّةِ مَا يَصْحَبُكُمْ مِنْهَا) وهو الكَفْن، علىٰ أنّ ٱلإِنْسَان لو صَحِب معهُ إلىٰ لحدِه الغَالي، والثَّمين ـ كما فعل الفرَاعِنة ـ ما دَفع عَنْه ضُرّاً، وَلاَ جَلب له نَفعاً (رَحِمَ اللهُ ٱمْرَأً تفكَّرَ فَٱعْتَبَرَ، وَ ٱعْتَبَرَ فَأَبْصَرَ) العُواقب، وأَخَذ الحَذر

(١) أنظر، نَهج ٱلبَلاَغَة: ٱلحِكْمَة (١١٣).

(٢) أنظر، تَفْسِير ٱبن كَثِير: ٢١٣/١، صَحِيح مُسْلِم: ١٢٥١/٣، صَحِيح البُخَاريّ: ٤٣٥/١ ح ١٢٣٣، صَحِيح ٱبن حبّان: ٦١/١٠، سُنن التِّرمِذي: ٤٣٠/٤ ح ٢١١٦، سُنَن الدّارمي: ٤٩٩/٢ ح ٣١٩٦، مَجْمَع الزَّوائد: ٢١٣/٤، تَفْسِير القُرطُبي: ٢٦١/٢.

لنَفْسِه، فَسلم من المهَالك.

(فَكَأَنَّ مَا هُوَ كَائِنٌ مِنَ الدُّنْيَا عَنْ قَلِيلٍ لَمْ يَكُنْ، وَكَأَنَّ مَا هُوَ كَائِنٌ مِنَ ٱلآخِرَةِ عَمَّا قَلِيلٍ لَمْ يَزَلْ). أنْتَ في الدُّنْيَا تَلهو، وتَلعب، ولكن لَسْتَ مِنْهَا فِي شيء ما دُمت مفارقها إِلىٰ دَار الخُلود، ولو كَانَتْ الدُّنْيا دَاراً لِلبقَاء لكَانَتْ هِي ٱلجَنَّة الوَحِيدَة الّتي وصفها سُبْحَانَهُ بقَوْله: ﴿إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَؤُا۟ فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ﴾[1]. فقَلِل من حمَاسَتِك للفَانِيَة، وٱبذل غَايَة جُهدك لِلبَاقِيَة (وَكُلُّ مَعْدُودٍ مُنْقَضٍ). تُعد ٱلحَيَاة بالثّوانِي، والسَّاعَات، ومن هُنا جَاء النَّقص في الأَعْمَال، قَالَ الامام: «لاَ يَسْتَقْبِلُ يَوْماً مِنْ عُمُرِهِ إِلاَّ بِفِرَاقِ آخَرَ مِنْ أَجَلِهِ»[2] (وَكُلُّ مُتَوَقَّعٍ آتٍ) بخَاصَّة ٱلمَوْت (وَكُلُّ آتٍ قَرِيبٌ دَانٍ) حَتَّىٰ كأَنَّه يَلتصق بِكَ كَظِلّك، وخَيَالِك.

قِيمَةُ ٱلْعِلْم:

(ٱلْعَالِمُ مَنْ عَرَفَ قَدْرَهُ). وَلاَ يَعرِف قَدْرَهُ إِلّا من صَانَ ٱلعِلْم عن خِدْمَة الأَغْنِيَاء، والوُجهَاء طَمعاً في مَالهم، وجَاههم، ومضىٰ بِهِ في سَدّ حَاجات النَّاس، أو هَدي مَن ضّل عن قَصد ٱلسَّبيل، ولم يَتَّخِذ منهُ أداة للخُداع، واللُّصوصية، وَلاَ ٱختراع به أسلحة ٱلْقَتْل، والتَّدمير... وقد فعل ٱلعِلْم في عصرنا المُعْجِزَات، وعلّم ٱلإنْسَان مالم يكن ليحلم بهِ، ولَكِنَّهُ أَفسد أَكْثَر مِمَّا أَصلح، وخَلق المَشَاكل، والأَزمَات للمُسْتَضْعَفِين، ومئات المَلايين، وأَصْبَحَ أَلد أَعْدَاء الأَدْيَان، وٱلإِنْسَانية

(١) سُورَةُ طه: ١١٨ ـ ١١٩.

(٢) أنظر، نَهج ٱلبَلاَغَة: ٱلحِكْمَة (١٩١).

بعد أنْ ٱتجهت به قوىٰ الشَّر إلىٰ الأسْلحة الجَهنميّة، ورُوعت بِه البَشريّة كلّها، وعَانت مِنْهَا، ومِنْهُ الكوَارِث، والوْيلاَت... فلم يَمض وقت طويل علىٰ فاجعة هيروشيما وناكازاكي[1] حَتَّىٰ تَفجرت القنَابل الْحَدِيثة، وتَفجر مَعَهَا كلّ شيء من إنْسَانٍ، وجمَادٍ، وزَرع، وضرعٍ في كوريا، ثُمّ في فيتنام، ثُمّ في ٱفريقيا، ثُمّ في فِلسْطِين... إلىٰ ما لا نهَاية.

(وَكَفَىٰ بِالْمَرْءِ جَهْلاً أَلاَّ يَعْرِفَ قَدْرَهُ) أي يجهل مَا لهُ، ومَا عَلَيْهِ من حُقُوقٍ، وواجباتٍ، أو يعرفها، ولكِنَّهُ يُهمل، ويُقصر (وَإِنَّ مِنْ أَبْغَضِ الرِّجَالِ إِلَىٰ اللهِ تَعَالَىٰ لَعَبْداً وَكَلَهُ اللهُ إِلَىٰ نَفْسِهِ) أي من حَفظ جَانب المخلُوق، وضَيع جَانب الخَالِق ـ يتخلىٰ الله عَنْه، ويَدعه، وشأنه، وقد يُسلط عَلَيْهِ من حَرص علىٰ مَرْضَاتِه من دُونَ الله، فينتَقم مِنْهُ. قَالَ بَعْض المُلُوك لأصحابه: «لا تَعص الله بطاعتي فيسلطني عَلَيْكَ»[2] (جَائِراً عَنْ قَصْدِ السَّبِيلِ) مَائلاً عن طَريق الحَقّ يَقُوده الهَوَىٰ إلىٰ كلّ سُوء (سَائِراً بِغَيْرِ دَلِيلٍ) أَعمىٰ لا يهْتَدِي إلىٰ خَير.

(إِنْ دُعِيَ إِلَىٰ حَرْثِ الدُّنْيَا عَمِلَ، وَإِنْ دُعِيَ إِلَىٰ حَرْثِ ٱلآخِرَةِ كَسِلَ! كَأَنَّ مَا عَمِلَ لَهُ وَاجِبٌ عَلَيْهِ، وَكَأَنَّ مَا وَنَىٰ فِيهِ سَاقِطٌ عَنْهُ). ٱلْعَمَل للدُّنْيا واجب تَمَاماً كَٱلْعَمَل من أجل الآخِرَةِ. فقد كَانَ ٱلأَنْبيَاء يَعملون، والصَّحَابَة يَتجرُون، والإمَام يُنْكِر علىٰ من يعمل للدُّنْيا مُنصرفاً عن غَيْرها، ويُثير الحُرُوب من أَجلها، ويُقسم النَّاس

(١) أُنظر، جريدة الأهرام عدد، ١٩٧٢/٣/٣١م، أنّه بتَأريخ ١٩٤٥/٧/٦م: «ألقت أميركا قنبلتها الذَّرية علىٰ هيروشيما اليَابَانية فأذابت رُبع مليون في لحظَات، مَع أنّ اليابان عَرضت الإستسلام علىٰ أميركا قبل هَذِه القنبلة، ولكن أميركا أرادت تخويف روسيا بِهَذا السِّلاَح». بل تخويف العَالم كلّه. (مِنْهُ ﷺ).

(٢) أُنظر، كتاب الإستقصاء لأخبار دول المغرب الأقصىٰ: ٢٥٤/٣.

علىٰ أَساسها. ويتجاهْل ٱلإِنْسَانية، وقيمها، أمّا مَن يَعمل لدُّنْيَاه، ويُراعي حَلال الله، وحَرامه فَهُوَ من المُجَاهِدِين.

(وَ ذَلِكَ زَمَانٌ لاَ يَنْجُو فِيهِ إلاَّ كُلُّ مُؤْمِنٍ نُوَمَةٍ، إِنْ شَهِدَ لَمْ يُعْرَفْ، وَ إِنْ غَابَ لَمْ يُفْتَقَدْ). يدل سياق الكَلاَم علىٰ أنّ المُـرَاد بالزَّمَان المُشار إِلَيْهِ الزَّمَان الَّذي يَعرض النّاس فِيهِ عن الدِّين، ويكتفون مِنْهُ بإظْهار الشّعائر كما يَدل قَوْل الإِمَام: يكفأ فِيهِ الإِسْلاَم ـ وتتحرك فِيهِ الرَّغبات، وتنطلق الميُول، والأَهْوَاء، ويكثر فِيهِ التَّنافس والتَّباهِي بأسباب الدُّنْيَا، وزِينَتَهَا كالسّيارات، والعمارات، والأثـاث، والرِّيـاش كالعصر الَّذي نعيش فِيهِ. ولَيْسَ من شك أنّ أَحسن النّاس عَاقِبَة حـينذاك هـو الرّجل المجـهُول، فَهُوَ لا يُنافس أحداً، وَلاَ أَحد يُنافسه، ويَحسده علىٰ شيء مـن الحُطَام... أنّه يَعمل من أَجل قُوَّتِه بهدوء، ويَطيع ربّه بلا جَعْجَعة، ويشغله الخَوْف مِنْهُ عن النّاس، وما يَعبثُون. وَهَذَا هو الرَّجُل المُرَاد بـ(النُّوَمَة).

(أُولَئِكَ مَصَابِيحُ الْهُدَىٰ، وَ أَعْلاَمُ السُّرَىٰ). لأنّهم يَعْملون بِعَلمهم، ويَخْـلصُون لدِّينهم، ولأنّ سيرتهم، وأعمالهم تترك أَطيب الأثر في النّفوس، ورُبَّمَا ٱهتدىٰ بِهِمْ الكَثير من التَّائهِين، والمُنحَرفِين (لَيْسُوا بِالْمَسَايِيحِ) لا يَسِـيحُون، ويَمْشُـون بَـيْنَ النّاس بالْفَسَاد (وَ لاَ الْمَذَايِيعِ الْبُذُرِ) لا يَـذِيعُون الفَـاحِشَة، ويَـبذِرُون النَّمـيِّمَة، والوِشَايَة (أُولَئِكَ يَفْتَحُ اللهُ لَهُمْ أَبْوَابَ رَحْمَتِهِ) ويَسْكنهم فَسِيح جَنَّتِه.

(أَيُّهَا النَّاسُ، سَيَأْتِي عَلَيْكُمْ زَمَانٌ يُكْفَأُ فِيهِ الإِسْلاَمُ كَمَا يُكْفَأُ الإِنَاءُ بِمَا فِيهِ). قَالَ ٱبن أَبِي ٱلحَدِيد: «يُريد أنّه سيأْتِي علىٰ النّاس زَمَان تَنْقلب فِيهِ الأُمُور الدِّينية إِلىٰ أَضدادها، ونقائضها، وقد شَهدنا ذَلِكَ عَياناً»[1]. قَالَ ٱبن أَبِي ٱلحَدِيد هَذَا حَيْث

---

(١) أنظر، شَرح النَّهج: ٧/١١٣.

لا ٱستعمار في عَهْدِه، وَلاَ صَهيونية، وَلاَ شِركات نَفط، وأَسلحة جَهَنَّمية، وَلاَ عَمائم تَقبض من جهاز المخابرات، وَلاَ حُكام يَعملون لأصحاب الإِحْتِكَارات [١]. (أَيُّـهَا النَّاسُ، إِنَّ اللهَ قَدْ أَعَاذَكُمْ مِنْ أَنْ يَجُورَ عَلَيْكُمْ، وَ لَمْ يُعِذْكُمْ مِنْ أَنْ يَبْتَلِيَكُمْ). إنّ الله سُبْحَانَهُ لا يَظلم أحداً، ولَكِنَّهُ يَبتَلِي بالسَّرَّاء، والضَّرَّاء ليتميزَّ الْخَبيث من الطَّيِّب، والمُغْرَيات، والمُزعْجَات هِي المَحَك، والوَسِيلَة لإظهار كلٍ علىٰ حَـقِيقَته، وتَـبرِير مُحاسبته، وجزَائه بِما يَستحق من ثوابٍ، أو عِقابٍ.

(١) ملاحظة: توفي آبن أبي ٱلْحَدِيد سَنَة ٦٥٥ هـ. (مِنْهُ ﷺ).

الخطبة

-١٠٤-

لَأَبْقُرَنَّ الْبَاطِلَ:

أَمَّا بَعْدُ فَإِنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ بَعَثَ مُحَمَّداً ﷺ، وَ لَيْسَ أَحَدٌ مِنَ الْعَرَبِ يَقْرَأُ كِتَاباً، وَ لَا يَدَّعِي نُبُوَّةً، وَ لَا وَحْياً، فَقَاتَلَ بِمَنْ أَطَاعَهُ مَنْ عَصَاهُ، يَسُوقُهُمْ إِلَىٰ مَنْجَاتِهِمْ، وَيُبَادِرُ بِهِمُ السَّاعَةَ أَنْ تَنْزِلَ بِهِمْ، يَحْسِرُ الْحَسِيرُ، وَ يَقِفُ الْكَسِيرُ، فَيُقِيمُ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يُلْحِقَهُ غَايَتَهُ، إِلَّا هَالِكاً لَا خَيْرَ فِيهِ، حَتَّىٰ أَرَاهُمْ مَنْجَاتَهُمْ، وَ بَوَّأَهُمْ مَحَلَّتَهُمْ، فَاسْتَدَارَتْ رَحَاهُمْ، وَ اسْتَقَامَتْ قَنَاتُهُمْ. وَ ايْمُ اللهِ، لَقَدْ كُنْتُ مِنْ سَاقَتِهَا حَتَّىٰ تَوَلَّتْ بِحَذَافِيرِهَا، وَاسْتَوْسَقَتْ فِي قِيَادِهَا، مَا ضَعُفْتُ، وَلَا جَبُنْتُ، وَلَا خُنْتُ، وَ لَا وَهَنْتُ، وَ ايْمُ اللهِ، لَأَبْقُرَنَّ الْبَاطِلَ حَتَّىٰ أُخْرِجَ الْحَقَّ مِنْ خَاصِرَتِهِ!

اللُّغَة:

يَحْسِرُ: يَسُوق. والْحَسِيرُ: الضَّعِيف. والْكَسِيرُ: والمَكْسُور. وَبَوَّأَ: هَيَّأَ، ودبَّر. وسَاقَتِهَا: جَمع سَائِق. بِحَذَافِيرِهَا: بِأَسرِهَا، وجَوَانِبِهَا كلّها. واَسْتَوْسَقَتْ: اَجْتَمَعَت.

الخطبة

-١٠٤-

لَأَبْقُرَنَّ الْبَاطِلَ:

أَمَّا بَعْدُ فَإِنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ بَعَثَ مُحَمَّداً ﷺ، وَ لَيْسَ أَحَدٌ مِنَ الْعَرَبِ يَقْرَأُ كِتَاباً، وَ لَا يَدَّعِي نُبُوَّةً، وَ لَا وَحْياً، فَقَاتَلَ بِمَنْ أَطَاعَهُ مَنْ عَصَاهُ، يَسُوقُهُمْ إِلَىٰ مَنْجَاتِهِمْ، وَيُبَادِرُ بِهِمُ السَّاعَةَ أَنْ تَنْزِلَ بِهِمْ، يَحْسِرُ الْحَسِيرُ، وَ يَقِفُ الْكَسِيرُ، فَيُقِيمُ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يُلْحِقَهُ غَايَتَهُ، إِلَّا هَالِكاً لَا خَيْرَ فِيهِ، حَتَّىٰ أَرَاهُمْ مَنْجَاتَهُمْ، وَ بَوَّأَهُمْ مَحَلَّتَهُمْ، فَاسْتَدَارَتْ رَحَاهُمْ، وَ اسْتَقَامَتْ قَنَاتُهُمْ. وَ ايْمُ اللهِ، لَقَدْ كُنْتُ مِنْ سَاقَتِهَا حَتَّىٰ تَوَلَّتْ بِحَذَافِيرِهَا، وَاسْتَوْسَقَتْ فِي قِيَادِهَا، مَا ضَعُفْتُ، وَلَا جَبُنْتُ، وَلَا خُنْتُ، وَ لَا وَهَنْتُ، وَ ايْمُ اللهِ، لَأَبْقُرَنَّ الْبَاطِلَ حَتَّىٰ أُخْرِجَ الْحَقَّ مِنْ خَاصِرَتِهِ!

اللُّغَة:

يَحْسِرُ: يَسُوق. والْحَسِيرُ: الضَّعِيف. والْكَسِيرُ: والمَكْسُور. وَبَوَّأَ: هَيَّأَ، ودَبَّر. وسَاقَتِهَا: جَمع سَائِق. بِحَذَافِيرِهَا: بِأَسرِهَا، وجَوَانِبِهَا كلّها. واسْتَوْسَقَتْ: اجْتَمَعَت.

الإِعْرَاب:

الْمَصْدَر من أَنْ تَنْزِلَ مَفْعُول من أَجله لِيُبَادِر أي مَخافة النُّزُول. وَ آيْمُ مُبْتَدَأ، والْخَبَرَ مَحْذُوف وجُوبَاً أي قَسمي. لأَبْقُرَنَّ اللام في جَواب القَسَم.

الْمَعْنىٰ:

(**أَمَّا بَعْدُ فَإِنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ بَعثَ مُحَمَّداًﷺ، وَ لَيْسَ أَحَدٌ مِنَ الْعَرَبِ يَقْرَأُ كِتَاباً، وَ لَا يَدَّعِي نُبُوَّةً، وَ لَا وَحْياً**). كلّ من بحثَ، وَدَرَس العَصر الجَاهِلي أَكد أنّ البيئة العَرَبيَّة كَانَتْ بيئة أُمِيَّة، وكتاب الله صريح في ذَلِكَ: ﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ﴾[1]. وٱلْقُرْآن ٱلْكَرِيم وثيقة تَأريخية، وحُجّة قَاطِعَة لا تَقبل الجَدَل، وبالخُصوص فيما يَتصل بالْعَرَب، وتَقدَّم مِثْله[2].

(**فَقَاتَلَ بِمَنْ أَطَاعَهُ مَنْ عَصَاهُ**). دَعىٰ الرَّسول الأَعْظَمﷺ إِلىٰ الحَقِّ، فعَارض وعَاند عُتاة الشِّرك، والضَّلال، لا للشّك، والإرتِيَاب في دَعْوَة الرَّسُول، بل حِرصَاً علىٰ المَصالح، والمكَاسب، فجَادَلْهم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ.. ولمّا أَصروا علىٰ حَربِه ٱستعان علىٰ جِهادهم بالله، وبِالْمُؤْمِنِينَ: ﴿لَـٰكِنِ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ جَـٰهَدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ وَأُوْلَـٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْخَيْرَٰتُ وَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾[3]. فأَسلم من أَسلم طَائعاً، وٱستَسْلَم من ٱستَسْلم مُرغَماً (**يَسُوقُهُمْ إِلَىٰ مَنْجَاتِهِمْ**). يَسِير

(١) ٱلجُمُعَة: ٢.

(٢) أُنظر. ٱلخُطبَة: (٣٣). مَع الشَّرح (مِنْهُ ﷺ).

(٣) ٱلتوبَة: ٨٨.

النَّبيّ ﷺ بمن أَسلم، أو ٱستَسْلم علىٰ طَريق الْهُدَىٰ، والنَّجاة (وَيُبَادِرُ بِهِمُ السَّاعَةَ أَنْ تَنْزِلَ بِهِمْ) يمضي النَّبِيّ في تَربيَتهم، وتَنزِيههم من الشِّرك، والجهَالة قبل أنْ يوافِيهِمْ الْأَجَل، ويَمُوتُوا علىٰ الْكُفْر، والضَّلال.

(يَحْسِرُ الْحَسِيرُ). يَدفع بالضَّعِيف إلىٰ الأمَام (وَ يَقِفُ الْكَسِيرُ). يَصلح المَكْسُور (فَيُقِيمُ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يُلْحِقَهُ غَايَتَهُ). هَذَا تَفْسِير، وبَيَان لقَوْله: «وَيَقِفُ الْكَسِيرُ» وتوضيحه أنّ النَّبيّ ﷺ كَانَ يُداري، ويُعالج ضعيف الْإيمان بالرِّفْق، والتَّلطف تَارةً، وبالتّأديب باللّمحة، والنّظرة أُخرىٰ، وبكلّ مَا تَستَدعِيه حَال المُتشكك، والمُرتاب حَتَّىٰ يَزول ما في قَلبه، ويَصِير من الْمُؤْمِنِينَ الخُلص (إلَّا هَالِكاً) يُعاند الْحَقّ، ويصرّ علىٰ الْبَاطِل (لاَ خَيْرَ فِيهِ) وَلاَ أَمل في هدايته، وكَانَ النَّبِيّ يحرص علىٰ إيمَان هَذَا النَّوْع، فَقَالَ له العَليم الحكِيم: ﴿وَمَآ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ﴾[1] أي أَكْثَر النَّاس من الذِّين تَحرص علىٰ أنْ يُؤمنوا بالله، ونبُوتك. (حَتَّىٰ أَرَاهُمْ مَنْجَاتَهُمْ، وَبَوَّأَهُمْ مَحَلَّتَهُمْ). ضَمير «هُمْ» يَعُود إلىٰ الذِّين ٱستَمعوا للنَّبيّ ﷺ، وٱقتنعوا برِسَالَتِه، وٱلْمَعْنىٰ أنّ النَّبِيّ أَوضح لَهُم طَريق النَّجاة، والسَّلامة، ويسَّر عَلَيْهِمْ سلوكه، فمضوا عَلَيْهِ بصِدقٍ، وإخلاصٍ (فَٱسْتَدَارَتْ رَحَاهُمْ) أَقبل عَلَيْهِمْ ٱلرِّزْق، وعَاشوا في سِعَةٍ مِنْهُ، لأنّ الرَّحا تَدور علىٰ ما تَطحن (وَ ٱسْتَقَامَتْ قَنَاتُهُمْ) قَويَت شَوْكَتِهِمْ، وٱمتد سُلطانهم في أَقطار الْأَرْض بفضل مُحَمّد، والإسْلاَم. قَالَ المُسْتَشرق الألماني «فلهوزن»: «إنّ الْإسْلاَم وضع الدُّنْيَا تحت أَقدام الْعَرَب، ولَوْلاَه ما كَانُوا ليصلوا إلىٰ المَكانة الّتي وصلوا إلَيْهَا»[2].

---

(١) يُوسُفَ: ١٠٣.

(٢) أنظر، تَأريخ الدَّوْلَة العَرَبيَّة: ١٦٠ طَبْعَة ١٩٥٨م. (مِنْهُ ﵀).

(وَ آيْمُ اللهِ ، لَقَدْ كُنْتُ مِنْ سَاقَتِهَا حَتَّىٰ تَوَلَّتْ بِحَذَافِيرِهَا) . كَانَ لِلإِمَام الحظّ الأوفَر بَعد رَسول الله ﷺ فيما حقّقهُ الْعَرَب من التَّقدم في شَتَّىٰ المَيادين حَيْث كَانَ في طَليعة المُجَاهِدين يُكافح الجَاهِلِيَّة حَتَّىٰ ذهبت بِمَا فيها ، وجَاء نَصر الله ، والْفَتْح (وَ ٱسْتَوْسَقَتْ فِي قِيَادِهَا) أي لمّا ولّت دَعْوَة الْجَاهِلِيَّة تَجمعت دَعْوَة الإِسْلاَم تَحت رَايَة كَلِمَة التَّوْحِيد ، والشَّهادة بِرِسَالَة مُحَمّد ، وٱنْتشرت في الشَّرق ، والغَرب . وعلىٰ هَذَا فالهَاء في حَذَافِيرِهَا تَعود إِلىٰ الْجَاهِلِيَّة ، وفي قِيَادِهَا إِلىٰ دَعْوَة الإِسْلاَم بدَلِيل السِّياق حَيْث لا يَستَقِيم له مَعنىً إلّا بِهَذَا التَّفْسِير ـ كَمَا تَرىٰ .

(مَا ضَعُفْتُ ، وَلاَ جَبُنْتُ ، وَلاَ خُنْتُ ، وَ لاَ وَهَنْتُ) . قضَىٰ الإِمَام حَياته كلّها في جِهاد مُتصل من أَجل الإِسْلاَم ، وتَحمّلَّ في هَذِه ٱلسَّبيل ما يَفوق التَّصور ، ومَع هَذَا صَبرَ وثَابَرَ ، وما زَاده الْبَلاَء إِلّا ثَباتاً ، وإِخْلاَصاً (وَ آيْمُ اللهِ ، لأَبْقُرَنَّ الْبَاطِلَ حَتَّىٰ أُخْرِجَ الْحَقَّ مِنْ خَاصِرَتِهِ) جَاهد الإِمَام من أَجل الْحَقّ فِي عَهد الرَّسُول ، والخُلَفاء الثَلاثَة ، وهو الآن كَما كَانَ من قَبل ، يشق بَطْن المُبْطِلِين ، ويُخرج الْحَقّ من خَاصِرَتهم ، ويرده إِلىٰ أَهْلِهِ . قَالَ الشَّيخ مُحمّد عَبْدَه : «التَّمثيل في غَايَة من اللُّطف»[1] . وتَقدَّم هَذَا ٱلْمَعْنىٰ ، وهو قَوْل الإِمَام : «الذَّلِيلُ عِنْدِي عَزِيزٌ ، حَتَّىٰ آخُذَ الْحَقَّ لَهُ ، وَالْقَوِيُّ عِنْدِي ضَعِيفٌ ، حَتَّىٰ آخُذَ الْحَقَّ مِنْهُ»[2] .

---

(١) أنظر ، نَهْج البَلاَغَة : ١/٢٠٠ .

(٢) أنظر ، ٱلْخُطْبَةُ : (٣٧) ، (مِنْهُ ﷺ) .

الخطبة

ـ ١٠٥ ـ

لاَ يُعْجِزُهُ مَنْ طَلَبَ...فِقْرَة ١ ـ ٢:

حَتَّىٰ بَعَثَ اللهُ مُحَمَّداً ﷺ ، شَهِيداً ، وَ بَشِيراً ، وَ نَذِيراً ، خَيْرَ الْبَرِيَّةِ طِفْلاً ، وَ أَنْجَبَهَا كَهْلاً ، وَ أَطْهَرَ الْمُطَهَّرِينَ شِيمَةً ، وَ أَجْوَدَ الْمُسْتَمْطَرِينَ دِيمَةً .

فَمَا احْلَوْلَتْ لَكُمُ الدُّنْيَا فِي لَذَّتِهَا ، وَ لاَ تَمَكَّنْتُمْ مِنْ رَضَاعِ أَخْلاَفِهَا إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا صَادَفْتُمُوهَا جَائِلاً خِطَامُهَا ، قَلِقاً ، وَضِينُهَا ، قَدْ صَارَ حَرَامُهَا عِنْدَ أَقْوَامٍ بِمَنْزِلَةِ السِّدْرِ الْمَخْضُودِ ، وَ حَلاَلُهَا بَعِيداً غَيْرَ مَوْجُودٍ ، وَ صَادَفْتُمُوهَا ، وَ اللهِ ظِلّاً مَمْدُوداً إِلَىٰ أَجَلٍ مَعْدُودٍ[1] . فَالْأَرْضُ لَكُمْ شَاغِرَةٌ ، وَ أَيْدِيكُمْ فِيهَا مَبْسُوطَةٌ ، وَ أَيْدِي الْقَادَةِ عَنْكُمْ مَكْفُوفَةٌ ، وَ سُيُوفُكُمْ عَلَيْهِمْ مُسَلَّطَةٌ ، وَ سُيُوفُهُمْ عَنْكُمْ مَقْبُوضَةٌ . أَلاَ وَ إِنَّ لِكُلِّ دَمٍ ثَائِراً ، وَ لِكُلِّ حَقٍّ طَالِباً . وَ إِنَّ الثَّائِرَ فِي دِمَائِنَا كَالْحَاكِمِ فِي حَقِّ نَفْسِهِ ، وَ هُوَ اللهُ الَّذِي لاَ يُعْجِزُهُ مَنْ طَلَبَ ، وَ لاَ يَفُوتُهُ مَنْ هَرَبَ . فَأُقْسِمُ بِاللهِ ، يَا بَنِي أُمَيَّةَ ، عَمَّا قَلِيلٍ لَتَعْرِفُنَّهَا فِي أَيْدِي غَيْرِكُمْ ، وَ فِي دَارِ عَدُوِّكُمْ ! أَلاَ إِنَّ أَبْصَرَ الْأَبْصَارِ مَا نَفَذَ فِي الْخَيْرِ طَرْفُهُ ! أَلاَ إِنَّ أَسْمَعَ الْأَسْمَاعِ مَا وَعَىٰ التَّذْكِيرَ ، وَ قَبِلَهُ[2] !

اللُّغَة:

الشِّيمَة: الْخُلُق. والْمُسْتَمْطَرِينَ: جَمع مُسْتِمْطَر ـ بفتح الطَّاء ـ والْمُرَاد بِهِ هُنَا مَن يُطلب مِنْهُ العَون. والدِّيمَة ـ بكسر الدَّال ـ الْمَطَر الدَّائم بِلا بَرق، ورعد. وأَخْلاَف: جَمع خِلف ـ بكسر الخاء ـ حَلَمة: ضَرْع النَّاقة. والخِطَام: ما يُوضع فِي أَنْف البَعِير لِيُقَادَ بِه. وَالوَضِين: ما يُشد بِه الرّحل علىٰ البَعِير. والْمَخْضُود فِي شَجر السِّدْرِ: لا شَوْك لهُ. وشَغِرَت الأَرْض: لَم يَبق فِيهَا مَن يَحمِيها.

الإِعْرَاب:

شَهِيداً حَال من مُحمّد ﷺ، وخَيْرَ الْبَرِيَّةِ صِفَة لهُ، ويجوز أَنْ يَكون حَالاً، وطِفْلاً تَمْيِيز. ومِثْله شِيمَةً ودِيمَةً، وخِطَامُهَا فَاعِل جَائِلاً، ووَضِينُهَا فَاعِل قَـلِقاً، وبِمَـنْزِلَة السِّدْرِ خَبَر صَارَ، وَحَلاَلُهَا بَعِيداً عَطف علىٰ صَارَ حَرَامُهَا، وَلِكُلِّ حَقٍّ طَالِباً عَطف علىٰ إِنَّ لِكُلِّ دَمٍ ثَائِراً. وعَمَّا «مَّا» زَائِدَة، وقَلِيلٍ مجروز بِعَن.

الْمَعْنىٰ:

(حَتَّىٰ بَعَثَ اللهُ مُحَمَّداً ﷺ، شَهِيداً، وَ بَشِيراً). يَجمع سُـبْحَانَهُ الخَـلاَئِق غَـداً، ويَشْهَد علىٰ كلّ أُمّة رسولُهَا بأنّه قد بَـلغهم رِسَـالات رَبّـه، وإِنّـه بـشّر، وأَنْـذَر مُباشرة، أو بواسطة الْعُلَمَاء، والْفُقَهَاء من الْصَّحَابَة، والتَّـابعين، وغَـيْرهم (خَـيْرَ الْبَرِيَّةِ طِفْلاً) فِي هَديِهِ، وسلوكِهِ (وَ أَنْجَبَهَا كَهْلاً) فِي طِيب سَرِيرَته، وحُسن سِيرَته (وَ أَطْهَرَ الْمُطَهَّرِينَ شِيمَةً) فِي جَمِيع خِصاله (وَ أَجْوَدَ الْمُسْتَمْطَرِينَ دِيمَةً) فِي كَرمِهِ، وعطَائهِ، كَانَ يعطي، ويشعر أَنّه أَخذ أَكْثَر مِمَّا أَعطىٰ، قَالَ أبو ذَرّ:

«خَرجت مَرّة مَع رَسُول الله ﷺ، نَحو جبل أُحد، فَقَالَ لِي: أَتبصر أحداً؟ قلت: نعم، يارَسُول الله. قَالَ: «مَا أُحب أنْ يَكُون لِي مِثْل أُحُد ذَهَباً أنْفقه فِي سَبِيل الله، أَموْت وأَتْرُك مِنْهُ قِيراطِين»[1]. وهُنا يَكمن السّرّ في ثَورَة أبِي ذَرّ علىٰ الَّذِين قَالَ فِيهِمْ البَاري عزّ وَجلّ: ﴿وَٱلَّذِينَ يَكْنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾[2].

وكَمال النَّبِيّ ﷺ في سَائر خِصَاله، وعنَاصر شَخصيته تَمَاماً مثل كَماله في عطَائِه وكَرَمِه، ومن هُنا ٱستحق هَذِه الشَّهادة العُظمىٰ منهُ تَعَالىٰ: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾[3].

(فَمَا ٱحْلَوْلَتْ لَكُمُ الدُّنْيا فِي لَذَّتِها، وَ لاَ تَمَكَّنْتُمْ مِنْ رَضَاعِ أَخْلاَفِهَا إلَّا مِنْ بَعْدِ مَا صَادَفْتُمُوهَا جَائِلاً خِطَامُهَا، قَلِقاً، وَضِينُهَا). الخِطَاب لِلمُسْلِمِين، وٱلْمَعْنىٰ أَنّ مُحَمّداً ﷺ، بِرسَالَته الكَامِلة، وخِلاَله المُثلىٰ، وجِهاده المُتواصل هو الّذي أَخضع لَكُمْ الدُّنْيا، وجعَلها تَحت أَقْدَامكم، ولَكِنَّهُ أَصْبَحت بَعْدَه قَلقة حَائِرة تَنتظر القَائد الْقَوِيّ الحَكِيم ليأخذ بزمامها، ويَسِير بها في طَرِيقهَا الْقَوِيم، وَلاَ تَجِده... فكَان شأنّكم مَع هَذِه الدُّنْيَا الّتي تَركها النَّبِيّ لَكُم تَمَاماً كَرَاكِب النَّاقة الّتي لا يَملك زمامها، وَلاَ يثبت رحلها من تحتهِ.

---

(١) حَقّاً مَا تَرك دِينَاراً، ولاَ دِرهماً، ولاَ عَبداً، ولاَ وَلِيدةً، بل تَرَك دِرعَه مَرهُونةً عِند يَهودِي عَلىٰ ثَلاثِين صَاعاً مِن شَعِير. أُنظر، مَجْمَع الزَّوائد: ٣/ ١٢٠، كَنز الْعُمّال: ٦/ ٣٥٦ ح ١٦٠٣٨، مُسْنَد أحمد: ١/ ٣٠٠، السُّنَن الْكُبْرىٰ: ٤/ ٧، تركَة النَّبِيّ ﷺ لحمّاد بن زيد البَغدادي: ٧٦، البِداية والنِّهايَة: ٥/ ٣٠٥.

(٢) ٱلتَّوْبَة: ٣٤.

(٣) ٱلْقَلَمِ: ٤.

(قَدْ صَارَ حَرَامُهَا عِنْدَ أَقْوَامٍ بِمَنْزِلَةِ السِّدْرِ الْـمَخْضُودِ). هَـذَا بَـيان، وتَـفْسِير لضياعهم، وأنّهم تَمَاماً كالإِبِلِ غَاب رَاعِيها... لأنّ ٱلْحَرَام بعد النَّبِيّ أَصْبَحَ سَهـل المَنال، لا رَادع عنهُ، وَلاَ زَاجر كالسِّدْرِ بلا شَوك (وَ حَلاَلُهَا بَعِيداً غَيْرَ مَـوْجُودٍ). حَرَامُهَا سَهل يَسير، وحَلاَلُهَا صَعب عَسير، والنَّتِيجَة الحَتمِية أنْ يَتنعم فِي الدُّنْـيَا الأَشْرَارِ، ويُشقىٰ الأخْيار، وفِي الْحَدِيث: «الدُّنْيَا سجن الْمُؤْمِن، وجَنَّة الْكَافِر»[1]. وَهَذَا هو الوَاقِع المحسُوس في دَولة الجَوْر، والأَوْضَاع الفَاسِدة حَيْث يَسعد فيها كلّ خَائن، وعَمِيل، ويَشقىٰ فيها كلّ طَيب، ونَبيل... وغَيْر بَعيد أنْ يَكون هَذَا هو الْمُرَاد من الْحَدِيث المَذكور.

(وَ صَادَفْتُمُوهَا، وَ اللهِ ظِلاًّ مَمْدُوداً إِلَىٰ أَجْلٍ مَعْدُودٍ). أنّ دُنْيَاكُم حُلْوَة بِزُخْرُفِهَا ونَعِيمُهَا، ولَكِنَّهُ لَحـظَات، ومـن بـعدها آلاَم، وأَحـزَان، فأَحـذَرُوا الغَـفْلَة مـن العَواقِب، وبَادِرُوا بالصَّالِحَات، والْفُرْصَة سَانِحَة، والحَال هَادِئة (فَـالْأَرْضُ لَكُـمْ شَاغِرَةٌ) خَالِية من الْحَاكِمِ الَّذي يَردَعكم عن ٱلْحَرَامِ... يشير بِهَذِه إِلىٰ ما يَحدث بَعْدَه (وَ أَيْدِيكُمْ فِيهَا مَبْسُوطَةٌ) فِي التَّصرف كَمَا تَشَاءون (وَ أَيْـدِي الْـقَادَةِ عَـنْكُمْ مَكْفُوفَةٌ) لِعجْزهم عن تَأدِيبكم (وَ سُيُوفُكُمْ عَلَيْهِمْ مُسَلَّطَةٌ) أي لا تَهَابُون القَـادَة وتَتمردُونَ عَلَيْهِمْ (وَ سُيُوفُهُمْ عَنْكُمْ مَقْبُوضَةٌ). هَذَا عَطف تَـفْسِير، وبَـيان عـلىٰ «وَأَيْدِي الْقَادَةِ عَنْكُمْ مَكْفُوفَةٌ».

(وَلِكُلِّ حَقٍّ طَالِباً. وَإِنَّ الثَّائِرَ فِي دِمَائِنَا كَالْحَاكِمِ فِي حَقِّ نَفْسِهِ، وَ هُوَ اللهُ الَّذِي لاَ

---

(١) أُنظر، المُـصَنَّف لإبـن أبي شـيبة: ١٢٩/٧ ح ٣٤٧٢٢، تَـفْسِير القُـرطُبي: ٨٨/١٦، صَـحِيح مُسْـلِم: ٢٢٧٢/٤ ح ٢٩٥٦، سنن أبن ماجه: ١٣٧٨/١ ح ٤١٣، سُنن التِّرمذي: ٥٦٢/٤ ح ٢٣٢٤، مـوارد الظَّمآن: ١١٦/١ ح ٢٤٨٨، المُسْتَدرَك علىٰ الصَّحِيحِين: ٦٩٩/٣ ح ٦٥٤٥.

يُعْجِزُهُ مَنْ طَلَبَ، وَ لاَ يَفُوتُهُ مَنْ هَرَبَ). قَالَ آبن أبي الحَـدِيد: «وكأنّـه يَـرمز ـ الإمَام بِهَذا ـ إلىٰ ما سَيقع من قَتل الحُسَيْن، وأهْله، وكأنّه يُشاهد ذَلِكَ عياناً»[(١)]. وعلىٰ هَذَا يَكون آلمَعْنىٰ أنّ ما من دَمٍ يُسفك لأَهْل آلبَيْت الأَطهَار إلّا والله سُبْحَانَهُ هو الطّالب بِهِ القَاضي، والخَصم، لأنّهم لا يَقدمُون، ويَحجمُون إلّا بأمْـرِهِ تَـعَالىٰ وسَيَنْتَقِم مِن أعْدَائِهم: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعْجِزَهُۥ مِن شَيْءٍ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ إِنَّهُۥ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا﴾[(٢)].

(فَأُقْسِمُ بِاللهِ، يَا بَنِي أُمَيَّةَ، عَمَّا قَلِيلٍ لَتَعْرِفُنَّهَا فِـي أَيْـدِي غَـيْرِكُمْ، وَ فِـي دَارِ عَدُوِّكُمْ). حَسِبَ الأُمَوِيُون أنّ الدَّار قَد آطمَأَنَّتْ بِهِمْ بَعد قَتل الإمَام، وإنّ الأَرْض قَد آستَقَرَت تَحتَ أقْدَامِهم بَعد آستِشْهَاد الحُسَيْن، ولكن سُرعان مـا تَـبين لَهـم، ولغيرهم أنّ سُلطان الجَوْر لا يَدُوم، وإنّ دَعْوَة الحَقّ لا تَمُوت... فَتَوالت الثّورَات علىٰ دَولة الأُمَويين، وآستمرت الحُرُوب ضدهم حَتّىٰ ذَهبوا إلىٰ غَيْر رَجْعَة، فَقد آلتَهبت آلقُلُوب، وغَلت أحْقَادها عَلَيْهِمْ، وطَاردهم العَبّاسِيُون وغَيْر العَبّاسِيين، وقتلوُهم أَحياء، وحَرقوا عِظَامهم أمواتاً[(٣)].

---

(١) أنظر، شَرح النّهج: ١٢٠/٧.

(٢) فَاطِرٍ: ٤٤.

(٣) يُشير إلىٰ واقعة عبدالله بن عليّ الوَالي العَبّاسيّ، الّذي نَبش قَبر مُعَاوِيَة فَلم يَجد فـيهِ إلّا خَـيطاً أسْوَداً، ونَبش قَبر عبد المَلك فَوجد جُمجُمَة... وأخرج جُثّة هُشام، وضربها بالسّوط، وهو مَيّت، وصَلبه أيّاماً، ثمّ أحرَقه، ودَق رَمادَه، ثُمّ ذَرّه في الرّيح، و... وحَتّىٰ آلنّسَاء لَم تَنجُ من بَطشهم، و... و... وقَتل في يَوم واحد آثنَيْن وسبعين ألفاً عِند نهرٍ بالرّمله، وبَسط عَلَيْهِمْ الأنْطَاع، ومَد عَلَيْهِمْ سِماطاً فأكلَ، وهم يَختَلِجون عنهُ... حَتّىٰ إذَا مَا فَرغ من طعَامه قَالَ: مَا أكلتُ أكلَةً أطيَب من هَذِه الأكلَة! ثُمّ حَفر بئراً، وألقاهم فِيهِ.

(أَلاَ إِنَّ أَبْصَرَ الأَبْصَارِ مَا نَفَذَ فِي الْخَيْرِ طَرْفُهُ). ضَمِير طَرْفَهُ يَعود إِلىٰ الْبَصَر النَّافِذ، والْمُرَاد بِالطَّرْف هُنا ـ بسكون الرّاء ـ ٱلْعَقْل، لأنّ الْبَصَر يَرىٰ، وٱلْعَقْل يَحكُم، وٱلْمَعْنىٰ أنّ المُبصر حقّاً هو الّذي يُميّز بَيْنَ الْحَقّ، والْبَاطِل، والْخَيْر، والشَّرّ، فيجتَنب هَذَا، ويَفعل ذَاكَ (أَلاَ إِنَّ أَسْمَعَ الأَسْمَاعِ مَا وَعَىٰ التَّذْكِيرَ، وَ قَبِلَهُ) أي إنّ السَّميع حقّاً هو الّذي يَعمل بكلّ خَيرٍ يَسمعَه، وفي معناه قَوْله تَعَالَىٰ: ﴿ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمْ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾[1].

وَظِيفَةُ الإِمَام.. فِقْرَة ٣ ـ ٤:

أَيُّهَا النَّاسُ، ٱسْتَصْبِحُوا مِنْ شُعْلَةِ مِصْبَاحٍ وَاعِظٍ مُتَّعِظٍ، وَ ٱمْتَاحُوا مِنْ صَفْوِ عَيْنٍ قَدْ رُوِّقَتْ مِنَ الْكَدَرِ عِبَادَ اللهِ، لاَ تَرْكَنُوا إِلَىٰ جَهَالَتِكُمْ، وَ لاَ تَنْقَادُوا لِأَهْوَائِكُمْ، فَإِنَّ النَّازِلَ بِهَذَا الْمَنْزِلِ نَازِلٌ بِشَفَا جُرُفٍ هَارٍ، يَنْقُلُ الرَّدَىٰ عَلَىٰ ظَهْرِهِ مِنْ مَوْضِعٍ إِلَىٰ مَوْضِعٍ، لِرَأْيٍ يُحْدِثُهُ بَعْدَ رَأْيٍ، يُرِيدُ أَنْ يُلْصِقَ مَا لاَ يَلْتَصِقُ، وَ يُقَرِّبَ مَا لاَ يَتَقَارَبُ! فَاللهَ اللهَ أَنْ تَشْكُوْا إِلَىٰ مَنْ لاَ يُشْكِي شَجْوَكُمْ، وَ لاَ يَنْقُضُ بِرَأْيِهِ مَا قَدْ أَبْرَمَ لَكُمْ[٣].
إِنَّهُ لَيْسَ عَلَىٰ الإِمَامِ إِلَّا مَا حُمِّلَ مِنْ أَمْرِ رَبِّهِ: الإِبْلاَغُ فِي الْمَوْعِظَةِ، وَالاِجْتِهَادُ فِي النَّصِيحَةِ، وَ الإِحْيَاءُ لِلسُّنَّةِ، وَ إِقَامَةُ الْحُدُودِ عَلَىٰ مُسْتَحِقِّيهَا، وَإِصْدَارُ السُّهْمَانِ عَلَىٰ أَهْلِهَا. فَبَادِرُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِ تَصْوِيحِ نَبْتِهِ، وَ مِنْ قَبْلِ أَنْ تُشْغَلُوا بِأَنْفُسِكُمْ عَنْ

⇐ أنظر، التّأريخ العبّاسيّ والفاطميّ للدّكتور أحمد مُختار العباديّ: ٤٣، دار النّهضة العربية بيروت، تأريخ الخُلفاء: ٢٥٩، مروج الذّهب: ٣/٢٧١.

(١) الزُّمَر: ١٨.

مُسْتَثَارِ الْعِلْمِ مِنْ عِنْدِ أَهْلِهِ ، وَ آنْهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ ، وَ تَنَاهَوْا عَنْهُ ، فَإِنَّمَا أُمِرْتُمْ بِالنَّهْيِ بَعْدَ التَّنَاهِي (٤)!

اللُّغَة:

آسْتَصْبِحُوا: آسْتَضِيئوا أو أَقْدُوا المِصْبَاح. آمْتَاحُوا: آسْتَقُوا. شَفَا الشَّيء: طَرْفَه. والجُرُف: ما تَجرُفه السّيُول. وهَارٍ: مُتصدع مُشرف علىٰ السّقُوط، أو سَقَط بالفِعْل. والرَّدَىٰ: الهَلاَك. والشَّجْو: الحُزْن، وآلْحَاجَة. والسُّهْمَان ـ بضم السِّين ـ النَّصِيب. وتَصَوّحَ النَّبْتُ: تَجَفَّفَ.

الإِعْرَاب:

اللهَ نُصب علىٰ التَّحْذِير أي آحْذَروا الله، أو آتّقُوا الله، والمَصْدَر مِن أَنْ تَشَكَوْا مَجرور بمِن مَحْذُوفَة، والإِبْلاَغُ، ومَا عُطف عَلَيْهِ بَدل مُفصل من مُجمل، والمُبدل منهُ مَا حُمِّلَ.

الْمَعْنىٰ:

(أَيُّهَا النَّاسُ ، آسْتَصْبِحُوا مِنْ شُعْلَةِ مِصْبَاحٍ وَاعِظٍ مُتَّعِظٍ ، وَ آمْتَاحُوا مِنْ صَفْوِ عَيْنٍ قَدْ رُوِّقَتْ مِنَ الْكَدَرِ) يعني الإِمَام نَفْسه مـن المُـصباح الوَاعِـظ المُـتعِظ، والـعَيْن الصَّافِيَة من الْكَدَر، وهو بهذا يَحثُ أَصْحَابه علىٰ أَنْ يَـنْتَفعُوا بِـعِلمِه، ويُـصْلِحوا أَنْفسهم بوعظِهِ، وإرشَاده، فإِنّه يَسير بِهِمْ في طَرِيق الْحَقّ، والنَّجاة.

(عِبَادَ اللهِ ، لاَ تَرْكَنُوا إِلَىٰ جَهَالَتِكُمْ ، وَ لاَ تَنْقَادُوا لِأَهْوَائِكُمْ ، فَإِنَّ النَّـازِلَ بِـهَذَا

الْمَنْزِلِ نَازِلٌ بِشَفَا جُرُفٍ هَارٍ). أَحْذَرُوا الرّكُون إِلىٰ الْجَهْل، والاِنقياد إِلىٰ الْأَهْوَاء وإلاّ كَان مَصيركم الهَلاك، والدَّمار (يَنْقُلُ الرَّدَىٰ عَلَىٰ ظَهْرِهِ مِنْ مَوْضِعٍ إِلَىٰ مَوْضِعٍ، لِرَأْيٍ يُحْدِثُهُ بَعْدَ رَأْيٍ، يُرِيدُ أَنْ يُلْصِقَ مَا لاَ يَلْتَصِقُ، وَ يُقَرِّبَ مَا لاَ يَتَقَارَبُ). يحُوّل الْجَهْل، والْهَوَىٰ دُونَ فهم الْحَقِيقَة، ومَعْرِفَة الصُّواب، وَلاَ يـتركَانَ عـقلاً، وسَمـعَاً وبَصَراً، يُدير صاحبهما بَصره، وبَصيرته في كـلّ شيء، ولَكِـنَّهُ لا يـرىٰ إلّا ذَاتـه وهَواه، وَإِذَا عَدل عن رأي لآخر كَانَ الثّانِي أسوأ، وأَكْثَر ضَرراً. أنّه يرىٰ القَريب بَعيداً، والبَعيد قريباً، ويُحاول أنْ يجمع بَيْنَ الشّيء وضـده، ويـفرق بـينه، وبَـيْنَ لوازمه، وآثَاره، وهو يُحسن صُنعاً، ويُبالغ في الاِحتراز من الأخطاء الْأَهْوَاء.

قَالَ بَعْض عُلَمَاء الاِجْتِمَاع: أَثبتت المُلاحظة أنْ الْجَاهِل يَخلع علىٰ الْأَشْيَاء صِفَات مُتناقضة، ويعتقد أنّ الشّيء يَكُون واحداً، وكَثِيراً في آنٍ واحد، وأنّ الأحلام واقع مادي... وآستنتج بَعْض الْعُلَمَاء من هَذَا أنّ بَعْض المبادىء الّتي يراها كَثِيرُون من البَديهات هِي أَبعد من أنْ تَكُون فطرية تلقائية في عقل ٱلإِنْسَان، وطبيعته.

(فَاللهَ اللهَ أَنْ تَشكَوْا إِلَىٰ مَنْ لاَ يُشْكِي شَجْوَكُمْ، وَ لاَ يَنْقُضُ بِرَأْيِهِ مَـا قَـدْ أَبْـرَمَ لَكُمْ). من الْجَهْل أنْ يَشْكو الْمَرْء إلىٰ مَن لا يواسِيه، وَلاَ يَملك له نَفعاً، وَلاَ ضراً (وَ لاَ يَنْقُضُ بِرَأْيِهِ مَا قَدْ أَبْرَمَ لَكُمْ). وأيضاً من الْجَهْل أنْ يشكو ٱلإِنْسَان إِلىٰ مَن لا عِلم لهُ فِي الدِّين، وَلاَ تجربة له في ٱلْحَيَاة، لأَنّه لا يُبطل عَقِيدَة فَاسدة، وَلاَ فِكرة خَاطئة تَمكنت من نفس صَـاحبها (إِنَّهُ لَيْسَ عَلَىٰ الْإِمَامِ إِلَّا مَا حُمِّلَ مِنْ أَمْـرِ رَبِّـهِ) أي لا يُسأل الرَّاعِيَ أَمَام الله عن رعيته إلّا في خمسٍ، وَهِي:

١ ـ (الْإِبْلاَغُ فِي الْمَوْعِظَةِ) أي عَدم التَّقْصِير في الْأَمْر بالْمَعْرُوفِ، والنَّهي عن الْمُنْكَر.

٢ ـ (وَالاِجْتِهَادُ فِي النَّصِيحَةِ) وَهِيَ المُسَاوَاة بَيْنَ أَفْراد الرَّعِيَّة، وحِمَايَة مَصالحهم المَادية، والأدبية، والسَّير بالجَميع إِلىٰ حيَاة أَفضل.

٣ ـ (وَ الْإِحْيَاءُ لِلسُّنَّةِ) أي الحُكْم بالمَبادىء، والقَوانِين المُقَررة كِتَاباً وسُنَّة، لا بالْهَوَىٰ، والغَرض.

٤ ـ (وَ إِقَامَةُ الْحُدُودِ عَلَىٰ مُسْتَحِقِّيهَا) لا يُدان أي شَخص إلّا بعد أنْ تَثبت إدانَته، فَإِذَا ثَبتت أُخذ بها وحده دُونَ غَيْره من صَحبه، وأُسرته.

٥ ـ (وَإِصْدَارُ السُّهْمَانِ عَلَىٰ أَهْلِهَا) في القَديم كَانَ بَيْت اَلْمَال يُقسم علىٰ الجَيْش والرَّعِيَّة، ومَع الزَّمن أَصْبَحت الدَّوْلَة تَنفقه علىٰ المصَالح العَامَّة كالزِّراعة، والتَّطبيب، والتَّعليم، وما إِلَيْهِ من المصَالح الّتي أُنشئت لها وزارات مُعينة، وفي عَهد الْإِمَام كَانَ بَيْت اَلْمَال يُقسم علىٰ الرَّعِيَّة، ومَعْنَىٰ قَوْله: وَإِصْدَارُ السُّهْمَانِ عَلَىٰ أَهْلِهَا تَقسيم الْأَمْوَال علىٰ مُسْتَحِقِّيهَا. وعن الطَّبَرِي لمّا اجتمع النَّاس لمُبايعة الإِمَام قَالَ لهم: «كُنْتُ كَارِهاً لِإِمْرَتِكُمْ فَأَبَيْتُمْ إِلَّا أَنْ أَكُون عَلَيْكُمْ، أَلَا وإنّه لَيْسَ لِي أَمر دُونَكُمْ إِلّا أنّ مَفَاتِيح مَالِكُمْ مَعِي، وإنّه لَيْسَ لِي أنْ آخُذَ مِنْهُ دِرْهَمَاً دُونَكُمْ... أَرَضِيتُمْ؟ قَالُوا: نَعَم. قَالَ: أَللَّهُمَّ اشْهَد عَلَيْهِمْ»[1]. وأُشير علىٰ الْإِمَام أنْ يُعطي للمُشَاكسِين والمُعَاكسِين لَيَسْتَقيمُوا له. فَقَالَ: «أَتَأْمُرُونِّي أَنْ أَطْلُبَ النَّصْرَ بِالْجَوْرِ فِيمَنْ وُلِّيتُ عَلَيْهِ، وَ اللهِ لا أَطُورُ بِهِ مَا سَمَرَ سَمِيرٌ، وَ مَا أَمَّ نَجْمٌ فِي السَّمَاءِ نَجْماً لَوْ كَانَ الْمَالُ لِي لَسَوَّيْتُ بَيْنَهُمْ، فَكَيْفَ، وَإِنَّمَا الْمَالُ مَالُ اللهِ»[2]؟

(١) أنظر، تَارِيخ الطبري: ١٥٣/٥، الأنساب للبلاذري: ٧٠/٥، أمالي الطوسي: ٧٢٨، مُسْتَدرَك الحَاكِم: ١١٤/٣.

(٢) أنظر، نَهج اَلْبَلاَغَة: اَلْخُطْبَة (١٢٦).

(فَبَادِرُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِ تَصْوِيحِ نَبْتِهِ). خُذوا مِني ٱلْعِلْم قَبل أنْ أُفارقكم، ومِثْله ما جَاء فِي بَعْض الخُطب: «أَيُّهَا النَّاسُ سَلُونِي قَبْلَ أَنْ تَفْقِدُونِي»[1] (وَ مِنْ قَبْلِ أَنْ تُشْغَلُوا بِأَنْفُسِكُمْ) أي بالمُشَاحنَات والخِلاَفَات (عَنْ مُسْتَثَارِ الْعِلْمِ مِنْ عِنْدِ أَهْلِهِ) أي عن مشُوَرَة أَهْل ٱلْعِلْم، وٱلْمَعْنىٰ ٱغْتَنمُوا فُرصَة وجُودِي بَيْنَكُمْ قبل أنْ تفُوتكم بمُوتِي، أو بِما يَحدث بَيْنَكُمْ مِن شِقَاق، ونِزَاع (وَ ٱنْهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ، وَ تَنَاهَوْا عَنْهُ) وَلاَ تَقُولوا مَا لا تَفْعَلُون (فَإِنَّمَا أُمِرْتُمْ بِالنَّهْيِ بَعْدَ التَّنَاهِي). لقد أَمَرَكُم الله سُبْحَانَهُ أَنْ تَعمَلوا بِعَلَمِكُمْ قَبل أنْ تَذيعُوه علىٰ النَّاس، فإنّ كَلاَم العَالِم العَامل فِي تَأثيره كالْمَطَرِ يُحيي الأَرْض بعد موْتها، وإنْ قَلّ عِلمه، أمَا كَلاَم مَن لا يَعمل فإنَّه أَشْبَه بالسَّرَاب، وإنْ كَثُر عِلمه.

---

(١) أنظر، نَهج ٱلْبَلاَغَة: من كتابٍ لهُ عليه السلام رَقم (١٨٩).

الخطبة

-١٠٦-

آلإِسْلاَم .. فِقْرَة ١ ـ ٢:

الْحَمْدُ للهِ الَّذِي شَرَعَ الْإِسْلاَمَ فَسَهَّلَ شَرَائِعَهُ لِمَنْ وَرَدَهُ، وَ أَعَزَّ أَرْكَانَهُ عَلَىٰ مَنْ غَالَبَهُ، فَجَعَلَهُ أَمْناً لِمَنْ عَلِقَهُ، وَ سِلْماً لِمَنْ دَخَلَهُ، وَ بُرْهَاناً لِمَنْ تَكَلَّمَ بِهِ، وَ شَاهِداً لِمَنْ خَاصَمَ عَنْهُ، وَ نُوراً لِمَنِ آسْتَضَاءَ بِهِ، وَ فَهْماً لِمَنْ عَقَلَ، وَ لُبّاً لِمَنْ تَدَبَّرَ، وَ آيَةً لِمَنْ تَوَسَّمَ، وَ تَبْصِرَةً لِمَنْ عَزَمَ، وَ عِبْرَةً لِمَنِ آتَّعَظَ، وَ نَجَاةً لِمَنْ صَدَّقَ، وَ ثِقَةً لِمَنْ تَوَكَّلَ، وَ رَاحَةً لِمَنْ فَوَّضَ، وَ جُنَّةً لِمَنْ صَبَرَ[1]. فَهُوَ أَبْلَجُ الْمَنَاهِجِ، وَ أَوْضَحُ الْوَلاَئِجِ، مُشْرَفُ الْمَنَارِ، مُشْرِقُ الْجَوَادِّ، مُضِيءُ الْمَصَابِيحِ، كَرِيمُ الْمِضْمَارِ، رَفِيعُ الْغَايَةِ، جَامِعُ الْحَلْبَةِ، مُتَنَافِسُ السُّبْقَةِ، شَرِيفُ الْفُرْسَانِ، التَّصْدِيقُ مِنْهَاجُهُ، وَ الصَّالِحَاتُ مَنَارُهُ، وَ الْمَوْتُ غَايَتُهُ، وَ الدُّنْيَا مِضْمَارُهُ، وَ الْقِيَامَةُ حَلْبَتُهُ، وَ الْجَنَّةُ سُبْقَتُهُ[2].

اللُّغَة:

عَلِقَهُ ـ بكسر اللام ـ تعلّق به. وآلْجُنَّة ـ بضم الجيم ـ الوِقَايَة. أَبْلَجُ الصُّبح:

أَشرق، وأضَاء. الْمَنَاهِجِ: جَمع مَنْهَج أي الطَّرِيق الْوَاضِح. والْوَلاَئِجِ: جَمع الوَلِيجَة، وَهِي دَخيلة ٱلإِنْسَان، أو خَاصته، وبطَانته. والْجَوَادُّ ـ بِتَشدِيد الدّال ـ جَمع جَادّة أي الطَّرِيق. والمِضْمَار: مَحل تَضمير الخَيْل للسِّباق، أو السِّباق نَفْسَه. والْحَلْبَةِ: خَيل تُجمع للسِّباق، أو للنُّصرَة. والسُّبْقَةِ ـ بِتَشدِيد السِّين، وضمها ـ جَزاء السَّابقِين.

الإِعْرَاب:

أَبْلَجُ، ومُشْرِفُ، وما بَعْدَه من الأَوصَاف كلّها أَخبار لـ«فَهُوَ».

شَرِيعَة ٱلإِسْلَام:

(الْحَمْدُ للهِ الَّذِي شَرَعَ الإِسْلاَمَ فَسَهَّلَ شَرَائِعَهُ لِمَنْ وَرَدَهُ، وَ أَعَزَّ أَرْكَانَهُ عَلَىٰ مَنْ غَالَبَهُ). الْمُرَاد بالأركَانَ هُنا أُصول الْعَقِيدَة، وَهِي الإِيمَان بالله، وبكلّ ما يُليق من كمَال، وجَلال، وَهَذَا الإِيمَان يَضع النَّاس كلّهم علىٰ مُستوىٰ واحد في الحُقُوق، والوَاجبات، وَلاَ يَمنح لأحد حقّاً يُسيطر بِه، ويستَعلي علىٰ غَيْره. والإِيمَان بمُحَمّدﷺ، وسُنَته، ومَعْنَىٰ هَذَا الإِيمَان في واقعه الاِلتزام بالْقِيَّم ٱلإِنْسَانية، والعلاقات الاِجْتِمَاعية علىٰ أساس الْعَدْل، والمُسَاوَاة. والأصل الثَّالث، والإِيمَان بالْيَوْم الآخر، والحِسَاب، والْجَزَاء، ولَيْسَ من شك أنّ الإِيمَان بِهَذَا الْيَوْم يَعود بالخَيْر الكَثِير علىٰ صَاحبه، ومُجتمعه، لأنّ من يَنكره يَستغرق ـ غَالباً ـ في الْفَرْدية وٱنتهاب المَلذات، ويرىٰ ٱلْحَيَاة الدُّنْيَا هِي الْفُرْصَة الوَحِيدَة للاِنتفاع، والاِستمتاع، وإنّ ٱحترام الْقِيَّم، والقَوَانِين الرَّادعة سُخف، وحمَاقة.

والْمُرَاد بالشَّرائع في كَلاَم الإِمَام الأُسس، والمبَادِيء الْعَامَّة للتَّشريع، مثل لا

ضَرَر، وَلاَ حَرَج، والضَّرَر الأشد يُزال بالضَّرَر الأَخَف، وكلّ إنْسَان بَريء حَتَّىٰ تَثبت إدانته، ورعاية الْمَصْلَحَة في تَصرف الأَوْلِيَاء، والأَوْصِيَاء، والْعُقُود تَتَبَّع القصُود، وَلاَ يَحل مَال أمريء إلّا بسبب مَشروع، وَلاَ عِبرة بالظَنّ، والْقِصَاص إنّما هو بالمِثل، والاِجتهاد لا يُنقض بِمِثْله... إلىٰ غَيْر ذَلِكَ من المبادئ الّتي لا يُنْكِرها عَاقل، فكلّ إنْسَان يُحب بطبعه جَلب الْمَنَافِع، ودَرء المضَار، ويَبغض ما هو بِخلاف ذَلِكَ، قَالَ المُستشرق الاِنجليزي «جَب»: «إنّ الإِسْلاَمَ لَيْسَ دِيناً بِالْمَعْنَىٰ المُجرد الَّذي نَفهمه الْيَوْم من هَذِه الكَلِمَة، بل هو مُجتمع بَلغ تَمام الكَمَال، ويشمل كلّ مظاهر الْحَيَاة الإِنْسَانية»[1]. وَقَالَ المُستشرق الألماني «بَرج»: «إنّ فَلْسَفَة الإِسْلاَم تَقوم دَائماً علىٰ وَضع الْمَصْلَحَة الْعَامَّة فَوق الْمَصْلَحَة الْفَرْدية، وإنّ مَبدأ الإخاء الإِنْسَاني هو أَساس فَلْسَفَة الأَخْلاَق الاِجْتِمَاعية في الإِسْلاَم»[2]. وفي الْحَدِيث الشَّرِيف: «أتيتكُم بالشَّرِيعَة السَّهلة السَّمحة»[3].

(فَجَعَلَهُ أَمْناً لِمَنْ عَلِقَهُ) أي تَعلق به، ومِمَّا وَصف بِهِ الإِمَام الْكِتَاب العَزيز قَوْله: «وَالْعِصْمَةُ لِلْمُتَمَسِّكِ، وَالنَّجَاةُ لِلْمُتَعَلِّقِ»[4]. فمن الْتزم بتَعَالِيم الإِسْلاَم قَوْلاً، وعملاً ـ أَمِن العواقب في دُنْيَاه، وآخرته (وَ سِلْماً لِمَنْ دَخَلَهُ) أي لو عَمِل بِهِ النَّاس لسَلموا من عَذاب الله في الآخِرَةِ، وعَاشوا في الدُّنْيَا بأمنٍ، وسلاَم، لا حَرْب علىٰ الثَّورات، وَلاَ صراع علىٰ الاِحْتِكَارات (وَ بُرْهَاناً لِمَنْ تَكَلَّمَ بِهِ) لأنّه حَقٌّ،

---

(١) أنظر، الْقُرآن، والفَلْسَفَة لمُحَمّد يُوسُف مُوسَىٰ: ١٤ طَبْعَة ١٩٥٧م.
(٢) أنظر، الْقُرآن، والفَلْسَفَة لمُحَمّد يُوسُف مُوسَىٰ: ١٥ طَبْعَة ١٩٥٧م. (مِنْهُ ﷺ).
(٣) أنظر، تُحْفَة الأَحْوَذي: ٥/١٥٣، الكَافِي للشيخ الكليني: ٥/٤٩٤.
(٤) أنظر، نَهج الْبَلاَغَة: من كلامٍ له ﷺ خَاطب بِهِ أَهْل الْبَصْرَة رَقم (١٥٦).

وصِدقٌ، ومَن صَارع الْحَقّ صَرعه، ولو بالحُجّة، والدَّليل.

(وَ شَاهِداً لِمَنْ خَاصَمَ عَنْهُ) أيضاً لأنّه حَقٌّ، وصِدقٌ، وبأي مَنطق يَرد علىٰ الْإِسْلاَم عداوه، وخُصومة؟. أبمنطق ٱلعَقْل، والنَّبِيّ يقُول: أَصلُ دِيني ٱلعَقْل، وٱلْقُرْآن يقُول: ﴿إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلصُّمُّ ٱلْبُكْمُ ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ﴾[1]. أو يَردُونَ عَلَيْهِ بمنطِق ٱلْعِلْم؟ وما حَثّ دِينٍ من الْأَدْيَان علىٰ طَلَب ٱلْعِلْم كما حَثّ ﷺ، فقد ٱعتبره فَريضة، ورَفع أَهْله دَرجات، فَهل يَرفع الْعَدُوّ من شأنْ عَدُوّه؟ فَعظَمة الْإِسْلاَم بمبادئِه، وتَعاليمه هِي الّتي تَذب عَنْه، ولَوْلاَهَا ما ٱستطاع مُحمّد ﷺ أنْ يَتغلب علىٰ الجَاهِلية، وعتوها.

(وَ نُوراً لِمَنِ ٱسْتَضَاءَ بِهِ) لأنّه يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ (وَ فَهْماً لِمَنْ عَقَلَ).

الْمُرَاد بالفَهْم هُنا ٱلْعِلْم... وَهَذَا هو التَّأَرِيخ يَشهد، ويَنطق بالمقام الخَالد المحمُود لأَهْل ٱلْعِلْم بحَلاَلِ الْإِسْلاَم، وحرامِهِ (وَ لُبّاً لِمَنْ تَدَبَّرَ). إنّ الْإِسْلاَم يُنير ٱلعَقْل بأَضْوَاءِ ٱلْعِلْم، شَرِيطة أنْ يَفهمه فَهْم دِرايَة، ورعَايَة، لا فَهْم حِفظ، وروايَة (وَ آيَةً لِمَنْ تَوَسَّمَ) مَن أَدرك الْإِسْلاَم علىٰ حقيقتهِ أَرشده إلىٰ طَرِيق الصَّواب، والأَمَان (وَ تَبْصِرَةً لِمَنْ عَزَمَ) مَن نَشَد الْهِدَايَة حقّاً فعند الْإِسْلاَم ضَالته، وأُمنيته (وَ عِبْرَةً لِمَنِ ٱتَّعَظَ) بِمَا فِي كتاب الله من أَخبار الأُمم المَاضية، والقُرون الخَالية، وشُؤُون الْأَرْض وٱلسَّمَاء، وأَحْوَال الدُّنْيا، والْآخِرَة، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾[2].

(وَ نَجَاةً لِمَنْ صَدَّقَ) أي لِمَنْ آمن بالْإِسْلاَم عَن صِدقٍ، وإِخْلاَص (وَ ثِقَةً لِمَنْ

---

(١) ٱلْأَنفال: ٢٢.

(٢) ٱلْحَشر: ٢١.

تَوَكَّلَ) لأنّ الله سُبْحَانَهُ ، وَعَد الْمُتَّقِين ، والْمُتَوَكِّلِين عَلَيْهِ بالحُسنىٰ : ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ إِنَّ ٱللَّهَ بَـٰلِغُ أَمْرِهِۦ قَدْ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَىْءٍ قَدْرًا﴾[1] ، ﴿فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ﴾[2] . (وَ رَاحَةً لِمَنْ فَوَّضَ) مَن سَلَّم أُموره لله أمتلأ قَلبه أَمناً ، وسَكِينَة (وَ جُنَّةً لِمَنْ صَبَرَ) أي وقَايَة من الآفات لِمن ثَبت علىٰ الحَقِّ ، ولَم تأخذه فِيهِ لَومة لائم (فَهُوَ أَبْلَجُ الْـمَنَاهِجِ) إنّ طَريق الإِسْلاَم إِلىٰ الحَـقِّ أَوضح الطُّرق ، وأَسلمها عَاقِبَة (وَ أَوْضَحُ الْوَلاَئِجِ) . في الإِسْلاَم كُنوز ، وفَوائد ، وكلّها جَلية واضحة (مُشْرَفُ الْمَنَارِ) لا بَاطنية في أُصول الإِسْلاَم ، وَلاَ في فرُوعه ، فهَذه مَدارسه ، ومعَاهده تُرحب بكلّ طَالبٍ ، وراغبٍ ، وهَـذَا كـتاب الله ، وسُـنَّة نَـبِيِّه يقرأهما من شَاء ، وأرَاد .

(مُشْرِقُ الْجَوَادِّ) هَذَا تَفْسِير ، وبَيان لأَبْلَج الْمَنَاهِج (كَرِيمُ الْمِضْمَارِ) أي سَـبق الأَدْيَان بشريعته ، وتَعَاليمه ، أو من عَمل بِهِ كَان من أَهْـل السّـبق إِلىٰ الحَسَـنَات ، والمُكرمَات (رَفِيعُ الْغَايَةِ) لأنّ تَـعَالِيمه تَهـدف إِلىٰ هِـدَايَـة البَّـشر ، وإِسْعَادهم ، والمُسَاوَاة بَيْنَ أَفرادهم (جَامِعُ الْحَلْبَةِ) يَجمع الأَخيار ، والمُجاهدين من أَجل الحَـقّ تَحت رَايته (مُتَنَافِسُ السُّبْقَةِ) يَتنافس المُهتدون بِهِ إِلىٰ الخَـيْرَات ، لا إِلىٰ الثَّروات ، والإِحْتِكَارات (شَرِيفُ الْفُرْسَانِ) كالأَئِمَّة ، والْعُلَمَاء الأبـرار (التَّـصْدِيقُ مِـنْهَاجُهُ) طَرِيقه الإِيمَان الخَالِص من كلّ شَائبة (وَ الصَّالِحَاتُ مَنَارُهُ) لا عَلامَة علىٰ إِسْلاَم مَن آدعاه إِلّا الأَعْمَال الصَّالِحَة ، فبالإِيمَان يُسْـتَدل عـلىٰ الصَّـالِحَات ، وبـالصَّالِحَاتِ يُسْتَدل علىٰ الإِيمَان كَمَا قَالَ الإِمَامعليه السلام .

(١) ٱلطَّلَاقِ : ٣.

(٢) آلِ عِمْرَانَ : ١٥٩.

(وَ الْمَوْتُ غَايَتُهُ) أي لا إسْلاَم، وَلاَ تَكلِيف بَعد ٱلْمَوْت، فِيهِ يَنقطع كلّ شَيء، فبَادِرُوا ٱلْعَمَل ما دُمتم فِي هَذِه الدَّار، ويدُل علىٰ إرَادَة هَذَا ٱلْمَعْنَىٰ قَوْله بلا فَاصل: (وَ الدُّنْيَا مِضْمَارُهُ) أي محل ٱلْعَمَل بالإسْلاَم، ومبادئه الدُّنْيَا لا الآخِرَةِ. ومن أقْوَال الإمَام: «الْيَوْمَ عَمَلٌ وَلاَ حِسَابَ، وَغَداً حِسَابٌ وَلاَ عَمَلَ»[1] (وَ الْقِيَامَةُ حَلْبَتُهُ) الْيَوْم الآخر هو المكَان الَّذي تجْتَمِع فِيهِ الخَلاَئِق لِلْحِسَابِ، والْجَزَاء، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثًا﴾[2]. (وَ الْجَنَّةُ سُبْقَتُهُ) إنَّهَا جَزَاء السَّابقين إلىٰ دِين الله، وٱلْعَمَل بأَحْكَامه.

وَٱحْشُرْنَا فِي زُمْرَتِهِ...فِقْرَة ٣:

حَتَّىٰ أَوْرَىٰ قَبَساً لِقَابِسٍ، وَ أَنَارَ عَلَماً لِحَابِسٍ، فَهُوَ أَمِينُكَ الْمَأْمُونُ، وَ شَهِيدُكَ، يَوْمَ الدِّينِ، وَ بَعِيثُكَ نِعْمَةً، وَ رَسُولُكَ بِالْحَقِّ رَحْمَةً. أَللَّهُمَّ ٱقْسِمْ لَهُ مَقْسَماً مِنْ عَدْلِكَ، وَٱجْزِهِ مُضَعَّفَاتِ الْخَيْرِ مِنْ فَضْلِكَ. أَللَّهُمَّ أَعْلِ عَلَىٰ بِنَاءِ الْبَانِينَ بِنَاءَهُ! وَ أَكْرِمْ لَدَيْكَ نُزُلَهُ، وَ شَرِّفْ عِنْدَكَ مَنْزِلَهُ، وَ آتِهِ الْوَسِيلَةَ، وَ أَعْطِهِ السَّنَاءَ، وَ الْفَضِيلَةَ، وَ ٱحْشُرْنَا فِي زُمْرَتِهِ غَيْرَ خَزَايَا، وَ لاَ نَادِمِينَ، وَ لاَ نَاكِبِينَ، وَ لاَ نَاكِثِينَ، وَ لاَ ضَالِّينَ، وَ لاَ مُضِلِّينَ، وَ لاَ مَفْتُونِينَ[3].

اللُّغَة:

أَوْرَىٰ: أَوْقَد. والْقَبَس: الشُّعلة من النَّارِ. والقَابِس: آخذ النَّار من النَّار.

(١) أُنظر، نَهْج ٱلْبَلاَغَة: من كتابٍ له عليه السلام رَقم (٤٢).

(٢) ٱلنِّسَاء: ٨٧.

والحَابِس: من أَحجم عن السَّير لجَهله بِالطَّرِيق. والشَّهِيد: الشَّاهِد. والبَعِيث: المَبعُوث. والمَقْسَم: النَّصِيب. والنُّزُل ـ بضم النّون، والزّاء ـ ما هيىء للضَّيف. والْوَسِيلَة: ما تُوجِب القُرب. والسَّنَاءَ: الرِّفعَة. وخَزَايَا: جَمع خَزْيَان من الخِزْي. والنَّاكِب: من عَدل عن الطَّرِيق. والنَّاكِث: من نَقَض العَهد. والمَفْتُون: كالمَجْنُون من شِدّة ولهُه، ولهَفَته.

الْإِعْرَاب:

الْمَأْمُونُ صِفَة مؤكدة لأَمِينُكَ، ونِعْمَةً مَفْعُول من أَجله لبَعِيثُكَ، ومِثْلهَا رَحْمَةً، وغَيْرَ خَزَايَا حَال من مَفْعُول ٱحْشُرْنَا.

مُحَمّدٌ، وعَلِيٌّ:

تَقَدَّم نَظِير هَذَا الْوَصْف[1]، وحين يَتَكَلَّم الإِمَام عن الرَّسُول فإِنَّه يَقُول عن حسٍّ، وعَيان، فلقد خالطه، وَلاَزمه حَوالي ثَلاثين عَاماً في حِله، وترحَاله، وسِلمه، وحَرْبه... هَذَا، إِلىٰ قُوَّة دِينه وإِيمَانه، ورسوخ تصديقه، ويقينه بالله ورَسُوله.... نَشأ عَلِيّ في بَيْت مُحَمّد، والَّذي كَانَ يَسهر علىٰ تَهذيبه، وتَربيته بروحه، وشمائله، وكَانَ الإِمَام يَسْمَع له، ويُطيع، ويحُبّه أَكْثَر من أُمّه، وأَبيه، وكَانَ يُحدث الغُلمان فِي سِنه عن فضل الرَّسول الأَعْظَم ﷺ قبل أَنْ يُنزَل عَلَيْهِ الوحيّ كما جَاء في كتاب «مُحَمّد رَسُول الْحُرِّيَّة» لعبد ٱلرَّحْمَان الشَّرقاوي، ومَعْنَىٰ هَذَا أَنّ عَلِيّاً

(١) أُنظر، نَهج ٱلبَلاَغَة: ٱلْخُطْبَةُ (٧٢). (مِنهُ ﷺ).

مُنذ طفولته كَانَ مُولعاً برسول الله، ودَاعية له قبل أنْ يُبعث رَحْمَة للـعَالمين، وإذَنْ فلا بُدع إذَا عَدّد الإِمَام، وكَرر خِلال سيّد الكَوْنين، ومناقبه، وبالخصُوص بعد أنْ غيّر وجه الأرْض، وظهرت رِسَالَته علىٰ الدِّين كلّه... علىٰ أنّ النَّبيّ ﷺ فضل الهِدَايَة علىٰ كلّ من آهتدىٰ، ويهْتَدي بنوره، ولاَ يُتم دِين المُسْلِم إلاّ إذَا كَانَ في جَميع أَقْوَاله، وأفعاله مَع نَبِيّه، وقُدّسه في كلّ حِين.

الْمَعْنىٰ:

(حَتَّىٰ أَوْرَىٰ قَبَساً لِقَابِسٍ) أَعطىٰ مُحَمّد ﷺ الهِدَايَة لكلّ من ينشدها تَمَاماً كالْقُرْآن الْكَرِيمِ الَّذي وصفه سُبْحَانَهُ بأنّه: ﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾(١) أي لِمن أَراد أنْ يَتقي الله حقّاً وصِدقاً، أمَا المُكابر المُعاند فَلا يَنْتَفع بواعظ، وواعظة (وَ أَنَارَ عَلَماً لِحَابِسٍ) دَلَّ التَّائِه الحَائر إلىٰ نَهج السَّبيل (فَهُوَ أَمِينُكَ الْمَأْمُونُ) علىٰ وَحيّك (وَ شَهِيدُكَ، يَوْمَ الدِّينِ) علىٰ خَلْقِك (وَ بَعِيثُكَ نِعْمَةً) كُبرى يَجب شُكرها علىٰ عِبادك (وَ رَسُولُكَ بِالْحَقِّ رَحْمَةً) للعَالمين يَحرص علىٰ خَير الجَميع، وسَعَادَتهم مِن غَير فَرق بَيْنَ أَوْلِيَائه، وأَعْدَائه.

(أَللَّهُمَّ آقْسِمْ لَهُ مَقْسَماً مِنْ عَدْلِكَ). وعَدْل الله كَائن لا مَحَاله. ولكن غَرض الإِمَام من هَذَا الدُّعَاء مُجرد التَّعظيم لرسول الله ﷺ مَع الإيمَاء إلىٰ أنّه عَظيم عند الله بمُوجب عَدْله سُبْحَانَهُ الَّذي أَشار إِلَيْهِ بقَوْله، جَلَّ من قَائِل: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ﴾(٢). فكَيْفَ بِمن أَخرج النَّاس من الظُّلمات إلىٰ آلنُّورِ؟ (وَآجْزِهِ مُضَعَّفَاتِ

(١) ٱلبَقَرَة: ٢.

(٢) ٱلزَّلزَلَة: ٧.

الْخَيْرِ مِنْ فَضْلِكَ) ضَاعف أَللَّهُمَّ الأجر لنَّبيّك ٱلْكَرِيمِ أَضْعَافاً مُضَاعَفَة، حَتَّىٰ لا يُدانِيه فِي ذَلِكَ أحد من أَهْل ٱلسَّمَاوَات، والأَرْض (أَللَّهُمَّ أَعْلِ عَلَىٰ بِنَاءِ الْبَانِينَ بِنَاءَهُ) أرفع شأنه فوق كلّ شأن دُنْياً، وآخرة (وَأَكْرِمْ لَدَيْكَ نُزُلَهُ) من الْكَرَامَة الّتي أَعددتها للصَّفوة النَّازلين في رِحابك (وَشَرِّفْ عِنْدَكَ مَنْزِلَهُ) فَقد تَحمل الكَثِير فِي سَبيل إعْلاَء كلمتك (وَآتِهِ الْوَسِيلَةَ) الّتي يَبلغ بِها الدَّرجَات العُلىٰ (وَأَعْطِهِ السَّنَاءَ، وَالْفَضِيلَةَ) أي الدَّرجة الرَّفيعة في كلّ فضلٍ، وخَيرٍ.

(وَٱحْشُرْنَا فِي زُمْرَتِهِ). وكلّ مُسْلِم يَحشره الله فِي زُمْرَة نَبِيِّه إِذَا عَاش مَعه فِي أَهدَافه وأَقْوَاله، وأَفعاله، أمّا مَن يُعلن ٱسمه علىٰ المَنابر، والمآذن، ويُقيم في مَولده الحَفلاَت، ثُمّ يَبتعد، ويَنقطع عن سُننه، وشَريعته ـ فإنّ الله سُبْحَانَهُ يبْعدَه في الْآخِرَةِ عن نَبِيِّه كَمَا ٱبتعد عنهُ في الدُّنْيَا، ونَكث عَهْدِه، ونَكب عن طَرِيقه، وٱفتَتَن بالأَبَاطِيل، والأَضَالِيل.

لاَ يَغْضَبُونَ لله...فِقْرَة ٤ ـ ٥:

وَ قَدْ بَلَغْتُمْ مِنْ كَرَامَةِ اللهِ تَعَالَىٰ لَكُمْ مَنْزِلَةً تُكْرَمُ بِهَا إِمَاؤُكُمْ، وَ تُوصَلُ بِهَا جِيرَانُكُمْ، وَ يُعَظِّمُكُمْ مَنْ لاَ فَضْلَ لَكُمْ عَلَيْهِ، وَ لاَ يَدَ لَكُمْ عِنْدَهُ، وَ يَهَابُكُمْ مَنْ لاَ يَخَافُ لَكُمْ سَطْوَةً، وَ لاَ لَكُمْ عَلَيْهِ إِمْرَةٌ. وَ قَدْ تَرَوْنَ عُهُودَ اللهِ مَنْقُوضَةً فَلاَ تَغْضَبُونَ! وَ أَنْتُمْ لِنَقْضِ ذِمَمِ آبَائِكُمْ تَأْنَفُونَ[٤]! وَكَانَتْ أُمُورُ اللهِ عَلَيْكُمْ تَرِدُ، وَ عَنْكُمْ تَصْدُرُ، وَ إِلَيْكُمْ تَرْجِعُ، فَمَكَّنْتُمُ الظَّلَمَةَ مِنْ مَنْزِلَتِكُمْ، وَ أَلْقَيْتُمْ إِلَيْهِمْ أَزِمَّتَكُمْ، وَ أَسْلَمْتُمْ أُمُورَ اللهِ فِي أَيْدِيهِمْ، يَعْمَلُونَ بِالشُّبُهَاتِ، وَ يَسِيرُونَ فِي الشَّهَوَاتِ، وَ ايْمُ اللهِ، لَوْ فَرَّقُوكُمْ تَحْتَ كُلِّ كَوْكَبٍ، لَجَمَعَكُمُ اللهُ لِشَرِّ يَوْمٍ لَهُمْ[٥]!

المَعْنىٰ:

قَالَ ٱبن أَبي ٱلْحَدِيد: «وَبَخَّ الإِمَامُ عليه السلام بهذا الخِطَاب أَصْحَابه الَّذِين ٱسلمو مُدنهم، ونواحيهم لجيوش مُعَاوِيَة كالأَنْبَار، وغَيْرِها»[1]. إنّ الله سُبْحَانَهُ أَعزَّ الْعَرَب بمُحَمّد والْإِسْلاَم، وأَعزّه بِهِمْ، فنشروا لواءه في أَقطار الأَرْض شَرقاً، وغَرباً، وٱستقامت لهم ٱلْحَيَاة صَافية نَقيّة، والإِمَام عليه السلام يُذكرهم بِهَذه النِّعْمَة بقَوْله: (وَ قَدْ بَلَغْتُمْ مِنْ كَرَامَةِ اللهِ تَعَالَىٰ لَكُمْ مَنْزِلَةً تُكْرَمُ بِهَا إِمَاؤُكُمْ)، وَكُنتُم من قَبل أَشبَه بالإِمَاء، والعَبيد لضَّعفكُم، وهَوانكُم علىٰ النَّاس كما أَشارت الآيَة: ﴿وَٱذْكُرُوٓاْ إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِى ٱلْأَرْضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ ٱلنَّاسُ فَـَٔاوَىٰكُمْ وَأَيَّدَكُم بِنَصْرِهِۦ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾[2].

(وَ تُوصَلُ بِهَا جِيرَانُكُمْ). في كُتب اللُّغَة: إنّ كَلِمَة الجَار تُطلق علىٰ المُجَاور، وعلىٰ المُجير، والمُستجير. والمُرَاد بالجيرَان هُنا كلّ مَن يَمت إِلىٰ أَهْل الإِسْلاَم بصِلَة[3]. (وَ يُعَظِّمُكُمْ مَنْ لاَ فَضْلَ لَكُمْ عَلَيْهِ، وَ لاَ يَدَ لَكُمْ عِنْدَهُ، وَ يَهَابُكُمْ مَنْ لاَ يَخَافُ لَكُمْ سَطْوَةً، وَ لاَ لَكُمْ عَلَيْهِ إِمْرَةٌ) أي أنّ الإِسْلاَم جَلب لَكُم نَصراً مُؤزراً، وأَضْفَىٰ عَلَيْكُمْ هَيْبَةً، وجَلالاً، وفرض ٱحترامكم علىٰ الجَمِيع حَتَّىٰ الْقَوِيّ كَان يَعظمكُم لا مِن رَهْبَةٍ، أو رَغْبَةٍ، بل لأنّه يَرَاكُم أَهلاً للتَّعظِيم، والتَّكرِيم، قَالَ ٱبن أَبي ٱلْحَدِيد: إنّ مُلوك الهند، والصّين، وأَمثَالهم هَابوا دَولة الإِسْلاَم، وإنْ لَم يَخافوا سَطوة سَيْفهم،

(١) أُنظر، شَرح نَهْج ٱلبَلاَغَة: ١٧٦/٧.

(٢) ٱلأَنفَالِ: ٢٦.

(٣) أُنظر، مُختار الصّحاح: ٤٩/١، لِسَان الْعَرَب: ١٥٤/٤.

لأنّه شَاع، وذَاع أَنّهم قَومٌ صَالحُون»[١].

(وَ قَدْ تَرَوْنَ عُهُودَ اللهِ مَنْقُوضَةً فَلاَ تَغْضَبُونَ ! وَ أَنْتُمْ لِنَقْضِ ذِمَمِ آبَائِكُمْ تَأْنَفُونَ). كَانَتْ الحَرْب بَيْنَ عَلِيّ، ومُعَاوِيَة حَرْباً بَيْنَ الحَقّ، والبَاطِل، بَيْنَ الدِّين الخَالِص لله، وبَيْنَ دُنْيَا الضَّلال، والفَسَاد، ومَع هَذَا كَانَ أَصْحَاب الإِمَام يتثاقلون عن نُصرتهِ، فَقَالَ لهم مُؤنباً، ومُقرعاً: تَغضبون للآبَاء، وَتَتَعصَّبُون لمَا أبرموا مِن عهود ومواثيق، وَلاَ تَغضبون لعهد الله، وميثاقه إِذَا نُقض، وأُهمل (وَكَانَتْ أُمُورُ اللهِ عَلَيْكُمْ تَرِدُ) بكسر الرَّاء، والمُرَاد بأُموره تَعَالَىٰ هُنا شريعته، وحَلاله، وحرَامه، وأنّهم كَانُوا يأخذونها من النَّبِيّ، ثُمّ من الإِمَام (وَ عَنْكُمْ تَصْدُرُ) أي وأَنْتُم بِدَوركم تُعلّمونها للنَّاس (وَ إِلَيْكُمْ تَرْجِعُ) وكَان النَّاس يُراجعوكم في مَعْرِفَتِها، ودَفع الشُّبهات عَنْهَا، أو كَانَ النَّاس يُرْجِعُونها إِلَيكُمْ بالنَّظر إِلىٰ أَنّهم يُعلمونها أبنَاءكم وأحفَادكم علىٰ حَدّ تَفْسِير ابن أبي الحَدِيد[٢].

(فَمَكَّنْتُمُ الظَّلَمَةَ مِنْ مَنْزِلَتِكُمْ، وَ أَلْقَيْتُمْ إِلَيْهِمْ أَزِمَّتَكُمْ، وَ أَسْلَمْتُمْ أُمُورَ اللهِ فِي أَيْدِيهِمْ) انتقل الحُكْم مِنْكُم إِلىٰ أَعْدَاء الله، وأعدائكم، وأَنْتُم السَّبب حَيْث عَرفتم، وضَعفتم عن قتالهم، وجهادهم... لقد جَاهد المُسْلِمُون من قَبل، وهم علىٰ يَقين من إحْدَىٰ الحُسْنَيَيْنِ: أمّا الإِنْتصَار علىٰ الأعداء مَع الأجر العَظِيم دُنْياً، وآخرة: وأمّا الفَوْز بنِعْمَة الشَّهَادة، والحَيَاة عِند لله، فَكَانَتْ لَهم العِزَّة، والكَرَامَة بهَذِه الرُّوح الصَّادقة المُجاهدة، أمّا أَنْتُم فَحرصتم علىٰ الحَيَاة، وجبنتم عن الجِهَاد، واستَسْلَمتُم للأعدَاء، فكان نَصيبكم الذُّل، والهوَان.

---

(١) أنظر، شَرح نَهج البَلاَغَة: ٧/١٧٧.
(٢) أنظر، شَرح نَهج البَلاَغَة: ٧/١٧٨.

(يَعْمَلُونَ بِالشُّبُهَاتِ) إنّ الَّذِين أسْلمتُم هم أُمور الله سُبْحَانَهُ يرتكبُون ٱلْحَـرَام لُمجرد ٱحتمال الحَلال ، ويُحرفون ، ويُزيفون (وَ يَسِيرُونَ فِي الشَّهَوَاتِ) لا يَـردعهم عَنْهَا دِين ، وَلاَ ضَمير (وَ ٱيْمُ اللهِ ، لَوْ فَرَّقُوكُمْ تَحْتَ كُلِّ كَوْكَبٍ ، لَجَمَعَكُمُ اللهُ لِشَرِّ يَوْمٍ لَهُمْ) يُومىء بهَذا إلىٰ ثورَة أَهْل الْعِرَاق ، وغَيْرهم علىٰ الْدَّوْلَة الأُمويّة ، وإنّ كلمتهُم ستَجْتَمِع علىٰ حَرْبها ، وإنّ الأُمُويين سَيبذلون غَايَة الجُهد لتفتيتهم ، وتشَتّيتهُم هُنا وهناك تَمَاماً كنجوم ٱلسَّماء ، كلّ نَجم في فَلكه ، ولكن شَاء الله سُبْحَانَهُ أنْ تَدور الأَيَّام علىٰ أَهْل الشَّام ، والأُمُويين في عَهد مَرْوَان بن مُحَمّد ، وأنْ يَنتقم مِنْهُم أَهْل الْعِرَاق وغَيْرهم ، كما دَارت علىٰ أَهْل الْعِرَاق ، ونكلَّ بِهِمْ الشَّاميُون فِي عهد مُعَاوِيَة .

وَهَذَا من إخبار الإِمَامعليه السلام عن المُغيبات عن النَّبيّصلى الله عليه وآله وسلم عن الله ، عَظُمت كَلمته .

الخطبة

-١٠٧-

يَوْمٌ مِن أَيَّامِ صِفِّين:

وَ قَدْ رَأَيْتُ جَوْلَتَكُمْ، وَ انْحِيَازَكُمْ عَنْ صُفُوفِكُمْ، تَحُوزُكُمُ الْجُفَاةُ الطَّغَامُ، وَ أَعْرَابُ أَهْلِ الشَّامِ، وَ أَنْتُمْ لَهَامِيمُ الْعَرَبِ، وَ يَآفِيخُ الشَّرَفِ، وَ الْأَنْفُ الْمُقَدَّمُ، وَ السَّنَامُ الْأَعْظَمُ. وَ لَقَدْ شَفَى وَحَاوِحَ صَدْرِي أَنْ رَأَيْتُكُمْ بِأَخَرَةٍ تَحُوزُونَهُمْ كَمَا حَازُوكُمْ، وَتُزِيلُونَهُمْ عَنْ مَوَاقِفِهِمْ كَمَا أَزَالُوكُمْ، حَسّاً بِالنِّصَالِ، وَ شَجْراً بِالرِّمَاحِ، تَرْكَبُ أُوْلَاهُمْ أُخْرَاهُمْ كَالْإِبِلِ الْهِيمِ الْمَطْرُودَةِ، تُرْمَى عَنْ حِيَاضِهَا، وَ تُذَادُ عَنْ مَوَارِدِهَا!

اللُّغَة:

الْجُفَاةُ: الغِلَاظُ. والطَّغَامُ: الْأَوْغَاد. ولَهَامِيمُ: جَمع لِهْمِيم ـبكسر اللام ـولِهَمُّون: جَمع لَهم أَيضاً بكسر اللام، وهو السَّابق من الخَيْل، أو النَّاس. وَيَآفِيخُ: جَمع يَافُوخ، وهو أَعلىٰ الدِّمَاغ. وَالسَّنَامُ: حَدبَة في ظَهر البَعِير، ورَجُل سَنِيم: عَالِي الْقَدَر. والوَحَاوِح: جَمع الوَحْوَحَة، وَهِي صَوْت فِيهِ بُحَّة، وخشُونَة. وحَسّاً:

قَتَالاً. قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِۦ حَتَّىٰٓ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّنۢ بَعْدِ مَآ أَرَىٰكُم مَّا تُحِبُّونَ مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلْأَخِرَةَ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾[1] أي تَسْتَأْصِلُونَهُم بِالْقَتْل. والْمُرَاد بالنِّضَال هُنَا الضَّرب بِالسُّيُوف، والرَّمي بِالنِّبَال. وَشَجْراً: طَعناً. والْهِيم للعَطْشَىٰ.

الْإِعْرَاب:

الْمَصْدَر من أَنْ رَأَيْتُكُمْ فَاعِل شَفَىٰ، حَسّاً نَصب علىٰ الْمَصْدَر أي تَحُسُّونَهُم حَسّاً، ومِثْله شَجْراً، ويجوز أنْ يكونا فِي مَوضع الحَال أي مُسْتَأصِلين، وطَاعِنِين.

الْمَعْنَىٰ:

قَالَ الرُّواة: آنهزمت مَيْمَنَة أَهْل الْعِرَاق فِي يَوْمٍ من أَيَّام صِفِّين، ثُمّ كَرّت بعد الفِرار، فَقَالَ الإِمَام: (وَ قَدْ رَأَيْتُ جَوْلَتَكُمْ) أي العَودة بعد الهَزِيمَة، وفي قَوامِيس اللُّغَة: جَال الْقَوْم جَولة أي آنكشفُوا ثُمّ كَروا (وَ آنْحِيَازَكُمْ عَنْ صُفُوفِكُمْ) فِراركُم مِن مَيدان الْقِتَال، وأفتىٰ الْفُقَهَاء بأنّ الفِرار من الزَّحف جَرِيمَة كُبرىٰ إلّا إذَا تَرك الْمُجاهد مكانه إِلىٰ مَكان أَصلح، أو آنْحَاز إِلىٰ نَجدة فِئَة حَاصرها الْعَدُوّ، وبِهَذَا نَطقت الآيَة: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ زَحْفًا فَلَا تُوَلُّوهُمُ ٱلْأَدْبَارَ وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُۥٓ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ فَقَدْ بَآءَ بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ

(١) آلِ عِمْرَان: ١٥٢.

وَمَأْوَىٰهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾[1].

(تَحُوزُكُمُ) تَعدل بكُم عن مَواضِعكُم (الْجُفَاةُ الطَّغَامُ، وَ أَعْرَابُ أَهْلِ الشَّامِ، وَ أَنْتُمْ لَهَامِيمُ الْعَرَبِ، وَ يَآفِيخُ الشَّرَفِ، وَ الْأَنْفُ الْمُقَدَّمُ، وَ السَّنَامُ الْأَعْظَمُ) مَاذا جَرىٰ لَكم؟ أَتفرون أمام المُتطوعِين المُرتزقة، وأَنْتُمْ أَهْل الشَّجَاعَة، والبطُولة، والنَّجدة والحَمِيَة؟ (وَ لَقَدْ شَفَىٰ وَحَاوِحَ صَدْرِي أَنْ رَأَيْتُكُمْ بِأَخَرَةٍ تَحُوزُونَهُمْ كَمَا حَازُوكُمْ، وَتُزِيلُونَهُمْ عَنْ مَوَاقِفِهِمْ كَمَا أَزَالُوكُمْ). ولكن أَثلج صَدْرِي رجُوعكُم تَشنُون الغَارات علىٰ الأعْدَاء بصبرٍ، وثباتٍ، وتَثأرُون لأَنْفُسكُم، وتَنالون مِنهم ما نَالوه مِنْكُم (حَسّاً بِالنِّصَالِ، وَ شَجْراً بِالرِّمَاحِ) تَسْتَأصلونهم بِضرب السُّيُوف، وطَعن الرِّماح (تَرْكَبُ أُوْلاَهُمْ أُخْرَاهُمْ كَالْإِبِلِ ٱلْهِيمِ الْمَطْرُودَةِ، تُرْمَىٰ عَنْ حِيَاضِهَا، وَ تُذَادُ عَنْ مَوَارِدِهَا) سَيطر الرُّعب عَلىٰ الأَعْدَاء، فأَدْبَرُوا مُسرعِين لا يُلوون عَلىٰ شيء تَمَاماً كالإِبلِ العُطاش يَقع بَعْضهَا علىٰ بعضٍ حِين تُذاد عن ٱلْمَاء.

---

(١) ٱلْأَنفَالِ: ١٥ ـ ١٦.

الخطبة

-١٠٨-

أَشْبَاحٌ بِلاَ أَرْوَاح...فِقْرَة ١ ـ ٣:

الْحَمْدُ للهِ الْمُتَجَلِّي لِخَلْقِهِ بِخَلْقِهِ ، وَ الظَّاهِرِ لِقُلُوبِهِمْ بِحُجَّتِهِ . خَلَقَ الْخَلْقَ مِنْ غَيْرِ رَوِيَّةٍ ، إِذْكَانَتِ الرَّوِيَّاتُ لاَ تَلِيقُ إِلَّا بِذَوِي الضَّمَائِرِ ، وَ لَيْسَ بِذِي ضَمِيرٍ فِي نَفْسِهِ . خَرَقَ عِلْمُهُ بَاطِنَ غَيْبِ السُّتُرَاتِ ، وَ أَحَاطَ بِغُمُوضِ عَقَائِدِ السَّرِيرَاتِ اَخْتَارَهُ مِنْ شَجَرَةِ الْأَنْبِيَاءِ ، وَ مِشْكَاةِ الضِّيَاءِ ، وَ ذُؤَابَةِ الْعَلْيَاءِ ، وَ سُرَّةِ الْبَطْحَاءِ ، وَ مَصَابِيحِ الظُّلْمَةِ ، وَ يَنَابِيعِ الْحِكْمَةِ[1] . طَبِيبٌ دَوَّارٌ بِطِبِّهِ ، قَدْ أَحْكَمَ مَرَاهِمَهُ ، وَ أَحْمَىٰ مَوَاسِمَهُ ، يَضَعُ ذَلِكَ حَيْثُ الْحَاجَةُ إِلَيْهِ ، مِنْ قُلُوبٍ عُمْيٍ ، وَ آذَانٍ صُمٍّ ، وَ أَلْسِنَةٍ بُكْمٍ ، مُتَتَبِّعٌ بِدَوَائِهِ مَوَاضِعَ الْغَفْلَةِ ، وَ مَوَاطِنَ الْحَيْرَةِ ، لَمْ يَسْتَضِيئُوا بِأَضْوَاءِ الْحِكْمَةِ ، وَ لَمْ يَقْدَحُوا بِزِنَادِ الْعُلُومِ الثَّاقِبَةِ ، فَهُمْ فِي ذَلِكَ كَالْأَنْعَامِ السَّائِمَةِ ، وَ الصُّخُورِ الْقَاسِيَةِ . قَدِ انْجَابَتِ السَّرَائِرُ لِأَهْلِ الْبَصَائِرِ ، وَ وَضَحَتْ مَحَجَّةُ الْحَقِّ لِخَابِطِهَا ، وَ أَسْفَرَتِ السَّاعَةُ عَنْ وَجْهِهَا ، وَ ظَهَرَتِ الْعَلاَمَةُ لِمُتَوَسِّمِهَا[2] . مَا لِي أَرَاكُمْ أَشْبَاحاً بِلاَ أَرْوَاحٍ ، وَ أَرْوَاحاً بِلاَ أَشْبَاحٍ ، وَ نُسَّاكاً بِلاَ صَلاَحٍ ، وَ تُجَّاراً بِلاَ أَرْبَاحٍ ، وَ أَيْقَاظاً نُوَّماً ، وَ شُهُوداً غُيَّباً ، وَ نَاظِرَةً عَمْيَاءَ ، وَ سَامِعَةً صَمَّاءَ ، وَ نَاطِقَةً بَكْمَاءَ[3] !

اللُّغَة:

السُّتُرَاتِ: جَمع سُترَة من سَتَرَ الشَّيء، وغطَاه. وَالمِشْكَاةِ: الكوّة غَيْر النَّافذة يُوضع فيها المِصْبَاحُ، وقيل: كلّ ما يُوضع فِيهِ، أو عَلَيْهِ المِصْبَاح فَهُوَ مِشْكَاة. والذُّؤَابَة: النَّاصِية، وَهِي شعر في مُقدَم الرَّأس. وَالبَطْحَاءِ: الأَرْض المُنبسطَة، والمُرَاد هُنا وادي مَكَّة، وَسُرَّتها: وَسطها، وفي شرح ٱبن أبي ٱلحَدِيد: إنّ أَهْل البَطحَاء كَانوا يَفخرُون علىٰ أَهْل الجِبَالِ[1]. ومَوَاسِم: جَمع مِيسَمٌ، وهو المِكوَاة. والسَّائِمَة: الرَّاعِيَة. وٱنجَابَت: ٱنكشَفَت. والمَحَجَّة: وَسط الطَّرِيق. وتَوَسَّم: تَفَرَّس، وَالمتَوَسِّم: المُتَفَرِّس. وقُطب القَوْم: الَّذِي يَدُور عَلَيْهِ أَمرهم.

الإِعْرَاب:

بِذَوِي البَاء زَائِدَة، وذِي خَبَر لَيْسَ، وٱسمها مُستتر أي وَلَيْسَ هو ذَا ضَمِيرٍ، وطَبِيبٌ خَبَر لمُبْتَدَأ مَحْذُوف أي هو طَبِيبٌ، أو طَبِيبٌ مُبْتَدَأ لأنّه نَكرة مَوصُوفة، وحَيْثُ هُنا ظَرف مكان، ومحلها النَّصب بيَضع، وٱلحَاجَة فَاعِل لِفعل مَحْذُوف أي حَيْثُ تَدعو ٱلحَاجَة، أو مُبْتَدَأ، والخَبَر مَحْذُوف أي حَيْثُ ٱلحَاجَة مُوجبة، ومُتَتَبِّعٌ خَبَر ثانٍ أو خَبَر لمُبْتَدَأ مَحْذُوف، وَمَا لِي مُبْتَدَأ، وخَبَر.

المَعْنىٰ:

(الحَمْدُ للهِ المُتَجَلِّي لِخَلْقِهِ بِخَلْقِهِ). لقد كَشف سُبحَانَهُ عَن وجُوده بالتَّناسق

(١) أنظر، شَرح نَهج ٱلبَلاَغَة: ١٨٢/٧.

العَجيب بَيْنَ قَوَانِين الطَّبِيعَة ووحدتها، الّتي تَسود كلّ كَبير، وصَغير من الكَوْن: ﴿وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِىَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ إِنَّهُۥ خَبِيرٌۢ بِمَا تَفْعَلُونَ﴾[1]. (وَ الظَّاهِرِ لِقُلُوبِهِمْ بِحُجَّتِهِ). إنّ الله سُبْحَانَهُ فِي قَلْب كلّ إنْسَان، ولكن رُبَّمَا شَغله عَن خَالقه التَّقليد، أو شُبهة من الشُّبهات، أو شَأنٌ من شُؤوُن ٱلْحَيَاة، فيتناسىٰ رَبّه، أو يُنْكِره حَتَّىٰ إِذَا نَزلت بِهِ نَازلة هَرع إِلَيْهِ يَسأله العُون والنَّجاة، ومن أَجل هَذَا يُؤكد العَارفُون بأنّ ضَمير الُمجرم يؤنبه، ويُنْكِر عَلَيْهِ جُرأته ومَعْصِيَته، ويَراه خَارجاً علىٰ الحَقّ، والْعَدْل سواء أَشعر بِهَذا أَم لَم يُشعر، ومِثْله عَقل الْكَافِر الجَاحد، أَنّه يَراه مُخالفاً، ومُعانداً للشَّواهد، والدَّلائل علىٰ وجُود الله، وإنّه قَد عمِيَ عَنْهَا لِغفلةٍ عن ٱلْعَقْل، وحُكمه، وبِمَعْنَىٰ آخر لا فَرق بَيْنَ مَن كَفْرَ، وأَجْرَم، فكلّ مِنْهُمَا نَاكب عن الطَّرِيق لظُّلماتٍ، وشُبهَات.

لِلمِنْبَرِ ـ أَينَ مَنْ يَخْلق مِنْ لاَ شَيء؟

(خَلَقَ الْخَلْقَ مِنْ غَيْرِ رَوِيَّةٍ، إِذْكَانَتِ الرَّوِيَّاتُ لاَ تَلِيقُ إِلَّا بِذَوِي الضَّمَائِرِ، وَلَيْسَ بِذِي ضَمِيرٍ فِي نَفْسِهِ) الْمُرَاد بالرَّوِيَّة إعمال الْفِكْر، وَٱسْتخراج الَمجهول من المَعلوم، والله سُبْحَانَهُ ـ بموجب كَماله من كلّ وَجه ـ عَالم بالذَّات بلا واسطة، وأَدَاة، وَلاَ يخفىٰ عَلَيْهِ مِن شيء في الْأَرْض، وَلاَ في ٱلسَّمَاء.

وأُشير بِهَذَا المُناسبة إِلىٰ أَنّ الْعُلَمَاء حَاولوا أَنْ يَكتشفوا سِرّ ٱلْحَيَاة، لِيتَسَنىٰ لهم أَنْ يَخلقوا مَا يشاؤون! وفي وقتٍ من الْأَوْقَاتِ أرادت جَريدة النَّهار البيروتية أَنْ

---

(١) النّمل: ٨٨.

تملأ صفحات المُلحق الَّذي تُصدره في كلّ يَوْم من أيّام الآحاد، فرغبت إلىٰ جماعة ـ أنا مِنْهُم ـ أنْ يُجيبوا عن هَذَا السُّؤال: «إذَا توصل ٱلْعِلْم يوماً إلىٰ خَلق خَلية فماذا يَكُون مَصير الله». ولعَل واضع السُّؤال يُريد مصير الإيمَان بالله. وقد تَطوع للإجابة كَثِيرُون، مِنْهُم المُتعلم الأصيل، ومِنْهُم المُتطفل الدَّخيل... وما وجدتُ من نفسي آنذاك أيّة رَغْبَة في المُشاركة، وأحسست الآن بالمَيل إلىٰ الكَلاَم حَول هَذَا المَوْضُوع، وأنا أشرح قَوْل الإمَام: «مِنْ غَيْرِ رَوِيَّةٍ». وأوجز ما أُريد بيانه فيما يَلي:

لقد تَقَدَّم ٱلْعِلْم خُطوات تَدعونا إلىٰ الإيمَان بِهِ إيمَاناً نَعجز عَن وصفه، وتَحديده... لأنّ ما من أحدٍ في وسعه ـ بالغاً ما بلغ من ٱلْعِلْم ـ أنْ يضع مُعادلات يتنبأ بسببها عن كلّ ما يصل إِلَيْهِ ٱلْعِلْم من مُكتشفاتٍ، ومُخترعات، كَيْفَ؟. وكلّما بَلغ ٱلْعِلْم أُفقاً بَدت آفاق لا حَدَّ لها، وَلاَ نَهاية... إنّه يَرىٰ المجهُول علىٰ الدَّوام مِن خِلال مَا يَخترع، ويَكتشف... وإذَنْ فمن الجَائز أنْ يَكتشف ٱلعُلَمَاء سِرّ ٱلْحيَاة، بل من الجَائز أنْ يَخترعوا في يَوْمٍ من الأَيَّام إنْسَاناً في أحسن تَقويم، ولكنْ هَذَا لا يُقدم وَلاَ يُؤخر فِي الله حَتَّىٰ ولو كَانَ ٱلإنْسَان المُختَرَع ـ بفتح الرَّاء ـ كأرِسْطو في فلسفاته، وآينشتاين في نَظرياته، وشكسبير في شِعره، ومسرحِياته... ذَلِكَ لأنّ الْعُلَمَاء لا يَخترعون شَيْئاً ولو كَانَ تَافهاً إلّا بمعونة الأَسْبَاب التَّالية:

١ ـ أنْ يَكُون لهم عُقول يُخططون بها، ويَجهدونها في التَّفكير، والرَّوِيَّة، لأنّ ٱلْعَقْل أَصل، وٱلْعِلْم فَرع، وثَمرةٌ من ثَمراتِهِ.

٢ ـ أنْ تتهيأ للعُلَمَاء المَادَّة الّتي يُحولونها إلىٰ إنسَان، سواء أكَانَت نَباتاً، أم جَماداً، أم نُطفة حَيوان، إذ يَسْتَحِيل علىٰ ٱلْعِلْم أنْ يُوجد شَيْئاً مِن لا شيء، ولَيْسَ من شكٍ أنّ المَادَّة الّتي يُكيفها ٱلعُلَمَاء، ويحولونها إلىٰ شَيء آخر ـ لَيْسَت من

صِنعهم.

٣ ـ أنْ تتوافر لديهم المُختبرات، والأدوات الفَنية، لِأَنَّهَا الوَسيلة لإِيجاد أي شَيء فضلاً عن إيجاد إنْسَان بعَقْله، وطاقاته.

هَذِه الأَسْبَاب، أو الشُّرُوط الثّلاثة لا بُدّ مِنْهَا لكلِّ من حَاول، أو يُحاول غَزو الطَّبِيعَة، وتسخيرها لحَاجة من حَاجاته، أو غَايَة من غَاياته، والله الَّذي نُؤمن بِهِ ونَعبدهُ غَني عن كلِّ شيء، وكامل من كلِّ جهة، ولو أحتاج إِلىٰ شيء لا يُمكن أنْ يَنتقل بإحداث شيء، بل لا بُدّ أنْ يَسْتَعِين بغيره، ومَعْنَىٰ هَذَا أنّه نَاقص، ومحدود، ومفتقر إِلىٰ شيء خَارج عن ذَاته يَتم بِهِ، ويَكمل، ومن البَداهة أنّ الْفَقِير، والنَّاقص، والمَحدود يَسْتَحِيل أنْ يَكون إلهاً.. إنّ ذَات الإله الحَقّ الَّذي نُؤمن بِهِ ـ تَمنح الْوُجُود لغيرها بِطَبِيعَتهَا، وبِمَا هِي بلا واسطة شيء علىٰ الاِطلاق... أَنَّهَا تُريد فيوجد الْمُرَاد بالفِعْل، كمَا شَاءت، وأرادت.

إنّ الإله الَّذي نُؤمن بِهِ يَقُول للشّيء: كُنْ فَيَكُون بلا جَولة فكرٍ، وَلاَ هَندسة، وتَخطيط، وعِلاج آلات، وأذرُع، وحَركات، وإذَنْ فإيمَان العَارفين بالله لا يُزعزعه شيء إلّا إِذَا أستطاع عُلَمَاء الطَّبِيعَة أنْ يُوجدوا شَيْئاً من لا شيء، وبمجرد أنْ يُريدوا إيجاده بلا رَويّةٍ، وتفكيرٍ، وأَدواتٍ، ومُختبراتٍ، وأذرُع، وأعيُن، ومتىٰ تَمَّ لَهُم ذَلِكَ: «فأنا أوّل العَابدين».

وبكلام آخر: يَجب قبل كلّ شيء أنْ ننظر إِلىٰ نفس الإله الَّذي آمن بِهِ مَن آمن، نَنظر إِلىٰ حَقيقَته، وهُويته، فإنْ كَان من جِنس الطَّبِيعَة المَادية المُنفعلة الّتي لا تَستقل بإحِداث شيء، أو كَانَ عِبارة عن فكرة مُجردة، ونظرية ذِهنية كَالشَّرف، والْكَرَامَة ـ مثلاً ـ إنْ كَانَ من هَذَا النَّوْع، أو ذَاكَ يَكون مَصير الإِيمَان بِهِ إِلىٰ فِناء،

وزوال لا مَحَالَةَ سواء اكتشف عُلَماء الطَّبِيعَة سِرّ الحَيَاة، أَم عَجزوا عن اكتشافه، أَمّا إذا كَانَ الإله المَعبود هو قُوَّة فعالة، لهَا جَمِيع صِفات الكَمَال من كل الجهات، وتؤثر وَلاَ تتأثر، وإلَيْهَا يَفْتَقِر كلّ شيء، وَلاَ تفتقر إلىٰ شَيء، ولَيْسَ كَمِثْله شَيْءٌ، وَهِي المَبدأ الأَوَّل للخَلقِ، والتَّدْبِير، أمّا الإِيمَان بِهَذا الإله فَهُوَ أَرسخ من الرَّاسيات حَتَّىٰ ولو اكتشف العِلْم سِرّ الحَيَاة، واخترع أَلف إنْسَانٍ، وإنْسَان: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُواْ لَهُۥٓ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُواْ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُواْ لَهُۥ وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ﴾(١).

(اخْتَارَهُ مِنْ شَجَرَةِ الْأَنْبِيَاءِ، وَ مِشْكَاةِ الضِّيَاءِ، وَ ذُؤَابَةِ الْعَلْيَاءِ، وَ سُرَّةِ الْبَطْحَاءِ، وَ مَصَابِيحِ الظُّلْمَةِ، وَ يَنَابِيعِ الْحِكْمَةِ) الشَّجَرَة إبْرَاهِيم خَليل الرَّحْمَان عليه السلام، وَمِشْكَاةِ الضِّيَاءِ النَّفس الزَّكية، وَالذُّؤَابَةِ الطَّيِّبُون مِن قُرَيْش، وَسُرَّةِ البَطْحَاءِ أَشرف الأمكنة من مَكَّة المُكَرَّمَة، والمَصَابِيح وَيَنَابِيع الأَنْبِيَاء من ولدِ إبْرَاهِيم، ومن لَيْسَ بجدّ للنَّبيّ مِنْهُم فَهُوَ عَمّ لأجدّاده، وتَقَدَّم الثَّناء علىٰ النَّبِيّ صلى الله عليه وآله مرَّات(٢).

(طَبِيبٌ دَوَّارٌ بِطِبِّهِ). الطَّبِيب الدَّوَّار هُو القَدير الَّذي يَعرض العِلاج علىٰ المَرضىٰ، وأَراد الإِمَام بالطَّبِيب نَفسَه، وإنّه يُداوي الَّذِين زَاغت قُلُوبهُمْ عن الحَقّ، والصَّواب (قَدْ أَحْكَمَ مَرَاهِمَهُ) وَهِي حِكمه، ومواعظه الحَسَنَة (وَ أَحْمَىٰ مَوَاسِمَهُ) وَهِي تَقرِيعه، وتَهديده بغضب الله، وعذابه (يَضَعُ ذَلِكَ حَيْثُ الْحَاجَةُ إِلَيْهِ) يُرشد من ضَلَّ عَن الحَقّ، فيُظهره جَلياً لمِن عَمي عنهُ، ويَسْمَع صَوْته للأصَمّ، ويَحمل الأبكم علىٰ النُّطق به، وَهَذا كلّه كِناية عن عِلم الإِمَام، ونُصحه، وحُسن موعظته.

---

(١) الحَجّ: ٧٣.

(٢) أنظر، آخرها الخُطبَة: ١٠٦. (مِنْهُ قدس سره).

(مُتَتَبِّعٌ بِدَوَائِهِ مَوَاضِعَ الْغَفْلَةِ، وَ مَوَاطِنَ الْحَيْرَةِ) يُنبه الغَافلين، ويُهدي التَّائهين الَّذين (لَمْ يَسْتَضِيئُوا بِأَضْوَاءِ الْحِكْمَةِ) وَهِي ٱلْعِلْم بِالْحَقِّ، وٱلْعَمَل بـه، وبكَـلِمَة ثَانِيَة وضع الشَّي فِي مَوْضِعه (وَ لَمْ يَقْدَحُوا بِزِنَادِ الْعُلُومِ الثَّاقِبَةِ) لا شَيء عندهم من ٱلْعِلْم تَمَاماً كَالْحيَوَانات، والجَماد. والإِمَـام عليه السلام يهـتم بـإرشَادهم، ويَحرص عـلىٰ هدَايتهم، ويتلطف مَع الَّذِين يَتوسم بِهِمْ الْخَيْر، ويشتد علىٰ من كَابر، وعَـاند (قَدِ ٱنْجَابَتِ السَّرَائِرُ لِأَهْلِ الْبَصَائِرِ، وَ وَضَحَتْ مَحَجَّةُ الْحَقِّ لِـخَابِطِهَا). ظَـهر الْحَـقّ جَلياً، وتَميّز عن البَاطِل، وَلاَ عُذر لعَالِمٍ مُكابر، وَلاَ لجـاهْل مُـقصر. (وَ أَسْـفَرَتِ السَّاعَةُ عَنْ وَجْهِهَا، وَ ظَهَرَتِ الْعَلاَمَةُ لِـمُتَوَسِّمِهَا). قـيل: الْمُـرَاد بـالسَّاعَةُ هُـنا وعَلامتها ظهُور الدَّوْلَة الأُمويّة الّتي أَهْلكت الحَرث، والنَّسل... ويجوز أنْ يُـراد بها ٱلْمَوْت، لأنّ السَّاعَة تُطلق علىٰ ٱلْقِيَامَة، «فإنّ من مَات فقد قَامت قيامته»[(١)].

(مَا لِي أَرَاكُمْ أَشْبَاحاً بِلاَ أَرْوَاحٍ) تَمَاماً كالجماد (وَ أَرْوَاحاً بِلاَ أَشْـبَاحٍ) أي بـلا أَجْسَام، ومن البداهة أنّ الرُّوح بلا جِسم تَعجَز عن الحَرَكَة، وٱلْعَمَل، وهل مـن عَمل بلا أذرُع؟. قَالَ أَحد الفَلاَسفَة: هل تَتطلع الرُّوح إلىٰ ٱلْمَاء البَارد العَذب دُونَ أنْ تَكُون فِي جِسم، له قَدمَان يَغرقَان فِيهِ؟ (وَ نُسَّاكاً بِلاَ صَلاَحٍ) لأنّهم لا يُمارسون من الدِّين إلّا الشَّعائر، والمظَاهر، أمّا الجِهَاد، وٱلْعَمَل لوجه الله، والْحَقّ فهم بمَعزَل عَنْه (وَ تُجَّاراً بِلاَ أَرْبَاحٍ) لأنّهم لا يَعملون لله، بل للسُّمعة، والرِّياء (وَ أَيْقَاظاً نُوَّماً) لأنّهم فِي غَفلَة عمّا يُراد مِنْهُم، وبِهِمْ (وَ شُهُوداً غُيَّباً) يَسْمَعُون المَوْعِظَة الحَسَنَة، وَلاَ

(١) أُنظر، حاشية السّندي علىٰ النّسائي: ٢٢٦/٨، تَذكِرة المَوْضُوعَات: ٢١٥، فيض القـدير شرح الجـامع الصَّغير: ٤/٥، كشف الخَفَاء: ٢٧٩/٢ ح ٢٦١٨، كنز العُمّال: ٥٤٨/١٥ ح ٤٢١٢٣، تَفسِير القُرطُبي: ١٨٨/١٩، تأريخ مدينة دِمَشق: ٢١٤/٣٧.

يَتعظون، ويرون الْعِبْرَة، وَلاَ يعتبرُون، ويقُولون وَلاَ يفعَلون.

وَغَارَ الصِّدْقُ، وَفَاضَ الْكَذِبُ... فِقْرَة ٤ ـ ٦:

رَايَةُ ضَلاَلٍ قَدْ قَامَتْ عَلَىٰ قُطْبِهَا، وَ تَفَرَّقَتْ بِشُعَبِهَا، تَكِيلُكُمْ بِصَاعِهَا، وَ لاَخْبِطُكُمْ بِبَاعِهَا. قَائِدُهَا خَارِجٌ مِنَ الْمِلَّةِ، قَائِمٌ عَلَىٰ الضِّلَّةِ، فَلاَ يَبْقَىٰ يَوْمَئِذٍ مِنْكُمْ إِلاَّ ثُفَالَةٌ كَثُفَالَةِ الْقِدْرِ، أَوْ نُفَاضَةٌ كَنُفَاضَةِ الْعِكْمِ، تَعْرُكُكُمْ عَرْكَ الأَدِيمِ، وَ تَدُوسُكُمْ دَوْسَ الْحَصِيدِ، وَ تَسْتَخْلِصُ الْمُؤْمِنَ مِنْ بَيْنِكُمُ اَسْتِخْلاَصَ الطَّيْرِ الْحَبَّةَ الْبَطِينَةَ مِنْ بَيْنِ هَزِيلِ الْحَبِّ[٤].

أَيْنَ تَذْهَبُ بِكُمُ الْمَذَاهِبُ، وَ تَتِيهُ بِكُمُ الْغَيَاهِبُ، وَ تَخْدَعُكُمُ الْكَوَاذِبُ، وَ مِنْ أَيْنَ تُؤْتَوْنَ، وَ أَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ؟ فَلِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ، وَ لِكُلِّ غَيْبَةٍ إِيَابٌ، فَاَسْتَمِعُوا مِنْ رَبَّانِيِّكُمْ، وَ أَحْضِرُوهُ قُلُوبَكُمْ، وَ اَسْتَيْقِظُوا إِنْ هَتَفَ بِكُمْ، وَ لْيَصْدُقْ رَائِدٌ أَهْلَهُ، وَلْيَجْمَعْ شَمْلَهُ، وَ لْيُحْضِرْ ذِهْنَهُ، فَلَقَدْ فَلَقَ لَكُمُ الأَمْرَ فَلْقَ الْخَرَزَةِ، وَ قَرَفَهُ قَرْفَ الصَّمْغَةِ[٥]. فَعِنْدَ ذَلِكَ أَخَذَ الْبَاطِلُ مَآخِذَهُ، وَ رَكِبَ الْجَهْلُ مَرَاكِبَهُ، وَ عَظُمَتِ الطَّاغِيَةُ، وَ قَلَّتِ الدَّاعِيَةُ، وَ صَالَ الدَّهْرُ صِيَالَ السَّبُعِ الْعَقُورِ، وَ هَدَرَ فَنِيقُ الْبَاطِلِ بَعْدَ كُظُومٍ، وَ تَوَاخَىٰ النَّاسُ عَلَىٰ الْفُجُورِ، وَ تَهَاجَرُوا عَلَىٰ الدِّينِ، وَ تَحَابُّوا عَلَىٰ الْكَذِبِ، وَتَبَاغَضُوا عَلَىٰ الصِّدْقِ. فَإِذَا كَانَ ذَلِكَ كَانَ الْوَلَدُ غَيْظاً، وَ الْمَطَرُ قَيْظاً، وَ تَفِيضُ اللِّئَامُ فَيْضاً، وَ تَغِيضُ الْكِرَامُ غَيْضاً، وَكَانَ أَهْلُ ذَلِكَ الزَّمَانِ ذِئَاباً، وَ سَلاَطِينُهُ سِبَاعاً، وَ أَوْسَاطُهُ أُكَّالاً، وَ فُقَرَاؤُهُ أَمْوَاتاً، وَ غَارَ الصِّدْقُ، وَ فَاضَ الْكَذِبُ، وَاَسْتُعْمِلَتِ الْمَوَدَّة بِاللِّسَانِ، وَ تَشَاجَرَ النَّاسُ بِالْقُلُوبِ، وَ صَارَ الْفُسُوقُ نَسَباً، وَالْعَفَافُ عَجَباً، وَ لُبِسَ الإِسْلاَمُ لُبْسَ الْفَرْوِ مَقْلُوباً[٦].

اللُّغَة:

قُطْبُ الْقَوْم: سَيِّدهم الَّذي يَدُور عَلَيْهِ أَمرهم. والشُّعب: الفرُوع. وثُفَالَةُ الْقِدْرِ: ما يَبْقَىٰ فِي قَعره. والنُّفَاضَةُ: ما يسقط بالنَّفض. والْعِكْمِ ـ بكسر الْعَيْن ـ وعَاء كالسُّفط تَضع الْمَرْأَة في ما تَدخره، وتَحتفظ بِهِ. والعَرْكَ: الدَّلك. والأَدِيم: الجِلد. والْحَبَّةَ الْبَطِينَةَ: السَّمِينَة ضَد الهَزِيلة. والْغَيَاهِبُ: الظُّلمات. والرَّبَّانِيٌّ: العَارف بالله. والرَّائِدُ: رَسول الْقَوْم لِينظر لَهُم المَكان اللاَئِق، ثُمّ أُطلق علىٰ القَائد. وَقَرَفَهُ: قَشَرَهُ، وكَشَطَهُ. والصَّمْغَةِ: القَرْحَة، وأيضاً الصَّمْغ، والصَّمْغَة شيء يَسيل من الشَّجرَة ويَجْمَد عَلَيْهَا. والفَنِيقُ: الفَحْل. والقَيْظ: شِدَّة الحَرّ.

الإِعْرَاب:

رَايَةُ خَبَر لمُبْتَدَأ مَحْذُوف أي هِي رَايَة، وقَائِمٌ خَبَر ثانٍ لقَائِدُهَا، والْحَبَّةَ مَفْعُول لاِسْتِخْلاَص، وأَيْنَ نُصب علىٰ الظَّرفِيَة بتَذْهَبُ، وَأَنَّىٰ مَفعُول مُطلق أي أيّ إِفْكٍ تُؤْفَكُونَ؟ ومَقْلُوباً حَال مِن الْفَرْوِ.

الْمَعْنىٰ:

(رَايَةُ ضَلاَلٍ قَدْ قَامَتْ عَلَىٰ قُطْبِهَا) أي يَسود الضَّلاَل، ويَسْتَفْحِل أَمْرَه (وَ تَفَرَّقَتْ بِشُعَبِهَا) تَنْتَشر رَايَة الضَّلال، والْفَسَاد، وتَمتَد هُنا، وهُناك، وتُسيطر علىٰ الزَّمَان وأَهْله، وهَذَا إِخْبَار من الإِمَام عمّا سَيكون من بَعْدَه، قَالَ ٱبن أَبِي ٱلْحَدِيد: هَذَا الكَلاَم مُنقطع عمّا قَبْله، لأنّ الشَّرِيف الرَّضِي كَانَ يَقتطف من كلاَم الإِمَام مُراعياً الأفْصح، ويَجمع بَيْنَ الْمُقتطفات، وقد ذكر الإِمَام هُنا ما يَحدث في آخر

الزَّمَان مِن الْفِتَن.

(تَكِيلُكُمْ بِصَاعِهَا، وَ تَخْبِطُكُمْ بِبَاعِهَا). الكَيل، والخَبْط كِنايَة عن وَطأة الْفِتْنَة وشِدَّتها (قَائِدُهَا خَارِجُ مِنَ الْمِلَّةِ) الإِسْلاَمِيّة، وإِنْ صلَّىٰ، وصَام، وحَجّ إِلىٰ بَيْت الله ٱلحَرَام، لأَنّ الإِسْلاَم حَرْبٌ علىٰ الضَّلال، والْفَسَاد، والرَّاضي بِهِ شَريك لفاعِله، والسَّاكت عنهُ شَيْطَان أَخرس، فكَيْفَ بمن فَعلهُ، وقَادهُ، ونَشرهُ؟ (قَائِمُ عَلَىٰ الضِّلَّةِ). ثَابت علىٰ الضَّلال، لا يَعبأ بتَهدِيد الله، ووعِيده، ومَع هَذَا يَنْتحل الإِسْلاَم كِذْباً، وَزُوراً، ويَدعي أَنّه حَامِيه، ورَاعيه، وهُو أَلد أَعدَائِه.

(فَلاَ يَبْقَىٰ يَوْمَئِذٍ مِنْكُمْ إِلاَّ ثُفَالَةٌ كَثُفَالَةِ الْقِدْرِ، أَوْ نُفَاضَةٌ كَنُفَاضَةِ الْعِكْمِ، تَعْرُكُكُمْ عَرْكَ الْأَدِيمِ، وَ تَدُوسُكُمْ دَوْسَ الْحَصِيدِ) أي المَحْصُود، وٱلْمَعْنَىٰ إِنّ ضَالاً مُضلاً سَيقُودكم من بَعدي، يَسومكُم سُوء العذَاب، ويَجعل مِنْكُم قَوماً أَذلة، لا هَيْبَة لكُم وَلاَ شأن بَيْنَ الأُمم، يَطمع فيكُم القَرِيب، والبعِيد... ومن البدَاهة أنّ هَذِه نهَايَة كلّ قَوْم يَقودهُم غَيْر الأكفاء، كَما هو شأنْ الْعَرَب، وٱلْمُسْلِمِين فِي هَذَا العَصر (وَ تَسْتَخْلِصُ الْمُؤْمِنَ مِنْ بَيْنِكُمُ ٱسْتِخْلاَصَ الطَّيْرِ الْحَبَّةَ الْبَطِينَةَ مِنْ بَيْنِ هَزِيلِ الْحَبِّ) أي أَنّ أَشد النَّاس بَلاَء في تِلْكَ الْفِتْنَة هو الْمُؤْمِن المُخلص، لأَنّ للحَقّ ثَمنه، وهو الآلاَم، والمتَاعِب، بخَاصَّة في دَولة الجَوْر، والضَّلال.

(أَيْنَ تَذْهَبُ بِكُمُ الْمَذَاهِبُ، وَ تَتِيهُ بِكُمُ الْغَيَاهِبُ، وَ تَخْدَعُكُمُ الْكَوَاذِبُ، وَ مِنْ أَيْنَ تُؤْتَوْنَ، وَ أَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ؟). مَا لَكُم تَضربُون فِي ٱلتّيه، وتَخدعون بالأَبَاطِيل، وتأمنُون العواقِب، وَلاَ تُفكرون فيما يُراد بكُم؟. (فَلِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ، وَ لِكُلِّ غَيْبَةٍ إِيَابٌ) أي أَنّ ما أَخبرتكُم من وقوع الْفِتَن واقعٌ في أَجلِهِ، وحِينه لا مَحالَةَ، وبهَذا التَّفْسِير يَكُون الكَلاَم مُرتبطاً بمَا قَبله، وَلاَ وَجه لِظَّن ٱبن أَبي ٱلْحَدِيد، ومن تَبعه:

إنّه مُنقطع، وغَيْر مُرتبط[1] (فَاْسْتَمِعُوا مِنْ رَبَّانِيِّكُمْ) الَّذي فَهم عن الله، وعمِل بِمَا فهم، وبلغكُم إيَاه بصدقٍ، وإخلاَص، وقد عنىٰ الإِمَام بهَذا الرَّبَّانِيِّ نَفْسَه بالذَّات.

(وَ أَحْضِرُوهُ قُلُوبَكُمْ، وَ آسْتَيْقِظُوا إِنْ هَتَفَ بِكُمْ). الهَاء فِي أَحْضِرُوهُ، والضَّمِير المُستتر فِي هَتَفَ يَعود إِلىٰ كَلاَم الرَّبَّانِيِّ المُستفاد من قَوْله: «فَاْسْتَمِعُوا مِنْ رَبَّانِيِّكُمْ». وقيل: يَعود إِلىٰ اْلْمَوْت، وعلىٰ أَيّة حَال فاْلْمَعْنىٰ اْتَّعِظُوا بالعِبر، واْنتفعوا بالنُّذر (وَ لْيَصْدُقْ رَائِدٌ أَهْلَهُ). وَلاَ يَتهاون بأَمانتهم (وَلْيَجْمَعْ شَمْلَهُ) باْلْعَمَل علىٰ وحدَة الكَلِمَة، والتَّعاون علىٰ اْلْمَصْلَحَة الْعَامَّة (وَ لْيُحْضِرْ ذِهْنَهُ) أي أنْ يُفكر فِي مصَالح مَن يقُودهم.

(فَلَقَدْ فَلَقَ لَكُمُ الأَمْرَ فَلْقَ الْخَرَزَةِ، وَ قَرَفَهُ قَرْفَ الصَّمْغَةِ). الضَّمِير فِي فَلَقَ يَعود إِلىٰ الإِمَام عليه السلام، واْلْمَعْنىٰ أَنّه كشَف لَهُم عن كلِّ شيء يَحتاجُون إِلَيْهِ، ويَعود عَلَيْهِمْ بالخَيْر والصَّلاح، ومَا تَرك لَهُم من عُذرٍ يتعللون بِهِ (فَعِنْدَ ذَلِكَ أَخَذَ الْبَاطِلُ مَآخِذَهُ، وَ رَكِبَ الْجَهْلُ مَرَاكِبَهُ، وَ عَظُمَتِ الطَّاغِيَةُ، وَ قَلَّتِ الدَّاعِيَةُ، وَ صَالَ الدَّهْرُ صِيَالَ السَّبُعِ الْعَقُورِ، وَ هَدَرَ فَنِيقُ الْبَاطِلِ بَعْدَ كُظُومٍ). يَدل سِياق الكلاَم علىٰ أنّ كَلِمَة «ذَلِكَ» إِشَارَة إِلىٰ تَثاقل أَصْحَاب الإِمَام عليه السلام عن أَمْرِه، ونصَائحه، واْلْمَعْنىٰ ما دُمتم عَلىٰ الحَال الّتي أَنْتُمْ عَلَيْهَا فسيثب عَلَيْكُمْ الْعُدْوَان من وكره بعد أنْ كَفَّ عَنْكُمْ، وسكَن.

(وَ تَوَاخَىٰ النَّاسُ عَلَىٰ الْفُجُورِ). «الْمُؤْمِن أَخو الْمُؤْمِن أحبّ ذَلِكَ أَم كَره»[2]،

---

(١) أُنظر، شَرح نَهج اْلبَلاَغَة: ٧/١٩٠.

(٢) أُنظر، المسند المستخرج علىٰ صَحِيح مُسْلِم: ٤/٨١ ح ٣٢٩٥، مُسْنَد الشهاب: ١/١٠٦ ح ١٢٥، جامع ↔

وكَذٰلِكَ الْكَافِر، والفَاجر، وقَدِيماً قِيل: «شَبيه الشَّيء مُنجذبٌ إِلَيْهِ»(١)، «إنَّ الطُّيُور عَلىٰ أشكالها تقع»(٢)، وقِيل أيضاً: «قُل لِي مَن تُعاشر أَقول لكَ: مَن أَنْتَ»(٣)، وروي أنّ أُستاذاً خَرج بتلاميذه إِلىٰ ٱلْمَاء، والخَضْرَاء، ولمّا تحلقوا حَوله شَرح هٰذَا الْحَدِيث: «الأَرْوَاح جُنود مُجندة ما تَعارف مِنْهَا إئتلف، وما تَناكر مِنْهَا ٱختلف»(٤). فٱلتفت أَحد تلاميذه فرأىٰ حَمامة في صُحبة غُراب، فَقَالَ للأُستاذ: أُنظر: مِن أين إئتلف هٰذَان؟ وقبل أنْ يَغرق الأُستاذ في التَّفكير من أَجل الجَوَاب مشىٰ الْغُرَاب، والحمامة، وَإذَا بهما أَعرجان، فٱبتسم الأُستاذ، وَقَالَ لتلاميذه: مِن هٰهُنا ٱتفقا. (وَ تَهَاجَرُوا عَلَىٰ الدِّينِ) أي من لا دِين لهُ يَكرَه أَهْل الدِّين تَمَاماً ككراهِية الخَائن للمُخلص، والعَاهرة الفَاجرة للحرّة الطَّاهرة. (وَ تَحَابُّوا عَلَىٰ الْكَذِبِ) كمَا تَعَاوَنُوا علىٰ الإِثْمِ، وَٱلْعُدْوَانِ (وَتَبَاغَضُوا عَلَىٰ الصِّدْقِ) كمَا ٱختلفوا علىٰ فعل الْخَيْر

⇐ العلوم والحِكَم: ٣٤/١، الإيمان لإبن منده: ٤٥٨/١ ح ٣٢٤، فتح الباري: ٢٠٠/٩، عون المعبود: ٦٧/٦، فيض القدير: ٢٥٦/٦، تلخيص الحبير: ١٥/٣ ح ١١٦٦.

(١) أُنظر، كشف الخَفَاء للعجلوني: ٤/٢ ح ١٥٣١، فيض القدير شرح الجَامع الصَّغير للمناوي: ٤٩٢/٤ ح ٥٦٦٨ و: ٣٤٥/٦ ح ٩١٩٠، وفي تاج العروس: ٢١٧/٦، روىٰ بَعْض المولدين:

رَأَيْتُ النّخل يَطرح كلّ قِحفٍ ... وذَاكَ اللّيف مُلتف عَلَيْهِ
فقلتُ: تَعجبوا مِن صُنع رَبّي ... شَبيه الشّيء مُنجذبٌ إِلَيْهِ

والقحف: لقب أبي عبدالله الحُسَيْن بن عُمَرَ القاص الشاعر المِصْري، وأبو مُحَمَّد الْحَسَن بن علي ٱبن عُمَرَ القحف.

(٢) أُنظر، السَّيْف الصَّقيل ردّ ٱبن زَنجفيل للسُّبكي: ٩٣.

(٣) أُنظر، المُصَنَّف لمُحَمّد بن أبي شَيبة الكُوفي: ١٢١/٦ ح ٤/٣٦.

(٤) أُنظر، صَحيح مُسْلِم: ٢٠٣١/٤ ح ٢٦٣٨، صَحِيح البُخَاريّ: ١٢١٣/٣ ح ٣١٥٨، صَحيح ٱبن حبّان: ٤٢/١٤ ح ٦١٦٨، المُسْتَدرَك علىٰ الصَّحِيحِين: ٤٦٦/٤ ح ٨٢٩٦، سُنن أَبي داود: ١٦/٣ ح ٢٥٢٥، الْمُعْجَم الأوسط: ١٦١/٢ ح ١٥٧٧، مَجْمَع الزوائد: ٣١٤/٢.

والصَّالح العَام.

(فَإِذَا كَانَ ذَلِكَ كَانَ الْوَلَدُ غَيْظاً) لوالده الكَادح من أَجله، والنَّاصح لهُ بصدقٍ وحنان... ولَيْسَ من شكٍ أنّ الجيل اللاَحق يرىٰ الأُمُور بغير الْعَيْن الّتي يَنظر بِها الجِيل السَّابق. ومن البدَاهة أنّ الإِخْتِلاَف في الرُّؤية لا يَستدعي بطبعه الْغيْظ والعقُوق، ولكن إِذَا فَسدت الأَوْضَاع، وعمّت الْفِتَن ضَاعت المقَاييس، وتمرد عَلَيْهَا من لا يرىٰ في الْوُجُود إلّا نَفْسه (وَ الْمَطَرُ قَيْظاً). الْمَطَر يَنزل من اَلسَّماء في أوانه، والفصُول الأَرْبَعَة لا تتغير، فلا الشّتاء يَصير صَيفاً، وَلاَ الصَّيف شِتاءً، جَار الْحَاكِم أَمْ عدل، فَسدت الأَوْضَاع أَم صَلحت، وعَلَيْهِ فالْمُرَاد بالْمَطَرِ هُنا وفي بَعْض الرِّوَايَات ـ الْخَيْر، والخَصب، وبالقَيْظ المحل، والْجَدْب، والْمَعْنىٰ أنّ قوىٰ الشَّرِّ إِذَا حَكمت، وسيطرت تَحتكر خَيرات الأَرْض، وتمنعها عن أَهْلها، فَيكُون الخَصب والْخَيْر شَرّاً عَلَيْهِمْ، وخَيراً علىٰ الطُّغاة الغَاصبين (وَ تَفِيضُ اللِّئَامُ فَيْضاً، وَ تَغِيضُ الْكِرَامُ غَيْضاً) إِذَاكَانَتْ الثَّروة في قَبضة الأَشْرَارِ أغروا بِها لِئَام النَّاس، وقَويت بِهِمْ دَولة الضَّلال، وضَعُفت شَوكة الكِرام الطَّيِّبين.

(وَ كَانَ أَهْلُ ذَلِكَ الزَّمَانِ ذِئَاباً). ذَلِك الزَّمَان إِشَارَة إِلىٰ كلّ زَمَان تَسود فيهِ الأَنْظِمة الجَائرة، ويتَوَلّىٰ مَركز الْقِيَادَة فِيهِ غَيْر الأكفاء، والْمُرَاد بالأَهْل هُنا الَّذين يَنتَفعُون بتِلْكَ الأَوْضَاع، وهَؤُلاَء القَادة غيرُ الأكفاء، والَّذِين يَسْتَغلون الأَنْظمة الفَاسدة لمصَالِحهم.. وإلّا فأي ذَنب للمُضطَهَدِين، والمحرُومِين (سَلاَطِينُهُ سِبَاعاً) مُفترسة يَحكمون النَّاس بشَرِيعَة الغَاب، وعقل هِتلر، والحَجَّاج (وَ أَوْسَاطُهُ أُكَّالاً). قِيل: الْمُرَاد بالأُكَّال الطّعام، وبالأَوْسَاط الطَّبَقَة الوسطىٰ، وإِنَّهَا مأكولة للطَّبقة الْحَاكِمَة العُليا!.. ويجوز أنْ يَكُون الْمُرَاد بالأَوْسَاط هُنا أَعوان الظّلمة، وحَوَاشِي

السَّلاطِين، لأنّ الإمَام ذكر الطَّرفَين في سِياقٍ واحد، وبلا فَاصل... هَـذَا، إلىٰ أنّ كَلِمَة الأوْسَاط تُطلق علىٰ أربَاب المَناصِب.

(وَ فُقَرَاؤُهُ أَمْوَاتاً) حَيْث لا حَول لهم، وَلاَ قُوَّة إلّا الشّقاء، والإدلاَء بأصوَاتِهِـم أيَّام الإنْتخَابات للصُوص، والسَّفاحِين (وَ غَارَ الصِّدْقُ، وَ فَاضَ الْكَذِبُ) أي ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِي ٱلْبَرِّ، وَٱلْبَحْرِ، وَلاَ رَادِع، ومُنْكِر، وإنّما خَصّ الْكَذِب بالذِّكر لأنّه مـن أُمهات الرَّذائل، وأكْثَرها خَطراً، وضَرَراً (وَٱسْتُعْمِلَتِ الْمَوَدَّةُ بِاللِّسَانِ، وَ تَشَاجَرَ النَّاسُ بِالْقُلُوبِ). وَلاَ يَنمو هَذَا النِّـفَاق، ويـنتَشر إلّا تَحت رَايَـة الظُّـلم، وكَـبْت الْحُرِّيَّة، ومن الَّذي يَدفع ثَمن الصَّراحة من نفسِهِ، وماله، وأَهْله؟ (وَ صَارَ الْفُسُوقُ نَسَباً) قَرِيباً يَجمع بَيْنَ المُنحرفين، ومِـثْله: «وَتَـوَاخَـىٰ النَّـاسُ عَـلَىٰ الْـفُجُورِ». (وَالْعَفَافُ عَجَباً) لِقلة أَهْله، ومِثْله «وَتَغِيضُ الْكِرَامُ». (وَ لُبِسَ الإِسْلاَمُ لُبْسَ الْفَرْوِ مَقْلُوباً) حَيْث تُزيّف، وتُحرّف أَحْكَامه وتَعاليمه، وَلاَ يَبْقَ مِنْهَا إلّا الاِسم، والشَّعائر والمظاهر، كَمَا هِي حَال ٱلْمُسْلِمِين في عصرنا.. وَقَـالَ أديب مَـعروف: «لا سَـبب لتخلف ٱلْمُسْلِمِين إلّا التَّفْسِير المُختلف لِلإِسْلاَم».

وبعد، فإنّ كلاَم الإمَام عليه السلام في هَذِه ٱلْخُطْبَة يدل بصرَاحةٍ، ووضـوحٍ أنّ الْـفَقْر والشّقاء، وٱنتشار الجَرِيمَة، والرَّذيلة في أي مُجتمع إنّمـا هو نـتيجة حـتمية لفسَـاد الأَوْضَاع، وجَوْر الْحُكَّام، وسَيطرة الخَونَة، وغَيْر الأكـفاء عـلىٰ مَـركز الْـقِيَادَة، ومَناصب الدَّوْلَة.

الخطبة

-١٠٩-

عَظَمَة الله تَعَالَىٰ...فِقْرَة ١ ـ ٢:

كُلُّ شَيْءٍ خَاشِعٌ لَهُ ، وَكُلُّ شَيْءٍ قَائِمٌ بِهِ ، غِنَىٰ كُلِّ فَقِيرٍ ، وَ عِزُّ كُلِّ ذَلِيلٍ ، وَ قُوَّةُ كُلِّ ضَعِيفٍ ، وَ مَفْزَعُ كُلِّ مَلْهُوفٍ . مَنْ تَكَلَّمَ سَمِعَ نُطْقَهُ ، وَ مَنْ سَكَتَ عَلِمَ سِرَّهُ ، وَ مَنْ عَاشَ فَعَلَيْهِ رِزْقُهُ ، وَ مَنْ مَاتَ فَإِلَيْهِ مُنْقَلَبُهُ . لَمْ تَرَكَ الْعُيُونُ فَتُخْبِرَ عَنْكَ ، بَلْ كُنْتَ قَبْلَ الْوَاصِفِينَ مِنْ خَلْقِكَ . لَمْ تَخْلُقِ الْخَلْقَ لِوَحْشَةٍ ، وَ لاَ اسْتَعْمَلْتَهُمْ لِمَنْفَعَةٍ ، وَ لاَ يَسْبِقُكَ مَنْ طَلَبْتَ ، وَ لاَ يُفْلِتُكَ مَنْ أَخَذْتَ ، وَ لاَ يَنْقُصُ سُلْطَانَكَ مَنْ عَصَاكَ ، وَ لاَ يَزِيدُ فِي مُلْكِكَ مَنْ أَطَاعَكَ ، وَ لاَ يَرُدُّ أَمْرَكَ مَنْ سَخِطَ قَضَاءَكَ ، وَ لاَ يَسْتَغْنِي عَنْكَ مَنْ تَوَلَّىٰ عَنْ أَمْرِكَ[١] . كُلُّ سِرٍّ عِنْدَكَ عَلاَنِيَةٌ ، وَ كُلُّ غَيْبٍ عِنْدَكَ شَهَادَةٌ . أَنْتَ الْأَبَدُ فَلاَ أَمَدَ لَكَ ، وَأَنْتَ الْمُنْتَهَىٰ فَلاَ مَحِيصَ عَنْكَ ، وَ أَنْتَ الْمَوْعِدُ فَلاَ مَنْجَى مِنْكَ إِلَّا إِلَيْكَ . بِيَدِكَ نَاصِيَةُ كُلِّ دَابَّةٍ ، وَ إِلَيْكَ مَصِيرُ كُلِّ نَسَمَةٍ . سُبْحَانَكَ مَا أَعْظَمَ شَأْنَكَ ! سُبْحَانَكَ مَا أَعْظَمَ مَا نَرَىٰ مِنْ خَلْقِكَ ! وَ مَا أَصْغَرَ كُلَّ عَظِيمَةٍ فِي جَنْبِ قُدْرَتِكَ ! وَ مَا أَهْوَلَ مَا نَرَىٰ مِنْ مَلَكُوتِكَ ! وَ مَا أَحْقَرَ ذَلِكَ فِيمَا غَابَ عَنَّا مِنْ سُلْطَانِكَ ! وَ مَا أَسْبَغَ نِعَمَكَ فِي الدُّنْيَا ، وَ مَا أَصْغَرَهَا فِي نِعَمِ الْآخِرَةِ[٢] !

السَّلاطِين، لأنّ الإِمَام ذكر الطَّرفَين في سِياقٍ واحد، وبلا فَاصل... هَـذَا، إِلىٰ أنّ كَلِمَة الأوْسَاط تُطلق علىٰ أرْبَاب المَناصِب.

(وَ فُقَرَاؤُهُ أمْوَاتاً) حَيْث لا حَول لهم، وَلاَ قُوَّة إلّا الشّقاء، والإِدلاَء بأصواتِهم أيّام الإنْتخَابات للصُوص، والسَّفاحِين (وَ غَارَ الصِّدْقُ، وَ فَاضَ الْكَذِبُ) أي ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِي ٱلْبَرِّ، وَٱلْبَحْرِ، وَلاَ رَادِع، ومُنْكِر، وإنّمَا خَصّ الْكَذِب بالذّكر لأنّه من أُمهات الرّذائل، وأكْثَرها خَطراً، وضَرَراً (وَٱسْتُعْمِلَتِ الْمَوَدَّةُ بِاللِّسَانِ، وَ تَشَاجَرَ النَّاسُ بِالْقُلُوبِ). وَلاَ يَنمو هَذَا النِّفَاق، ويـنتَشر إلّا تَحت رَايَـة الظُّـلم، وكَـبْت الْحُرِّيَّة، ومن الَّذي يَدفع ثَمن الصَّراحة من نفسهِ، وماله، وأَهْله؟ (وَ صَارَ الْفُسُوقُ نَسَباً) قَريباً يَجمع بَيْنَ المُنحرفين، ومِـثْله: «وَتَـوَاخَـىٰ النَّـاسُ عَـلَىٰ الْـفُجُورِ».

(وَالْعَفَافُ عَجَباً) لِقلة أَهْله، ومِثْله «وَتَغِيضُ الْكِرَامُ». (وَ لُبِسَ الْإِسْلاَمُ لُبْسَ الْفَرْوِ مَقْلُوباً) حَيْث تُزيّف، وتُحرّف أَحْكَامه وتَعَالِيمه، وَلاَ يَبْقَىٰ مِنْهَا إلّا الإِسم، والشَّعائر والمظاهر، كَمَا هِي حَال ٱلْمُسْلِمِين في عصرنا.. وَقَـالَ أديب مَـعروف: «لا سَـبب لتخلف ٱلْمُسْلِمِين إلّا التَّفْسِير المُختلف لِلْإِسْلاَم».

وبعد، فإنّ كلاَم الإِمَام عليه السلام في هَذِه ٱلْخُطْبَةُ يدل بصرَاحةٍ، ووضـوحٍ أنّ الْـفَقْر والشّقاء، وٱنتشار الجَرِيمَة، والرَّذيلة في أي مُجتمع إنّمَا هو نـتيجة حَـتمية لفسَـاد الْأَوْضَاع، وجَوْر الْحُكَّام، وسَيطرة الخَونَة، وغَيْر الأكـفاء عـلىٰ مَـركز الْـقِيَادَة، ومَناصب الْدَّوْلَة.

الخطبة

-١٠٩-

عَظَمَة الله تَعَالَىٰ...فِقْرَة ١ ـ ٢:

كُلُّ شَيْءٍ خَاشِعٌ لَهُ، وَكُلُّ شَيْءٍ قَائِمٌ بِهِ، غِنَىٰ كُلِّ فَقِيرٍ، وَ عِزُّ كُلِّ ذَلِيلٍ، وَ قُوَّةُ كُلِّ ضَعِيفٍ، وَ مَفْزَعُ كُلِّ مَلْهُوفٍ. مَنْ تَكَلَّمَ سَمِعَ نُطْقَهُ، وَ مَنْ سَكَتَ عَلِمَ سِرَّهُ، وَ مَنْ عَاشَ فَعَلَيْهِ رِزْقُهُ، وَ مَنْ مَاتَ فَإِلَيْهِ مُنْقَلَبُهُ. لَمْ تَرَكَ الْعُيُونُ فَتُخْبِرَ عَنْكَ، بَلْ كُنْتَ قَبْلَ الْوَاصِفِينَ مِنْ خَلْقِكَ. لَمْ تَخْلُقِ الْخَلْقَ لِوَحْشَةٍ، وَ لاَ اسْتَعْمَلْتَهُمْ لِمَنْفَعَةٍ، وَ لاَ يَسْبِقُكَ مَنْ طَلَبْتَ، وَ لاَ يُفْلِتُكَ مَنْ أَخَذْتَ، وَ لاَ يَنْقُصُ سُلْطَانَكَ مَنْ عَصَاكَ، وَ لاَ يَزِيدُ فِي مُلْكِكَ مَنْ أَطَاعَكَ، وَ لاَ يَرُدُّ أَمْرَكَ مَنْ سَخِطَ قَضَاءَكَ، وَ لاَ يَسْتَغْنِي عَنْكَ مَنْ تَوَلَّىٰ عَنْ أَمْرِكَ[1]. كُلُّ سِرٍّ عِنْدَكَ عَلاَنِيَةٌ، وَكُلُّ غَيْبٍ عِنْدَكَ شَهَادَةٌ. أَنْتَ الْأَبَدُ فَلاَ أَمَدَ لَكَ، وَأَنْتَ الْمُنْتَهَىٰ فَلاَ مَحِيصَ عَنْكَ، وَ أَنْتَ الْمَوْعِدُ فَلاَ مَنْجَىٰ مِنْكَ إِلَّا إِلَيْكَ. بِيَدِكَ نَاصِيَةُ كُلِّ دَابَّةٍ، وَ إِلَيْكَ مَصِيرُ كُلِّ نَسَمَةٍ. سُبْحَانَكَ مَا أَعْظَمَ شَأْنَكَ! سُبْحَانَكَ مَا أَعْظَمَ مَا نَرَىٰ مِنْ خَلْقِكَ! وَ مَا أَصْغَرَ كُلَّ عَظِيمَةٍ فِي جَنْبِ قُدْرَتِكَ! وَ مَا أَهْوَلَ مَا نَرَىٰ مِنْ مَلَكُوتِكَ! وَ مَا أَحْقَرَ ذَلِكَ فِيمَا غَابَ عَنَّا مِنْ سُلْطَانِكَ! وَ مَا أَسْبَغَ نِعَمَكَ فِي الدُّنْيَا، وَ مَا أَصْغَرَهَا فِي نِعَمِ الْآخِرَةِ[2]!

اللُّغَة:

مَفْزَعُ: مَلجأ، ومَلاَذ. وَلاَ يُفْلِتُكَ مَنْ أَخَذْتَ: لاَ مَنَاص لهُ، ولاَ خَلاَص. وَالأَبَدُ: الدَّائِم. وَمَا أَهْوَلَ: مَا أَعْظَم، وضِدَه مَا أَحْقَرَ. ومَا أَسْبَغَ: مَا أَوْسَعَ، وَمَا أَتَمَّ.

الإِعْرَاب:

غِنَىٰ خَبَر لِمُبْتَدَأ مَحْذُوف أي هو غِنَىٰ كُلّ فَقِير، ولَمْ تَرَكَ أَصلها تَرَاك، وحُذف الأَلْف من الفِعْل المُضارع لمكان الجَزم، وَأَصل يُفْلِتُكَ يُفْلِت مِنكَ، ولمّا حُذفت «مِن» تخفيفاً اتصلت الكَاف بالفِعْل، وسُبْحَانَكَ نُصب علىٰ الْمَصْدَر أي أُسَبِحَك سُبْحَاناً، ومَا أَعْظَمَ «مَا» اسم نكرة بِمَعْنَىٰ شيء، ومحلها الرَّفع بِالاِبْتِدَاء، وأَعْظَمَ فعل مَاضٍ فِيهِ مَعْنَىٰ التَّعجُب، والفَاعل ضَمير مُستتر، والجُمْلَة خَبَر «مَا» ومَا بَعد أَعْظَمَ مَفعُول، ومِثْله مَا أَصْغَرَ، وَمَا أَهْوَلَ، وَمَا أَسْبَغَ.

الْمَعْنىٰ:

(كُلُّ شَيْءٍ خَاشِعٌ لَهُ) أي فِي قَبْضَته تَعَالَىٰ، ومُفتقر إِلَيْهِ وجُوداً، وبقَاءً، افتقار المُمكن للواجب، والمَخلُوق للخَالِق (وَكُلُّ شَيْءٍ قَائِمٌ بِهِ) أي أَنّه تَعَالَىٰ هُو الْعِلَّة وإِذَنْ فَلا بُدّ له فِي وُجُودِهِ من سبب خَارج عن ذَاته، وهَذَا السَّبب الخَارجي إنْ لَمْ يَكُن مَوْجُوداً بِنَفسه احتَاج إِلىٰ سَبب، وهَكذا إِلىٰ ما لاَ نهَاية (غِنَىٰ كُلِّ فَقِيرٍ). كلّ مَن احتاج إِلىٰ شَيء فَهُوَ فَقِير حتّىٰ ولو كَان هَذَا الشَّيء شَربَة ماءٍ، أو نَسمَةَ هواءٍ، ومَعْنَىٰ ذَلِكَ أنّ كلّ كَائن ـ مَا عَدا الله ـ فَهُوَ فَقِير لا غِنَىٰ لهُ عن خَلقِ الله ونِعَمِهِ، وإِنْ مَلَكَ الدُّنْيا بِكَامِلِهَا، ولذا قَالَ الإِمَام عليه السلام: «إِنَّا لاَ نَمْلِكُ مَعَ اللهِ شَيْئاً، وَلاَ نَمْلِكُ إِلَّا مَا

مَلَّكَنَا »[1].

(وَ عِزُّ كُلِّ ذَلِيلٍ، وَ قُوَّةُ كُلِّ ضَعِيفٍ) أي أنّ الذَّليل يَصير عَزيزاً، والضَّعيف قَوياً إِذَا ٱسْتقَام علىٰ طَريق الهُدَىٰ (وَ مَفْزَعُ كُلِّ مَلْهُوفٍ). إِلىٰ أين يَـذهب المُـضْطَرّ إذَا يَئِس من الأرْض، وأَهْلها؟... أَبداً لا سَبيل لهُ ـ مُؤمِناً كَان أَم جَاحِداً ـ إلّا واحد من ٱثْنَيْن: الإِنْـتحَار، أو اللّـجُوء إِلىٰ ٱلـسَّماَء، إِلىٰ الله تـعَالىٰ الَّـذي يَمـنح الـقُوَّة، والخَلاص من الشَّدَائِد، والآفَات... ومن هُنا رَأينا الجَاحدِين بِأَلْسِنَتِهِمْ يَفْزَعُون إِلىٰ الله وحدَه عند النَّوائب، والنَّوازل: ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْـَٔرُونَ﴾[2] أي تَرْفَعُون إِلىٰ الله أَصْوَاتُكمْ بالدُّعَاء.

(مَنْ تَكَلَّمَ سَمِعَ نُطْقَهُ، وَ مَنْ سَكَتَ عَلِمَ سِرَّهُ، وَ مَنْ عَاشَ فَعَلَيْهِ رِزْقُهُ، وَ مَـنْ مَاتَ فَإِلَيْهِ مُنْقَلَبُهُ) إنّه تَعَالىٰ يَعلم السِّرِّ، وأَخْفَىٰ، ويَقْبِضُ، وَيَبْسُـطُ عَـمّن يَشَـاء وَيَبْسُـطُ، وإِلَيْهِ المَصِير (لَمْ تَرَكَ الْعُيُونُ فَتُخْبِرَ عَنْكَ). الخِـطَاب لله سُـبْحَانَهُ، وَإِذَا ٱمتنع بذَاتِه عن العُيُون تؤمن بِهِ ٱلْعُقُول، وثَبت وجُوده بِٱلْخَلْق، والآثَار[3]. (بَـلْ كُنْتَ قَبْلَ الْوَاصِفِينَ مِنْ خَلْقِكَ). كَان الله، ولَم يَكُن معهُ شيء، وإِذَنْ فَمن الَّذي يُخبر عن وُجُودِه؟ وإِلىٰ مَن؟. وفي الحَدِيث القُدسي: «فخلقت ٱلْخَلْق لِكي أُعرف»[4] (لَمْ تَخْلُقِ الْخَلْقَ لِوَحْشَةٍ) كَيْفَ يَحتاج إِلىٰ الأنيس، والجلَيْس، وهو غني بذَاته عَن

---

(١) أُنظر، نَهج ٱلبَلاغَة: ٱلحِكْمَة (٤٠٢).

(٢) ٱلنَّحل: ٥٣.

(٣) تَقدَّم مِثْله مَع الشَّرح في ٱلخُطْبَةِ: (٤٩) وغَيْرها. (مِنْهُ ﷺ).

(٤) أُنظر، رسائل المحقق الكركي: ١٦٢/٣، أبجد العلوم: ١٥٩/٢، تأريخ ٱبـن خـلدون: ١/ ٤٧١، بحـار الأنوار: ٢٧٢/٤، عوالي اللئالي: ٥٥/١، شرح أُصول الكافي: ٢٢/١.

كلّ شيء، وكَامل من كلّ وجه؟ (وَ لاَ ٱسْتَعْمَلْتَهُمْ لِمَنْفَعَةٍ). خَلق سُبْحَانَهُ مَا خَلق ومن خَلق، لا ليدفع بِهِ ضُرّاً، أو ليجلب نَفعاً، كَيْفَ، وهو سُبْحَانَهُ مصدَر الْمَنَافِع كلّها، وما من مَخلوق يَسْتَطِيع الْوُجُود لحظةً وَاحِدَة إلّا بـفضلِهِ، وعـنايته، ومـن يَعمل عملاً لوجهه تَعَالَىٰ يَدخره عند الله ليوم فَقره، وفَاقته.

(وَ لاَ يَسْبِقُكَ مَنْ طَلَبْتَ) أَين المفَرّ، والإله الطَّالب!. (وَ لاَ يُفْلِتُكَ مَنْ أَخَذْتَ).

وَتَسْأَل: كلّ شيء فِي قَبْضَته تَعَالَىٰ، وآخذ بناصِيَته، وإِذَنْ فَمَا مَعنىٰ «مَنْ أَخَذْتَ»؟ وهَل فَاته شيء ثُمّ أَخذه؟.

الجَوَاب:

الْمُرَاد من «وَ لاَ يُفْلِتُكَ» لا يَفُوتَك مَن حَاول الهرَب مِنك، وتَقَدَّم: «لاَ يُعْجِزُهُ مَنْ طَلَبَ، وَ لاَ يَفُوتُهُ مَنْ هَرَبَ»[1]. (وَ لاَ يَنْقُصُ سُلْطَانَكَ مَنْ عَصَاكَ) لأَنّ الله غَني عن كلّ شيء، ومَا لشيء غِنَىٰ عَنْه، ولو قَهر سُبْحَانَهُ الخَلاَئِق علىٰ عِبادته مَـا عَـصَاه مَخلوق، ولكنْ شَاءت حِكْمَته أنْ يَكون ٱلإنْسَان حُرّاً فيما يَفعل، ويَترك حِرصاً عَلىٰ إنْسَانيته (وَ لاَ يَزِيدُ فِي مُلْكِكَ مَنْ أَطَاعَكَ) لأَنّ مُلكه تَعَالَىٰ يُفيض من ذَاته، لا مِن طَاعَة النَّاس لهُ، وتَطْبيلهم، وتَزميرهم... (وَ لاَ يَرُدُّ أَمْرَكَ مَنْ سَخِطَ قَضَاءَكَ) وإِذَنْ فالتَّسليم لأمرِهِ تَعَالَىٰ، والصَّبر عَلَيْهِ أَوْلَىٰ، وأَفضل (وَ لاَ يَسْتَغْنِي عَنْكَ مَنْ تَـوَلَّىٰ عَنْ أَمْرِكَ) حَتَّىٰ مَن عصَاك مُفتقرٌ إِلىٰ مَعُونتك، وعِنَايتك.

(كُلُّ سِرٍّ عِنْدَكَ عَلاَنِيَةٌ، وَكُلُّ غَيْبٍ عِنْدَكَ شَهَادَةٌ) لأَنّ نِسْبَة الْبَاطِن إِلىٰ عَـلمهِ

---

(١) أنظر، نَهج ٱلبَلاَغَة: ٱلْخُطْبَة (١٠٥). (مِنْهُ).

تَعَالىٰ تَمَاماً كنسبَة الظَّاهِر، كمَا أنّ خَلق الكَوْن بالقِياس إلىٰ قُدرته كخَلق الذَّرَّة (أَنْتَ الْأَبَدُ) أي الدَّائِم (فَلاَ أَمَدَ لَكَ) حَتَّىٰ تَنْتَهِي بإنتهائِه، لأنّ الموجود بالذَّات يَسْتَحِيل فِي حقّه الفَناء، والزَّوال (فَلاَ مَحِيصَ عَنْكَ، وَ أَنْتَ الْمَوْعِدُ فَلاَ مَنْجَي مِنْكَ إِلَّا إِلَيْكَ) أي عن المَصير إلَيْك (وَ أَنْتَ الْمَوْعِدُ فَلاَ مَنْجَي مِنْكَ إِلَّا إِلَيْكَ). لا مَهرب من عذَاب الله إلّا بطاعته، أو برحمته، ومغفرته، وَلاَ شكّ أنّه تَعَالىٰ أَهْل السَّخاء، والْعَطَاء من غَيْر عِوض لكمَاله من كلّ وجه.

(بِيَدِكَ نَاصِيَةُ كُلِّ دَابَّةٍ) مَالك كلّ شيء (وَ إِلَيْكَ مَصِيرُ كُلِّ نَسَمَةٍ). عَطف تَفْسِير علىٰ أَنْتَ الْمَوْعِدُ، وَأَنْتَ الْمُنْتَهَىٰ، وتُطلق النَّسمة علىٰ كلّ ذي رُوح.

(سُبْحَانَكَ مَا أَعْظَمَ شَأْنَكَ! سُبْحَانَكَ مَا أَعْظَمَ مَا نَرَىٰ مِنْ خَلْقِكَ! وَ مَا أَصْغَرَ كُلَّ عَظِيمَةٍ فِي جَنْبِ قُدْرَتِكَ! وَ مَا أَهْوَلَ مَا نَرَىٰ مِنْ مَلَكُوتِكَ! وَ مَا أَحْقَرَ ذٰلِكَ فِيمَا غَابَ عَنَّا مِنْ سُلْطَانِكَ! وَ مَا أَسْبَغَ نِعَمَكَ فِي الدُّنْيَا، وَ مَا أَصْغَرَهَا فِي نِعَمِ الْآخِرَةِ) هـٰذَا تَسبيح، وتَمجيد لكمَاله تَعَالىٰ، وعَظَمَته عَلىٰ قَدر الفَهم مَع الإعْترَاف بأنّ مَا ظَـهر للعيُون، والْعُقُول من قُدرته تَعَالىٰ لَيْس بشيء بالقِياس إلىٰ مَا غَاب عَنْهَا، وأَيضاً نِعَم الدُّنْيَا بِكَامِلها لَيْسَت بشيء إِذَا قِيست بأصْغر صَغيرة من الْجَنَّة.

سُبْحَانَكَ خَالِقاً، وَ مَعْبُوداً!.. فِقْرَة ٣ ـ ٥:

مِنْ مَلاَئِكَةٍ أَسْكَنْتَهُمْ سَمَاوَاتِكَ، وَ رَفَعْتَهُمْ عَنْ أَرْضِكَ، هُمْ أَعْـلَمُ خَـلْقِكَ بِكَ، وَأَخْوَفُهُمْ لَكَ، وَ أَقْرَبُهُمْ مِنْكَ، لَمْ يَسْكُنُوا الْأَصْلاَبَ، وَ لَمْ يُضَمَّنُوا الْأَرْحَامَ، وَ لَمْ

يُخْلَقُوا ﴿مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ﴾[١]، وَ لَمْ يَتَشَعَّبْهُمْ ﴿رَيْبَ ٱلْمَنُونِ﴾[٢]، وَ إِنَّهُمْ عَلَىٰ مَكَانِهِمْ، وَ لَمْ يَتَشَعَّبْهُمْ ﴿رَيْبَ ٱلْمَنُونِ﴾ مِنْكَ، وَ مَنْزِلَتِهِمْ عِنْدَكَ، وَ ٱسْتِجْمَاعِ أَهْوَائِهِمْ فِيكَ، وَ كَثْرَةِ طَاعَتِهِمْ لَكَ، وَ قِلَّةِ غَفْلَتِهِمْ عَنْ أَمْرِكَ، لَوْ عَايَنُوا كُنْهَ مَا خَفِيَ عَلَيْهِمْ مِنْكَ لَحَقَّرُوا أَعْمَالَهُمْ، وَ لَزَرَوْا عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ، وَلَعَرَفُوا أَنَّهُمْ لَمْ يَعْبُدُوكَ حَقَّ عِبَادَتِكَ، وَ لَمْ يُطِيعُوكَ حَقَّ طَاعَتِكَ[٣]. سُبْحَانَكَ خَالِقاً، وَ مَعْبُوداً! بِحُسْنِ بَلَائِكَ عِنْدَ خَلْقِكَ خَلَقْتَ دَاراً، وَ جَعَلْتَ فِيهَا مَأْدُبَةً: مَشْرَباً، وَ مَطْعَماً، وَ أَزْوَاجاً، وَ خَدَماً، وَ قُصُوراً، وَ أَنْهَاراً، وَ زُرُوعاً، وَثِمَاراً، ثُمَّ أَرْسَلْتَ دَاعِياً يَدْعُو إِلَيْهَا، فَلَا الدَّاعِيَ أَجَابُوا، وَ لَا فِيمَا رَغَّبْتَ رَغِبُوا، وَلَا إِلَىٰ مَا شَوَّقْتَ إِلَيْهِ ٱشْتَاقُوا[٤]. أَقْبَلُوا عَلَىٰ جِيفَةٍ قَدِ ٱفْتَضَحُوا بِأَكْلِهَا، وَ ٱصْطَلَحُوا عَلَىٰ حُبِّهَا، وَ مَنْ عَشِقَ شَيْئاً أَعْشَىٰ بَصَرَهُ، وَ أَمْرَضَ قَلْبَهُ. فَهُوَ يَنْظُرُ بِعَيْنٍ غَيْرِ صَحِيحَةٍ، وَ يَسْمَعُ بِأُذُنٍ غَيْرِ سَمِيعَةٍ، قَدْ خَرَقَتِ الشَّهَوَاتُ عَقْلَهُ، وَ أَمَاتَتِ الدُّنْيَا قَلْبَهُ، وَ وَلِهَتْ عَلَيْهَا نَفْسُهُ، فَهُوَ عَبْدٌ لَهَا، وَ لِمَنْ فِي يَدَيْهِ شَيْءٌ مِنْهَا، حَيْثُمَا زَالَتْ زَالَ إِلَيْهَا، وَ حَيْثُمَا أَقْبَلَتْ أَقْبَلَ عَلَيْهَا، لَا يَنْزَجِرُ مِنَ اللهِ بِزَاجِرٍ، وَ لَا يَتَّعِظُ مِنْهُ بِوَاعِظٍ[٥].

اللُّغَة:

المَهِين: الحَقِير. لَمْ يَتَشَعَّبْهُمْ: لَمْ يُفرقهم. والمُرَاد بالرَّيب هُنا صروف الدَّهْر، وبالمَنُونِ الدَّهْر. وَزَرَوْا: عَابُوا. وأَعْشَىٰ بَصَرَهُ: أَعْمَاه. وَوَلِهَتْ: تَحيَّرت من شِدّة الوَجد.

---

(١) ٱلسَّجْدَة: ٨.

(٢) ٱلطُّور: ٣٠.

الإِعْرَاب:

جُمْلَة لَوْ عَايَنُوا خَبَر إِنَّهُمْ عَلَىٰ مَكَانِهِمْ، وحَقَّ مَفْعُول مُطلق لأنّه مُضاف إِلىٰ مَصْدَر الفِعْل مثل أكرمته أحسن الإِكرَام، وخَالِقاً، ومَعْبُوداً تَمْيِيز عَلىٰ مَعْنَىٰ مِنْ خَالِقٍ مَعْبُودٍ، أو حَال، وبِحُسْنِ بَلاَئِكَ مُتَعَلّق بِسُبْحَانَكَ، ومَشْرَباً، وما بَعْدَه بَدل مُفصل من مُجمل، والمُبدل منهُ مَأْدُبَةً، وفِيمَا رَغَّبْتَ مُتَعَلّق بِرَغِبُوا، وحَيْثُمَا ظَرف فيهِ مَعْنَىٰ الشَّرط، ويَحتاج إِلىٰ فعل الشَّرط، وجَوابه، ومَحله النَّصب بفعل الشَّرط.

المَعْنىٰ:

(مِنْ مَلاَئِكَةٍ أَسْكَنْتَهُمْ سَمَاوَاتِكَ، وَ رَفَعْتَهُمْ عَنْ أَرْضِكَ، هُمْ أَعْلَمُ خَلْقِكَ بِكَ، وَأَخْوَفُهُمْ لَكَ، وَ أَقْرَبُهُمْ مِنْكَ). الحَدِيث عَن ٱلْمَلاَئِكَة حَدِيث عن ٱلغَيْبِ، ولذَا نَجمد عَلىٰ ظَاهر كَلاَم الإِمَام عَنْهُمْ، ويَتلَخص بأنّ ٱلْمَلاَئِكَة، أو أكْثَرهم، أو الكَثِير مِنْهُم يُقيمون في ٱلسَّماء لا فِي الأَرْض، وهو أَعلم خَلق الله باللهِ، وأَشدّهم خَوْفاً منهُ، لأنّ الخَوْف من اللهِ يُقاس بِٱلْعِلْم بهِ، والفَهم عَنْه، ولمكَانتهم السَّامية مِن ٱلْعِلْم بِهِ، والخَوْف منهُ، والطَّاعَة لهُ كَانوا أَقْرَب إِلَيْهِ سُبْحَانَهُ من سَائر الخَلاَئِق.

(لَمْ يَسْكُنُوا الأَصْلاَبَ، وَ لَمْ يُضَمَّنُوا الأَرْحَامَ، وَ لَمْ يُخْلَقُوا ﴿مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ﴾) لَم يَتنَاكَحوا، ويَتنَاسَلوا (وَ لَمْ يَتَشَعَّبْهُمْ ﴿رَيْبَ ٱلْمَنُونِ﴾) لاَ عِلل، وَلاَ أَسْقَام: وَلاَ أَحْزَاب بَيْنَهمْ، وخِصَام، وهل يَمرض مَن لا يَأكُل، وَلاَ يَشرب؟ وعلىٰ أي شيء يَتخَاصمُون ما داموا لا يَملكون، وَلاَ يَحكمون؟ (وَ إِنَّهُمْ عَلَىٰ مَكَانِهِمْ، وَ لَمْ يَتَشَعَّبْهُمْ ﴿رَيْبَ ٱلْمَنُونِ﴾ مِنْكَ، وَ مَنْزِلَتِهِمْ عِنْدَكَ، وَ ٱسْتِجْمَاعِ أَهْوَائِهِمْ فِيكَ، وَ كَثْرَةِ طَاعَتِهِمْ لَكَ، وَ قِلَّةِ غَفْلَتِهِمْ عَنْ أَمْرِكَ، لَوْ عَايَنُوا كُنْهَ مَا خَفِيَ عَلَيْهِمْ مِنْكَ لَحَقَّرُوا

أَعْمَالَهُمْ، وَ لَزَرَوْا عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ، وَلَعَرَفُوا أَنَّهُمْ لَمْ يَعْبُدُوكَ حَقَّ عِبَادَتِكَ، وَ لَمْ يُطِيعُوكَ حَقَّ طَاعَتِكَ) ٱلْمَلاَئِكَة كما أشرنا أعلم الخلائق بالله، ومَع هَذَا لا يَعرفُون من كَمَاله وجَلاله إلّا الأقل من القَليل، ولو تَسنىٰ لَهم أنْ يَعرفوا مِن عَظَمَته أَكْثَر مِمَّا عَرفوا ــ ما أقَاموا لعِبَادَتهم وزناً، وٱعتبَاراً.

(سُبْحَانَكَ خَالِقاً، وَ مَعْبُوداً! بِحُسْنِ بَلاَئِكَ عِنْدَ خَلْقِكَ). أَنعَم سُبْحَانَهُ علىٰ خَلقه بالايجَاد، ثُمّ زَادهم مِن نِعَمِهِ مَا لا يَبلغه الإحْصَاء، فوَجَبَ لهُ الشُّكْر عَلَيْهِمْ بالطَّاعَة والْعِبَادَة لله وحده، ومن أدىٰ هَذَا الشُّكْر علىٰ وَجههِ زَاده أَضْعَافَاً مُضاعفة، قَالَ الْإِمَام: من أُعطي الشُّكْر لَم يُحرم الزِّيَادَة. (خَلَقْتَ دَاراً، وَ جَعَلْتَ فِيهَا مَأْدُبَةً: مَشْرَباً، وَ مَطْعَماً، وَ أَزْوَاجاً، وَ خَدَماً، وَ قُصُوراً، وَ أَنْهَاراً، وَ زُرُوعاً، وَثِمَاراً). الْمُرَاد بِهَذِه الدَّار ٱلْجَنَّة، لأنّ الصِّفَات المَذكُورة هِي من صِفَاتها، بالإضَافة إلىٰ قَوْله: «أَرْسَلْتَ إِلَيْهَا دَاعِياً» والْمُرَاد بالزَّرع مَا يَعُم الشَّجر، وٱلْمَعْنىٰ أنّ الله سُبْحَانَهُ خَلق ٱلْجَنَّة بِمَا فيها لمِن عَمل لها عَملها: ﴿وَنُودُوٓاْ أَن تِلْكُمُ ٱلْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾[1].

(ثُمَّ أَرْسَلْتَ دَاعِياً يَدْعُو إِلَيْهَا). ضَمير إِلَيْهَا يَعود إلىٰ ٱلْجَنَّة، والدَّاعي هُو مُحَمّد ﷺ الّذي دَعَا النَّاس بالّتي هِي أَحسن إلىٰ ما بيّنه سُبْحَانَهُ بقَوْله: ﴿يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ﴾[2]. (فَلاَ الدَّاعِيَ أَجَابُوا، وَ لاَ فِيمَا رَغَّبْتَ رَغِبُوا، وَلاَ إِلَىٰ مَا شَوَّقْتَ إِلَيْهِ ٱشْتَاقُوا) ويَا لَيتهُم وقفوا عِند الإعـرَاض، وعَـدم

(١) ٱلْأَعْرَافِ: ٤٣.
(٢) ٱلْأَعْرَافِ: ١٥٧.

الإجَابة، ولَم يُعلنوا الحْرْب عَلىٰ مَن وضَع عَـنهُمْ الأَغـلاَل، وحَـطّم قـيُود الذُّل، والتَّخلف!

(أَقْبَلُوا عَلَىٰ جِيفَةٍ قَدِ ٱفْتَضَحُوا بِأَكْلِهَا، وَ ٱصْطَلَحُوا عَلَىٰ حُبِّهَا). الجِـيفَة جُـثَّة ٱلْميّت المُنْتِنَة، والمُرَاد بها هُنا كلّ مَا حَرم الله سُبْحَانَهُ مَالاًكَانَ، أم جَاهاً، أم جِنْساً، أم غَيْر ذَلِكَ من المَلذَات... وجُثَّة ٱلْميّت تَنهَشُها الكِلاَب فكَذَلِكَ ٱلحَرَام لا يُـقْبِل عَلَيْهِ إلّا أَشباه الكِلاَب في الخِسَة، والوَضَاعة، ومن أَقْوَال الإِمَام: «الدُّنْيَا جِيفَة، فَمن أرادَها فليَصبر علىٰ مُخَالطة الكِـلاب»[1]. وَقَـالَ لولده الإِمَـام الْحَسَـن عليه السلام: «وَتَكَشَّفَتْ لَكَ عَنْ مَسَاوِيهَا فَإِنَّمَا أَهْلُهَا كِلاَبٌ عَاوِيَةٌ، وَسِبَاعٌ ضَارِيَةٌ، يَهِرُّ بَعْضُهَا عَلَىٰ بَعْضٍ، وَيَأْكُلُ عَزِيزُهَا ذَلِيلَهَا، وَيَقْهَرُ كَبِيرُهَا صَـغِيرَهَا»[2]. وعَـلَيْهِ فـالدُّنْيَا المَذمُومة هِي دُنْيَا المُتخَمِين مِن أكل ٱلْحَرَام، والمُنْغَمسِين فِي الرَّذَائِل، والآثَام.

(وَ مَنْ عَشِقَ شَيْئاً أَعْشَىٰ بَصَرَهُ، وَ أَمْرَضَ قَلْبَهُ. فَهُوَ يَنْظُرُ بِعَيْنٍ غَيْرِ صَحِيحَةٍ، وَ يَسْمَعُ بِأُذُنٍ غَيْرِ سَمِيعَةٍ، قَدْ خَرَقَتِ الشَّهَوَاتُ عَقْلَهُ، وَ أَمَاتَتِ الدُّنْيَا قَلْبَهُ، وَ وَلِهَتْ عَلَيْهَا نَفْسُهُ). لا مَنهج للمُحب العَاشق، وَلاَ قِيَم، وَلاَ عَواقِب في تَصوره، وتَفكيره إلّا المَعشوق، فَهُوَ وحده عَقْله، وسَمْعَه، وبَصره. ومِـن روائـع شَـوقي[3] قَـوْله فِي

---

(١) أُنظر، كنز العُمّال: ٣/٧١٩ ح ٨٥٦٤، كشف الخَـفاء: ١/٤٠٩ ح ٣١٣، الدُّر المـنثور: ٣/٣٠١، أُسد الغَابَة: ٤/٢٣، سُبل الهُدىٰ والرّشاد: ١١/٣٠١.

(٢) أُنظر، نَهْج البَلاَغَة: مِن كتابٍ له عليه السلام لابنِهِ الحَسَن عليه السلام رَقم (٣١).

(٣) هو أحمد بن عليّ بن أحمد شوقي (١٢٨٥ هـ ـ ١٣٥١ هـ) أشهر شعراء العصر الأخير، يـلقب بأمِـير ٱلشُّعَرَاء، مولده ووفاته بالقاهرة. تعلم في بَعْض المدارس الحكومية، وقـضىٰ سـنتين في قـسم التَّرجـمة بمدرسة الحُقُوق، وارسله الخديوي توفيق سَنَة ١٨٨٧م إلىٰ فرنسه، فتابع دراسة الحُـقُوق في مـونبليه، ←

سِكّير:

فكــلّ شيء رآهُ ظَنّهُ قَدحاً   وكلّ شيء رآهُ خَاله السَّاقِي

(فَهُوَ عَبْدٌ لَهَا، وَ لِمَنْ فِي يَدَيْهِ شَيْءٌ مِنْهَا... إلخ) وإذَنْ فالْعِبَادَة للمَال لا لِصَاحبه وخُلقه، وعِلمه. ومن أَقْوَال الإِمَام: «الْمَالُ مَادَّةُ الشَّهَوَاتِ»[1]... «أَنَا يَعْسُوبُ الْمُؤْمِنِينَ، وَالْمَالُ يَعْسُوبُ الْفُجَّارِ»[2]. وَهَذَا هو الفَارق بَيْنَ سِيَاسَة الإِمَام الّتي قَامت علىٰ الحَقّ، والدِّين، وبَيْنَ سِيَاسَة خصُومه الّتي عَاشت علىٰ الأَمْوَال، والرَّغبَات... وكَانَ الّذي كَان.

لاَ إِقَالَةَ، وَ لاَ رَجْعَةَ...فِقْرَة ٦ ـ ٨:

وَ هُوَ يَرَىٰ الْمَأْخُوذِينَ عَلَىٰ الْغِرَّةِ، حَيْثُ لاَ إِقَالَةَ، وَ لاَ رَجْعَةَ، كَيْفَ نَزَلَ بِهِمْ مَا كَانُوا يَجْهَلُونَ، وَ جَاءَهُمْ مِنْ فِرَاقِ الدُّنْيَا مَا كَانُوا يَأْمَنُونَ، وَ قَدِمُوا مِنَ الْآخِرَةِ عَلَىٰ مَا كَانُوا يُوعَدُونَ. فَغَيْرُ مَوْصُوفٍ مَا نَزَلَ بِهِمْ: اجْتَمَعَتْ عَلَيْهِمْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ، وَ حَسْرَةُ الْفَوْتِ، فَفَتَرَتْ لَهَا أَطْرَافُهُمْ، وَ تَغَيَّرَتْ لَهَا أَلْوَانُهُمْ، ثُمَّ ازْدَادَ الْمَوْتُ فِيهِمْ وُلُوجاً، فَحِيلَ بَيْنَ أَحَدِهِمْ، وَ بَيْنَ مَنْطِقِهِ[6]، وَ إِنَّهُ لَبَيْنَ أَهْلِهِ يَنْظُرُ بِبَصَرِهِ، وَ يَسْمَعُ بِأُذُنِهِ، عَلَىٰ صِحَّةٍ مِنْ عَقْلِهِ، وَ بَقَاءٍ مِنْ لُبِّهِ، يُفَكِّرُ فِيمَ أَفْنَىٰ عُمُرَهُ، وَ فِيمَ أَذْهَبَ

⇐ وأطلع علىٰ الأدب الفرنسي، وعاد سَنَة ١٨٩١م، فعين رئيساً للقسم الأفرنجي في ديوان الخديوي عبّاس حلمي، وندب سَنَة ١٨٩٦م لتمثيل الحُكُومَة المِصْريه في مؤتمر المستشرقين بجنيف، ثم سافر إلىٰ اسبانيه سَنَة ١٩١٥م وعاد بعد الحَرْب العالمية إلىٰ مِصْر فجعل أحد أعضاء مجلس الشُّيوخ. أُنظر، ترجمة حياته في الشَرقيات الجُزء الأَوَّل.

(١) أنظر، نَهج البَلاَغَة: اَلْحِكْمَة (٥٨).

(٢) أُنظر، نَهج البَلاَغَة: اَلْحِكْمَة (٣١٦).

دَهْرَهُ! وَ يَتَذَكَّرُ أَمْوَالاً جَمَعَهَا، أَغْمَضَ فِي مَطَالِبِهَا، وَ أَخَذَهَا مِنْ مُصَرَّحَاتِهَا، وَ مُشْتَبِهَاتِهَا، قَدْ لَزِمَتْهُ تَبِعَاتُ جَمْعِهَا، وَ أَشْرَفَ عَلَىٰ فِرَاقِهَا، تَبْقَىٰ لِمَنْ وَرَاءَهُ يَنْعَمُونَ فِيهَا، وَيَتَمَتَّعُونَ بِهَا، فَيَكُونُ الْمَهْنَأُ لِغَيْرِهِ، وَ الْعِبْءُ عَلَىٰ ظَهْرِهِ(٧). وَ الْمَرْءُ قَدْ غَلِقَتْ رُهُونُهُ بِهَا، فَهُوَ يَعَضُّ يَدَهُ نَدَامَةً عَلَىٰ مَا أَصْحَرَ لَهُ عِنْدَ الْمَوْتِ مِنْ أَمْرِهِ، وَ يَزْهَدُ فِيمَا كَانَ يَرْغَبُ فِيهِ أَيَّامَ عُمُرِهِ، وَ يَتَمَنَّىٰ أَنَّ الَّذِي كَانَ يَغْبِطُهُ بِهَا، وَ يَحْسُدُهُ عَلَيْهَا قَدْ حَازَهَا دُونَهُ! فَلَمْ يَزَلِ الْمَوْتُ يُبَالِغُ فِي جَسَدِهِ حَتَّىٰ خَالَطَ لِسَانُهُ سَمْعَهُ، فَصَارَ بَيْنَ أَهْلِهِ لَا يَنْطِقُ بِلِسَانِهِ، وَ لاَ يَسْمَعُ بِسَمْعِهِ: يُرَدِّدُ طَرْفَهُ بِالنَّظَرِ فِي وُجُوهِهِمْ، يَرَىٰ حَرَكَاتِ أَلْسِنَتِهِمْ، وَ لاَ يَسْمَعُ رَجْعَ كَلاَمِهِمْ. ثُمَّ ٱزْدَادَ الْمَوْتُ ٱلْتِيَاطاً بِهِ، فَقُبِضَ بَصَرُهُ كَمَا قُبِضَ سَمْعُهُ، وَ خَرَجَتِ الرُّوحُ مِنْ جَسَدِهِ، فَصَارَ جِيفَةً بَيْنَ أَهْلِهِ، قَدْ أَوْحَشُوا مِنْ جَانِبِهِ، وَ تَبَاعَدُوا مِنْ قُرْبِهِ. لاَ يُسْعِدُ بَاكِياً، وَ لاَ يُجِيبُ دَاعِياً. ثُمَّ حَمَلُوهُ إِلَىٰ مَخَطٍّ فِي الْأَرْضِ فَأَسْلَمُوهُ فِيهِ إِلَىٰ عَمَلِهِ، وَ ٱنْقَطَعُوا عَنْ زَوْرَتِهِ(٨).

اللُّغَة:

الْغِرَّة ـ بكسر الغين ـ البَغْتَة. وأَغْمَضَ: تَسَاهَل، وتجاهَل. والمُصَرَّحَات: الوَاضِحَات ضِدّ المُشْتَابِهَات. والتَّبِعَات: المَسْئُولِيَات. والمَهْنَأُ: اللَّذِيذ بِلا تَنْغِيص، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿كُلُواْ وَٱشْرَبُواْ هَنِيٓـًٔا بِمَآ أَسْلَفْتُمْ فِى ٱلْأَيَّامِ ٱلْخَالِيَةِ﴾(١). وغَلِقَ الرَّهنُ فِي يَد المُرتَهِن: صَار مُلكه بعد أنْ عَجِز الرَّاهن عن ٱفتكاك المَرهُون. وأَصْحَرَ: ظَهر وٱنْكَشف. وخَالَطَ: شَارَك. ورَجْعَ الكَلَامِ: تَرديده. وٱلْتِيَاطاً: ٱلْتِصَاقاً. ولاَ

(١) ٱلْحَاقَة: ٢٤.

يُسْعِدُ: لا يُعِين.

الإِعْرَاب:

حَيْثُ لاَ إِقَالَةَ «حَيْثُ» هُنا ظَرف زَمَان في مَحل نَصب بمأخُوذِين، وخَبَر لاَ إِقَالَةَ مَحْذُوف أي كَائن لَهُم، وكَيْفَ مَفْعُول مُطلق علىٰ مَعْنَىٰ أي نُزُولٍ نَزَلَ بِهِمْ، وقيل: حَال، أي علىٰ أي حَال نَزَل، وَغَيْرُ مَوْصُوفٍ خَبَر مُقَدَّم، وَمَا نَزَلَ مُبْتَدأ مُؤَخَّر، وُلُوجاً تَمْيِيز مُحول عن فَاعِل، والأصل آزداد وُلُوج ٱلْمَوْت، ومِثْله ٱلتِّيَاطاً.

الْمَعْنَىٰ:

(وَ هُوَ يَرَىٰ الْمَأْخُوذِينَ عَلَىٰ الْغِرَّةِ). ضَمير هُو يَعُود إِلىٰ مَن عَبد الدُّنْيَا، وٱلْمَعْنَىٰ إنّ هَذَا العَبد شَاهد ٱلْمَوْت يَخْتَطف النَّاس علىٰ حِين غَفلة مِن هُنا وهُناك، وَلاَ يَعودُونَ ثَانِيَة إِلىٰ هَذِه ٱلْحَيَاة، ومَع ذَلِكَ لا يَتعبر، وَلاَ يَنزَجر (كَيْفَ نَزَلَ بِهِمْ مَا كَانُوا يَجْهَلُونَ) من دَلاَئِل ٱلْمَوْت، وعَلاَمَاته (وَ جَاءَهُمْ مِنْ فِرَاقِ الدُّنْيَا مَا كَانُوا يَأْمَنُونَ). أَسرَع إِلَيْهِمْ ٱلْمَوْت، وهُم في أَمانٍ منهُ، وإنّه لا يُباغتهُم في هَذَا الأَوْان (آجْتَمَعَتْ عَلَيْهِمْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ) أَوجَاع، وأَحْزَان (وَ حَسْرَةُ الْفَوْتِ) عَلىٰ التَّقْصِيرِ، والإِهمَال.

(فَفَتَرَتْ لَهَا أَطْرَافُهُمْ) تَرَاخَت اليَدَان، والرِّجلاَن، وضَعف الجِسم عن الحَرَكة (فَحِيلَ بَيْنَ أَحَدِهِمْ، وَ بَيْنَ مَنْطِقِهِ). يَدل هَذَا ومَا بَعْدَه أَنّ النُّطق يُقبض قَبل السَّمع، والسَّمع قَبل الْبَصَر ـ في الغَالب ـ لا دَائِماً، وعلىٰ فِراش ٱلْمَوْت كَما يَدل سِياق الكلاَم (وَ بَقَاءٍ مِنْ لُبِّهِ) عَطف تَفْسِير على عَلَىٰ صِحَّةٍ مِنْ عَقْلِهِ (فَيَكُونُ الْـمَهْنَأُ لِـغَيْرِهِ، وَ

الْعِبْءُ عَلَىٰ ظَهْرِهِ). الأَبْنَاء يَأكلون، والآبَاء يُحاسبون، ويُعاقبون، ومن أَقْوَال الإِمَامِ عليه السلام: «وَمَا يَصْنَعُ بِالْمَالِ مَنْ عَمَّا قَلِيلٍ يُسْلَبُهُ، وَتَبْقَىٰ عَلَيْهِ تَبِعَتُهُ، وَحِسَابُهُ»[1].

(وَ يَزْهَدُ فِيمَا كَانَ يَرْغَبُ فِيهِ أَيَّامَ عُمُرِهِ). يَزْهَد عَجزاً، لا تَعَفُّفاً (قَدْ أَوْحَشُوا مِنْ جَانِبِهِ) وكَانوا من قَبل يَسْتَوحِشُون من بُعد. ويَأنسُون بقُربه (ثُمَّ حَمَلُوهُ إِلَىٰ مَخَطٍّ فِي الأَرْضِ فَأَسْلَمُوهُ فِيهِ إِلَىٰ عَمَلِهِ، وَ انْقَطَعُوا عَنْ زَوْرَتِهِ) هَذَا مَصِيرُنا جَمِيعَاً... مَوْتٌ، وقَبرٌ، ونِسْيَان، وإِهمَال، كأَنْ لَم يَكُن أَبناء، وإِخْوَان، وحُبّ وحَنَان... والوَيل كلّ الوَيل لِمَن تَجرأ علىٰ الله، وأَهْله، وعِيَاله.

مِن أَوْصَاف الْقِيَامَة... فِقْرَة ٩ ـ ١١:

حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ الْكِتَابُ أَجَلَهُ، وَ الأَمْرُ مَقَادِيرَهُ، وَ أُلْحِقَ آخِرُ الْخَلْقِ بِأَوَّلِهِ، وَ جَاءَ مِنْ أَمْرِ اللهِ مَا يُرِيدُهُ مِنْ تَجْدِيدِ خَلْقِهِ، أَمَادَ السَّمَاءَ وَ فَطَرَهَا، وَ أَرَجَّ الأَرْضَ وَ أَرْجَفَهَا، وَقَلَعَ جِبَالَهَا وَ نَسَفَهَا، وَ دَكَّ بَعْضُهَا بَعْضاً مِنْ هَيْبَةِ جَلاَلَتِهِ، وَ مَخُوفِ سَطْوَتِهِ، وَأَخْرَجَ مَنْ فِيهَا، فَجَدَّدَهُمْ بَعْدَ إِخْلاَقِهِمْ، وَ جَمَعَهُمْ بَعْدَ تَفَرُّقِهِمْ، ثُمَّ مَيَّزَهُمْ لِمَا يُرِيدُهُ مِنْ مَسْأَلَتِهِمْ عَنْ خَفَايَا الأَعْمَالِ، وَ خَبَايَا الأَفْعَالِ، وَ جَعَلَهُمْ فَرِيقَيْنِ: أَنْعَمَ عَلَىٰ هَؤُلاَءِ، وَ انْتَقَمَ مِنْ هَؤُلاَءِ[9]. فَأَمَّا أَهْلُ الطَّاعَةِ فَأَثَابَهُمْ بِجِوَارِهِ، وَ خَلَّدَهُمْ فِي دَارِهِ، حَيْثُ لاَ يَظْعَنُ النُّزَّالُ، وَ لاَ تَتَغَيَّرُ بِهِمُ الْحَالُ، وَ لاَ تَنُوبُهُمُ الأَفْزَاعُ، وَ لاَ تَنَالُهُمُ الأَسْقَامُ، وَ لاَ تَعْرِضُ لَهُمُ الأَخْطَارُ، وَ لاَ تُشْخِصُهُمُ الأَسْفَارُ. وَ أَمَّا أَهْلُ الْمَعْصِيَةِ فَأَنْزَلَهُمْ شَرَّ دَارٍ وَ غَلَّ الأَيْدِيَ إِلَى الأَعْنَاقِ، وَ قَرَنَ النَّوَاصِيَ بِالأَقْدَامِ، وَ أَلْبَسَهُمْ

---

(١) أنظر، نَهج البَلاَغَة: الخُطْبَة (١٥٧).

سَرَابِيلَ الْقَطِرَانِ، وَمُقَطَّعَاتِ النِّيرَانِ. فِي عَذَابٍ قَدِ ٱشْتَدَّ حَرُّهُ، وَبَابٍ قَدْ أُطْبِقَ عَلَىٰ أَهْلِهِ، فِي نَارٍ لَهَا كَلَبٌ، وَلَجَبٌ، وَلَهَبٌ سَاطِعٌ، وَقَصِيفٌ هَائِلٌ، لاَ يَظْعَنُ مُقِيمُهَا، وَلاَ يُفَادَىٰ أَسِيرُهَا، وَلاَ تُـفْصَمُ كُـبُولُهَا. لاَ مُـدَّةَ لِـلدَّارِ فَـتَفْنَىٰ، وَلاَ أَجَـلَ لِـلْقَوْمِ فَيُقْضَىٰ(١٠).

قَدْ حَقَّرَ الدُّنْيَا وَصَغَّرَهَا، وَأَهْوَنَ بِهَا وَهَوَّنَهَا، وَعَلِمَ أَنَّ اللهَ زَوَاهَا عَنْهُ ٱخْتِيَاراً، وَبَسَطَهَا لِغَيْرِهِ ٱحْتِقَاراً، فَأَعْرَضَ عَنِ الدُّنْيَا بِقَلْبِهِ، وَأَمَاتَ ذِكْرَهَا عَنْ نَفْسِهِ، وَأَحَبَّ أَنْ تَغِيبَ زِينَتُهَا عَنْ عَيْنِهِ، لِكَيْلاَ يَتَّخِذَ مِنْهَا رِيَاشاً، أَوْ يَرْجُوَ فِيهَا مَقَاماً. بَلَّغَ عَنْ رَبِّهِ مُعْذِراً، وَنَصَحَ لِأُمَّتِهِ مُنْذِراً، وَدَعَا إِلَىٰ الْجَنَّةِ مُبَشِّراً، وَخَوَّفَ مِنَ النَّارِ مُحَذِّراً.

نَحْنُ شَجَرَةُ النُّبُوَّةِ، وَمَحَطُّ الرِّسَالَةِ، وَمُخْتَلَفُ الْمَلاَئِكَةِ، وَمَـعَادِنُ الْـعِلْمِ، وَيَنَابِيعُ الْحُكْمِ، نَاصِرُنَا، وَمُـحِبُّنَا يَـنْتَظِرُ الرَّحْـمَةَ، وَعَـدُوُّنَا، وَمُـبْغِضُنَا يَـنْتَظِرُ السَّطْوَةَ(١١).

اللُّغَة:

الْمُرَاد بِٱلْكِتَاب هُنا الشّيء المُقْدَر، والمَكْتُوب. وأَمَادَ: حَـرَّك. وَفَـطَرَ: صَـدَعَ. وَأَرَجَّ وَأَرْجَفَ بِمَعْنَىٰ وَاحد. ونَسَفَهَا: قَلَعَها مِن الجُذُور. وإِخْلاَقِهِمْ ـ بكسر الهَمزة ـ بَلاَئِهم، ورثَاثَتِهم. لاَ تُشْخِصُهُمْ: لاَ تُزْعِجُهُم. وَالمُقَطَّعَاتِ ـ بضم المِيم ـ الثِّيَاب القِصَار. وَهِيَ ٱسم واقع علىٰ الجِنْس، لا يجوز أنْ يُفرد له. والكَلَب ـ بفتح اللاَّم ـ الهَيَجَان: وَالجَب: الصَّوْت. وَقَصِيفٌ: ٱشتَدَ صَوْته. والكُبُولُ: الأَغْلاَل. وفَصَمُها: كَسْرُها. والرِّيَاش: الفَاخر مِن اللّبَاس، والأثَاث.

الإِعْرَاب:

أَمَادَ جَوَاب إذَا، وجُمْلَة أَنْعَمَ، وَآنْتَقَمَ بَدل مُفصل من مُجمل، والمُبدل منهُ جُمْلَة جَعَلَهُمْ فَرِيقَيْنِ، أو «فَرِيقَيْنِ» بالذَّات لأنّ الجُمْلَة قَد تُبدل من المُفرد ـ أي غَيْر الجُمْلَة ـ علىٰ حَدّ تعبير النُّحاة، وحَيْثُ ظَرف مَكان، ومَحلها الجَر لِأَنَّهَا بَدل مِن دَارِهِ، وفَاعِل حَقَّرَ ضَمير مُستتر يعود إِلىٰ النَّبِيّ ﷺ، وَأَهْوَنَ بِها أي آسْتهَان بِهَا، وآخْتِيَاراً مَصْدَر فِي مَوضع الحَال أي زَوَاهَا مُخْتَاراً، وآحْتِقَاراً مَفْعُول لأجْلِه أي لحقَارتِها، ومُعْذِراً حَال، ومِثْله ما بَعْدَه.

لِلمِنْبَرِ ـ حَوْلَ آلْقِيَامَة:

بَعد أَنْ صور الإِمَام ﷺ صُورة واضحة كَاملة لحَال المُحتضِر في أَوجاعه، وآلاَمِه وهَواجِسه، ونظرَاته، ونُطقه، وسَمْعَه. ولِحَال أَهْله، وأَحْبَابه في حِرقَتهم، وبُكائِهم علىٰ الحَبيب العَزيز، ثُمّ حَمْلهُم لهُ إِلىٰ مَقرهِ، وَوَضْعه فِي لِحده، بَعد هَذَا أشار إِلىٰ قِيَام السَّاعة بِخرَاب الكَوْن. وَقَالَ: (حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ الْكِتَابُ أَجَلَهُ، وَ الْأَمْرُ مَقَادِيرَهُ، وَ أُلْحِقَ آخِرُ الْخَلْقِ بِأَوَّلِهِ، وَ جَاءَ مِنْ أَمْرِ اللهِ مَا يُرِيدُهُ مِنْ تَجْدِيدِ خَلْقِهِ، أَمَادَ السَّمَاءَ وَ فَطَرَهَا، وَ أَرَجَّ الْأَرْضَ وَ أَرْجَفَهَا، وَقَلَعَ جِبَالَهَا وَ نَسَفَهَا، وَ دَكَّ بَعْضُهَا بَعْضاً مِنْ هَيْبَةِ جَلاَلَتِهِ، وَ مَخُوفِ سَطْوَتِهِ). مَا مِن شَيءٍ فِي هَذَا الْوُجُود يَسير عَلىٰ نِظَام مُوحد ومُستقر إلّا ومن وَرَائِه قَصد، وكلّ قَصد يَهدف إِلىٰ غَايَة، ومتىٰ تَحققت الْغَايَة مِن وجود الشَّيء تَنْتَهِي مُهمته، ويَذهب هُو بِذهَابها، وإِذَا أدىٰ هَذَا الكَوْن الْغَايَة الَّتِي أرادَها الله منهُ ذَهب بِهِ، وأَتىٰ بِالْيَوْم الآخر، ومَعْنَىٰ هَذَا أَنّ النَّشأة الأُخرىٰ تَبتدىء حيثُ تَنْتَهِي النَّشأة الأُولَىٰ، ونِهاية هَذِه تَمَاماً كنِهَاية العِمَارَة، والبِنَايَة، فَيَنْقلب أَعلىٰ

الكَوْن علىٰ أسفله، ويَرتفع أَسفله إِلىٰ أعلاَه، وتَتَطَاير الجِبَالِ في الْفَضَاء، وتَهـوىٰ كَواكب ٱلسَّمَاء نَحو الأَرْض، ويَصطَدم بَعْضهَا بِبَعْض، فتصِير يَباباً، وهبَاءً، وتَندلع ٱلْبِحَار، وٱلأَنْهَـار شَرقاً، وغَـرباً، وهُـنا، وهـناك حَـيْثُ لا مُمسك لشّيء، وَلاَ جَاذب.

وتَسْأَل: إنّ الجَذْب في المَـادَّة طَبيعي، وحَـتمِي، وإذَنْ كَـيْفَ يَخـتل التَّـوازن، ويَخْرَب الكَوْن مَع وجُود الْقُوَّة الجَاذْبَة؟.

الجَوَاب:

إنّ جَاذْبِية المَادَّة حَقٌّ لا رَيب فيهِ، ولكن التَّوازن بَيْنَ الأجْسَام لا يَعتمد عـلىٰ مُجرد الجَاذْبِيَة، بل عَلَيْهَا، وعَلىٰ وضع كلّ جِسم مُقابل في المكان المُـقرر لهُ، فـإذَا حَاد عَنْه ٱنفَرط العِقد، وزَال النِّظام: ولو كَانَتْ الجَاذْبِية بمفردها كَافِية وافِية لكنّا فِي غنىٰ عن البِنَاء، والهندَسة، وكَثِير من العلُوم، والفنُون، وَقَالَ أَهْل الاِخْتِصَاص: لو ٱنحَرف أي كَوكب عن مَداره، أو سَار أَكْثَر مِن سُرعته لاِخْتَل التَّوازن، وتنَاثَرت الكَوَاكِب فِي كلِّ مكان.

(وَأَخْرَجَ مَنْ فِيهَا، فَجَدَّدَهُمْ بَعْدَ إِخْلاَقِهِمْ). بَعدْ عَـملِية تَـدمير الكَـوْن يُحـيي سُبْحَانَهُ أَهْل الْقُبُور من ٱلْأَوَّلِينَ، وٱلأَخَرِينَ (وَ جَمَعَهُمْ بَعْدَ تَفَرُّقِهِمْ). فَرَّقَ ٱلْمَوْت فِيما بَيْنَهُمْ، وأَيضاً فَرَّق أجزاء كلّ واحد مِـنهم: ورُبَّمَـا كَـانَ بَـيْنَ الجُـزء، والجُـزء مسَافَات، أو تُحول إلىٰ تُراب، والتُّراب إِلىٰ نبَات، وقد يَأْكُـل ٱلْحَـيَوَان إِنْسَـانَاً، ويَصير جُزءاً من جِسمهِ، ولحمهِ، ودَمهِ... ومَع هَذَا فإنّ الله سُبْحَانَهُ عَلىٰ إعادته لَقَدير، وتُعرف هَذِه الشُّبهة بشُبهة الآكل، والمَأكول، وأَجاب عَنْهَا مَن أَجاب بأَنّ

الجِسم هو الذَّرَّات الأصلية الّتي تكوّن الجِسم مِنْهَا في بدَايته، وَهِي لا تَتغير، وَلاَ تتَحَول، وأشرنا إِلىٰ هَذِه الشُّبهة فِي كِتاب «التَّفْسِير الكَاشف»، وكِتاب «فَلْسَفَة التَّوْحِيدِ»، وفيما تَقَدَّم من هَذَا الشَّرح ـ كَما أُرجح ـ[١].

(ثُمَّ مَيَّزَهُمْ لِمَا يُرِيدُهُ مِنْ مَسْأَلَتِهِمْ عَنْ خَفَايَا الْأَعْمَالِ، وَ خَبَايَا الْأَفْعَالِ) أَخْرَجهُم سُبْحَانَهُ مِن قبُورِهم دُفعَةً وَاحِدَة، وَلاَ يخفىٰ عَلَيْهِ واحد مِنْهُم علىٰ كَثْرتهم، ويَعلم كُلاً بِاْسمِهِ، وشخصِهِ، ومَا فعلَ، وتركَ، وأَسَّرَّ، وأَعلنَ حَتَّىٰ نَظرة الطَّرف، وخَفقَة الْقَلْب... إنّه بِها خَبير عَليم، وعلىٰ أساس هَذَا اْلعِلْم يكُون الْحِسَاب، والسُّؤال (وَجَعَلَهُمْ فَرِيقَيْنِ: أَنْعَمَ عَلَىٰ هَؤُلاَءِ، وَ اْنْتَقَمَ مِنْ هَؤُلاَءِ) كَمَا قَالَ سُبْحَانَهُ: ﴿يَوْمَ ٱلْجَمْعِ لَا رَيْبَ فِيهِ فَرِيقٌ فِى ٱلْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِى ٱلسَّعِيرِ﴾[٢].

(فَأَمَّا أَهْلُ الطَّاعَةِ). بَعدَ اْلحَشْرِ، والنَّشر، ونقَاش الْحِسَاب ـ يأتِي الْجزَاء بِالنَّعِيمِ لِمن أَطَاع، والجَحِيم لِمَن عَصىٰ، وأشار الْإِمَام إِلىٰ شَيء مِن جزَاء الْمحسنِين بِقَوْله: (فَأَثَابَهُمْ بِجِوَارِهِ) وجَارَ اللهِ آمِنٌ من كلّ مكرُوه (وَ خَلَّدَهُمْ فِي دَارِهِ) أي اَلْجَنَّة (حَيْثُ لاَ يَظْعَنُ النُّزَّالُ) خَالِدُون فِي النَّعِيم إِلىٰ مَا لاَ نهَايَة (وَ لاَ تَتَغَيَّرُ بِهِمُ الْحَالُ). كلّ الْأَيَّام لَهُم، ولَيْسَ يَوْم لَهُم، ويَوْم عَلَيْهِمْ (وَ لاَ تَنُوبُهُمُ الْأَفْزَاعُ) لا يَشْكُون مِن شَيء، وَلاَ يَرهبُون أَحداً، أو يخَافُون العَواقب (وَ لاَ تَنَالُهُمُ الْأَسْقَامُ). ومِن أَين تأتِي الْأَسْقَام؟ والغذَاء طَاهر مُطهر، والجَو صَفاء، ونقَاء (وَ لاَ تَعْرِضُ لَهُمُ الْأَخْطَارُ)

---

(١) أُنظر، كتابه «التَّفْسِير الكاشف» ما جاء فِي الآيَة (٤) من سُورَة ق، وفِي كتَابِهِ «فَلْسَفَة التَّوْحِيد والْوِلاَيَة» (مِنْهُ ﷺ). والْخُطْبَةُ (٨٣)، الْجُزء الأَوَّل، فِقْرَة: «ضَنْكِ الْمَضْجَعِ، وَوَحْشَةِ الْمَرْجِعِ». وشرح أُصول الكافي: ١١٩/٢ و: ٥٣٨/١٢، بحَار الأَنْوَار: ٩٥/١٠٨، تَفْسِير المِيزَان: ١٨٥/٥.

(٢) اَلشُّورىٰ: ٧.

عَطف تَفْسِير عَلىٰ وَ لاَ تَنُوبُهُمُ الْأَفْزَاعُ (وَ لاَ تُشْخِصُهُمُ الْأَسْفَارُ) ولِماذَا السَّفر وأَتعَابه؟ وهُم فيما تَشْتَهِي الأنفُس، وتلذُّ ٱلْأَعْيُن.

لِلمِنْبَرِ - حَوْلَ أَهْلِ المَعْصِيَة:

بَعد أَنْ أَشَار الْإِمَام إِلىٰ نَعِيم المُطِيعِين أَشار إِلىٰ جَحيم العَاصِين بقَوْله: (وَ أَمَّا أَهْلُ الْمَعْصِيَةِ فَأَنْزَلَهُمْ شَرَّ دَارٍ) جَهَنَّم، وَبِئْسَ ٱلْقَرَار (وَ غَلَّ الْأَيْدِيَ إِلَىٰ الْأَعْنَاقِ، وَ قَرَنَ النَّوَاصِيَ بِالْأَقْدَامِ، وَ أَلْبَسَهُمْ سَرَابِيلَ الْقَطِرَانِ، وَمُقَطَّعَاتِ النِّيرَانِ، فِي عَذَابٍ قَدِ ٱشْتَدَّ حَرُّهُ، وَ بَابٍ قَدْ أُطْبِقَ عَلَىٰ أَهْلِهِ...) الْأَغْلاَل فِي الْأَيْدِي، والْأَرْجُل، والْأَعْنَاق مَع مَقامع من حَديد، وَظِلٍّ مِّن يَحْمُومٍ واللِّبَاس، مِّن نَارٍ، وَقَطِرَانٍ، والطَّعَام مِّن زَقُّومٍ، وسَمُومٍ، والشَّرَابُ مِّنْ حَمِيمٍ يَغْلِي فِي ٱلْبُطُونِ، والغِسْلُ بِمَآءٍ يَشْوِي ٱلْوُجُوهَ، والجُلُود، ولِماذا كلّ هَذَا؟ فأَين الرَّأْفَة، والرَّحْمَة، والجُود والْإِحْسَان؟ ومَا كَانَ الله لينهىٰ عن القَسوَة، ثُمّ يَفعلها.

الجَوَاب:

إنّ هَذِه الشِّدَّة، والْقَسْوَة فِي العَذَاب هِي للذِّين يُعاملون عِبَادَة وعِيَاله بكلّ قَسْوَة وَشِدَة، وَلاَ يأخذهم حَقّ، وَلاَ عَدل: ﴿وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾[1]. ﴿وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ﴾[2]. وبأي شَيء يُعامل سُبْحَانَهُ مَن يَسوق الأبْريَاء، والمُجَاهِدِين، يَسوقهم

(١) ٱلشُّورَىٰ: ٤٠.
(٢) ٱلزَّلْزَلَة: ٨.

مُكبلِين بِالأَغْلاَل إِلىٰ المشَانق، لا لشَيء إلّا لأنّهم يُريدُون صِيانَة الحُـرِّيَّة، وضمَان الحقُوق الّتي فَرضها الله لكلِّ النَّاس بلاَ تمْيِيز بَـيْنَ اللّـون، والجِـنْس، والسَّـلالة، والْعَقِيدَة؟ وهَل مِن عَدل الله، ورحمَته أنْ يَقُول: أَحْسَنت، وسَلمت يَداك لمِن أَلقىٰ أُلوف الأطنان من المُتفجرات علىٰ المُدن، والقُرىٰ، وقَتَل وشَرَّد المَلايِين، وأَهْـلَك بأسلحتِهِ الكِيماوِيَة، وغَيْرها اَلحَرْثَ، واَلنَّسْل، وأَفنىٰ بضَربة وَاحِدَة مَدِينة كُبرىٰ بِمَن فيها، ومَا فِيها؟

وقرأتُ فيما قَرأت نَوْعاً من العَذَاب يَفُوق التَّصور: يَصب الجَاني علىٰ المجني عَلَيْهِ الزِّفت، والقَار. ويَغرس بِهِ رِيش الدِّجَاج. ويَربط حَبلاً في عُنقه يَجره في الشَّوارع، ثُمّ يُعلقه علىٰ المَشْنقة... فأينَ مِن هَذَا شَرِيعَة الغَاب؟ ولو كَـان مِـن وَرَاءِ جَـهنّم عَذاب أَقسىٰ، وأَشَد لكَان قَليلاً بِحَقِّ هَؤُلآء الطُّغاة القُسَاة.

(قَدْ حَقَّرَ الدُّنْيَا وَصَغَّرَهَا، وَ أَهْوَنَ بِهَا وَ هَوَّنَهَا، وَ عَلِمَ أَنَّ اللهَ زَوَاهَا عَنْهُ آخْتِيَاراً، وَبَسَطَهَا لِغَيْرِهِ آحْتِقَاراً، فَأَعْرَضَ عَنِ الدُّنْيَا بِقَلْبِهِ، وَ أَمَاتَ ذِكْرَهَا عَنْ نَفْسِهِ، وَ أَحَبَّ أَنْ تَغِيبَ زِينَتُهَا عَنْ عَيْنِهِ، لِكَيْلاَ يَتَّخِذَ مِنْهَا رِيَاشاً، أَوْ يَرْجُوَ فِيهَا مَقَاماً). في حَقَّرَ ضَمير مُستتر يَعود إِلىٰ النَّبِيِّ ﷺ... أنّ الدُّنيا الّتي يَبكي لهَا البَاكون، ويتنَافس عَلَىٰ حَرامها المُتنَافسُون هِي أَحقر عِند الله من جَنَاح بَعُوضَة، ولذَا زَوَاهَا سُبْحَانَهُ عَن نَبِيِّه اَلْكَرِيمِ، وأَعرض النَّبِيّ عَنْهَا إلّا ما سَدَّ خِلة مُحتاج، وأَغَاث لهْفَة مَلهُوف، أو كَانَ وسيلة لصَّالح عَام، وفي خُطْبَةٍ ثَانِيَة وصَف الإِمَام رَسُول الله ﷺ بقَوْله: «وَلَقَدْ كَانَ فِي رَسُولِ اللهِ ﷺ مَا يَدُلُّكَ عَلَىٰ مَسَاوِئِ الدُّنْيَا وَعُـيُوبِهَا: إِذْ جَـاعَ فِـيهَا مَـعَ خَاصَّتِهِ، وَ زُوِيَتْ عَنْهُ زَخَارِفُهَا مَعَ عَظِيمِ زُلْفَتِهِ. فَلْيَنْظُرْ نَاظِرٌ بِعَقْلِهِ: أَكْرَمَ اللهُ مُحَمَّداً بِذَلِكَ أَمْ أَهَانَهُ! فَإِنْ قَالَ: أَهَانَهُ، فَقَدْ كَذَبَ ـ وَاللهِ الْعَظِيمِ ـ بِالإِفْكِ الْعَظِيمِ، وَإِنْ قَالَ:

أَكْرَمَهُ، فَلْيَعْلَمْ أَنَّ اللهَ قَدْ أَهَانَ غَيْرَهُ حَيْثُ بَسطَ الدُّنْيا لَهُ، وَ زَوَاهَا عَنْ أَقْرَبِ النَّاسِ مِنْهُ»[1].

وفِي كُتب السِّيرَة النَّبوِيَّة: كَان رَسُول الله ﷺ في طَعامه لا يَـرد مَـوجُوداً، وَلاَ يَتكلف مَفْقُوداً، وإذَا لَم يَجد الطَّعام صَبرَ، وكَان يَمرُّ عَلَيْهِ الشَّهر لا يَجد مَا يَخبزهُ، ويَمرُّ عليهِ شَهران لا يُوقد فِي بَيْتِه نَاراً ـ أي لا يَطبخ ـ ومَع هَذاكَان يَستعيذ بـالله مـن الْفقْر، وفي قَبْضَته ثَروة الجَزيرة العَربيَّة، ولَكِنَّهُ يَنفق عَلىٰ الْمُحْتَاجِين كلّ مَا يَصل إِلىٰ يَده إِيمَاناً منهُ بأنّ علىٰ الحَاكِم أنْ لا يَشبع، وفي رَعيته جَائع واحد»[2].

وبهَذه المُناسبة أَشير إلىٰ أنّ سِيرَة الْمَعْصُومِين، وأَقْـوَالهـم تَـدل بِـصرَاحـة، ووضوح أنّ علىٰ القَائد العَام دِينِياً كَانَ أَم زَمنِياً تَمَاماً أنْ يَـعِيش أفـقر النَّـاس في مُجتمعه، وفِي ذَلِكَ يَقُول الإِمَام أمِير الْمُؤْمِنِينَ ﷺ: «إِنَّ اللهَ تَعَالىٰ فَـرضَ عَـلَىٰ أَئِمَّـةِ الْعَدْلِ أَنْ يُقَدِّرُوا أَنْفُسَهُمْ بِضَعَفَةِ النَّاسِ كَيْلاَ يَتَبَيَّغَ بِالْفَقِيرِ فَقْرُهُ»[3]. وكَلِمَة «فَرَضَ» نَصّ فِي الوجُوب والإِلزَام، لا تَقبل التَّأويل، والاِجْتِهَاد إطلاَقاً... وبخَاصَّة فِي هَذَا السِّياق، ولكن الْفُقَهاء مِن السُّنَّة، والشِّيعَة ـ إلاّ القَـليل ـ تَجـاهلوا هَـذَا الفَـرض حِرصاً علىٰ ٱلْحَـيَاة الدُّنْيا... أمّا مَظهر الإِمَام الْحَسَن ﷺ فَهُوَ قَضِيَّة فِي وَاقعة، لهَـا

(١) أُنظر، نَهج ٱلبَلاَغَة: ٱلْخُطْبَة (١٦٠).

(٢) أُنظر، المَبْسُوط للطُوسِي: ١٩٦/٢، المَبْسُوط للسَّرخَسي: ٦٤/٢١، تـذكِرة الْـفُقَهَاء: ١١/٢، تـلخيص الحبِير: ٢/١٠، المُهَذَّب: ٤٣/٢، السّنن الكُبْرَىٰ: ٣٦/٦، شرح الأَزهَـار: ٣٩٥/٣، مُـنْتَهىٰ المـطلب: ٦٢٤/٢، البداية والنّهَايَة: ٥٨/٦، تَهذِيب الأَحْكَام: ١٩٨/٤، كنز العُمّال: ٢٦٨/٩، وَسَـائِل الشّـيعة: ١٠٥/٧، مُسْنَد أحمد: ١٩٩/١، صفوة الصّفوة: ١٩٩/١، تَأريخ بغدَاد: ٣٧٤/٣ ح ١٥٠٤، مَجْمع الزّوائد: ١٦٤/٤، ميزان الإِعْتِدَال: ٢٥٧/١..

(٣) أُنظر، نَهج ٱلبَلاَغَة: مِن كَلاَمٍ له ﷺ بِالْبَصْرَةِ تَحت رَقم (٢٠٩).

أَسْبَابِها الخَاصَّة[١]... عَلىٰ أنّه كَان فِي وَاقع حَياته أَزهد النَّاس فِي الدُّنْيا، وَزِينَتها، وأَسْخَاهم بَذلاً، وعَطاءً[٢].

(بَلَّغَ عَنْ رَبِّهِ مُعْذِراً). أَقَام النَّبِيّ ﷺ الحُجّة لله علىٰ خَلقه بِما بَلَّغ، وأَرْشَد، ومَا تَرك عُذراً لمُقصرٍ، ومُهمل (وَ نَصَحَ لِأُمَّتِهِ مُنْذِراً) من خَالف بعذَاب أَليم (وَ دَعَا إِلَى الْجَنَّةِ مُبَشِّراً) بِها مِن سَمع، وأَطاع (وَ خَوَّفَ مِنَ النَّارِ مُحَذِّراً) بقَوْله: «وأهلُ بيتي أُذكّركم اللهَ في أهلِ بيتي، أُذكّركم اللهَ في أهل بيتي، أُذكّركم اللهَ في أهل بيتي»[٣].

(نَحْنُ شَجَرَةُ النُّبُوَّةِ) ودَليلنَا سَمت الهُدَىٰ، ولِبَاس التَّقْوىٰ (وَ مَحَطُّ الرِّسَالَةِ) بسيّد الْمُرْسَلِين، وخَاتم النَّبِيِّين (وَ مُخْتَلَفُ الْمَلاَئِكَةِ) مَحل نزُولهم بِالوَحي (وَ مَعَادِنُ

(١) أنظر، كشف الغمّة: ١/٥٥٨، ذَخَائِر العُقْبَىٰ: ١٣٧، المَحَاسِن للبيهقي: ٥٦، تَأريخ بغداد: ٦/٣٤، الصَّوَاعِق المُحْرِقَة: ٨٣، المَنَاقِب لِابْن شهرآشوب: ٣/١٨٢، البحار: ٤٣/٣٤١/١٥ و: ٢٠/٣٤٧. يَنَابِيع المَوَدَّة: ٢/٢١١ ط أُسوة.

(٢) أُنظر ذَخَائِر العُقْبَىٰ: ١٣٧، المُسْتَدرَك: ٣/١٦٩، تَهْذِيب التَّهذِيب: ٢/٢٩٨، تَأرِيخ الخُلَفَاء: ٧٣، سُنَن البَيْهَقِيّ: ٤/٣٣١، حلية الأَوْلِيَاء: ٢/٣٧، قرب الإسناد: ٧٩، علل الشَّرائع: ٦/٤٤٧، البحار: ٤٣/٣٣٢/٣، نور الأَبْصَار: ٢٤٠، أَنْسَاب الأَشْرَاف: ٣/٩.

(٣) أُنظر، صَحِيح مُسْلِم: ٢/ ١٠٩ طَبْعَة ١٣٤٨هـ. (مِنْهُ ﷺ). وصَحِيح مُسْلِم: ٤/١٨٧٣ ح ٢٤٠٨، و: ٤/فَضَائِل عليّ ح ٣٦ و٣٧، سُنَن الدَّارمي: ٢/ ٨٩٠ ح ٣١٩٨، فرائد السِّمطِين: ٢/ ٢٣٤، الدُّر المنثور: ٧/ ٢٤٩، السُّنَن الكُبْرَىٰ: ١٠/ ١٩٤ ح ٢٠٣٣٥، مُسْنَد أحمد بن حنبل: ٣/١٧ و: ٥/ ١٨١ و٣٧١ و: ٧/ ٧٥ ح ١٩٢٨٥، تَهذِيب تَأرِيخ دِمَشْق: ٥/ ٤٣٩، وسُنَن التِّرمِذي: ٥/بَاب ٣٢، وخَصَائِص النّسائي: ٥٠، وذَخَائِر العُقْبَىٰ للمحبّ الطَّبَرِيّ: ١٦، وتَذكِرة الخواصّ: البَاب ١٢، وأُسد الغَابَة: ٢/ ١٢، وتَأرِيخ اليعقوبي: ٢/ ١٠٢، والمُسْتَدرَك علىٰ الصَّحِيحِين: ٣/ ١٠٩، الصَّوَاعِق المُحْرِقَة: ٢٥ المطبعة الميمنية بِمِصْر، وص: ٤١ المطبعة المُحَمَّدية بِمِصْر، ومَجْمَع الزّوائد: ٩/ ١٦٤، وتَأرِيخ دِمَشْق لِابْن عساكر: ٢/ ٤٥ ح ٥٤٥، وكنز العُمَّال: ١/ ١٦٨ ح ٩٥٩ الطّبعة الأُولَىٰ، ويَنَابِيع المَوَدَّة: ٣٧ طبع إسلامبول...إلخ).

الْعِلْمِ) عَن النَّبِيّ عن جِبْرِيلَ عن الله (وَ يَنَابِيعُ الْحُكْمِ) وهَذَا نَهْج ٱلْبَلاَغَة قَطرة مِن تِلْكَ اليَّنَابِيع (نَاصِرُنَا ، وَمُحِبُّنَا يَنْتَظِرُ الرَّحْمَةَ) مَن الله بِشهَادَة الرَّسُول الأَعْظَم ﷺ : «يَا عَلِيُّ ، لا يُبْغِضُكَ مُؤْمِنٌ ، وَلاَ يُحِبُّكَ مُنَافِقٌ »[1] فكَيْفَ إِذَا أَحبّك ، ونَاصرك ؟ (وَ عَدُوُّنَا ، وَ مُبْغِضُنَا يَنْتَظِرُ السَّطْوَةَ) مِن الله . . . أَيضاً بِشهَادة النَّبِيّ ﷺ : «وَلاَ يُحِبُّكَ مُنَافِقٌ »[2] فكَيْفَ إِذَا عَادَاك ، وأبْغضَك . وَقَالَ الإِمَام : «لَوْ ضَرَبْتُ خَيْشُومَ الْمُؤْمِنِ بِسَيْفِي هَذَا عَلَىٰ أَنْ يُبْغِضَنِي مَا أَبْغَضَنِي ؛ وَلَوْ صَبَبْتُ الدُّنْيَا بِجَمَّاتِهَا عَلَىٰ الْمُنَافِقِ عَلَىٰ أَنْ يُحِبَّنِي مَا أَحَبَّنِي . وَذَلِكَ أَنَّهُ قُضِيَ فَٱنْقَضَىٰ عَلَىٰ لِسَانِ النَّبِيِّ الأُمِّيِّ ﷺ ؛ أَنَّهُ قَالَ : «يَا عَلِيُّ ، لا يُبْغِضُكَ مُؤْمِنٌ ، وَلاَ يُحِبُّكَ مُنَافِقٌ »[3] . والسِّر أنّ عَداوة الْبَاطِل للحَقّ ذَاتية ، ومَا بالذَّات لا يَتغير إذَا كَان التَّغير ذَاتاً للشَّيء وطَبيعةً ، وَلاَ يَنطبق عَلَىٰ هَذَا ما لَيْس بِمَادَّة ، وطَبيعَة .

---

(١) تَقدَّم ٱستخرَاج ذَلِكَ.

(٢) أنظر ، كنز الْعُمَّال: ١١/٥٩٨ ح ٣٢٨٧٨ و٣٣٠٢٨ ، و: ١٣/١٧٨ ح ٣٦٢٩، الصَّواعِق الْمُحْرِقَة: ١٢٢، كفاية الطالب: ٦٨، شرح الأَخْبَار: ١/١٥٢ ح ٨٩، سُنَن أبن مـاجه: ١/٤٢ ح ١١٤، أُسـد الغَـابَة: ٣/٦٠٢ طَبْعَة بيروت، الْمُصَنَّف لِابْن أبي شيبة: ١٢/٥٧، سُـنَن التِّرمـذي: ٥/٣٠٦ ح ٣٨١٩، مَجْـمَع الزوائد: ٩/١٣٣، فتح الباري: ١/٦٠، تُحْفَة الأَحْوَذي: ١٠/١٦٤، السُّنَن الْكُبْرَىٰ: ٥/١٣٧ ح ٨٤٨٧ و: ٦/٥٣٤ ح ١١٧٤٩، الرِّيَاض النَّضِرَة: ٢/٢١٤، خَصَائِص النَّسَائِي: ١٠٥، مُسْنَد أبي يـعلَىٰ: ١/٢١٥، الْمُعْجَم الأوسط: ٢/٣٣٧، و: ٥/٨٧، مُسْنَد أحمد: ٦/٢٩٢ ح ٢٦٥٥٠، سُـنَن النَّسَـائِي: ٨/١١٦، تأريخ دِمَشْق: ٢/١٩٠، الغارات: ٢/٥٢٠، مُسْنَد الحميدي: ١/٣١ ح ٥٨ طَـبْعَة الْمَدِينَة الْمُنَوَّرَة، مناقب أَمِير الْمُؤْمِنِينَ للكوفي: ٢/٤٦٩ ح ٩٦٣، كشف الخَـفَاء: ٢/٣٨٢ ح ٣١٨١، شـواهـد التَّنْزِيل: ١/٤٧٧ ح ٥٠٩، الفِرْدَوْس بمأثور الخِطَاب: ٥/٣١٩ ح ٨٣١٣، سير أعلام النبلاء: ١٢/٤٣٧، تَهْذِيب الكَمَال: ١٥/٢٣٢، تأريخ بغداد: ٢/٢٩، تَهْـذِيب الأسماء: ١/٨٨، فَضَائِل الصَّحَابَة لأَحْمَـد بـن حَنبل: ٢/٦١٩ ح ١٠٥٩ و ١١٦٩.

(٣) أنظر ، نَهْج ٱلْبَلاَغَة : ٱلْحِكْمَةُ (٤٥).

اللهُ الْمُؤلِّف، وعَليٌّ الُمخْرِجْ:

والخُلاَصة : إنّ هَذِه اَلخُطْبَةُ أَشبه بِمَسْرَحِية تَرسم حَيَاة اَلإِنْسَان، ومَا يُلاقِيه فِي دُنْيَاه مِن حَيْرَة، ومَتاعِب، ويَحل بِه، وبِأَهْله عِند حِضُور اَلْمَوْت، وبَعْدَه، تَرسم هَذِه اَلخُطْبَةُ اَلإِنْسَان، وتصوره في جَمِيع مَراحله رَسماً رَائعاً من كلٍّ وَجه حَتَّىٰ كأَنّ الإِمَامِ هُو ذَلِكَ اَلإِنْسَان الَّذي ذَاق سَكرَات اَلْمَوْت، وحُمل علىٰ الأَعْوَاد، وتَوسَد فِي القَبر، وخَرج منهُ لِلحِسَابِ، ورأىٰ من اَلجُنَّة، واَلنَّار ما رأىٰ، ثُمّ عَاد إِلىٰ الدُّنْيَا لِيُخبر أَهْلها بِمَا حَدث معهُ بالذَّات... شزعرتُ بِهَذا، وأنا أَشرح كلمَات اَلخُطْبَةُ، وتَصورتها مَسْرَحِية تَغزو المجهُول، وتُجسدهُ للعَيّان في حقَائِقه، ووقَائِعه، وقلتُ فِي نَفسي: لا عَجب فالمُؤلِّف خَالق اَلإِنْسَان، والمُخْرِجْ أَكمل آفرَاده بَعد سيّد الكوّنَين.

كَتبتُ هَذِه الْكَلِمَات في رَبيع سَنَة (١٩٧٢م)، وأنا علىٰ حَافة جَدول فِي بـلدَة «شتورا» وفِي غَابة من الحُور يُحيط بِي نَبات الرَّبيع من كلٍّ جَانب، منهُ الطَّويل، ومنهُ القَصِير والمُتوسط، ولبعضه أَزاهير تَجذب إِلَيْهَا اَلنَّحْل، والفَرَاشَات، والعَصافِير تَضرب بأَجْنِحَتِهَا من شَجرةٍ إِلىٰ شَجرة، ومن غُصنٍ إِلىٰ غُصن، وَهِي تُغني أُغنية الرَّبيع وبهجَته، فأنْسَاني هَذَا الجَو السَّاحر مَا قَاسيت، وأُقَاسِيه من العَواصف، والقواصف، وآنصرفتُ بكياني كلّه إِلىٰ كَلمات الإِمَام أُفكر في معناها، وأُطيل التَّفكير... وقد تَمثل أَمام عَيني اَلْمَوْت، والقبر، واَلحَشْرِ، والحِسَاب، والجَزَاء، وبلا شُعور رَأيتَني أَصرخ، وأَبكي، وأَلوم نَفسي علىٰ التَّقْصِير، وأَصب عَلَيْهَا غَيظي، وغَضبي... فرحماك أَللَّهُمَّ، وعفوك عَمن يَشتغل عنكَ بغيرك.

الخطبة

-١١٠-

فَرَائِضُ ٱلْإِسْلَامِ...فِقْرَة ١:

إِنَّ أَفْضَلَ مَا تَوَسَّلَ بِهِ الْمُتَوَسِّلُونَ إِلَىٰ اللهِ سُبْحَانَهُ وَ تَعَالَىٰ، الْإِيمَانُ بِهِ، وَ بِرَسُولِهِ، وَالْجِهَادُ فِي سَبِيلِهِ، فَإِنَّهُ ذِرْوَةُ الْإِسْلَامِ، وَ كَلِمَةُ الْإِخْلَاصِ فَإِنَّهَا الْفِطْرَةُ، وَ إِقَامُ الصَّلَاةِ فَإِنَّهَا الْمِلَّةُ، وَ إِيتَاءُ الزَّكَاةِ فَإِنَّهَا فَرِيضَةٌ وَاجِبَةٌ، وَ صَوْمُ شَهْرِ رَمَضَانَ فَإِنَّهُ جُنَّةٌ مِنَ الْعِقَابِ، وَ حَجُّ الْبَيْتِ، وَ ٱعْتِمَارُهُ فَإِنَّهُمَا يَنْفِيَانِ الْفَقْرَ، وَ يَرْحَضَانِ الذَّنْبَ، وَصِلَةُ الرَّحِمِ فَإِنَّهَا مَثْرَاةٌ فِي الْمَالِ، وَ مَنْسَأَةٌ فِي الْأَجَلِ، وَ صَدَقَةُ السِّرِّ فَإِنَّهَا تُكَفِّرُ الْخَطِيئَةَ، وَ صَدَقَةُ الْعَلَانِيَةِ فَإِنَّهَا تَدْفَعُ مِيتَةَ السُّوءِ، وَ صَنَائِعُ الْمَعْرُوفِ فَإِنَّهَا تَقِي مَصَارِعَ الْهَوَانِ(١).

اللُّغَة:

الذِّرْوَةُ ـ بكسر الذَّال ـ العِلو. والمِلَّةُ ـ بكسر الميم ـ الطَّريقة، والشَّرِيعَة، والدِّين، وبفتحها الجَمر، وبضمها خِياطة الثَّوب. وٱلْجُنَّة ـ بضم الجِيم ـ الوِقَايَة. وَيَرْحَضَانِ: يَغْسِلَانِ. والمَثْرَاة. وَالمَنْسَأَة: التَّأخير. والمُرَاد بالصَّنَائِع هُنا الأَعْمَال.

الإِعْرَاب:

الْإِيمَانُ خَبَرَ إِنَّ، ومَا بَعْدَه عَطف عَلَيْهِ بالواو، والجُمل المقرُونة بالفَاء مُعترضة، والقَصد التَّعليل.

الْمَعْنىٰ:

(إِنَّ أَفْضَلَ مَا تَوَسَّلَ بِهِ الْمُتَوَسِّلُونَ إِلَىٰ اللهِ سُبْحَانَهُ). كلّ مَا تَتقَرب بهِ إِلَىٰ الغَير يُسمىٰ تَوسلاً، ووسيلةً، وأَشَار الْإِمَام فِي هَذِهِ ٱلخُطْبَةُ إِلَىٰ أَفضل الوَسَائِل لمرضَاة الله، وثوَابه، وَهِي:

١ ـ (الْإِيمَانُ بِهِ) وهو أَصل الْأُصُول كلّها، والْإِيمَانُ النَّظري مُجرد إعتقاد، أمّا الْإِيمَانُ الواقِعي فَهُوَ الاعتقَاد مَع ٱلعَمَل، وإِلّا يَكُون الْإِيمَانُ شَجرة بلاَ ثَمرة، قَالَ الْإِمَامﷺ: «فَبِالْإِيمَانِ يُسْتَدَلُّ عَلَىٰ الصَّالِحَاتِ، وَبِالصَّالِحَاتِ يُسْتَدَلُّ عَلَىٰ الْإِيمَانِ، وَبِالْإِيمَانِ يُعْمَرُ الْعِلْمُ، وَبِالْعِلْمِ يُرْهَبُ الْمَوْتُ، وَبِالْمَوْتِ تُخْتَمُ الدُّنْيَا، وَبِالدُّنْيَا تُحْرَزُ الْآخِرَةُ، وَبِالْقِيَامَةِ تُزْلَفُ الْجَنَّةُ، وَتُبَرَّزُ الْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ، وَإِنَّ الْخَلْقَ لاَ مَقْصَرَ لَهُمْ عَنِ الْقِيَامَةِ مُرْقِلِينَ فِي مِضْمَارِهَا إِلَىٰ الْغَايَةِ الْقُصْوَىٰ»[1]، وفِي الحَديث: «الْإِيمَان إِقْرَارٌ بِاللِّسَانِ، وعَقْدٌ فِي الْقَلْبِ، وعَمِلٌ فِي الْأَرْكَانِ»[2].

٢ ـ (وَ بِرَسُولِهِ)، والْإِيمَان بِمُحَمّدﷺ إِيمَان بٱلإِنْسَانية، وقيمها، قَالَ تَعَالَىٰ:

(١) أُنظر، نَهج ٱلبَلاَغَةُ: من كلامٍ لهﷺ لأَهْل الْبَصْرَة رَقم(١٥٦).

(٢) أُنظر، أمالي الصدوق: ٣٤٠، كنز الْعُمَّال: ١/٢٧٤ ح ١٣٦٢، فيض القدير شرح الجَامِع الصَّغِير: ٣/٢٤٠ ح ٣٠٩٥، الكَافِي: ٢/٤٥ ح ١، الخِصَال: ١٧٩، صَحِيح ٱبن حبّان: ١/٤٤٢.

﴿وَمَآ أَرْسَلْنَـٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَـٰلَمِينَ﴾[١]. وَقَالَ فِي تحديد رِسَالَة مُحَمّدﷺ: ﴿يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَـٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَـٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَـٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَـٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلنُّورَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾[٢]. وَقَالَ الرَّسُول الأَعْظَمﷺ: «إنّمَا بُعِثْتُ لأُتَمِم مَكَارِم الأخْلاَق»[٣].

٣ ـ (وَالْجِهَادُ فِي سَبِيلِهِ، فَإِنَّهُ ذِرْوَةُ الإِسْلاَمِ) وكَلِمَة الذِّرْوَة تُشير إلىٰ أنّه لَوْلاَ الْجِهَاد ما آرتفع لِلْإسْلاَم رَايَة، وَلاَكَان لهُ عينٌ، وأثر، بل ٱلْإسْلاَم في جَوهره جِهَاد من أَجل الْحُرِّيَّة، وثَورَة علىٰ الفوَارق، والعبُودِية، وعلىٰ الاِسْتغلاَل، والمُرابَاة... قضىٰ رَسول الله ﷺ في مَكَّة يَدعو إلىٰ سَبيل الله بٱلْحِكْمَة، والمَوْعِظَة الْحَسَنَة ثَلاث عشرَة سَنَة، فتألبت عَلَيْهِ قِوىٰ السَّلب، والنَّهب، فقضىٰ عَلَيْهَا بالمُؤَاخَاة، والْجِهَاد، ولمّا تَفرق ٱلْمُسْلِمُون أَيْدِي سَبَأ، وتَركوا الْجِهَاد عَادت قوىٰ السَّلب تَسرح، وتمرح، وضَعُف ٱلْإسْلاَم تبعاً لتخَاذل أَهْله، وأتْبَاعه، ولَم يَبق منهُ إلّا الاِسم، وشعَارات تُرفع من المآذن، والمنَابر، ومُؤتمرَات تُعقد هُنا وهُناك تُسطر الكَلاَم، وتنشره في الصُّحف، ثُمّ يَلفظ مَع القُمامة. ومن أَقْوَال الإِمَامﷺ: «فَمَنْ تَرَكَهُ رَغْبَةً عَنْهُ أَلْبَسَهُ اللهُ ثَوْبَ الذُّلِّ، وَشَمِلَهُ الْبَلاَءُ، وَدُيِّثَ بِالصَّغَارِ، وَالْقَمَاءَةِ، وَضُرِبَ

---

(١) ٱلْأَنْبِيَاء: ١٠٧.

(٢) ٱلْأَعْرَافِ: ١٥٧.

(٣) أنظر، بداية المُجْتهِد: ٣٢١/٢، السُّنن الْكُبْرَىٰ: ١٩٢/١٠، تُحْفَة الأَحْوذي: ٤٧٠/٥، نظم درر السّمطين: ٤٢، كنز الْعُمّال: ٤٢٠/١١ ح ٣١٩٦٩، فيض القدير شرح الجَامِع الصَّغِير: ٢٠٩/٥، كشف الْخَفاء: ٢١١/١ ح ٦٣٨، مَكَارِم الأَخْلاَق للطبرسي: ٨، مَكَارِم الأَخْلاَق لِابْن أَبي الدُّنْيا: ٦، مُسْنَد الشهاب: ١٩٢/٢ ح ١١٦٤، تكملة حاشية ردّ المحتار: ٢٣٤/١.

عَلَىٰ قَلْبِهِ بِالْإِسْهَابِ، وَأُدِيلَ ٱلْحَقُّ مِنْهُ بِتَضْيِيعِ الْجِهَادِ، وَسِيمَ الْخَسْفَ، وَمُنِعَ النَّصَفَ»[١].

٤ ـ (وَكَلِمَةُ الْإِخْلاَصِ فَإِنَّهَا الْفِطْرَةُ). وهَذِه الكَلِمَة هِي دَعْوَة الأَنْبِيَاء جَمِيعاً مِن غَيْرِ ٱستثناء: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّآ أَنَا فَٱعْبُدُونِ﴾[٢]. ولَيْسَ الْمُرَاد بكَلِمَة الإِخْلاَص النُّطق بِلاَ إله إلّا الله، وإنّما الْمُرَاد مَا تمليه من التَّعبد لهُ، والتَّوكل عَلَيْهِ وحده، لا علىٰ ٱلْمَال، والجَاه، وَلاَ علىٰ الأحسَاب والأنْسَاب، أو ٱلْفَهم، وٱلْعِلْم، فإنّ هَذِه، وغَيْرها لَيْسَت بآلهة تُعبد، وَلاَ بشَيء يُذكر.

أمّا كَلِمَة الْفِطْرَةُ فَهِيَ إِشَارَة إِلىٰ أنّ ٱلإِنْسَان بفِطْرَته، وطَبِيعَته يَستجِيب لعَقِيدَة التَّوْحِيد، وَلاَ يَرفضها، بل يَستجِيب لكلّ مبدأ من مَبادىء الْإِسْلاَم، وكلّ قِيمة من قِيمه، وأي عَاقل يَرفض ٱلعِلْم، ومَنافعه، والسِّلم، وفوائِده، ويُرحب بالاِسْتغلاَل، والجَبرُوت، والتَّفرقة بَيْنَ النَّاس؟ وتَقَدَّم الكَلاَم عن الفِطْرَةِ مُفصلاً[٣].

٥ ـ (وَإِقَامُ الصَّلاَةِ فَإِنَّهَا الْمِلَّةُ) لأَنّ عَقِيدَة ٱلإِسْلاَم تَقوم عَلىٰ الشَّهادَة لله بالوحدَانِية، ولمُحَمّدٍ بِٱلرِّسَالَة، والصَّلاة مَظهر للشّهادَتين مَعاً: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾[٤]... وَأَشْهَدُ أَنْ لاَ إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَحْدَهُ لاَ شَرِيكَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّداً عَبْدُهُ

---

(١) أنظر، نَهج ٱلبَلاَغَة: ٱلخُطبَة (٢٧).

(٢) ٱلأنبِيَاء: ٢٥.

(٣) أُنظر، شَرح ٱلخُطبَةُ: رَقم «١». (مِنهُ ﷺ).

(٤) ٱلفَاتِحَة: ٥.

وَرَسُولُهُ». وكَلاَم أَهْل ٱلبَيْت عليهم السلام يُومىء إِلىٰ أنّ مِن ثَمَرات الصَّلاة، وَحِكْمَتها أنْ لاَ يَنقطع المُسْلِم عَن نَبيِّه فِي صَباح، وَمَسَاء.

٦ ـ (وَإِيتَاءُ الزَّكَاةِ فَإِنَّهَا فَرِيضَةٌ وَاجِبَةٌ). مَا دَام في المُجتمع غَني، وفَقِير فَالزَّكَاة ضَرِيبَة يَفرضها التَّعَاون، والضَّمان الاِجْتِمَاعِي، ولكن البَعض تَحذلق، وَقَالَ: إنّ فَرِيضَة الزَّكَاة مَعناها الاِعتِرَاف بالفَقْر، وإنّه حَتم لا بُدّ مِنْهُ، وكَان الأجْدر بالإِسْلاَم أنْ يَقتلعه من الجذُور، ويُوجد مُجتمعاً لا فَقر فيهِ علىٰ الإطْلاَق.

ونجيب أَوّلاً: بأنّ تغيير الأَوْضَاع ومَحو الفَقْر من الأَسَاس لا يَكون بجَرة قَلم، ودُونَ أنْ يَمر بالعَديد من المرَاحل، وإذَنْ فَلا بُدّ أنْ نَخضع للوَاقع، ونُداوي الحَاضِر بالحَاضِر حَتَّىٰ تَسمح الظّرُوف، ومَاذا نَصنع بالمَرضىٰ، والجَائِعِين فِي مُجتمع يَسوده فَسَاد الأَوْضَاع؟ هل نَنتظر حَتَّىٰ تصلح الأُمُور، أو نَشرّع قانوناً يَضمن ٱلحيَاة إِلىٰ أنْ تَتبدل الأحْوَال بالجِدّ، والاِجْتِهَاد؟

ثَانِيَاً: أنّ مَصرف الزَّكَاة لا يَنحصر بِالْفُقَرَاء، بل يَتعدّاهم إِلىٰ مَشروعات الخَيْر، ومَا فِيهِ للنَّاس صَلاح كَما هو المفهوم من كَلِمَة «سَبِيلِ ٱللهِ» في آيَة الزَّكَاة ﴿إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلْفُقَرَآءِ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْعَٰمِلِينَ عَلَيْهَا وَٱلْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَٱلْغَٰرِمِينَ وَفِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾[1].

٧ ـ (وَصَوْمُ شَهْرِ رَمَضَانَ فَإِنَّهُ جُنَّةٌ مِنَ الْعِقَابِ). قَد يَرىٰ البَعض أنّ الصّوم لَيْسَ إلّا عَملاً سَلبياً!... أجل، ولكن فِي هَذَا السَّلب حِكمةٍ، وإيجَاب، وهو ٱنْتصار ٱلإِنْسَان علىٰ نَفْسِه، وتمرينه علىٰ كَبح الشّهوات، والأَهْوَاء، ولو أَطلق

(١) ٱلتَّوْبَة: ٦٠. (مِنْهُ رحمه الله).

ٱلإنسَان العِنان لأهوائه لكَانَتْ ٱلْحيَاة نَاراً، وجَحِيماً.

٨ - (وَ حَجُّ الْبَيْتِ، وَ ٱعْتِمَارُهُ فَإِنَّهُمَا يَنْفِيَانِ الْفَقْرَ، وَ يَرْحَضَانِ الذَّنْبَ) تَكَلَّم كَثِيرُون عن منَافعِ ٱلْحَجِّ، وحِكْمَته، وَوَضع البَعض فيها رِسَالَة خَاصَّة، وأَكْثَر مَا قِيل كَلاَم مُكرور، ومُعاد لفظاً، ومحتوىً، وعلىٰ أيّة حَال نَعطف علىٰ أقوالِهم هَـذَا الخَاطر الَّذي لاَحَ لنا الآن: إنّ للحَجِّ فوائد مِنْهَا أنّه يَقُول لأعْدَاء الإِسْلاَم لا تَحسبوا أنّ شَمسه قَد غَربت، وأضواءه قَد خَبت، فها هُم ٱلْمُسْلِمُون يُـعلنون عـن وجـود ٱلإِسْلاَم بالهَرولة في المسعىٰ، وتَبديل المَلابس بالأكفان، أو ما يشبهها، وبالطَّواف بالأَقْدَام، والتَّجاذب حَول الْحَجَرَ الأسود، والنَّشيد، والهتَاف بالأفواه «لَبَّيْكَ أَللَّهُمَّ لَبَّيْكَ، لا شَرِيك لَكَ لَبَّيْكَ»[1].

ولكن هل نُغيظ الْعَدُوّ بِهَذِه المُظَّاهرة، وهو يَحتل من أَرضنا مـا أَحبّ، وأَرَاد، ويُشعل النِّيران في الْمَسْجِدِ الأقصىٰ، ويُحرّف كتاب الله عن مَعناه، وعَـلىٰ هَـواه، ويقتل الفِلسْطِينين بِيَد الرَّجعِية، والخِيانَة، ويـذلّ كـلّ عـربي، ومُسْـلِم في شَرق الأَرْض، وغَرْبِهَا؟. وأيضاً هل نُغيظ الْـعَدُوّ بِٱلْمُـؤتَمرَات «الإِسْـلاَمية، والأَدَبِـيَة والشِّعْرِيَة» وبالاِجْتِمَاعَات الْكُبْرَىٰ علىٰ مُسـتوىٰ الْمُـلُوك، والرُّؤسَـاء، أو وزرَاء الخَارجِيَة، وبالخطب، والقصائد؟... حجوا أيّها ٱلْمُسْلِمُون، وصَلّوا وصُوموا فإنّ الله لا يَتقبل مِنْكُم، ولنْ يَتقبل مَادُمتم أَذْلاء صَاغرِين أَمام عَدُوّه، وعَدُوّكم.

٩ - (وَصِلَةُ الرَّحِمِ فَإِنَّهَا مَثْرَاةٌ فِي الْمَالِ، وَ مَنْسَأَةٌ فِي الأَجَلِ). قَد يَكُون مُراد

(١) أُنظر، علىٰ سَبيل المثال: التَّذكرة: ٢٤٩/٧، الخِلاَف: ٢٩٣/٢، كـتاب الأُمّ: ١٥٥/٢، تـرتيب مُسْنَد الشّافعي: ٣٠٤/١، الْمُغْنِي: ٢٣٨/٣، المَبْسُوط للسّرخسي: ٢٥/٤، صَحِيح مُسْلِم: ٩١٥/٢، مَعَالِم السُّنَن للخطابي: ٣٠١/٢.

الإِمَامُ ﷺ الزِّيَادَة فِي الْمَالِ، والْعُمُر من حَيْث الكَم أي إنّ صِلَة الرَّحِم تُزيد فِي أَيَّام الْعُمُر، وعدّ النّقود حَقِيقَةً، وواقعاً، ولَيْسَ هَذَا بمستَحِيل فِي حُكـم الْـعَقْل، وقَـد تَكُون الزِّيَادَة من حَيْث الكِيف أي إنّ صِلَة الرَّحِم تجعل الدّرهم الواحد أكْثَر نَفعاً وبَركةً من مئة دَرهم، والْيَوْم الوَاحد من الْعُمُر ـ يَعمل فِيهِ الْمَرْء عَملاً صَالحاً ـ خَيراً من أَلف يَوْمٍ يَذهب سُدىً.

١٠ ـ (وَ صَدَقَةُ السِّرِّ فَإِنَّهَا تُكَفِّرُ الْخَطِيئَةَ) لأنّ حَسَنَاتها تَتغلب علىٰ سَيِّئَاتِ العَديد من الخطَايَا، والذّنوب (وَ صَدَقَةُ الْعَلاَنِيَةِ فَإِنَّهَا تَدْفَعُ مِيتَةَ السُّوءِ) كَمن يَنهار عَلَيْهِ نَفق فيَموْت خَنقاً، أو تَلتهب فِيهِ النِّيرَان فيهلك حَرقاً، أو يَـغرق فـتأكـلهُ الأَسْمَاك، ونحو ذَلِكَ... وَلاَ يَصحّ التَّأويل هُنا، والاجْتِهَاد لأنّ اللّفظ لا يحـمل إلّا مَعنَاه.

١١ ـ (وَ صَنَائِعُ الْمَعْرُوفِ فَإِنَّهَا تَقِي مَصَارِعَ الْهَوَانِ). وهَـذَا مـثل صَـدَقَةُ الْعَلاَنِيَةِ تَدفع مِيتَة السُّوء، ولَكِنَّهُ من بَاب عَطف العَام علىٰ الخَاص؛ لأنّ الْمَعْرُوف أَعم مِن صَدَقَةُ الْعَلاَنِيَة، ونَظِيرَه قَوْله تَعَالَىٰ: ﴿وَمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَانُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ﴾[1].

ذِكْرُ الله، والْقُرْآن...فِقْرَة ٢:

أَفِيضُوا فِي ذِكْرِ اللهِ فَإِنَّهُ أَحْسَنُ الذِّكْرِ. وَ ٱرْغَبُوا فِيمَا وَعَدَ الْمُتَّقِينَ فَإِنَّ وَعْـدَهُ أَصْدَقُ الْوَعْدِ. وَ ٱقْتَدُوا بِهَدْيِ نَبِيِّكُمْ فَإِنَّهُ أَفْضَلُ الْهَدْيِ. وَ ٱسْـتَنُّوا بِسُـنَّتِهِ فَـإِنَّهَا

(١) آلِ عِمْرَانَ: ٨٤.

أَهْدَىٰ السُّنَنِ.

وَ تَعَلَّمُوا ٱلْقُرْآنَ فَإِنَّهُ أَحْسَنُ الْـحَدِيثِ، وَ تَـفَقَّهُوا فِـيهِ فَـإِنَّهُ رَبِـيعُ الْـقُلُوبِ، وَٱسْتَشْفُوا بِنُورِهِ فَإِنَّهُ شِفَاءُ الصُّدُورِ، وَ أَحْسِنُوا تِلاَوَتَهُ فَإِنَّهُ أَنْـفَعُ الْـقَصَصِ. وَ إِنَّ الْعَالِمَ الْعَامِلَ بِغَيْرِ عِلْمِهِ كَالْجَاهِلِ الْحَائِرِ الَّذِي لاَ يَسْتَفِيقُ مِنْ جَهْلِهِ، بَلِ الْحُجَّةُ عَلَيْهِ أَعْظَمُ، وَالْحَسْرَةُ لَهُ أَلْزَمُ، وَ هُوَ عِنْدَ اللهِ أَلْوَمُ[٢].

اللُّغَة:

أَفِيضُوا: أَكْثِرُوا. وَٱسْتَنُّوا: أَعْمَلُوا.

الْإِعْرَاب:

كَالْجَاهِلِ خَبَرِ إِنَّ، والْحُجَّةُ أَعْظَمُ مُبْتَدَأ، وخَبَر. وعَلَيْهِ مُتَعَلِّق بِأَعْظَم، ومِثْله مَا بَعْدَه.

الْمَعْنَىٰ:

(أَفِيضُوا فِي ذِكْرِ اللهِ فَإِنَّهُ أَحْسَنُ الذِّكْرِ) تَوَسَّلوا إِلَـيْهِ تَـعَالَىٰ بـالإقبال عَـلَيْهِ، والتَّضَرُّع لهُ، وَلاَ وَزن للذِّكر إلّا إذَا تُرجم عن الْقَلْب وما فيهِ من يَقين وإخْلاَص، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّـٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ وَٱلَّذِينَ يَمْكُرُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَكْرُ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُوَ يَبُورُ﴾[١]. قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ

(١) فَاطِر: ١٠.

إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾[١]. (وَ آرْغَبُوا فِيمَا وَعَدَ الْمُتَّقِينَ فَإِنَّ وَعْدَهُ أَصْدَقُ الْوَعْدِ). كلّ من آمَن بالله فَهُوَ مُؤمِن أيضاً بأنّ وعده تعَالىٰ حَقٌّ، وصِدقٌ، وإلّا كَان من الجَاحدِين، وغَرض الإِمَام ﷺ أنْ يَكُون الْمُؤمِن أعمق إحسَاساً، وَأَكْثَرُ عَملاً (وَ آقْتَدُوا بِهَدْيِ نَبِيِّكُمْ فَإِنَّهُ أَفْضَلُ الْهَدْيِ. وَ آسْتَنُّوا بِسُنَّتِهِ فَإِنَّهَا أَهْدَىٰ السُّنَنِ) إنّ سِيرَة النَّبِيّ وهَديه حُجّة لله علىٰ خَلقه، أمّا كُتب الأَخْلاَق، والقَوانِين، وأسفَار العلوم، والفَلْسَفَة، وإجْمَاع ٱلعُلَمَاء، وسِيرَة العُقلاَء فمَا هِي بشَيء إلّا مَا وافق مِنْهَا كتاب الله، وسُنَّة نَبيّه ٱلكَرِيمِ، وهَذَا مُراد الإِمَام من قَوْله «أَفْضَلُ الْهَدْيِ» أي خُذوا بِما قَالَ النَّبِيّ، وفَعَل، لا بِمَا قَالَ النَّاس، وَفعَلوا.

(وَ تَعَلَّمُوا ٱلْقُرْآنَ فَإِنَّهُ أَحْسَنُ الْحَدِيثِ، وَ تَفَقَّهُوا فِيهِ فَإِنَّهُ رَبِيعُ الْقُلُوبِ، وَ آسْتَشْفُوا بِنُورِهِ فَإِنَّهُ شِفَاءُ الصُّدُورِ، وَ أَحْسِنُوا تِلاَوَتَهُ فَإِنَّهُ أَنْفَعُ الْقَصَصِ).

«تَعَلَّمُوا، وَتَفَقَّهُوا، وَ آسْتَشْفُوا، وَأَحْسِنُوا» كَلمات تَصر، وتُؤكد علىٰ ٱلعِلْم، وٱلْعَمَل بٱلْقُرْآن، وعَلىٰ الْمَعَانِي لا عَلىٰ الأَلْفَاظ، وعَلىٰ التَّدْبِير لا عَلىٰ التَّغني، وعَلىٰ فَهم الحَلاَل، وٱلْحَرَام، وتَمْيِيز الْحَقّ من الْبَاطِل، والْخَوْف من تَهديد الله، ووعيده... إنّ الله سُبْحَانَهُ مَا أنزل ٱلْقُرْآن لنكُون أَوعية لهُ، أو لنطبَعه، ونُجلده، بَل لنُصغي إلىٰ دَعوتهِ، ونَسير علىٰ نَهجه.

(وَ إِنَّ الْعَالِمَ الْعَامِلَ بِغَيْرِ عِلْمِهِ كَالْجَاهِلِ الْحَائِرِ الَّذِي لاَ يَسْتَفِيقُ مِنْ جَهْلِهِ، بَلِ الْحُجَّةُ عَلَيْهِ أَعْظَمُ، وَالْحَسْرَةُ لَهُ أَلْزَمُ، وَ هُوَ عِنْدَ اللهِ أَلْوَمُ) إنّ مَسْئُولية الْعَالِمَ غَير مَسْئُولية الْجَاهِل، لأنّ الْعَالِمَ إذَا فَعل يَفعل عن قصدٍ، وعمدٍ، أمَا الْجَاهِل فٱسمه يَدل

---

(١) سُورَةُ ق: ١٨.

عَلَيْهِ، بَل إنّ وِزر الْجَاهِل علىٰ الْعَالِم إذَا أَهمل إرشَاده، أَو أَرشدَه إِلىٰ غَيْر الْحَق... لأنّ مَسْئُولِية القَائِد أَعظم من مَسْئُولِية المَقود، ولأنّ القَائد مُخَيّر، والمَقود أَشبه بالمُسيّر.

وفي الْحَدِيث الشَّرِيف: «أنّ أَهْل النَّار ليتأذُون من رِيح العَالِم التَّارك لِعلمه»[1].

وَقَالَ الْإِمَام البَاقِر عليه السلام في تَفْسِير قَوْله تَعَالَىٰ: ﴿فَكُبْكِبُواْ فِيهَا هُمْ وَٱلْغَاوُۥنَ﴾[2]. قَالَ: «هُم قَوم وصفوا عَدلاً بألسنتهم، ثُمَّ خَالفوه إِلىٰ غَيْره»[3]. وَقَالَ الْإِمَام الصَّادق عليه السلام: «مَن عَرَفَ دَلتهُ الْمَعْرِفَة علىٰ ٱلْعَمَل، ومَن لَم يَعمَل فلاَ مَعْرِفة لهُ، أَلاَ إنّ الْإِيمَان بَعضَه مِن بَعْض»[4].

---

(١) أُنظر، إرشاد الأَذهَان للعَلاّمة الحِلي: ١/١٥، الكَافِي: ١/٤٤ ح ١، عدة الدّاعي لِابْن فهد الحلي: ٦٧، عوالي الثالي: ٤/٧٦ ح ٦٢، مُنية المُريد: ١٤٦، المَعَالِم لِابْن الشَّهيد: ١٨.

(٢) ٱلشُّعَرَاء: ٩٤.

(٣) أُنظر، المَحَاسِن للبرقي: ١/١٢١، الكَافِي: ١/٤٧ ح ٤، وَسَائِل الشِّيعة: ١٥/٢٩٦ ح ٤، كتاب الزُّهد لحسين بن سعيد الأهوازي الكوفي: ٦٨ ح ١٨١.

(٤) أُنظر، الكَافِي: ١/٤٤ ح ٢، أمالي الصَّدوق: ٥٠٨، المَحَاسِن: ١٩٨ ح ٢٥، تُحف العُقُول: ٢٩٤.

الخطبة
-١١١-

غَرَّارَةٌ ضَرَّارَةٌ...فِقْرَة ١ ـ ٣:

أَمَّا بَعْدُ، فَإِنِّي أُحَذِّرُكُمُ الدُّنْيَا، فَإِنَّهَا حُلْوَةٌ خَضِرَةٌ، حُفَّتْ بِالشَّهَوَاتِ، وَ تَحَبَّبَتْ بِالْعَاجِلَةِ، وَ رَاقَتْ بِالْقَلِيلِ، وَ تَحَلَّتْ بِالْآمَالِ، وَ تَزَيَّنَتْ بِالْغُرُورِ. لاَ تَدُومُ حَبْرَتُهَا، وَ لاَ تُؤْمَنُ فَجْعَتُهَا. غَرَّارَةٌ ضَرَّارَةٌ، حَائِلَةٌ زَائِلَةٌ، نَافِدَةٌ بَائِدَةٌ، أَكَّالَةٌ غَوَّالَةٌ. لاَ تَعْدُو إِذَا تَنَاهَتْ إِلَىٰ أُمْنِيَّةِ أَهْلِ الرَّغْبَةِ فِيهَا، وَ الرِّضَاءِ بِهَا ـ أَنْ تَكُونَ كَمَا قَالَ اللهُ تَعَالَىٰ سُبْحَانَهُ: ﴿وَ ٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَـٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ ٱلرِّيَـٰحُ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ مُّقْتَدِرًا﴾[(1)]. لَمْ يَكُنِ ٱمْرُؤٌ مِنْهَا فِي حَبْرَةٍ إِلَّا أَعْقَبَتْهُ بَعْدَهَا عَبْرَةً، وَ لَمْ يَلْقَ فِي سَرَّائِهَا بَطْناً، إِلَّا مَنَحَتْهُ مِنْ ضَرَّائِهَا ظَهْراً، وَ لَمْ تَطُلَّهُ فِيهَا دِيمَةُ رَخَاءٍ، إِلَّا هَتَنَتْ عَلَيْهِ مُزْنَةُ بَلاَءٍ! وَحَرِيٌّ إِذَا أَصْبَحَتْ لَهُ مُنْتَصِرَةً أَنْ تُمْسِيَ لَهُ مُتَنَكِّرَةً، وَ إِنْ جَانِبٌ مِنْهَا ٱعْذَوْذَبَ، وَٱحْلَوْلَىٰ، أَمَرَّ مِنْهَا جَانِبٌ فَأَوْبَىٰ! لاَ يَنَالُ ٱمْرُؤٌ مِنْ غَضَارَتِهَا رَغَباً، إِلَّا أَرْهَقَتْهُ مِنْ

---

(١) ٱلْكَهْفِ: ٤٥.

نَوَائِبِهَا تَعَباً! وَلاَ يُمْسِي مِنْهَا فِي جَنَاحِ أَمْنٍ، إِلَّا أَصْبَحَ عَلَىٰ قَوَادِمِ خَوْفٍ! غَرَّارَةٌ، غُرُورٌ مَا فِيهَا، فَانِيَةٌ فَانٍ مَنْ عَلَيْهَا، لاَ خَيْرَ فِي شَيْءٍ مِنْ أَزْوَادِهَا إِلَّا التَّقْوَىٰ[٢].

مَنْ أَقَلَّ مِنْهَا ٱسْتَكْثَرَ مِمَّا يُؤْمِنُهُ! وَمَنِ ٱسْتَكْثَرَ مِنْهَا ٱسْتَكْثَرَ مِمَّا يُوبِقُهُ، وَزَالَ عَمَّا قَلِيلٍ عَنْهُ. كَمْ مِنْ وَاثِقٍ بِهَا قَدْ فَجَعَتْهُ، وَذِي طُمَأْنِينَةٍ إِلَيْهَا قَدْ صَرَعَتْهُ، وَذِي أُبَّهَةٍ قَدْ جَعَلَتْهُ حَقِيراً، وَذِي نَخْوَةٍ قَدْ رَدَّتْهُ ذَلِيلاً! سُلْطَانُهَا دُوَّلٌ، وَعَيْشُهَا رَنِقٌ، وَعَذْبُهَا أُجَاجٌ، وَحُلْوُهَا صَبِرٌ، وَغِذَاؤُهَا سِمَامٌ، وَأَسْبَابُهَا رِمَامٌ! حَيُّهَا بِعَرَضِ مَوْتٍ، وَصَحِيحُهَا بِعَرَضِ سُقْمٍ! مُلْكُهَا مَسْلُوبٌ، وَعَزِيزُهَا مَغْلُوبٌ، وَمَوْفُورُهَا مَنْكُوبٌ، وَجَارُهَا مَحْرُوبٌ[٣]!

اللُّغَة:

حَبْرَتُهَا: سرورها. حَائِلَةٌ: مُتغيرة مِن حَالٍ إلىٰ حَال. نَافِدَةٌ: مَن نَفد الشَّيء إذَا ٱنتهىٰ. وغَوَّالَةٌ: مُهلِكَة. والْهَشِيم، والْمَهْشُوم: نَبت يَابس مُتكسر. والعَبْرَة ـ بفتح الْعَيْن ـ الدَّمعة، والْحُزْن، وسَالت عَبْرَته: دَمعُت عَينه ـ وبضم الْعَيْن: العِظَة. وتَطُلَّهُ: من الطَّل، مَطرٌ خَفيف. ودِيمَةٌ: مَطرٌ يَدوم بِلا رَعدٌ، وبَرقٌ. وهَتَنَتْ: ٱنْصَبت. ومُزْنَةٌ: سُحَابة. وٱغْذَوْذَبَ: صَار عَذْباً. وأَوْبَىٰ: صَار وَبِيئاً. والغَضَارَة: النِّعْمَة. ورَغَباً: مَرْغُوباً فِيه. وأَرْهَقَتْهُ: أَغْشَتْهُ، وَغْطَتْهُ. والقَوَادِمِ: رِيش فِي مُقَدَّم جناح الطَّائر. وأَزْوَاد: جَمع زَاد. ويُوبِقُهُ: يُهْلِكُهُ. وفَجَعَتْهُ: أَفْقَدَته عَزِيزاً. والأُبَّهَة: العَظَمَة. ودُوَّلٌ: مَرّة لهَذا، وأُخرىٰ لذَاك. والرَّنِقُ: الْكَدَر. وأُجَاج: مَالِح، أو مِلْح. وصَبِرٌ: مُرّ. وسِمَامٌ: جَمع سُمّ. ورِمَام: جَمع رِمَّة، وَهِي قِطعة حَبل بَالِيَة. والمَنْكُوب: المُصَاب. والمَحْرُوب: مَسْلُوب ٱلْمَال.

الإِعْرَاب:

غَرَّارَةٌ، ومَا بَعدها أَخبار لمُبْتَدأ مَحْذُوف أي هِي غَرَّارَةٌ... إلخ. والمَصْدَر مِن أَنْ تكُونَ مجرور بِعَن مَحْذُوفَةً مُتعَلِّقاً بتَعْدُو، وَحَرِيٌّ خَبَر لمُبْتَدَأ مَحْذُوف أي شَأنها حَرِيٌّ، والمَصْدَر مِن أَنْ تُمْسِيَ مجرور بالبَاء المَحْذُوفَة مُتعَلِّقاً بحَرِيّ، وتَعَباً مَنصوب بنزع الخَافض أي غَطَتْه، وغمرتهُ بالتَّعب، أو مَفْعُول ثانٍ لأَرْهَقَتْ بمَعْنَىٰ كَلفته تَعَباً كَثيراً، وفَانٍ خَبَر مُقدَّم، ومَنْ مُبْتَدَأ مُؤَخَّر، وكَمْ خَبَرية ولِذَا جُر تَمْييزها بِمِنْ، ومحلها الرَّفع بِالابْتِدَاء، وقَدْ فَجَعَتْهُ خَبَر.

المَعْنىٰ:

(فَإِنِّي أُحَذِّرُكُمُ الدُّنْيَا) أَي مِن حَرَامِها، ولَنْ تَضُرك أَبَداً دُنْيا أَخذتها بكد اليَمِين وعَرَق الجَبِين، وأَدَّيْت شُكرها كما أَمرك الله سُبْحَانَهُ، وكَيْفَ تَستَطيع العَيش فِيها إلّا بمَا يُصلحك مِنْهَا؟ أَللَّهُمَّ إلّا أنْ تَمد يَد الذّل، والسُّؤال (فَإِنَّهَا حُلْوَةٌ خَضِرَةٌ) تَستَهوي ضِعاف العُقُول بِزُخْرُفِهَا، وزِينَتُهَا (حُفَّتْ بِالشَّهَوَاتِ) ومِن نَظر إِلىٰ الأَشْيَاء بعين الهَوَىٰ والشَّهْوَة عُمي عن الحَقِيقَة (وَ تَحَبَّبَتْ بِالْعَاجِلَةِ) كَلذَة الجِنْس، والطَّعام، والشَّراب، وَلاَ شَك أَنّ الحَرَام ـ وإنْ طَاب ـ ضَرّه أَكْثَر من نَفعه، وعقَابه أَكْثَر من لذَته (وَ رَاقَتْ بِالْقَلِيلِ) تحلو لأَبنَائِها بالزَّهيد، وبالمُزيف تَمَاماً كالطِّفل يَلهو بالدُّمية الملونَة، ويَزهو بالثَّوب الجَديد.

(وَ تَحَلَّتْ بِالآمَالِ). العَاقِل لا يَغتر بالظّواهر، وَلاَ يَركن إِلىٰ أَمل... ويَحتاط للعواقب، ويَعد العِدَة للطّواريء، والمُفاجآت (وَ تَزَيَّنَتْ بِالْغُرُورِ) كالحَرَام من الجِنس ونَحْوَه، يَذهب طَعمه، ويَبْقَىٰ إثْمه (لاَ تَدُومُ حَبْرَتُهَا، وَ لاَ تُؤْمَنُ فَجْعَتُهَا)

سرُورها قَليل، وحُزنها كَثير، وكَم فاجَأت بالرّزَايَا، والنَّوائِب (غَرَّارَةٌ ضَرَّارَةٌ، حَائِلَةٌ زَائِلَةٌ، نَافِدَةٌ بَائِدَةٌ، أَكَّالَةٌ غَوَّالَةٌ. لاَ تَعْدُو إِذَا تَنَاهَتْ إِلَىٰ أُمْنِيَّةِ أَهْلِ الرَّغْبَةِ فِيهَا، وَ الرِّضَاءِ بِهَا ـ أَنْ تكُونَ كَمَا قَالَ اللهُ تَعَالَىٰ سُبْحَانَهُ: ﴿وَ ٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَـٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ ٱلرِّيَـٰحُ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ مُّقْتَدِرًا﴾). كلّ هَذِه الأَوصَاف يَجمعها قَوْله تَعَالَىٰ: ﴿ٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌۢ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَـٰدِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ ٱلْكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَـٰمًا وَفِى ٱلْأَخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾[١].

وَقَالَ مَن لا يُؤْمِن باليَوْم الآخر: إِذَا كَانَتْ الدُّنْيَا فَانِية بَائِدة فعلىٰ ٱلإِنْسَان أنْ يَغْتَنِم الْفُرْصَة، ويَبذل قُصارىٰ الجُهد للـتَّمتع بِهـا إِلىٰ أَقصىٰ حَدّ، لِأَنَّهَا ٱلْجَنَّة الوَحِيدَة.

وَقَالَ الْإِمَامُ عليه السلام هَذَا الجَاحد فِيمَا قَالَ: «إِنْ يَكن الأَمْر كَمَا تَقول، وليس كما تقول نَجونا، ونَجوت، وإِنْ يَكن الأَمْر كَمَا نَقُول، وهو كما نَقُول نَجونا، وهَلَكْتَ»[٢]. وَنَظم الشَّاعر هَذَا ٱلْمَعْنىٰ بقَوْله[٣]:

قَالَ المُنجم وَالطَّبيب كِلاهما	لاَ تُحشر الأجْسَام قُلت إِلَيْكُما
إِنْ صحّ قولكُما فَلَستُ بخاسرٍ	أَو صَحّ قَولِي فالخَسار عَلَيْكُما

(١) ٱلْحَدِيد: ٢٠.

(٢) أُنظر، الكَافِي: ١/٧٨ ح ٢، الطرائف لِابْن إدريس: ٤٧٩، توحيد الصّدوق: ٢٩٨، الإِحْتِجَاج: ٢/٧٥، والسّائل هو عبدالكريم أبن أبي العوجاء.

(٣) يُنسب هَذَا الشّعر إِلىٰ أَبِي الْعَلَاء المَعَرِّي، كَمَا جَاء في اللّزوميات أو لزوم ما لا يلزم: ٢٠٦، إحياء علوم الدّين للغزالي: ٤/٥٢.

وعُلَمَاء أُصول الفِقْه يُسمون هَذَا المَنهج بدورَان الأَمْر بَيْنَ الإلزَام بشَيء مُعين، أو التَّخيير بينه، وبَيْنَ غَيْره، ودَفعاً للضَّرر المُحتمل يَتعين الأَوَّل، ومِثَال ذَلِكَ أنْ يَقُول لكَ الطَّبيب: آشْرَب العَصير، ثُمّ تَشك: هَل أَراد عَصير البُرتقال فَقط، أو خيّرك بينه، وبَيْنَ عصير الجزر... ولَيْسَ من شكٍ أنّ ٱلعَقْل يُحتم عَلَيْكَ في مِثل هَذِه الحَال أنْ تَختار عَصير البُرتقال وَحده، لأنّه المُتيقن، ومأمون الضَّرر علىٰ كلِّ حَال، أمّا غَيْره فمشكُوك، وأحتمال الضَّرر فِيهِ قَائم، فَيجب تَركه.

(لَمْ يَكُنِ آمْرُؤٌ مِنْهَا فِي حَبْرَةٍ إِلَّا أَعْقَبَتْهُ بَعْدَهَا عَبْرَةً، وَ لَمْ يَلْقَ فِي سَرَّائِهَا بَطْناً، إِلَّا مَنَحَتْهُ مِنْ ضَرَّائِهَا ظَهْراً، وَ لَمْ تَطُلَّهُ فِيهَا دِيمَةُ رَخَاءٍ، إِلَّا هَتَنَتْ عَلَيْهِ مُزْنَةُ بَلاَءٍ! وَحَرِيٌّ إِذَا أَصْبَحَتْ لَهُ مُنْتَصِرَةً أَنْ تُمْسِيَ لَهُ مُتَنَكِّرَةً، وَ إِنْ جَانِبٌ مِنْهَا آعْذَوْذَبَ، وَآحْلَوْلَىٰ، أَمَرَّ مِنْهَا جَانِبٌ فَأَوْبَىٰ! لاَ يَنَالُ آمْرُؤٌ مِنْ غَضَارَتِهَا رَغَباً، إِلَّا أَرْهَقَتْهُ مِنْ نَوَائِبِهَا تَعَباً! وَلاَ يُمْسِي مِنْهَا فِي جَنَاحِ أَمْنٍ، إِلَّا أَصْبَحَ عَلَىٰ قَوَادِمِ خَوْفٍ). هَذِه الجُمل السَّبع تَتفق فِي المُحتوىٰ، وتَخْتَلِف فِي المَبنىٰ... فَالحَبْرَة، والغَضَارَة، والرَّغبَة، والسَّرَّاء، والرَّخَاء، والعَذوْبة، والأَمْن، والهنَاء كلّها من بابٍ واحد، وكَذَلِكَ التَّنكر والعِبْرَة، والضَّرَّاء، والتَّعَبُ والبَلاءِ، وكلّ نِعْمَة فيها مَقرونة بضَرب من الكَدَر، وتَقَدَّم هَذَا المَعْنىٰ أَكْثَر مِن مَرّة.

(غَرَّارَةٌ، غُرُورٌ مَا فِيهَا) إلّا إذَا كَان وسِيلة لحَيَاة أَفضل، كمشَاريع الخَيْر، وٱلعَمَل النَّافع، أمَا ٱلعِلْم الَّذي يَجعل مَصير العَالم في أكُف العفَاريت والأبالِسَة فَهُوَ إثمٌ، وشرٌّ (فَانِيَةٌ فَانٍ مَنْ عَلَيْهَا) وإذَنْ فعلاَم الصّراع، والتّناحر علىٰ الحُطَام (لاَ خَيْرَ فِي شَيْءٍ مِنْ أَزْوَادِهَا إِلَّا التَّقْوَىٰ) عن ٱلحَرَام فإنَّهَا نِعمَ الزَّاد (مَنْ أَقَلَّ مِنْهَا آسْتَكْثَرَ مِمَّا يُؤْمِنُهُ) أي من آقتنع من دُنْيَاه بقدر حَاجَته فقد أَمِن العوَاقب دُنْياً، وآخرة.

ومن حِكْم الْإِمَام: «وَمَنِ ٱقْتَصَرَ عَلَىٰ بُلْغَةِ الْكَفَافِ فَقَدِ ٱنْتَظَمَ الرَّاحَةَ، وَ تَبَوَّأَ خَفْضَ الدَّعَةِ»[1]. أي عَاش في غنىً عن النَّاس، وٱسْتَرَاح، وأرَاح.

(وَ مَنِ ٱسْتَكْثَرَ مِنْهَا ٱسْتَكْثَرَ مِمَّا يُوبِقُهُ) أي يُهلكه، وفِيهِ إيمَاء إِلىٰ أنّ تراكم الثَّروات لا يَكُون إلّا من حَرام، لأنّ الله سُبْحَانَهُ لا يُعاقب علىٰ الطَّيّبات من ٱلرِّزْق بَعد أنْ أبَاحها، وأنْكر علىٰ من حَرمها (وَ زَالَ عَمَّا قَلِيلٍ عَنْهُ) لا بُدّ أنْ يُفارق ٱلْمَال صَاحبه ولو بِٱلْمَوْت (كَمْ مِنْ وَاثِقٍ بِهَا قَدْ فَجَعَتْهُ). كَمن يَركن إِلىٰ عَافِيته فَيصِيبه دَاء لا دَواء له، أو إِلىٰ مَاله فتذهب به النَّكبات، أو إِلىٰ عَزيز فتختطفه الْمَنِيَّة (وَ ذِي طُمَأْنِينَةٍ إِلَيْهَا قَدْ صَرَعَتْهُ) مِن حَيْث لا يَشعر، وَلاَ رَزيةٍ، أو وَجع للقَلب من مُفارقة مَا كَان يطمئن إِلَيْه، ويَعتز بِهِ.

(وَ ذِي أُبَّهَةٍ قَدْ جَعَلَتْهُ حَقِيراً) هَوت بِهِ إِلىٰ الحَضِيض، وهو في القِمّة من العِزّ (وَ ذِي نَخْوَةٍ قَدْ رَدَّتْهُ ذَلِيلاً). ٱنْهَار، وٱسْتَسلم صَاغراً بَعد بَرقه، ورَعده، وهَذَا ومَا قَبله عطف تَفْسِير علىٰ كَمْ مِنْ وَاثِقٍ بِهَا قَدْ فَجَعَتْهُ، والغَرض من التَّكرَار هو التَّأكيد عَلىٰ أنْ يَحذر ٱلإِنْسَان من كلِّ شَيء، وَلاَ يَغتر بِمَا يَرىٰ من الظَّواهر، وَلاَ يَثق بأي سَببٍ إِلّا إِذَا أُخذ بِهِ في سَبِيل الْحَقّ، والْعَدْل (سُلْطَانُهَا دُوَلٌ) يَنتقل مِن يَدٍ إِلىٰ يَد، مَا حَسِب لَهَا حَاسِب (وَ عَيْشُهَا رَنِقٌ) لا يَخلو من الْكَدَر.

(وَ عَذْبُهَا أُجَاجٌ) يَجمع بَيْنَ الْأَمْراض، والأحْزَان في كَثِير من الأحْيَان (وَ حُلْوُهَا صَبِرٌ) مُرّ الْعَاقِبَة (وَ غِذَاؤُهَا سِمَامٌ) إِذَا كَان مِن نَوْع ٱلْحَرَام (وَ أَسْبَابُهَا رِمَامٌ) بَالِيَّة من تَمسك بِها هَوىٰ (حَيُّهَا بِعَرَضِ مَوْتٍ) ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو

(١) أُنظر، نهج البَلاَغَة: ٱلْحِكْمَة (٣٧١).

ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾[1] (وَ صَحِيحُهَا بِعَرَضِ سُقْمٍ) وإنْ ٱحتَاط، وتحفَظ من الأَمْرَاض بالحَمِيَة، وٱقتصد في مأكله، ومشربه، وٱبتعد عن أَسْبَاب الهمُوم، والأحْزَان.

(مُلْكُهَا مَسْلُوبٌ) ولو بٱلْمَوْت، والمُرَاد بٱلْمُلْكِ هنا مُطلق الحِيازة لأي شَيء (وَ عَزِيزُهَا مَغْلُوبٌ) ولو لزوجته أو ولده (وَ مَوْفُورُهَا مَنْكُوبٌ) بمَال أو جَاه، أو عَزيز (وَ جَارُهَا مَحْرُوبٌ) أي من ٱلتجأ إِلىٰ الدُّنْيَا، وٱسْتجَار بهما سَلبَت أَمْوَاله، ولو بٱلْمَوْت.

بِئْسَتِ الدَّارُ لِمَنْ لَمْ يَتَّهِمْهَا... فِقْرَة ٤ ـ ٦:

أَلَسْتُمْ فِي مَسَاكِنِ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ أَطْوَلَ أَعْمَاراً، وَ أَبْقَىٰ آثَاراً، وَ أَبْعَدَ آمَالاً، وَ أَعَدَّ عَدِيداً، وَأَكْثَفَ جُنُوداً! تَعَبَّدُوا لِلدُّنْيَا أَيَّ تَعَبُّدٍ، وَ آثَرُوهَا أَيَّ إِيْثَارٍ، ثُمَّ ظَعَنُوا عَنْهَا بِغَيْرِ زَادٍ مُبَلِّغ، وَلاَ ظَهْرٍ قَاطِعٍ. فَهَلْ بَلَغَكُمْ أَنَّ الدُّنْيَا سَخَتْ لَهُمْ نَفْساً بِفِدْيَةٍ، أَوْ أَعَانَتْهُمْ بِمَعُونَةٍ، أَوْ أَحْسَنَتْ لَهُمْ صُحْبَةً! بَلْ أَرْهَقَتْهُمْ بِالْقَوَادِحِ، وَ أَوْهَقَتْهُمْ بِالْقَوَارِعِ، وَ ضَعْضَعَتْهُمْ بِالنَّوَائِبِ، وَ عَفَّرَتْهُمْ لِلْمَنَاخِرِ، وَ وَطِئَتْهُمْ بِالْمَنَاسِمِ، وَ أَعَانَتْ عَلَيْهِمْ ﴿رَيْبَ ٱلْمَنُونِ﴾[2](4). فَقَدْ رَأَيْتُمْ تَنَكُّرَهَا لِمَنْ دَانَ لَهَا، وَ آثَرَهَا، وَ أَخْلَدَ إِلَيْهَا، حِينَ ظَعَنُوا عَنْهَا لِفِرَاقِ الأَبَدِ. وَ هَلْ زَوَّدَتْهُمْ إِلاَّ السَّغَبَ، أَوْ أَحَلَّتْهُمْ إِلَّا الضَّنْكَ، أَوْ نَوَّرَتْ لَهُمْ إِلَّا الظُّلْمَةَ، أَوْ أَعْقَبَتْهُمْ إِلَّا النَّدَامَةَ! أَفَهَذِهِ تُؤْثِرُونَ، أَمْ إِلَيْهَا تَطْمَئِنُّونَ، أَمْ عَلَيْهَا تَحْرِصُونَ؟ فَبِئْسَتِ الدَّارُ لِمَنْ لَمْ يَتَّهِمْهَا، وَلَمْ يَكُنْ فِيهَا عَلَىٰ

---

(١) ٱلرَّحْمَٰن: ٢٦ ـ ٢٨.

(٢) ٱلطُّور: ٣٠.

وَجَلٍ مِنْهَا ! فَٱعْلَمُوا ـ وَ أَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ـ بِأَنَّكُمْ تَارِكُوهَا ، وَظَاعِنُونَ عَنْهَا[٥] ، وَٱتَّعِظُوا فِيهَا بِالَّذِينَ قَالُوا : ﴿مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً﴾[١] : حُمِلُوا إِلَىٰ قُبُورِهِمْ فَلاَ يُدْعَوْنَ رُكْبَاناً ، وَأُنْزِلُوا الْأَجْدَاثَ ، فَلاَ يُدْعَوْنَ ضِيفَاناً ، وَجُعِلَ لَهُمْ مِنَ الصَّفِيحِ أَجْنَانٌ ، وَمِنَ التُّرَابِ أَكْفَانٌ ، وَمِنَ الرُّفَاتِ جِيرَانٌ ، فَهُمْ جِيرَةٌ لاَ يُجِيبُونَ دَاعِياً ، وَلاَ يَمْنَعُونَ ضَيْماً ، وَلاَ يُبَالُونَ مَنْدَبَةً . إِنْ جِيدُوا لَمْ يَفْرَحُوا ، وَإِنْ قُحِطُوا لَمْ يَقْنَطُوا . جَمِيعٌ وَ هُمْ آحَادٌ ، وَجِيرَةٌ وَهُمْ أَبْعَادٌ . مُتَدَانُونَ لاَ يَتَزَاوَرُونَ ، وَ قَرِيبُونَ لاَ يَتَقَارَبُونَ . حُلَمَاءُ قَدْ ذَهَبَتْ أَضْغَانُهُمْ ، وَجُهَلاَءُ قَدْ مَاتَتْ أَحْقَادُهُمْ . لاَ يُخْشَىٰ فَجْعُهُمْ ، وَ لاَ يُرْجَىٰ دَفْعُهُمْ ، ٱسْتَبْدَلُوا بِظَهْرِ الْأَرْضِ بَطْناً ، وَبِالسَّعَةِ ضِيقاً ، وَبِالْأَهْلِ غُرْبَةً ، وَبِالنُّورِ ظُلْمَةً ، فَجَاءُوهَا كَمَا فَارَقُوهَا ، حُفَاةً عُرَاةً ، قَدْ ظَعَنُوا عَنْهَا بِأَعْمَالِهِمْ إِلَىٰ الْحَيَاةِ الدَّائِمَةِ ، وَ الدَّارِ الْبَاقِيَةِ ، كَمَا قَالَ سُبْحَانَهُ وَ تَعَالَىٰ : ﴿كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ وَعْدًا عَلَيْنَآ إِنَّا كُنَّا فَٰعِلِينَ﴾[٢][٦] .

اللُّغة:

أَكْثَفَ : أَكْثَر . وظَهْرٍ قَاطِعٍ : مَا تَركْبه لقَطعِ الطَّرِيق . وأَرْهَقَتْهُمْ : غَطَتْهُم . وضَعْضَعَتْهُمْ : أَضْعَفَتْهُم . والْمَنَاسِمِ : أَخْفَاف كالإِبِلِ ، ونَحْوَها . ورَيْبَ ٱلْمَنُونِ : طَوَارِق الدَّهْر . وَأَخْلَدَ : رَكَنَ . والسَّغَبَ : الجُوع ، قَالَ تَعَالَىٰ : ﴿أَوْ إِطْعَٰمٌ فِى يَوْمٍ ذِى مَسْغَبَةٍ﴾[٣] . والضَّنْكَ ـ بسكون النّون ـ الضّيق . والصَّفِيح : الحِجَارَة . والأَجْنَان :

(١) فُصِّلَتْ : ١٥.
(٢) ٱلْأَنبِيَاء : ١٠٤.
(٣) ٱلْبَلَدِ : ١٤.

الْقُبُورِ، والوَاحد مِنْهَا جَنَن ـ فتح الجيم. والرُّفَاتِ: الْعِظَام البَالِيَّة. وإنْ جِيدُوا: إنْ جَادَت ٱلْسَّمَاء عَلَيْهِمْ بالْمَطَرِ.

الإِعْرَاب:

أَعْمَاراً، وما بَعْدَه تَمْييز، ورُكْبَاناً مَفْعُول ثانٍ ليُدْعَوْنَ، ويَنوب عن المَفْعُول الأَوَّل الواو في يُدْعَوْن، ومُتَدَانُونَ خَبَر لمبْتَدَأ مَحْذُوف أي هُم مُتَدَانُونَ، ومِثْله مَا بَعْدَه، وحُفَاةً عُرَاةً حَال.

الْمَعْنىٰ:

(أَلَسْتُمْ فِي مَسَاكِنِ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ أَطْوَلَ أَعْمَاراً، وَ أَبْقَىٰ آثَاراً، وَ أَبْعَدَ آمَالاً، وَ أَعَدَّ عَدِيداً، وَ أَكْثَفَ جُنُوداً). ٱلدُّنْيَا بِمَا فيها عِظَات، وعِبر، والْعَاقِل مَن نَظر إلىٰ أحدَاثها بعين اليَقظَة، وٱتْعَظ بالْأَوَّلِين الّذِين هُم أقوىٰ مِنْهُ عِدَة، وعَدداً، وأَطول أَعْمَاراً، وآجَالاً (تَعَبَّدُوا لِلدُّنْيَا أَيَّ تَعَبُّدٍ، وَ آثَرُوهَا أَيَّ إِيْثَارٍ) كلّ إنْسَانٍ يُمِيل إلىٰ الدُّنْيَا، وزِينَتِهَا، ولكن عَلَيْهِ أنْ يَتورع عن حَرامِها، ويَنظر إلىٰ العَواقب، ويُقارن بَيْنَ لذّة العَاجلة، والآلاَم الآجِلَةِ (ثُمَّ ظَعَنُوا عَنْهَا بِغَيْرِ زَادٍ مُبَلِّغٍ، وَ لاَ ظَهْرٍ قَاطِعٍ). سَافروا، ولكن بِلا زَاد، ورَاحِلة.

(فَهَلْ بَلَغَكُمْ أَنَّ الدُّنْيَا سَخَتْ لَهُمْ نَفْساً بِفِدْيَةٍ، أَوْ أَعَانَتْهُمْ بِمَعُونَةٍ، أَوْ أَحْسَنَتْ لَهُمْ صُحْبَةً) أي أنّ الْحُطَام الّذي نَالوه من الدُّنْيَا مَا فَدَاهُم من ٱلْمَوْت، وَلاَ أَعْانَهُم عند سَكراته، وَلاَ أَحسن صُحبتهُم حَيْث تَركهم إلىٰ غَيْر رَجْعَة (بَلْ أَرْهَقَتْهُمْ بِالْقَوَادِحِ، وَ أَوْهَقَتْهُمْ بِالْقَوَارِعِ، وَ ضَعْضَعَتْهُمْ بِالنَّوَائِبِ، وَ عَفَّرَتْهُمْ لِلْمَنَاخِرِ، وَ وَطِئَتْهُمْ

بِالْمَنَاسِمِ، وَ أَعَانَتْ عَلَيْهِمْ ﴿رَيْبَ ٱلْمَنُونِ﴾) بل كَانَتْ الدُّنْيَا سَبباً لأحْزَانِهم والآمِهِم (فَقَدْ رَأَيْتُمْ تَنَكُّرَهَا لِمَنْ دَانَ لَهَا، وَ آثَرَهَا، وَ أَخْلَدَ إِلَيْهَا، حِينَ ظَعَنُوا عَنْهَا لِفِرَاقِ الْأَبَدِ) أَلا تتعظُون بِمن رَكن إِلىٰ الدُّنْيَا، وجَعَلهَا مِثْله الأعلىٰ كَيْف فَارقها إِلىٰ غَيْر رَجْعَة ؟. (وَ هَلْ زَوَّدَتْهُمْ إِلاَّ السَّغَبَ، أَوْ أَحَلَّتْهُمْ إِلَّا الضَّنْكَ، أَوْ نَوَّرَتْ لَهُمْ إِلَّا الظُّلْمَةَ، أَوْ أَعْقَبَتْهُمْ إِلَّا النَّدَامَةَ) فَارقوا نَعيم الدُّنْيَا إِلىٰ الجُوع، والضِّيق، والظَّلاَم والحَسْرَة، والكآبَة.

(أَ فَهَذِهِ تُؤْثِرُونَ) أَتختَارُون الدُّنْيَا المُرهِقة، وتَترَكُون جَنَّة النَّعِيم ؟ (فَبِئْسَتِ الدَّارُ لِمَنْ لَمْ يَتَّهِمْهَا) بِالْغَدْر، وَيَحذر مِن عواقِبها (وَ ٱتَّعِظُوا فِيهَا بِالَّذِينَ قَالُوا: مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً ؟ يُشير إِلىٰ الآيَة الكريمة: ﴿فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَقَالُواْ مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَجْحَدُونَ﴾[1]. (حُمِلُوا إِلَى قُبُورِهِمْ فَلاَ يُدْعَوْنَ رُكْبَاناً). ٱلْمَيِّت يُحمل عَلىٰ الأعْوَاد إِلىٰ قَبره، ولكن لا يُقَال لهُ رَاكب، لأنّه كالصَّخرَة الصَّمَّاء (وَ أُنْزِلُوا الْأَجْدَاثَ، فَلاَ يُدْعَوْنَ ضِيفَاناً). والوَاقع أَنّهم فِي القصُور ضِيفَان، أَمّا في الْقُبُورِ فإلىٰ يَوْم يُبعثُون.

(وَ جُعِلَ لَهُمْ مِنَ الصَّفِيحِ أَجْنَانٌ، وَ مِنَ التُّرَابِ أَكْفَانٌ). يَسْكنُون الأحْجَار، ويَلبسُون التُّراب، لا يُغيرُون، وَلاَ يُبدلُون، وهُما أي الأحْجَار، والتُّراب ثَابتان حَتَّىٰ يُبدل الأرْض غَيْر الأرْض، والسَّمَاء غَيْر السَّمَاء (وَ مِنَ الرُّفَاتِ جِيرَانٌ) عِظَام بَالِيَّة تُجاور مِثْلهَا (فَهُمْ جِيرَةٌ لاَ يُجِيبُونَ دَاعِياً، وَ لاَ يَمْنَعُونَ ضَيْماً، وَ لاَ يُبَالُونَ

(١) فُصِّلَتْ: ١٥.

مَنْدَبَةً . إِنْ جِيدُوا لَمْ يَفْرَحُوا ، وَ إِنْ قُحِطُوا لَمْ يَقْنَطُوا) . ٱلْمَوْتَىٰ جَماد فِي بَطْن الْأَرْض لا يُشعرون بشَيء مِمَّا يَحدث علىٰ ظَهرها من خَصبٍ ، أو جَدْبٍ ، وسِلمٍ ، أو حَرْبٍ ، وَلاَ بِمَن يَكتب عن حَسَنَاتِهِم ، أو سَيِّئَاتِهِم ، وَلاَ بِمَن يَبكِيهم ، أو يَلعنهم .

(جَمِيعٌ وَ هُمْ آحَادٌ ، وَ جِيرَةٌ وَ هُمْ أَبْعَادٌ . مُتَدَانُونَ لاَ يَتَزَاوَرُونَ ، وَ قَرِيبُونَ لاَ يَتَقَارَبُونَ) . قبُورهم مُتلاصِقة ، ولكن لا أَحد يَشعر بوجود الآخر (حُلَمَاءُ قَدْ ذَهَبَتْ أَضْغَانُهُمْ) . تَنَاحَرُوا عَلىٰ ٱلدُّنْيَا حِين كَانوا من أَهْلِها ، ولمّا ٱرْتَحلوا عَنْهَا ٱنْقطعَت أَسْبَاب الشَّحناء ، والبَغضاء (وَ جُهَلاَءُ قَدْ مَاتَتْ أَحْقَادُهُمْ . لاَ يُخْشَىٰ فَجْعُهُمْ ، وَ لاَ يُرْجَىٰ دَفْعُهُمْ ، ٱسْتَبْدَلُوا بِظَهْرِ الْأَرْضِ بَطْناً ، وَ بِالسَّعَةِ ضِيقاً ، وَ بِالْأَهْلِ غُرْبَةً ، وَ بِالنُّورِ ظُلْمَةً) . أي لَيْسَ من شَأْنِهم أَنْ يَحقدوا عَلىٰ أحدٍ ، أو يَخاف مِنْهُم أحد بعد أَنْ أَصْبَحوا تُراباً ، وعِظاماً .

(فَجَاءُوهَا كَمَا فَارَقُوهَا ، حُفَاةً عُرَاةً) . ٱختلف الشَّارحون في مَعْنَىٰ هَذِه الجُمْلَة مَع أنّ الْإِمَامعليه السلام فَسرها بقَوْله بلا فَاصل : (قَدْ ظَعَنُوا عَنْهَا بِأَعْمَالِهِمْ إِلَىٰ الْحَيَاةِ الدَّائِمَةِ ، وَ الدَّارِ الْبَاقِيَةِ) أي دَخلوا الْقُبُور ، وهُم لا يَملكُون شَيْئَاً إلّا أَعْمَالهم كما أَنّهم عِند ٱلْمَوْت فَارقوا جَمِيع ما يَملكُون ، أمّا الإستِشْهَاد بالآيَة ٱلْكَرِيمَة فالْمُرَاد بِه أَنّ الْمَعَاد حَقّ ، لأنّ الَّذي قَدر علىٰ إنْشَاء الْأُولَىٰ قَادر أيضاً علىٰ إنْشَاء الْأُخرىٰ : ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُاْ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾(١) .

(١) ٱلرُّوم: ٢٧.

الخطبة

-١١٢-

حَقِيقَة ٱلْمَوْت:

هَلْ تُحِسُّ بِهِ إِذَا دَخَلَ مَنْزِلاً؟ أَمْ هَلْ تَرَاهُ إِذَا تَوَفَّىٰ أَحَداً؟ بَلْ كَيْفَ يَتَوَفَّىٰ الْجَنِينَ فِي بَطْنِ أُمِّهِ! أَ يَلِجُ عَلَيْهِ مِنْ بَعْضِ جَوَارِحِهَا، أَمْ الرُّوحُ أَجَابَتْهُ بِإِذْنِ رَبِّهَا؟ أَمْ هُوَ سَاكِنٌ مَعَهُ فِي أَحْشَائِهَا؟ كَيْفَ يَصِفُ إِلَهَهُ مَنْ يَعْجَزُ عَنْ صِفَةِ مَخْلُوقٍ مِثْله!

اللُّغَة:

الْجَنِينَ: المَسْتُور مِن كلّ شَيء كالمَقْبُور، والوَلد مَا دَام فِي رَحِمِ أُمّه. والجَوَارِحِ: جَمع الجَارِحَة، وتُطلق علىٰ السَّكِين، والطَّير الكَاسِر كالبَاز، وعَلىٰ العُضْو مِن ٱلإِنْسَان، وبخَاصَّة اليَد.

الْإِعْرَاب:

دَخَلَ مَنْزِلاً أَصله دَخَلَ إِلىٰ مَنْزِلٍ، فحُذف الجَار تَخفيفاً فٱنْتَصب مَنْزِل ٱنْتصَاب المَفْعُول، وكَيْفَ يَتَوَفَّىٰ «كَيْفَ» حَال أي عَلىٰ أيّة حَالٍ يَتَوَفَّىٰ، أو مَفْعُول مُطلق أي

أيّة وفَاةٍ يَتوَفّىٰ.

الْمَعْنىٰ:

لا يَعْرِف حَقِيقَة ٱلْمَوْت إلاّ من عَرف سِرّ ٱلْحَيَاة، لأنّه عَدمها. وَقَالَ المَاديُون: إنّ المَادَّة هِي المَوجُود الوَحِيد، والفِكْر، أو ٱلْحَيَاة تَبعٌ لها، وعَرَض، فَإِذَا ٱنْحَلت المَادَّة وفَسدت زَالت ٱلْحَيَاة تَبعاً، وقَهراً. وَقَالَ المثَاليُون: بل المَوجود هـو الْـفِكْر، وإنّ الْأَشْيَاء الّتي تَظنّ أَنَّهَا مَادية هِي فِي الوَاقِع كَـائنات لا وجُـود لهـا إلّا في أَفْكَـارنا وتَصورنا، وعلىٰ هَذَا تَكُون ٱلْحَيَاة، أو الْوُجُود عـلىٰ الأصـح في مَـنطقهم، هـو: الْفِكْر، والشَّيء الَّذي لا فِكر لهُ لَيْسَ لوجوده عَينٌ، وَلاَ أثر. ويَقُول الدِّين: إنّ كلاً من المَادَّة، والرُّوح أَصل، ولَيْسَ أَحدَهُما فَرعاً عن الآخر، وهُما مَعاً مـن صـنعهِ تَعَالَىٰ.

وكَمَا ٱتّفق المُتدينُون علىٰ أنّ الرُّوح، والمَادَّة مِن أَمر اللهِ، وصُنعه ٱتـفقُوا أَيـضاً علىٰ أنّ حَيَاة المَادَّة تكُون بالاِتّصَال بَيْنَ الرُّوح، والجِسم، وإنّه تَعَالىٰ يأمـر تِـلْكَ بالدّخول في هَذَاكمَا جَاء في قَوْله تَعَالىٰ: ﴿يَـٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَـئِنَّةُ ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً فَادْخُلِى فِى عِبَٰدِى وَٱدْخُلِى جَنَّتِى﴾[1] أي في أَجْسَامِهم، وأَيـضاً ٱتّفقُوا إنّ لله ملكاً يَنتزع الْأَرْوَاح من الأجْسَام، وٱخْتَلفوا: كَيْفَ؟ وبأية وسـيلة يَسْتَطِيع مَلك ٱلْمَوْت أنْ يَـقبض في وقتٍ واحـد العَـديد مـن الْأَرْوَاح مـن شَرق الْأَرْض، وغَرْبِهَا؟ وَقَالَ قَائِل: يَدعوها إِلَيْهِ، فتأتِيه مُسْرِعَة بِـإِذْنِ اللهِ، وهـو في

(١) ٱلْفَجْرِ: ٢٧ ـ ٣٠.

مَكانه. وَقَالَ آخر: بل تَكُون الأَرْض بَيْنَ يَديه كاَلْمَائِدَة يَتنَاول مِنْهَا مَا يَشاء. وَقَالَ ثَالث: إنّ له جُنُوداً من ٱلْمَلاَئِكَة تُعاونه... وَهَذَا الكلاَم، وأمثاله جَهلٌ، وهرَاء، وَلاَ سِرّ إلّا قَوْله تَعَالَىٰ: ﴿كُن فَيَكُونُ﴾. وفيما يَلي الْبَيَان:

لقَد تَساءل الإِمَام عليه السلام في كلاَمه هَذَا: مَن الَّذي أَحس حَركة لمَلك ٱلْمَوْت، أو رَأىٰ له شَبحاً؟ ثُمّ كَيْفَ يَقبض روح الجَنِين، وهُو فِي رَحِمِ أُمّه؟ أيدخل من أُذُنِها، أَم مِن فَمِها، أَم يَدعو رُوحه إِلَيْهِ فَتَسْتَجِيب بِإِذْنِ اللهِ: أَم مَاذا؟ وغَرض الإِمَام من هَذَا التَّساؤل أنْ يُعلن للنَّاس أنّ حَقِيقَة ٱلْمَوْت، وٱلْحَيَاة فِي عِلم الله وَحدَه، وأنْ يُمسك المُتَفَلسِفُون عن تَمزِيق الكلاَم في ذَلِكَ، وَيُكلوا الأَمْر إِلَيْهِ تَعَالَىٰ... وإلىٰ هَذَا أشَار الإِمَام بقَوْله: (كَيْفَ يَصِفُ إِلَهَهُ مَنْ يَعْجزُ عَنْ صِفَةِ مَخْلُوقٍ مِثْله) أي ذَاته، وأَسرَار خَلقه للمُوتِ، وٱلْحَيَاة.

وسُئل النَّبِيّ صلى الله عليه وآله وسلم عن الرُّوح، فلم يَدرِ بمَا يُجِيب، وٱلتَّجأَ إِلىٰ خَالِقه ليُمنّ عَلَيْهِ بالجَوَاب، فنزل قَوْله تَعَالَىٰ: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلاً﴾[1]. هَذَا هو الجَوَاب الأَوَّل، والأَخِير عَن حَقِيقَة الرُّوح، وكَيْفَ ٱتّصلت بالبَدن، أو ٱنْفصلت عَنْه، وَلاَ جَواب سِواه عند رَسول الله صلى الله عليه وآله، وإِذَنْ فكلّ التَّفلسفَات حَول هَذَا المَوْضُوع أَساطِير، وأَباطِيل[2].

---

(١) ٱلإِسْرَاء: ٨٥.

(٢) أنظر، ٱلرِّسَالَة الرُّوحية لمُحَمّد كَاظم الهزار جريبي الاستر أبادي من تلاميذ الوحيد البَهبهاني: ٢/١٢٢٥، ٱلرِّسَالَة الرُّوحية للأُستاذ البشر المير غياث الدِّين منصور بن المير صدر الدين الدَّشتكي الشِّيرازي المتوفّىٰ (٩٤٨ هـ)، بحَار الأَنْوَار: ٤٣/٥٨ ح ١٩، الدُّر المنثور: ٥/٣٢٩، فتح البَاري لإبْن حَجَر: ٢/٥٤، التَّخويف من النَّار لإبْن رَجب الحَنبلي: ٤٦، فيض القدير شَرح الجَامِع الصَّغِير: ٢/٣٠٧.

الخطبة

-١١٣-

العُمُرُ يَفْنَىٰ فِيهَا فَنَاءَ الزَّادِ...فِقْرَة ١:

وَأُحَذِّرُكُمُ الدُّنْيَا فَإِنَّهَا مَنْزِلُ قُلْعَةٍ، وَلَيْسَتْ بِدَارِ نُجْعَةٍ. قَدْ تَـزَيَّنَتْ بِـغُرُورِهَا، وَغَرَّتْ بِزِينَتِهَا. دَارُهَا هَانَتْ عَلَىٰ رَبِّهَا، فَخَلَطَ حَلاَلَهَا بِحَرَامِهَا، وَ خَيْرَهَا بِشَرِّهَا، وَ حَيَاتَهَا بِمَوْتِهَا، وَحُلْوَهَا بِمُرِّهَا. لَمْ يُصْفِهَا اللهُ تَعَالَىٰ لِأَوْلِيَائِهِ، وَلَمْ يَضِنَّ بِهَا عَـلَىٰ أَعْدَائِهِ. خَيْرُهَا زَهِيدٌ، وَشَرُّهَا عَتِيدٌ. وَجَمْعُهَا يَنْفَدُ، وَمُـلْكُهَا يُسْـلَبُ، وَعَـامِرُهَا يَخْرَبُ. فَمَا خَيْرُ دَارٍ تُنْقَضُ نَقْضَ الْبِنَاءِ، وَعُمُرٍ يَفْنَىٰ فِيهَا فَنَاءَ الزَّادِ، وَ مُدَّةٍ تَنْقَطِعُ ٱنْقِطَاعَ السَّيْرِ! ٱجْعَلُوا مَا ٱفْتَرَضَ اللهُ عَلَيْكُمْ مِنْ طَلَبِكُمْ، وَ ٱسْأَلُوهُ مِنْ أَدَاءِ حَقِّهِ مَـا سَأَلَكُمْ[1].

اللُّغَة:

القُلْعَة ـ بضم القَاف ـ الرُّحْلَة، يُقَال: فُلاَن عَلىٰ قُلْعَةٍ أي عَـلىٰ رُحْـلَة، وهـذَا مَجلس قُلْعَة سَاكِنه غَداً، أو بَعد غَدٍ. النُّجْعَة: طَلَب الكَلأ، والنَّاجع طَالبه.

الإِعْرَاب:

الدُّنْيَا مَنصوبة بنَزع الخَافض أي مِن الدُّنْيَا، وبِدَارِ البَاء زَائِدَة، ودَارِ خَبرَ لَيْسَتْ. ومِنْ طَلَبِكُمْ مُتعَلِّق بٱجْعَلُوا، ومِنْ أَدَاءِ حَقِّهِ مُتعَلِّق بسَأَلَكُمْ.

الْمَعْنَىٰ:

(وَ أُحَذِّرُكُمُ الدُّنْيَا فَإِنَّهَا مَنْزِلُ قُلْعَةٍ). إيَّاكُمْ وحَرَامها، فأَنْتُمْ عَنْهَا مُقلعُون، ورَاحِلُون (وَ لَيْسَتْ بِدَارِ نُجْعَةٍ) أي لا تَطلبوا الدُّنْيَا لمجرد الأكل، والشُّرب، تَمَامَاً كَمَا يُطلب الكلأ لِلأَنْعَام، وٱعْمَلُوا لهَا، وليَوم تُذخر له الذَّخَائِر (قَدْ تَزَيَّنَتْ بِغُرُورِهَا، وَ غَرَّتْ بِزِينَتِهَا). حَاكت شِباك الصَّيد، وٱصْطَادت كَثِيرِين (دَارُهَا هَانَتْ عَلَىٰ رَبِّهَا، فَخَلَطَ حَلاَلَهَا بِحَرَامِهَا، وَ خَيْرَهَا بِشَرِّهَا، وَ حَيَاتَهَا بِمَوْتِهَا، وَ حُلْوَهَا بِمُرِّهَا). هَانَتْ الدُّنْيَا علَىٰ الله سُبْحَانَهُ حَتَّىٰ أَصْبحت هَذِه الكَلِمَة: «مِنْ هَوَانِ الدُّنْيَا عَلَىٰ ٱللهِ»[1] مَثلاً يَدُور علىٰ كلِّ لِسَان، ثُمّ أشار الإِمَامعليه السلام إِلىٰ بَعْض الأمثلة لهَوَان الدُّنْيَا عَلَيْهِ تَعَالَىٰ. مِنْهَا: أنّه لم يَجعل كلَّ مَا تَشتهيه الأنفُس في ٱلدُّنْيَا حَلالاً، وحُلواً، وخَيراً، وكلّ حيّ فِيها لا يَذوق ٱلمَوْت كَمَا هو الشَّأن في جَنَّة الخُلد، بل قَرنَ ٱلْحَيَاة بٱلْمَوْت، واللَّذة بالأَلَم، والخَيْر بالشّرِّ... وبكَلِمَة: مَا مِن شَيء فيها يُسرّ إلّا وأُلصق بِهِ ما يَسُوء علىٰ النَّقيض من ٱلجَنَّة الّتي وصفها سُبْحَانَهُ بقَوْله: ﴿وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾[2].

(لَمْ يُصْفِهَا اللهُ تَعَالَىٰ لِأَوْلِيَائِهِ) بل هُم أَشد النَّاس مِحنَةً، وبَلاءً (وَ لَمْ يَضِنَّ بِهَا

---

(١) أنظر، نَهج ٱلبَلاغَة: ٱلحِكمَة (٣٨٥).

(٢) هَذِه جزء من آية، وردت في مواضع كَثيرة: مِنْهَا علىٰ سَبيل المِثَال، ٱلبَقَرَة: ٦٢.

عَلَىٰ أَعْدَائِهِ) بل صَبهَا صَباً علىٰ كَثيرٍ منهُم ، وَقَالَ : ﴿وَلَوْلَآ أَن يَكُونَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِٱلرَّحْمَـٰنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ﴾[1] . (خَيْرُهَا زَهِيدٌ ، وَ شَرُّهَا عَتِيدٌ . وَ جَمْعُهَا يَنْفَدُ ، وَ مُلْكُهَا يُسْلَبُ ، وَ عَامِرُهَا يَخْرَبُ . فَمَا خَيْرُ دَارٍ تُنْقَضُ نَقْضَ الْبِنَاءِ ، وَ عُمُرٍ يَفْنَىٰ فِيهَا فَنَاءَ الزَّادِ ، وَ مُدَّةٍ تَنْقَطِعُ ٱنْقِطَاعَ السَّيْرِ) . ضَرُها أَكْثَر من نَفعها ، مَاها إِلىٰ نَفاد ، وعُمرانها إِلىٰ خَراب ، والْعُمُر فيها إِلىٰ فَناء ، وسُلطانُها يَنتقل من يَدٍ إِلىٰ يَد ، وأمدُها يَنتهي بكَرّ اللّيالي ، والأَيّام .

(ٱجْعَلُوا مَا ٱفْتَرَضَ اللهُ عَلَيْكُمْ مِنْ طَلَبِكُمْ) . ٱلحَيَاة حُقُوق ، وواجبات ، وٱلحَقّ مَا كَانَ لَكَ ، والوَاجب مَا يُلزمك آدَاؤه . . . وعَلَيْكَ أَنْ تَهتم بأداء مَا عَلَيْكَ لله ، وللنَّاس تَمَاماً كما تَهتم بَطلب مَا هو لَكَ (وَ ٱسْأَلُوهُ مِنْ أَدَاءِ حَقِّهِ مَا سَأَلَكُمْ) . ٱطلبوا من الله التَّوفِيق ، والعَون علىٰ القِيام بمَا عَلَيْكُمْ من وَاجبات كما سَأَلَكُمْ هو أَنْ تَقُوموا بِحَقّه وحَقّ عِبَادِه . . . والتَّوفِيق مأخُوذ من الموافقة ، وَهِي هُنا موافَقة عَمل العَبد لِمرضَاة سَيّدَه .

أَسْمِعُوا دَعْوَةَ الْمَوْتِ...فِقْرَة ٢ ـ ٣:

وَأَسْمِعُوا دَعْوَةَ الْمَوْتِ آذَانَكُمْ قَبْلَ أَنْ يُدْعَىٰ بِكُمْ . إِنَّ الزَّاهِدِينَ فِي الدُّنْيَا تَبْكِي قُلُوبُهُمْ وَإِنْ ضَحِكُوا ، وَيَشْتَدُّ حُزْنُهُمْ وَإِنْ فَرِحُوا ، وَيَكْثُرُ مَقْتُهُمْ أَنْفُسَهُمْ وَإِنِ آغْتَبَطُوا بِمَا رُزِقُوا . قَدْ غَابَ عَنْ قُلُوبِكُمْ ذِكْرُ الآجَالِ ، وَحَضَرَتْكُمْ كَوَاذِبُ الآمَالِ ،

(١) ٱلزُّخْرُفِ: ٣٣.

فَصَارَتِ الدُّنْيَا أَمْلَكَ بِكُمْ مِنَ الآخِرَةِ ، وَالْعَاجِلَةُ أَذْهَبَ بِكُمْ مِنَ الآجِلَةِ ، وَإِنَّمَا أَنْتُمْ إِخْوَانٌ عَلَىٰ دِينِ اللهِ ، مَا فَرَّقَ بَيْنَكُمْ إِلَّا خُبْثُ السَّرَائِرِ ، وَسُوءُ الضَّمَائِرِ . فَلاَ تَوَازَرُونَ ، وَلاَ تَنَاصَحُونَ ، وَلاَ تَبَاذَلُونَ ، وَلاَ تَوَادُّونَ[٢] . مَا بَالُكُمْ تَفْرَحُونَ بِالْيَسِيرِ مِنَ الدُّنْيَا تُدْرِكُونَهُ ، وَلاَ يَحْزُنُكُمُ الْكَثِيرُ مِنَ الآخِرَةِ تُحْرَمُونَهُ ! وَيُقْلِقُكُمُ الْيَسِيرُ مِنَ الدُّنْيَا يَفُوتُكُمْ ، حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ ذَلِكَ فِي وُجُوهِكُمْ ، وَ قِلَّةِ صَبْرِكُمْ عَمَّا زُوِيَ مِنْهَا عَنْكُمْ ! كَأَنَّهَا دَارُ مُقَامِكُمْ ، وَ كَأَنَّ مَتَاعَهَا بَاقٍ عَلَيْكُمْ ، وَ مَا يَمْنَعُ أَحَدَكُمْ أَنْ يَسْتَقْبِلَ أَخَاهُ بِمَا يَخَافُ مِنْ عَيْبِهِ ، إِلَّا مَخَافَةُ أَنْ يَسْتَقْبِلَهُ بِمِثْلِه . قَدْ تَصَافَيْتُمْ عَلَىٰ رَفْضِ الآجِلِ ، وَ حُبِّ الْعَاجِلِ ، وَصَارَ دِينُ أَحَدِكُمْ لُعْقَةً عَلَىٰ لِسَانِهِ ، صَنِيعَ مَنْ قَدْ فَرَغَ مِنْ عَمَلِهِ ، وَأَحْرَزَ رِضَىٰ سَيِّدِهِ[٣] .

اللُّغَة:

فَلاَ تَوَازَرُونَ : لاَ تَتَعَاوَنُون . لاَ تَبَاذَلُونَ : لاَ يُعطِي بَعْضُكُمْ بَعضاً . وَزُوِيَ : نُحِّيَ . ولُعْقَةً ـ بضم اللاَّم ـ مَا تَأخذه اللَّعْقَة .

الإِعْرَاب:

مَا بَالُكُمْ مُبْتَدأ ، وخَبَر ، والْمَصْدَر من أَنْ يَسْتَقْبِلَ مَجرور بِمِن مَحْذُوفَة ، ومَخَافَةُ فَاعِل يَمنع ، وصَنِيعَ نُصب علىٰ الْمَصْدَرِيَة أي صَنعتم صَنِيعَ مَنْ قَدْ فَرَغَ مِنْ عَمَلِهِ . . أو صَنِيعاً مثل صَنِيع .

الْمَعْنىٰ:

(وَ أَسْمِعُوا دَعْوَةَ الْمَوْتِ آذَانَكُمْ قَبْلَ أَنْ يُدْعَىٰ بِكُمْ) . آسْتَجِيبُوا لِدَاعِي ٱلْمَوْت

قَبل نزُوله بكُم، واْعْمَلوا لهُ كأنّكم الآن ترُون شَخصَه، وتَسمعُون صَوْته وإلّا أَخْذكُم من حَيْث لا تُشْعِرُون، وقَبل أنْ تُعدوا لهُ عِدتَه (إِنَّ الزَّاهِدِينَ فِي الدُّنْيَا تَبْكِي قُلُوبُهُمْ وَ إِنْ ضَحِكُوا، وَ يَشْتَدُّ حُزْنُهُمْ وَ إِنْ فَرِحُوا، وَ يَكْثُرُ مَقْتُهُمْ أَنْفُسَهُمْ وَ إِنِ اغْتَبَطُوا بِمَا رُزِقُوا). الكآبَة سِمَة الخيرين، وقلَما تُفارقهُم وإنْ أَقبلت الدُّنْيا عَلَيْهِمْ، ذَلِكَ إنّهم يَرجُون من الله الرَّحْمَة، ما في ذَلِكَ رَيب، ولَكِنَّهُمْ يُخافُون ذنُوبهم، ويَتهمُون أنْفسهم بأَنَّهَا لا تُبدي نَشاطاً في طَاعَة الله كَمَا يَجب (قَدْ غَابَ عَنْ قُلُوبِكُمْ ذِكْرُ الْآجَالِ، وَ حَضَرَتْكُمْ كَوَاذِبُ الْآمَالِ، فَصَارَتِ الدُّنْيَا أَمْلَكَ بِكُمْ مِنَ الْآخِرَةِ، وَ الْعَاجِلَةُ أَذْهَبَ بِكُمْ مِنَ الْآجِلَةِ). عَبَدتُم الدُّنْيا، واْستولت علىٰ قلوبكُم، وعقولكُم بآمَالها الكَاذبة، وزِينَتهَا البَاطلة، وقَطعت كلّ عِلاَقَة بَيْنَكُمْ وبَيْنَ الآخِرَة.

اَلْمَذاهِبُ اَلْأَرْبَعَة:

(وَ إِنَّمَا أَنْتُمْ إِخْوَانٌ عَلَىٰ دِينِ اللهِ، مَا فَرَّقَ بَيْنَكُمْ إِلَّا خُبْثُ السَّرَائِرِ، وَ سُوءُ الضَّمَائِرِ). أَلسْتُم علىٰ دِين الإِسْلاَم؟ وهو وَاحد لا اْختلاَف فيهِ، لأنّ مَصْدَره الوَحي الَّذي يَنطق بعضه بِبَعْض، ويَشهد بعضهُ علىٰ بعضٍ: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا﴾[1]. وإِذَنْ فلاَ سَبب للخِصَام، والصّراع إلّا الأَهْوَاء، والأَغْرَاض.

وتَسْأَل: إنّ أَكْثَر الإِخْتِلاَفات، أو الكَثِير مِنْهَا بَيْنَ عُلَمَاء المُسْلِمين في الأُمُور الدِّينيَّة ـ يَرجع إِلىٰ النَّظر، والاِجْتِهَاد، فكَيْفَ حَصر الإِمَام الإِخْتِلاَف بِخُبْثُ

(١) اَلنّسَاء: ٨٢.

السَّرَائِرِ، وَ سُوءُ الضَّمَائِرِ؟.

الجَوَاب:

إنّ قَول الإمَام: «مَا فَرَّقَ بَيْنَكُمْ» مَعناه ما جَعلكُم فُرَقاً وشِيَعاً مُتنَاحِرَة إلّا خُبْث السَّرَائِر، لأنّ الإخْتِلاَف في النَّظر، ولمجَرد الاجْتهَاد ـ لا يُوجب التَّفرقَة، والعَدَاء... والَّذي يُؤيد إرَادَة الإمَام لهَذا المَعْنىٰ قَوْله بِلاَ فَاصل: (فَلاَ تَوَازَرُونَ، وَ لاَ تَنَاصَحُونَ، وَ لاَ تَبَاذَلُونَ، وَ لاَ تَوَادُّونَ).

وبهَذه المُناسبة نُشير إلىٰ أنّ جَريدة «الجمهُورية» المِصْرية[1]، نشرَت لأحد القُراء هَذَا السّؤال: «هل يَجب علىٰ المُسْلِم أنْ يَتقيد في أعْمَاله بوَاحد من ٱلمَذَاهِبِ ٱلأرْبَعَة: المَالكي، والحَنفي، والشَّافعي، والحَنبلي؟» ومنذُ سنوات سُئل المَرحُوم الشَّيخ محمود شَلتوت هَذَا السّؤال، وكَانَ آنذاك شَيخاً للأزهر، فأجاب بأنّ التَّقيد بخصوص هَذِه ٱلمَذَاهِب دُونَ غَيْرها ـ ما أنزل الله بِهِ من سُلطان، وإنّ للمُسلم أنْ يختار ٱلْعَمَل بٱلمَذَاهِب الجَعْفَري. وٱنتشرت فتوَاه هَذِه في جَمِيع البَلاد الإسْلاَميّة.

وبعد أنْ ٱنتقل شَلتوت إلىٰ ربّه قَالَ شَيخ أزهَري، ٱسمهُ الشَّيخ صَالح شَرف: «عَلىٰ المُسْلِم أنْ يُقلد مَذْهَباً من هَذِه ٱلمَذَاهِب ٱلأرْبَعَة». ونُشر قَوْله هَذَا فِي العَدد الَّذي أشرنا إلَيْهِ من جَريدة «الجمهُورية». ورَدّ عَلَيْهِ الشَّيخ مُحَمّد صَالح سعدان، وَقَالَ: «إنّ الشَّيخ صَالح شَرف قَد أوجب بفتواه مَا لم يوجبه الله، ورَسُوله، ولم يَرد بِهِ كتاب، وَلاَ سُنَّة، والله يَقُول: ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَـٰٓؤُاْ شَرَعُواْ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنۢ

(١) أنظر، العَدد ٣١ ـ ٤ ـ ١٩٧٢م. (مِنْهُ ﷺ).

بِهِ ٱللَّهُ وَلَوْلَا كَلِمَةُ ٱلْفَصْلِ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّ ٱلظَّـٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾[1] ورسولنا ٱلْكَرِيمِ يَقُول: «مَن أَحدث في دِيننا هَذَا ما لَيْسَ فِيهِ فَهُوَ رَدّ»[2]. وقد كَانَ الأَوْلىٰ بالشّيخ في فتواه أنْ يُرشد السَّائل إلىٰ أنّه لا يَجب التَّقيد بمَذْهبٍ مِن ٱلْمَذَاهِب ٱلأَرْبَعَة»[3].

وفي «الجمهُورية» نَشر السَّيِّد مُحَمّد أَحمد كُشك ـ من مِصْر ـ كَلِمَة أَيد فيها الشَّيخ سَعدان، وَقَالَ فيما قَالَ: «إنّ الّذِين يُوجبون الإلتزام بِٱلْمَذَاهِبِ ٱلأَرْبَعَة يُحرمون حَقّ النَّظر، والْبَحْث في كتاب الله، وسُنَّة رَسُوله، وآلْعَمَل بثمرتهما، ويَترتب علىٰ ذَٰلِكَ فتور الهِمم، وتوقف الفِقْه»[4].

وتَدل هَذِه المَعْرَكَة أنّ عهد التَّقليد الأَعْمَىٰ قَد وَلىٰ أو كَاد، وإنّ رَايَة الْحَقّ لا بُد أنْ تَعلو، ولو بَعد حِين... لقد اتفق ٱلْمُسْلِمُون قَوْلاً واحداً، وقَدِيماً، وحَدِيثاً علىٰ أنّ الجَاهِل عَلَيْهِ أنْ يقلد العَالم المُخلص في الأُمُور الدِّينيَّة، والزَّمنية كالطبّ، والهندسَة وإلّا انسد عَلَيْهِ بَاب ٱلْعَمَل، ولَيْسَ هَذَا من التَّقليد الأَعْمَىٰ في شَيء، لأنّ التَّقليد الْبَاطِل هُو أنْ يُقلد الجَاهِل جَاهلاً، والعَالم عَالماً، أمّا تقليد الجَاهِل للعَالم فَعلىٰ الأُصُول.

---

(١) ٱلشُّورَىٰ: ٢١.

(٢) أُنظر، الفِرْدَوْس بمأثور الخِطَاب: ٣/٥٧٩ ح ٥٨١٢، تَهْذِيب الكَمَال: ١٨/٤٦٥، صَحِيح البُخَارِيّ: ٢/٩٥٩ ح ٢٥٥٠، سُنَن أبي داود: ٤/٢٠٠ ح ٤٦٠٦، مُسْنَد أبي يعلىٰ: ٨/٧٠ ح ٤٥٩٤، المنتقىٰ لِابْن الجَارُود: ١/٢٥١ ح ١٠٠٢، مُسْنَد أبي عوانة: ٤/١٧١ ح ٦٤٠٨، الإعتقاد: ١/٢٢٩، تغليق التَّعليق: ٣/٣٩٦ ح ٢٦٩٧، إعتقاد أَهْل السُّنَّة: ١/١١٩ ح ١٩١.

(٣) أُنظر، جَرِيدة الجمهُورية المِصْرية: عَدد ٧ ـ ٤. (مِنْهُ ﷺ).

(٤) أُنظر، جَرِيدة الجمهُورية المِصْرية: عَدد ١٤ ـ ٤. (مِنْهُ ﷺ).

وٱختلف الشِّعية، والسُّنَّة في فَتح بَاب الاِجْتهاد للأكفاء من غَيْر الأَئِمَّة الأَرْبَعَة.. فَقَالَ الشِّيعة: إنّ بَاب الاِجْتهَاد مَفتوح لكلّ كَفؤ، وطَرِيقه مَسلوك لكلّ من تأَهْل بمُؤهلاَته من الأَوَّلِين، والآخرين. وَقَالَ السُّنَّة ـ علىٰ وَجه العُموم ـ: كلاّ، إنّ بَاب الاِجْتهَاد موصُود، وطَرِيقه مَسدود بعد الأَرْبَعَة... ومن جُمْلَة مَا رَدّ بِهِ الشِّيعة علىٰ السُّنَّة أنّه علىٰ قَولهم هَذَا يجب أنْ يَنحصر أَهْل الذّكر بالأَئِمَّة الأَرْبَعَة في قَوْله تَعَالىٰ: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِمْ فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾[1]. وَلاَ قَائِل بذلك حَتَّىٰ من أَهْل السُّنَّة... وبعد حِينٍ من الدَّهْر قَالَ كَثِير من عُلَمَاء السُّنَّة بِمقالة الشِّيعة، وعمّا قَرِيب تَجْتَمِع كَلمتهُم علىٰ فَتح بَاب الاِجْتهَاد، وعَلىٰ طُول الزّمن يَحِقّ الْحَقّ، وَلاَ يَبْقَىٰ للاِخْتلاَف عينٌ، وَلاَ أَثر، إنْ شَاء الله... وما ذَلِكَ عَلَيْهِ بعزِيز[2].

(مَا بَالُكُمْ تَفْرَحُونَ بِالْيَسِيرِ مِنَ الدُّنْيَا تُدْرِكُونَهُ، وَ لاَ يَحْزُنُكُمُ الْكَثِيرُ مِنَ الآخِرَةِ تُحْرَمُونَهُ). أَتكثِرُون الفرَح، والسُّرُور بالتَّافه الفَاني تَنالونه من دُنْيَاكُم، وَلاَ تَأسفون علىٰ الدَّائم الغَالي بفوتكُم من آخرتكُم؟ (وَ يُقْلِقُكُمُ الْيَسِيرُ مِنَ الدُّنْيَا يَفُوتُكُمْ، حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ ذَلِكَ فِي وُجُوهِكُمْ، وَ قِلَّةِ صَبْرِكُمْ عَمَّا زُوِيَ مِنْهَا عَنْكُمْ! كَأَنَّهَا دَارُ مُقَامِكُمْ، وَكَأَنَّ مَتَاعَهَا بَاقٍ عَلَيْكُمْ) لمَاذا تَذهب نفُوسكم أَسىً علىٰ مَافَات من الْحُطَام. وفتتغير أَلوانكُم، وتفقدُون الصَّبر من أَجله. فهل الْحُزْن يُرجع ما قَد

(١) ٱلأَنبِيَاء: ٧.

(٢) أُنظر، ما كتبناه في مجلة التَّقريب بَيْنَ ٱلْمَذَاهِب الإسْلاَمِيَّة، والّتي تصدر عن المَجْمَع العَالمي للتَّقريب في الجمهورية الإسْلاَمِيَّة في إيران، تحت عنوان الاجتهاد وآثره في الشَّريعة الإسْلاَمِيَّة، والاِجْتهَاد بَيْنَ الاِنْفتَاح والاِنْغلاَق: العدد ١ ـ ٣ ـ ١٤١٤ هـ.

فَات ؟. قيل لبُزُرْجمهر: «ما رأيناك تَأسف علىٰ مَافَات، وَلاَ تَفرح بِمَا هُو آت. قَالَ: لأنّ الفائِت لا يَتلافىٰ بالْعِبْرَة، والآتي لا يُستدام بالحبرة... إنّي لا أقول لشَيء لَم يكُن ليته كَان، وَلاَ لشَيء كَان ليته لَم يكُن»[1].

(وَ مَا يَمْنَعُ أَحَدَكُمْ أَنْ يَسْتَقْبِلَ أَخَاهُ بِمَا يَخَافُ مِنْ عَيْبِهِ، إِلَّا مَخَافَةُ أَنْ يَسْتَقْبِلَهُ بِمِثْله). أَجل، والله هَذَا هو دَأبنا... لا نُجابه أَحداً بعيُوبه مَخافة أنْ يُجابهنا بالمِثل، لأنّ فينا ما فِيهِ، وزِيَادَة، ولو وقف الأَمْر عند هَذَا لهَان بَعْض الشَّيء، بل نُثني عَلَيْهِ في وجهه. ونُشجعه علىٰ أسوائِه، ثُمّ نَنهشهُ في غَيبته (قَدْ تَصَافَيْتُمْ عَلَىٰ رَفْضِ الْآجِلِ، وَ حُبِّ الْعَاجِلِ). هَذَا ومَا قبله شَرح، وبَيَان للعَدِيد من آيات ٱلْقُرْآن ٱلْكَرِيمِ، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّ هَـٰٓؤُلَآءِ يُحِبُّونَ ٱلْعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَآءَهُمْ يَوْمًا ثَقِيلاً﴾[2]. وَقَالَ: ﴿وَتَأْكُلُونَ ٱلتُّرَاثَ أَكْلاً لَّمًّا وَتُحِبُّونَ ٱلْمَالَ حُبًّا جَمًّا﴾[3]. وقُلنا مَرَّات: لاَ بأس بحُبّ ٱلْمَال كِتَاباً، وسُنّة إذَا جُمع من حلٍّ، وأُنفق في حِلٍّ، والمذمُوم منهُ ما يطغىٰ علىٰ الدّين، والضّمِير، وإِلَيْهِ يُومىء قَوْل الْإِمَامعليه السلام: (وَ صَارَ دِينُ أَحَدِكُمْ لُعْقَةً عَلَىٰ لِسَانِهِ) أي أَصْبَحَ الدِّين عِنْدَكُم مُجرد شِعَارات تَمَاماً كما هُو فِي زَمَاننا!.. إنّه أَذانٌ في المآذن، وتِلاوة ٱلْقُرْآن في الاذَاعة، وإقَامة الحفلاَت للثّرثَرة، وعَرض المَقدرة علىٰ الكلاَم، وَقَالَ سَيّد الشُّهداء الإِمَام الحُسَيْنعليه السلام: «إنّ النّاس عَبيد الدُّنْيَا، والدِّين لَعِقٌ علىٰ أَلسِنتهم يَحوطونه ما دَرت مَعايشهم، فَإِذَا مُحصوا بالْبَلاَء قلّ

---

(١) أنظر، تَفسِير القُرطُبي: ٢٥٨/١٧.

(٢) ٱلإِنْسَان: ٢٧.

(٣) ٱلْفَجْر: ١٩ ـ ٢٠.

الدَّيانُون»[1]. أمّا قَوْل الإمَامِ عليه السلام: (صَنِيعَ مَنْ قَدْ فَرَغَ مِنْ عَمَلِهِ، وَ أَحْرَزَ رِضَىٰ سَيِّدِهِ) فمعناهُ ما لكُم لا تُفكرون فِي آخرتكُم حَتَّىٰ كأنّكم غَيْر مَسْئُولِين عَن شَيء، وَلاَ تُحاسَبُون علىٰ شَيء، لأنّكم أَدَّيْتُم إلىٰ الله جَمِيع حُقُوقه، ومَا بَقِي لهُ عَلَيْكُمْ حُجّة، وَلاَ سُلطان.

(١) أنظر، تُحف الْعُقُول: ٢٤٥، مقتل الإمَام الحُسَيْن للخوَارِزْمِي: ١/٢٣٧، كشف الغمة: ٢/٢٤١، بحَار الأَنْوَار: ٤٤/٣٨٣ و: ٧٨/١١٧.

الخطبة

-١١٤-

إِيمَانَ مَنْ عَايَنَ الْغَيْب...فِقْرَة ١ ـ ٣:

الْحَمْدُ للهِ الْوَاصِلِ، الْحَمْدَ بِالنِّعَمِ، وَ النِّعَمَ بِالشُّكْرِ. نَحْمَدُهُ عَلَىٰ آلاَئِهِ، كَمَا نَحْمَدُهُ عَلَىٰ بَلاَئِهِ. وَ نَسْتَعِينُهُ عَلَىٰ هَذِهِ النُّفُوسِ الْبِطَاءِ عَمَّا أُمِرَتْ بِهِ، السِّرَاعِ إِلَىٰ مَا نُهِيَتْ عَنْهُ. وَنَسْتَغْفِرُهُ مِمَّا أَحَاطَ بِهِ عِلْمُهُ، وَأَحْصَاهُ كِتَابُهُ: عِلْمٌ غَيْرُ قَاصِرٍ، وَكِتَابٌ غَيْرُ مُغَادِرٍ، وَنُؤْمِنُ بِهِ إِيمَانَ مَنْ عَايَنَ الْغُيُوبَ، وَوَقَفَ عَلَىٰ الْمَوْعُودِ، إِيمَاناً نَفَىٰ إِخْلاَصُهُ الشِّرْكَ، وَيَقِينُهُ الشَّكَّ. وَنَشْهَدُ أَنْ لاَ إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لاَ شَرِيكَ لَهُ، وَأَنَّ مُحَمَّداً صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ، عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، شَهَادَتَيْنِ تُصْعِدَانِ الْقَوْلَ، وَتَرْفَعَانِ الْعَمَلَ. لاَ يَخِفُّ مِيزَانٌ تُوضَعَانِ فِيهِ، وَلاَ يَثْقُلُ مِيزَانٌ تُرْفَعَانِ عَنْهُ(١).

أُوصِيكُمْ، عِبَادَ اللهِ، بِتَقْوَىٰ اللهِ الَّتِي هِيَ الزَّادُ وَبِهَا الْمَعَاذُ: زَادٌ مُبْلِغٌ، وَمَعَاذٌ مُنْجِحٌ. دَعَا إِلَيْهَا أَسْمَعُ دَاعٍ، وَوَعَاهَا خَيْرُ وَاعٍ. فَأَسْمَعَ دَاعِيهَا، وَفَازَ وَاعِيهَا.

عِبَادَ اللهِ، إِنَّ تَقْوَىٰ اللهِ حَمَتْ أَوْلِيَاءَ اللهِ مَحَارِمَهُ، وَأَلْزَمَتْ قُلُوبَهُمْ مَخَافَتَهُ، حَتَّىٰ أَسْهَرَتْ لَيَالِيَهُمْ، وَأَظْمَأَتْ هَوَاجِرَهُمْ، فَأَخَذُوا الرَّاحَةَ بِالنَّصَبِ، وَالرِّيَّ بِالظَّمَإِ، وَاسْتَقْرَبُوا الْأَجَلَ «فَبَادَرُوا الْعَمَلَ، وَكَذَّبُوا الْأَمَلَ فَلاَحَظُوا الْأَجَلَ». ثُمَّ إِنَّ الدُّنْيَا

دَارُ فَنَاءٍ وَعَنَاءٍ، وَغِيَرٍ وَعِبَرٍ، فَمِنَ الْفَنَاءِ أَنَّ الدَّهْرَ مُوتِرٌ قَوْسَهُ، لاَ تُخْطِئُ سِهَامُهُ، وَلاَ تُؤْسَىٰ جِرَاحُهُ. يَرْمِي الْحَيَّ بِالْمَوْتِ، وَالصَّحِيحَ بِالسَّقَمِ، وَالنَّاجِيَ بِالْعَطَبِ. آكِلٌ لاَ يَشْبَعُ، وَشَارِبٌ لاَ يَنْقَعُ(٢). وَمِنَ الْعَنَاءِ أَنَّ الْمَرْءَ يَجْمَعُ مَا لاَ يَأْكُلُ، وَيَبْنِي مَا لاَ يَسْكُنُ، ثُمَّ يَخْرُجُ إِلَىٰ اللهِ تَعَالَىٰ لاَ مَالاً حَمَلَ، وَلاَ بِنَاءً نَقَلَ! وَمِنْ غِيَرِهَا أَنَّكَ تَرَىٰ الْمَرْحُومَ مَغْبُوطاً، وَالْمَغْبُوطَ مَرْحُوماً، لَيْسَ ذَلِكَ إِلَّا نَعِيماً زَلَّ، وَبُؤْساً نَزَلَ. وَمِنْ عِبَرِهَا أَنَّ الْمَرْءَ يُشْرِفُ عَلَىٰ أَمَلِهِ فَيَقْتَطِعُهُ حُضُورُ أَجَلِهِ. فَلاَ أَمَلٌ يُدْرَكُ، وَلاَ مُؤَمَّلٌ يُتْرَكُ. فَسُبْحَانَ اللهِ مَا أَعَزَّ سُرُورَهَا! وَأَظْمَأَ رِيَّهَا! وَأَضْحَىٰ فَيْئَهَا! لاَ جَاءٍ يُرَدُّ، وَلاَ مَاضٍ يَرْتَدُّ فَسُبْحَانَ اللهِ، مَا أَقْرَبَ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ لِلَحَاقِهِ بِهِ، وَأَبْعَدَ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ لِانْقِطَاعِهِ عَنْهُ(٣)!

اللُّغَة:

بِطَاء: جَمع بَطِيئَة. والسِّرَاع: جَمع سَرِيعَة. وغَيْرُ مُغَادِرٍ: غَيْرُ تَارِك. والزَّاد المُبْلغ: الكَافِي بِلا زِيَادَة. وَوَعَاهَا: فَهِمهَا. وهَوَاجِرَ: جَمع هَاجِرَة، وَهِي نِصف النَّهار فِي القَيْظ. والنَّصَبِ: التَّعَبُ. وَغِيَرَ الدَّهْر: أَحْدَاثه. وَعِبَرَه: عِظَاتِه. وأَوْتَر القَوْس: جَعل لهَا وَتراً. وتُؤْسَىٰ: تُداوَىٰ. وَلاَ يَنْقَعُ عَطْشَه: لاَ يَسْكُنُ. وَالْمَرْحُومَ: مِن تَرِق لهُ. وَالْمَغْبُوطَ: مَن تُود أَنْ يَكون حَالك كحَاله. زَلَّ: سَقطَ، أو مَرَّ مُسْرِعاً.

الإِعْرَاب:

الْحَمْدُ الأُولَىٰ مُبْتَدأ، وللهِ خَبَر، والْحَمْدَ الثَّانِيَة مَفْعُول للوَاصِل، وعِلْمٌ بَدل عن عِلْمُه، وكِتَابٌ بدل من كِتَابُه، وَإِيمَاناً بَدل من إِيمَان، وَيَقِينُهُ عَطف علىٰ إِخْلاَصُهُ،

ومَحَارِمَهُ مَفْعُول ثانٍ لِحَمَتْ، أو مَنصوب بِنزع الخَافِض، لأنّ «حَمَتْ» بِمَعْنَىٰ مُنْعَتْ، ولكَ أنْ تقول: مَنعني حَقِّي، وعن حَقِّي، ومَخَافَتَهُ مَفْعُول ثانٍ لأَلْزَمَتْ، وقَوْسَهُ مَفْعُول مُوتِرٌ، وآكِلُ خَبَرَ لمُبْتَدأ مَحْذُوف أي هُو، وَمِنَ الْعَنَاءِ خَبَرَ مُقدَّم، والمَصْدَر من أَنَّ الْمَرْءَ.. إلخ، مُبْتَدأ مُؤَخَّر أي كَون الْمَرْء، ومِثْله مِنْ غيرِهَا، ومَالاً مَفْعُول حَمَلَ، وَلاَ بِنَاءً مَفْعُول نَقَلَ، والجُمْلَة حَال من الضَّمِير المُستتر فِي يَخْرُجُ، وَمَا أَعَزَّ «مَا» مُبْتَدأ بِمَعْنَىٰ شيء، وأَعَزَّ فعل مَاضٍ، والفَاعل مُستتر، والجُمْلَة خَبَر، وسُرُورَهَا مَفْعُول، ومَعْنَىٰ الكلاَم التَّعجُب.

الْمَعْنىٰ:

(الْحَمْدُ للهِ الْوَاصِلِ، الْحَمْدَ بِالنِّعَمِ). جَعل سُبْحَانَهُ الْحَمْدُ، والشُّكْر سَبباً لِنِعَمِهِ عَلَىٰ الشَّاكِرِين: ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِى لَشَدِيدٌ﴾[1]. (وَ النِّعَمَ بِالشُّكْرِ) وأيضاً جَعَلَ النِّعَم سَبَباً لوجُوب الشُّكْر: ﴿فَابْتَغُواْ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزْقَ وَٱعْبُدُوهُ وَٱشْكُرُواْ لَهُۥٓ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾[2]. وإذَنْ فالشُّكْر يُؤثر، ويتَأثر: يُؤَثر الشُّكْر بالنِّعْمَة لأنّه من أَسْبَاب وجودها، وتُؤثر النِّعْمَة بهِ لِأَنَّهَا سَبب لوجُوبه.. وللشُّكْرِ مظاهر، مِنْهَا: أنْ نرىٰ النِّعْمَة من الله، لا من سِواه. ومِنْهَا: أنْ نَعبده بالصَّومِ، والصَّلاَة، وأهمُّها أنْ نُشرك فيها عِيَال الله، وَلاَ نُعصيه فِي شَيء.

(نَحْمَدُهُ عَلَىٰ آلاَئِهِ، كَمَا نَحْمَدُهُ عَلَىٰ بَلاَئِهِ). ومَعْنَىٰ حَمْد الْمُؤْمِن عِند الْبَلاَء أنْ يَصبر وَلاَ يَتذمر، ويَعمل للخَلاَص ما ٱستطَاع، ولاَ ييأَس مِن رَّوْحِ ٱللهِ، وإنْ طَال

(١) إبْرَاهِيم: ٧.
(٢) ٱلعَنكَبُوت: ١٧.

الْبَلاَء ، ومن البَديهي أنّ من عَرف عَظمة الله ، ووثقَّ بحِكْمَته يرضىٰ بِقضَائه آشْتَدت وطأته (وَ نَسْتَعِينُهُ عَلَىٰ هَذِهِ النُّفُوسِ الْبِطَاءِ عَمَّا أُمِرَتْ بِهِ) النَّفْس تتثاقل إلّا عن مَلذَاتها ، وهو تَعَالَىٰ أملك بهَا مِنّا ، وعَلينا أنْ نَسْتَعِين بـهِ ليكُـفَّ عـنّا فـجُورها ، وشِقَاها (وَ نَسْتَغْفِرُهُ مِمَّا أَحَاطَ بِهِ عِلْمُهُ ، وَ أَحْصَاهُ كِتَابُهُ) من السَّيِّئَات ، والهَـفوَات (عِلْمٌ غَيْرُ قَاصِرٍ) ﴿لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَآ أَصْغَرُ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرُ إِلَّا فِى كِتَـٰبٍ مُّبِينٍ﴾[1] (وَكِتَابٌ غَيْرُ مُغَادِرٍ) ﴿صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَـٰهَا وَوَجَدُوا۟ مَا عَمِلُوا۟ حَاضِرًا وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾[2] .

(وَ نُؤْمِنُ بِهِ إِيمَانَ مَنْ عَايَنَ الْغُيُوبَ ، وَ وَقَفَ عَلَىٰ الْمَوْعُودِ ، إِيمَاناً نَفَىٰ إِخْلاَصُهُ الشِّرْكَ ، وَ يَقِينُهُ الشَّكَّ . وَ نَشْهَدُ أَنْ لاَ إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لاَ شَرِيكَ لَهُ ، وَ أَنَّ مُـحَمَّداً ﷺ ، عَبْدُهُ وَ رَسُولُهُ) نُؤمن بالله ، والْيَوْم الآخر ، وبحسَابه وجزَائِه إيمَان مَـن رَأىٰ بالْعَيْن ، ولمَس باليَد ، وَلاَ يَبلغ من الْعِلْم بالله هَذَا المَدىٰ إلّا من أدرك آياتِه في خَلقهِ ، وعَرف خَصَائِص الكَوْن في نِظامِه ، وقَوَانِينه (شَهَادَتَيْنِ) : الأُولَىٰ لله بالوحدانـية ، والثَّانِيَة لمُحَمّد بالْرِّسَالَة (تُصْعِدَانِ الْقَوْلَ ، وَ تَرْفَعَانِ الْعَمَلَ) . يُشير إِلىٰ قَوْله تَعَالَىٰ : ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّـٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ﴾[3] . ولَـيْسَ مـن شك أنّ الشَّهَادَتَيْن أَطيب الكلاَم ، وأنّ ٱلْعَمَل بدون كَلِمَة الإخْلاَص نَاقص أيّاً كَانَ نَوْعه (لاَ يَخِفُّ مِيزَانٌ تُوضَعَانِ فِيهِ ، وَ لاَ يَثْقُلُ مِيزَانٌ تُرْفَعَانِ عَنْهُ) إنّ كَـلِمَة الإِخْـلاَص تَثقل الميزَان ، ولكن بشرطها ، وهو ٱلْعَمَل ، والدَّلِيل قَوْله تَعَالَىٰ : ﴿كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ

---

(١) سَبَأ : ٣.

(٢) ٱلْكَهف : ٤٩.

(٣) فَاطِر : ١٠.

أَن تَقُولُواْ مَا لَاتَـفْعَلُونَ﴾[١]. وبكَلِمَة : إنّ كلاً من الْعَمَل النَّافع ، والشَّهَادتَيْن جُـزء مُتمم للآخر .

(أُوصِيكُمْ ، عِبَادَ اللهِ ، بِتَقْوَىٰ اللهِ الَّتِي هِيَ الزَّادُ وَ بِهَا الْمَعَاذُ) مَـعْنَىٰ التَّـقْوىٰ فِي جَوهرها الكَفّ عن محَارم الله ، وبخَاصَّة عن أذىٰ مَن كَفَّ عن النَّاس أَذاه ، وثَمرة هَذِه التَّقْوَىٰ النَّجَاة ، والسَّلاَمة دُنياً ، وآخرة ، وقـد دَعـا إلَـيْهَا الأَنْـبِيَاء ، والأَئِمَّـة والأَطهَار ، وأَسمعُوها للأجْيَال ، والسَّعيد من اَستمع ، وأَطَاع (إنَّ تَقْوَىٰ اللهِ حَـمَتْ أَوْلِيَاءَ اللهِ مَحَارِمَهُ ، وَ أَلْزَمَتْ قُلُوبَهُمْ مَخَافَتَهُ) . مَن كَانَ فِي قَلْبه شَيء من تَقْوَىٰ الله يَكُفّ عن محَارِمه لا محَالَة لأنّ هَذَا هو مَعْنَىٰ التَّقْوَىٰ بالذَّات كَما أَشْرنا (حَتَّىٰ أَسْهَرَتْ لَيَالِيَهُمْ ، وَ أَظْمَأَتْ هَوَاجِرَهُمْ) . لا يُفارقهم الخَوْف من الله في ليلٍ ، وَلاَ نهارٍ . وقيل : هَذَا كتابه عن صَلاتهم ليلاً ، وصومهم نهاراً ، والمَعْنَىٰ الأَوَّل أَكمل ، وأعَم (فَأَخَذُوا الرَّاحَةَ بِالنَّصَبِ) تَعبوا قَليلاً ، واَسْـتَرَاحـوا طَـويلاً (وَ الرِّيَّ بِـالظَّمَإِ) . حَـاولت نفوسهم أنْ تَرد الحَرَام ، فكفُوها عَنْه ، فكان لهَا عند الله ما تَشتهي ، وتُريد .

(وَ اَسْتَقْرَبُوا الأَجَلَ «فَبَادَرُوا الْعَمَلَ ، وَكَذَّبُوا الأَمَلَ فَلاَحَظُوا الأَجَلَ ») . كُلنا يَعلم أنّ المَوْت حَتمٌ لا مَفَرَّ مِنْهُ ، ولكن لا تَدري نَفس متىٰ وأين تَمُوت ؟ فمن أَطال الأَمَل سوّف ، وأسَاء ، ومن خَاف بَغْتَة الأَجَل أَعد لهُ عِدته تَمَاماً كمن يرىٰ الأفعىٰ تَدب إِلَيْه ، والنَّار تَقترب من دَارِه ، وثيابه (ثُمَّ إِنَّ الدُّنْيَا دَارُ فَنَاءٍ وَ عَنَاءٍ ، وَ غِيَرٍ وَ عِـبَرٍ ، فَمِنَ الْفَنَاءِ أَنَّ الدَّهْرَ مُوتِرٌ قَوْسَهُ ، لاَ تُخْطِئُ سِهَامُهُ ، وَ لاَ تُؤْسَىٰ جِرَاحُهُ . يَرْمِي الْحَيَّ بِالْمَوْتِ ، وَ الصَّحِيحَ بِالسَّقَمِ ، وَ النَّاجِيَ بِالْعَطَبِ . آكِلٌ لاَ يَشْبَعُ ، وَ شَارِبٌ لاَ يَنْقَعُ) .

---

(١) الصّف : ٣.

للدَّهر سِهَام، وسهَامه عَلىٰ أَنْوَاع، فمن الكَدّ، والتَّعَبُ إِلىٰ الهمُوم والأَحْزَان، ومن المَرَض وَالْفَقْر إِلىٰ فَقد قَريب، أو حَبيب، إِلىٰ مَا لا نِهَاية، تَمَاماً كمن يَأْكُل، وَلاَ يَشبع، ويَشرب، وَلاَ يروىٰ... ومَا أخطأ للدُّنيا سَهم، وَلاَ لجرْحه ٱلتئام، أمّا سَهم ٱلْمَوْت فلاَ مَهرب مِنْهُ.

(وَ مِنَ الْعَنَاءِ أَنَّ الْمَرْءَ يَجْمَعُ مَا لاَ يَأْكُلُ، وَ يَبْنِي مَا لاَ يَسْكُنُ).

وتَسْأَل: وأي بَأس في هَذَا؟ إنّ كلّ النَّاس علىٰ ذَلِكَ قَدِيماً، وحَدِيثاً. وهل تَقُوم ٱلْحَيَاة إلاّ بهِ؟؟ «زَرَعُوا فَأكلنَا، ونَزرَع فيَأكلُون»... ثُم هَل يَجب علىٰ ٱلإِنْسَان أنْ يَعِيش لنَفْسِه فقط؟.

الجوَاب:

إنّ الإِمَام عليه السلام يُنْكِر علىٰ مَن جَمع، وبنىٰ للوَارِث فقط، وما ٱهتم بآخرته، وصَالح المُجتمع، ولذَا قَالَ: (ثُمَّ يَخْرُجُ إِلَىٰ اللهِ تَعَالَىٰ لاَ مَالاً حَمَلَ، وَ لاَ بِنَاءً نَقَلَ) أي ذَهب إِلىٰ رَبّه أَعزل، لأنّه لم يَجعل لله نَصيباً في عَمله، ولو أنّه جَعل، وفَعل لأخذ عَمله معهُ إِلىٰ قَبره، ونَشَره، وكَانَ له عند الله حُسن الثَّوَاب. وقد ٱشتهـر عن الإِمَام قَـوْله: «ٱعْمل لدُنْيَاكَ كَأَنّك تَعيش أَبَداً ـ أي مَـع الأَجْـيَال إِلىٰ يَـوْم يُـبعثُون ـ وٱعْـمل لآخِرتك كأنّك تَمُوت غَداً» أي ٱتقّ الله في عَملك لدُنْيَاكَ[1].

(وَ مِنْ غِيَرِهَا ـ أي ٱحدَاث الدُّنْيا ـ أَنَّكَ تَرَىٰ الْمَرْحُومَ مَغْبُوطاً). قد يَتَمَنَّىٰ الْمَرْء

(١) أنظر، تَحرير الأَحْكَام لِلعلاّمة الحِلي: ٢/٢٤٩، تَفْسِير القُرطُبي: ٤/٣٥، مَن لاَ يَحْضره الْفَقِيه: ٣/٩٤ ح ٣٥٦، مَعَانِي الأَخْبَار للنّحاس: ٦/٣٠٥، وَسَائِل الشّيعة: ١٧/٧٦ ح ٢، فَيض القَـدِير شَرح الجَـامِع الصَّغِير: ٢/١٦، كَنز العُمّال: ٥/٥٨١، تنبيه الخوَاطر: ٢/٢٣٤.

مَنْزِلَة غَيْره في مَالِهِ، وجَاهِهِ، ولو اَطلع علىٰ شَيء من عَاقبتِهِ، ومصيرِهِ لتألم من أجله، وَقَالَ: الحَمْدُ لله الَّذي عَافانا من هَذَا: ﴿وَأَصْبَحَ ٱلَّذِينَ تَمَنَّوْاْ مَكَانَهُۥ بِٱلْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ لَوْلَآ أَن مَّنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا وَيْكَأَنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾(١). (وَ الْمَغْبُوطَ مَرْحُوماً) قَد تَرىٰ مسْكِيناً فتَرق لهُ، ولهُ عند الله المقام المحمود (لَيْسَ ذَٰلِكَ إِلَّا نَعِيماً زَلَّ، وَ بُؤْساً نَزَلَ). ذَلِك إشَارَة إلىٰ البُؤس، والنَّعِيم، والْمَعْنىٰ أنّ البُؤس يحدث كمحَكٍ لجواهر الرِّجَال وصمودهم عند الشَّدَائِد، والنَّعِيم يَنتقل من يَدٍ إلىٰ يَد.

(وَ مِنْ عِبَرِهَا أَنَّ الْمَرْءَ يُشْرِفُ عَلَىٰ أَمَلِهِ فَيَقْتَطِعُهُ حُضُورُ أَجَلِهِ). كلّ إنْسَان يَحلم ويَرغب في الخرُوج من وَاقعه إلىٰ الأفضل، فالْفَقِير يَحلم بالْغِنَىٰ، والْغَنِيّ بالزِّيَادَة، وقد يَبذل الْمَرْء أقصىٰ الجُهد لنَيل المرغُوب حَتَّىٰ إذَا أوشك عَلَيْهِ، واَطمأن إلَيْهِ اَغتالته الْمَنِيَّة، أو غَيْرها من النَّوائب، وقَدِيمَاً قيل: إذَا تَمّ شَيء بَدأ نقصه (فَلاَ أَمَلٌ يُدْرَكُ) دَائماً، وفي كلّ حِين، بل تَحول دُونه الحواجز فِي أَكْثَر الأحْيَان (وَ لاَ مُؤَمَّلٌ يُتْرَكُ) وَلاَ يَجُوز أنْ يُتْرَك، كَيْفَ؟ وإلاّ بَطل الْعَمَل، والمُهم أنْ لا يُرضي الْمَرْء نَفْسه بعلمه، ويُسخط الله، والحَقّ.

(مَا أَعَزَّ سُرُورَهَا) أي أنّ سُرُور الدُّنْيا نَادر جِداً... وعلىٰ نُدرته مَشوب بالْكَدَر (وَ أَظْمَأَ رِيَّهَا) الْمُرَاد بَري الدُّنْيا حُطامها، وزِينَتها، والْمَعْنىٰ إنّ إقبَال الدُّنْيا قَد يَكون شَرّاً علىٰ الإنْسَان، ووبَالاً، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَٰفِرُونَ﴾(٢). (وَ أَضْحَىٰ

(١) ٱلْقَصَص: ٨٢.
(٢) ٱلتَّوْبَة: ٥٥.

فَيْئَهَا) لا يَأْتِي نَعِيمُهَا حَتَّىٰ يَزول تَمَاماً كفيء الظِّل حِين تَرْتَفع الشَّمس (لاَ جَاءٍ يُرَدُّ) كَالْمَوْت (وَ لاَ مَاضٍ يَرْتَدُّ) كالشَّاب (مَا أَقْرَبَ الْحَيَّ مِنَ ٱلْمَيِّت لِلَحَاقِهِ بِهِ) . وإذَنْ فالحَيّ بحُكم ٱلْمَيّت لعُلاقة الأَوَّل ، والصَّيْرُورة (وَ أَبْعَدَ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ لِانْقِطَاعِهِ عَنْهُ) وإنْ دَنت الدَّار ، وقَرُب الجِوَار .

كَمْ مِنْ مَزِيدٍ خَاسِرٍ...فِقْرَة ٤ ـ ٥:

إِنَّهُ لَيْسَ شَيْءٌ بِشَرٍّ مِنَ الشَّرِّ إِلَّا عِقَابُهُ ، وَلَيْسَ شَيْءٌ بِخَيْرٍ مِنَ الْخَيْرِ إِلَّا ثَوَابُهُ . وَكُلُّ شَيْءٍ مِنَ الدُّنْيَا سَمَاعُهُ أَعْظَمُ مِنْ عِيَانِهِ ، وَكُلُّ شَيْءٍ مِنَ ٱلآخِرَةِ عِيَانُهُ أَعْظَمُ مِنْ سَمَاعِهِ . فَلْيَكْفِكُمْ مِنَ الْعِيَانِ السَّمَاعُ ، وَمِنَ الْغَيْبِ الْخَبَرُ . وَٱعْلَمُوا أَنَّ مَا نَقَصَ مِنَ الدُّنْيَا ، وَزَادَ فِي ٱلآخِرَةِ خَيْرٌ مِمَّا نَقَصَ مِنَ ٱلآخِرَةِ وَزَادَ فِي الدُّنْيَا : فَكَمْ مِنْ مَنْقُوصٍ رَابِحٍ ، وَمَزِيدٍ خَاسِرٍ ! إِنَّ الَّذِي أُمِرْتُمْ بِهِ أَوْسَعُ مِنَ الَّذِي نُهِيتُمْ عَنْهُ . وَمَا أُحِلَّ لَكُمْ أَكْثَرُ مِمَّا حُرِّمَ عَلَيْكُمْ . فَذَرُوا مَا قَلَّ لِمَا كَثُرَ ، وَمَا ضَاقَ لِمَا ٱتَّسَعَ[٤] . قَدْ تَكَفَّلَ لَكُمْ بِالرِّزْقِ ، وَأُمِرْتُمْ بِالْعَمَلِ ، فَلاَ يَكُونَنَّ الْمَضْمُونُ لَكُمْ طَلَبُهُ أَوْلَىٰ بِكُمْ مِنَ الْمَفْرُوضِ عَلَيْكُمْ عَمَلُهُ ، مَعَ أَنَّهُ وَاللهِ لَقَدِ ٱعْتَرَضَ الشَّكُّ ، وَدَخِلَ الْيَقِينُ ، حَتَّىٰ كَأَنَّ الَّذِي ضُمِنَ لَكُمْ قَدْ فُرِضَ عَلَيْكُمْ ، وَكَأَنَّ الَّذِي فُرِضَ عَلَيْكُمْ قَدْ وُضِعَ عَنْكُمْ . فَبَادِرُوا الْعَمَلَ ، وَخَافُوا بَغْتَةَ الأَجَلِ ، فَإِنَّهُ لاَ يُرْجَىٰ مِنْ رَجْعَةِ الْعُمُرِ مَا يُرْجَىٰ مِنْ رَجْعَةِ الرِّزْقِ . مَا فَاتَ الْيَوْمَ مِنَ الرِّزْقِ رُجِيَ غَداً زِيَادَتُهُ ، وَمَا فَاتَ أَمْسِ مِنَ الْعُمُرِ لَمْ يُرْجَ الْيَوْمَ رَجْعَتُهُ . الرَّجَاءُ مَعَ الْجَائِي ، وَٱلْيَأْسُ مَعَ الْمَاضِي . فـ﴿ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ[٥]﴾[١] .

---

(١) آلِ عِمْرَانَ: ١٠٢.

اللُّغَة:

اَعْتَرَضَ الشَّكُّ: صَارَ الشَّك عَارِضاً، ومَانِعاً. وَدَخِلَ ـ بكسر الخَاء ـ دَاخَلَهُ الْوَهْم.

الْإعْرَاب:

الضَّمِير في إنَّهُ للشَّأن، وكلّ شَيء مُبْتَدَأ أَوَّل، وعِيَانِهِ مُبْتَدَأ ثانٍ، وأَعْظَمُ خَبَر الثَانِي، والجُمْلَة خَبَر الأَوَّل، فَكَمْ خَبَرية، ومحلها الرَّفع بِالاِبْتِدَاء، ورَابِح خَبَر مُبْتَدَأ محذوب أي هو رَابح، والجُمْلَة خَبَر «كَمْ» ومِثْله خَاسِرٍ، وجَاء رَابِحٍ، وخَاسِرٍ في المَتن مجرُورين خطأً، وٱشتباهاً، وطَلَبُهُ مُبْتَدَأ وأَوْلىٰ خَبَر، والجُمْلَة خَبَر يَكُون، وَلاَ يجوز أنْ يَكون طَلَبُهُ نَائب فَاعِل لمضمون لأنّ المَضمُون نَفس ٱلرِّزْق لا طَلَبُهُ، وعَمَلُهُ نائب فَاعِل لمفروض لأنّ الفرض واقع علىٰ ٱلْعَمَل.

الْمَعْنىٰ:

(إِنَّهُ لَيْسَ شَيْءٌ بِشَرٍّ مِنَ الشَّرِّ إِلَّا عِقَابُهُ، وَلَيْسَ شَيْءٌ بِخَيْرٍ مِنَ الْخَيْرِ إِلَّا ثَوَابُهُ).

كلّ ما دَلت التَّجْرِبَة عَلىٰ أنّه يُعود عَلىٰ ٱلحَيَاة بالتَّخلف، والضَّرر فَهُوَ شَرّ، وكلّ مَا دَلت التَّجْرِبَة علىٰ أنّه يعود بالخَيْر، والنَّفْع فَهُوَ خَير، وقد يَكُون الشَّيء الواحد ضَرراً في حَال دُونَ حَال، فَيَكُون شَرّاً في الأَوَّل دُونَ الثَّانِيَة، ولذَا نقول: هَذَا واجب لأنّه نَافع، وذَاكَ حَرَام.

وكلاَم الإمَام يُومئ إلىٰ أنّ الشَّرّ علىٰ نَوعَين، مِنْهُ دُنيوي، ومِنْهُ أُخروي، وكَذَلِكَ الخَيْر، وإنّ أقلَّ القليل من شَرّ الآخِرَةِ أَعظم بكثير من شرُور الدُّنْيَا

فَيْئَهَا) لا يَأْتِي نَعِيمُهَا حَتَّىٰ يَزول تَمَاماًكفيء الظِّل حِين تَرْتَفع الشَّمس (لاَ جَاءٍ يُرَدُّ) كَٱلْمَوْت (وَ لاَ مَاضٍ يَرْتَدُّ) كالشَّاب (مَا أَقْرَبَ الْحَيَّ مِنَ ٱلْميّت لِلَحَاقِهِ بِهِ) . وإذَنْ فالحَيّ بحُكم ٱلْميّت لعُلاقة الأَوَّل ، والصَّيرُورة (وَ أَبْعَدَ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ لِانْقِطَاعِهِ عَنْهُ) وإنْ دَنَت الدَّار ، وقَرُب الجِوَار .

كَمْ مِنْ مَزِيدٍ خَاسِرٍ...فِقْرَة ٤ ـ ٥:

إِنَّهُ لَيْسَ شَيْءٌ بِشَرٍّ مِنَ الشَّرِّ إِلَّا عِقَابُهُ ، وَلَيْسَ شَيْءٌ بِخَيْرٍ مِنَ الْخَيْرِ إِلَّا ثَوَابُهُ . وَكُلُّ شَيْءٍ مِنَ الدُّنْيَا سَمَاعُهُ أَعْظَمُ مِنْ عِيَانِهِ ، وَكُلُّ شَيْءٍ مِنَ ٱلْآخِرَةِ عِيَانُهُ أَعْظَمُ مِنْ سَمَاعِهِ . فَلْيَكْفِكُمْ مِنَ الْعِيَانِ السَّمَاعُ ، وَمِنَ الْغَيْبِ الْخَبَرُ . وَٱعْلَمُوا أَنَّ مَا نَقَصَ مِنَ الدُّنْيَا ، وَزَادَ فِي ٱلْآخِرَةِ خَيْرٌ مِمَّا نَقَصَ مِنَ ٱلْآخِرَةِ وَزَادَ فِي الدُّنْيَا : فَكَمْ مِنْ مَنْقُوصٍ رَابِحٍ ، وَمَزِيدٍ خَاسِرٍ ! إِنَّ الَّذِي أُمِرْتُمْ بِهِ أَوْسَعُ مِنَ الَّذِي نُهِيتُمْ عَنْهُ . وَمَا أُحِلَّ لَكُمْ أَكْثَرُ مِمَّا حُرِّمَ عَلَيْكُمْ . فَذَرُوا مَا قَلَّ لِمَا كَثُرَ ، وَمَا ضَاقَ لِمَا ٱتَّسَعَ[٤] . قَدْ تَكَفَّلَ لَكُمْ بِالرِّزْقِ ، وَأُمِرْتُمْ بِالْعَمَلِ ، فَلاَ يَكُونَنَّ الْمَضْمُونُ لَكُمْ طَلَبُهُ أَوْلَىٰ بِكُمْ مِنَ الْمَفْرُوضِ عَلَيْكُمْ عَمَلُهُ ، مَعَ أَنَّهُ وَاللهِ لَقَدِ ٱعْتَرَضَ الشَّكُّ ، وَدَخِلَ الْيَقِينُ ، حَتَّىٰ كَأَنَّ الَّذِي ضُمِنَ لَكُمْ قَدْ فُرِضَ عَلَيْكُمْ ، وَكَأَنَّ الَّذِي فُرِضَ عَلَيْكُمْ قَدْ وُضِعَ عَنْكُمْ . فَبَادِرُوا الْعَمَلَ ، وَخَافُوا بَغْتَةَ الْأَجَلِ ، فَإِنَّهُ لاَ يُرْجَىٰ مِنْ رَجْعَةِ الْعُمُرِ مَا يُرْجَىٰ مِنْ رَجْعَةِ الرِّزْقِ . مَا فَاتَ الْيَوْمَ مِنَ الرِّزْقِ رُجِيَ غَداً زِيَادَتُهُ ، وَمَا فَاتَ أَمْسِ مِنَ الْعُمُرِ لَمْ يُرْجَ الْيَوْمَ رَجْعَتُهُ . الرَّجَاءُ مَعَ الْجَائِي ، وَٱلْيَأْسُ مَعَ الْمَاضِي . فـ﴿ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ[٥]﴾[١] .

---

(١) آلِ عِمْرَانَ : ١٠٢ .

اللُّغَة:

أَعْتَرَضَ الشَّكُّ: صَارَ الشَّك عَارِضاً، ومَانِعاً. وَدَخِلَ ـ بكسر الخَاء ـ دَاخَلَهُ الْوَهْم.

الإِعْرَاب:

الضَّمِير في إِنَّهُ للشَّأن، وكلّ شَيء مُبْتَدَأ أَوَّل، وعِيَانِهِ مُبْتَدَأ ثانٍ، وأَعْظَمُ خَبَر الثَانِي، والجُمْلَة خَبَر الأَوَّل، فَكَمْ خَبَرية، ومحلها الرَّفع بِالابْتِدَاء، ورَابِحٍ خَبَر مُبْتَدَأ محذوب أي هو رَابح، والجُمْلَة خَبَر «كَمْ» ومِثْله خَاسِرٍ، وجَاء رَابِحٍ، وخَاسِرٍ في المَتن مَجْرُورِين خطأً، وٱشتباهاً، وطَلَبُهُ مُبْتَدَأ وأَوْلَىٰ خَبَر، والجُمْلَة خَبَر يَكُون، وَلاَ يَجوز أنْ يَكون طَلَبُهُ نَائب فَاعِل لمضمون لأنّ المَضمُون نَفس ٱلرِّزْق لا طَلَبُهُ، وعَمَلُهُ نائب فَاعِل لمفروض لأنّ الفرض واقع علىٰ ٱلْعَمَل.

الْمَعْنىٰ:

(إِنَّهُ لَيْسَ شَيْءٌ بِشَرٍّ مِنَ الشَّرِّ إِلَّا عِقَابُهُ، وَ لَيْسَ شَيْءٌ بِخَيْرٍ مِنَ الْخَيْرِ إِلَّا ثَوَابُهُ).
كلّ ما دَلت التَّجْرِبَة عَلىٰ أَنّه يُعود عَلىٰ ٱلْحَيَاة بالتَّخلف، والضَّرر فَهُوَ شَرّ، وكلّ مَا دَلت التَّجْرِبَة علىٰ أَنّه يعود بالخَيْر، والنَّفْع فَهُوَ خَير، وقد يَكون الشَّيء الواحد ضَرراً في حَال دُونَ حَال، فَيَكُون شَرّاً في الأَوَّل دُونَ الثَّانِيَة، ولذَا نقول: هَذَا واجب لأنّه نَافع، وذَاكَ حَرَام.

وكلاَم الإِمَام يُومئ إِلىٰ أنّ الشَّرّ علىٰ نَوْعَين، مِنْهُ دُنيوي، ومِنْهُ أُخروي، وكَذَلِكَ الْخَيْر، وإِنّ أقلّ القليل من شَرّ ٱلآخِرَةِ أَعظم بكثير من شرُور الدُّنْيَا

مُجتمعة، وإنّ أقلَّ خَيرٍ في الآخِرَةِ أعظم من خَيرات الدُّنْيا بِكَامِلها، ومـن حِكـم الإِمَام: «مَا خَيْرٌ بِخَيْرٍ بَعْدَهُ النَّارُ، وَمَا شَرٌّ بِشَرٍّ بَعْدَهُ ٱلْجَنَّةُ، وكُلّ نَعِيمٍ دُونَ ٱلْجَنَّةِ فَهُوَ مَحْقُورٌ، وَكُلُّ بَلاَءٍ دُونَ النَّارِ عَافِيَةٌ»[١]. ثُمّ أوضح الإِمَام هَذَا ٱلْمَعْنىٰ، وأكـده بقَوْله: (وَكُلُّ شَيْءٍ مِنَ الدُّنْيَا سَمَاعُهُ أَعْظَمُ مِنْ عِيَانِهِ) لأنّ الْقَوْل قَد يَغش، ويَخدع دُونَ العيان، ولذَا قيل: اَقرأ، تَفرح، جَرب، تَحزن (وَكُلُّ شَيْءٍ مِنَ ٱلآخِرَةِ عِيَانُهُ أَعْظَمُ مِنْ سَمَاعِهِ). كلّ مَا فِي الآخِرَةِ مِن نَعيمٍ، وجَحيمٍ يفرق التَّصور، وتَضيق عَنْه الْكَلِمَات للتَّفاوت الهَائل بَيْنَ أَشياء الدُّنْيا، وأَشياء الآخِرَةِ هَناء كَانَتْ أَم شقَاء، ولذَا وَرَد فِي وَصف ٱلْجَنَّة: «مَا لاَ عَينٌ رَأت، وَلاَ أُذنٌ سَمعت، وَلاَ خَطر علىٰ قَلبِ بشَر»[٢].

(فَلْيَكْفِكُمْ مِنَ الْعِيَانِ السَّمَاعُ، وَ مِنَ الْغَيْبِ الْخَبَرُ). عَيان الآخِرَةِ مُمتنع الآن، وَهِي أَعظَم من سماعها بكثير، ومَعْنىٰ هَذَا أنّ سماعها حقّ، وصدقٌ، بل ودُونَ الْحَقِيقَة، وهو كافٍ وافٍ فِي التَّحْذِير، والتَّبشر، وإقَامة الحُجّة لله علىٰ النَّاس، ومَا دَام الأَمْر كَذَلِكَ فعلينا أنْ نَستجيب إلىٰ هَذَا السَّماع، ونَتقِي عَذاب جَهَنَّم، ونَعمل للجَنَّة عملها.

(وَ اَعْلَمُوا أَنَّ مَا نَقَصَ مِنَ الدُّنْيَا، وَ زَادَ فِي ٱلآخِرَةِ خَيْرٌ مِمَّا نَقَصَ مِنَ ٱلآخِرَةِ وَ زَادَ فِي الدُّنْيَا) إذَا كَانَ للفعل جِهتان: جِهة نَفع، وجِهة ضَرر فالعِبرَة دَائماً بالأَكثر،

---

(١) أُنظر، نَهج ٱلبَلاَغَة: ٱلْحِكْمَة (٣٨٧).

(٢) أُنظر، صَحِيح البُخَاريّ: ٨٦/٤، صَحِيح مُسْلِم: ١٢١/١، مُسْنَد أَحمَد: ٣٧٠/٢، سُنَن اَبن مَاجه: ١٤٤٧/٢، سُنَن الدَّارمي: ٣٣٢/٢، الغَارَات: ٨٥٥/٢، وَسَائِل الشِّيعة: ٤٧٨/١٠ ح ١٠، تَهذِيب الأَحْكَام: ٢٢/٦، ثَوَاب الأَعمَال: ٥٦، نَيل الأَوطَار: ١٥٥/٢، المُحلىٰ: ١٢/١.

فَمَا كَانَ نَفعه أَكبر من ضَرره فَهُوَ مَرغوب فِيهِ، ومَا كَان ضَرره أَكبر مِن نَفعه فهُو مَرغوب عَنْه، ومن البَديهة أنّ منَافِع الدُّنْيَا بِكَامِلِهَا لا تُعادل أدنىٰ ضَرر في الآخِرَة، ومَعْنَىٰ هَذَا أنّ أي عمل يَجر شَيْئاً من ضَرر الدُّنْيَا يَجب تَركه، والإعْرَاض عَنْه (فَكَمْ مِنْ مَنْقُوصٍ) في الدُّنْيَا هو (رَابِحٌ) في الآخِرَةِ (وَ مَزِيدٌ) في الدُّنْيَا هـو (خَـاسِرٌ) فِي الآخِرَةِ.

لِلمِنْبَرِ ـ حَوْلَ الدِّين، والحَيَاة:

(إنَّ الَّذِي أُمِرْتُمْ بِهِ أَوْسَعُ مِنَ الَّذِي نُهِيتُمْ عَنْهُ. وَ مَا أُحِلَّ لَكُمْ أَكْـثَرُ مِـمَّا حُـرِّمَ عَلَيْكُمْ. فَذَرُوا مَا قَلَّ لِمَا كَثُرَ، وَ مَا ضَاقَ لِمَا اتَّسَعَ). إنّ الشَّرِيعَة بِطَبِيعَتهَا ـ إلٰهية كَانَتْ، أَم وضعِية ـ لا بُدّ أنْ تُجاري الحَيَاة، وتُلبي الحَاجَات، لأنّ هَذَا هو القَصد، والهَدف الأَوَّل مِنْهَا، وإلّا انتفىٰ عَـنْهَا هَـذَا الـوَصْف... اَللَّـهُمَّ إلّا أنْ نُـضيفها إلىٰ الفُوضىٰ، وحَيَاة الغَاب. ولكي تُحقّق الشَّرِيعَة الإسْلاَميّة هَذِه الْغَايَة بالذَّات عـلىٰ أتمها شُرعت أَحْكَامها علىٰ أُسس حَيَاتِية إنْسَانية، وأَخضعت لهَا جَمِيع النّصُوص، ومن هَذِه الأُسس التَّكليف بالمقدُور: ﴿لَايُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ رَبَّنَا لَاتُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلَاتَحْمِلْ عَلَيْنَآ إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلَاتُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦ وَٱعْفُ عَنَّا وَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَآ أَنتَ مَوْلَىٰنَا فَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَـٰفِرِينَ﴾[1]. والتَّيسِير عـلىٰ النّـاس: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَـٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِ

---

(١) اَلْبَقَرَة: ٢٨٦.

فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُوا۟ ٱلْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا۟ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾[1]. وهدايتهم، ورعاية مصالحهم: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا﴾[2]: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾[3]: ﴿مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَآ أَوْ مِثْلِهَآ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾[4]: ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ ٱلْمُفْسِدَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَعْنَتَكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾[5]. إِلىٰ غَيْر ذٰلِكَ من الآيَاتِ الّتي اعتمد عَلَيْهَا الْفُقَهَاء حِينَ أَجمعُوا قَوْلاً واحداً علىٰ أنّه حَيْث تكُون الْمَصْلَحَة يَكون شَرع الله.

هَذَا إِلىٰ قَوْله تَعَالىٰ: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ مَاذَآ أُحِلَّ لَهُمْ قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُ وَمَا عَلَّمْتُم مِّنَ ٱلْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ ٱللَّهُ فَكُلُوا۟ مِمَّآ أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ وَٱذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهِ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾[6]. ومن الأُسس الهَامة لشَرِيعَة الإِسْلاَم أنّ الضَّرورات تُبيح المحظُورات، حَتَّىٰ التَّلفظ بالْكُفْر شَرِيطَة أنْ يَكُون الْقَلْب مُطمئناً بالإِيمَان: ﴿فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ

(١) ٱلْبَقَرَة: ١٨٥.
(٢) ٱلإِسْرَاء: ٩.
(٣) آلِ عِمْرَانَ: ١٠٤.
(٤) ٱلْبَقَرَة: ١٠٦.
(٥) ٱلْبَقَرَة: ٢٢٠.
(٦) ٱلْمَائِدَة: ٤.

رَّحِيمٌ﴾[١] ... ﴿مَن كَفَرَ بِاللَّهِ مِنۢ بَعْدِ إِيمَـٰنِهِۦٓ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِالْإِيمَـٰنِ وَلَـٰكِن مَّن شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾[٢].

وبهذا يَتبَيَّن مَعْنَىٰ أنّ في حَلال الله غنىً عن حَرامه، لأنّ الحَلال أوسع، وأكْثر من ٱلْحَرَام، وإنّ الله تَعَالَىٰ ما حَرم شَيْئاً علىٰ ٱلإِنْسان إلّا وعوضه خَيراً مِنْهُ.

(قَدْ تَكَفَّلَ لَكُمْ بِالرِّزْقِ، وَ أُمِرْتُمْ بِالْعَمَلِ). أُمرنا بٱلْعَمَل لأنّ الأجر عَلىٰ قَدْرِ المَشَّقَّة[٣]، ولأنّ ما من شيء يوجد إلّا بعرق يُصب، ومجهود يُبذل. فالأَرْض لا تُعطي إلّا بَعد الحَرث، والبَذر، والرّي، والمصنَع لا يُوجد، وَلاَ يَدُور تِلقَائِياً. أمّا الّذِين لا يَعملون، ويَعِيشُون علىٰ حِسَاب الغَير فأُولَئِكَ هُم المُعتدون علىٰ سُنَن الله وشريعته (فَلاَ يَكُونَنَّ الْمَضْمُونُ لَكُمْ طَلَبُهُ أَوْلَىٰ بِكُمْ مِنَ الْمَفْرُوضِ عَلَيْكُمْ عَمَلُهُ) عَلَيْكُمْ ٱلْعَمَل، وعَلَيْهِ سُبْحَانَهُ ٱلرِّزْق، ومن الْجَهْل، والحماقة أَنْ يُطالب الْمَرْء بمَا هو له، وَلاَ يُؤدي ما عَلَيْهِ... وهنا يكمن السِّر في ذُلّ الْعَرَب، وهوانهم... يُطالبون إِسْرَائِيلَ بالاِنْسحَاب من أَرضهم، ثُمّ يُغفلون ما عَلَيْهِمْ من واجب الْجِهَاد! (مَعَ أَنَّهُ وَ اللهِ لَقَدِ ٱعْتَرَضَ الشَّكُّ، وَ دَخِلَ الْيَقِينُ). أَقسم الإِمَامﷺ أنّ حَال أَصْحَابِه، أو الكَثِير مِنْهُم تَمَاماً كحَال من لا يَثق باللهِ، وَلاَ يُؤْمِن بعدله، وإنّه تَعَالَىٰ مَع مَن صَدق وجَاهد، ولم يَستسْلِم للهوَان، والمَذلَة.

(حَتَّىٰ كَأَنَّ الَّذِي ضُمِنَ لَكُمْ قَدْ فُرِضَ عَلَيْكُمْ) أي بَلغ مِنْكُم الشَّك، وعَدم الثِّقَة

---

(١) ٱلْبَقَرَة: ١٧٣.

(٢) ٱلنَّحْلِ: ١٠٦.

(٣) أنظر، حاشية ردّ المحتار: ٢/٥٢٥، عيون الحِكَم والمَوَاعِظ: ٢١٨ بلفظ (ثَوَابِ الْعَمَلِ عَلىٰ قَدْرِ المَشَقَّة فيهِ)، غُرر الحِكَم: (٤٦٩٠).

بالله حَدّاً، أَصْبَحتُم معهُ تَعتقدُون بأَنّ ٱلـرّزْق في يَـد غَـيْره مـن أربَـاب الجَـاه، والسُّلْطَان، لا في يَده تَعَالىٰ، وأمْرَه (وَكَأَنَّ الَّذِي فُرِضَ عَلَيْكُمْ) وهو ٱلـعَمَل مَـع التَّوكل علىٰ الله والثِّقَة به، والإِيمَان بأنّ مقاليد الأُمُور كلّها بـيدَه (قَدْ وُضِعَ عَنْكُمْ) وَلاَ رَيب فِي أنّ الشَّك، وعدم الثِّقَة قَرين الشِّرك، والإِلحَاد... وَقَـالَ البَـعض في شَرح هَذَا الكلاَم: «إنّ الجِد في طَلَبِ ٱلرِّزْق يَستند إِلىٰ ضَعف التَّوكل عـلىٰ الله». وهو ٱشتباه لأنّ التَّوكل مِفْتَاح ٱلْعَمَل، وبَذل الجُهد إِلىٰ أَقصاه مَـع التَّـفويض إِلىٰ مَشيئة الله، وقد تواتر عن الرَّسُول الأَعْظَمﷺ: «ٱعْقِلْ تَوَكَّلَ»[1]. وَقَالَ الإِمَام: «الدَّاعِي بِلَا عَمَلٍ كَالرَّامِي بِلَا وَتَرٍ»[2].

وَقَالَ: (فَبَادِرُوا الْعَمَلَ، وَ خَافُوا بَغْتَةَ الأَجَلِ). ولم يَقل: بَادِرُوا إِلىٰ الاِتْكَال فإِنّه كافٍ، ومغنٍ عن الكَد، والجِد، وصَدق الله العظيم: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا فَٱمْشُوا۟ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا۟ مِن رِّزْقِهِۦ وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ﴾[3]: ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَٱبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ وَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾[4].

(فَإِنَّهُ لاَ يُرْجَىٰ مِنْ رَجْعَةِ الْعُمُرِ مَا يُرْجَىٰ مِنْ رَجْعَةِ الرِّزْقِ. مَا فَاتَ الْيَوْمَ مِنَ الرِّزْقِ رُجِيَ غَداً زِيَادَتُهُ، وَ مَا فَاتَ أَمْسِ مِنَ الْعُمُرِ لَمْ يُرْجَ الْـيَوْمَ رَجْـعَتُهُ. الرَّجَـاءُ مَـعَ الْجَائِي، وَ ٱلْيَأْسُ مَعَ الْمَاضِي) إذَا فَات ٱلرِّزْق يُمكن تَعويضه بالجِد، وٱلْعَمَل، أمّا

(١) أُنظر، تأويل مختلف الحَدِيث: ٣٣٢/١، فيض القـدير: ٨٨/٦ ح ٨٥٣٢، العـهود المحـمدية لِـلشَّعرَاني: ٢٩٦، عوالي اللئالي: ٧٥/١ ح ١٤٩، شرح نَهْج ٱلْبَلاَغَة لاِبْن أَبي الحَدِيد: ٢٠١/١.

(٢) أُنظر، نَهْج ٱلْبَلاَغَة: ٱلْحِكْمَة (٣٣٧).

(٣) ٱلْمُلك: ١٦.

(٤) ٱلْجُمُعَة: ١٠.

الأَعْمَار فَهِيَ مُقدّرة، والْمَاضِي مِنْهَا مَيئُوس منهُ. وهَذَا يُؤيد ما قُلناه في تَفْسِير مَا تَقَدَّم وَلاَ دَاعي للتّأويل كمَا فَعل بَعْض الشَّارِحِين (اتَّقُواْ اللَّهَ) فِي جَمِيع أعْمَالَكُمْ، واطلبوا منهُ وحدهُ النَّجاح، والتَّوفيق، وَلاَ تَغتروا بذكَائِكُم، ومقدرتكُم فإنّكم، ومَا تَفْعَلُون في يَد الله، وقَبْضَته.

الخطبة

-١١٥-

أَللَّهُمَّ سُقْيَا مِنْكَ...فِقْرَة ١ ـ ٢:

أَللَّهُمَّ قَدِ ٱنْصَاحَتْ جِبَالُنَا، وَٱغْبَرَّتْ أَرْضُنَا، وَهَامَتْ دَوَابُّنَا، وَتَحَيَّرَتْ فِي مَرَابِضِهَا، وَعَجَّتْ عَجِيجَ الثَّكَالَىٰ عَلَىٰ أَوْلَادِهَا، وَمَلَّتِ التَّرَدُّدَ فِي مَرَاتِعِهَا، وَالْحَنِينَ إِلَىٰ مَوَارِدِهَا! أَللَّهُمَّ فَٱرْحَمْ أَنِينَ الْآنَّةِ، وَحَنِينَ الْحَانَّةِ! أَللَّهُمَّ فَٱرْحَمْ حَيْرَتَهَا فِي مَذَاهِبِهَا، وَأَنِينَهَا فِي مَوَالِجِهَا! أَللَّهُمَّ خَرَجْنَا إِلَيْكَ حِينَ ٱعْتَكَرَتْ عَلَيْنَا حَدَابِيرُ السِّنِينَ، وَأَخْلَفَتْنَا مَخَايِلُ الْجُودِ، فَكُنْتَ الرَّجَاءَ لِلْمُبْتَئِسِ، وَالْبَلَاغَ لِلْمُلْتَمِسِ[1]. نَدْعُوكَ حِينَ قَنَطَ الْأَنَامُ، وَمُنِعَ الْغَمَامُ، وَهَلَكَ السَّوَامُ، أَلَّا تُؤَاخِذَنَا بِأَعْمَالِنَا، وَلَا تَأْخُذَنَا بِذُنُوبِنَا، وَٱنْشُرْ عَلَيْنَا رَحْمَتَكَ بِالسَّحَابِ الْمُنْبَعِقِ، وَالرَّبِيعِ الْمُغْدِقِ، وَالنَّبَاتِ الْمُونِقِ، سَحّاً وَابِلًا، تُحْيِي بِهِ مَا قَدْ مَاتَ، وَتَرُدُّ بِهِ مَا قَدْ فَاتَ. أَللَّهُمَّ سُقْيَا مِنْكَ مُحْيِيَةً مُرْوِيَةً، تَامَّةً عَامَّةً، طَيِّبَةً مُبَارَكَةً، هَنِيئَةً مَرِيعَةً، زَاكِياً نَبْتُهَا، ثَامِراً فَرْعُهَا، نَاضِراً وَرَقُهَا، تُنْعِشُ بِهَا الضَّعِيفَ مِنْ عِبَادِكَ، وَتُحْيِي بِهَا ٱلْمَيِّتَ مِنْ بِلَادِكَ[2]!

اللُّغَة:

اَنْصَاحَتْ: تَشَقَقت، أو جَفّت. وَٱغْبَرَّتْ ٱلسَّمَاءَ: اَشْتَد وَقعها، وَٱغْبَرَّتْ الْأَرْض: لَم تُنبت. وَهَامَتْ: عَطشَت، أو لا تَدري أَين تَتوجه. وَرَبضَت الدَّابَة: بَرَكَت. والمَرْبَض: مَوضع الرَّبْض. وَرتَع فُلاَن: تَنعّم، وَرَتعَت المَاشِية: أَكلت مَا شَاءت، ومَرَاتِعهَا: موضع رَتعِها. والذِّهَاب: المُضي، والمرُور، والمَذهَب: مَوضع الذِّهَاب. ومَوَالِجِهَا: مَدَاخِلها. وَٱعْتَكَرَتْ: تَكَثَرت. وحَدَابِيرُ: جَمع حَدبَار أي النَّاقة الهَزِيلة، كنّىٰ بها عن القَحط، وٱلْجَدْب. والمَخَايِلُ: ٱلسَّحَاب. والْمُبْتَئِس: الحَزِين، ومِنْهُ قَوْله تَعَالَىٰ: ﴿فَلَاتَبْتَئِسْ بِمَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ﴾[1] أي لا تَحزَن. والْمُلْتَمِسِ: الطَّالب. والسَّوَامُ: جَمع سَائِمَة، وَهِي الرَّاعية من ٱلأَنْعَام. وَٱلسَّحَاب المُنْبَعِق: المُتَدَفِق. والرَّبِيعِ المُغْدِقِ: الخَصب. والوَابِل: المَطَر الشَّدِيد. والرَّبيع: النَّمو، والخَصب، ومَرِيعَةً: مُخْصِبة. وثَامِراً: مُثمِراً. ونَاضِراً: جَمِيلاً.

الإِعْرَاب:

المَصْدَر من أنْ لا تُؤَاخِذنَا مَفعُول ثانٍ لنَدْعُوكَ أي نَسأَلكَ عَدم عِقَابنُا، وسَحّاً نُصب علىٰ المَصْدَر أي تَسح ٱلسَّحَاب سَحّاً، ومِثْله سُقْيَاً، ومُحْيِيَةً حَال من ٱلسَّحَاب، ومِثْله ما بَعْدَه، ونَبْتُهَا فَاعِل زَاكياً، وفَرْعُهَا فَاعِل ثَامِراً، ومِثْله ما بَعْدَه.

إِلىٰ اللهِ المَفْزَع:

هَذِه ٱلخُطْبَةُ، أو المُنَاجَاة قَد ٱبتهل بِها الإِمَام إِلىٰ اللهِ فِي ذَات سَنَة مُنعت فِيها

---

(١) هُود: ٣٦.

ٱلسَّماَء بَركَاتها عن الأرْض، وأَهْلها، وَضَاقَتْ عَلَيْهِمُ بِمَا رَحُبَتْ... وإذَا ٱشْتَد الفَزَع فإلىٰ الله المَفْزَع، وأفضل أَنْوَاع الدُّعَاء تَرك الذّنُوب، أو ٱلتَّوْبَة مِنْهَا إِلَيْهِ تَعَالَىٰ، والإِمَام هو الثَانِي من الَّذِين عَناهم سُبْحَانَهُ بقَوْله: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّـهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾[1]، والأَوَّل النَّبِيّ ﷺ. وإذَنْ فقد ٱستجاب الله دُعاء الإمَام، وَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا.

وذكرنا في فِقْرَة اللُّغَة مَعَانِي المُفردات، وَلاَ شَيء وَرَاءَهـا إلّا النِّـيَّة الخَـالِصَة، والصَّدر النَّقي، وَلاَ جَـدوىٰ في شَرحـها إلّا التّكـرار بِأسلُوبٍ ثَـانٍ، أمّـا صَـلاة الاِسْتِسقَاء فسنُشير إِلَيْهَا فِي نِهَاية ٱلخُطْبَةُ.

بَقِي شَيء، وهو أنّ الدُّعَاء لا يَرد الْبَلاَء، وَلاَ يُغيّر من سُنَن الطَّبِيعَة، فَينزل المَطَر من ٱلسَّماَء، ويَجعل الرِّيح تَهب جنُوباً، وَهِي فِي ٱتجاه الشَّمال... هَذَا، إلىٰ أنّ النَّبِيّ ﷺ كَان يتدَاوىٰ، ويحثّ علىٰ التَّداوي، ويَقُول: مَا أنزل الله الدَّاء إلّا وأنْزَل معهُ الدَّواء ... وَلاَ جَواب لدَينا عن ذَلِكَ إلّا أنّ المُعْجزَة، وخوارِق العَادات ثَابتة بنصّ ٱلْقُرآن ٱلْكَرِيمِ، كطُوفان نُوح، وإحْيَاء ٱلْمَوْتىٰ علىٰ يَد بَعْض المُرْسَلِين بِإِذْنِ ٱللهِ، إنّه تَعَالَىٰ مُسبب الأَسْبَاب، وهو يقلّبها كَما أَراد. وَلاَ عَجب إذَا ٱستجَاب السَّـيِّد لعَـبدهِ فِي بَعْض ما يُريد إذَا ٱستجَاب لهُ عَبْدَه فِي كلّ مَا أَراد.

وَتَقول: أَجل، إنّ الله علىٰ كلّ شيء قَدير، ولَكِنَّهُ لا يُعامل النَّاس في الدُّنْيَا علىٰ أساس المَحَبَّة، والتَّقْوىٰ، بل وِفقاً لنوامِيس كَونية ثَابتة تَربط المُسببات بأسبابِها، والنَّتائج بمقدمَاتِها، أمّا الْعَقِيدَة، والتَّقْوىٰ فلهُما أَبلغ الأثر، ولكن فِي الآخِـرَةِ لا فِي الدُّنْيَا؟.

---

(١) ٱلأَحْزَابِ: ٣٣.

الجَوَاب:

أجل، ولكنّ الأَسْبَاب علىٰ نَوْعَين: مِنْهَا أَسْبَاب كَونية لا تُفرق بَينَ الصَّالح والطَّالح، وبِها يَتعامل سُبْحَانَهُ مَع أَكْثَر عِبَادِه، بل مَع كلّ عِبَادِه حَتَّىٰ ٱلْأَنْبِيَاء إلاّ في بَعْض الحَالات، ومِنْهَا أَسْبَاب أمرية، وَهِي أنْ يوجد الشّيء بأَمرٍ مِنْهُ تَعَالَىٰ حِين يَقُول له كُن فَيَكُون، وَلاَ تَفْسِير للمُعْجِزَة، وخوارِق العَادات عَلىٰ أَيْدِي ٱلْأَنْبِيَاء إلّا بِهَذا الأَمْر، وهَذِه الإِرَادَة المُبَاشرة منهُ تَعَالَىٰ، أمّا الإسْتِجابَة لدُّعاء الأَوْلِيَاء، والمُتَّقِين فتَكُون بِالعنَاية، والتَّوفيق لتَهيئَة الأَسْبَاب الْمَعْرُوفَة الّتي تَدفع الْبَلاَء، وتجلِب السَّراء، وقَد ٱشتهر علىٰ الألسِّنَة إذَا أَرَاد الله أَمْراً هَيأَ أَسْبَابه.

وبهَذه المُناسبة نُشير إِلىٰ مَا جاء في كتاب «أُصول الكَافِي» عن الإِمَام الصَّادقعليه السلام: أنّه قَالَ: «أَرْبعَةٌ لا تُستجَاب لهُم دَعْوَة: الأَوَّل مَن جَلس فِي بَيْتِه، وَقَالَ: أَللّهُمَّ ٱرْزُقنِي. يُقَال له: أَلم آمرك بالطَّلب؟. والثَانِي كَانَتْ له إمَرأَة فَدعا عَلَيْهَا، يُقَال له أَلم ٱجْعَلْ أمرها إِلَيك؟. الثَّالث كَان له مالٌ فأفسده، فيَقُول: أَللّهُمَّ أرزقني، يُقَال له، أَلم آمرك بالإِقْتِصَاد، أَلم آمرك بالإصْلاَح؟. والرَّابع كَان له مالٌ فأدانه بغير بَيِّنَة، يُقَال له: أَلم آمرك بالشَّهادة؟»[1].

أنْتَ ٱلْوَلِيُّ ٱلْحَمِيدُ...فِقْرَة ٣:

أَللَّهُمَّ سُقْيَا مِنْكَ تُعْشِبُ بِهَا نِجَادُنَا، وَ تَجْرِي بِهَا وِهَادُنَا وَ يُخْصِبُ بِهَا جَنَابُنَا،

(١) أنظر، الكَافِي: ٥١١/٢ ح ٢ و: ١٦/٤ و: ٢٩٨/٥ ح ١ و٢، وقَرِيب مِنْهُ في السّرائر: ٥٥٦/٣، الخِصَال للشّيخ الصّدوق: ١٦٠، شرح أصول الكَافِي: ٣٠٤/١٠ ح ٢، وَسَائِل الشّيعة: ١٢٥/٧ و: ٣٣٨/١٨ ح ١، مُستطرفات السّرائر: ٥٥٦، بحَار الأَنْوَار: ٣٥٤/٩٠.

وَ تُقْبِلُ بِهَا ثِمَارُنَا، وَ تَعِيشُ بِهَا مَوَاشِينَا، وَ تَنْدَىٰ بِـهَا أَقَـاصِينَا، وَ تَسْـتَعِينُ بِـهَا ضَوَاحِينَا، مِنْ بَرَكَاتِكَ الْوَاسِعَةِ، وَ عَطَايَاكَ الْـجَزِيلَةِ، عَـلَىٰ بَـرِيَّتِكَ الْـمُرْمِلَةِ، وَ وَحْشِكَ الْمُهْمَلَةِ. وَ أَنْزِلْ عَلَيْنَا سَمَاءً مُخْضِلَةً، مِدْرَاراً هَاطِلَةً، يُدَافِعُ الْوَدْقُ، مِنْهَا الْوَدْقَ، وَ يَحْفِزُ الْقَطْرُ مِنْهَا الْقَطْرَ، غَيْرَ خُلَّبٍ بَرْقُهَا، وَ لَا جَهَامٍ عَارِضُهَا، وَ لَا قَزَعٍ رَبَابُهَا، وَ لَا شَفَّانٍ ذِهَابُهَا، حَتَّىٰ يُخْصِبَ لِإِمْرَاعِهَا الْمُجْدِبُونَ، وَ يَـحْيَا بِـبَرَكَـتِهَا الْمُسْنِتُونَ، فَإِنَّكَ ﴿وَ هُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ مِن م بَعْدِ مَا قَنَطُواْ وَ يَنشُرُ رَحْمَتَهُۥ وَ هُوَ ٱلْوَلِيُّ ٱلْحَمِيدُ (٣)﴾ (١).

اللُّغَة:

نِجَادُ: جَمع نَجد، وهو ما ٱرْتفع من الأَرْضِ. ووِهَـادُ: جَمـع وَهـدَة، وَهِـي مَـا ٱنخفض من الأرْض. والجَنَابُ: النَّاحية. والأَقَاصِي: جَمـع القَّـاصِي أي البَـعِيد. وضَوَاحِي ٱلْبَلَد: نوَاحِيها، وغَيْرَ بَعِيد أنْ يَكُون الْمُـرَاد بـالضَّوَاحِـي هـٰـنا البُرَك والأحْوَاض بقرينة تَسْتَعِينُ. والْمُرْمِلَةِ: الْفَقِيرَة. ومُخْضِلَةً: مُخْصِبَة. والْوَدْقُ: الْمَطَر، وأَوْدقَت ٱلْسَّمَاء: أَمْطرَت. وَيَحْفِزُ: يَدْفَع. وبَرَقٌ خُـلّب: لا مَـطر مـعهُ. وجَـهَام: سُحاب لا مَاء فيهِ. والعَارِضُ: ما يُعرض في الأُفق من ٱلْسَّحَاب وَقَزَع: أَبطأ، أو تفَرَق. ورَبَابُهَا: سَحَابُها. والشَّفَّان: الرِّيح البَـاردة. والذِّهَـاب: الأمْـطَار اللَّـينَة. وأَمْرَع: أَخْصَب. والْمُسْنِتُونَ: الَّذِين أَصَابتهُم السَّنَة أي الجَائِعُون.

(١) ٱلشُّورَىٰ: ٢٨.

الإِعْرَاب:

سُقْيَا نُصب علىٰ ٱلْمَصْدَر، ومِنْ بَرَكَاتِكَ أي ٱسْقِنا مِنْ بَرَكَاتِك، ومُخْضِلَةٌ صِفَة سَمَاء، ومِدْرَاراً حَال مِنْهَا، ومِثْلهَا هَاطِلَةً، وَ «غَيْرَ» كَذَلِكَ، وجُمْلَة أنتَ ٱلْوَلِيُّ حَال مِن الضَّمِير فِي تَنْشُرُ.

صَلاَة الإِسْتِسْقَاء:

ذَكرنا عند القِسم الأَوّل من ٱلْخُطْبَةُ أنّه لا شَيء وَرَاءَ مَعَانِي مُفرداتها يَحتاج إِلىٰ الشَّرح، وأشرنا إِلىٰ قَول من قَالَ: الدُّعَاء لا يُغير الأَسْبَاب الكَوْنية مَع جَوابه، وقُلنا: سَنذكر عند نِهاية ٱلْخُطْبَةُ «صَلاَة الإِسْتِسْقَاء»، وفيما يَلي الْبَيَان:

ثَبت تَشريع هَذِه الصَّلاَة كِتَاباً، وسُنّة، وإجْمَاعاً، قَالَ تَعَالىٰ: ﴿وَإِذِ ٱسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ فَقُلْنَا ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ فَٱنفَجَرَتْ مِنْهُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ﴾[1]... ﴿فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا﴾[2]... ﴿يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا﴾[3]. وثَبت أنّ النَّبِيّ ﷺ صَلَّىٰ بأَصْحَابه هَذِه الصَّلاَة.

وسببها ٱلْجَدْب، وقلة الأَمْطَار، وٱتفقت ٱلْمَذَاهِب الإِسْلاَمِيّة علىٰ أنّه إِذَا تَأخر السَّقِي بعد الصَّلاَة يُستحب تكرارها، وأنْ يُصام لها ثَلاثة أَيَّام، وأَنْ يخرج النَّاس مُشاة خَاشِعِين، ومعهم ٱلنِّسَاء، والأَطْفَال، والشُّيوخ، والدَّوَاب، فإنّ ذَلِكَ أدعىٰ

---

(١) ٱلبَقَرَة: ٦٠.
(٢) نُوحٍ: ١٠.
(٣) نُوحٍ: ١١.

لرَحْمَة الله(١).

وتُصح جمَاعَة، وفُرادىٰ بالإتفَاق(٢)، وَلاَ أَذان لهَا، وَلاَ إقَامة عند جَمِيع المَذَاهِب، ويُستحب لِلإمَامِ أنْ يَخْطُب بَعد الصَّلاة(٣)، أمّا كَيفيتها فقد اتفق الفُقهَاء جَمِيعاً علىٰ أنَّهَا رُكعتَان كصَلاة العِيد حَسبما هِي عند كلّ مَذْهَب ما عَدا المَالكية(٤)، والحَنفِيَّة(٥) فإنَّهُم قَالُوا: هِي كصَلاة العِيد إلّا أنّه يُكبّر فيها التَّكبيرات الزَّائدة.

وَقَالَ الإمَامِيَّة(٦): يُستحب أنْ يَقنت بعد كلّ تَكْبِيرَة بدُعاءٍ يَتضمن الإستعطَاف، وسُؤال الرَّحْمَة بإنزَال الغَيث.

وَقَالَ الأَئِمَّة الأَرْبَعَة: إنّ مثل هَذَا الدُّعَاء يقوْله الخَطِيب بَعد الصَّلاة، في الخُطْبَة، لا في أثناء الصَّلاة(٧).

---

(١) أنظر، الأُمّ: ١/٢٤٨، المجموع: ٥/٦٥، الخِلاَف: ١/٦٨٦، التّهذيب: ٣/١٤٨، الذّكرىٰ: ٤/٢٥٠.

(٢) أنظر، الفِقْه علىٰ المَذَاهِب الأَرْبَعَة: ١/٣٦١، المَبْسُوط للسَّرخَسي: ١/١٣٤، المعتبر: ٢٢٤، تذكِرة الفُقَهاء: ٤/٢١٢.

(٣) أنظر، المجموع: ٥/٨٣، حلية العُلَماء: ٢/٢٧٤، اللُّباب: ١/١٢١، تذكِرة الفُقَهاء: ٤/٢١٣، التّهذيب: ٣/١٥٠.

(٤) أنظر، المدونة الكُبْرَىٰ: ١/١٦٦، بداية المُجْتَهِد: ١/٢١٥، المجموع: ٥/١٠٣.

(٥) أنظر، صَحِيح البُخَاريّ: ٢/٣٤، بدائع الصّنائع: ١/٢٨٢، المَبْسُوط للسَّرخَسي: ٢/٧٦، النّتف: ١/١٠٥.

(٦) أنظر، تذكِرة الفُقَهاء: ٤/٢٠٦، التّهذيب: ٣/١٤٨، الذّكرىٰ: ٤/٢٥٤، الكَافِي: ٣/٤٦٢.

(٧) صَلاة الإستِسْقَاء: ثابتة بنصّ الكِتَاب، والسُّنَّة، وقيام الإجْمَاع، كما ذكر الشَّارح رحمه الله.

وجاء في الحَدِيث أنّ أَهْل المَدِينَة أَصَابَهمْ قحط، فبينا رَسُول الله صلى الله عليه وآله يَخْطُب، إذ قام إلَيْهِ رَجُل، فَقَالَ: هَلَك الكراع، والشّاء، فادعُ الله أنْ يُسقينا، فمدّ رَسُول الله صلى الله عليه وآله يديه ودعا، قَالَ أنس، والسَّماء لمِثْل الزّجاجة، فهاجت رِيح، ثُمّ أنشأت سحاباً، ثُمّ اجتمع، ثُمّ أرسلت السَّماء عَزَالِيها.

صَلاَة الأَعْرَابِي:

كَانَ لأعْرَابِي غُنيمَات، يَرعاهن بنَفْسِه، وفي سَنَة من السِّنِين حَبست ٱلسَّماء خَيرها عن الأَرْض، فأجدَبت وشحّ رِزقها حَتَّىٰ ضَاق الأَعْرَابِي بغنمه، فخَاطب رَبّه بهَٰذه الصَّلاة:

رَبّ ألعِبَاد مَالنَا ومالكا ... قَد كُنتَ تَسقينا فَما بَدا لكَا

أَنزل عَلينا الغَيث لا أَبا لكَا

وكَلِمَة لا أَبا لكَ يَسْتَعملها الْعَرَب عِند المُسَأَلة، والطَّلب[1].

⇔ أَنظر، العَزَالِي: جَمع العَزلاء، وهو فَمُ المزادة الأسْفَل، فشبّه اتّساع المَطر واندفاقه بالّذي يَخرج من فَم المَزَادة. النّهَايَة لِابْن الأَثِير: ٣/٢٣١.

فخرجنا نخوض المَاء، حَتَّىٰ أتينا قِبَل منازلنا، فلم تزل تمطر إِلىٰ الجُمُعَةِ الأُخرىٰ، فقام إِلَيْهِ الرّجل، أو غَيْره، فَقَالَ: يا رَسُول الله تهدّمت الْبُيُوت، واحتبس الرّكبان، فادعُ الله أنْ يحبسه، فتبسم رَسُول الله ثُمّ قَالَ: (ٱللّهُمّ حَوالينا وَلاَ عَلينا). فنظَرت إِلىٰ السَّماء تتصدع حَوْلَ المَدِينَة كأنّه إكليل.

أُنظر، سُنَن أَبي داود: ١/٣٠٤، سُنَن البَيْهَقِيّ: ٣/٣٥٦، مُنْتَهىٰ المَطلب للحِلي: ١/٣٣١ و ٣٥٤، كتَاب الأُمّ: ١/٢٤٦، المُغْني: ٢/٢٨٣، المِيزَان لِلشَّعرَاني: ١/٢٠، التّذكرة: ٤/٢٠٣، الخِلاَف: ١/٦٨٥، المجموع: ٥/٦٥، التّهذيب: ٣/١٤٨، الذّكرىٰ: ٤/٢٥٠.

(١) أُنظر، الكَامِل لِابْن الأَثِير: ٧/١٤٥ بشرح المرصفي، بحَار الأَنْوَار: ٣٠/٥٥٩، النّهَايَة فِي غَرِيب الْحَدِيث لِابْن الأَثِير: ١/٢٣، شَرح نَهْج الْبَلاَغَة لِابن أَبِي الْحَدِيد: ١/١٨٣ و: ٦/١٣٤، الشّفا بتعريف حُقُوق الْمُصْطَفَىٰ للقاضي عياض: ٢/٣٠١. وعندما سمع سليمان بن عبدالملك هَذَا الأَعْرَابِي يُخاطب رَبّه بهَذا الشعر، قَالَ: (أشهد أنّه لا أب له، وَلاَ صاحبة، وَلاَ ولد له، فأخرجه أحسن مخرج).

الخطبة

-١١٦-

نَسِيتُمْ مَا ذُكِّرْتُمْ:

أَرْسَلَهُ دَاعِياً إِلَىٰ الْحَقِّ، وَ شَاهِداً عَلَىٰ الْخَلْقِ، فَبَلَّغَ رِسَالَاتِ رَبِّهِ غَيْرَ وَانٍ، وَ لَا مُقَصِّرٍ، وَ جَاهَدَ فِي اللهِ أَعْدَاءَهُ غَيْرَ وَاهِنٍ، وَ لَا مُعَذِّرٍ إِمَامُ مَنِ ٱتَّقَىٰ، وَ بَصَرُ مَنِ ٱهْتَدَىٰ.

مِنْهَا: وَ لَوْ تَعْلَمُونَ مَا أَعْلَمُ مِمَّا طُوِيَ عَنْكُمْ غَيْبُهُ، إِذاً لَخَرَجْتُمْ إِلَىٰ الصُّعُدَاتِ تَبْكُونَ عَلَىٰ أَعْمَالِكُمْ، وَ تَلْتَدِمُونَ عَلَىٰ أَنْفُسِكُمْ، وَ لَتَرَكْتُمْ أَمْوَالَكُمْ لَا حَارِسَ لَهَا وَ لَا خَالِفَ عَلَيْهَا، وَ لَهَمَّتْ كُلَّ ٱمْرِئٍ مِنْكُمْ نَفْسُهُ، لَا يَلْتَفِتُ إِلَىٰ غَيْرِهَا، وَ لَكِنَّكُمْ نَسِيتُمْ مَا ذُكِّرْتُمْ، وَ أَمِنْتُمْ مَا حُذِّرْتُمْ، فَتَاهَ عَنْكُمْ رَأْيُكُمْ، وَ تَشَتَّتَ عَلَيْكُمْ أَمْرُكُمْ. وَ لَوَدِدْتُ أَنَّ اللهَ فَرَّقَ بَيْنِي وَ بَيْنَكُمْ، وَ أَلْحَقَنِي بِمَنْ هُوَ أَحَقُّ بِي مِنْكُمْ. قَوْمٌ وَ اللهِ مَيَامِينُ الرَّأْيِ، مَرَاجِيحُ الْحِلْمِ، مَقَاوِيلُ بِالْحَقِّ، مَتَارِيكُ لِلْبَغْيِ. مَضَوْا قُدُماً عَلَىٰ الطَّرِيقَةِ، وَ أَوْجَفُوا عَلَىٰ الْمَحَجَّةِ، فَظَفِرُوا بِالْعُقْبَىٰ الدَّائِمَةِ، وَ الْكَرَامَةِ الْبَارِدَةِ. أَمَا وَ اللهِ، لَيُسَلَّطَنَّ عَلَيْكُمْ غُلَامُ ثَقِيفٍ الذَّيَّالُ الْمَيَّالُ، يَأْكُلُ خَضِرَتَكُمْ. وَ يُذِيبُ شَحْمَتَكُمْ، إِيهٍ أَبَا وَذَحَةَ!

اللُّغَة:

غَيْرَ وَانٍ: غَيْرَ مُتَثَاقِل. وَلاَ مُعَذِّرٍ: لا يَتعَذَر بالأَبَاطِيل. والصُّعُدَاتِ: جَمع صَعِيد. وهو وَجه الأَرْض، والقَبر، والطَّرِيق، وكلّ ما ٱرْتَفع من الأَرْض. وَتَلْتَدِمُونَ: تَلطِمُون. والخَالِفَ: خَلِيفَتُك من بَعدِك. وهَمَّتْ: شَغِّلَت. ومَيَامِينُ: مُبَارِكِين. ومَرَاجِيحُ: رَاجِحِين عَلىٰ المُبالغة. ومَقَاوِيلُ: قَائِلِين. مَتَارِيكُ: تَارِكِين. وقُدُماً: سَابقِين، والْبَارِدَةِ: الهَنِيَة. والذَّيَّالُ: الطَّويل الذَّيل أي من جَر ذَيّل ثوبه علىٰ الأَرْض. والْمَيَّالُ: الظَّالِم. والوَذَحَةَ: الخُنْفُسَاء.

الإِعْرَاب:

دَاعِياً حَال، وغَيْرَ مِثْله، وإمَام خَبَر لمُبْتَدَأ مَحْذُوف أي هو إمَام، وحَارِسَ ٱسم «لاَ» و «لَهَا» خَبَر، والجُمْلَة حَال، والْمَصْدَر من أَنَّ اللهَ فَرَّقَ بَيْنِي وَ بَيْنَكُمْ... إلخ مَفْعُول وَلَوَدِدْتُ، ومَيَامِينُ، وما بَعْدَه أخبار قَوْمٌ، وقُدُماً حَال من الواو في مَضَوْا، وإيهٍ ٱسم فعل بِمَعْنَىٰ الاِسْتِزَادة، وأَبَا مُنادىٰ أي يا أَبَا وَذَحَةَ.

الْمَعْنىٰ:

(أَرْسَلَهُ دَاعِياً إِلَىٰ الْحَقِّ، وَ شَاهِداً عَلَىٰ الْخَلْقِ، فَبَلَّغَ رِسَالاَتِ رَبِّهِ غَيْرَ وَانٍ، وَ لاَ مُقَصِّرٍ، وَ جَاهَدَ فِي اللهِ أَعْدَاءَهُ غَيْرَ وَاهِنٍ، وَ لاَ مُعَذِّرٍ إِمَامُ مَنِ ٱتَّقَىٰ، وَ بَصَرُ مَنِ ٱهْتَدَىٰ) الضَّمِير في أَرْسَلَهُ لِلنَّبِيّ ﷺ، وتَقَدَّم هَذَا الثَّناء مَرَّات وآخرها[1]. وعَلىٰ

(١) أنظر، نَهج ٱلبَلاَغَة: ٱلخُطبَةُ (١٠٩). (مِنْهُ ﵀).

الإجْمَال فإنّ جَوانب العَظمَة فِي رِسَالَة مُحَمّدﷺ ، وشَخصِيته ، وسِيرَته كَانَتْ ، ومَا تَزال ، وستظل تَهدي كلّ جِيلٍ إلىٰ الطَّرِيق الأَقْوَم ، والحَيَاة الأفضل ، أمّا انحطَاط المُسْلِمِين فلا سَبب له إلاّ انحرَافهم يَمِيناً ، أو يَساراً عن الخَطّ الّذي رَسمَه لهُم رَسُول الله ﷺ .

(وَ لَوْ تَعْلَمُونَ مَا أَعْلَمُ مِمَّا طُوِيَ عَنْكُمْ غَيْبُهُ) . طُوِي عَنْهُم مَا خَبأه الدَّهْر لهُم مِن التَّنكِيل ، والهَوان عَلىٰ أَيْدِي الأُمَويِين ، وَجَلاَوزَتهم ، ومَا يُلاقونه غَداً من غَضبِ الله وهَوْل الحِسَاب ، والجَزَاء (لَخَرَجْتُمْ إِلَىٰ الصُّعُدَاتِ تَبْكُونَ عَلَىٰ أَعْمَالِكُمْ ، وَ تَلْتَدِمُونَ عَلَىٰ أَنْفُسِكُمْ ، وَ لَتَرَكْتُمْ أَمْوَالَكُمْ لاَ حَارِسَ لَهَا وَ لاَ خَالِفَ عَلَيْهَا ، وَ لَهَمَّتْ كُلَّ امْرِئٍ مِنْكُمْ نَفْسُهُ ، لاَ يَلْتَفِتُ إِلَىٰ غَيْرِهَا) . لَو كُشف الغِطَاء للمُجرِمِين عن مَصيرهم لضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الأَرْض بِمَا رَحُبَتْ ، وخَرجوا عن أَهْلِهم ، وأَمْوَالِهم ، بل وعن أَنْفسهم لو استطَاعوا ، وانقطعوا إلىٰ رَبّهم مُنِيبِين مُستجِيرِين ، ولكن شَاءت حِكْمَته تَعَالىٰ أنْ يَحجب عِلم ذَلِكَ عن عِبَادِه كِي يَستحقوا الثَّوَاب اختِيَاراً لا استكرَاهاً .

(وَ لَكِنَّكُمْ نَسِيتُمْ مَا ذُكِّرْتُمْ ، وَ أَمِنْتُمْ مَا حُذِّرْتُمْ ، فَتَاهَ عَنْكُمْ رَأْيُكُمْ ، وَ تَشَتَّتَ عَلَيْكُمْ أَمْرُكُمْ) أي أنّ الأَهْوَاء ، والأَغْرَاض تَغلبت عَلىٰ عقُولَكُمْ ، وأعْمتكُم عن الحَقِّ الّذي بيّنه لكُم ، وعن سُوء العَاقِبَة الّتي حَذَّرَكُم مِنْهَا ، فاندفعتُم وَرَاءَ ما تَشتهُون لا تَلوون عَلىٰ شَيء ، وأي وَزن لمَن يكُون رِقاً لشهوَاتِه ، ومنهُوماً بِملذَاته ؟

(وَ لَوَدِدْتُ أَنَّ اللهَ فَرَّقَ بَيْنِي وَ بَيْنَكُمْ ، وَ أَلْحَقَنِي بِمَنْ هُوَ أَحَقُّ بِي مِنْكُمْ) . الطَّيِّب يَود صُحبَة الطَّيِّبين ، والخَبِيث صُحبَة الخَبِيثِين . . . وقَد عَاشر الإمَام رَسول الله ﷺ حَوالي ثَلاثِين عَامَاً ، ثُمّ عَاشر من بَعْدَه أَهْلَ الكُوفَة ، وابتلي بالنَّاكِثِينَ ، والمَارِقِينَ ،

والْقَاسِطِينَ، فَيحق لهُ ـ وهَذِه هِي الحَال ـ أَنْ يَتلهف عَلىٰ المَاضِي، ويتَبَرَم مِن الحَاضِر، ويقُول ـ حِين ٱسْتُشْهِدَ بِسَيْف الْغَدْر ـ مَسروراً من أَعماق قَلبه: «فُزْتُ وربِّ ٱلْكَعْبَة»(١) ولو عَاشر بَعد الرَّسول الأَعْظَم ﷺ قوماً من أَهْلِ الله، وطَاعته هَان عَلَيْهِ الخَطبُ، وكَان بِهِمْ سَعِيداً، وهُم بِهِ أَوْلَىٰ، وأسعَد.

وكأَنّ سائلاً يقُول: ومَن هُم أَحقّ بِكَ يا أَمِير الْمُؤْمِنِينَ. فأجاب: (قَوْمٌ وَ اللهِ مَيَامِينُ الرَّأْيِ، مَرَاجِيحُ الْحِلْمِ، مَقَاوِيلُ بِالْحَقِّ، مَتَارِيكُ لِلْبَغْيِ. مَضَوْا قُدُماً عَلَىٰ الطَّرِيقَةِ، وَ أَوْجَفُوا عَلَىٰ الْمَحَجَّةِ، فَظَفِرُوا بِالْعُقْبَىٰ الدَّائِمَةِ، وَ الْكَرَامَةِ الْبَارِدَةِ) لَهُم صِدق فِي الرَّأي، ومضَاء في العَزِيمَة، وصَبر في الْحَرْب، لَّا يَعْصُونَ ٱللهَ مَآ أَمَرَهُمْ، وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ... ولكن أَين هُم الآن؟. لَقَد كَانوا فِي القَدِيم، ثُمّ مضوا إِلىٰ الله، وكرامته (أَمَا وَ اللهِ، لَيُسَلَّطَنَّ عَلَيْكُمْ غُلَامُ ثَقِيفٍ الذَّيَّالُ الْمَيَّالُ) يُشير إِلىٰ ظُلم

(١) ذُكرت قِصّة ضرب أبن مُلْجَم مُقطّعة فِي بَعْض الكتب التّأريخية، وأَهْل السِير، ولكن نَحْنُ بصدد تحقيق هَذَا ٱلكِتَاب، ولَسْنَا بصدد بَيَان وجمع المقاطع علىٰ الرّغم من أنّ بَعْض الكُتب قد نقلتها تفصيلاً مَع إختلاف يسير فِي الأَلْفَاظ، وكَذَلِكَ من التَّقديم، والتّأخير.

أُنظر، تأريخ الطَّبَرِيّ: ٥ / ١٤٣، مقاتل الطَّالبيين: ٢٩ و٤٧، طَبقَات آبن سعد: ٣ / ٣٥، أَنسَاب الأَشْرَاف: ٢ / ٤٨٩ و٤٩٩ و٥٢٤، مروج الذّهب: ٢ / ٤١١، الإِمَامَة وَالسِّيَاسَة: ١ / ١٥٩، الكَامِل فِي التَّأريخ: ٣ / ٣٨٩، مناقب الخوارزمي: ٣٨٠ ـ ٤١٠، مناقب آبن شهرآشوب: ٣ / ٣١١، تَأريخ آبْن عساكر: ٣ / ٣٦٧ ح ١٤٢٤ وأضاف قَوْل الإِمَام عليّ ﷺ عند ما ضربه آبن مُلْجَم «فُزتُ وربّ ٱلكَعْبَة»، وذكر ذَلِكَ البلاذري فِي الأنساب: ١ / ٤٨٨ و٤٩٠، تَأريخ دِمَشْق: ٣٨ / ٩٧، و: ٣ / ٣٠٣ ح ١٤٠٢ وما بعدها، كنز الْعُمَّال: ١٣ / ٦٩٧، ٱلْفَتح الرَّبَّاني: ٢٣ / ١٦٣، والْحَاكِم فِي الْمُسْتَدرَك: ٣ / ١٤٤، ذَخَائِر الْعُقْبَىٰ: ١١٠ فَضَائِل عليّ ﷺ، الصَّوَاعِق الْمُحْرِقَة: ١٣٣ بَاب ٩ فصل ٥ مَع تقديم وتأخير بِمَا يناسب السِّياق، ويحفظ آسترسال الْمَعْنَىٰ واللفظ. الْفُتوح لِابْن أَعْثَم: ٢ / ٢٧٦، الاِسْتِيعَاب: ٣ / ٥٩ بإضافة «... لا يفوتنكم الكلب»، أُسد الغَابَة: ٤ / ٣٨، يَنَابِيع الْمَوَدَّة: ١٦٤، أَرْجَح المطَالِب: ٦٥١.

الحَجَّاج، وتنكِيله بأَهْلِ الْعِرَاق، وأَصل الذَّيَّال من ذَال فُلاَن إذَا تَبختَر، وجَرَّ ذَيل ثَوبَه علىٰ الأَرْض، والْمَيَّالُ الجَائِر الظَّالِمِ[١].

(يَأْكُلُ ـ الحَجَّاج ـ خَضِرَتَكُمْ) أي يَنهب ثَروَتكم، ومُقدّراتكُم (وَ يُذِيبُ شَحْمَتَكُمْ) كِنَايَة عن إذْلاَلِهِم، والْقَضَاء علىٰ قُوَّتِهم، وهيبتِهِم (إِيهٍ أَبَا وَذَحَةَ!). قِيل فِي تَفْسِيره حِكَايَة، وأَقْوَال، نقلها ٱبن أَبِي ٱلْحَدِيد، وأَرْجَحها أنّ هَذَا كِنايَة عَن حَقارَة الحَجَّاج[٢]. (رُوحاً وَجِسماً حَيثُ قِيل فِي وَصفه: إنّه كَانَ قَصِيراً، دَمِيماً، نَحِيفاً، أَخفش الْعَيْنِين، مُعوّج السَّاقِين، قَصِير السَّاعدِين، مَجدور الوَجه، أَصلع الرَّأْس، حَتَّىٰ كأنّه وَذحَةَ أي خُنْفُسَاء)[٣].

(١) أنظر، شرح نهج البلاَغَة لِابْن أَبِي ٱلْحَدِيد: ٢٧٨/٧. (مِنْهُ ﷺ).

(٢) أُنظر، شَرح نَهْج ٱلْبَلاَغَة: ٢٧٨/٧، شَرح نَهْج ٱلْبَلاَغَة لُمحَمّد عَبْده: ٢٣٠/١، شَرح مِئة كَلِمَة لِابْن مِيثَم: ٢٤١، بحَار الأَنْوَار: ٣٣٢/٤١، مَجْمَع البحرين: ٤٨٥/٤، تاج العروس: ٢٤٦/٢.

(٣) أُنظر، شَرح نَهْج ٱلْبَلاَغَة لِابْن أَبِي ٱلْحَدِيد: ٢٨١/٧، شَرح مِئة كَلِمَة لِابْن مِيثَم البَحراني: ٢٤٣، بالإضافة إلىٰ الْإِمَامَة وَالسِّيَاسَة: ٢/ ٣٢، مرُوج الذّهب للمسعودي: ١٧٥/٣، العقد الفَرِيد: ٢١٤/٣. ويَقُول صَاحب مرُوج الذّهب، وصاحب العقد الفَرِيد فِي أَقْوَال النّاس فِي الحَجَّاج: (أُحصي مَن قتلهم الحَجَّاج صَبراً سواء من قتل فِي حُرُوبِه فكانوا (١٢٠) ألفاً، وكَانَ فِي حَبسه (٥٠) ألف رَجُلاً، و (٣٠) ألف إمْرَأَة سِتة عشر منهن عَاريات، وكَان يُطعم المسَاجِين كمَا يَقُول ٱبن الجوزي فِي تَأرِيخه، الخُبز ممزوجاً بالرّماد). وجَاء فِي العقد الفَرِيد أيضاً علىٰ لِسَان عُمَرَ بن العَزِيز: (لو جَاء النّاس يَوْم ٱلْقِيَامَة بِفُسَاقِهِم، وجِئنا بالحَجَّاج لزدنا عَلَيْهِمْ).

الخطبة

-١١٧-

ابْذلوا مَالَ الله عَلَىٰ عِبَادِهِ:

فَلَا أَمْوَالَ بَذَلْتُمُوهَا لِلَّذِي رَزَقَهَا، وَ لَا أَنْفُسَ خَاطَرْتُمْ بِهَا لِلَّذِي خَلَقَهَا، تَكْرُمُونَ بِاللهِ عَلَىٰ عِبَادِهِ، وَ لَا تُكْرِمُونَ اللهَ فِي عِبَادِهِ! فَاعْتَبِرُوا بِنُزُولِكُمْ مَنَازِلَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ، وَ انْقِطَاعِكُمْ عَنْ أَوْصَلِ إِخْوَانِكُمْ!

اللُّغَة:

أَمْوَالَ مَفْعُول مَحْذُوف يُفسره الفِعْل المَوجود أي فَلا بَذَلْتُم أَمْوَالاً، ومِثْله أَنْفُسَ، والأصل وَلَا خَاطَرْتُمْ بأَنْفُسَ، ثُمّ حُذف حَرف الجَر، وانتصبت أَنْفُسَ، وتَكْرُمُونَ بِاللهِ -بفتح التّاء- مِن كَرُم فُلَان أي صَار كَرِيماً، وشَرِيفاً عِند النَّاس، وتُكْرِمُون الله -بالضَّم- من أَكْرَم.

مُعْظَم الزُّعْمَاء وَبَعْض الْعُلَمَاء:

(فَلَا أَمْوَالَ بَذَلْتُمُوهَا لِلَّذِي رَزَقَهَا، وَ لَا أَنْفُسَ خَاطَرْتُمْ بِهَا لِلَّذِي خَلَقَهَا). كَيْفَ

تَبْخلُون بِمَال الله عَلىٰ عِيَاله، وأَنْتمْ عَلَيْهَا وكلاَء، وأُمنَاء، كمَا نَطقت الآيَة: ﴿وَأَنفِقُواْ مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ﴾[1]. وأَيضاً تحجمُون عن الجِهَاد في سَبيل الله، وهو سُبْحَانَهُ خَالقها، ومودعها في أَبدانكُم.

(تَكْرُمُونَ بِاللهِ عَلَىٰ عِبَادِهِ، وَلاَ تُكْرِمُونَ اللهَ فِي عِبَادِهِ). وأَعجب مِن ذَا وذَاكَ أنّ فِئَة من خَلق الله يَلبسون ثَوب ٱلْعِلْم، والدِّين، ويَطْلُبُون من النَّاس التَّكريم، والتَّعظِيم بٱسم الدِّين، ومَا حَققوا هَدفاً حَسناً، وَلاَ تَركوا أَثراً طَيباً. بل البَعض مِنْهُم عَدُوّ مُبين، وأَشد ضَرراً مِمَّنْ أَشرك وألحَد.. إنّه يُحرف تعَالِيم الإِسْلاَم، ويُتاجر بِهِ، ويَدعم البِدع، والخرَافَات، ويَعمل علىٰ زِيَادَة الهُوة بَيْنَ ٱلْمُسْلِمِين، ويُناصر الغُزاة من أَعْدَائه، ثُمّ يَقُول للنَّاس: قبّلوا يَدي، وأَجْلسونِي فِي صَدر المجَالِس، والمحَافل، وٱدفعوا إليّ أَمْوَالَكُم بٱسم الدِّين، وٱلْقُرْآن ٱلْكَرِيم.

وٱعطِف علىٰ هَذَا الضَّال المُضل مُعْظَم الزُّعَمَاء الزَّمنِيين، يُنَادِي أَحدهُم بِمَا يُريدُه النَّاس، ويقسم أنّه يُضحي بكلّ عَزيزٍ من أجلهِم حَتَّىٰ إذَا أَدلوا إِلَيْهِ بأَصوَاتِهِم، وصَار قَوِياً بِهَا ـ وقفَ مَع أَعدائِهم يُفسد عَلَيْهِمْ حَيَاتِهِم، ويَنهب ثَرواتِهِم.. ومِن ٱستمد قُوَّتِه من الدِّين، وَلاَ يُضحي فِي سَبِيله فَهُوَ مُنافق دَجال، ومن يقوىٰ بالنَّاس، وثقتِهم، وَلاَ يَهتم بمصَالِحهم فَهُوَ لُصٌّ، وخَائنٌ... ولكن يَسْتَحِيل عَلَيْهِ أَنْ يَستمر فِي هَذِه الطَّرِيق حَتَّىٰ النِّهَايَة، فسُرعَان ما تَتضح الرُّؤيَة، ويَفتضح المُبطلُون، وتَذهب الشِّعارَات مَع الرِّيح.

---

(١) ٱلْحَدِيد: ٧.

الخطبة

-١١٨-

أَنْتُمْ الْأَنْصَار:

أَنْتُمُ الْأَنْصَارُ عَلَىٰ الْحَقِّ، وَ الْإِخْوَانُ فِي الدِّينِ، وَ الْجُنَنُ يَوْمَ الْبَأْسِ، وَ الْبِطَانَةُ دُونَ النَّاسِ، بِكُمْ أَضْرِبُ الْمُدْبِرَ، وَ أَرْجُو طَاعَةَ الْمُقْبِلِ. فَأَعِينُونِي بِمُنَاصَحَةٍ خَلِيَّةٍ مِنَ الْغِشِّ، سَلِيمَةٍ مِنَ الرَّيْبِ، فَوَاللهِ إِنِّي لَأَوْلَىٰ النَّاسِ بِالنَّاسِ!

اللُّغَة:

الْجُنَنُ ـ بضم الجيم ـ جمع جُنّة، وَهِي الوقَايَة. والْبَأْسِ: الشَّجَاعَة، والْقُوَّة، والشِّدَّة، وَهِي الْمُرَاد هُنا. وَبِطَانَةُ الرَّجُل: خَاصته، وموضع سِرّه.

الْمَعْنىٰ:

خاطب الْإِمَام أَصْحَابِه بهَذا بَعد فراغه من حَرْب الْجَمَل، كَما نُقل عن المَدائِني، والواقدي، وهَذِه الْحَرْب هِي الْأُولىٰ من حُرُوب الإِمَام في خِلَافَته، وأبدىٰ أَصْحَابِه فيها شَجاعةً، وثَباتاً حَتَّىٰ انتهت في وَقْعَة وَاحِدَة، ويَوْم واحد، وكَانَ

تَبْخلُون بِمَال الله عَلىٰ عِيَاله، وأَنْتُمْ عَلَيْهَا وكلاَء، وأُمنَاء، كمَا نَطقت الآيَة: ﴿وَأَنفِقُواْ مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ﴾[1]. وأَيضاً تَحجمُون عن الجِهَاد في سَبيل الله، وهو سُبْحَانَهُ خَالقها، ومودعها في أَبدانكُم.

(تَكْرُمُونَ بِاللهِ عَلَىٰ عِبَادِهِ، وَ لَا تُكْرِمُونَ اللهَ فِي عِبَادِهِ). وأَعجب مِن ذَا وذَاكَ أنّ فِئَة من خَلق الله يَلبسون ثَوبَ ٱلعِلْم، والدِّين، ويَطْلُبُون من النَّاس التَّكريم، والتَّعظِيم بٱسم الدِّين، ومَا حَققوا هَدفاً حَسناً، وَلاَ تَركوا أَثراً طَيباً، بَل البَعض مِنْهُم عَدُوّ مُبين، وأَشد ضَرراً مِمَّنْ أَشرك وأَلحَد.. إنّه يُحرف تَعَالِيم الإِسْلاَم، ويُتاجر بِهِ، ويَدعم البِدع، والخرَافَات، ويَعمل علىٰ زِيَادَة الهُوة بَيْنَ ٱلْمُسْلِمِين، ويُناصر الغُزاة من أَعْدَائه، ثُمّ يَقُول للنَّاس: قبّلوا يَدي، وأَجْلسونِي فِي صَدر المجَالِس، والمحَافل، وٱدفعوا إليّ أَمْوَالَكُم بٱسم الدِّين، وٱلْقُرْآن ٱلْكَرِيم.

وٱعطِف علىٰ هَذَا الضَّال المُضل مُعْظَم الزُّعَماء الزَّمنيين، يُنَادِي أحدهُم بِمَا يُرِيدُه النَّاس، ويقسم أنّه يُضحي بكلّ عَزيزٍ من أجلهِم حَتَّىٰ إذَا أَدلوا إِلَيْهِ بأَصوَاتِهم، وصَار قَوِياً بِهَا ـ وقفَ مَع أَعدائِهم يُفسد عَلَيْهِمْ حَيَاتِهم، ويَنهب ثَرواتِهم.. ومِن ٱستمد قُوَّتِه من الدِّين، وَلاَ يُضحي فِي سَبيله فَهُوَ مُنافق دَجال، ومن يقوىٰ بالنَّاس، وثقتهم، وَلاَ يَهتم بمصَالحِهم فَهُوَ لُصٌّ، وخَائنٌ... ولكن يَسْتَحِيل عَلَيْهِ أَنْ يَستمر فِي هَذِه الطَّرِيق حَتَّىٰ النِّهَايَة، فسُرعَان ما تَتضح الرُّؤيَة، ويَفتضح المُبطلُون، وتَذهب الشِّعارَات مَع الرِّيح.

---

(١) ٱلحَدِيد: ٧.

الخطبة -١١٨-

أَنْتُمْ الأَنْصار:

أَنْتُمُ الْأَنْصَارُ عَلَىٰ الْحَقِّ ، وَ الْإِخْوَانُ فِي الدِّينِ ، وَ الْجُنَنُ يَوْمَ الْبَأْسِ ، وَ الْبِطَانَةُ دُونَ النَّاسِ ، بِكُمْ أَضْرِبُ الْمُدْبِرَ ، وَ أَرْجُو طَاعَةَ الْمُقْبِلِ . فَأَعِينُونِي بِمُنَاصَحَةٍ خَلِيَّةٍ مِنَ الْغِشِّ ، سَلِيمَةٍ مِنَ الرَّيْبِ ، فَوَاللهِ إِنِّي لَأَوْلَىٰ النَّاسِ بِالنَّاسِ !

اللُّغَة:

الْجُنَنُ ـ بضم الجيم ـ جمع جُنّة ، وَهِي الوقَايَة . والْبَأْسِ : الشَّجَاعَة ، والْقُوَّة ، والشِّدَّة ، وَهِي المُرَاد هُنا . وَبِطَانَةُ الرَّجُل : خَاصته ، وموضع سِرّه .

الْمَعْنىٰ:

خاطب الإِمَام أَصْحَابه بهَذا بَعد فراغه من حَرْب الجَمَل ، كَما نُقل عن المَدائِني ، والواقدي ، وهَذِه الْحَرْب هِي الأُولىٰ من حُرُوب الإِمَام في خِلاَفَته ، وأبدىٰ أَصْحَابِه فيها شَجاعةً ، وثَباتاً حَتّىٰ انتهت في وَقْعَة وَاحِدَة ، ويَوْم واحد ، وكَانَ

النَّصر فيها لِلْإِمَامِ عَلىٰ أَعْدَائِه، وإذَنْ فلا بَدع إِذَا أثنىٰ عَلَيْهِمْ، وشجعهم في بُـضع كلمَاتٍ لِيسْتَمِرُوا في الْجِهَاد، والثَّبات، ويُرهب بِهِمْ مَن أَعـرض، ونأىٰ، ويُـقوّي إيمَان مَن أَيقنَ، وآتقىٰ.

(فَوَاللهِ إِنِّي لَأَوْلَىٰ النَّاسِ بِـالنَّاسِ) بـصَرف النَّـظر عـن نُـصوص ٱلْكِـتَاب، والسُّنَّة.. فإنّ سِيرَة الْإِمَام وَحْدَها تَفرض طَاعته، وَوِلاَيته علىٰ النَّاس وكفىٰ دَليلاً عَلىٰ ذَلِكَ أنّه لو وَاجه مَوقفاً كَانَ عَلَيْهِ أَنْ يَختار بَيْنَ التَّضحية بنَفْسِه فِي سَبِيل الْحَقّ، والدِّين، أو التَّمسك بكُرسي الْحُكْم ـ لفضّل الْأُولَىٰ علىٰ الثَّانِيَة عن رِضاً، وطـيب نَفس.. إنّه لا يَعمل أَبَداً إلّا للهِ، وَلاَ يَهاب أَحداً غَيْر الله، أمّا ٱلْمَوْت فَـهُوَ: «آنَسُ بِالْمَوْتِ مِنَ الطِّفْلِ بِثَدْيِ أُمِّهِ»[1]، وأمّا الْفَقْر فالدُّنْيَا بكَامِلهَا أَهْوَن عَلَيْهِ: «مِنْ وَرَقَةٍ فِي فَمِ جَرَادَةٍ تَقْضَمُهَا»[2]... وهل من نَصٍ أقـوىٰ، وأوضـح وَرَاءَ هَـذَا ٱلْحِسّ، والْعَيَان؟. إنّ النَّص فَرعٌ، وتَبعٌ، والأصل هو السِّيرَة، وٱلْعَمَل.

وبَعد فبهَذه البَدِيهَة، وهَـذَا ٱلْحِسّ يَـنْبَغِي أنْ نُخَـاطب شَـباب الجِـيل الَّـذِين يُجادلون فِي المعقُول، ويُشككُون في المَنقُول.

(١) أنظر، نَهج ٱلْبَلاَغَةُ: ٱلْخُطْبَةُ (٥).
(٢) أنظر، نَهج ٱلْبَلاَغَةُ: ٱلْخُطْبَةُ (٢٢٤).

الخطبة
ـ١١٩ـ

أَ مُخْرَسُونَ أَنْتُمْ؟.. فِقْرَة ١ ـ ٢:

مَا بَالُكُمْ أَ مُخْرَسُونَ أَنْتُمْ ؟ فَقَالَ قَوْمٌ مِنْهُمْ : يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ، إِنْ سِرْتَ سِرْنَا مَعَكَ .

فَقَالَ عليه السلام :

مَا بَالُكُمْ ! لَا سُدِّدْتُمْ لِرُشْدٍ ! وَ لَا هُدِيتُمْ لِقَصْدٍ ! أَفِي مِثْلِ هَذَا يَنْبَغِي لِي أَنْ أَخْرُجَ ؟ وَ إِنَّمَا يَخْرُجُ فِي مِثْلِ هَذَا رَجُلٌ مِمَّنْ أَرْضَاهُ مِنْ شُجْعَانِكُمْ ، وَ ذَوِي بَأْسِكُمْ ، وَ لَا يَنْبَغِي لِي أَنْ أَدَعَ الْجُنْدَ ، وَ الْمِصْرَ ، وَ بَيْتَ الْمَالِ ، وَ جِبَايَةَ الْأَرْضِ ، وَ الْقَضَاءَ بَيْنَ الْمُسْلِمِينَ ، وَ النَّظَرَ فِي حُقُوقِ الْمُطَالِبِينَ ، ثُمَّ أَخْرُجَ فِي كَتِيبَةٍ أَتْبَعُ أُخْرَىٰ ، أَتَقَلْقَلُ تَقَلْقُلَ الْقِدْحِ فِي الْجَفِيرِ الْفَارِغِ ، وَ إِنَّمَا أَنَا قُطْبُ الرَّحَا ، تَدُورُ عَلَيَّ ، وَ أَنَا بِمَكَانِي ، فَإِذَا فَارَقْتُهُ اسْتَحَارَ مَدَارُهَا ، وَ اضْطَرَبَ ثِفَالُهَا[1] . هَذَا لَعَمْرُ اللهِ الرَّأْيُ السُّوءُ ، وَ اللهِ لَوْ لَا رَجَائِي الشَّهَادَةَ عِنْدَ لِقَائِي الْعَدُوَّ ، وَ لَوْ قَدْ حُمَّ لِي لِقَاؤُهُ لَقَرَّبْتُ رِكَابِي ثُمَّ شَخَصْتُ عَنْكُمْ فَلَا أَطْلُبُكُمْ مَا اخْتَلَفَ جَنُوبٌ ، وَ شَمَالٌ ، طَعَّانِينَ عَيَّابِينَ ، حَيَّادِينَ ، رَوَّاغِينَ . إِنَّهُ لَا غَنَاءَ فِي كَثْرَةِ عَدَدِكُمْ مَعَ قِلَّةِ اجْتِمَاعِ قُلُوبِكُمْ . لَقَدْ حَمَلْتُكُمْ عَلَىٰ

الطَّرِيقِ الْوَاضِحِ الَّتِي لَا يَهْلِكُ عَلَيْهَا إِلَّا هَالِكٌ، مَنِ ٱسْتَقَامَ فَإِلَىٰ الْجَنَّةِ، وَ مَـنْ زَلَّ فَإِلَىٰ النَّارِ(٢).

اللُّغَة:

لَا سُدِّدْتُمْ لِرُشْدٍ: لَا وُفقتُم لِخَيرٍ، وَالْمِصْرَ: ٱلبَلَد العَظِيم، والْمِصْرَان: الْكُـوفَة، والْبَصْرَة، والجَمع الأَمْصَار. والكَتِيبَة: الْقطعَة مِن الجَيْش. وأتَـقَلْقَلُ: أتحَـرك فِي ٱضْطِرَاب. والْقِدْح ـ بِكَسر القَاف ـ السَّهم. والْجَفِيرِ: الكِنَانَة، وَهِيَ الّتي يُـوضع فيها السِّهام. وٱسْتَحَارَ: ٱضْطَرَبَ، ولَم يَستقِم. والثِّفَالُ: جِلد يُبسط تَحت الرَّحَا. وحُمَّ: قُدِّر. وقَرَّبْتُ رِكَابِي: ٱحْضَرتُ رَاحلتي للرّكُوب. وشَخَصْتُ عَنْكُمْ: ذَهبتُ عَنْكُم إِلىٰ غَيْرِكُم. وحَيَّادِينَ: مُنْحَرِفِين. ورَوَّاغِـينَ: مُـتَقَلبِين بَـيْنَ ذَا وذَاكَ. ولَا غَنَاءَ: لَا جَدوىٰ.

الْإِعْرَاب:

مَا بَالُكُمْ مُبْتَدَأ، وخَبَر، والْمَصْدَر من أَنْ أَخْرُجَ فَاعِل يَنْبَغِي، ولَعَمْرُ اللهِ مُبْتَدَأ، والْخَبَر مَحْذُوف أي قَسَمي، والرَّأْيُ عَطف بَيان مِن هَذَا، طَعَّانِينَ حَال من مَفْعُول أَطْلُبُكُمْ، ومِثْله ما بَعْدَه، وَقَالَ الطَّرِيقِ الْوَاضِح «الَّتِي»، ولم يَقل الَّذي لأنّ الطَّرِيق تُذكرّ، وتُؤنث، فالْوَاضِح بالاِعْتبَار الأَوَّل، والَّتِي بِالاِعْتِبَار الثَّانِي.

الْمَعْنىٰ:

حَثّ الْإِمَام ﷺ أَصْحَابِه عَلىٰ الجِهَاد فِي بَعْض المَوَاقف، فَلم يُجِيبُوه بشَيء، كأَنّ

فِي أَذَانِهِمْ وَقْراً، فَقال: (أَ مُخْرَسُونَ أَنْتُمْ؟) فأجَابه واحد مِنْهُم بقَوْله: (إنْ سِرْتَ سِرْنَا مَعَكَ). فقَال الإمَام عليه السلام: (لَا سُدِّدْتُمْ لِرُشْدٍ! وَلَا هُدِيتُمْ لِقَصْدٍ) والرُّشْد الهِدَايَة والاِسْتِقَامَة، والقَصد الاعْتِدَال، ولَيْسَ هَذَا دُعاءً كَمَا تَوهم البَعض، بل بَياناً لوَاقع الحَال في صِيغة الدُّعَاء، والقَصد منهُ اللّوم، والتَّوبِيخ (أَ فِي مِثْلِ هَذَا يَنْبَغِي لِي أَنْ أَخْرُجَ؟ وَإِنَّمَا يَخْرُجُ فِي مِثْلِ هَذَا رَجُلٌ مِمَّنْ أَرْضَاهُ مِنْ شُجْعَانِكُمْ، وَذَوِي بَأْسِكُمْ، وَلَا يَنْبَغِي لِي أَنْ أَدَعَ الْجُنْدَ، وَالْمِصْرَ، وَبَيْتَ الْمَالِ، وَجِبَايَةَ الْأَرْضِ، وَالْقَضَاءَ بَيْنَ الْمُسْلِمِينَ، وَالنَّظَرَ فِي حُقُوقِ الْمُطَالِبِينَ، ثُمَّ أَخْرُجَ فِي كَتِيبَةٍ أَتْبَعُ أُخْرَىٰ، أَتَقَلْقَلُ تَقَلْقُلَ الْقِدْحِ فِي الْجَفِيرِ الْفَارِغِ). للقَائِد التَّدْبِير، والتَّوجيه إِلىٰ الطَّريق القَوِيم لتحقِّيق الهَدف المَطلُوب، فَيُجهز السَّرايا، ويُرسل الدَّوريات، ويَبْقىٰ هو في القَاعدَة يُخطط للهجُوم، أو الدِّفاع، أو المُناورَة، والدَّعَايَة حَسبما يقتضيه وَاقع الحَال... وأيضاً يُدبر الأُمُور الدَّاخلِية، ويُشرف عَلَيْهَا، كَجبايَة المَال، وإنفَاقه، وسَير القَضَاء الفُتيا إلىٰ غَيْر ذَلِكَ، ولو تَرك النَّاس، وانتقل من بَلدٍ إلىٰ بَلد لمُطارَدة العُصَاة، أو حَرْب المُعتدِين لانفرط العِقْد، وعَمت الفُوضىٰ، وطَمع بالمُسْلِمِين، ومقدراتِهم الغُزّاة مِن الخَارج، والطُّغَاة مِن الدَّاخل.

(وَإِنَّمَا أَنَا قُطْبُ الرَّحَا، تَدُورُ عَلَيَّ، وَأَنَا بِمَكَانِي، فَإِذَا فَارَقْتُهُ اسْتَحَارَ مَدَارُهَا، وَاضْطَرَبَ ثِفَالُهَا. هَذَا لَعَمْرُ اللهِ الرَّأْيُ السُّوءُ). الإمَام قُطْبُ الرَّحَا فِي مَعرفَة الإِسْلَام وحقائِقه، وعلومِه تَدل عَلَيْهِ، بالإضَافة إلىٰ حَديث: «أنَا مَدِينَة العِلْم، وعَليٌّ بَابها»[1]، وحَديث: «عَليٌّ مَع الحَقّ، ومَع القُرْآن»[2]، وحَديث الثَّقلين[3]،

(١) لقَد وَصل إلينا حَديث «أنا مَدِينة العِلْم وعليٌّ بَابها» متواتراً عن طريق أهْل الشّيعة، والسُّنّة كما صرح

↔ بِذَلِكَ أَكْثَرَ الْفُقَهَاء، وَالْعُلَمَاء، وأَصْحَاب الْحَدِيث، والسُّنَن مَع وجود بَعْض الإِخْتِلَاف فِي اللفظ، كما ذكرنا سابقاً. أنظر، تَأريخ دِمَشْق / ترجمة الإِمَام علي ﷺ : ٣/٤٦٧، والمَنَاقِب لِابْن المغازلي: ٨١ وصَحِيح التِّرمِذي: ٢/٢٩٩ ح ٣٨٠٧، سُنَن التِّرمِذي: ٥/بَاب ٨٧ / ٣٠١، وأخرجه الطَّبراني فِي المُعْجَم الْكَبِير: ٣/١٠٨، و: ١١/٥٥/١١٠٦١ عن آبن عبّاس، الحَاكِم فِي المَنَاقِب: ٢٢٦، مُسْتَدرَك الصَّحِيحَين: ٣/١٢٦ و ١٢٧ و ١٢٩، أسنىٰ المطَالِب للجزري: ٧٠ و ٧١، تَأريخ بغداد: ١١/٢٠٤ و ٤٨ و ٤٩ و: ٢/٣٧٧ و: ٤/٢٤٨، و: ٧/١٧٢، لِسَان المِيزَان لِابْن حَجَر: ١/١٩٧ تحت رقم ٦٢٠، الصَّوَاعِق الْمُحْرِقَة: ٧٣ و ١٢٠ و ١٢٢/٩ ط المُحَمَّدية أورد الحَدِيثِين «أنا مدينة العِلْم...» و «أنا دار ٱلْحِكْمَة...».

وأنظر تَهْذِيب التَّهذيب: ٦/٣٢٠، و: ٧/٤٢٧، تَذكِرة الحفّاظ: ٤/٢٨ ط حيدرآباد، نزل الأبرار: ٧٣، كتاب الفِرْدَوْس لأبي شجاع الديلمي: ١/٧٦/١٠٩، مَوَدَّة القربىٰ: ٢٤، مصابيح السُّنَّة للبغوي: ٢/٢٧٥، الجَامِع الصَّغِير للسيوطي: ١/٣٧٤ ح ٢٧٠٥ و ٢٧٠٤ ط مصطفىٰ مُحَمَّد، مُنْتَخب كنز الْعُمَّال بهامش مُسْنَد أحمد: ٥/٣٠، وكنز الْعُمَّال: ٦/١٥٢ و ١٥٦، و ١١/٦١٤/٣٢٩٧٩، و ٣٢٨٨٩/٦٠٠، و: ١٣/١٤٧/٣٦٤٦٢ و ٣٦٤٦٣، و: ١٥/١٢٩/٣٧٨ الطَّبعة الثَّانِيَة، ٱلْفَتْح ٱلْكَبِير للنبهاني: ١/٢٧٢ و ٢٧٦، البداية والنِّهَايَة لِابْن كَثِير: ٧/٣٥٨، كنوز الحَقَائِق للمناوي: ٤٣ و ٤٦ ط بولاق و ٣٧ ط أُخرىٰ، مَجْمَع الزّوائد للهيثمي: ٩/١١٤، تلخيص الشَّافِي: ٣/٢١، دَلَائِل الصِّدْق للشيخ المظفر: ٢/٣٣٢ و ٤٣٩ و ٤٤١ و ٥٢٠، ٱلصِّرَاط ٱلْمُسْتَقِيم للعلّامة البياضي: ٢/١٩، حلية الأَوْلِيَاء: ١/٦٤ و ٦٣، عبقات الأَنْوَار: ج ٥ و ١٠ خاصّ بحديث مدينة العِلْم ط الهند، فرائد السِّمطِين: ١/٩٨، شواهد التَّنزِيل للحافظ الحسكاني: ١/٣٣٤/٤٥٩ و ٨١/١١٨ و ٨٢/١١٩ و ١٢٠ و ١٢١ ط أُخرىٰ، الرّياض النّضرة: ٢/١٩٣ و ٢٥٥ الطّبعة الثَّانِيَة، أسمىٰ المَنَاقِب: ٧٦، أمالي الشَّيخ الصَّدوق: المجلس السَّادس والخمسون ح ٨، والمجلس الحادي والسّتون ح ١١، ٱلْبِحَار: ٤٠/٢٠٠ و ٢٠١، المَنَاقِب لِابْن شهرآشوب: ٢/٣٦، الغَدِير: ٦/٦١ ـ ٨٥، و: ٧/١٩٨ و ١٩٩.

وراجع فَضَائِل الْخَمْسَة: ٢/٢٤٨ و ٢٥٠، جامع الأُصُول: ٩/٤٧٣/٦٤٨٩، شرح النَّهج لِابْن أبي ٱلْحَدِيد: ٢/٢٣٦ ط بيروت، و: ٧/٢١٩ ط مِصْر بتحقيق مُحَمَّد أبو الفَضْل، اللآلي المصنوعة: ١/١٧١، تَأريخ جرجان: ٢٤، إحقاق الحَقّ: ٥/٤٧٠ و ٤٨٣، ميزان الإِعْتِدَال للذهبي: ١/٤١٥ و ٤٣٦ تحت رقم ٤٢٩، و: ٢/٢١٥، و: ٣/١٨٢، و: ٤/٩٩، أُسد الغَابَة: ٤/٢٢، تَأريخ دِمَشْق لِابْن عساكر ↔

وغَيْر ذَلِكَ من الأَحَادِيث الّتي رَواها السُّنَّة في كُتبهم، وقَد جَمعها عُلَماء الشِّيعة في العَديد من الكُتب آخرها فيا أَعلم كتاب: فَضَائِل الْخَمْسَة من الصِّحاح السِّتة، للفيروز آبادي، وقد أَشَار إِلىٰ رَقم الصَّفحة، وتَأرِيخ طَبع الْكِتَاب في آخر الجُزء الثّالث... وأيضاً الإِمَام قُطب الرَّحَا فِي إِدَارة المَملكَة الإِسْلاَميّة، تَدبيرها

⇐ الشّافعي / ترجمة الإِمَام علي عليه السلام: ٢ / ٤٥٩ / ٩٨٣ و ٤٦٤ و ٤٧٦ حَدِيث ٩٨٤ و ٩٨٦ و ٩٩٧. نظم درر السِّمطِين للزرندي الحنفي: ١١٣ المَناقِب لِابْن المغازلي: ٨٠ و ٢١٢ حَدِيث ١٢٠ ـ ١٢٦ و ١٥٨ / ١٢٦ ط آخر و ٨٦ / ١٢٨ «أنا مدينة العِلْم وعليّ بابها»، الاِسْتِيعَاب بهامش الإِصَابَة: ٣٨/٣، فيض القدير للشوكاني: ٤٦/٣، كفاية الطّالب للكنجي الشّافعي: ٢٢٠ ط الحيدرية و ٩٩ ط الغري ٥٨/.

وراجع أيضاً فتح الملك العلي بصحة حَدِيث بَاب مدينة العِلْم عليّ لأَحْمَد بن مُحَمَّد الصِّدِّيق المغربي طبع سنة ١٣٠٤ هـ بالمطبعة الإِسْلاَميّة بِمِصْر ٣ ـ ٥ و ١٤ ـ ١٦، و ٢٢ ـ ٢٤ و ٢٨ و ٢٩ و ٤٠ ـ ٤٤ و ٥٤ و ٥٥ ط الحيدرية. يَنَابِيع المَوَدَّة للحافظ القندوزي: ٦٥ و ٧١ و ٧٢ و ٨١ و ١٧٩ و ١٨٣ و ٢٢٠ و ٢٢١ و ٢٣٤ و ٢٥٤...» و ٢٨٢ و ٤٠٠ و ٤٠٧ ط اسلامبول و ٢١١ و ٢١٧ و ٢٧٨ و ٣٠٣ و ٣٣٨ ط الحيدرية، و: ١٢٢/٣ و ١٩٨ و ٢٠٤، و: ٢٩٢/٢، و: ١٣٧/١ و ٢١٨ و ٢٢٠ و ٢٢٢ تحقيق السَّيِّد علي جمال أشرف الحُسَيْنِيّ. مقتل الحُسَيْن للخوارزمي الحنفي: ٤٣/١، تَذكِرة الخواصّ لسبط ابن الجوزي: ٤٧ و ٤٨، إسعاف الرّاغبين للصبّان بهامش نور الأَبْصَار للشبلنجي: ١٤٠ و ١٧٤، تَأرِيخ الخُلَفاء للسيوطي: ١٧٠ و ١٠٧ ط آخر.

(٢) أنظر، مَجْمَع الزَّوائد: ٢٣٥/٧، تَأرِيخ بغداد: ٣٢٠/١٤ ح ٧٦٤٢، الإِمَامَة وَالسِّيَاسَة: ٧٨/١، فرائد السِّمطِين: ١٧٧/١، المناقب لِابْن المغازلي: ١١٧ و ٢٤٤، والمُسْتَدرَك: ١٩/٣ و ١٢٤، التَّفْسِير الْكَبِير للرازي: ٢٠٥/١، شرح الأَخْبَار للمغربي: ٥٢٥/٢، سُنَن التِّرمِذي: بَاب مناقب عليّ، ح ٣٧١٤، جامع التِّرمِذي: ٢١٣/٢، كنز العُمَّال: ١٥٧/٦، الصَّوَاعِق المُحْرِقَة: ١٢٤، يَنَابِيع المَوَدَّة: ٩٠، المطَالِب العَالِيَة: ٦٦/٤، المحصول للرازي: ١٣٤/٦، وفي بَعْض المصادر بلفظ: «رحمَ الله عَلِيّاً أدر الحَقّ معه حيثُ دَار». أُنظر أيضاً، المُعْجَم الأوسط: ٩٥/٦ ح ٥٩٠٦، تُحْفَة الأَحْوَذي: ١٤٩/١٠، فيض القدير: ١٩/٤، تَهْذِيب الكَمَال: ٤٠٢/١٠ ح ٢٢٥٦، الرّياض النَّضرة: ٢٤٣/١ ح ٨٧.

(٣) تَقَدَّم استخراجه.

بِٱلْحِكْمَة، ومَصلحَة ٱلإِسْلاَم، وٱلْمُسْلِمِين.

وآخر مَا قَرأتُ عن الإِمَام مقَالاَت مُتسلسلة في جَرِيدة «الأَخْبَار المِصْرية»[1] ومن جُمْلَة ما قَالَ: «كَانَتْ لعليٍّ عَوارف علىٰ الإِسْلاَم، وكَانَ ٱلإِسْلاَم عَلَيْهِ فَضل التَّكوين مُنذ بدَاية الوَعي، فخَالطت تعَالِيم الإِسْلاَم منهُ الرُّوح، والدَّم، والأعْصَاب. وهٰذَا رَفض عَليّ أنْ تَتحول حكُومَة ٱلإِسْلاَم إِلىٰ مَملكة، وكَانَ يَقُول دَائماً: أنَّهَا الإِمَامَة لاَ ٱلْمُلْك».

(وَ اللهِ لَوْ لاَ رَجَائِي الشَّهَادَةَ عِنْدَ لِقَائِي الْعَدُوَّ، وَ لَوْ قَدْ حُمَّ لِي لِقَاؤُهُ لَقَرَّبْتُ رِكَابِي ثُمَّ شَخَصْتُ عَنْكُمْ فَلاَ أَطْلُبُكُمْ مَا ٱخْتَلَفَ جَنُوبٌ، وَ شَمَالٌ، طَعَّانِينَ عَيَّابِينَ، حَيَّادِينَ، رَوَّاغِينَ) كَان الإِمَام يَتَمَنَّىٰ الشَّهادة فِي سَبِيل الله، وينتظرها بفَارغ الصَّبر، ولَو عَلِم أنّه يُقتل بيد عَدُوّ من أَعْدَاء الله لترَك ٱلْخِلاَفَة، وطار إِلَيْهِ، وجَاهد حَتَّىٰ يَسْتَشهد فِي طَاعَة الله، ومَرْضَاتِه، ومن أَقْوَاله: «إِنَّ أَكْرَمَ الْمَوْتِ الْقَتْلُ! ـ دِفَاعاً عَن ٱلْحَقِّ ـ وَالَّذِي نَفْسُ ٱبْنِ أَبِي طَالِبٍ بِيَدِهِ، لَأَلْفُ ضَرْبَةٍ بِالسَّيْفِ أَهْوَنُ عَلَيَّ مِنْ مِيتَةٍ عَلَىٰ الْفِرَاشِ فِي غَيْرِ طَاعَةِ اللهِ!»[2].

(إِنَّهُ لاَ غَنَاءَ فِي كَثْرَةِ عَدَدِكُمْ مَعَ قِلَّةِ ٱجْتِمَاعِ قُلُوبِكُمْ) وأية جَدوىٰ فِي كَثْرَة العَدد إِذَا تَنافرت ٱلْقُلُوب: ﴿بَأْسُهُم بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ﴾[3]. نَزلت هَذِه الآيَة فِي اليَهُود[4]، وَهِي تَصدق الآن علىٰ ٱلْمُسْلِمِين،

---

(١) أنظر، العَدد: ٦٠٥١ و ٦٠٥٢ و ٦٠٥٣ بقلم عَبد الرَّحمن الشَّرقاوي مُدير مَجلة «روز اليوسف». (منه ﷺ).

(٢) أنظر، نَهج ٱلْبَلاَغَة: ٱلْخُطْبَة (١٢٣).

(٣) ٱلْحَشْر: ١٤.

وهَذَا سِرّ تَخلفهم، وهَوانهم (لَقَدْ حَمَلْتُكُمْ عَلَىٰ الطَّـرِيقِ الْـوَاضِـحِ).. أَرشَـدهُم الإِمَامﷺ إلىٰ طَريق الأَمْن، فَمَن سَلكه حَتَّىٰ النِّهَايَة نَجا، ومَن تَخلف عَـنْه هَـوىٰ، وأَهْلَك نَفْسَه بِنفْسِه، وغَيْر بَعيد أنْ يَكون المُرَاد بِهَالِك في قَوْله: (لَا يَهْلِكُ عَلَيْهَا إِلَّا هَالِكٌ) المُرَاد بِهِ الدَّعي الَّذي يَزعم الصَّلاح، ويتظاهَر بِهِ كَذباً، وافتراءً.

---

(٤) أُنظر، تَفْسِير القُرطُبي: ٦/٢٤٠ و: ١٨/٣٦، تَفْسِير الطبري: ٢٨/٤٧، تـفْسِير ابـن كَـثِير: ٤/٣٤١، تَفْسِير الجلالين: ١/٧٣٢ ح ١٤، المحلىٰ لِابْن حزم الظَّاهِري: ١/٢١٦.

الخطبة

ـ ١٢٠ ـ

شَرَائِعَ الدِّينِ وَاحِدَةٌ:

تَاللهِ لَقَدْ عُلِّمْتُ تَبْلِيغَ الرِّسَالَاتِ، وَ إِتْمَامَ الْعِدَاتِ، وَ تَمَامَ الْكَلِمَاتِ. وَ عِنْدَنَا أَهْلَ الْبَيْتِ أَبْوَابُ الْحُكْمِ وَ ضِيَاءُ الْأَمْرِ، أَلَا وَ إِنَّ شَرَائِعَ الدِّينِ وَاحِدَةٌ، وَ سُبُلَهُ قَاصِدَةٌ. مَنْ أَخَذَ بِهَا لَحِقَ وَ غَنِمَ، وَ مَنْ وَقَفَ عَنْهَا ضَلَّ، وَ نَدِمَ. اِعْمَلُوا لِيَوْمٍ تُذْخَرُ لَهُ الذَّخَائِرُ، وَ تُبْلَى فِيهِ السَّرَائِرُ. وَ مَنْ لَا يَنْفَعُهُ حَاضِرُ لُبِّهِ فَعَازِبُهُ عَنْهُ أَعْجَزُ، وَ غَائِبُهُ أَعْوَزُ. وَ اتَّقُوا نَاراً حَرُّهَا شَدِيدٌ، وَ قَعْرُهَا بَعِيدٌ، وَ حِلْيَتُهَا حَدِيدٌ، وَ شَرَابُهَا صَدِيدٌ. أَلَا وَ إِنَّ اللِّسَانَ الصَّالِحَ يَجْعَلُهُ اللهُ تَعَالَىٰ لِلْمَرْءِ فِي النَّاسِ، خَيْرٌ لَهُ مِنَ الْمَالِ يُورِثُهُ مَنْ لَا يَحْمَدُهُ.

اللُّغَة:

الْمُرَاد بالرِّسَالَاتِ شَرَائِع الْأَنْبِيَاء، أو شَرِيعَة الإِسْلَام فَقط، والجمع بالنَّظر إلىٰ كَثْرَة مبَادِئِهَا وتَعَالِيمها، والْمُرَاد بِالْعِدَاتِ النّصُوص علىٰ مَا وَعَد الله بِهِ الْمُتَّقِين، وهَدَد بِهِ الْمُجرِمِين، والْمُرَاد بِالْكَلِمَاتِ آي الذِّكر الحَكِيم. وقَاصِدَةٌ: مُسْتَقِيمَة. وعَازِبُهُ:

غَائِبُهُ. وأَعْجَزُ: من الْعَجْزِ. وأَعْوَزُ: مِن العَوْزِ بِمَعْنَىٰ الْفَقْر وعدم الْـوُجُود، يُـقَال: فُلاَن مُعوز أي فَقِير مُعدم. والصَّدِيدُ: القَيح، والدَّم.

الْإِعْرَاب:

أَبْوَابُ مُبْتَدَأ مُؤَخَّر، وَعِنْدَنَا خَبَر مُقَدَّم، وأَهْلَ نَـصب عـلىٰ الاِخـتصاص أي أَخصُّ أَهْلَ ٱلْبَيْت، وجُمْلَة يَجعله حَال من اللِّسَان، وخَير خَبَر إِنَّ، ومَنْ لَا يَحْمَدُهُ «مَنْ» فَاعِل يُورِثُهُ.

الْمَعْنىٰ:

(لَقَدْ عُلِّمْتُ تَبْلِيغَ الرِّسَالاَتِ، وَ إِتْمَامَ الْعِدَاتِ، وَ تَـمَامَ الْكَـلِمَاتِ). عُـلِّمْتُ ـ بِالبِنَاء للمجهُول، ومُعلم الإِمَام وأُستاذه رَسُول الله ﷺ، وكَلِمَة إِتْمَام تُشير إِلىٰ أنّ بَيان الْوَعْد، الْوَعِيد هو إِتْمَام لبيَان الْعَقِيدَة، والحَلاَل، وٱلْحَرَام، وٱلْمَعْنىٰ أنّ رَسُول الله ﷺ عَلَّم أَمِير الْمُؤْمِنِينَ عليه السلام كلّ مَا جَاء فِي كِتاب الله، وسُنَّة نَبِيّه من أُصول الدِّين وفرُوعه، ومَا يَترتب علىٰ طَاعتها من الثَّوَاب، ومَعصِيَتها مـن العِـقَاب، وأيَـضاً عَلَّمه أُسلوب الإِرْشَاد، والتَّبلِيغ إِلىٰ النَّاس.

(وَ عِنْدَنَا أَهْلَ الْبَيْتِ أَبْوَابُ الْحُكْمِ وَ ضِيَاءُ الْأَمْرِ). إنْ كَانَتْ الحَاء في «الْحُكْم» بالضَّم فالْمُرَاد بِهِ سِيَاسَة الْعِبَاد، وإِدَارة البِلاَد، وإِنْ كَانَتْ بِالكَسر فالْمُرَاد النَّصائح والمَوَاعِظ، أمّا ضِيَاء الْأَمْر فهُو عِلم ٱلْكِتَاب، والسُّنَّة، وأَهْل ٱلْبَيْت أَعرف النَّاس بدِين الله، وأَشدهم حُرصاً عَلَيْهِ، وعَملاً بِهِ، ومن أَجل هَذَا جَعلهم النَّبِيّ ﷺ عِدل ٱلْقُرْآن فِي حَدِيث الثَّقلين، وأَمر أُمتّه بالتَّمسك بِهِمْ تَمَاماً كَمَا يَتمسكُون بِكتَاب الله،

وتَقَدَّمَت الإِشَارَة إِلىٰ هَذَا الحَدِيث، ومَصْدَره أَكْثَر من مَرّة.

(أَلَا وَ إِنَّ شَرَائِعَ الدِّينِ وَاحِدَةٌ، وَ سُبُلَهُ قَاصِدَةٌ). أَبَداً لا سَبب إلّا الجَهْل، والأَهْوَاء للاِخْتلاَفَات الدِّينِيَّة الّتي تُؤَدِّي إِلىٰ الشِّقاق، والبغضَاء، ومُنذ القَدِيم حَتَّىٰ الآن تَلعب وَالسِّيَاسَة دورها في هَذَا الشّقاق، وزِيَادَة الهُوة بَيْنَ أَهْل الأَدْيَان، والْمَذَاهِب، وتَكَلَّمنا عن ٱختلاف ٱلْمُسْلِمِين فِي شرح ٱلخُطْبَةُ ١١٣ فِقْرَة «ٱلْمَذَاهِبُ ٱلأَرْبَعَة» (مَنْ أَخَذَ بِهَا لَحِقَ وَ غَنِمَ، وَ مَنْ وَقَفَ عَنْهَا ضَلَّ، وَ نَدِمَ. ٱعْمَلُوا لِيَوْمٍ تُذْخَرُ لَهُ الذَّخَائِر، وَ تُبْلَىٰ فِيهِ السَّرَائِرُ). الْمُؤْمِن الصَّادق هو الَّذي يَعْرِف ٱلْحَقّ، ويَرتَاح إِلَيْهِ، ويَحرص عَلَيْهِ، ويُعبر عنهُ بأفعالِهِ قبل أَقْوَاله، ومن فَاز بهَذه الفَضِيلة فهُو الرَّابح النَّاجِح دُنْياً، وآخرة وإلّا كَان من الخَاسرِين، وإنْ مَلك الجاه، وٱلْمَال.

(وَ مَنْ لَا يَنْفَعُهُ حَاضِرُ لُبِّهِ فَعَازِبُهُ عَنْهُ أَعْجَزُ، وَ غَائِبُهُ أَعْوَزُ) ٱلإِنْسَان بِعَقْله، مَا فِي ذَلِكَ رَيب، ويَظْهر من كَلاَم الإِمَام أنّ ٱلعَقْل يَحضر، ويُغيب، ولَكِنَّهُ مَا أشار إِلىٰ شَيء يَدلنا: متىٰ يَحضر، ومتىٰ يُغيب، ولذَا ٱختلف الشَّارحُون في ذَلِكَ علىٰ أَرْبَعَة أَقْوَال، وكلّها بَعيد عن الوَاقِع، والَّذي عَرفناه بالتَّجْرِبَة، والمُلاحظة أنّ ٱلإِنْسَان مُنفَرداً غَيْره مَع الجَمَاعَة... إِنّه يُفكر، ويُبصر بعَقْله، وهُو مُنفَرد، أمّا مَع الجَمَاعَة فيتأثر بها، بل يَصبح جُزءاً مِنْهَا، ويَغيب عَقْله عنهُ من حَيْث لا يُشعر، وعلىٰ هَذَا يَكون مُراد الإِمَام أنّ مَن لا يَنفع بعَقْله، وهُو مُنفَرد، وبَعيد عن التَّأثر بالتَّقْلِيد، وآراء الغَير فبالأَوْلَىٰ أنْ لا يَنْتَفع بِهِ إِذَا قَلّد، وتَأثر بالآخرِين.

(وَ ٱتَّقُوا نَاراً حَرُّهَا شَدِيدٌ، وَ قَعْرُهَا بَعِيدٌ، وَ حِلْيَتُهَا حَدِيدٌ، وَ شَرَابُهَا صَدِيدٌ) البَعث، ٱلْحَشْر حَقّ، وٱلجَنَّة والنَّار عَدل، وللإِيمَان بهما آثار نَافعة دُنياً، وآخرة، ومن آثَاره أنّ من يُنْكِر البَعث، والجَزَاء يَندفع وَرَاءَ أهوائه بِلا حدُود حَيْث يرىٰ أنّ

ٱلْحَيَاةَ هِي فُرْصَته الوَحِيدَة للاِنْتفَاع، والاِسْتمتَاع، أمّا من يُؤْمِن بالبَعث، والجَزَاء فَيحجِم، ويتورع خَوْفاً من العقَاب، والعَذاب، فَفي الإحْجَام عَن مَحارم الله مَصلحة الْفَرْد والجَمَاعَة، والْمُتَّقُون في الدُّنْيَا هُم الفَائزُون في الآخِرَةِ.

(أَلاَ وَ إِنَّ اللِّسَانَ الصَّالِحَ يَجْعَلُهُ اللهُ تَعَالَىٰ لِلْمَرْءِ فِي النَّاسِ، خَيْرٌ لَهُ مِنَ الْمَالِ يُورِثُهُ مَنْ لَا يَحْمَدُهُ) الْمُرَاد باللِّسَان الصَّالح الذِّكر الجَميل، وٱلْمَعْنَىٰ خَير للمَرء أَنْ يَترك الثَّناء الطَّيِّب عليهِ بعد مَوْته مِن أنْ يَترك الثَّراء لورّاثه. وفي شَرح ٱبن أَبِي ٱلْحَدِيد أنّ مُخبراً جاء لِلإمَام عليه السلام يُبشره بأنّ عَيناً خَرارَة قد ٱنْفَجرَت في أرْضٍ كَانَتْ آنذاك في حِيازة الإمَام، فقَال للمُخبر: بَشّر الوَارث، بَشّر الوَارث يُكررها مِرَاراً، ثُم وقفَ الأرْض، والعَيْن عَلىٰ الْفُقَرَاء، وكَتب بِذَلك كِتاباً في تِلْكَ السَّاعة[1].

(١) أُنظر، شَرح نَهْج البَلاَغَة لاِبْن أَبِي ٱلْحَدِيد: ٧/٢٩٠، وتَهْذِيب الأَحْكَام: ٩/١٤٨ ح ٦٠٩.

الخطبة

-١٢١-

هَذَا جَزَاءُ مَنْ تَرَكَ الْعُقْدَةَ...فِقْرَة ١:

وَقَدْ قَامَ إِلَيْهِ رَجُلٌ مِنْ أَصْحَابِهِ فَقَالَ: نَهَيْتَنَا عَنِ الْحُكُومَةِ، ثُمَّ أَمَرْتَنَا بِهَا فَمَا نَدْرِي أَيَّ الْأَمْرَيْنِ أَرْشَدُ؟ فَصَفَّقَ عليه السلام إِحْدَى يَدَيْهِ عَلَى الْأُخْرَى، ثُمَّ قَالَ:

هَذَا جَزَاءُ مَنْ تَرَكَ الْعُقْدَةَ!

أَمَا وَاللهِ لَوْ أَنِّي حِينَ أَمَرْتُكُمْ بِهِ حَمَلْتُكُمْ عَلَى الْمَكْرُوهِ الَّذِي يَجْعَلُ اللهُ فِيهِ خَيْراً، فَإِنِ اسْتَقَمْتُمْ هَدَيْتُكُمْ، وَإِنِ اعْوَجَجْتُمْ قَوَّمْتُكُمْ، وَإِنْ أَبَيْتُمْ تَدَارَكْتُكُمْ، لَكَانَتِ الْوُثْقَى، وَلَكِنْ بِمَنْ وَإِلَى مَنْ؟ أُرِيدُ أَنْ أُدَاوِيَ بِكُمْ، وَأَنْتُمْ دَائِي، كَنَاقِشِ الشَّوْكَةِ بِالشَّوْكَةِ، وَهُوَ يَعْلَمُ أَنَّ ضَلْعَهَا مَعَهَا[1]!

اللُّغَة:

الْمُرَاد بِالْعُقْدَةَ هُنا الِإصْرَار عَلَىٰ حَرْب مُعَاوِيَة، والْخَوَارِج معاً، ويَأْتِي التَّفصيل.
وَنَقَشَ الشَّوْكَة: أَخرجَهَا من العُضْو الَّذي دَخلت فيهِ. والضِّلْع: المَيل، وفِي

الأَمْثَال: لا تَنقش الشَّوْكَة بالشَّوْكَة فإنّ ضَلْعَهَا مَعَهَا[١]، أي أَنَّهَا تَدخل العُضْو، وتَنضم إِلىٰ الأُولَىٰ.

الإِعْرَاب:

أَمَا لاِسْتفتَاح الكَلاَم، وجُمْلَة حَمَلْتُكُمْ خَبَرَ أَنِّي، وَحِينَ مُتَعَلِّق بِأَمَرْتُكُمْ، والْمَصْدَر من أَنِّي فَاعِل لفعل مَحْذُوف أي لَو ثَبت حَمْلِي لَكُم عَلَىٰ الْمَكْرُوهِ، ولَكَانَتِ الْوُثْقَىٰ جَواب القَسم، وبِمَنْ وَإِلَىٰ مَنْ؟ مُتَعَلِّقَان بِمَحْذُوف أي بِمَنْ ٱستَعِين، وإِلَىٰ مَنْ أَرْجَع.

الْمَعْنَىٰ:

دَارت الْحَرْب في صِفِّين، ولمّا ظَهر الوَهن في جَبهة مُعَاوِيَة قَالَ لهُ ٱبن العَاص: ٱرفع ٱلْمَصَاحِف، فإنْ قَبل عليّ ٱختلف أَصْحَابِه، وإنْ ٱمتَنع كفّروه! وَفَعلها مُعَاوِيَة، ودَبّ الخِلاَف في جَيش الإِمَام، وَقَالَ قَوم مِنْهُم: الرّأي الْقَبُول. فقَال لهم الإِمَام: لا تُصدقوا.. إِنَّهَا حِيلَةً، وَغِيلَةً، وَمَكْراً، وَخَدِيعَةً. فأَصروا، وهددوه بِالْقَتْل.. فٱستجاب مُكرها، وأشرنا إِلىٰ ذَلِكَ في شرح ٱلْخُطْبَةُ ٣٥، وغَيْرِها.

ولما ظَهرت آثَار التَّحْكِيم، والحَكَمَيْن ألقىٰ الْخَوَارِج المَسْئُولية علىٰ الإِمَام، وَقَالَ له آثم مِنهُم: نَهَيْتَنا عَنِ ٱلْحُكُومَةِ، ثُمَّ أَمَرْتَنَا بِهَا فَمَا نَدْرِي أَيَّ ٱلأَمْرَيْنِ أَرْشَدُ؟ فَقَالَ الإِمَامُ عليه السلام: (هَذَا جَزَاءُ مَنْ تَرَكَ الْعُقْدَةَ). وكَلِمَة هَذَا تُشير هُنا ـ بقرينة السِّياق ـ إِلىٰ

---

(١) أُنظر، النِّهَايَة في غَرِيب الحَدِيث: ٩٦/٢، الفَائق في غَرِيب الحَدِيث: ٢٨٩/٢، تَرتيب إِصْلاَح المَنطق لاِبْن السِّكِّيت الأهوازي: ٢٣٥، الصِّحاح: ١٢٥١/٣، لِسَان الْعَرب: ٢٢٧/٨.

قَوْل الإِثْم المُتجرىء: نَهَيْتَنَا عَنِ ٱلحُكُومَةِ، ثُمَّ أَمَرْتَنَا بِهَا.. أمّا الْعُقْدَة فَقد بَيْنَهَا الْإِمَام بقَوْله: (أَمَا وَ اللهِ لَوْ أَنِّي حِينَ أَمَرْتُكُمْ بِهِ حَمَلْتُكُمْ عَلَىٰ الْمَكْرُوهِ الَّذِي يَجْعَلُ اللهُ فِيهِ خَيْراً، فَإِنِ ٱسْتَقَمْتُمْ هَدَيْتُكُمْ، وَ إِنِ ٱعْوَجَجْتُمْ قَوَّمْتُكُمْ، وَ إِنْ أَبَيْتُمْ تَدَارَكْتُكُمْ، لَكَانَتِ الْوُثْقَىٰ). قَالَ النَّبِيّ ﷺ لعليّ: تُحارب بَعدي النَّاكِثِينَ، والْقَاسِطِينَ، والْمَارِقِينَ، وهُم الَّذين أَصرّوا عَلىٰ وَقْف الْقِتَال فِي صِفِّين التَّحْكِيم، ثُمّ كَفَّرُوا الإِمَام لإنّه ٱستجَاب لهُم، وكَانَتْ الْعُقْدَةَ ـ أي الرَّأي المُصيب ـ أنْ يُقَاتل هؤُلاَء الْمَارِقِينَ قبلَ أنْ يَسْمَع مِنْهُم مَا سَمع، وقبلَ أنْ يَخرجوا بالسَّيْف، ويَقطعوا طَريق ٱلْمُسْلِمِين، ويَسعوا فِي الْأرْض فَسَاداً.

(وَ لَكِنْ بِمَنْ وَ إِلَىٰ مَنْ؟) أي أنّ الإِمَام عليه السلام لو قَاتل الْخَوَارِج حِين رَفض التَّحْكِيم وأصرّوا عَلَيْهِ ـ بمن يَسْتَعِين عَلىٰ قتَالهم؟ وإلىٰ مَن يَستند فِي ذِلك؟ هل يَسْتَعِين بأَصْحَابه، وهُم فِي شقاقٍ ونفَاق؟ وإذَنْ يَكُون تَمَاماً (كَنَاقِشِ الشَّوْكَةِ بِالشَّوْكَةِ) وكالمُستجِير مِن الرَّمضَاء بِالنَّارِ!.. إنّ السَّبب الأَوّل لكلّ ما حَدث لِلْإِمَامِ هُو عِناد أَصْحَابِه، وَمُخَالفتهُم عن أَمْرِه... كَانَ مُعَاوِيَة فِي أَطوع جُند، وكَان الْإِمَام فِي أَخبث جُند، كمَا قَالَ مُعَاوِيَة نَفْسَه... وكَانَ الإِمَام يُكرر، ويُردد: «لاَ رَأْيَ لِمَنْ لاَ يُطَاعُ»[1]. قَالَ الْعَقَّاد: «أمّا الَّذِين لاَموا عَلِيّاً لقَبُول التَّحْكِيم فَيُخيل إلينَا مَن عجلَتهم إلىٰ اللَّوم أنّهم أَوّل مَن يَلُومَه لو أنّه رَفض التَّحْكِيم... ولَكِنَّهُ قَبله بَعد إحجَام جنُوده عن الْحَرْب... وبَعد أنْ توعدُوه بالْقَتْل كمَا فَعَلوا بعُثْمَانَ»[2].

وبِهَذَا يَتَبَيَّن معنا أنّ الإِمَام رَفض أَوّلاً التَّحْكِيم لِعلمه بأنّه خَدِيعَة، ثُمّ قَبله

(١) أنظر، نَهج البَلاَغَة: ٱلخُطْبَةُ (٢٧).

(٢) أنظر، عبقرية الإِمَام: ٢١٥ (مِنهُ رحمه الله).

مُضطراً، لأنّ أَصْحَابه أَحْجَمُوا عن حَرْب مُعَاوِيَة، وحَرْب الْخَوَارِج الَّذِين أصرّوا علىٰ قبُول التَّحْكِيم آنذاك، وما أَقدم علىٰ حَرْبهم إلّا بَعد أنْ شَهروا السِّلاَح، وقَطعوا السَّابِلة، وَقتَلُوا الرِّجال، وبَقروا بَطون الحُبالىٰ، ومَلأوا الدُّنْيَا فَساداً، وطُغياناً. وعَلَيْهِ، فَقول الإِمَام: «هَذَا جَزَاءُ مَنْ تَرَكَ الْعُقْدَةَ» مَعناهُ لو أنّ الإِمَام قَاتل الْخَوَارِج فِي صِفِّين لمّا سَمع الَّذي سَمْعَه من ذَاكَ المُتجرىء... ولكن مَاذا يَصنع؟ وبمن يُقاتلهم؟ وإلىٰ مَن يَرجع فِي حَرْبهم؟ إلىٰ أَصْحَابه، وهُم الدَّاء، وَأَصل الْبَلاَء.

اقْبَلُوا النَّصِيحَةَ.. فِقْرَة ٢ ـ ٣:

أَللَّهُمَّ قَدْ مَلَّتْ أَطِبَّاءُ هَذَا الدَّاءِ الدَّوِيِّ، وَكَلَّتِ النَّزْعَةُ بِأَشْطَانِ الرَّكِيِّ! أَيْنَ الْقَوْمُ الَّذِينَ دُعُوا إِلَىٰ الإِسْلاَمِ فَقَبِلُوهُ، وَ قَرَءُوا الْقُرْآنَ فَأَحْكَمُوهُ، وَ هِيجُوا إِلَىٰ الْجِهَادِ فَوَلِهُوا، وَلَهَ اللِّقَاحِ إِلَىٰ أَوْلاَدِهَا، وَ سَلَبُوا السُّيُوفَ أَغْمَادَهَا، وَ أَخَذُوا بِأَطْرَافِ الْأَرْضِ زَحْفاً زَحْفاً، وَ صَفّاً صَفّاً. بَعْضٌ هَلَكَ، وَ بَعْضٌ نَجَا. لاَ يُبَشَّرُونَ بِالْأَحْيَاءِ، وَ لاَ يُعَزَّوْنَ عَنِ الْمَوْتَىٰ، مُرْهُ الْعُيُونِ مِنَ الْبُكَاءِ، خُمْصُ الْبُطُونِ مِنَ الصِّيَامِ، ذُبُلُ الشِّفَاهِ مِنَ الدُّعَاءِ، صُفْرُ الْأَلْوَانِ مِنَ السَّهَرِ. عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ غَبَرَةُ الْخَاشِعِينَ[٢]. أُولَئِكَ إِخْوَانِي الذَّاهِبُونَ. فَحَقَّ لَنَا أَنْ نَظْمَأَ إِلَيْهِمْ، وَ نَعَضَّ الْأَيْدِي عَلَىٰ فِرَاقِهِمْ. إِنَّ الشَّيْطَانَ يُسَنِّي لَكُمْ طُرُقَهُ، وَ يُرِيدُ أَنْ يَحُلَّ دِينَكُمْ عُقْدَةً عُقْدَةً، وَ يُعْطِيَكُمْ بِالْجَمَاعَةِ الْفُرْقَةَ، وَ بِالْفُرْقَةِ الْفِتْنَةَ. فَاصْدِفُوا عَنْ نَزَغَاتِهِ، وَ نَفَثَاتِهِ، وَ اقْبَلُوا النَّصِيحَةَ مِمَّنْ أَهْدَاهَا إِلَيْهِمْ، وَ اعْقِلُوهَا عَلَىٰ أَنْفُسِكُمْ[٣].

اللُّغَة:

مَلَّتْ: مِن المَلَل. والدَّوِيّ الصَّوْت، والمُرَاد بِهِ هُنا الدَّاء الشَّدِيد. ونَزَع الشَّيء

مِن مكَانه : قَلَعَه ، ونَزَع الدَّلو جَذَبهَا ، ونَزْعَة ؛ جَمع نَـازِع . والأَشْـطَانِ : الحِـبَال . والرَّكِيِّ : الآبَار . وَولَهاً : حِنُواً . واللِّقَاحِ : النُّوق الّتي تُحلب . ومُـرْهُ ـ بـضم المـيم ، وسكون الرّاء ـ جَمع أُمرَه أي فِي عَينه بَياض ، ونَحْوَه . وخُمْصُ الـبُطُونِ : بـطُونهم ضَامرة . ويُسَنِّي : يُسَّهل . والمُرَاد بنزْعَات الشَّيْطَان ، ونفثَاته ، وسوَسَته ، وتَزيينه . وَآعْقِلُوهَا : آحْبِسُوهَا .

الإِعْرَاب:

زَحْفاً نُصب علىٰ المَصْدَر أي يَزْحَفُون زَحْفاً ، وَمِثْله صَفّاً ، والتَّكرار للتَّأكِـيد ، ويَجوز النَّصب عَلىٰ الحَال أي زَاحفين وصَافِّين ، ومُرْهُ خَبَر لمُبْتَدَأ مَحْذُوف أي هُـم مُرْهُ ، والمَصْدَر من أنْ نَظْمَأَ فَاعِل حَقَّ ، وعُقْدَةً نَائب عن المَفْعُول المُـطلق أي حَـلَّ عُقْدَةً بَعد عُقْدَة .

المَعْنىٰ:

(أَللّهُمَّ قَدْ مَلَّتْ أَطِبَّاءُ هَذَا الدَّاءِ الدَّوِيِّ ، وَكَلَّتِ النَّزْعَةُ بِأَشْطَانِ الرَّكِيِّ) . لكُلّ دَاء دَواء إلّا العَمىٰ ، والهَوَىٰ ، ولذَلِك مَلّ الرَّاشدُون ، والنَّاصحُون وكلّوا من نَصح من أعمىٰ الجَهْل عُقُولُهُمْ ، وأمرضت الشَّهوات قُلُوبُهُمْ (أَيْنَ الْقَوْمُ الَّـذِينَ دُعُـوا إِلَـىٰ الْإِسْلَامِ فَقَبِلُوهُ ، وَ قَرَءُوا الْقُرْآنَ فَأَحْكَمُوهُ ، وَ هِيجُوا إِلَىٰ الْجِهَادِ فَوَلِهُوا ... إلخ) . . يَأسف الإِمَام ويَتحسر عَلىٰ أَيَّامه بَيْنَ الصَّفوة من إِخْوَانِهِ الَّذِين مَضوا إِلىٰ رَبّهـم ، وبَقِي بَيْنَ قَوم يَتنَافسون عَلىٰ العَاجلة ، ويَنسون الآجِلَةِ علىٰ عَكس إِخْوَانِهِ المَاضِين الَّذِين (لاَ يُبَشَّرُونَ بِالْأَحْيَاءِ ، وَلاَ يُعَزَّوْنَ عَنِ الْمَوْتَىٰ) أي لا يَفرحُون إذَا لَم يَسْتَشهِد واحد مِنْهُم ، وَلاَ يَحزنُون إِذَا آسْتُشْهِدَ ، لأَنّ الشَّهادة عِندهم هِي الفَوْز الأَعْظَم .

أما قَوْل الإِمَام عليه السلام: (مُرْهُ الْعُيُونِ مِنَ الْبُكَاءِ، خُمْصُ الْبُطُونِ مِنَ الصِّيَامِ، ذُبُلُ الشِّفَاهِ مِنَ الدُّعَاءِ، صُفْرُ الْأَلْوَانِ مِنَ السَّهَرِ. عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ غَبَرَةُ الْخَاشِعِينَ) فَقد نُظم فِي أبيات من قَصيدة لقُطب من عُلَمَاء البَحرين يَرثي سَيّد الشُّهداء عليه السلام. قَالَ رحمه الله:

خُمص البُطُون طوىً ذُبلٌ ظمىً ... عُمش العُيُون بُكاً ما غَبّها الكُحلُ
يُقَال مَرضىٰ ومَا بالْقَوْم من مَرضٍ ... أو خُولطُوا خبلاً حَاشَاهُم الخَبلُ
إنْ يَنطقُوا ذَكرُوا أو يَسكتُوا فَكرُوا ... أو يَغضبُوا غَفرُوا أو يُقطعُوا وصلُوا
أو يُظلمُوا صَفحُوا أو يُوزنُوا رَجحُوا ... أو يُسألوا سَمحُوا أو يَحكمُوا عَدلوا
وَلاَ يَلمُّ بِهِمْ مَن بِهِمْ مِن ذَنْبهم لَمَمُ ... ولاَ يَميلُ بِهِمْ عَن وِردهم مَيَلُ

(إِنَّ الشَّيْطَانَ يُسَنِّي لَكُمْ طُرُقَهُ، وَ يُرِيدُ أَنْ يَحُلَّ دِينَكُمْ عُقْدَةً عُقْدَةً، وَ يُعْطِيَكُمْ بِالْجَمَاعَةِ الْفُرْقَةَ، وَ بِالْفُرْقَةِ الْفِتْنَةَ). حَذر سُبْحَانَهُ فِي كِتابِهِ ٱلْكَرِيمِ من الشَّيْطَانِ، وَقَالَ: إنّه يُفسد، ويُضل، ويأْمُرُ بِالْفَحْشَآءِ، وَٱلْمُنكَرِ، ويُنسي ذِكر الله، ويُوقع العَدَاوة، والبَغضاء بَيْنَ النَّاس، ويُزين أعْمَال السُّوء، ويَصدُ عن سَبيل الحَق والخَيْر، ويُحرّف الدّين عن مواضعه، وإنّه عَدُوّ مُبين لله، ولِلإِنْسَان، وبَعد هَذا النَّعت ومَا إِلَيْهِ لعنهُ الله وأخْزَاه، ومَعْنَىٰ هَذَا أنّ كلّ مَن كَان فيهِ شَيء من هَذِه الصِّفَات فهُو عَدُوّ الله، والإِنْسَانية، وشَيْطَان لَعِين (فَٱصْدِفُوا عَنْ نَزَغَاتِهِ، وَ نَفَثَاتِهِ، وَ ٱقْبَلُوا النَّصِيحَةَ مِمَّنْ أَهْدَاهَا إِلَيْهُمْ، وَ ٱعْقِلُوهَا عَلَىٰ أَنْفُسِكُمْ) ٱبتعدوا عَن المُفسدِين الغُواة، وٱعْمَلُوا بنصَائح الْمُتَّقِين الهُداة، وٱنتفعُوا بِها، وَلاَ تَعرضُوا عَنْهَا: ﴿ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ وَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمْ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾[1].

مكتبة الروضة الحيدرية
الرقم: ٧٦٠٥٨
التاريخ:

(١) ٱلزُّمَر: ١٨.